بسم الله الرحمن الرحيم

تم رفع هذه المادة العلمية من طرف أخوكم في الله: خادم العلم والمعرفة (الأسد الجريح) بن عيسى قرمزلي. ولاية المدية

الجنسية جزائرية

الديانة مسلم

موقعي المكتبة الإلكترونية لخادم العلم والمعرفة للنشر المجاني للرسائل والبحوث على

www.Theses-dz.com

للتواصل: رقم هاتف 00213771087969

البريد الإلكتروني: benaissa.inf@gmail.com

حسابي على الفيسبوك: www.facebook.com/Theses.dz

جروبي: https://www.facebook.com/groups/Theses.dz

تويتر https://twitter.com@Theses_DZ

الخدمات المدفوعة

01- أطلب نسخة من مكتبتي



السعة: 2000 جيقا أي 2 تيرا !

فيها تقريبا كل التخصصات

أكثر من 80.000 رسالة وأطروحة وبحث علمي

أكثر من 600.000 وثيقة علمية (كتاب، مقالة، ملتقى، ومخطوطة...)

المكتبة مع الهرديسك بالدينار الجزائري 50.000.00 دج

المكتبة مع الهرديسك بالدولار: 500 دولار .

المكتبة مع الهرديسك بالأورو: 450 أورو

02-نوفر رسائل الأردن كاملة 20 دولار للرسالة الواحدة على https://jutheses.ju.edu.jo/default2.aspx

لا تنسوني بدعوة صالحة بظهر الغيب: ردد معي 10 سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

اللهم صل وسلم على نبينا محمد .... بن عيسى قرمزلي 2016.

جامعة الجزائر

معهد اللّغة العربية وآدابها .

النثر الأدبي الأندلسي
في القرن الخامس
(مضامينه وأشكاله)

أطروحة لنيل دكتوراه الدولة

تقدّم بها :

علي بن محمّد

أشرف عليها الأستاذ الدكتور :

محمود الربداوي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمـــة

عرفت الدراسات الأندلسيّة ، في العقود الأخيرة ، بعض التطوّر لـدى الباحثين العرب ، بعد أن كادت تكون ، مدّة طويلة من الزّمن ، حكرا على المستشرقين . وقد جاء هذا التطوّر في ركاب نوع من الاهتمام العامّ ببلاد المغرب والعناية بتاريخها القديم والحديث . وكان من أبرز آيات هذه العناية المستجدّة اقبال عدد متزايد من طلبة الجامعات العربية المشرقية بالذّات ، على اختيار موضوعات لبحوثهم تتصل بتاريخ المغرب والأندلس وآدابهما .

على أنّ الذي يستلفت الانتباه أنّ الباحثين في الميادين الأدبية منهم كانوا ميّالين كلّ الميل الى إيثار الشعر والشعراء على النثر وأهليه ، وهم يفضلون منهم ، على الأخصّ ، جماعة الاعلام المشاهير من أمثال ابن دراج ، وابن خفاجة ، وابن زيدون ، والمعتمد بن عباد ، ولسان الدّين بن الخطيب ، ومن اليهم . وقد أظهروا أيضا نوعا من العناية بأصحاب الموشحات والازجال .

وكأنّما استقرّت في أذهان الباحثين صورة للأدب الأندلسي ذات ملامح " رومنسية " تتّصل بجمال الطبيعة ، ووصفها ، والتغنّي بها ، ومكاشفتها . . . فجاء إقبالهم الواضح على الشعر امتدادا لعنايتهم بتلك الصورة ، فهم عاكفون على تدقيق رسمها ، وتحقيق المزيد من نموذجها .

أمّا النثر فكان ، وما زال ، قليل الحظّ من هذه العناية ، لم ينل ماهو أهل له من الاهتمام ، لا في مؤلفات التاريخ العامّ للأدب ، حيث نجده يحتل دائما الصفحات القليلة الأخيرة منها (1) ولا في كتب الدراسات الافرادية

(1) من ذلك مثلا كتاب : " تاريخ الأدب الأندلسي " (عصر الطوائف والمرابطين) لاحسان عباس حيث نجد الحديث عن النثر يستغرق نحو 46 صفحة من كتاب في 397 صفحة (من 280 الى 326) ومنه أيضا كتاب عبدالعزيز عتيق " الأدب العربي في الأندلس " الذى لم يستغرق فيه الحديث عن النثر ، في جميع عهود التاريخ الأندلسي إلا 72 صفحة من مجموع 500 . (من 429 الى 499) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذ لا نجد الّا القليل النّادر منها يتناول النثر وأعلامه . ولعلّ أكثر هؤلاء حظّا ، وأوفرهم نصيبا من الدرس هم أولائك الذين أبدت كتب التراجم المشرقية القديمة عناية بهم من أمثال ابن زيدون (1) أو أولائك الذين كان لعملهم وقع ما على الحياة الأدبية ، كابن شهيد الذى ثار من الجدل ما ثار حول رائعته " رسالة التوابع والزوابع " حين ظُنّ متأثرا فيها بتحفة أبي العلاء المعرّى : " رسالة الغفران " . ثم استقر الرأى بصفة نهائية ، على أن أبا عامر كان أسبق الى تأليف رسالته من أبي العلاء ، وأنه تقدمها بسنوات طويلة . . . وربما أضفنا الى كل ذلك نوعا من العناية بالأديب الفقيه أبي محمد بن حزم ، لما له من منزلة في سياق الدراسات الاسلامية ، ولمكانته من المذهب الظاهرى بالذات الذي كان أحد أقطابه في الأندلس .

ولقد كان يحيّرنا دائما سؤال ممض هو : أليس للأندلس من الأدب النثرى الّا هذه النماذج اليسيرة التي ذكرنا بعض أصحابها ؟ وهل يمكن أن لا تكون فيها حركة أدبية نثرية نامية توازى الحركة الشعرية وتواكبها ؟

ثم أتيح لنا أن نشتغل بأبي الحسن بن بسام منذ أكثر من عشر سنوات وأن ندرس عمله ومنهجه في كتابه الضّخم " الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة " ، فاذا بنا نكتشف أن الأدباء الأندلسيين قد أنشؤوا نثرا كثيرا ، غزير المادة ، في قرن واحد ، هو القرن الخامس ، وأنه لا يقل في أغراضه ، ولا في تنوع أشكاله ، ولا في عمق معانيه ، ولا في جمال مبانيه عما نظمه الشعراء من القريض . ولما كانت طبيعة مباحثنا وقتئذ لا تقوى على الاتّساع لتشمل هذه الاهتمامات ، فقد كنّا نمني

(1) وقد بلغ من عنايتهم بابن زيدون مثلا أن شرح رسالتيه عالمان من علماء القرن الثامن ، فان صلاح الدين الصفدى المتوفّي سنة 764 هـ ، قد شرح " الرسالة الجدية " وسمّاها : " تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون " وابن نباتة المصرى المتوفي سنة 768 هـ ، شرح " الرسالة الهزلية " التي سخر فيها ابن زيدون من غريمه في ولادة : ابن عبدوس وسمّاها : " شرح العيون في رسالة ابن زيدون " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النفس بالتفرّغ ذات يوم لدراسة ذلك النثر دراسة تفصيليّة ، والوقوف عند أقصى مايمكن من حقائقه ، الى أن منّ اللّه بذلك ، ويسّر لنا أن نعيش هذه السنوات الخمس في صحبة أولائك الفضلاء النابهين من أعلامه ونوابغه ، وكانت ، والحمد للّه ، صحبة ممتعة للغاية . . .

ولقد أدرنا هذا البحث على ثلاثة أبواب جاءت كما يلي :

الباب الأول منها : أفردناه الحديث عن الحياة السياسية والثقافية ، وقد درسنا في البداية الظروف التاريخية التي عصفت بالبلاد الأندلسية في سنوات قليلة ، ونقلت أهلها من القوّة والعزّة والتئام الشمل ، الى الضعف والمذلّة ، والشتات والخضوع لأعدائهم من النصارى الاسبان وحلفائهم من الأوربيّين . وقد درسنا المسيرة التي سلكتها الأحداث الجسام التي انتهت الى انفراط عقد الجماعة ، وقيام الكيانات السياسية الهزيلة التي حكمها من عرفوا "بملوك الطوائف" . ثم درسنا في الفصل الثاني من هذا الباب الحياة الثقافية في أندلس القرن الخامس ، وحاولنا أن نبيّن على الأخصّ ، فصول الواقع السياسي وآثاره في الحركة الأدبية . وختمنا هذا الباب بفصل قصرناه على مسيرة النثر الأندلسي منذ الفتح الى مطالع القرن الخامس ، وكان لابدّ لنا أن نعرف الى أين أنتهى النثر الأدبي في تطوّره عبر القرون ، قبل أن نأخذ في بيان الملامح التي اكتسبها في القرن الخامس ، الذى هو موضوع هذا البحث .

والبابان التاليان جعلنا كلّا منهما ميدانا لدراسة تطبيقية موسّعة . فقصرنا أحدهما على دراسة المضامين ، وقصرنا الآخر على دراسة الأشكال الفنية . وقد واجهتنا في الحالتين مشكلة استعمال المصطلحات . وهي التي تنطوى في الواقع على مسائل ترجع الى المنهج ، وطرائق الدراسة ، أكثر من مجرّد استخدام هذه الكلمة أو تلك . . . فكان علينا أن نختار بين اعتماد الشائع منها ، الذائع الاستعمال ، مع التضحية بدلالات منهجية ذات أثر بعيد

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في فهم الفنّ الأدبي وتقويمه ، وبين التشبّث بتلك الدلالات مع التفريط في خطّة دأب الدّارسون على التزامها ، والسير في دروبها . وباختصار شديد ، فقد كان علينا : إمّا أن لا ندرس في الأغراض الأدبية المتنوعة التي غطّاها النثر الأندلسي في هذا القرن ، إلّا الجانب الديواني ، والجانب الاخواني ، كما اعتاد الدّارسون أن يفعلوا عندما يعرضون لأدب الأندلس أو غيرها . . . وإمّا أن ننطلق من فكرة التوزيع الدقيق للمضامين حسب وظائفها ومراميها ، وإن أدّى بنا ذاك الى مجافاة التقسيم الشائع . وقد اخترنا ، بلا تردّد ، الأسلوب الثاني في العمل ، لأنه هو الذي يتيح لنا إحداث وحدات من الأغراض منسجمة المصادر والموارد .

وهكذا كان لنا في الباب الثاني أربعة فصول ، دار كلّ واحد منها على مجموعة محاور تؤلّف فيما بينها وحدات فرعية ، وأغراض ثانوية ، تتّسم بنفس الانسجام الذي توفّر لأصولها .

من ذلك أن الفصل الأوّل هو الذي خصّصناه لدراسة الانشاء الديواني الرسمي ، الصادر عن السادة الحاكمة ، وقد تبيّن لنا أنه تناول التعبير عن أنواع من العلاقات التي يقيمها الحكّام مع الأطراف المتعاملة معهم . منها العلاقات السلطانية وهي التي تشبه ما يعرف اليوم بالاتصالات السياسية والدبلوماسية ، ثم العلاقات الادارية وهي التي تتناول الجانب الاداري والتنظيمي ، والتشريعي ، ثم العلاقات الشعبية وهي التي تتمّ التعبير عنها بأضرب من العهود ، والعقود والبلاغات وما الى ذلك .

ودرسنا في الفصل الثّاني المبادلات الاجتماعيّة ، وهي التي ينصبّ الأدب الذي أنشئ فيها على المجاملات ، وما يكون بين أفراد المجتمع البشري من ألوان التضامن ، والتعاضد المعنويين ، مما تلوح بعض مظاهره في الصداقة ، وتبادل الهدايا ، وتقديم التهاني والتعازي ، والتعبير عن السخط أو الغضب عند التقصير في تلك المجاملات ، أو عدم الوفاء برسومها التقليدية ، ممّا قد ينشأ عنه العتاب الذي قد يتطوّر الى أنواع من الهجاء . . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم درسنا في الفصل الثالث ما سمّيناه الأدب التوسّلي ، وهو ضرب من الانشاء ، متميّز الخصائص ، غزير المادّة ، مستّسع الأبعاد ، تلتقي نماذجه كلّها عند معنى من معاني الاستعطاف ، والتقرّب من الموسرين : حكاماً وأعيان جاه وثروة ، والاستشفاع لديهم . وقد تجلّت في نصوص هذا الأدب الظروف الخانقة التي كانت تكتنف حياة الناس ، والانقلابات الماثلة التي تحدُث في أوضاعهم ، فينتقلون بين عشية وضحاها ، من اليسار والنعمة والرخاء الى العسر ، والضيق ، وألوان من الكآبة والبؤس ، وقد فرّوا تاركين وراءهم كل مظاهر عيشهم الرغيد ، عندما كانت تتهاوى مدن الأندلس وحواضر ملوكها ، الواحدة بعد الأخرى ، كما تأفل النجوم في أخريات الليل البهيم . . .

وختمنا هذا الباب بأنواع من النثر ، متباينة المحتوى ، ولكنها ذات وظائف متقاربة ، يُوحّد بينها ، في هذا السياق ، طابعها الاستعراضي الذي يعكس الكثير من الاهتمامات الفكرية ، والدينية ، والسياسية ، لأدباء هذا العصر ، ويمثل مظهرا من مظاهر جنوح النثر الى تجاوز أغراضه التقليدية ، والنهوض بوظائفه التعبيرية الجديدة .

ثم أخذنا في اجراء الدراسة التطبيقية ، لأشكال النثر ، وقوالبه الفنية ، وقد صادفنا فيه من أمر التمييز بين أجناسه ، واستعمال المصطلحات المناسبة له ، ما صادفنا في الباب الأول ، وكنّا مخيّرين — مرة أخرى — بين أن نقف عند حدود الظاهر السطحي ، فلا نرى في جلّ ذلك النثر الّا شكلا متكررا من الرسائل ، والصيغ الترسّلية ، وبين أن نخترقها الى ما وراءها من الأشكال التي تدلّ عليها أساليبُها وفنيّاتها الواضحة فيها . وقد كان ميلنا بطبيعة الحال الى الطريقة الثانية ، فبدا لنا أنّ النثر في هذا العصر ينقسم الى قسمين رئيسين أحدهما يجمع بين طوائف من النثر التخاطبي ، والثاني تندرج فيه كل الأجناس ذات الطابع القصصي . وهكذا كان لنا الفصلان الأوّلان من هذا الباب ، وقد تناولنا في الأوّل منهما الصيغ التي يهدف أصحابها الى نقل

الانفعالات ، أو بسط الآراء ، أو شرح المواقف ، أو ردود الفصل . . . وكان لنا من أشكالها : الرسالة ، والمقالة ، والتقرير والاعلان ، والمراجعة ، والمعارضة والمناقضة . وقد ساعدتنا هذه المصطلحات — وبعضها قديم كما هو واضح — على دراسة خصائصها ومميزاتها الفنية . وفي الفصل الثاني فعلنا مثل ذلك مع الأشكال ذات الطابع القصصي فميزنا فيها بين المقامة، والحوارية، والدعابة ، والحكاية الرّمزية والأحدوثة . . . وقد حاولنا أن نبيّن بناءها الروائي وقيمتها القصصية .

وأخيرا، وبعد الدراسة العمودية للشكل الفنّي ، التي مكنتنا من معرفة الخصائص الفردية لكلّ جنس من هذه الأجناس، أدرنا الفصل الأخير على مبادىء الدراسة الأفقية التي تستجلي بواسطتها طبيعة النسيج الفنّي الذي يرتكز عليه النثر الأدبي ، بقطع النظر عن الشعبة التي ينتمي إليها، فوقفنا عند الكثير من خصائصه التعبيرية ، ودرسنا طبيعة تراكيبه ، وجوانبها الموسيقية ، وابعاد الصورة فيها ، وختمنا كلّ ذلك بوقفة قصيرة عند نموذج من الآراء التي أبى فيها أصحابها أن يروا في الأدب الأندلسي كلّه ، إلاّ ترسّما لخُطى أدباء المشرق ، ومحاكاة لما يصدر عنهم . وقد حاولنا أن نبيّن أنّ التساؤل عن الأصالة الأندلسية من هذه الزاوية ، عمل غير منهجي ، لأنّ الأندلس جزء من ذلك الكلّ الذى لا حقيقة لوجوده الا بأجزائه كلها . فلماذا نحصر هذا المعنى المشبوه للأصالة في الأندلس وحدها ؟ وهي التي حملت أعظم معالم هذه الأصالة الى أبعد نقطة في الغرب، حتى اذا قُضي عليها سرت نفحاتها المُسَطّرة تغزو لغةَ القوم المتغلبين ، وآدابَهم ، وعلومَهم ، وكثرةً كثيرةً من أنماطِ معيشتِهم ، وأساليبِ حياتهم .

وبعد ، هذه خُطوات عملنا في هذا البحث ، وتلك دعائمه التي أقمنا عليها بناءه ، وقد ظلّ يلازمنا فيه احساس غامر بأننا نرتاد طريقا لم تعبّده أقدام السالكين ، ولم تمهد لنا السير فيه تجارب السابقين ، فكان علينا ، في أغلب الأحوال ، أن لا نعول الاّ على النصوص الأدبية ، نشدّد في استنطاقها ، لنستخرج منها كل ما تنطوي عليه من الأسرار . ولعلّ الذي باعث لنا به

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منها يصلح أن يكون علامات بارزة على هذا الدّرب الطّويل تغري بالسير فيه ، وتستفز الباحثين الى مزيد من السعي للكشف عن كنوز فردوسنا المفقود .

وانه ليسعدنا حقّا ، ونحن نصل بهذا الجهد الى غايته أن نعرب عن جزيل الشكر ، وفائق آيات الاعتراف بالجميل الى أستاذنا الدكتور محمود التَّربْدَاوي الذى وجدنا من تفهّمه ، وصبره ، وثقته ما سهل لنا هذا العمل ، وجعل القيام به تحت إشرافه الكريم متعة لا تنقضي إذ تمتزج فيها هيبة العلم الرصين ، بدواعي الودّ المكين .

كما نودّ أن نعرب عن أخلص شكرنا لاخوان لنا كرام ، في المكتبة الوطنية ، هيئوا لنا من الظروف المريحة فيها ، وأتاحوا لنا من وسائل الافادة السريعة من رصيدها ، ما كان له نعم الاثر في نفوسنا ، وفي عملنا .

ثم لايفوتنا أن ننوّه أيضا بفضل أولائك الا صدقاء الذين بذلوا لنا أقصى ما بإمكانهم من العون لا خراج هذا البحث في الشكل الذى هو عليه .

فجازى الله الجميع عنا كلّ خير ، واللّه لايضيع أجر المحسنين .

علي بن محمّد

الجزائر في 18 فبراير 1986 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الأول

الحياة السياسية والثقافية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

البيئة السياسية في الأندلس

(كرونيات الأحداث التي أدت الى اندلاع الفتنة ، وانهيار الخلافة الأموية ، ثم الى قيام ممالك الطوائف وظهور المرابطين) .

٢٨٤٤٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول : الهيئة السياسية .

اعتبارات منهجية :

لعله يحسن بنا - قبل الدخول في صميم الموضوع - أن نشير الى أننا نريد أن نتناول الحديث عن كبريات القضايا السياسية ، التي كان لها أكبر الأثر على مجرى الحياة العمومية من أواخر القرن الرابع ، الى أواخر القرن الخامس ، في ضوء ثلاثة اعتبارات منهجية ، نوضحها فيما يلي :

أ - **الاعتبار الأول** : انه ليس من شأننا في هذا الفصل أن نؤرخ للأحداث السياسية كما يفعل الدارس المتخصص في التاريخ ، ولا أن نقف عند التفاصيل وقفة من يريد أن يستقصي الحوادث **أولا** بأول ، ويسرد أنباء الوقائع الحربية ، والفتن ، والمؤامرات ، ويفحص على كل ذلك ، وأسبابه ، ونتائجه القريبة والبعيدة . وانما قصدنا في سوق ما نسوق من أخبار التاريخ هو التمهيد لدراستنا الأدبية ، بمدخل عام ، كاف ، نستجلي من خلاله ملامح الصورة التي يستقيم لنا من مجموعها عناصر تمام الأجزاء ، متكاملة المراحل .

اننا بعبارة أخرى ، نريد أن نسلسل الحوادث التي تصلح أن تكون لنا "خلفية" عامة للفنون الأدبية التي ازدهرت في هذا العصر الذي نؤرخ له ، فتضيء لنا جوانب من محيطها العام ، وتجلو لنا سياقها الظرفي و ترشدنا الى معرفة انتماءات أصحابها ، وتعيننا في النهاية على فهم كثير من المواقف والنفسية ، وتفسير بعض الظواهر الأدبية ، وكل ذلك ذو قيمة مؤكدة في ربط الانتاج الأدبي بملابسات محيطه التي أملته ، أو تدخلت في تكوينه ، ولاسيما في هذه المرحلة الحاسمة ، التي عرفت فيها الأندلس تحولات عظمى كانت لها - في كل الميادين - أعمق الآثار وأخطر النتائج .

ب - **الاعتبار الثاني** : اننا نريد أن نسد منظورنا الى الحقبة بهذه الجوانب التاريخية ، ليس لصلة الأدب عموما بمحيطه السياسي فحسب ، بل لأن جزءا معتبرا من الفنون النثرية - التي هي موضوع هذا البحث - انما نشأ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في أحضان السياسة ، ربما في ظلها ، واتخذ من حوادثها الكبرى مواقف متباينة ، اتسمت تارة بالتضامن والتأييد ، وتارة أخرى بالمعارضة والرفض .

ولعلنا لسنا في حاجة الآن الى التطويل في بيان أبعاد هذه الحقيقة ، ما دمنا سنتناولها في مكانها بالتفصيل ، ويكفي أن نذكر منذ الآن ، بأن معظم أعلام النثر في أندلس القرن الخامس ، وعددا من ألمع ممثليه ، كانوا ممن يعايشون الأحداث السياسية ويتفاعلون بها ، لأنهم كانوا يتبوأون من سلم السلطة آنئذ أعلى درجاته ، فكانوا الوزراء المقدمين في البلاطات ، والساسة المتحكمين في دواوين الدولة ، حتى لقد أتى على البلاد حين من الدهر لا يُسوى فيها ملك يستوزر الا من طال باعه في الكتابة ، ولا يُروى رجل يطامح الى الوزارة ، ويمني نفسه ببلوغ مراتبها العلية ما لم يكن وافر السهم في التصرف بأساليب الكتابة ، ما هو التصوف في شتى فنونها .

ج — الاعتبار الثالث : ان ما يعتور المجتمعات الانسانية من تغيير وتحول ، في هذا الميدان أو ذاك ، لا يكون ، في الغالب ، الا وليد سلسلة طويلة من الحوادث ، بعضها بارز ، تسهل معاينته ، وبعضها الآخر كامن ، خفي ، تستعصي ملاحظته ، فلا يلمح الا وقد اكتملت عدته ، واتضحت مسيرته عبر الأحقاب والسنين . وهكذا فان الحادثة البارزة التي تبلغ حدا يستلفت الانتباه في تاريخ معين ، لا نفهم وجوه حقائقها الا بالرجوع سنوات عديدة الى الوراء حيث يعثر الباحث المتأني على جذورها الأولى ، وأسبابها الدفينة .

من هذا المنطلق ، فاننا نرى أنفسنا مضطرين ، في هذا الفصل ، الى بدء حديثنا من أخريات القرن الرابع ، وبالتحديد من ثلثه الأخير ، الالمام بأهم التصرفات السياسية الخطيرة ، التي كانت ذات وقع حاسم في توجيه الظروف نحو الانهيار العام الذي وقع في السنة من الأخيرتين من القرن الرابع ، والذي كانت أدت بتأثيره المباشر الى تغيرت حركة الأندلس السياسية تغييرا جذريا شاملا ، منذ بداية القرن الخامس .

انطلاقاً من هذه الاعتبارات ، وحرصاً على التقيد ببلورة أمهات الأحداث السياسية في الفترة المؤرخة ، فاننا نديرهذا الفصل على المحاور التالية :

1 — مسيرة القضاء على رسم الخلافة الأموية في الأندلس .
2 — اندلاع الفتنة ، وتصدع وحدة الجماعة .
3 — دوامة الاضطرابات التي أدت الى انهيار السلطة المركزية .
4 — قيام الكيانات الاقليمية تحت سلطة " ملوك الطوائف " .
5 — تعاظم النفوذ المسيحي ووعي المسلمين بالخطر الداهم .
6 — عبور المرابطين والقضاء على السيادة الأندلسية .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : مسيرة القضاء على رسم الخلافة

من أعجب مفارقات التاريخ أن واحدا من أحسن خدام الدولة الأموية، وأذكى رجالها، وأعظم قادتها، الذي بلغت الأندلس في أيامه من العز والسؤدد مبلغا لم يسبق له نظير، ووصلت راية الاسلام في عهده الى حيث لم تصل قبل ذلك أبدا، قد اختاره القدر ليكون أول زارع لبذور انهيار تلك الدولة، وزوال معالم ذلك المجد. انه المنصور بن أبي عامر (1) الذي ما لبثت البلاد بعيد وفاته — أن جنت من تصرفاته شر الثمار، فانهار ملك بني أمية، وتصدعت وحدة الجماعة، وانقلبت حال المسلمين، في ظرف وجيز، من نصر الى انهزام، ومن قوة الى ضعف، ومن عز إلى مذلة، فكيف انقلبت الأوضاع على هذا النحو، من النقيض الى النقيض ؟

لقد مرت مسيرة القضاء على هيبة الخلافة الاموية، بفعل تصرفات حجاب الدولة بثلاثة أدوار :

1 — الدور الأول : عهد المنصور بن أبي عامر :

عندما توفي الحكم الثاني (المستنصر) (2) عام 366، كان ولي عهده، وولده الوحيد : هشام، في الحادية عشرة من عمره. وقد فكر الصقلبيان جؤذر وفائق (3) — وهما أقرب المستخدمين الى الخليفة الحكم، حتى أنه مات بين أيديهما، فلم يعلم أحد غيرهما بوفاته — فكرا في تولية المغيرة — أخي الحكم الثاني — الخلافة، على أن يستبقي هشاما في ولاية العهد، ويمهد له السبيل ليخلفه بعد وفاته. ولم يكن هذا التدبير كيدا لهشام، ولا تآمرا عليه، وانما كان ذلك اشفاقا عليه، وخوفا من أن يغدو لعبة — وهو الطفل الصغير — في أيدي كبار الوزراء، يمضون باسمه ما يشاؤون من الأمور.

---

(1) المنصور بن أبي عامر : حاجب الخليفة هشام المؤيد الذي انفرد بالحكم دونه، وتصرف في الدولة تصرف الملك الحقيقي. وفيما يلي حديث مفصل عنه وعن دولته وأولاده.

(2) الحكم المستنصر وهو الحكم الثاني : ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر، حكم من 350 الى 366 هـ. وانظر ما كتبناه عنه في الفصل الثاني من هذا الباب.

(3) صقليان من أقرب خدام الخليفة الحكم الثاني الى نفسه، وأوسعهم نفوذا في دولته.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان أكبر خوفهما على ابن سيدهما من الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي [1]، ولذلك جدّا في الأول الى استدعائه واغتياله ، ثم فضّلا أن يعرضا الأمر عليه ، فلعله يباركه ويزكيه .

جاء المصحفي الى القصر، فأعلم بوفاة الخليفة ، واستمع الى خطة الصقلبيّين بدهشة كبيرة استطاع أن يخفيها عليهما ، وأظهر لهما مطلق التأييد والموافقة على الرأي الذي ذهبا اليه . ولكنه ما إن خرج من القصر حتى دعا وزراءه وأنصاره الى اجتماع عاجل ، أخبرهم فيه بما يُدبّر من تولية المغيرة ، وذكّرهم بأن هذا الرجل يكرههم ، وأنهم لن يحافظوا في عهده على مناصبهم ، وربما تعرضت حياتهم للأذى . وما هو الا أخذ ورد حتى وقع الاجماع على حسم الشر بقتل المغيرة . ولكن لم يتطوع من الحاضرين للقيام بهذه المهمة الا رجل لم يعرف بسابقة اشتغال بالحرب ، ولا عناية بشؤون السلاح . كان المتطوع الوحيد هو ذلك الفتى الذي اسمه محمد بن أبي عامر ، والذي بدأ نجمه يسطع في الأفق ، منذ أن اقترحه الحاجب المصحفي على الخليفة الحكم ليكون مشرفا لأموال ابنه عبدالرحمن [2] ثم تدرج في المراتب الادارية حتى عين على دار السكة ، ثم ظل بعد ذلك يتسع نفوذه ويعلو شأنه ، منذ أن ربط علاقة حميمة بالسيدة صبح زوجة الخليفة ، وأم ولي عهده .

ذهب ابن أبي عامر في قلة من الرجال الى دار المغيرة فوجده لا علم له بموت الخليفة ، ولا بخطة جوذر وفائق ، فعز على ابن أبي عامر أن يقتل فتًى بريئا في السابعة والعشرين من عمره ، يبدي أتم الاستعداد للدخول في الطاعة . فراسل المصحفي في هذا الموضوع ، ولكن جوابه له كان : اما أن تقتله ، واما أن نرسل اليه من يقتله غيرك ، فلم يكن بد من قتله ... [3]

---

(1) جعفر بن عثمان المصحفي حاجب الخليفة الحكم وقد قضى عليه المنصور ابن أبي عامر كما سيأتي بيانه .

(2) عبدالرحمن : هو أخو هشام الأكبر ، وقد توفي في الخامسة من عمره .

(3) تفاصيل هذه الحوادث في الذخيرة لابن بسام 4/1 ص 53 وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج 2 ص 260 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربح المصحفي هذه الجولة الأولى في الصراع على الحكم ، فبويع هشام المؤيد بالخلافة ، ولقب المؤيد [1] ، وصدر عنه في اليوم التالي قرار بإبقاء المصحفي حاجبا لدولته ، كما صدر عنه — بتحريض من أمه صبح — قرار بتعيين ابن أبي عامر وزيرا .

كان المصحفي شخصية ضعيفة ، كثيرة التردد ، تخشى مواجهة الصعاب ، فكان وزيره ابن أبي عامر هو الحاجب الحقيقي ، وهو المدبر لكل شؤون المملكة . وكان قد بدأ يقوى عليه شيئا فشيئا بما أوتي من دهاء ، وبما له من علاقة مع صبح التي كانت الوصية الفعلية على الخليفة الصغير .

ما هي الا سنة مضت على بيعة هشام حتى كان المصحفي قد بلغ غاية الضعف من تغلب ابن أبي عامر عليه . ولم يكن هذا عاجزا عن تنحيته وانما كان يريد أن يجمع له كل ما يستطيع من ضروب الاهانة ، وكان يريد أن يصرف عنه كل من يشفق أو يعطف عليه من أنصاره السابقين وصنائعه الذين أوصلهم الى أعلى مراتب الوزارة . وما أن تهيأ له ذلك حتى استصدر من الخليفة الصغير أمرا بتنحية كل آل المصحفي عن مناصبهم في الدولة واستصفاء أموالهم . وآلت الحجابة الى ابن أبي عامر ، فتلقب بالمنصور ، وشرع في ادارة المملكة بيد من حديد . وقد بدأ باذاقة المصحفي أفظع أنواع الاهانة ، فأودعه السجن الرهيب الذي يعرف " بالمطبق " ، ثم حاكمه في مجلس الوزراء الذين طالما عنه ، وتنكروا له منذ أن بدت لهم علامات نهايته ، فوجهت اليه تهمة الخيانة وتبذير الأموال ، وأعيد الى " المطبق " ، وكان نزوله في " دار البراغيث " منه ، وبقي فيه الى أن مات [2] ، وقيل ان المنصور قد كان ممن دس له السم في شرابه ، وقيل بل اغتيل خنقا ... [3]

---

(1) كانت بيعة هشام المؤيد في الرابع من صفر سنة 366 .

(2) مات المصحفي سنة 367 ، أي بعد نحو سنة من موت الحكم الثاني ومبايعة ابنه هشام .

(3) انظر المزيد من تفاصيل محنة المصحفي ، وما قال شعرا من شعره ، وكيفية موته في " البيان المغرب " لابن عذارى 370/2 .

وهكذا انتهى الشوط الأول من مسيرة المنصور نحو التفرّد بالحكم . وقد حاول جماعة من أنصار المصحفي أن يثوروا عليه ، وأن يبايعوا عبدالرحمن بن عبيدالله .. من أحفاد عبدالرحمن الناصر — بالخلافة بعد أن يقتلوا هشاما المؤيد ، ولكن المنصور كشف المؤامرة ، فقبض على المتآمرين وقتلهم جميعا .

لم يبق للمنصور من يستشعر منه الخطر إلا هشام المخدور . وعلى الرغم من أنه مطمئن الى أنه لن يصدر عنه ما يمكن التخوف منه ، ما دامت أمه صبح في القصر ، فانه مع ذلك بدأ في تنفيذ الشطر الثاني من مخططه وهو الذي ينطوي على البذور التي تؤدي شيئا فشيئا الى اهدار حرمة الخلافة ، وتفضي في النهاية الى تمزيق البلاد شر ممزّق .

اغتصاب السلطة ، وسجن الخليفة في قصره ..

أحكم المنصور ضرب العزلة على هشام المؤيد ، فأقصاه عن جميع شؤون الدولة ، وجرّده من جميع مراسم السلطة ، وأبقاه في قصره سجينا لا ينفذ له أمر حتى على خدامه وأهل بيته . ولم يعد شيء يذكّر بوجود أمير المؤمنين الا اسمه المضروب على السكة ، والدعاء له على المنابر . وقد كان المنصور يحرص كل الحرص على أن لا تكون لأيّ إنسان صلة بالخليفة ، فبث العملاء والجواسيس في قصره ، فكانوا يراقبونه بكل ما جلّ ودق من تحركاته . بل انه قد اتخذ من الاحتياطات ما لا يخطر على بال ، اذ حصّن منافذ القصر ، وأحاطه بسور ، وأدار عليه خندقا من جانبيه ، ورتب عليه الحراس والسمار والمناوبين ، حتى غدا القصر قلعة حصينة لا مطمع في الظفر بها (1) .

وقد سعى المنصور الى اكتساب عطف العامة بشيئين : أولهما الأمن الذي نشر أسبابه حين بالغ في عقاب كل من يمدّ يده الى الناس بسرقة أو باجرام ، وثانيهما توفير أسباب الانتصار لراية الاسلام على الأعداء التقليديين في الشمال المسيحي ، فكان يقود بنفسه حملتين في العام : حملة الشتاء ، وحملة

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في " البيان المغرب ... " 2/373 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصيف ، فيتوغل في أقصى أراضي النصارى ، فيخرب عمرانها ، ويتلف مزروعاتها ، ويعود جيشه الظافر محملا بالغنائم ثم تتبعه جحافل الأسرى والسبايا . ولقد قاد المنصور سبعا وخمسين غزوة من الصوائف والشواتي ، وانتصر فيها كلها " وبلغ غاية لم يبلغها مسلم قبله " (1) . وإذا لك أضحى المنصور في عيون الناس بطلا فذا من أبطال الاسلام . وكان هو يجني من هذا الاجلال والتقدير مزيدا من التوسع في اغتصاب السلطة .

وهكذا ، بعد أربع عشرة سنة من توليه الحجابة ، عيّن ابنه عبد الملك (2) حاجبا ، وتخلى له عن كل ألقاب الحجابة التي كانت تصرف اليه ، كالقيادة العليا للجيش ، وعين ابنه الثاني عبد الرحمن (3) وزيرا ، وكل ذلك سنة احدى وثمانين بعد المائة الثالثة (381) .

ان المعنى الوحيد لهذه التصرفات أن المنصور لم يعد يرى في الحجابة لقبا ولا وظيفة مناسبين لمقامه ، وهو بتخليه عن من يحجبه قد رقّى نفسه الى مرتبة الملك بدون جدال . وقد كان له من حسن التقدير لهذه التدابير السياسية ما جعله يهيئ نفوس الناس للخطوات التالية بحيث أثر في أذهانهم أنه في مرتبة الملوك ، وان لم يتلقب بعد بهذا اللقب . وقد أقبل فعلا على شيء من هذا التبجيل حين أمر الناس سنة 386 بـ " تسويده من بين الناس كافة " أي بقصر لقب " السيد " عليه " وخوطب منذ الوقت بالملك الكريم ، واستبلغ في تكريمه وتعظيمه " وكان الناس " يمولونه " (4) ويقبلون يده ، كما تقبل يد الملوك ، لا يأنف من فعل ذلك حتى أمراء البيت الاموي وشيوخه (5) .

وخلاصة القول أن المنصور بدأ في عهد هشام وزيرا ملحقا بالحاجب المصحفي ، وانتهى ملكا له حاجبه في ظل خليفة لا وجود له ولا سلطة ،

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في " البيان المغرب . . . " 2/296 .
(2) عبد الملك هذا هو الذي سيخلف أباه ويتلقب بالمظفر بالله .
(3) عبد الرحمن هو الابن الثاني للمنصور ، سيخلف أخاه المظفر ، وفي عهده تندلع الفتنة .
(4) يمولونه أي يدعونه " يا مولاي " .
(5) تفاصيل ذلك في " البيان المغرب . . . " 2/294 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكنه مع ذلك لم يلغ رمز الخلافة من الناحية الشكلية ، فكتب المنصور بعد غزو النصارى ، توجه الى الخليفة وتقرأ على الملا ، وظل اسم أمير المؤمنين يدعى له على المنابر . ويبدو أن ما استبقى عليه المنصور من هذا الرمز الشكلي لا يغير شيئا في أنه كان أول من وجه الظروف بقوة نحو ذلك الانفجار الذي وقع في عهد ابنه عبدالرحمن . ولكن الدور الثاني في هذه المسيرة قد كان في عهد ابنه الأول : عبدالملك .

2 — الدور الثاني : عهد عبدالملك المظفر .

توفي المنصور بن أبي عامر سنة 392 ، فلم يحتج ابنه الى مراسم خاصة لتولي منصب الحجابة ، خلفا لأبيه ، اذ كان قد عينه فيه — كما رأينا — قبل ذلك بسنوات طويلة ، وانما اتخذ اللقب الرسمي فعرف بالمظفر بالله .

كان المظفر رجلا حازما ، حسن التدبير ، سار سيرة أبيه فتمكنت هيبته من النفوس ، وقد فهم أن جانبا كبيرا من تقدير الناس لأبيه ، واجلالهم اياه ، جاءه من انتصاراته الكثيرة على النصارى . ولذلك ، فما أن مضت على موت أبيه شهور قليلة حتى تجهز للغزو ، فتوغل في أقاصي بلاد برشلونة ، واستباحت فيها جيوشه تلك الحصون وتحصن في العدو وقد وطئ تلك "أرض لم تسر الاسلام قبل"[1] ، فكانت بعد ذلك تأتيه ملوك النصارى خاضعة طائعة ، يعرض عليه خلافاتهما ، وترضى بحكمه فيهما .[2]

ولعل أهم ما حفظه عن أبيه : التدرج بالناس على طريق إعدادهم لتقبل القرارات التي تحدث تغييرا لما ألفوه . وهكذا عمل على توليد صورة البديل الاسلامي في أذهان الناس ثم أخذ أن يتخذ من الألقاب ما يميزه عن كل الحجاب الذين سبقوه ومنهم والده المنصور . فبعد أكثر من خمس سنوات من تلقيبه بالمظفر ، عقب موت أبيه ، اتخذ لقبا ثانيا هو "سيف الدولة"

---

(1) انظر أخبار غزواته في البيان المغرب ، الجزء الثالث ، من ص 3 الى ص 37 .
(2) انظر خبر احتكامها اليه في البيان المغرب 3/10 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فصارت مخاطبته الرسمية هي : " المظفر سيف الدولة " ، ثم لم يكتف بهذا حتى وزّر لابنه الغلام : محمد ، بل عينه في منصب ذي الوزارتين .

ولم يتغير شيء في معاملة هشام المؤيد ، المحبوس في قصره . وظل عبدالملك شديد الاحتفاظ الى كل ما يرد من جوانب القصر عما يكون به من التحرك . أما العامة فكانت تزداد حقدا على بني عامر وكرها لهم كلما تذكرت المصير المفروض على أمير المؤمنين . وقد تمت محاولة ثورة في هذا العهد ، وذلك حين خطط وزير الدولة : عيسى بن سعيد ، للقيام بقلب دولة بني عامر ، ويبايع بالخلافة أحد أحفاد عبدالرحمن الناصر ، وهو هشام بن عبدالجبار ، وتبعه نفر من أصحابه في ذلك . وربما كان يطمح الى أن يكون حاجبا له اذا نجح الانقلاب . ولكن المظفر علم بالمؤامرة ، فقتل وزيره عيسى بن سعيد وأصحابه ، وألقى هشاما بن عبدالجبار في السجن ، ثم لم يعلم أحد بعد ذلك بخبر عنه ، مما يدل على أنه ربما اغتيل في سجنه . (1)

وبينما كان المظفر يستعد للخروج الى بلاد النصارى في غزوته السابعة ، وهي شاتية عام 399 ، بدأته الأوجاع ، وما أن ابتعد عن قرطبة يوما واحدا حتى أدركته منيته ، فأعيد اليها ميتا . وقد عجب الناس من سرعة موته في مقتبل سنه ، فراجت الشائعات بأن أخاه عبدالرحمن قد دس اليه بواسطة أحد الخدام شرابا مسموما ، فقضى به عليه . وكيفما كانت حقيقة موته ، فان هذه الشائعة قد كان لها — فيما يبدو — أثرها الهام في توجيه الحوادث في المستقبل .

الدور الثالث : عهد عبدالرحمن " المأمون " .

جلس عبدالرحمن على كرسي الحجابة اثر موت أخيه المظفر عام 399 ، فأسرع الى جمع الألقاب فسمّى نفسه " الحاجب الأعلى " ولم تكن توصف الحجابة بصفة قبله ، واختار لنفسه لقبين هما " المأمون " و " ناصر الدولة " . وليست الألقاب بعثرة في حد ذاتها لولم تسىء عن تفاهة من لايستطيع التعلي بما تدل عليه . على أن اللقب الذي اشتهر به بين المؤرخين انما هو : " شنجول " (2) .

---

(1) أخبار ذلك في البيان المغرب ، ج 3 ، ص 27 .

(2) شنجول هو تصغير باللغة الاسبانية لاسم (شانجه) ، ومعناه شانجه الصغير ، ويقال ان شانجه هو والد السيدة عبدة زوجة المنصور ، وانها استأذنته لتدعو ابنها بهذا الاسم التصغيري لتتذكر به أباها . وانظر البيان 3 / 38 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواضح أن عبد الرحمن رجل قليل الهمة، معروف لدى معاصريه ومن أرّخوا له بانحراف السيرة، وسوء الأخلاق. كان مستغرقا في طلب الملذات لا يكاد يصحو من سكر، ولا يفيق من غواية. وكان قد أثقل كواهل الشعب بالضرائب والمغارم، وبذّر أموال الدولة بإسرافه في الإنفاق لتحصيل ما يشتهي من ضروب الملذات.

على أن أكبر حماقة ارتكبها هي أنه رمى إلى اجتثاث ذلك الرمز المعنوي المتمثل في الخلافة الأموية، والذي أبقى عليه أبوه وأخوه، وإن استصفاه من كل محتوياته، وظل الناس، على هزاله، يأوون إليه، ويستمدون السلوى من ذكريات أمجاده. فلقد أراد عبد الرحمن أن يصرف الخلافة عن وارثيها الشرعيين من بني أمية، إلى نفسه وأولاده، فلم يمض إلا شهر ونصف من توليه الحجابة حتى استصدر كتابا من الخليفة هشام المغلوب على أمره، بتعيينه وليا للعهد، بحيث يكون عبد الرحمن هو الخليفة أمير المؤمنين بعد موت هشام [1]. ووجد من الناس من لا يتورعون عن ركوب المحال، فكان من هؤلاء كاتب العهد ابن برد [2] الذي أفتى في ما كتب، بأنه جاء في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم "لا تقوم الساعة حتى يخرج من قحطان رجل يسوق العرب بعصاه" [3]، وهذا القحطاني هو عبد الرحمن!، ووجد منهم من يشهد على هذا العمل الآثم ويوقعه ومنهم القاضي ابن ذكوان، قاضي الجماعة بقرطبة [4].

ومنذ ذلك الحين، بدأ عبد الرحمن يتصرف كما لو كان خليفة بالفعل، فعين ابنه الطفل عبد العزيز حاجبا رغم حداثته وصغر سنه. ثم ظن أنه يستطيع أن يضيف إلى مجد الألقاب وولاية العهد، مجد البطولة بتحقيق النصر لراية الإسلام، فتجهز لقيادة حملة على النصارى، ولكن طبيعته كانت أميل إلى اللهو والخلاعة والمجون منها إلى الجهاد [5].

---

(1) كتاب توليه العهد في الذخيرة 1/1، 104. وفي البيان المغرب 3/ 44 وغيرهما.
(2) أخبار أبي حفص بن برد الأكبر في الذخيرة 1/1، 108. توفي عام 418 وقد جاوز الثمانين.
(3) راجع كتاب تولية العهد المذكور أعلاه.
(4) انظر أخبار ابن ذكوان في تاريخ قضاة الأندلس، لأبي الحسن النباهي ص: 84 – 87.
(5) انظر بعض أخبار ذلك في البيان 3/ 53، و 47.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا لم يترك عبد الرحمن شيئا يخيف الناس الا فعله . وكان فتيان الامويين يتدافعون بلهفة الى المغامرة للانتقام من دولة اغتصبت منهم السلطة . وقد اجتمعت الآن كل ظروف الانفجار : الحاجب أخرق لا بصر له بالأمور ، والرجال الذين خلفهم لتسيير شؤون البلاد ، أثناء غيابه ، منغمسون في الملاهي ، والعامة مستعدة لمناصرة كل دعوة يدعو الى الثورة ، والجيش بعيد خارج العاصمة ... لم تبق الا اليد التي تقدح الشرارة الأولى لتضطرم النار في الهشيم ، وكانت هذه اليد لأمير أموي من أحفاد الناصر ، اسمه : محمد بن هشام بن عبد الجبار .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : الحتمية المشوّقة لشمل الجماعة .

تزعّم حركة الاطاحة بعبد الرحمن ، ومن خلاله بالدولة العامرية ، محمد بن هشام بن عبد الجبار . وقد وضعت الأيام مهمة الثأر لأكثر من طرف بين يديه :

— فهو أولا يثأر لأبيه هشام الذي ذكرنا ، في الصفحات الماضية ، أن أحد وزراء المظفر ، واسمه عيسى بن سعيد قد تآمر معه ليولّيه الخلافة ، فقتلهما الحاجب المظفر مع جملة من أصحابهما . ولم يكن هشام هذا الا والد محمد الذي سيتزعم الثورة . فثورته من بعض وجوهها انتقام لأبيه من قتلته .

— وهو بعد ذلك أمير يجري في عروقه الدم الاموي . ونحن نعلم مقدار الحقد الذي في نفوس الامويين — أبدوه أو كتموه — على كل من ينتمي الى بني عامر بسبب ما صنعوه بهشام وبالخلافة كلّها . وقد قام عبد الرحمن ، بتوليه العهد ، شعرة الأمل الباقية في أن يرث الخلافة عن هشام المؤيد ، ذات يوم ، أمويّ يعيد الحق الى أصحابه ، ويستعيد للخلافة حرمتها . فلم يبق لهم حينئذ الا الثورة .

— وقد شاءت سخرية الاقدار ، ثالثا ، أن تساعد يدٌ من البيت العامري على الاطاحة بهم . وذلك أن أم عبد الملك المظفر قد صدّقت ، فيما يبدو ، الشائعة التي راجت من أن عبد الرحمن قد دس السم لأخيه[1] فظلت تبحث عمن ينتقم ممن تعتقد أنه قاتله ، حتى دلت على هذا الثائر الذي اشتهر بالجرأة وحب المغامرة ، فأغدقت عليه الأموال ، ومهدت له كل سبيل الى الاطاحة بعبد الرحمن .

الاستيلاء بالسهل .

تهيأ محمد بن هشام بن عبد الجبار للانقضاض على الدولة العامرية ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينجز شيئا مأمون العواقب ما دام الحاجب شوشنجول في قرطبة . ولذلك فما إن ابتعد هذا في غزوه لبلاد النصارى حتى داهم قصر الخلافة في مجموعة قليلة من أصحابه ، فدخله بدون مشقة تذكر ، ووجد عبد الله بن عمر

(1) من الواضح أن أمهما ليست واحدة .

الذي استخلفه عبدالرحمن مدّة غيابه ، عاقداً مجلس لهوه " مترنحاً بين قينتين تغنيانه "[1] فضربوا عنقه ، وأمر بوضع رأسه على رمح والتجول به في الأسواق . فانضمت العامة بسرعة الى الثورة ، وكان أكثر المنضمين من أصحاب الحرف " عطارين ، جزارين . . . وغوغاء الأسواق . . . "[2]

توجهت هذه الجموع الى " سجن العامة " فكسرت أبوابه وأخرج عمن فيه من اللصوص والمجرمين ، وهب الجميع الى التسلح بكل ما استطاعت أيديهم أن تصل اليه ، واتجهوا صوب القصور ينهبون ما تمتلئ به من النفائس والذخائر " حتى اقتلعت الأبواب المرشاة ، والخشب الضخم ، وغير ذلك مما حوته . . . "[3] ثم أحاطت هذه الجموع الثائرة بقصر الخليفة ، فلم يحصن عنه السور ولا الخندق اللذان أقامهما الحاجب المنصور حوله . بل نقبت الأسوار ، وحطمت الأبواب ، فأسرع هشام المؤيد الى مراسلة ابن عمه الثائر يعرض عليه نقل ولاية العهد اليه ، ولكن محمد بن هشام بن عبد الجبار لم يقم بهذه الثورة ، ولم يواته الحظ فيها ليرضى بولاية العهد . انما كان يريد الخلافة بالذات .

محمد بن هشام بن عبد الجبار : الخليفة " المهدي " .

دخل محمد القصر بالقوة في تلك الليلة نفسها[4] وتربع على عرش الخلافة في قاعة المجلس ، وأرسل الى هشام المؤيد أحد خدمه يبلغه أوامره بخلع نفسه فوراً عن الخلافة فاستجاب هشام ، وبعث اليه بهدايا على الفور ، منها خلع سلطانية لبسها محمد في الحين ليبدو في مظهر يليق بالمرتبة التي وضع نفسه فيها . ثم استدعى الوزراء والفقهاء وشيوخ بني أمية ، فأشهدهم على خلع هشام نفسه ، وعرض عليهم في مجلسه ذلك بيعته ، فبايعوه ، وقد تلقب بالمهدي . وكان أول ما بدأ به مكافأة أصحابه ، فكفاهم مؤونة العمل ، حتى " عنت بالناس أيام لم يوجد فيها حجام ، ولا كناس ، ولا ذو مهنة ذليلة "[5] فقد التحقوا جميعاً بالجيش الفتي ، فصار منهم جلوده ، ومنهم ضباطه .

---

(1) البيان المغرب 3/55 .

(2) نفسه 3/56 .

(3) نفسه 3/61 .

(4) وتاريخها : 16 جمادى الآخرة عام 399 . (5) البيان 3/61 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما عبدالرحمن فكان بجيشه يقاتل النصارى في شمال اسبانيا حين بلغه نبأ الانقلاب في قرطبة، فقفل راجعا مع جنوده يطاوي المراحل طيا. لكن بوادر الخيبة أخذت تسري كالوباء في صفوف عسكره، وشرعوا يتهامسون بعيوبه، وكأنهم يكتشفونها لأول مرة، فيذكرون زندقته، واستهتاره بالدين والأخلاق، حتى أن قاضيه ابن ذكوان — الذي كان أول من شهد على ولاية عهده لهشام — يتململ، ووجوهم سروا عندما تبين أحد القادة في أذنه بأن المغاربة — الذين منهم معظم الجند — لن يحاربوا من أجل دخول عبدالرحمن قرطبة ظافرا.

انتقل العصيان في جيش عبدالرحمن من السر الى الجهر، فحاول أن يذكرهم ببيعتهم إياه، بل حاول أن يجدد لنفسه البيعة مع التخلي عن ولاية العهد والاكتفاء بالحجابة، ولكن قائد الجيش أخبره بصراحة، بأن جنود زناتة لن يحاربوا معه، وإذا لم يحارب الزناتيون لم يحارب الباقون. وما هي الا لحظات قصيرة حتى رأى عبدالرحمن الجنود يتفرقون من حوله، فلا يبقى معه الا عدد قليل من الخاصة من خاصة خدمه. فاعتراه اليأس، واستسلم للبكاء، ثم مال الى دير قريب على مشارف قرطبة يقضي فيه ليلته، وما ان نزل به حتى أحاطت به كوكبة من فرسان الثوار، بعد إهانته بالشتم، وأمروه بتقبيل حوافر الخيل، أجهزوا عليه بسيوفهم يضربونه في كل مكان حتى مات، فاحتزوا رأسه، وبعثوا به الى زعيمهم الخليفة الجديد محمد المهدي.

بهذه النهاية الأليمة انتهت دولة بني عامر التي شيدها المنصور، وبدأ فصل من فصول الفتنة الكثيرة. وهكذا شهدت قرطبة في بضعة أشهر تحولات كبرى[1] خلع خليفة، وتولية خليفة آخر، وقتل "الحاجب الأعلى وولي العهد" وذات قرطبة بالداهية [illegible] الجند، ودمرت أحياء وقصور كانت آية من آيات الفن، ومعالم بارزة من معالم الترف الحضاري، وترقى أصحاب المهن البسطاء الى مراتب الشهداء والقادة، وأطيح بأهل القلم والسيف من ذوي البيوتات وأعيان الارستقراطية القرطبية، وتنحوا من مراتبهم العليا، ومناصبهم الرئيسة، بأن "تقدمهم [illegible] جلة وغد [illegible]"[2]، وقد تمكن هذا، وفي المدة التي ذكرناها، على يد "بضعة عشر رجلا من أراذل العامة: حجامين، وخرازين، وكنافين، وزبالين ..."[3].

---

(1) من 15 جمادى الآخرة الى نهايتها من عام 3[illegible].

(2) البيان المغرب 3/74.

(3) نفسه.

ويبدو أن المهدي قد اطمأن الى نتائج ثورته ، فلم يبق له ، فيما تصور ، شيء يمكن أن ينغص عليه راحته ، ويكدر صفوه الا ذلك الرجل المسكين : هشام المخلوع ، فكان لابد أن يناله ضرب من ضروب الموت ، ليبلغ المهدي في الاطمئنان غايته ومداه . فأخفاه عند أحد وزرائه وأشاع موته ... وصلى ابن ذكوان على جثة رجل يهودي مات في ذلك الوقت ، على أنها جثة هشام . وفي هذا مثال على رداءة تدبير المهدي .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : دولة الاضطرابات المتلاحقة والفوضى الشاملة .

كان المنصور بن أبي عامر قد فطن الى أنه لايستطيع أن يعوّل على الصقالبة الذين كان هواهم مع بني أمية سادتهم وأوليائهم نعمتهم . وقد سعى الى احداث توازن جديد في الدولة ، فاستقدم أعدادا كبيرة من المغاربة ، ثم قربهم ، واستخدمهم في جيشه ، وفي حراسته الخاصة ، ودفع بهم بلاد النصارى زهاء ربع قرن . ولا بد أن موقع هؤلاء المغاربة من الجند وقياداته ، ومكانتهم في الدولة ، ومنزلتهم عند المنصور قد دفعت بعضهم الى تصرفات لم تكن حميدة ، فكان فيها ما يؤذي كرامة الأندلسيين . وكان هؤلاء لايرون في المغاربة الا برابرة أجلافا ، ودخلاء مرتزقين ، ينعمون بخيرات البلاد ، ويؤذون أهلها .

فلما جاء المهدي ، كان من الرداءة في تقويم الأمور ، وفهم حقائقها البعيدة بحيث غابت عنه مثل هذه الحسابات ، فتصدى بغباوة لاتفسير لها يساوي القوة المغاربية في المجتمع ، بدون اعداد عدّة ، ولا تفكير في بديل يرجع به ميزان القوة لصالحه . ومن هذه التصرفات الحمقاء أنه ضاعف إهانة المغاربة ، وأوصد أبوابه في وجوه زعمائهم ، وحدث بعض أصحابه بأنه سيقتل عشرة من قادتهم وأعيانهم . فلم يبق لهؤلاء الا أن يبادروه بالشر قبل أن يبادرهم به .

وباختصار شديد فان المهدي لم يترك عملا يسيء الى حكمه إلا وقد قام به . وقد ارتكب في ظرف واحد ثلاثة أخطاء قاتلة :

- عين واحدا من أبناء عمومته ، واسمه سليمان ، وليا للعهد ثم ألقى به في السجن بعد قليل .
- وسرّح سبعة آلاف من جنود العامة الذين كانوا عماد ثورته وانتصاره .
- وبالغ في اهانة زعماء المغاربة ، وتجاوز ذلك الى التصريح بتأهبه لقتل عشرة منهم .

لم يبق لهذه العناصر الساخطة الا أن تجتمع في جبهة واسعة من المعارضين ، ثم تنهض للاطاحة بالمهدي . وذلك ما تم بالفعل حين تحرك أحد أولاد سليمان ، ولي العهد السجين ، واسمه هشام . فانحاز اليه أكثر تلك الآلاف المسرحة من الجيش ، وانضم اليهم المغاربة ، فبايعوه خليفة ، ولقب بالرشيد . وهاجموا المهدي في قصره . الا أن هذه الحركة لم تنجح ، لأنها لم تستوف ما يلزمها من شروط الاعداد والتخطيط ، فألقي القبض على هشام ، وأعدم هو وأبوه سليمان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأى المهدي الفرصة سانحة للتودد الى عامة الأندلسيين باضطهاد المغاربة، فأباح لهم نهب دورهم، واستباح أملاكهم، بل لقد أرسل الى الأسواق من ينادي فيها: "من أتى برأس بربري فله كذا..."(1) فقتل كثير من المغاربة، منهم أبرياء لا علاقة لهم بالصراع، ومنهم رجال صالحون منقطعون للعبادة، ومنهم مجاهدون جاؤوا من أقصى بلادهم متطوعين في سبيل نشر الاسلام ونصر رايته. فتسابق المغاربة الى الفرار والخروج من قرطبة طلبا للنجاة (2).

كان من بين الفارين أيضا بعض الذين يخشون عقاب المهدي لمشاركتهم في الثورة التي قادها هشام الملقب بالرشيد، وكان من بين هؤلاء ابن أخيه واسمه: سليمان ابن الحكم. فاجتمع المغاربة حوله، وبايعوه خليفة، وأقسموا على الانتقام من أهل قرطبة. وقد بلغ من حقدهم أن تحالفوا مع القومس النصراني "ابن ماممه" على أن يساعدهم لدخول قرطبة ويسلموه لقاء ذلك العون عددا من الحصون والمدن الاسلامية.

توجه الحلفاء: مسلمين ونصارى، الى مشارف قرطبة، فلم يصمد لهم جيش قرطبة الهزيل، وهو الموءلف من أصحاب المهن الذين لا علم لهم بالحرب، وكان ضباطهم من الأطباء والزكلاء... وقد أدرك المهدي خطر الموقف عليه، فأبرز هشاما الموءيد الذي كان أخفاه وزعم أنه قد مات، وأجلسه أمام الناس، وأرسل الى المغاربة القاضي ابن ذكوان يخبرهم بأن هشاما حي، وأنه هو، المهدي ليس الا نائبا وحاجبا له، فسخروا من القاضي وذكروه بأنه هو الذي أم صلاة جنازته! ثم هجم سليمان بن الحكم بجنوده، ففر المهدي، ودخل سليمان القصر، فبويع بالخلافة في 17 رجب الأول عام 400 ولقب بالمستعين.

وتحالف المهدي بعد فراره، مع نصارى آخرين، مقابل تسليمهم الحصون والمدن، فعاد الى قرطبة بمحاولتهم، بعد سبعة أشهر من فراره، فجددت له البيعة، وكان هشام الموءيد أول من جددها له. وقد عين المهدي أحد قادة الثغور الذي عاونه على العودة الى القصر، حاجبا له واسمه: واضح فتآمر عليه بعد حين،

---

(1) انظر تفاصيل هذه الفظائع في تاريخ مسلمي اسبانيا لدوزي 2/300، والبيان المغرب 3/91.

(2) نفسهما.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واصطنع من عبيد القصر من قاموا بقتله . وساءت أحوال البلاد ، وانتشرت فيها المجاعة والأوبئة ، وخاف واضح على نفسه ، وبينما كان يستعد الفرار من قرطبة تسلل اليه بعض جنوده وقتلوه .

وفي هذه الأثناء كان سليمان المستعين قد أعاد تنظيم جيشه ، وجدد تحالفه مع النصارى فجاء الى مشارف قرطبة يهدد باكتساحها وذلك عام 402 . وكان القرطبيين رافضين لفكرة الصلح حتى انهم كانوا يقتلون كل من يدعو اليه . فلما رأوا جيش المستعين ، راسلوه على الصلح ، فلم يقبل ، ودخل المدينة عنوة ، فبويع بالخلافة من جديد في شوال عام 403 . وبعد هذا التاريخ اختفى هشام المؤيد فلم يعرف أحد الذى آل اليه مصيره (1).

وزع المستعين مناصب الحكم على قادة المغاربة الذين عادوا إلى إذلال أهل قرطبة والانتقام منهم ، وتولى جماعة منهم حكم الأقاليم ، وممن سيكون له شأن من هؤلاء الحكام علي بن حمّود الذى ولّي على سبتة بالمغرب .

وخرج خلق كثير من قرطبة خشية أذى المغاربة ، وكان من الخارجين منها عدد من الصقالبة الذين ارتحلوا الى شرق البلاد ، واستقلوا هناك بامارات صغيرة . فكانت هذه الامارات باكورة الكيانات التي ستعرف بممالك الطوائف .

ولم تدم ولاية المستعين طويلا ، فقد ثار عليه علي بن حمود (2) حاكم سبتة عام 403 فتحالف مع الصقالبة ، واستمال بعض المغاربة الذين تحولوا عن المستعين ، ثم وقعت الحرب بين الرجلين ، فانتصر علي بن حمود ، فظفر بالمستعين وقتله عام 407 .

---

(1) سيزعم القاضي ابن عباد في اشبيلية أنه وجده ، ويطالب من ملوك الطوائف الدخول في طاعته . وقد اعتبر نفسه حاجبا له . وما ذلك الا ليسند نفوذه ، بهذه الأكذوبة ، على أقرانه من الطوائف . أما حقيقة مصير هشام فقيل رحل الى المشرق ومات بمكة . وقيل غير ذلك .

(2) علي بن حمود حسني الأصل ، من أدارسة المغرب . وانظر أخباره مع المستعين في الذخيرة لابن بسام 1/1، 35 ، وما يليها وعن ابن حيان ص 37 وما بعدها .

النهاية الأولى للخلافة الاموية .

بايع الناس علي بن حمود ، فتلقب بالناصر لدين الله ، وخرج الحكم من أيدي الامويين خروجه الأول . وكان خيران العامري الصقلبي[1] قد تحالف مع علي بن حمود ، ثم ساءت العلاقة بينهما فبايع أميرا أمويا بالخلافة ، اسمه عبد الرحمن بن محمد ، وعرف بلقب " المرتضى " ، وتحالف الصقلبي مع نصارى برشلونة وراء يمسك خلافة ابن حمود ، ولكنه انهزم ، وفرق علي بن حمود جيشه ، وكاد " خليفته " المرتضى يقع في الأسر . فسعى خيران الى الدسيسة حتى وجد من عبيد علي بن حمود الصقالبة من ينفذون له خطته ، فاغتالوا علي بن حمود في حمامه ، وقد اختلف المغاربة على من يخلفه : فريق يؤيد أخاه القاسم بن حمود ، وفريق يؤيد ابنه يحيى ، وتغلب في النهاية أنصار الأول فبويع بالخلافة ولقب بالمأمون . ولكن ابن أخيه يحيى ظل يؤلب الناس عليه ويسعى الى تحقيق البيعة لنفسه ، حتى تمكن من الاطاحة به عام 412 ، ففر القاسم الى اشبيلية ، ودخل يحيى قرطبة فاستقبلوا حيث بويع بالخلافة وتلقب بالمعتلي بالله . وما هي الا سنة حتى وقعت الثورة على يحيى ، ففر من قرطبة مستخفيا ، وعاد اليها عمه القاسم " المأمون " فجددت له البيعة ، وذلك سنة 413 هـ .

كانت عودة القاسم نصرا كبيرا للمغاربة ، فاشتدوا في ايذاء أهل قرطبة واضطهادهم ، حتى جمدوا كلمتهم على قتالهم ، فاستماتوا في المقاومة والكفاح ، واستطاعوا أخيرا أن يطردوا من مدينتهم القاسم بن حمود ورجاله المغاربة وذلك في رمضان عام 414 .

وهكذا انتهت في قرطبة خلافة بني حمود ، وكانت فترة معترضة في عهد الخلافة الاموية . وقد ظل الاندلسيون يحنون الى حكم الامويين أثناء عزهم وقوة سلطانهم ، ففي تلك الأيام كان الأمن مستتبا ، والرخاء منتشرا ، وراية الاسلام عزيزة منتصرة في كل مكان . ولذلك ما ان طردوا المغاربة مع " خليفتهم " من قرطبة حتى أجمع أعيانها على اعادة الخلافة الى الأمويين بالبحث عن كل رجالهم الذين يصلحون للقيام بها ، على أن تكون بصفة " انتخابية " يعرض المرشحون على الشعب ، وهو يختار أصلح من يراه لها وبذلك تكون الخلافة الاموية شورى بين الناس .

(1) قائد صقلبي ، استقل هو وزميله زهير بالمرية وأقاما فيها دولتهما ، خيران حكم فيها من 405 الى 419 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عودة الخلافة الى الأمويين :

بعد البحث والتشاور اهتدى الناس الى ثلاثة رجال أمويين وهم :

1 — سليمان بن عبدالرحمن المرتضى (1)

2 — عبدالرحمن بن هشام بن عبد الجبار (2)

3 — محمد بن العراقي (3).

كانت قلوب الناس مع سليمان بن عبدالرحمن ، حتى ان كتّاب البيعة أعدوا العهد باسمه ، ولكن عبدالرحمن بن هشام دخل المسجد الجامع دخولا مسرحيا ، وانصاره يهتفون له ، فانساق الناس الى الهتاف باسمه ، فبويع بالخلافة ولقب بالمستظهر بالله . وقد بدأ باعادة الثقة الى أعيان قرطبة بتعيين مجموعة منهم في المناصب الوزارية (4) ، ثم بدأ يخشى من ابني عمومته اللذين كانا مرشحين معه للخلافة ففرض عليهما الاقامة الاجبارية . وقد أعاد الى جيشه قسما من المغاربة الذين طردهم أهل قرطبة ، فغضب الناس لذلك . وفي هذا الجو من السخط تحرك أحد الأمويين ، واسمه محمد ، وكان خامل الذكر ، لا يعرفه أحد ، فاستعان بآلاف العمال العاطلين (5) وداهم بهم القصر فقتل المستظهر بالله في ذي القعدة من سنة 414 وبويع بالخلافة تحت لقب " المستكفي بالله " . كان هذا الرجل أسوأ وأتفه من جلس على العرش في أيام هذه الفتن . كان مجردا من كل صفات القيادة ، مكبّا على شهواته الدنيئة ، حتى قامت ثورة علي بن يحي بن حمود الذي كان قد تولى الخلافة مرة أولى ولقب بالمعتلي بالله ، ففر المستكفي ولكن ألقي القبض عليه ، وقتل في رمضان عام 416 ، وتولى المعتلي الخلافة . ولما كان يخشى تقلب الأوضاع ، غادر قرطبة بعد أسابيع قليلة ، وترك فيها أحد قادته من المغاربة ، واسمه أحمد بن موسى نائبا عنه ، واغتنم القائدان الصقلبيان : خيران ومجاهد ، فرصة غياب الخليفة الحمودي ، فدخلا قرطبة وقتلا أحمد بن موسى ، ثم لم يتفقا فيما بينهما ، وخشي كل منهما سوء العاقبة ، فانسحبا الى امارتيهما بشرقي الأندلس .

---

(1) هذا هو ابن عبدالرحمن الذي بايعه رجال خيران الصقلبي ولقبوه المرتضى .

(2) هو أحد اخوة الخليفة " المهدي " محمد بن هشام بن عبدالجبار .

(3) من أحفاد عبدالرحمن الناصر أيضا .

(4) من بينهم صاحبه علي بن حزم ، ومن الوزراء عبدالوهاب بن حزم (ابن عم الأول) ، وابوعامر بن شهيد

(5) وذلك لكساد الاسواق ، بعد ان اضطربت مسالك التجارة بكثرة الثورات والفتن وقلة الأمن .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آخـــر أيــام الأمـويـــين :

بقيت قرطبة بعد ذلك بدون خليفة ، فاجتمع أهل الرأى فيها يتدبرون الأمور ، وقد تناهى اليهم أنّ فتىً أمويا اسمه هشام بن محمد [1] ، كان يدعو الى نفسه في شرق الأندلس ، وقد بويع هناك بالخلافة ، وتلقب بالمعتدّ بالله ، فاتفقوا على الدخول في طاعته ، واستقدموه ، فأتى الى قرطبة وبويع فيها سنة 420 . الا أنهم سرعان ما تبينوا أنهم أخطأوا في الاختيار مرة أخرى حين رأوه رجلا تافها لا هم له الا في الأكل والشرب ، وزاد هم سخطا عليه انه عين صديقا له اسمه " حكم بن سعيد " في منصب الحجابة ، وكان لاماضي له اذ كان يشتغل بالغزل والحياكة في الأسواق ، ثم التحق بالجيش حين التحق به ذوو " المهن الذليلة " في أيام المهدي ، ولذلك عرف عندهم بحكم بن سعيد الحائك [2] . فكان لا يمنح المناصب الوزارية ، والمراتب العليا في الدولة الا لمعارفه ممن كانوا يحترفون هذه المهن المحتقرة في المجتمع آنذاك . ولذلك ثاروا على الحاجب وقتلوه سنة 422 .

كان مدبرَ الثورة على حَكَمَ بن سعيد ، أميرٌ أموي اسمه : أمية بن عبدالرحمن [3] ، وكان من ذوي الجهالة والمغامرة والطيش ، اذ يبدو أنه لم يعد يطمع للخلافة الا من كان ينتمي الى هذه الفئة من الأمويين ، ويبدو أن بعض أعيان قرطبة هم الذين كانوا يحرضونه على الثورة لخطة دبروها ، ومن بين هؤلاء أبو الحزم بن جهور الذى كان يرأس مجلسا استشاريا منذ بداية الفتنة . أما أمية فلم يكن يريد أن يتوقف عند مجرد تخليص أعيان قرطبة من رجل يحتقرونه ويكرهونه ، ولذلك أسرع الى القصر ليأخذ فيه البيعة لنفسه . ولكن أولائك الأعيان كانوا قد ملوا ثورة التناقب على الخلافة من قبل الحمقاء والطامعين ، فداهموا القصر ، وقد خلا الآن من مدبره الحكم بن سعيد ، فأعلنوا خلع المعتد بالله ، وحذروا أمية من نقمة الناس عليه وقتله اذا أصرّ على أخذ البيعة لنفسه ، وبادروا الى ارسال من يعلن في الأسواق والشوارع بأن الخلافة قد ألغيت ، فلا خليفة في قرطبة بعد اليوم .

(1) هو هشام بن محمد بن عبدالملك بن عبدالرحمن الناصر . وهشام هذا هو أخو عبدالرحمن المرتضى .

(2) هكذا يسميه ابن بسام ، انظر الذخيرة 1/1 ص 28 . أما صاحب البيان المغرب فيسميه " حكم بن سعيد القزاز " : 3/146 .

(3) هو أمية بن عبدالرحمن بن هشام بن سليمان بن عبدالرحمن الناصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا ، بعد فتنة ماحقة ، وحوادث مدمرة ، استمرت أربعا وعشرين سنة ، وبعد محاولات متكررة لارجاع بني أمية الى الحكم ومبايعتهم بالخلافة ، انهارت خلافة الجماعة نهائيا ، وانتهت هذه الفترة المظلمة من تاريخ الأندلس الى نتيجة أولى هائلة الأبعاد والعواقب ، وبعيدة المدى ، كان أبرز مظاهرها الآن: تمزق المملكة بصفة رسمية ، واستبداد كل طامع من القادة والولاة بالجهة التي تليه . وذلك العهد الذي عرف في التاريخ بعهد ملوك الطوائف .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رابعـــا : قيام الكيانات الاقليميـة المعروفـة بممالك الطوائـف :

تحلل المجتمع الأندلسي اذن الى عناصره الأساسية التي كان يأتلف منهـا ، وانفرط ذلك العقد المنضد الذي عمل الخلفاء من بني أمية طوال قرون على إحكـام نظامـه وترتيبـه ، فتمايزت الأجناس، وتفرقت الأهواء ، وسعى كل راغب في السلطـة الى اعلان استقلالـه بالجهة التي تليـه ، فغدا الكل متقاطعـة في البلاد الأندلسية ، أمـير ، ومنـبر ...

ويمكن أن نلخص التجمعات البارزة في ثلاثـة تكتـلات . سماها المؤرخـون أحيانـا أحزابـا وهي على النحو التالـي :

- حزب الصقالبة ومن انضم اليهم من موالي بني عامر وقد حكموا شرق البلاد .
- حزب المغاربة الذي يسمّى كذلك حزب البربر أو الأفارقة ، وقد اقتسموا الجنوب .
- العرب ، وهم أساسا بقايا الارستقراطية الاندلسية، وقد حكموا قرطبة واشبيلية .

ولعل الوقوف عند أخبار أهم الدول التي أقامتهـا هذه التجمعات الرئيسية تغنينا عن تتبـع أخبار تلك الدويلات الصغيرة المتكاثـرة التي كانت تزول بنفس السرعة التي تظهـر بهـا [1] .

1 — الصقالبـة ومن انضـم اليهـم مـن موالي العامريـين :

1.1 — امارة دانيـة والجزائـر الشرقيـة : [2] مجاهـد وأبناؤه ..

استقل منذ بدايـة الفتنـة مجاهد العامري ، وهو من الفتيان الصقالبـة ، بالجزائر الشرقيـة الثلاث التي كان واليا عليها في دولة بني عامـر [3] ثم خرج الى مدينة دانيـة وجميـع المناطـق المتصلـة بهـا . فأخضعهـا لسلطتـه ، وضمهـا الى إمارتـه .

---

(1) أورد دوزي في آخر الجزء الثالث من "تاريخ مسلمي أسبانيا" جدولا مفصلا لها مع ذكر أعلام مهـا وتواريخ حكمهـم بهـا .

(2) الجزائر الشرقية الثلاث هي : ميورقـة ، ومنورقـة ، ويابسـة .

(3) كان المنصور بن أبي عامر هو الذي ولاه في البداية على مدينـة دانية وأحوازهـا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تقتضي مجاهد بالألقاب السلطانية ، فاختار منها لقب " الموفق بالله " وقد كان على جانب كبير من الشجاعة والخبرة العسكرية ، فانطلق على رأس أسطول قوي لغزو السواحل الايطالية ولا سيما جزيرة سردانية التي استطاع أن يخضع أكثرها .

وكان مجاهد هذا ، بالاضافة الى شجاعته ، وترغيبه في مد الغزوات النصرانية ، ونقله الحرب الى الجزر الايطالية نفسها ، محبا للعلم والأدب ، مقربا لرجالهما . وقد حكم مدة ست وثلاثين سنة من 400 الى 436 .

وخلفه ابنه علي الذي اختار لقب " إقبال الدولة " . وكان علي قد وقع أسيرا لدى المسيحيين في احدى حملات أبيه على جزيرة سردانية . ويبدو أن أسره قد طال حتى يئس أبوه من رجوعه اليه ، فرشح لخلافته أخاه حسنا الملقب " سعد الدولة " ، فلما تمكن مجاهد من افتدائه أرجع ولاية العهد اليه . ولما مات مجاهد تولى علي عرش الامارة فسعى أخوه الى الدس عليه ، والائتمار به ، بالتعاون مع بني عباد ، ملوك اشبيلية ، فظلت هذه الامارة تضعف حتى غزاها بنو هود وضموها الى أملاكهم سنة 468 .

2.1 — امارة المرية : خيران وزهير العامريان .

حكم هذه الامارة صقلبيان شهيران وهما خيران وزهير . حكم خيران من 405 الى 419 ، ثم خلفه بعد موته صاحبه زهير . وقد أدى مرة زيارة لحليفه باديس بن حبوس أمير غرناطة ، ولكن الزيارة لم تلبث أن انقلبت حربا قتل فيها زهير ، وقتل فيها كاتبه الشهير ابن عباس وكثير من الجنود الذين كانوا يرافقون أميرهم ، وذلك في خبر يطول شرحه (1) وكان مقتل زهير ووزيره الكاتب سنة 429 .

بعد هذه الحادثة اجتمع أعيان المرية واتفقوا على ضم مقاطعتهم الى امارة بلنسية التي كان يحكمها يومئذ عبدالعزيز بن أبي عامر — وهو من أحفاد المنصور — فجاء

---

(1) تفاصيل هذا الخبر في " تاريخ مسلمي اسبانيا " لدوزي في الفصل 2 من الجزء 3 — والبيان المغرب لابن عذاري 3/169 ، وابن حيان في الذخيرة 1/2 ص656 وغيرهم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اليهم ، وقدموا له بيعة الولاء والانضمام ، فولّى عليهم صهره أبا يحيى معن بن صمادح التجيبي ، وعاد هو الى قاعدة امارته : بلنسية . وبعد سنوات قليلة ، خرج ابن صمادح هذا عن طاعة عبدالعزيز ، وأعلن استقلاله بمدينة المرية وأحوازها عام 433 .

1 . 3 ــ دولة بني صمادح في المرية :

حكم أبو يحيى معن بن صمادح المرية بوصفه أميرا مستقلا لها من عام 433 الى 443 . ثم خلفه ابنه ووليّ عهده معز الدولة ، وهو الذى اتخذ لنفسه لقبين ــ على عادة ملوك الطوائف في الاستكثار من هذه الألقاب ــ وهما : الواثق بفضل الله ، والمعتصم بالله . وقد عرف ، خاصة ، بهذا اللقب الثاني . وكان فتى شجاعا يخوض الحروب ببسالة . وكان إلى ذلك محبا للعلماء ، فشهدت الآداب في دولته حتى ضاهى في ذلك ملوك بني عباد في اشبيلية ، فكان يستقدم الشعراء ، ويجزل لهم العطاء . وقد بقي على رأس دولته مدة احدى وأربعين سنة حتى أخذها منه المرابطون عام 484 .

1 . 4 ــ دولة بني عامر في بلنسية :

عندما تشاور الموالي العامريون ــ المتكاثرون في ناحية بلنسية ــ في أمر تولية أمير عليهم ، أجمعوا على اختيار أحد أبناء المنصور بن أبي عامر ، وقد آثروا منهم عبدالعزيز بن عبدالرحمن[1] الذى كان يقيم وقتئذ في سرقسطة ، عند بني هود ، وقد فضلوه على ابن عمه محمد بن عبدالملك المظفر[2] .

تولى عبدالعزيز هذه الامارة ، وأحسن فيها السيرة والسياسة ، واستمع في دولته أربعة من كبار الكتاب وهم : ابن طالوت ، وابن عباس ، وابن عبدالعزيز ، وابن التاكرني .

---

(1) عبدالرحمن هذا هو ابن المنصور الثاني الذى ثار عليه ابن عبدالجبار الذى تولّى الخلافة بعد ذلك تحت لقب " المهدي " .
(2) كان محمد يقيم في قرطبة ، وهو ابن عبدالملك المظفر الذى خلف أباه المنصور في الحجابة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد استمرت امارة عبد العزيز الى حين وفاته سنة 452 ، فتولى العرش بعده ابنه عبد الملك بن عبد العزيز .

ثم حدثت أحداث انضمت بلنسية الى مملكة طليطلة ، ومن أشهر احداثها بعد ذلك ثورة القاضي ابن جحاف بها عام 485 ، وفي سنة 487 أخذها منه السيد القنبيطور[1] وأحرقه حيا . ثم دخلتها جيوش المرابطين بقيادة مزدلي وأعادتها الى الاسلام عام 495[2] .

2 ـ دول المغاربة :

2 . 1 . مملكة بني زيري في غرناطة :

أسس هذه الدولة حبوس بن ماكسن ، واتخذ غرناطة عاصمة لها ، ثم وسعها بأن ضم اليها ما يجاورها من المدن المتاخمة لها مثل قبرة ، وجيان وغيرهما . وكان له ابنان وكاتبا يهوديا اسمه اسماعيل بن نغرالة[3] ، وبعد وفاته عام 428 اختلف ولداه : أحدهما باديس ، والآخر بلقين ، وقد انقسم الناس في الانتصار لمن يخلفه ، فأيد اليهود باديسا ، وأيد المسلمون بلقين . وكادت تقوم الحرب الأهلية بين الأخوين لولا أن تنازل بلقين لأخيه باديس .

كان باديس شديدا ، حاد المزاج ، قاسيا اذا غضب ، شن حروبا كثيرة على جيرانه الاندلسيين من مماليك الطوائف والأدارسة معتمدا على مغاربته الأشداء من الصنهاجيين والسودان ، وقد حدثنا المؤرخون أنه قتل مرة أمير المرية ووزيره الكاتب البليغ ابن عباس ، وقد غزا في احدى غزواته مدينة مالقة التي كان بنو حمود يريدون ضمها لمملكتهم ، فاستولى عليها ، وبعد استيلائه عليها جعل أبناءه يحكمون المدن[4] .

(1) السيد القنبيطور : هو رودريجو دياث دي بيبار ، وقد ذكره المؤرخون العرب باسم لذريق .
(2) تفاصيل ذلك في تاريخ بلنسية ، ويحتوي على معلومات كتاب البيان المغرب لابن عذاري 3 / 306 .
(3) يطلق المؤرخون على هذا الاسم تسميات كثيرة ، فتارة : نغريلة ، وتارة نغرالة ، وأخرى ابن نغريلة الخ . المراكشي 1 / 267 ، وعند ابن عذاري انه ابن نغرالة ، البيان 3 / 211 ، 255 ، 256 وغيرها .
(4) مالقة : كانت من ممتلكات بني حمود ، وقد تم في هذه الفترة ، وكان آخر من حكمها منهم ادريس بن علي ، ومن بعده المهدي ، ثم المعتلي ، فاستولى عليها باديس بن حبوس ، وأسند امارتها الى ابنه ... عند وفاته .

عُرف باديس، بين المؤرخين، بأنه أعلى من شأن اليهود، ولاسيما في وزارة يوسف ابن نغرالة الذي خلف أباه إسماعيل، إذ سلم له شؤون مملكته برمتها، فاستطال اليهود به على المسلمين الى أن ثاروا عليه وقتلوه مع جماعة من قومه عام 459.

وعندما توفي باديس خلفه حفيد له يدعى عبدالله، وفي عهده أخذ المرابطون منه مدينة غرناطة، وقضوا على امارته عام 484.(1)

2 . 2 ـ دولة بني الأفطس في بطليوس :

عندما بدأت حركة الاستقلال بالولايات والمقاطعات الأندلسية، كان يحكم بطليوس وما ساقبها من مدن الغرب أحد عبيد الامويين يسمّى: سابور الفارسي، وهو رجل محارب، ولكن لا علم له بتدبير الشؤون السياسية، فاستوزر رجلاً عرف عند الناس بالدهاء والحكمة يسمّى: عبدالله بن محمد بن مسلمة. فلما مات سابور ترك ولدين صغيرين، فتدبر ابن مسلمة الأمور باسمهما، ثم أزالهما واستخلص الحكم لنفسه، وأخذ في توسيع حدود مملكته إلى معظم أنحاء الغرب الأندلسي حتى توفي سنة 430.

خلفه ابنه محمد المنصور ولقبه المظفر، وكان شاعراً أديباً، له عناية بالعلوم والتأليف، وهو صاحب كتاب "المظفري" في الأدب، الذي يشتمل على أجزاء كثيرة(2). وقد حرص على توطيد أركان مملكته، ولكن المد السياسي كان قد استفحل، وأخذ في التعاظم، فاضطر المظفر الى التقارب مع عبدالله بن شالجه ملك الجلالقة(3) ودفع الجزية له.

---

(1) الأمير عبدالله هذا هو آخر ملوك بني زيري الذين خلعهم المرابطون عن الحكم، وهو صاحب المذكرات التي أسماها وأطلق عليها عنوان "التبيان".

(2) قيل انه في مئة مجلد، وقيل أكثر من ذلك، انظر ابن بسام في ذ: 2/2 ص 640، وقال ابن عذاري انه في خمسين مجلدا. "البيان المغرب..." 2/297.

(3) هو فرناندو الأول.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خلفه ـ حين مات ـ ابنه عمر " المتوكل على الله " الذى كانت له أيضا قدم راسخة في صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة وفروسية[1] . ثم غزا المرابطون مملكة بني الأفطس ، وقتلوا المتوكل وابنيه الفضل والعباس سنة 485 .[2]

2 . 3 ـ دولة بني ذي النون في طليطلة :

بنو ذى النون جماعة من المغاربة استخدمهم المنصور بن أبي عامر ، ويقال ان في اسمهم تحريفا لأنهم في الحقيقة ، انما ينتسبون الى جدهم : زنون[3] ثم غيرت الألسنة هذه التسمية بما يساير صيغ الألفاظ العربية .

كانت طليطلة من ثغور المسلمين المطلة على بلاد النصارى . وكان يحكمها زمن الفتنة ، رجل من بني ذى النون اسمه عبدالرحمن بن متيوه ، فاستقل بها على غرار ما صنعه سائر الولاة في مقاطعاتهم . ثم توفي ، فخلفه ابنه عبدالملك ، ولكن هذا الفتى أساء معاملة رعاياه ، فثاروا عليه وعزلوه ، فخرج من طليطلة .

ويبدو أن أهل طليطلة لم يوفقوا في تولية من يرضونه ، اذ بايعوا بعد عبد الملك هذا رجلين ثم خلعوهما الواحد بعد الآخر ، ثم ارتأوا أن يستعيدوا أميرهم القديم : عبدالملك بن عبد الرحمن ، فأرسل اليهم ابنه : اسماعيل .

سار اسماعيل سيرة حسنة أرضت الناس ، فتمكن من أن يوطد أركان مملكة طليطلة ، فازدهرت في عهده . ثم مات فخلفه ابنه : يحي ، وهو الملقب بالمأمون ، وكان أشهر أمراء بني ذى النون .

خاض المأمون حروبا كثيرة مع جيرانه ولا سيما : بني هود أصحاب سرقسطة ، وبني عباد أصحاب اشبيلية ، وبني الأفطس أصحاب بطليوس . وقد اضطرته ظروف

---

(1) " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " لعبد الواحد المراكشي ص 113 .
(2) زعم بنو الافطس أنهم عرب ينتسبون الى قبيلة " تجيب " ولذلك ذكروا أحيانا باسم التجيبيين .
(3) انظر في ذلك " البيان المغرب " ج 3 ، ص 276 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأراضي مملكته ، فكتب الى ابن ذى النون يعرض عليه التنازل له عنها مقابل مساعدته على امتلاك قرطبة ، فتنازل له عنها ، وكان من أمر قرطبة ما ذكرناه .

2 . 5 — بنو رزين في شنتمرية الشرق :

أسس هذه الامارة هذيل بن خلف بن رزين من أهل المغرب . وقد بويع له في مدينة شنتمرية الشرق ، المعروفة بالسهلة ، عام 403 . وقد ذكر عنه المؤرخ ابن حيان انه كان " كنشا للفضائل ، ومنهلا عذبا معينا للوراد "[1] . وقد لجّ في طلب أدوات الترف وأسبابه حتى اجتمع له من الجواري مالم يجتمع لغيره [2] .

مات هذيل بن خلف عام 436 ، فتولى بعده ابنه عبدالملك الملقب بجبر الدولة ذي الرئاستين . ويبدو أنه كان سيّء السيرة ، عديم المروءة ، حتى قال عنه ابن حيان : "كان سيّئة الدهر ، وعار العصر ، جاهلا لا متجاهلا ، وخاملا لا متخاملا ، قليل البلاغة ، شديد الاعراب بنفسه "[3] . وكان إلى ذلك قاسيا ، سريع الفتك ، لا يأمن له أصدقاؤه وندماؤه جانبا ، إذ كان كثيرا ما يفاجيء الناس بالانتقال من الانعام الى التنكيل .

وعندما توفي عبدالملك هذا سنة 496 ، خلفه ابنه يحيى حسام الدولة ، فسار سيرة أبيه في الخلاعة والمجون ، وحاول التقرب بالهدايا والعطايا الى ملوك النصارى ، فلم يسلم منهم الا الاذلال والاحتقار ، وظل على حاله تلك الى أن خلعه المرابطون عام 497 .

2 . 6 — بنو حمود في مالقة :

كان بنو حمود عربا ، يسميهم المؤرخون أحيانا " الأدارسة " وهم ينسبون الى الامام علي كرّم الله وجهه ، وقد استوطنوا بلاد المغرب ، واختلطوا بأهلها حتى أثّروا

---

(1) أخباره رواها ابن بسام ، عن ابن حيان ، في ذ : 3 / 1 ، ص 109 وما بعدها .
(2) نفسه .
(3) نقلا عن " صفحات من تاريخ مبتور " لمؤلف مجهول ، نشر ذيلا البيان المغرب 3 / 303 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحديث بالبربرية ، وصارت أسمائهم على ألسنة بعضهم من العربية . وقد كانت بطانتهم من المغاربة : هم جنودهم ، وهم ولاتهم ، وهم مُدَّتهم في الحرب والسلم .

كان جماعة منهم قد تولوا الخلافة ، وبويعوا بامارة المؤمنين ، كما رأينا في الجزء الأول من هذا الفصل . وأول من بويع منهم في قرطبة علي بن حمود الناصر، ثم القاسم المأمون أخوه ، ثم ابن الأول يحيي بن علي المعتلي . وعندما خلع يحيي في المرة الثانية من خلافته ، توجه الى مالقة وفيها بايعه أنصاره ، فنهض لمحاربة عمه القاسم الذي كان قد استقر بمدينة شريش، فحاصره ، وأسره ، الى أن مات في سجنه ، وقيل دس له من خنقه فيه .

شملت مملكة يحيي مالقة ، والجزيرة الخضراء ، والمرية ، وشريش ، وسبتة ، وقد أقر عليه مقسط عمه القاسم ، أخاه ادريس . ولما مات يحيي في احدى معاركه الكثيرة مع بني عباد سنة 427 ، استقام أخوه أن يخلفه ، وقد تلقب بالمتأيد بالله .

كثرت الفتن والانقلابات في مملكة بني حمود حتى اتسما ألقست فشاء كثيرا من الاضطراب والتناقض على روايات المؤرخين الذين حاولوا أن يؤرخوا لهذه الدولة[1]، وأبرز ما يمكن استخلاصه من كل ذلك أن هذه الامارة كانت في حرب طاحنة لا تنقطع مع بني عباد حكام اشبيلية ، فكانوا يناصبونهما العداء الشديد ، ويكيدون لها بتدبير الفتن والثورات فيها . وكانت دول المغاربة ، ولاسيما دولة بني زيرى بغرناطة ، تهب لمساعدتها ، الى أن ضعفت دولة بني حمود أتم الضعف ، فتلاشت ، واقتسمها الأقوياء آنئذ . وقد فاز منها باديس أمير غرناطة الزيري ، بمالقة ، الى أن استولى عليها وعلى الجزيرة الخضراء ملك اشبيلية المعتمد بن عباد .

كانت دولة بني حمود تقوم ــ في أزمنة قوتها ــ بدور الزعامة الأدبية (الروحية) لدى معظم الدويلات المغربية التي قامت في الأندلس ، ومنها كبيرتهم دولة الزيريين في غرناطة . وحتى عندما قوى أمر باديس قائده لم يخلع أبدا السلطة الشكلية لبني حمود حتى تلاشت قوتهم ولم يعد ما يسوّغ اعلان التبعية ــ ولو كانت شكلية ــ لهم .

(1) انظر كتاب " تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف أشباخ ، ترجمة عنان ، ص : 29 ، والتعليق على ذلك في الحاشية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — دول الاسر العربية الأندلسية وموالي بني أمية :

3 . 1 — بنو هود في سرقسطة :

أسس مملكة بني هود رجل منهم يسمى سليمان بن محمد بن هود ، وكان قبيل الفتنة ضابطا في الجيش المكلف بحماية الثغر الأعلى : سرقسطة وما والاها . فلما نشبت الفتنة ، نصب نفسه على مدينة لاردة وأحوازها بعد أن قتل صاحبها : أبا المطرف التجيبي سنة 451 .

وفي هذه الاونة ثار أهل سرقسطة على أميرهم عبدالله بن حكيم ، فخرج منهما فارا ، فاجتمع الأهالي على الدخول في طاعة سليمان بن محمد بن هود ، فقدم اليهم ، ونزل بدار الامارة فبويع بها ، وأصبح ملكا لسرقسطة ، ولاردة ، وما بينهما من مدن وحصون ، وتلقب بالمستعين بالله .

توفي سليمان المستعين هذا عام 438 ، وترك خمسة أولاد ، كان قد قسم بينهم المملكة في حياته : فتولى أحمد مدينة سرقسطة ، ويوسف مدينة لاردة ، ومحمد قلعة أيوب ، ولب مدينة وشقة ، والمنذر مدينة تطيلة .

استقل كل واحد منهم بجهته ، فتمزقت هذه الامارة الصغيرة الى كل هذه الأقسام ، وكان أحمد صاحب سرقسطة دائم السعي الى توسيع سلطته ، فدبر المكائد لاخوته حتى خلع ثلاثة منهم ، ولم يستعص عليه — بصفة خاصة — الا أكبرهم وهو يوسف المسمى حسام الدولة ، صاحب لاردة . ولم تطب نفوس الناس لما فعله أحمد باخوته ، فثاروا عليه ، وبايعوا أخاه يوسف ، وبذلك لم يبق له الا مدينة سرقسطة ، فتحالف مع صاحب المملكة النصرانية المجاورة له : أبن رد ميره فهزم يوسف ، وقوي شأن أحمد ، فرجع الناس اليه بالطاعة ، فتوحدت المملكة تحت رايته ، وتلقب بالمقتدر بالله .

في أيام أحمد المقتدر بالله كانت وقعة النورمانديين[1] على مدينة بوبشتر . فقد حاصروها بآلاف الفرسان والرجالة حتى سقطت في أيديهم فانتهكوا الحرمات ،

---

(1) يسميهم المؤرخون القدامى " الاردمانيين " وأحيانا " المجوس " وهم أهل الشمال من سكان الأرض الاسكندنافية . راجع بسدلة تاريخية موجزة عنهم وعن نشاطهم الحربي في تعليق لمحقق جزء من "المقتبس" لابن حيان ص 240 — 252 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأذلوا الناس ، وأكثروا فيهم القتل ، وسبوا ما استطاعوا من النساء . وذلك عام 456 . وتركوا حامية على المدينة ، فصبأ المقتدر بالله الناس للجهاد واستردها سنة 457 . وظل المقتدر في حرب مع جيرانه النصارى ، تارة يحالفهم ويدفع لهم الجزية ، وتارة يثور عليهم ويصارعهم ، الى أن توفي عام 474 .

خلفه ابنه المؤتمن فلم يدم عهده الا أربع سنوات اذ توفي عام 478 ، وخلفه ابنه أحمد المستعين الذى داهم النصارى بجيوشه ، واضطرهم الى دفع الجزية له ، ولكن النصارى كمنوا له في طريق عودته ، ففرقوا جيشه ، وقتلوه ، وذلك في عام 503 . وخلفه ابنه أحمد عماد الدولة ، ولكن المرابطين كانوا قد انتشروا في معظم أصقاع الأندلس ، فتسلموا مدينة سرقسطة وأعمالها .

بنو هود والسيد القنبيطور ..

لا نترك الحديث عن بني هود دون الاشارة الى أنهم هم الذين صنعوا البطل النصراني المعروف بـ " لذريق " تارة ، وبـ " السيد القنبيطور " تارة أخرى . فقد نشأ بين ظلال بني هود ، وألم عندهم بمعرفة اللغة العربية . وكان مرتزقا يوجهه أمراء بني هود الى من شاؤوا من أعدائهم حتى بدأ الزحف المرابطي يهدد ملوك الطوائف قاطبة ، فسلط بنو هود " لذريق " على مدينة بلنسية ، ليكون حاجزا بينهم وبين المرابطين . ولكن " لذريق " استشعر قوته ، فأحب أن يستخلص مدينة بلنسية لنفسه ، فعاث فيها فسادا ، وأحرق فيها القاضي ابن جحاف الذى كان قد ثار بها على ابن ذي النون . وبعد احراقه القاضي ، واشتداد تنكيله بالناس ، استغاثوا بالمرابطين فجاؤوها ، وفتحوها عام 495 .

3 . 2 ـ بنو جهور في قرطبة : (1)

عندما خلع أهل قرطبة آخر خليفة لهم ، وهو هشام المعتد ، بعد مقتل حاجبه حكم بن سعيد الحائك عام 422 ، على نحو ما ذكرناه في آخر الجزء الأول من هذا الفصل ،

---

(1) يشير بعض المؤرخين ، ومنهم ابن عذارى في " المغرب . . . " (135/3) ، الى أن الجهاورة من أصل فارسي ، وأن جدهم بخت بن أبي عبدة كان مولى لعبد الملك بن مروان ، وأن يوسف بن بخت هو الذى دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الأول اليها . وهذا لا يغير شيئا في تصنيف دولتهم ، فان لم يكونوا عربا بالاستعراب فهم من موالي بني أمية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اجتمع أعيان المدينة وأعلموا الغاء الخلافة ، واعتماد نظام حكم جديد ، لا عهد للناس به ، وهو حكم الجماعة ، وقد سماه المستشرق دوزي " نظام الجمهورية "(1) .

كان وراء فكرة إلغاء الخلافة أولا ، ثم وراء هذا النمط الجديد في الحكم أبو الحزم ابن جهور الذي كان رجل دين وثقة ، وكانت له من الخصال والفضائل ما جعل الناس ينظرون اليه بعين الاحترام والتبجيل ، ويشاورونه في أمهات قضاياهم .

وقد أشار على الناس أن يكون الحكم جماعيا ، بحيث تتولى جماعة من أهل الرأي قيادة البلاد برئاسة واحد منهم يسمّى " أمين الجماعة " . فانتخبه الناس لهذا الأمر مع مجموعة من أفاضل قرطبة . وقد أحسن ابن جهور التصرف ، وأجاد التحكم في تلك الفوضى المستشرية منذ ربع قرن . فنشطت التجارة في عهده بعد كساد ، واستتب الأمن بعد الفزع والاضطراب ، حتى قال ابن حيان أن الناس لم يعودوا في حاجة الى النظام والتقاضي(2) على ما قد ينطوي عليه هذا القول من المبالغة .

التزم أبو الحزم بن جهور باستشارة أعضاء الجماعة ، فكان لا يصدر أمرا الا بالرجوع اليهم ، واذا ورد البريد عليه لم يفتحه الا بحضور وزراء تلك الجماعة . وكان رجلا متواضعا ، فأقام في داره المعتادة ، ولم ينتقل الى واحد من القصور الكثيرة المبثوثة في عاصمة الخلافة .

توفي هذا الرجل الحكيم عام 435 ، فخلفه ابنه أبو الوليد(3) والذي سار سيرة أبيه في سداد الرأي ونفاذ البصيرة ، ولكنه خطا خطوة أخرى في نهج الابتعاد عن روح النظام الجماعي الجديد حين قسم الأمر في حياته بين ولديه : فكلف الأكبر ، واسمه عبدالرحمن بالشؤون المدنية ، من ادارة ومالية ، وولّى الثاني ، واسمه عبدالملك ، الشؤون العسكرية .

---

(1) دوزي ، تاريخ مسلمي أسبانيا : الفصل الأول من الجزء الثالث .
(2) ابن حيان ، عن ابن بسام في الذخيرة : 1/2 ص604 ، وأخبار بني جهور في هذا الكتاب من ص 604 الى ص 611 .
(3) وهكذا كان عمر هذه التجربة " الجمهورية " قصيرا ، مما يدل على أن الناس قد غلبت عليهم عادة الملك الوراثي ، ولو وجد المفكرون الذين يعمقون البحث في هذه النظرية ، لكان للأندلس فكر سياسي متقدم على عصره . ولو أن الناس فهموا هذه الصيغة الشريفة وطبقوها بأمانة لجنبت البلاد كثيرا من الويلات . . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتقدمت السن بأبي الوليد ، فعجز عن متابعة أمور " الجماعة " بنفسه ، فاستبد عبدالملك بالأمر دون أخيه ، ولعله اشتط في الحذر منه ، ففرض عليه الاقامة الاجبارية في بيته [1] . وقد أحاط عبدالملك نفسه ببطانة السوء ، وكان يبدو أن جماعة منهم جواسيس وعملاء لبني عباد ، أصحاب اشبيلية ، الذين كانوا يتطلعون بلهفة الى ذلك اليوم الذي يضمون فيه قرطبة العظيمة الى مملكتهم . بيد أنهم كانوا يخشون بأس وزير بني جهور المدعو : ابن السقاء المشتهر بحصافة الرأي ، والقدرة على المبادرات الذكية . فظلوا يكيدون له عند عبدالملك بواسطة عملائهم في قرطبة — حتى أوقعوه وقتله .

وحانت فرصة بني عباد لتحقيق حلمهم القديم بمناسبة غزو المأمون بن ذي النون قرطبة عام 462 بجيش لا قبل لدولة قرطبة بمقاومته ، فاستنجد عبدالملك بالمعتمد ابن عباد ، فأمده بجيش أحكم مع قادته خطة مدبرة . فلما رأى ابن ذي النون المدد يتوالى من اشبيلية لمساعدة أهل قرطبة ، لا لمساعدته هو كما كان قد اتفق مع بني عباد [2] عاد مسرعا ، فدخل جيش اشبيلية قرطبة ، وتحركت جواسيس ابن عباد وأخذت تحتث بسقوط عبدالملك ، وتنادي بالانضمام الى اشبيلية . وفي غمرة هذه الفوضى والاضطراب الذين سادا الناس ، هجم ابن مرتين ، قائد جيش الاشبيليين على عبدالملك ، وأخيه عبدالرحمن ، وأبيهما الشيخ أبي الوليد ، وسائر أنصارهم ، فاعتقلوهم ، ثم نفوهم الى جزيرة شلطيش ، وجاء المعتمد بن عباد الى قرطبة فملكها وضمها الى مملكته سنة 462 . وبذلك انتهت دولة بني جهور ، وفقدت قرطبة مركزها الحضاري ، ودورها أو ما بقي لها من دورها الثقافي .

3 . 3 — دولة بني عباد في اشبيلية : [3]

يرجع بروز مؤسس هذه الدولة الى العهد الأخير من سنوات الفتنة ، والى عام 414 على وجه التحديد . ففي هذه السنة ، ثارت قرطبة مرة أخرى على القاسم بن حمود في ولايته الثانية ، فخرج من العاصمة بأنصاره وجيشه ، ومعظمهم من المغاربة ، فسار

---

(1) انظر في هذا " البيان المغرب . . " لابن عذارى : 3 / 253 .

(2) كنا ألمحنا الى طروء هذا الاتفاق الذي لم يحترمه ابن عباد عند الحديث عن دولة بني ذي النون .

(3) بنو عباد عرب من حمص جاء جدهم مع جند الشام بقيادة بلج . وقيل انهم لخميون من اليمن ثم أشاعوا . . . هم . . بعد أن توطد ملكهم بأنهم من نسل المناذرة ملوك الحيرة قبل الاسلام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخليفة المخلوع باشبيلية يريد النزول بها مع من معه . ولكن أهل اشبيلية كانوا يخشون أذى المغاربة وانتقامهم ، فسارعوا الى اغلاق الأبواب دونه ، واحتجزوا ولديه : محمد والحسن اللذين كانا ضمن كتيبة مغربية كان قد بعث بها القاسم بن حمود أيام ولايته الخلافة . وقد اشترط الاشبيليون عليه أن لايردوا له ولديه الا اذا صحّت منه النية على عدم دخول مدينتهم ، والرحيل عن أحوازها . فوافق القاسم على ذلك .

كان القائم بهذه الاتصالات قاضي البلد محمد أبو القاسم بن عباد (1) . فلما انصرف المغاربة ، وأحس الاشبيليون بابتعاد الخطر ، عزم أهل الرأي على تولية القاضي أبي القاسم بن عباد أمر مدينتهم . ولكن القاضي كان رجلا ذكيا ، كثير الحسابات ، لم يكن ليتقبل تحمل المسؤولية المطلقة في مثل هذه الظروف العصيبة من تاريخ الأندلس ، بالاضافة الى أن عودة القاسم بجيش كبير من المغاربة ، للانتقام من أهل اشبيلية ، لم يكن أمرا بعيد الاحتمال . لذلك اشترط القاضي ــ لقبول هذه المسؤولية ــ أن يؤذن له بتعيين جماعة من أعيان البلدة يكونون له مستشارين ووزراء . فقبل الناس شرطه . فعين جماعة من أقاربه وأنصاره ، منهم : الهوزني ، وابن حجاج ، وابن مريم ، وأبو بكر الزبيدي النحوي . . . وما أن استقر له الأمر بعد قليل ، ورتب أمور الجيش ، وخفت حدة خشيته من مداهمة القاسم بن حمود ، حتى انفرد بالأمر بعد أن أبعد أعضاء الجماعة ، الذين كان قد اختارهم، واحدا ، واحدا ، بنفسه .

ومنذ ذلك الحين بدأ يفكر في توسيع مملكته ، فغزا باجة ، وتغلب على جيش بني الأفطس أصحاب بطليوس ، وأثار حيرة الناس وفضولهم بقضية هشام المؤيد .

قضية هشام المؤيد .

كان طموح القاضي ابن عباد أوسع من أن تكفيه امارة ضيقة تقتصر على مدينة اشبيلية وبعض أحوازها . لذلك فكر في وسيلة يخضع بها سائر ملوك الطوائف لارادته ، وسائر امارتهم لسلطانه ، فاختلق أسطورة ظهور

---

(1) كان القاسم بن حمود نفسه هو الذي عين ــ أيام خلافته ــ أبا القاسم بن عباد قاضيا على اشبيلية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هشام المؤيد [1] عنده ، وكان قد عثر على رجل يشبه هشاما في خلقته ، فأشاع في الناس أنه في القصر عنده باشبيلية ، وأنه يتولى الحجابة له . ثم أخذ يراسل ملوك الطوائف يطالب البيعة له . وانقسم الناس بين مصدق ومكذب ، فجاء وفد من قرطبة للتحقيق في الأمر ، فأجلسه لهم في ناحية مظلمة من القصر ، بحيث لم يستطيعوا تمييز ملامحه بدقة ولكنهم سمعوه يتكلم .

لم تنطل هذه الحيلة على معظم أمراء الطوائف ، فلم يخضعوا لرغبة ابن عباد ولم يعترف به منهم الا ثلاثة لاعتبارات سياسية بحتة ، وهم : عبدالعزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية ، ومجاهد صاحب دانية والجزائر الشرقية ، وأمير طرطوشة . وخطب له بنو جهور على المنابر حينا .

وحاول القاضي ابن عباد أن يدخل مدينة قرطبة مع هشامه المزعوم ، فأغلقت أبوابها دونه ، فعاد خائبا اذ لم يكن له من قوة الجيش ما يتيح له أن يدخلها عنوة .

توفي القاضي أبو القاسم بن عباد سنة 431 ، فخلفه ابنه اسماعيل الذي عرف بلقبه " المعتضد بالله " ، وقد زعم أيضا أنه حاجب لهشام . وكان المعتضد رجل حرب وصراع ، عنيف التصرف ، شديد المراس ، لا تطرق الرحمة باب قلبه حين يتعلق الأمر بشؤون الحكم والسياسة . قضى معظم أيامه في حرب جيرانه : حارب باديس صاحب غرناطة ، والقاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، والمظفر بن الافطس صاحب بطليوس . . . . وكان في كلّ مرة يوسع حدود مملكته ، ويزيد في هيبتها في الداخل والخارج . وعندما استقامت له الأمور ، واستشعر القوة الكافية ، أحب أن ينهي بنفسه أسطورة هشام المؤيد ، فأعلن موته على الملإ .

توفي المعتضد سنة 461 . وخلفه ابنه المعتمد على الله .

---

(1) كان هشام المؤيد ، الذي بدأت محنته منذ وفاة أبيه الحكم المستنصر ، وبلغت أوجها بعد أن انتصر محمد بن أبي عامر المنصور على المصحفي ، واعتلى كرسي الحجابة ثم استمرت به الحال كذلك في جميع العهود ، ومع كل الثائرين الذين تسلموا السلطة في قرطبة ، كان قد اختفى عندما عاد سليمان المستعين من المرة الثانية الى السلطة عام 403 ، فلم يعرف أحد ما الذي آل اليه مصيره . وأغلب المؤرخين على انه سار الى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومات هنالك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان المعتمد قد تمرّس في حياة أبيه بكل فروب السياسة والحرب فولي على المدن، وقاد الجيوش، وخاض الحروب، فكان نجم أسرة بني عباد وقد مكن لشهرته عند كل الذين درسوا التاريخ الأندلسي، عربا ومستعربين، شيئان :

— أولهما أنه كان شاعرا بارعا، تلتقي في شعره صلابة الفارس العربي، ورقة العاشق المتولّه .

— وثانيهما أنه آخر ملوك أسرته، إذ انتهت مملكته في عهده نهاية مأساوية حين قضى المرابطون على دولة اشبيلية عام 434 وساقوا زعيمها المعتمد أسيرا الى بلاد المغرب، حيث مات في موضع منها يدعى أغمات عام 488، بعد أن ذاق في أسره مرارة الذل بعد العز، وشاهد بناته المدللات وأمهن الرميكية العزيزة على قلبه، يتعقرتن بغزل الصوف الناس لقاء أجر زهيد . وقد أودع شعره نغمات حزينة مؤثرة من هذا البؤس الكبير .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا : تعاظم النفوذ المسيحي في الممالك الاسلامية ووعي المسلمين بالخطر الداهم.(1)

ظلت الممالك النصرانية، التي أقامها الاسبان في شمال الجزيرة الايبيرية، في القسم الذي لم يصل اليه الفتح الاسلامي، ظلت تتصارع فيما بينها، ويسطو بعضها على بعض. فكانت في عهدها الأول صورة من "ممالك الطوائف" من بعض الوجوه في فترة الضعف والتمزق من تاريخ المسلمين في الأندلس. وكانت تلك الممالك النصرانية، اذا بلغ من طموحها أن تهدد بعض أطراف المملكة الاسلامية، في أيام عزها، سارع اليها جنود الثغور بالانتقام والتأديب. بل لقد استطاعت الأندلس في تلك الآونة من قوتها أن تتحكم في هذه الدويلات، وأن توجه أرادتها بما يخدم مصالح المسلمين، فكان الخلفاء والحجاب يستعينون ببعضها على بعض، وكانت تعد نفسها سعيدة حين تحظى بقبول المسلمين ومحالفتهم.

بيد أن المسلمين لم يوفقوا أبدا، منذ الفتح الى آخر مظاهر قوتهم زمن الموحدين، في اخضاع شبه الجزيرة الاسبانية كلها. والقضاء النهائي على الخطر الكامن في شمالها. وقد كانت صوائف المنصور وشواتيه، وكذلك بعض غزوات أبنه عبد الملك المظفر، تصل الى أقصى أراضي هذه الامارات، وتشيع فيها القتل والخراب، ولكنها لم يعملا أبدا على أساس الفتح الاستيطاني لتلك الأراضي، وضمها الى دولة الاسلام، بل كان كل منهما يكتفي بما يعود به من النصر المعنوي، والغنائم المتنوعة ...

وهكذا ظلت هذه الجيوب المتناثرة في المسالك الجبلية، والمرتفعات الوعرة، تنتظر فرصة الانقضاض على المسلمين، واسترجاع ما أخذوه من بلادهم، حتى كانت الحرب الأهلية الطويلة، التي عرفت عند المؤرخين بالفتنة، وما صحبها وأعقبها من فوضى واضطراب، وتمزق، وانهيار للسلطة المركزية، فوقع حينئذ انقلاب حاسم في موازين القوى، بين المسلمين وأعدائهم التقليديين من نصارى الشمال.

---

(1) اعتمدنا في هذا القسم اعتمادا أساسيا على دوزى "تاريخ مسلمي اسبانيا" 3/74 — 30 وأشباخ تاريخ الأندلس، ترجمة عنان ابتداء من ص: 63.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس عجيبا أن تصادف بداية هذا الانقلاب بداية الفتنة . فبعد اندلاعها بسنة ، وفي عام 399 بالتحديد ، التقى عند "سانشو" كونت قشتيليا [1] وفدان مسلمان، أحدهما أرسله الخليفة المهدي ، محمد بن هشام بن عبدالجبار ، صانع الفتنة والثاني أرسله سليمان بن الحكم ، وهو الذي بايعه المغاربة بالخلافة وسيتولاها فعلا في قرطبة بلقب المستعين . وكان كل منهما يطلب محالفة الكونت على الفريق الآخر . وكان وفد المهدي قد جاء يحمل الهدايا السنية والتحف الفاخرة ، وقد وعده بتسليمه ما شاء من الحصون والمدن الاسلامية اذا خفّ لمساعدة المهدي ، وعاونه على صد جيوش سليمان بن الحكم التي تستعد لغزو قرطبة .

وهكذا شُقّ طريق لاَ حِجْرَ الى تساقط مدن الأندلس وقلاعها ، الواحدة بعد الأخرى في أيدي النصارى .

وافق الكونت على ما يعرضه وفد المهدي دون أن يغلق الباب في وجه وفد سليمان (المستعين) ، ذلك أن الحصون التي يساوم عليها كانت تقع تحت سلطة الأول . فلما كانت سنة 401 ، بُعيد مقتل المهدي [2] ، بعث الكونت سانشو رسوله يستنجز تسليم الحصون التي تمّ الاتفاق عليها . فاجتمع عند واضح [3] نفر من الفقهاء والعدول ، وحرروا وثيقة تسليم الحصون المطلوبة . وقد فاز الكونت النصراني ، بلا حرب ولا خسارة، بكل القلاع والحصون التي كان قد فتحها في الأرض التابعة له : الخليفة الحكم ، والحاجب المنصور ، وابنه عبدالملك المظفر [4] .

رأى أمراء النصرانية هذه البادرة ، فأخذوا يتسابقون الى الفوز بحصون المسلمين بمجرد تهديد هذا الفريق أو ذاك ، بأنهم سيحالفون عدوه اذا لم يتنازل لهم عن قائمة يضبطونها بالحصون والمدن المطلوبة . لقد بدأ أمر النصارى في القوة ، وكانت هذه القوة نتيجة عاملين : الأول ضعف المسلمين وتمزقهم ، والثاني وعي المسيحيين بأهمية وحدتهم .

---

(1) يسميه بعض المؤرخين العرب " القنط " وأحيانا " القومس " ابن مامة . انظر البيان المغرب 3/86 .

(2) قتل المهدي (محمد بن هشام بن عبدالجبار) في ذي الحجة سنة 400 .

(3) واضح الفتى ، قائد الثغر ، استحجبه المهدي ومع ذلك اشترك في التآمر عليه وقتله . فلما عاد الأمر الى هشام المؤيد أقره على الحجابة .

(4) راجع خبر تسليم هذه الحصون في " البيان المغرب .... " 3/103 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأندلس أصحاب بطليوس، كما حاول بنو هود أصحاب سرقسطة أن يعاونوا ملك بني ذي النون : " القادر " في محنته ومحنة المسلمين معه ، ولكنهما كانا مشغولين بحروب جيرانهم المسلمين ، فسقطت طليطلة في يد ألفونسو السادس في 2 محرم سنة 478 ، وقد استردها النصارى بعد 372 عاما من الحكم الاسلامي .

بعد هذه الانتصارات ، أعلن ألفونسو السادس انه يريد استرجاع كل بلاد الأندلس من يد المسلمين ، وقد ضمّ الى مملكته كل المدن والقلاع والحصون المجاورة لطليطلة ، مثل : مجريط ، ومقشوده ، ووادى الحجارة ، وقلعة رباح ... حتى أضحت مراكزه المتقدمة تهدد مدينة قرطبة بالذات . ثم أخذ يهاجم مدينة سرقسطة استعدادا للمعركة الفاصلة مع جيشها في عهد أميرها : أبي جعفر المستعين بالله .

الوعي بالخطر الداهم

كان المعتمد بن عباد قد سارع الى عقد التحالف مع الفونسو السادس اذ كان يخشى أن يسبقه أعداؤه الى ابرام الحلف معه . وقد أمضى المعاهدة وزيره ابن عمّار ، وكانت تنص على أن يعاون الملك القشتالي ملك اشبيلية ضد كل أعدائه من المسلمين ، وأن يلتزم المعتمد بشيئين : دفع مبالغ كبيرة من المال للملك المسيحي ، وعدم الاعتراض على احتلال مدينة طليطلة . فلما رأى ابن عباد تصرفات حليفه في سائر الأرض التي تلي طليطلة ، وتأكد من أنه أضحى يهدّد مملكة اشبيلية بالذات وقرطبة منها ، بعث اليه رسولا يذكره بأن المعاهدة بينهما تقتصر على احتلال طليطلة دون غيرها ، ولكن ألفونسو كان وقتئذ أقوى من أن يعبأ بملاحظات ابن عباد .

كان المسلمون قد اهتزوا ، في كل أرجاء الأندلس ، لسقوط مدينة طليطلة . وبات ملوك الطوائف كلهم على علم يقين بمدى الخطر الذي يهددهم ، ويهدّد اماراتهم ، وقد صاروا يرون رأى العين ماكان يتنبأ به الصالحون من الناس وهم يرون " ثوب الجزيرة " يتساقط خيطا خيطا . واذ لم تعد تجدى الآن وحدتهم بعد أن خبّوا وأوضعوا في ميدان تفريق شمل المسلمين وتشتيت جمعهم ، فقد بقي لديهم من القدرة على استشعار الخطر الداهم ما جعلهم يُجمعون ، بعد المشاورات والاتصالات فيما بينهم ، على أنه لاينقذ البلاد من الداء المستشري فيها إلاّ الاستنجاد بدولة ناهضة ، هناك وراء البحر ، في بلاد المغرب ، بدأت الألسن تلهج بقوتها ، وصلاح أمرائها ، وهي دولة المرابطين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا قرروا أن يرسلوا عنهم وفدا الى المغرب ، يستصرخ المسلمين القائمين هناك ، ويطلب الاسراع بعبور المضيق قبل فوات الأوان ، والا كانت في الأندلس كارثة كبرى على الاسلام والمسلمين .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادسا : عبور المرابطين : انقاذ الأندلس، ثم القضاء على سيادتها .

كانت دولة المرابطين في هذه الآونة قد استقام لها الأمر في المغرب[1] وبلغت أوج قوتها . فقد استطاع مؤسسها يوسف بن تاشفين أن يوحد بلاد المغرب كلها تحت رايته ، وأن يتحكم في هذه الأرض المترامية ذات الطاقات البشرية الهائلة .

أما في الأندلس، فبعد أن تحمل المعتمد بن عباد القسط الاثقل من المسؤولية في سقوط طليطلة ، بعقده ذلك الحلف المشين مع الفونسو السادس ، بادر بالتحرك في اتجاه توحيد الكلمة بين ملوك الطوائف ، وجمع شملهم ، وغدا أكبر داعية لنبذ كل ما من شأنه أن يفرق ، وسعى في الحث على استدعاء القوات المرابطية ، وقد صارت في نظرهم المنقذ الوحيد لبلاد الأندلس من الضياع .

لكنّ ما كان ينغص على أمراء الطوائف استراحتهم الى هذا الحل ، ويعكر عليهم صفو الاطمئنان بالجوء اليه هو خشيتهم من أن يتصدى المرابطون للقضاء على ممالكهم بمجرد ابعاد الخطر النصراني . ولقد كان مستشاروهم ونصحاؤهم من ذوي العلم بالسياسة وتصرفات أحوالها متيقنين من أن يوسف بن تاشفين لن يستطيع مقاومة رغبته في استخلاص الأندلس لنفسه ، وهو الذى أبدى تلك العزيمة التي لا تفل في توسيع مملكته حتى شملت أرجاء المغرب كله .

بيد ان ملوك الطوائف كانوا أمام اختيارين لا ثالث لهما ، وقد آلت الأمور الى ما آلت اليه : فإما أن يمسكوا عن استدعاء المرابطين ويتركوا البلاد تسقط كلها قريبا في يد النصارى ، واما أن يلوذوا بالمغاربة ، وفي هذه الحالة تكون احتمالات القضاء عليهم وعلى ممالكهم أمرا لا مجال لتجاهله . على أن الفرق الجوهري بين الاختيارين هو أن في تغلب النصارى زوال الاسلام والمسلمين من البلاد ، في حين أن في تغلب المرابطين زوالا لممالكهم وحدها ، ويبقى الاسلام في جميع الأحوال ، وعلى هذه الصورة لم يبق لهم أي اختيار .

---

(1) انظر أخبار ذلك بالتفصيل في الجزء الرابع كله من البيان المغرب لابن عذاري . ويراجع ما كتبه يوسف اشباخ في كتابه : " تاريخ الأندلس في عهد المرابطين الموحدين " عن نشأة دولة المرابطين من ص 62 الى ص 73 . (ترجمة عنان) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل عبارة ابن عباد المشهورة تلخص الموقف أحسن تلخيص ، وذلك حين ردّ على من كانوا يحذرونه من خطر استدعاء المغاربة بقوله : " رعي الجمال خير من رعي الخنازير " (1) ثم ينبغي أن لا ننسى أن جماهير المسلمين الأندلسيين كانت تمارس على الحكام ضغطا شديدا في اتجاه التعجيل باستدعاء المرابطين . وذلك مالم يكن من السهل تجاهله ، وأمراء الطوائف في الموقف الذى هم فيه من الضعف والضيق والحرج .

وهكذا اتفق ملوك الطوائف على تأليف الوفد الذى يذهب الى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ليقنعه بضرورة العبور السريع الى الجزيرة المهددة . فكان يضم : أبا اسحاق بن مقانا قاضي بطليوس ممثلا المتوكل الافطسي ، وأبا جعفر القليعي قاضي غرناطة ، ممثلا للأمير عبدالله الزيرى ، ومثّل قرطبة قاضيها ابن أدهم ، وعين لرئاسة الوفد أبو بكر ابن زيدون (2) وزير المعتمد .

قَبِل يوسف بن تاشفين مبدأ العبور ، واشترط أن تسلم له الجزيرة الخضراء ليتخذ منها قاعدة أمينة لانسحاب جيوشه عند الضرورة ، واشترط الوفد الأندلسي عليه أن لا يعزل ملوك الأندلس ، وتمّ التفاهم والتراضي .

ما ان وصلت الجيوش المغربية الى الجزيرة الخضراء ، بعدتها وعتادها ، حتى أدرك النصارى خطورة الموقف عليهم ، فانسحبت جيوشهم من بلنسية ، ورفعوا الحصار عن سرقسطة التي كانت وشيكة السقوط ، وتقدموا للقاء الجيوش الاسلامية التي كانت قد استعدت غاية الاستعداد ، ووزعت فيها المسؤوليات والقيادات ، جيوش الأندلسيين بقيادة المعتمد بن عباد ، وجيوش المغاربة بقيادة يوسف بن تاشفين .

وعسكر الجيشان ، فتراسل الطرفان لتحديد يوم القتال ، فاقترح النصارى يوم الاثنين (3)، ولكن المعتمد كان يخشى غدر عدوّ يعرف مبلغ مكره ، فظل على احتراس متحسبا لكل مفاجأة،

---

(1) يوجد اختلاف كبير بين المؤرخين حول العبارة التي نطق بها المعتمد . وانظر هامش عنان في تاريخ أشباخ ، ص 73 .

(2) ينبغي عدم الخلط بين أبي بكر هذا ، وأبي الوليد بن زيدون صاحب ولادة . فالأول هو ابن الثاني ، وكان وزيرا للمعتميد بن عباد .

(3) وقع الاتفاق يوم الخميس ، وكان ألفونسو هو الذى اقترح الاثنين ، لأن الجمعة للمسلمين ، والسبت لليهود وهم كثرة في جيشه ، والأحد للنصارى . وانما كان الملك القشتالي يضمر الخديعة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ما توقعه ، اذ هجم النصارى يوم الجمعة أوان وقت صلاتها . فكان جيش الأندلسيين بقيادة المعتمد أول صادم للجيش النصراني ، ففوت عليهم فرصة المباغتة .

أبلى المسلمون بلاء حسنا ، فأبادوا جيش أعدائهم ، ووصلوا الى سرادق الملك فأضرموا فيه النار ، وأصابوه هو بجرح بليغ ، ولم ينجه الا الفرار في عدد قليل من الفرسان [1] هم كل مابقي من ذلك الجيش العرمرم الذى عبأه لقتال المسلمين .

تعرف هذه المعركة الفاصلة بالزّلاقة ، وقد جرت عام 479 على أوثق الروايات على اختلاف أيضا في اليوم والشهر ، ويرجح المختصون يوم 12 رجب من السنة المذكورة [2] .

ردت هذه المعركة الظافرة الثقة الى أهل الأندلس وانتشرت إثرها الفرحة في كل الأرجاء . وكان من الممكن أن تصير ذات أثر أبعد لو أن المسلمين واصلوا السير ، وتعقبوا عدوهم المنهك ، ولكن ذلك لم يتم لأن ملك المرابطين قد بلغه موت ابنه أبي بكر الذى تركه نائبا عنه في مراكش ، فاضطر الى العودة على عجل .

ومن العجيب أن المسلمين ظلوا يكررون في الأندلس منذ الفتح ، الخطأ نفسه ، فلا يستأصلون جذور عدوهم كلما واتتهم الفرصة لصنع ذلك .

وهكذا تدفقت المتطوعة من كل أنحاء أوربا على الفونسو السادس الذى أضحى بطل النصرانية جمعاء . وكان الرجل ، بكل انصاف ، محاربا عنيدا ، وبطلا مغوارا لا يعرف الفشل طريقا الى نفسه ، فلم تمض الا سنة بعد الهزيمة النكراء التي لحقت به في الزلاقة حتى استجمع قواه ، وعاد من جديد الى سيرته الأولى يهدد ملوك الطوائف ، ومرة أخرى هرع هؤلاء الى ابن تاشفين يستصرخونه ، وقد سافر المعتمد نفسه الى المغرب ، وقابل ملك المرابطين ، وألح عليه في أن يرسل الجيش ثانية الى الأندلس لانقاذها ، وكان يودّ في نفسه لو اكتفى بارسال الجيش — دون مجيئه بنفسه — وتأميره هو — المعتمد بن عباد — عليه لقيادته .

---

(1) تختلف الروايات في تقديرهم ما بين : عشرين ، وبضع مئات .
(2) لأنه هو الذى يطابق التواريخ المذكورة في المصادر النصرانية الاسبانية وهو : 23 أكتوبر 1086 م .
وانظر هامش المترجم في كتاب أشباخ " تاريخ الأندلس . . . " ص، 86 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعبر ابن تاشفين مرّة أخرى بجيوشه في بداية صيف 481 ، وتقدم لمنازلة النصارى في حصن لَبِيط[1]، ولكن حملته لم تحقق من النصر ما يلفت النظر ، أو يكون مضاهيا لمعركة الزلاقة .

بيد ان المهم في عبور ابن تاشفين هذه المرة ، هو أنه وقف بنفسه على تفاهة ملوك الأندلس ، ومكائدهم بعضهم لبعض ، وعلم مقدار خوفهم من المرابطين على اماراتهم . وقيل انه علم بالاتصالات التي قام بها ابن عباد مع حليفه القديم الفونسو السادس للتعاون معه على طرد المرابطين[2] وابعاد خطرهم عن ولايته .

ودعت شؤون المغرب ، مرة أخرى ، يوسف الى الاستعجال في العودة الى مراكش ، ولكنه كان مصمما هذه المرة على ازالة ملوك الأندلس ، والقضاء على اماراتهم في أقرب فرصة .

وبالفعل ، عادت جيوش المرابطين ، بدون يوسف هذه المرة ، وما ان وطئت أرض الشاطئ الأندلسي حتى توزع الجيش مهمة تقويض عروش الطوائف ، فتوجه قسم منه بقيادة البطل المرابطي سير بن أبي بكر نحو مملكة اشبيلية ، على أن يثني بعدها بمملكة بني الأفطس في بطليوس ، وسار قسم آخر بقيادة عبد الله بن الحاج الى قرطبة ، وزحف قسم ثالث من الجيش على المرية بقيادة أبي زكرياء بن واسنو .

دخل المرابطون اشبيلية عنوة بعد قتال مرير قاد فيه المعتمد جيشه بنفسه ، فاحتلوها في رجب من عام 484 . واقتيد المعتمد وأهله جميعا الى المغرب ، واستقر به مقام الاسر بعد التنقل ، في أغمات حيث ظل يعذب تقلب أيامه الى أن مات عام 488[3].

وتوالى سقوط المدن والممالك الأندلسية ، فسقطت المرية ، ثم سقطت ممالك شرق الأندلس كلها وخضعت لقائد الجيش المرابطي داود بن عائشة ، وسقطت مملكة بطليوس أمام جيش سير بن أبي بكر ، وقد تسلم العاصمة صلحا ومع ذلك جلد أميرها المتوكل ثم قتله مع ولديه . وحمل رأسه على الرمح ، وذلك عام 487 . وبذلك دانت الأندلس ا للمرابطين باستثناء مملكة بني هود في سرقسطة التي ترك لها شبه استقلال داخلي ا على حدود النصارى .

سم أحيانا بالياء "لَيِّيط" ، انظر الذخيرة _ 2 : 1/2 ص 262 .
ا يتآمر على طردهم ساعتئذ ، وهو بعد لم ينفض غبار السفر عنه من رحلته الى المغرب كان يتوسل لملك المرابطين أن يرضى بعبور جيشه ثانية الى الأندلس ؟
خلاف في تاريخ وفاته ، قيل عام 487 وقيل 488 . وانظر كتاب "المعجب . . . "
احد ص 208 . وهامش محقق الكتاب (سعيد العريان) رقم 1 من الصفحة نفسها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا زال ملوك الطوائف ، وعادت قرطبة عاصمة الأندلس ، وأنقذت الأندلس الى حين ، وظلت المعارك بين المسلمين والنصارى بين مد وجزر ، تارة تسفر عن غلبة هؤلاء ، وتارة عن غلبة أولائك ، الى أن تضمحل دولة المرابطين ، ويدب في كيانها الضعف ، وتعود الأندلس الى مواجهة الخطر الماحق من جديد . واذا كان هذا شأن الحكم والسياسة في هذه الفترة من تاريخ الأندلس ، فكيف كانت أوضاعها الثقافية وقتئذ ؟ .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

البيئة الثقافية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

البيئة الثقافية

عندما نذكر البيئة الثقافية ، فان هذا التعبير ، بمفهومه الصحيح ، يتجاوز بنا ذلك الجانب المحدود المتمثل في الانتاج الأدبي ، وما أنشأه الناس فيه من فنون النثر والشعر ، الى ميدان أرحب يستغرق كل مظاهر الانتاج العقلي والفني ، أي مايصدر عن فكر الانسان ، ووجدانه ، ومهارة يديه . واذا كنا لا نطمح في هذه الصفحات القليلة الى استقصاء كل هذه الجوانب ، لاتساعها ، وتعددها ، وخروجها عن غرضنا المقصود ، فان الذي نحسب أن نحاول القيام به هو الوقوف بايجاز عند أهمّ ملامح الانتاج الفكري ، وظروف النشاط العلمي عموما ، مع الالمام اليسير بجانب من الفنون يتصل بالغناء وما اقتضاه من تربية الجواري والقيان وتثقيفهن ، وذلك لما لهذا الضرب من النشاط الفني من العلاقة الوطيدة بالأدب الذي هو موضوع الدراسة .

وواضح أن الأدب ، بوصفه تعبيرا عن مظاهر الحياة بأوسع مدلولاتها ، لا تتضح كل قيمه الفنية مالم تستبن أبعاد البيئة الثقافية الواسعة التي ردّد الكثير من أصدائها ، في مضامينه وأشكاله ، وكان على كل حال صورة من صورها .

ولما كانت الثقافة باعتبارها ظاهرة اجتماعية — لا تكاد تحدّ بعصر ، لأنها سلسلة واحدة متصلة الحلقات ، تضرب في أعماق الماضي حتى حين تبدو بعض ملامحها جديدة مستحدثة ، وتحمل كل حلقة منها سمات الحلقة التي تليها ، فانه يتعين علينا أن نستعرض ظروف نموها الأول ، وأهم مراحل تطورها عبر القرون . فاذا وصلنا الى القرن الخامس رصدنا فيه أهم الحوافز التي عملت على تنشيط الحياة الثقافية ، وثمار هذا الدفع في أهم المجالات الفكرية .

أولا : الثقافة الأندلسية قبل القرن الخامس

1 — في عصر الولاة :

اذا كان من المعلوم أن الثقافة ، وهي من أبرز أركان الحضارة وأظهر مقوماتها ، لا يمكن أن يعلو لها شأن ، أو يرتفع لها بنيان الا في ظل القدر الأكبر من الاستقرار — استقرار الأوضاع العامة ، واستقرار النفوس بالاطمئنان — والنصيب الأوفر من الأمن والرخاء،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فانه من اليسير علينا أن نتصوّر كيف كان مستبعدا حقا أن تنشأ ثقافة أندلسية حية ، بعد الفتح مباشرة ، وطوال المرحلة التي تسمى عند المؤرخين " عهد الولاة " ، وهي التي تستمر من فتح الأندلس سنة 92 هـ الى تاريخ جلوس عبدالرحمن الداخل على كرسي الامارة في عام 138 .

ونحن اذا استثنينا بعض المقطوعات الشعرية ، والفقرات النثرية التي هي في مجملها من الانشاء الرسمي البسيط[1] فاننا لا نكاد نعثر طوال هذه الحقبة على شيء يمكن أن نسمّيه نشاطا ثقافيا ، أو دليلا على وجود حياة فكرية بصورة من الصور . والواقع أن لا مجال للعجب من هذا الواقع ، فالحضارة العربية الاسلامية كلها – في الشرق والغرب – لم تكن قد دخلت بعدُ مرحلة الانتاج الفكري ، وقد ظلت خلال ما يقرب من قرنين من الزمن ، في حالة مخاض ، تجمع عناصر ذلك الانتاج ، وتدون التراث الشفهي القديم الذي سيتمحور جانب من الانتاج الأدبي حوله . أما الانتاج الفكري الحقيقي الذي يحمل سمات النضج العقلي والحضاري فان بواكيره لم تظهر الا في بحر القرن الثالث .

وما كانت الأندلس لتشذ عن حكم هذه الاعتبارات ، حتى لو كانت اقليما عاديا من أقاليم المملكة الاسلامية ، فكيف وهي النائية المتطرفة ، ذات الأوضاع الخاصة ، والظروف الجغرافية والبشرية التي تجعلها تتميز عن باقي الأقاليم الاسلامية . فاذا نحن أضفنا الى كل ذلك ، أن الأندلس ما أن استقر بها فاتحوها ، حتى دبت اليهم عقارب النزاع والفرقة ، وعبثت بهم رياح العصبية القبلية العاصفة ، فاضطرمت بينهم نار الفتنة ، ووقع بين اليمنية منهم والقيسية صدامات عنيفة دامية ، كادت تعرّض مكاسب الفتح كلها للخطر العظيم . وقد كان من نتائج هذا الصراع المحتدم أن لم تعرف الأندلس استقرارا في السلطة المسؤولة عن تسيير البلاد ، حتى لقد تعاقب عليها أربعة وعشرون واليا في نيف وأربعين سنة . ولو أننا افترضنا فرضا ، ليس له في الواقع ما يسوغه أو يشجع عليه ، أن هذه الفتن والقلاقل قد خلفت شعرا كثيرا ، فان المصادر التي بين أيدينا لم تحتفظ لنا منه الا بقدر لا يصلح في كمه ولا في نوعه أن يدلنا على آثار حياة ثقافية جديرة بالذكر .

وهكذا يصبح الحديث عن بدء الثقافة العربية في الأندلس ، يلتقي ويتحدد بالحديث عن بدء الامارة الاموية فيها . والواقع أن الأندلس أعطت بني أمية

---

(1) على أن هذه الفقرات انما ترجع الى آخر عصر الولاة زمان حروب عبدالرحمن الداخل . وسنتناول ذلك في الفصل القادم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ وقد جاوزهما تاريخ ، يلاحقهم شبح بني العباس في كل مكان ـ أشد ما كانوا في حاجة اليه : الأمن والسلطان ، فأعطوها أشد ماكانت في حاجة اليه : الاستقرار والقوة ، فكان في هذا العطاء المتبادل ميلاد الحضارة العربية الأندلسية بثقافتها الأصيلة ، وفكرها المبدع .

2 ـ في عصري الامارة والخلافة :

انصرف الأمراء الأمويون في عهدهم الأول بالأندلس الى القضاء على الفتن والقلاقل التي هي من رواسب عهد الفوضى والاضطراب أثناء مرحلة الولاة ، ولذلك لم نجد لهم في أول الأمر آثارا في ميادين الثقافة تذكر ، باستثناء النشاط الشعري التقليدي الذى كانوا هم أنفسهم في الطليعة من يتعاطاه ، في أوقات الفراغ ، للتعبير عن حنينهم الدائم الى أوطانهم وأهاليهم في بلاد الشام ، أو للتغني بأمجادهم القديمة والحديثة .

على أن الذى يبدو مؤكدا أنهم كانوا شديدي العناية ـ منذ السنوات الأولى من حكمهم ـ بالعلوم الاسلامية ، لأنها وسيلتهم الى إقرار نظام المجتمع وتشريعاته ، انطلاقا من أن الاسلام هو الجامع المشترك الأعظم بين الجماعات الأندلسية التي ترجع الى أصول متباينة : منها العرب ، ومنها البربر ، ومنها المستعربون الذين هم أيضا من أصول أسبانية مختلفة .

ولعل من أوائل ما قام به أمراء بني أمية من الأعمال ذات الطابع الثقافي ، انحيازهم في وقت مبكر الى مذهب الامام مالك[1] في مجتمع كانت أغلبية أفراده على مذهب الامام الأوزاعي[2] . وأيا ما كان تفسير الدارسين لهذا الانحياز[3] ، فان الذى لا شك فيه أنهم أخذوا يعينون قضاتهم وأئمتهم في قرطبة وفي عواصم الأقاليم ومدنها المهمة من بين أتباع الامام مالك . فغدا بذلك ، هذا المذهب مذهبا رسميا للدولة يرعاه الأمراء ، ويشجعون على الاقبال عليه ، ويختارون رجال المراتب الدينية في الدولة من أنصاره المتمسكين به .

---

(1) الامام مالك بن أنس ، من أهل المدينة ، توفي سنة 173 هـ .
(2) الامام الاوزاعي : عبدالرحمن بن عمرو (88 ـ 157 هـ) ، امام البلاد الشامية في الفقه والزهد ، وكان شأنه بها عظيما حتى قيل : "كان أمره فيهم (يعني أهل الشام) أعز من أمر السلطان" . عن الاعلام .
(3) انظر في ذلك رأى صاحب تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 411 ، وما ينقله من آراء ابن خلدون ..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كنا اليوم لا نملك تفاصيل محددة عن الطرائق والأساليب التي استخدمت لترويج هذا المذهب، فاننا لا نتصور مع ذلك أن اقلابا من هذا النوع، في ميدان على هذه الدرجة من الحساسية التي تطلمها لكل المسائل الدينية، في المجتمع الأندلسي بوجه خاص، قد تمّ بدون أدنى صراع فكري، يكون فيه للخصام والجدل ميدان فسيح، تحاول أثناءه كل فئة أن تدافع عن مذهبها، وترد على خصومها، بكل ما يسعفها من الحجج والبراهين. وكان ذلك يتم على الأرجح، مشافهة، في الدروس التي تلقى في المساجد، والمناظرات، ولذلك لم تنقل الينا المصادر التي أبقت عليها الحوادث، شيئا منه. وعادةً مثل هذا الجدل أن يتطلب تعمقا في النصوص، وجهدا للأدلة، وتأويلا للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بما يخدم الهدف المنشود، ويحقق بلوغ الغرض المقصود. وكل ذلك ينقل العلم عادة نقلة عظيمة من الاقتناع بالسطوح الى الغوص في الأعماق، ومن الاكتفاء بظاهر الأمور الى طلب عللها الأصلية ومراميها البعيدة، وتلك هي السبل الى كل نهضة فكرية حقيقية.

وربما كان من المؤسف أن نرى الأمراء الأمويين يختصرون مرحلة الخلاف، بتدخلهم الرسمي، وانحيازهم الى مالك، ويقضون سريعا على امكانيات الصراع المذهبي الذي كان كفيلا بأن يتطور الى التدوين والكتابة، فيغني الحياة الفكرية، ويخصب حقول الحياة الثقافية، ويخرج الناس من دائرة العصبيات التي تدور على التحزب للزعماء والقبائل والأحياء، الى دائرة التحزب الايجابي للآراء والأفكار والمدارس النظرية.

بيد أن الحكام الأمويين كانوا — من بعض الوجوه — معذورين في تصرفهم، لأنهم كانوا حريصين على وحدة البلاد التي يهددها خطر الفرقة من الداخل، وخطر الغزو من الخارج، فكان انضواء معظم الفكر الديني في البلاد تحت لواء المذهب المالكي، بسلفيته وصرامته، عاملا قويا من عوامل الوحدة المنشودة، وضابطا يعصم الناس من زيغ الفرقة، وآفة الانقسام على المذاهب والنحل. ومن في الناس أعلم من بني أمية بما يجره مثل هذا الانقسام من ويلات على الدولة والمجتمع، وهم الذين انقسم المسلمون منذ أيام مؤسس دولتهم الى فرق ظل بعضها يقوى، وينتشر نفوذه حتى انهارت مملكتهم تحت ضربات واحدة منها.

وحتى عندما اطمأنت أمور المملكة، ولم يعد هاجس الفرقة يروّع حكامها في القرن الرابع، فاننا نجد بعض الأئمة الذين صدتهم اجتهاداتهم الى أفكار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعيدة عن الامام مالك ومذهبه ، يفرقون في عملهم الرسمي بين اقتناعاتهم الخاصة، وبين ضرورات التعامل في المجتمع على أساس المذهب الرسمي [1].

الاستعانة بالثقافة المشرقية :

ما ان استقرت دعائم المملكة الناشئة على أرض الأندلس، واستتب فيها النظام، حتى أخذ أمراؤها يتطلعون الى المشرق، والى البلاط العباسي بالذات — والثقافة ترف الملوك عند نضج الحضارة — يريدون أن يكون لهم في قرطبة مثل ما لبني العباس في بغداد، من مظاهر الابهة، ومقومات المدنية المزدهرة .

واذا كانت معالم الازدهار المادى : من قصور، وبساتين ونحوهما، ميسورة نوعا ما لمن يقوى على دفع ثمنها بالدينار والدرهم، فان الحصول على ثمار الحضارة الفكرية منها والفنية، لايتصور الا بعد مرور مراحل طويلة من الغرس، والعناية الدائبة، والتعهد المستمر . ولذلك رأى أولائك الأمراء أنه لاشيء يحول بينهم وبين استقدام عدد من أقطاب الثقافة العربية المشرقية، يكونون في الأندلس أئمة ومعلمين، ويكون ما عندهم من العلم والصنعة نموذجا يحتذى به ويقاس عليه .

مدت الأندلس يدها الى المشرق تأخذ منه من تريد من رجال الفكر، وتستورد منه ما تشاء من الآثار الأدبية والعلمية والفنية، وتدفع في مقابل ذلك : المال الكثير، والمنزلة الاجتماعية المرموقة، والحظوة البالغة عند رجال السياسة والحكم . فكان من أوائل من وفد على الأندلس من أعلام المشرق : المغني الشهير زرياب، وهو تلميذ لامع لاسحاق الموصلي، مغني هارون الرشيد الأثير .

كان الحكم الربضي [2] هو الذى رحب بمقدم زرياب الى الأندلس، حين ضاقت به بغداد، وخشي من عواقب غيرة أستاذه منه لما بلغه من جودة اللحن وصفاء الصوت .

---

(1) منهم منذر بن سعيد البلوطي، قاضي عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم، الذى "غلب عليه التفقد بمذهب أبي سليمان بن داود بن علي الاصبهاني المعروف بالظاهرى، فكان يؤثر مذهبه، ويجمع كتبه، ويحتج بمقالته، ويأخذ بها لنفسه، فاذا جلس مجلس الحكومة، قضى بمذهب مالك بن أنس وأصحابه، الذى عليه العمل في بلده، ولم يعدل عنه". عن تاريخ قضاة الأندلس، لأبي الحسن النباهي ص 74 و 75 . والقاضي البلوطي بقي في قضاء الجماعة بقرطبة الى أن توفي سنة 355 في عهد الحكم المستنصر .

(2) الحكم الربضي : ابن هشام بن عبد الرحمن الناصر . في عهده كانت ثورة الربض بتحريض من الفقهاء، حكمه من 180 الى 206 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن ما إن اجتاز زرياب البحر، ووطئت قدماه الأندلس على شاطيء الجزيرة الخضراء، حتى علم بموت الحكم. ولعله ظن وقتئذ أن وفاة الأمير ستفسد عليه كل خططه، ولكن عبدالرحمن بن الحكم (1) الذي خلف أباه، استقبله بحفاوة بالغة، وأرجع اليه طمأنينة قلبه. وقد فرض له راتبا شهريا مقداره مائتا دينار، وعلاوة سنوية مقدارها ستة آلاف دينار، يتقاضى نصفها في عيد الفطر، ونصفها الثاني في عيد الأضحى. هذا بالاضافة الى ما وهبه من القصور والمزارع والبساتين (2).

لقد قدر لهذا الرجل الفنان أن يؤدي دورا حضاريا ممتازا في بلاد الأندلس، ليس لأنه نقل تقاليد الموسيقى الشرقية الى المغرب، وأشاع فيه تذوقها، وسهر على تلقينها تلاميذه فحسب، بل لأن تأثيره شمل كل أنماط السلوك الحضاري الناعم، فتفنن في تعليم أفراد الطبقة الحاكمة طرائق لاعهد لهم بها في المأكل، والمشرب، وترتيب الأطعمة على الموائد، وتبادل المجاملات، وتنظيم الملبس، وتصفيف الشعر، وما الى ذلك من مظاهر ليونة العيش ورقة الحضارة.

والواقع أن زريابا لم يكن فنانا موسيقيا فحسب، وانما كان يمثل نموذج الثقافة المشرقية الحديثة التي انصهرت فيها الثقافات العالمية القديمة، والتي أينعت ثمارها في بلاط بني العباس. كان الرجل شاعرا، وكان عارفا بالشعر ناقدا له حسن البصيرة فيه، وكان الى ذلك ذا علم بالجغرافية، والتنجيم، والطبيعة، والسياسة، فقام وحده بمهمة حضارية تنوء بها الجماعة الكثيرة. وكما كان متوقعا فان ما أصابه من نعمة وجاه لدى الحكام قد عرضه لغيرة أعيان الأدب الأندلسي وحسدهم، حتى اضطر الأمير عبدالرحمن الى أن يردعهم بشدة، فعاقب بالنفي واحدا من أحب الناس اليه، وأقربهم عنده، وهو الشاعر السفير يحيى الغزال. وكان قد هجا زريابا هجاء مقذعا.

هذه خصلة تعد من مآثر عبدالرحمن الثاني حين أكمل خطة أبيه في زرياب، وقد عاجلته المنية قبل لقائه، والخصلة الثانية أنه وعى ما للمشرق من سبق في ميدان

---

(1) هو عبدالرحمن الثاني، ويعرف أيضا بعبدالرحمن الأوسط: حكم من 206 الى 233. وهو ابن الحكم بن هشام.

(2) انظر أخبار زرياب في: نفح الطيب ج 3 ص 122، وصفحات أخرى، والجزء 1 ص 344. توفي زرياب سنة 233هـ. وانظر أخباره أيضا في تاريخ الفكر الأندلسي ص 52 وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تأليف الكتب وترجمتها ، وأدرك أثرها في النهوض بالثقافة الأندلسية ، وتحقيق الرقي الحضاري الذي تنافس به الأندلس حضارة بني العباس ، وقد كان ذلك كما رأينا واحدا من اهتمامات حكام الأندلس الرئيسية . فعمل ، قبل أن يجلس على كرسي الامارة ، على استجلاب خيرة ما كتبه علماء العراق وما ترجموه من كتب اليونان والفرس . وبعث في هذه المهمة رجلا يطوف له بلاد المشرق ، وينتخب له أحسن ما ظهر فيها من مطلوبه [1] ، وكان هذا الرجل شاعرا معروفا في بلاده ، واسمه عباس بن ناصح [2] .

يخلص لنا مما تقدم أن الأندلس قد استطاعت ، بفضل وعي أمرائها لقيمة العمل الثقافي ، أن تستفيد منذ عصر الامارة المبكر من السبق الذي أحرزته بغداد ، فلم يبق لها بعد ذلك الى أن تواصل السير على هذا المنهج في زمن الخلافة ، الى أن تنهض الثقافة المحلية الأصيلة على قدم وساق .

عبدالرحمن الناصر : عهد القوة والتسامح .

كان عبدالرحمن الناصر (300 — 350) من الرجال الأفذاذ الذين قدّر لهم أن يطبعوا الأندلس بطابعهم المميز على مدى حقب طويلة . وقد جسّد طوال نصف قرن الصورة المثلى للحكم الاموي في الأندلس ، حتى لكأنه بلغ في أيامه الذروة التي لن يبلغها بعد ذلك قط . وكان من أبرز ما تجلى في عهده أنه لم يعد يرضى لبلاده أن تظل صورة باهتة للمشرق ، بل أحب أن تكون منافسا قويا له في السياسة وفي شتى فنون العلم والأدب . وقد دشن عصر القوة سنة 316 حين أعلن فيها ارتقاء الحكم الأندلسي من الامارة الى الخلافة ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، وشرع في احاطة نفسه بكل مظاهر الابهة التي تنسجم مع هذا الوضع الجديد .

على أن هذه الارادة في منافسة المشرق لم تؤل به أبدا الى قطع العلاقات الثقافية به . بل انه ضاعفها ، ووجهها ، فكثرت الرحلة العلمية في أيامه الى المشرق ،

---

(1) انظر في ذلك مزيدا من التفصيلات عند ليفي بروفنصال " الغرب الاسلامي والحضارة الأندلسية " النص الأصلي ، ص 65 .

(2) عباس بن ناصح الثقفي الجزيرى قاضي الجزيرة الخضراء ، وكان له اشتغال بالأدب والشعر . انظر أخباره مع يحي الغزال في حلقة العلم بقرطبة في النفح ج 2 ، ص 261 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكانت تعود بحصاد وفير من الأفكار والكتب . واستقبل العلماء المشارقة الوافدين على البلاد فكان من أبرزهم أبو علي القالي [1] ، وقد اختاره عندما اطمأن الى كفايته العلمية، ليكون مؤدبا لابنه وولي عهده الحكم المستنصر . وقد قام أبو علي بدور لايستهان به في بث الثقافة المشرقية ، فنشر في حلقات تلاميذه آخر ماوصل اليه علماء الكوفة والبصرة وبغداد من العلم بالشعر والنحو واللغة . وكان من أبرز تلاميذه أبو بكر الزبيدي الذي كان شاعرا ، ونحويا ، ولغويا من أصحاب المعاجم [2]، وقد ولاه الحكم المستنصر مهمة تأديب ابنه وولي عهده هشام المؤيد .

وبالجملة فإن البذور التي زرعها الأمراء الأوائل لبعث الثقافة الأندلسية ، والدفع الذي تمّ في عهد عبدالرحمن الناصر لارتقاء الفكر ، بالاضافة الى ماوفره حكمه الحازم من أسباب القوة العسكرية على الأعداء ، والرخاء الاقتصادي ، وانتشار الأمن ، قد أثمر كله انطلاقة علمية وأدبية معتبرة ، ستنقل البلاد كلها بعد قليل ، في الميدان الثقافي، من طور الى طور ، وتحقق للأندلس تلك النهضة الشاملة التي تعاقب أمراؤها على تنمية غرسها ، وتعهده بالرعاية والعناية .

وكان من آثار هذا الجهد المتصل أن ازدانت مجالس الخليفة في قرطبة بشعراء مجيدين منهم الوزير ابن أبي عبدة [3] ، وابن هانيء [4] وعبيد الله بن يحيي [5] وابن عبد ربه [6] وغيرهم...ولعل خير من يمثل هذا الازدهار الأدبي ابن عبد ربه الذى جمع بين الشعر والنثر ، وكان من أوائل من ألف في الثقافة الأدبية باخراجه كتابه الشهير :

---

(1) أبو علي القالي : (280 ـ 356 هـ) وفد على الأندلس سنة 330 هـ . وهو صاحب كتاب " الأمالي " الذى أهداه الى عبدالرحمن الناصر .

(2) أبو بكر الزبيدي : ابو بكر محمد بن الحسن بن عبدالله الزبيدى (306 ـ 379 هـ) من مؤدبي الخليفة هشام المؤيد .

(3) هو أبو الحزم جهور بن أبي عبدة . شاعر ، من وزراء الخليفة عبدالرحمن الناصر . وانظر بعض أخباره في الحلة السيراء ، ج 1، 245 ـ 251 .

(4) ابن هانيء : شاعر مجيد ، اتصل بالقائد جوهر ببلاد المغرب ، وأقام عند ولاة المسيلة ومدحهم ، وقدم بعد ذلك الى المعز الفاطمي فمدحه ، وشيعه وهو مسافر بجيشه الى مصر . توفي 362 .

(5) عبيدالله بن يحي : قال عنه صاحب الجذوة : " الوزير أبو عثمان عبيدالله بن يحي ، كان وافر الأدب ، كثير الشعر جليلا في أيام عبدالرحمن الناصر . " الترجمة رقم (582) .

(6) ابن عبدربه : أبو عمر أحمد بن محمد بن عبدربه (240ـ328 هـ) . من أدباء الأندلس

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العقد الفريد . وهو يدل دلالة صريحة على أن المغاربة في هذا العهد قد تمثلوا الثقافة المشرقية تمثلا صحيحا واستوعبوها من نهم وأخذوا يؤلفون فيها مما جمعوه متفرقا منها .

وبدأت بوادر النشاط العقلي على يد رجل مفكر اسمه ابن مسرة ، وقد أحاط نفسه بجماعة من التلاميذ وأخذوا يدرسون علوم الأوائل التي كان عبدالرحمن الناصر مهتما بجانب منها فيما يبدو ، أو ذلك ما نفهمه حين نراه يقيم علاقات ثقافية مع قسطنطين السابع ملك بيزنطة ، واستطاع أن يحصل منه على بعض المخطوطات اليونانية القديمة مثل كتاب ديوسقوريديس في الطب . ولم يكتف الخليفة بالكتاب ، بل أرسل الى الملك البيزنطي يطلب منه رجلا عالما باللغتين اليونانية واللاتينية ، فانتدب له الراهب نيقولا الذي حلّ بالأندلس عام 340 ، والتحقت به جماعة كبيرة من الأطباء والنباتيين الأندلسيين ، وأخذوا يصفون الأعشاب ، ويتعرفون على خصائصها ، ويقارنون بينها وبين ما جاء في كتب اليونان ...

لا نريد أن نأخذ في سرد تفاصيل هذا النشاط الفكري الخصب الذي شهدته الأندلس في عصر الخلافة ، بوجه خاص ، منذ عهد عبدالرحمن الناصر ، ولكن الذي تجدر الاشارة اليه أن مجموعة من العوامل قد تضافرت في البلاد منها : الرحلة التي لم تنقطع الى المشرق للدراسة والطلب ، وكثيرا ما كانت تبدأ أو تنتهي بأداء فريضة الحج ، ومنها وفادة المثقفين المشارقة التي لم تنقطع ، ومنها التفتح على الثقافة الأجنبية والسعي الى الحصول على بعض المخطوطات المؤلفة فيها بلغتها الأصلية ، وطلب انتداب خبير بها ، وباللغة اللاتينية التي يكثر في البلاد من ينطقها من النصارى واليهود ؛ قلنا أن هذه العوامل وغيرها قد توافرت في جو عام من الاستقرار السياسي ، ومناخ شامل من الأمن والازدهار ، فتهيأ للصرح الثقافي الأندلسي أن يعلو على دعائم ثابتة وأُسّ متين . وكان من حسن حظ الأندلس أن خَلَف عبدالرحمن الناصر واحدٌ من أبنائه أعلى صرح أبيه وتفانى في تشييده : انه الحَكَم المستنصر(1) .

---

(1) الحكم المستنصر حكم من 350 الى 366 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خليفة عالم : الحكم المستنصر :

كان الحكم بن عبدالرحمن الناصر مثقفا بأوسع وأدق مدلولات هذا التعبير . وقد كان تلميذا نجيبا لأستاذه الكبير أبي علي القالي ، ثم أضاف الى ذلك منذ صغره حبا للعلم بجميع أنواعه ، واتصالا وثيقا بأهله ، وقد صادف منه كل ذلك ذهنا متوقدا ، فانصرف الى تحصيل المعارف المتنوعة ، وحفز النشاط الفكري في بلاده ، وهو بعد ولي للعهد في ظل عرش أبيه . وهو قد أسدى من الخدمات الجليلة للثقافة العربية في الأندلس ، ومهد لها من سبل الارتقاء ، ما لا يستطيع أحد أن يغفل مكانته المتميزة في معرض التأريخ للنشاط الفكري والحياة الثقافية في الأندلس .

تنبه أوّلا الى قيمة التعليم في رفع المستوى الثقافي العام ، والتعجيل بالنضج الحضاري ، فجعل دخل حوانيت السراجين وقفا يجري في صورة رواتب قارة ودائمة على المعلمين الذين يؤدبون أولاد الفقراء(1) .

ثم هو أدرك مدى ما يمكن توظيفه من جهد المشارقة في تشييد صرح الفكر ، فلم يقنع بما كان يصنعه أجداده من ارسال رجل أو أكثر ، الى بلاد المشرق ، من حين الى حين ، لاقتناء عيون المؤلفات والمترجمات التي تظهر هناك ، بل ارتأى أن يكون له رجال علماء متفرغون للمطواف في عواصم المشرق ، ولا سيما بغداد ، امواناته منها بأحسن ما تنتجه القرائح في ديار الاسلام ، وما تترجمه أقلام الخبراء من تراث الحضارات القديمة ، ولا سيما فارس واليونان .

ويحدثنا صاعد الطليطلي " أن الحكم المستنصر قد استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من بلدان المشرق أندر الكتب ، وأعظمها في العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها مثلما جمعه أمراء بني العباس ، في وقت أقصر "(2) .

وكانت هذه الرغبة العارمة في جمع أقصى قدر ممكن من الكتب ، وليدة اطلاع حقيقي ، وتتبع دقيق لأخبار النشاط العلمي في المشرق ، حتى انه كان يعلم بالكتب الجديدة قبل أن يذيعها أصحابها في الناس . فكان من هذا القبيل معرفته بالعمل

---

(1) عن البيان المغرب 2 / 265 .
(2) انظر ليفي بروفنصال : الحضارة العربية في اسبانيا ، ص : 34 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذي كان أبو الفرج الأصبهاني عاكفا عليه ، فأرسل اليه ألف دينار من الذهب العين للحصول على النسخة الأولى من كتاب الأغاني ، فوافاه بها أبو الفرج قبل أن يخرجها للناس في بغداد .

وقد شفع كل هذا بتحرر فكري واسع أتاح لجميع العلوم العقلية ، التي كانت شبه محرمة ، أن تظهر ، فتعاطاها أصحابها في وضح النهار ، وذلك على الرغم من العداوة الشديدة التي كانت تقابل بها من علماء الدين والفقهاء ، ذوي النفوذ . وهكذا تحرر الرياضيون والفلكيون من القيود التي كانت ترهقهم ، وبدأت تذيع في البلاد كتب الفلسفة ، ككتاب " رسائل اخوان الصفاء "(1) الذي دخل الأندلس في هذه الفترة ، وجاهر أتباع المعتزلة بآرائهم ، بعد أن كانوا يبالغون في الحيطة والتستر حتى لا يرموا بالزندقة والالحاد . وكان الخليفة يعقد المجالس العلمية التي يحضرها أصحاب هذه التيارات الفكرية المتباينة ، فيدافعون عن مذاهبهم ، ويتمسكون بآرائهم ، دون أن يكون عليهم في ذلك أدنى حرج .

على أن واحدة من أكبر مآثر الحكم المستنصر هي اقامته تلك المكتبة العظمى في قصره ، والتي يقدر ما كانت تحويه من الكتب في كل فن وعلم ، بنحو أربعمائة ألف كتاب ، يبالغ بعض المؤرخين فيقولون انه قرأها كلها وعلق على معظمها(2) مما يستحيل أن يكون على وجه من الوجوه ، لأن عمرا واحدا لا يكفي لمجرد قراءتها الا أن يقرأ منها نحو سبعة عشر كتابا في اليوم منذ أن ولد الى أن مات . والذي هو أقرب الى المنطق أنه كان كثير القراءة والعناية بما يقرأ حتى أنه كان يعلق على ظهور الصفحات بما توحي به اليه مطالعاته .

وكان من حسن حظ العلوم والآداب — والناس على دين ملوكهم — أن أثرياء القوم وذوي اليسار منهم قد تابعوا الخليفة على ميله الى الكتب ، فتباروا في اقتنائها ، واقامة المكتبات الخاصة في دورهم وقصورهم .

---

(1) رسائل إخوان الصفاء : اخوان الصفاء جماعة من الفلاسفة كونوا في بغداد ، أواسط القرن الرابع هـ ، جمعية سرية في بغداد ، للتباحث في شؤون الفكر الفلسفي وقد وصلوا الى نتيجة أن الكمال في العقل يحصل بالديانة المحمدية ومناهج الفلسفة اليونانية .

(2) انظر ما نقله ... : تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 10 ، عن ثقافة الحكم وعلمه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أثبت التاريخ في عدد لايحصى من المرات أن الفكر لا تتفتح أكمامه ، ولا تبرعم أشجاره ، الا في مناخ من التسامح والحرية . وكان من شقاء هذا الفكر ، وسوء طالعه ، أنه لم يقدّر للأندلس أن تسير فيها الأمور على النهج الذى سارت فيه أيام الحكم المستنصر ، ولو أتيح لها ذلك ، لربما تسلمت مشعل الثقافة العلمية الرصينة من المشرق ، وواصلت به السير الى قمم عالية من الخلق والابداع . ولكن الظروف السياسية قد أتت بغير ذلك ، بعد موت الحكم عام 366 .

دولة المنصور : تقريب الأدباء والفقهاء ، وتحريم العلوم والفلسفة .

بويع بعد الحكم ابنه هشام المؤيد ، على نحو ما رأيناه في الفصل السابق . وكان غلاما صغيرا لا يقوى على فرض ارادته في أى ميدان ، ولا أن يكون له رأى مستقل في أى مجال من المجالات . فانفرد الحاجب المنصور بن أبي عامر بأمره ، وتصرف في المملكة كما شاء . فكان ذلك أول عهد الأندلس باغتصاب السلطة من الخلفاء . وكانت مسيرة طموح هذا الرجل تفرض عليه أن يتقرب من دوائر النفوذ الشعبي في المملكة . وكان الفقهاء ، ورجال المراتب الدينية عموما ، يحتلون على الدرجات العليا من سلم هذا النفوذ . ولذلك ارتأى أن يتزلف اليهم ، والى من ورائهم من العامة ، باحراق أنفس وأندر الكتب العلمية والفلسفية التي كانت تتهم ببعدها عن روح الاسلام ومنهجه ، وهي من جملة المؤلفات التي رأينا أى جهد ، ومال ، وعناية أنفق الحكم المستنصر في سبيل اقتنائها وجمعها من أقصى الآفاق .

يحدثنا المؤرخ ابن عذاري عن هذه الحادثة فيقول : " وكان المنصور أشد الناس في التغير على من عُلم عنده شيء من الفلسفة والجدل في الاعتقاد ، والتكلم في شيء من قضايا النجوم وأدلتها ، والاستخفاف بشيء من أمور الشريعة ، وأحرق ما كان في خزائن الحكم من كتب الدهرية والفلاسفة بمحضر كبار العلماء منهم الأصيلي (1) .

---

(1) الأصيلي : لم نعثر له على ترجمة ، وانما المذكور هو أبو عامر بن الأصيلي في ذ : 2/3 ، ص : 857ـ867 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن ذكوان [1] ، والزبيدى [2]، وغيرهم ، واستولى على حرق جميعها بيده [3]».

مرة أخرى يذهب العلم ضحية المطامح السياسية ، وتعود الغلبة الى التعصب بأسى التسامح ، فتختنق تلك الانطلاقة العلمية التحررية الرائعة ، وتقضي حركة بسيطة من الحاجب المنصور على جهود بذلها خليفة عالم طوال عقود من السنين . وأعجب ما في الأمر أن المنصور لم يفعل مافعله عن اقتناع ، لأنه كان ، قبل الحجابة ، ممن يميلون الى النظر في المسائل الفلسفية ، ولكنه رأى ، وهو الداهية المحنك ، الساعي الى الاستبداد بالسلطة كيفما كان الثمن الذى يدفعه في سبيلها ، أنه يستطيع التضحية بميوله الفكرية ، واتجاهاته الثقافية ، من أجل الحصول على رضى الفقهاء ، والظفر بتأييد العامة .

لقد أدى عمل المنصور هذا ، وما يحمل في طواياه من معاني التضييق على الفكر ، واسدال حجب الرهبة عليه ، الى تقهقر الانتاج العلمي في البلاد ، وانطفاء جذوته المتوقدة ، ولن تستعيد تلك الشعلة وهجها ، وتنبعث منها أنوارها الا في زمن الموحدين ، ولكن نجم الأندلس وقتئذ كان قد بدأ في الانحدار ، مؤذنا بأفوله المحتوم .

على أن ماقام به المنصور بن ابي عامر في حق مكتبة الحكم لا يعني أنه فرط في تشجيع مظاهر الثقافة الأخرى التي لم تكن تلاقي من الفقهاء المقاومة والاعتراض .
وآية ذلك أنه كان حريصا على الاجتماع بالمثقفين ، ومبادلتهم الحديث في شؤون الفكر ، حتى أنه أكسب هذا اللقاء طابعا نظاميا موقوتا حين جعله يتم مرة في كل أسبوع ، وهذا ما يفهم صراحة من كلام عبد الواحد المراكشي [4] حين يقول :

---

(1) ابن ذكوان : القاضي أبو العباس بن ذكوان ، تقدم الحديث عنه في الفصل الأول من هذا الباب .
(2) الزبيدى : سبق التعريف به في بدايات هذا الفصل : نحوى ، لغوى ، توفي سنة 379 هـ .
(3) عن البيان المغرب ، 2/ 293 .
(4) عبد الواحد المراكشي : ولد في مراكش عام 581 ، أثناء حكم الموحدين ، ورحل الى الأندلس ثم الى المشرق عام 614 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ، ماكان مقيما بقرطبة ".(1)

فلئن قسا ابن أبي عامر على العلماء والفلاسفة ، فقد كان واسع العناية بالأدباء من أصحاب الشعر والنثر وعلوم العربية ، وهو الذي استحدث تنظيما اداريا خاصا سماه " ديوان الندماء " مهمته " ترتيب الشعراء طبقات ، وبذل العطاء لهم على اقدارهم في الشعر ، وكان على رأس هذا الديوان واحد من كبار ساتذة الأدب "(2).

وهو الذي كان يصطحب الشعراء أثناء غزواته الكثيرة في بلاد النصارى ، ليعلو من شأنه ، ويذيعوا في الناس أمجاده بصفته بطلا فذّا تنتصر به راية الاسلام حيثما حلّ . وكان من ألمع الشعراء الذين انقطعوا له ، وكتبوا في ديوان انشائه : ابن دراج القسطلي (3) . وكان من أوثق الناس صلة به الكاتب المشرقي الذي وفد على الأندلس : أبو العلاء صاعد البغدادي (4) وهو الذي كان يريد أن يكون له في اللغة والنحو والأخبار دور شبيه بما كان لأبي علي القالي ، فألف للمنصور عدة مؤلفات منها كتاب " الفصوص " على نحو كتاب " الأمالي " للقالي . ويبدو أنه شغل بنوع خاص من التأليف هو الذي يجمع فيه ألوانا من الحكايات المسلّية ، والخرافات المستطرفة ، التي استمدها من التراث العربي القديم . من ذلك أنه ألف للمنصور " كتاب الهجفجف بن غدقان . . . " وكتابا آخر ، يبدو أنه على منواله سماه " الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه عفراء " ، ويصف لنا عبدالواحد المراكشي هذا التأليف فيقول : " وهو كتاب مليح جدا انعدم أيام الفتن بالأندلس ، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد " ، ثم يضيف صاحب المعجب وهو ما يعنينا أكثر في السياق الذي نحن فيه : " وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب ، أعني الجواس ، حتى رتب له من يخرجه أمامه كل ليلة " (5) .

---

(1) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، للمراكشي ، ص 33 ، وانظر مثالا على هذه المجالس في الذخيرة : 4/1 ، ص : 14 .
(2) عن تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة مؤنس ، ص : 65 .
(3) ابن دراج القسطلي : 347 — 422 . كاتب شاعر مدح المنصور بن أبي عامر وكان من كتابه .
(4) أبو العلاء صاعد البغدادي : أديب ، نحوي ، مؤرخ ، وفد من بغداد على قرطبة في نحو سنة 380 ، فأكرمه المنصور بن أبي عامر . توفي سنة 417 .
(5) المعجب ، لعبد الواحد المراكشي ، ص : 73 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل الالمام ببعض أسماء الذين اختارهم المنصور أعوانا له ، ووزراء في دولته يدلنا أكثر من غيره على تقديره للأدباء والمثقفين ، وثقته فيهم ، منهم الزبيدي[1] الذي ولاه قيادة الشرطة ، وهو من أخطر المناصب في الأندلس ، ومنهم ابن دراج القسطلي الذي رأينا أنه كان من كتابه ، ومنهم وزيره عبدالملك بن ادريس الجزيري الذي كان كاتبا وشاعرا مشهورا[2]. وكان من أشهر كتابه المؤرخ الكبير ابن حيان[3].

وقد نبغ في عصره جماعة من كبار العلماء والمثقفين الذين رسخت شهرتهم في الفنون التي تناولوها ، فهم مذكورون فيها الى اليوم . ومنهم :

- ابن أبي زمنين[4] الذي اشتهر بغزارة علمه في الفقه وألف كتابا شهيرا فيه سماه " المدونة " .
- وأحمد بن سعيد الهمداني[5] وهو فقيه كبير أيضا ، ظهر في عصر المنصور ، واشتهر بصفة خاصة في علم الوثائق والعقود .

ونبغ من المؤرخين وكتاب التراجم محمد بن نصر القرطبي المعروف بابن الفرضي[6] وهو صاحب ذلك المعجم الرصين في تاريخ رجال الأندلس وأخبارهم ، وقد سماه " تاريخ علماء الأندلس " .

أما عهد ولدي المنصور : عبدالملك المظفر ، وعبدالرحمن " شنجول " فلم يطل ليتسنى لنا تكوين صورة واضحة عن حال الفكر والثقافة في عهديهما . وانما نستطيع أن نقدر — بناء على ما نعرفه من شخصيتهما — أن عبدالملك المظفر لم يغير شيئا في سيرة

---

(1) الزبيدي : تقدم التعريف به منذ قليل .

(2) الجزيري : أبو مروان عبدالملك ، وزير المنصور وابنه المظفر مجيد في الشعر والنثر . تغير عليه المظفر وقتله سنة 394 في خبر طويل ذكره صاحب الذخيرة — نقلا عن ابن حيان — 4 : 1 ، ص : 50 — 52 .

(3) ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف (توفي سنة 469 هـ) أكبر مؤرخ أنجبته الأندلس في القرن الخامس . وانظر الذخيرة ، 1 / 2 ص : 573 .

(4) ابن أبي زمنين : (324 — 398) وهو أيضا من الشعراء المذكورين في عهد المنصور . انظر تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 71 .

(5) يعرف بابن الهندي : 320 — 399 ، اشتهر ذكر بكتاب " الديوان " وفيه قدر كبير من الأخبار ، والنوادر والحكم والأمثال .

(6) ابن الفرضي : وله أيضا شعر ديني الطابع . توفي عام 404 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والـده ، وموقـفه من المسائل الثقافية ، فالذى كان عليه الاقبال في زمانه ، استمر على ذلك في أيامه ، والذى كان محرما ممنوعا ، كتعاطي الفلسفة وعلوم الأوائل لم يتغير موقفه منه . أما عبد الرحمن فكانت ملاهيه الدنية تغليه عن التفرغ لتشجيع أنواع الثقافة الرصينة ، والآداب الرفيعة .

ثم تتابعت الحوادث على النحو الذى ذكرناه في الفصل السابق ، وظل بنو عامر يتدرجون في سلم اغتصاب السلطة من الخليفة الشرعي ، حتى وجد بعض أمراء بني أمية المُهْمَلين فرصة سانحة ، فانقض على دولة العامريين ، فقامت الثورة . ولم تكن من صنع سياسيين مهرة يدبرون لها بأحكام مداخلها ومخارجها ويحسنون التصرف في انعكاساتها ، وانما كانت من تدبير مغامرين ليس لديهم من برنامج سياسي الا الاطاحة بالعامريين ، فانقلبت الثورة الى فتنة مبيرة ، قضت على مجد الأندلس ، ووضعتها بين عشية وضحاها ، تحت رحمة أعدائها . فالذى يمكن أن نتصوره من حال الفكر والثقافة في جو تسوده الفتن ، وتخيم عليه المؤامرات ، وما يكون دائما في ركابها من انعدام للأمن ، والرخاء ، والاستقرار ؟

3 — في زمن الفتنة :

مما لاريب فيه أن المناخ الذى ساد بلاد الأندلس ، وقرطبة عاصمتها بوجه خاص ، منذ أن اندلعت فيها الفتنة ، وانقلبت الثورة الى حرب أهلية ، لم يكن يتيح أى نوع من الخلق الفني أو الابداع العلمي . وليس ذلك يعني أن الأدباء والمثقفين الذين كانوا يشيعون ألوانا من النشاط الفكرى والفني ، وتزدان بهم مجالس المنصور ابن أبي عامر الاسبوعية ، قد بانوا فجأة عن البلاد ، ولكن المحقق أن أكثرهم قد لاذ بالصمت ، وانطوى على نفسه ، حذار ما قد يعرض له من المكاره ، نتيجة لرأى يبديه ، أو فكرة يناصرها ، فيكون من ورائهما ما لا تحمد عقباه ، في وقت من الفوضى كانت فيه أرواح البشر أرخص ما يباع ويشترى .

وكانت فئة أخرى من رجال الثقافة قد صدمتهم وقائع الفتنة المروعة ، وأصابتهم نوبة من الاكتئاب العميق لما حلّ بالأمة من الشر العميم ، فذهلوا عن كل شيء ، ورموا جانبا بالصحف والأقلام ، وصاموا عن الكلام . وأى شيء أفصح وأبلغ من اضرابهم عن كل قول في تلك الظروف القاسية . ولعل ما حدث لمؤرخ الأندلس الكبير أبي مروان بن حيان

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطبق على الكثير من أضرابه ، ويعبر عن موقفهم حين قال : " وأنسأتني المدة الى أن لحقت بيدي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء ، المدلهمة ، المفرقة للجماعة ، الهادمة للمملكة المؤثلة ، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الاسلامية ، ففاضت أهوالها تعاظما أذهلني عن تقييدها ، ووهمني أن لا مخلص منها [1] .

ووقع شيء من هذا القبيل للامام ابن حزم [2] الذى طوف في بلدان كثيرة ، واستوطن ، شطرا من حياته ، مدينة شاطبة ، فأتيح له فيها أن يؤلف بعض كتبه .

وقد ذهب فريق من العلماء ضحية الفتن المتلاحقة ، فماتوا في إبانها ، وهذا ما وقع لابن الفرضي [3] الذى قتل أيام اقتحام المغاربة مدينة قرطبة عام 403 .

ولعل اشارة واحدة الى المصير المؤلم ، الذى كان من نصيب مكتبة الحكم المستنصر العظيمة ، تصلح وحدها رمزا للدلالة على ماكانت تعانيه الثقافة من المحن . ذلك أن واضحا [4] الذى كان حاجبا للدولة في مرحلة من مراحل الفتنة ، قد نظر في الخزينة العامة فوجدها خالية من المال ليس فيها ما يكفي لسد النفقات اللازمة ، وفكر في شيء ينقذ به الموقف الحرج ، فلم يجد الا مكتبة الحكم ، أو ما بقي منها ، اذ لابد أنها تعرضت للأذى عندما كانت القصور عرضة للنهب ، فباع ما كان فيها من المجلدات لكل من استطاع أن يدفع فيها الثمن المطلوب . وبذلك قُضِي نهائيا على واحد من المعالم الشامخة في تاريخ الثقافة الأندلسية ، وأُعدِمَ رمز باهر من رموز الجهد العلمي الخالص ، والعزيمة الصادقة في تحقيق التطور الحضاري (5) .

ثم فقدت بعد ذلك قرطبة ميزتها بوصفها حاضرة ثقافية كما لم تعد قاعدة للملك ، طوال عصر ملوك الطوائف . الا أنها لم تفقد ، فيما يبدو ، غرامها القديم بالكتب ،

---

(1) ابن حيان ، عن الذخيرة ، 1/2 ، ص : 576 .

(2) ابو محمد علي بن حزم القرطبي ، من ألمع رجال الفكر والثقافة في هذا العصر . له مشاركة في كل فنّ . (383 ـ 454 هـ) .

(3) ابن الفرضي : سبق التعريف به .

(4) واضح : من قادة المنصور ، عينه الخليفة المهدى حاجبا له . انظر ما كتبناه عنه في الفصل الأول من هذا الباب .

(5) عثر المستشرق ليفي بروفنسال على واحد من الكتب في مكتبة الحكم ، أنظر مقالة في مجلة " هيسبيريس " Hes'peris-I. 250 وخبر بيع الكتب في زمن واضح ذكره المقري في النسخة الأوربية ، ج 1 ، ص : 250 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخصوص أغنيائهما على العناية بمكتباتهم الخاصة ، حتى استطاع العالم الكبير ابن رشد [1] — وقد عاش زمن الموحدين — أن يقول : " اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلته حملت الى اشبيلية " [2].

وبعد ، فلعله تبين لنا من خلال هذا العرض السريع لاحوال الفكر الأندلسي في هذه الفترة التي تمتد على نحو ثلاثة قرون ، من الفتح الى سقوط الخلافة عام 422 ، أن قواعده الأولى قد أرسيت منذ بدايات الامارة الأموية ، وأن الحياة الثقافية قد نمت بعد ذلك باضطراد ، في ظل رغبة سياسية واضحة المقاصد : تريد أن لا يقل البلاط الأموي رونقا وتألقا في مجالات الأدب والعلم عن البلاط العباسي في بغداد . ولقد اتسع مدلول الثقافة نفسها في أذهان الحكام ، حين فهموا في عهودهم المتأخرة مدلولها الانساني الشامل الذى يجعل دائرتها تمتد الى ألوان من النشاط العقلي كالطب ، والفلك ، والفلسفة ، والنبات . . . بله محاورها العربية التقليدية من شعر ، ونثر ، ولغة ، ونحو ، وتاريخ الخ . . .

ثم ما ان أعلنت الخلافة في قرطبة سنة 316 ، وتسمى عبد الرحمن الثالث بأمير المؤمنين ، وتلقب بالناصر ، حتى سمت نفسه الى جعل قرطبة دار اقامة كريمة لكل الذين ضاقت بهم بلاد المشرق من العلماء . وقد نشأت حركة كبيرة للتبادل الثقافي مع المشرق : الأندلسيون يؤمون العواصم المشرقية لسماع العلماء بها ، والاستزادة من المعارف التي لهم بها عناية ، والمشارقة يفدون على الأندلس ، فيلقون فيها الترحيب من الحكام ، ويتصدرون في مساجدها حلقات التدريس . بل ينتدبون لتأديب أبناء الملوك وأولياء عهدهم [3].

---

(1) أبو الوليد محمد بن رشد : 526 — 595 ، عالم أندلسي اشتغل خاصة بالتوفيق بين الدين والفلسفة .

(2) عن نفح الطيب ، ج 1 ص : 155 .

(3) من أشهر أولائك أبو علي القالي : 288 — 356 هـ . من علماء بغداد ، وكان صاحب لغة ونحو وشعر على طريقة البصريين . وقد قدم الى الأندلس عام 330 ، في عهد عبد الرحمن الناصر ، فتصدر لتدريس اللغة والنحو والحديث ، وقد بلغ من شأنه أن انتدبه الخليفة لتأديب ابنه وولي عهده : الحكم الذى يعرف بالمستنصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن خلال هذه الحركة كان تنقل الأفكار والمذاهب ، وكانت الكتب هي أهم زاد يفد به أهل المشرق . وأهم بضاعة يعود بها العائدون من الرحلة المشرقية سواء كانوا حجاجا أوطلابا . وقد بلغ هذا التبادل أوجه في أيام الحكم المستنصر الذي كان جمع الكتب وقراءتها من أبرز اهتماماته ، دون أن يتسبب ذلك في اهمال لشؤون المملكة التي دبرها بكل حكمة وكفاية .

وربما كانت مكتبة هذا الخليفة هي النواة الضرورية لنشاط علمي كثيف ، متعدد الجوانب يؤدي الى بحث " أكاديمية " أو شيء على غرار دار الحكمة ، يكون أكثر منها تأثيرا ، وأعمق منها آثرا في مسيرة الحضارة الانسانية لموقع الأندلس باعتبارها بوابة لأوربا.. لكن الاعتبارات السياسية التي طغت زمن المنصور بن أبي عامر شلّت هذه الحركة المباركة ، وقضت على انطلاقة الفكر في البلاد .

ثم كان ماكان من اندلاع الفتنة وتفرق الجماعة ، فنشأت تلك الكيانات القزمية التي حكمت الأندلس نحو ثمانية عقود من الزمن . ولقد كان قيامها كارثة حقيقية من الناحية السياسية ، ويكفي أن تكون من بنات الفتنة . أما من الناحية الأدبية والعلمية فلقد فتحت للفكر منافذ متعددة أتاحت له أن يبلغ شأوا لا بأس به في بعض المجالات ولا سيما اذا ما قورنت أوضاعه بين الحالة التي كانت عليها أيام دولة بني عامر ، والمستوى الذي بلغه في أخريات القرن الخامس .

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح هو : كيف استطاعت البلاد أن تتميز بنوع من الصحة الثقافية ، والقوة الفكرية ، في مرحلة من تاريخها كان أبرز ما يميزها فيه من الناحية السياسية : الضعف ، والتخاذل أمام العدو المتحدي ، والخضوع شبه الكامل لارادته ؟

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : الأحوال الثقافية في عهد ملوك الطوائف .

لمحاولة الاجابة عن السؤال المطروح ، ينبغي أن نلاحظ في البداية أنه ليس بدعا في التاريخ عامة ، وفي التاريخ العربي الاسلامي خاصة أن تصادف مرحلة الازدهار الثقافي فترة الانحسار السياسي ، والضعف الشامل في وسائل القوة العسكرية . ولعله يكفي لبيان ذلك أن نذكر بما جرى في المشرق العربي . ففي القرن الرابع الهجرى انقسمت المملكة المترامية الأطراف الى دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها ، لا تكاد تصمد أمام الأعداء المطلين عليها ، وفيه فقدت الخلافة كل هيبة لها ، وبلغت سلطة العرب ما بلغت من الانحطاط والتدهور ، وفيه اجترأ طوائف الخدم والعبيد على أسيادهم ، واغتصبوا منهم منابر السيادة . . . ومع ذلك كان هذا القرن بالذات هو الذى اكتمل فيه النضج الحضارى ، وأثمرت فيه شجرة الفكر عددا من النوابغ في العلوم والآداب .

على نحو قريب من هذا كانت الأمور في الأندلس بعد أن سقطت الخلافة . فقد هدأت الفتنة ، واستقل كل سيد وكل قائد أو حاكم بالمقاطعة التي كان له أمرها . وكأن تلك السلسلة الطويلة من الانقلابات ، التي كثيرا ما تؤدى الى اغتيال المتربع على العرش في قرطبة ، قد انتهت الى اقناع كل الطامعين فيها بأنه لا أمل في الاحتفاظ بها ، وتمهيد وراثتها للأبناء والأحفاد ، وأنه من الأليق والأسهل اعلان الاستقلال في جهة محدودة ، تكون فرص الدوام فيها أكثر ، مع تعرض أقل للتقلبات والمصائب .

وهكذا فان السؤال في نظرنا لا يكون بالتعجب من نشاط الحياة الثقافية لأن نشاطها انما هو في الواقع من جراء الدفع الذى حظيت به في الفترات السابقة ، ولكن الأجدى هو التساؤل عن العوامل التي أتاحت هذا الازدهار في هذا الوقت بالذات .

اذا شئنا أن نلخص غاية التلخيص عوامل الازدهار الثقافي ، فاننا نجدها أربعة أساسية ، كان لها ، إما منفردة ، وإما مجتمعة ، حينما سمحت الظروف بها ، أثر فعلي وحاسم في عملية الدفع التي ارتقت بالآداب والعلوم الى المستوى الذى يحظى اليوم بتقدير الدارسين . وهذه العوامل الأربعة الأساسية هي :

- تعدد الحواضر الثقافية .
- اقبال الحكام على المساهمة في الانتاج الفكرى .
- بذل التشجيع المادى والأدبي لرجال الفكر والأدب .
- انتشار روح التسامح التي أدت الى تحرير العلماء من الضغوط .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 ـ تعدد الحواضر الثقافية :

كان من نتائج الفتنة، كما رأينا، سقوط الحكم المركزي، وتفتت الكيان السياسي الواحد الى أجزاء عديدة متناثرة. بيد أن هذا الواقع السياسي المؤلم انتج ظرفا ثقافيا جديدا، كان فيه الخير للحياة الثقافية، اذ تميز بنوع من "اللا مركزية" كما نقول اليوم، تعددت بموجبها مراكز النشاط الثقافي، وتنوعت بيئاته. وهكذا لم تعد قرطبة وحدها عاصمة العلم والثقافة، بل أصبحت كل حاضرة من حواضر ملوك الطوائف عاصمة ثقافية وفكرية، يؤمها الشعراء لنيل جوائز الأمراء، وتلمع فيها فنون الكتابة لحاجة الدولة اليها في المراسلات، وتزدهر فيها أنواع من العلوم بحسب جهود الأمير، وميوله، ومبلغ تسامحه.

وكان من الانعكاسات الفورية لهذا الواقع الجديد، أن لمعت في ميدان العلوم والآداب مدن وأقاليم لم تكن ذات مجد يذكر في عصري الامارة والخلافة من أمثال دانية، والمرية، وبلنسية، ومرسية، وبطليوس، وسرقسطة، وطليطلة، وغيرها ....

ومن المفارقات العجيبة أن قرطبة المزدهرة، عاصمة الأمجاد الماضية، وأفق النجوم الساطعة، قد صوّح زهرها، وذوى نبتها حين ازدهرت هذه المدن التي لم تكن تذكر الى جانبها أيام عزها المنصرم، فلم يعد فيها من العلماء والأدباء من تلأنس به هذه الحواضر الناشئة. بل ان الذين أتيح لهم أن ينبغوا فيها، ويبدعوا في فنّ من الفنون قد جذبتهم أنوار تلك الحواضر فأسرعوا اليها ينشدون شعرهم في تمجيد ملوكها ويقدمون مؤلفاتهم هدايا الى سادتها.

والذي لاشك فيه أن هذا التعدد في المراكز الثقافية قد أتاح لاعماق البلاد أن تعبر عن ذاتها، بعد أن كانت عاصمة البلاد توشك ان تحتكر هذا التعبير لنفسها. وربما استطاعت الدراسة التدقيقية المتعمقة لانتاج هذا العصر أن تكشف عن بعض خصائص تلك البيئات المحلية، والدور الذي ربما لعبته العوامل البشرية، والجغرافية الاقليمية في اكساب العلوم والآداب التي نشأت أو ازدهرت فيها طوابع خاصة، تلائم طبائع البشر المحلية، وتستجيب لمقتضيات البيئة وما توسع فيها من شتى التأثيرات القديمة التي تنامت اليها بفعل الأصل العرقي، والجوار، والتقاليد الشعبية، والمعتقدات الدينية الغابرة. وما الى ذلك ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم كان لهذا التعدد فائدة أخرى ، وهي أن المشتغلين بالعلم والأدب كانوا يستطيعون أن يختاروا من بين هذه الحواضر المختلفة أقربها الى نفوسهم ، أو أحبّ ملوكها اليهم ، حتى اذا تغيرت الأحوال عليهم في واحدة منها ، أسرعوا بتركها الى غيرها . وشتّان بين المنتجين في بلد موحد ، تحت سلطة واحدة لها الكلمة العليا في تحديد ما ينبغي أن يتناولوه ، وما ينبغي أن يدعوه ، وبين الذين يعيشون منهم وسط كثرة من الممالك والملوك ، فاذا نبا بهم منزل تحولوا الى غيره ، واذا سخط عليهم حاكم وجدوا عند غيره القبول والرضى .

على أن عامل تعدد الحواضر الثقافية ، مع ماله من أهمية مؤكدة ، ماكان يقوى وحده على إحداث نشاط فكري واسع في الأقاليم الأندلسية ، لو لم تقدر له عناية فائقة شملته بها ملوك البلاد وأمراؤها طوال عهد الطوائف . فمن المعلوم أنه لم يكن بوسع العلماء والأدباء والفنانين ، في المراحل السابقة من تاريخ البشرية في كل مكان ، أن يثمروا شيئا ذا بال ، أو يحققوا أي نوع من التأثير في مجرى الأحداث ، اذا ناصبهم الحكام العداء ، أو أهملوهم وتركوهم يهمون على هامش اهتمامات القصر الذي كان المحور الرئيسي لكل مظاهر الحياة العامة . واذلك فانه يبدو من المهم بمكان ، في سياق إحصاء العوامل الرئيسية التي ساعدت على ازدهار الحياة الثقافية في القرن الخامس ، أن نقف قليلا عند بعض الجوانب المتصلة بدور الملوك والأمراء في هذا الازدهار . ولعلنا لن نفهم حقيقة هذا الدور الا اذا تبيّن لنا موقفهم من عالم الفكر بالذات ، ومدى حظهم من العلم والأدب .

2 — اقبال الحكام على المساهمة في الانتاج الفكري :

كان من حسن حظ الثقافة الأندلسية أن ملوك البلاد لم يكونوا في الغالب يكتفون بتقريب أهلها ، والانعام عليهم ، بل كان عدد لابأس به منهم موصوفا بالعلم متسببا الى رجاله ، بالمعنى الواسع للكلمة ، يتابع شؤونه عن كثب ، ويجلس للعلماء فيناقشهم مذاهبهم في الرأى ، ومنازعهم في التفكير ، وربما تجاوز بعضهم هذه المظاهر من العناية والاهتمام الى الاسهام الفعلي في الحركة العلمية بالتأليف في فنّ من فنونها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاذا تحدثنا من الأدب وجدنا أن واحدا من أبرز الملوك الذين كانت لهم مشاركة في التأليف هو المظفر أبو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن الأفطس[1] ، فقد اشتهر بين مؤرخيه بالأدب والتصنيف فيه حتى قال عنه صاحب الذخيرة : " أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع ، وله التصنيف الرائق ، والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر اسمه أيضا بكتاب "المظفر"[2] في خمسين مجلدة ، يشتمل على علوم وفنون من مغاز وسير، ومثل وخبر ، وجميع ما يختص به علم الأدب ، أبقاه في الناس خالدا "[3] .

وذكر ابن عذاري أيضا هذا الملك وكتابه فقال : "كان شاعرا أديبا . وعالما لبيبا ، وبطلا شجاعا ، وله التأليف الأكبر المسمّى "بالمظفري" ألفه بخاصة نفسه ولم يستعن فيه بأحد من العلماء الا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة . واحتوى هذا الكتاب على الأخبار والسير ، والآداب المتخيرة ، والطرف المستملحة ، والنكت البديعة ، والغرائب الملوكية ، واللغات الغريبة . قيل انه أختصر فيه خزائنه الفائقة، لايكاد يوجد له نظير ، يكون في نحو خمسين مجلد (كذا) فتصرف فيه تصرفا بديعا ، ولكبره لايتمكن كل الناس من اكتسابه ، فانه لايصلح الا لخزائن الملوك "[4].

فها هو ذا ملك لاتشغله شؤون المملكة ، في تلك الفترات الحرجة من تاريخها عن التصدي للمسائل الأدبية ، واستفراغ الجهد العظيم في تأليف هذا الكتاب الضخم . ولعل زيادة ابن عذاري على ما ذكره ابن بسام ، والتي أشار فيها الى أنه لم يستعن في تصنيفه الا بكاتبه ابن خيرة ، لاتترك لدينا مجالا للشك في أن الرجل كان أديبا حقا ، وأن الكتاب ليس من النوع الذي يؤلفه الرجال المتخصصون باسم الأمراء والحكام ، فلا يكون لهم من فضل فيه الا وضع أسمائهم عليه ، واجزال العطايا لكاتبه الحقيقي .

---

(1) محمد بن عبدالله بن مسلمة هو جد بني الأفطس الذي استقل بجهة الغرب من الأندلس ، وأسس فيها الامارة المنسوبة الى بني الأفطس عام 437 ، وقد اتخذ بطليوس عاصمة لها . ثم خلفه من بعده ابنه المظفر .

(2) المشهور أنه "كتاب المظفّري" بياء النسبة الى صاحبه المظفر ، كما يدل على ذلك أيضا نص ابن عذارى الذي نورده بعد حين .

(3) الذخيرة ، 2/2 — 640 .

(4) البيان المغرب ، 3/236 — 237 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم ان المظفر هذا كان ، بالاضافة الى ماعرفنا من عنايته بالتأليف ، ذا رأي متميز في الشعر ، اذ كان ينكره على قائله [1] ، أو لعله كان لا يحب الا شعرا من نوع معين في جودته الفنية ، وفي أغراضه الحماسية أو الفلسفية ، فقد روى ابن بسام انه كان يقول : " من لم يكن شعره مثل شعر المتنبي أو شعر المعري ، فليسكت "[2].

فهذا موقف يدل على انحياز كامل الى الشعر الجيد ، ذى الأغراض الجادة ، كما يدل على مثالية في الحكم تجعل صاحبها يطالب بمن لا يرقون الى مستواها بالصمت .

ثم ورث عن المظفر ابنه المتوكل [3] ، هذه العناية بشؤون الأدب . وهو وان لم يؤثر عنه تأليف خاص فقد عرف بحسن تصرفه في فنون الشعر والنثر ، وقد أثبت له ابن بسام مختارات قليلة من أشعاره ورسائله تدل على ذوق صحيح وتمكن حقيقي . وقد كان يُكبِر في نفسه قيمة عكوفه على العلم ، فقال في مقطوعته مفتخرا بدرس غرائب العلوم :

فكيف وراحي درس كل غريبة   وورد التقى شمي ، وحرب العدا نقلي .[4]

ومن الأمراء الذين اشتهروا عند أصحاب المصادر القديمة بأدبهم أبو عبد الرحمن بن طاهر [5] صاحب مرسية ، الذى " ارتقى من رياسة الأقلام الى سياسة الأقاليم ..... وكان يكتب عن نفسه بهذا الأفق ، كالصاحب ابن عباد [6] بالمشرق ، وله رسائل تشهد بفضله ، وتدل على نبله ، لاسيما اذا هزل ، فانه يتقدم على الجماعة ، ويستولي على ميدان الصناعة "[7] . وقد بلغ من اعجاب ابن بسام بهذه الرسائل أن جمعها في تأليف مفرد سماه " سلك الجواهر من ترسيل ابن طاهر "[8].

---

(1) النص في الذخيرة ، 2/2 ـ 641 .
(2) نفسه .
(3) المتوكل : هو عمر بن المظفر ، أمير بطليوس الذى حاصره المرابطون فيها وقتلوه مع ابنيه سنة 487 هـ . وانظر ما كتبناه عن هذه الامارة في الفصل الأول . أورد ابن بسام بعض مقاطع من أدب المتوكل ، 2/2 ، ص : 646 .
(4) الذخيرة ، 2/2 ـ 649 .
(5) أبوعبد الرحمن بن طاهر : محمد بن أحمد بن اسحاق بن طاهر ، أمير مرسية . أخباره وأدبه في الذخيرة ، 1/3 ، ص : 24 .
(6) الصاحب بن عباد : وزير في دولة بني بويه ، كاتب شهير من طبقة ابن العميد ، وبديع الزمان . توفي 385 هـ .
(7) الذخيرة : 1/3 ـ 25 .
(8) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من أمراء الأندلس من شغل نفسه بالدراسات اللغوية والدينية ، وعلى رأس هؤلاء : مجاهد الصقلبي أمير دانية ، وهو أيضا لم يذكر له تأليف محدد ، وان قال عنه المؤرخ ابن حيان : " فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته في علم اللسان ، وتفوقه في علم القرآن ، عني بذلك منذ صباه وابتداء حاله ، الى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد عظيم ما مارسه من الحروب برّاً وبحرا ، حتى صار في المعرفة نسيج وحده "(1).

وسواء ألف مجاهد في هذه العلوم التي كان يميل اليها أو لم يؤلف ، فان الثابت أنه كان من كبار مثقفي عصره ، فكان محبا للعلم ، جماعة لكتبه ، مدنيا لأربابه . وقد أشار المؤرخ ابن حيان الى هذه الحقائق كلها فقال عنه : " وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراها صحابة ، لانتحاله الفهم والعلم ، فأمه جملة من العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيّموا في سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة ، وطبقة ظاهرة "(2).

والطريف في أمر هذا الأمير العالم أن له موقفا شبيها بموقف المظفر الأفطسي في انكار الشعر ، والتشديد على قائله ، فقد كان على حد قول المؤرخ المتقدم ذكره " من أزهد الناس في الشعر ، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده ، لايزال يتعقبه كلمة كلمة ، كاشفا لما زاغ فيه من الغلطة وسرقة ... " (3)

كانت هذه نماذج من اشتغال الأمراء في هذا العصر بالأدب وما يلحق به من لغة وعلوم قريبة منهما . وكان فيهم الشعراء ، ولعل أكثرهم قال أو حاول أن يقول الشعر ، ويكفي لنتبين ذلك أن نتصفح كتاب الذخيرة أو كتاب الحلة السيراء لنرى مبلغ مساهمتهم في هذا اللون من النشاط الأدبي (4) ، ولا عجب في ذلك فان الشعر هو هواية معظم الملوك العرب في مشرق بلادهم ومغربها ، في تلك العصور . غير أن واحدا من ملوك

---

(1) نقلا عن ابن حيان في الذخيرة : 3/1 ص 23.
(2) ابن حيان في الذخيرة : 3/1 ، ص : 23 .
(3) نفسه .
(4) انظر كتاب الذخيرة في بداية الحديث عن الممالك الأندلسية ، وكتاب الحلة في الجزء الثاني ، القسم الخاص برجال المائة الخامسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان من أمراء الأندلس من شغل نفسه بالدراسات اللغوية والدينية ، وعلى رأس هؤلاء : مجاهد الصقلبي أمير دانية ، وهو أيضا لم يذكر له تأليف محدد ، وإن قال عنه المؤرخ ابن حيان : " فتى أمراء دهره ، وأديب ملوك عصره ، لمشاركته في علم اللسان ، وتفوقه في علم القرآن ، عني بذلك منذ صباه وابتداء حاله ، إلى حين اكتهاله ، ولم يشغله عن التزيد منه عظيم ما مارسه من الحروب برًّا وبحرا ، حتى صار في المعرفة نسيج وحده "[1].

وسواء ألف مجاهد في هذه العلوم التي كان يميل إليها أو لم يؤلف ، فإن الثابت أنه كان من كبار مثقفي عصره ، فكان محبا للعلم ، جماعة للكتب ، مدنيا لأربابه . وقد أشار المؤرخ ابن حيان إلى هذه الحقائق كلها فقال عنه : " وجمع من دفاتر العلوم خزائن جمة ، وكانت دولته أكثر الدول خاصة ، وأسراهما صحابة ، لانتحاله الفهم والعلم ، فأمه جملة من العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيّموا في سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة ، وحلبة ظاهرة "[2].

والطريف في أمر هذا الأمير العالم أن له موقفا شبيها بموقف المظفر الأفطسي في انكار الشعر ، والتشديد على قائله ، فقد كان على حد قول المؤرخ المتقدم ذكره " من أزهد الناس في الشعر ، وأحرمهم لأهله ، وأنكرهم على منشده ، لا يزال يتعقبه كلمة كلمة ، كاشفا لما زاغ فيه من الغلط وسرقة . . . "[3]

كانت هذه نماذج من اشتغال الأمراء في هذا العصر بالأدب وما يلحق به من لغة وعلوم قريبة منهما . وكان فيهم الشعراء ، ولعل أكثرهم قال أو حاول أن يقول الشعر ، ويكفي لنتبين ذلك أن نتصفح كتاب الذخيرة أو كتاب الحلة السيراء لنرى مبلغ مساهمتهم في هذا اللون من النشاط الأدبي[4] ، ولا عجب في ذلك فإن الشعر هو هواية معظم الملوك العرب في مشرق بلادهم ومغربها ، في تلك العصور . غير أن واحدا من ملوك

---

(1) نقلا عن ابن حيان في الذخيرة : 3/1 ص 23 .
(2) ابن حيان في الذخيرة : 3/1 ، ص : 23 .
(3) نفسه .
(4) انظر كتاب الذخيرة في بداية الحديث عن الممالك الأندلسية ، وكتاب الحلة في الجزء الثاني ، القسم الخاص برجال المائة الخامسة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأندلس يستحق أن يشار اليه بالبنان في هذا المجال وهو المعتمد بن عباد ، فقد تجاوز اشتغاله بالشعر المقدار المألوف عند أضرابه من الملوك حتى كان فيه من المقلّين المكثرين . ولعل محنته أثناء اعتقاله بالمغرب ، وما قال فيها من شعر رقيق ، يعبر عن تلك الفترات العصيبة من حياة مَنْ تنكرت له الدنيا وأذاقته صنوف الذل والمهانة بعد العز والسلطان ، هي التي أضفت على انتاجه الشعري طابعا متميزا أنزله هذه المنزلة الأدبية المرموقة عند العرب والمستعربين[1].

اذا كان هذا هو شأن ملوك الأندلس في المجالات الأدبية الخالصة ، فان الذى يستوقف الدارس حقا هو أن بعضهم قد سمت به همته الى نيل نصيب من المعرفة العلمية التي كانت تسمى علوم الأوائل ، والمشاركة فيها بتأليفات متخصصة . وهذا بدون شك لون جديد من النشاط الثقافي ، لم يكن من عادة الملوك العرب أن يأخذوا أنفسهم به . ولعل خير من يمثل هذا الاتجاه أمراء سرقسطة من بني هود[2]. فقد كان المقتدر بالله بن هود[3] وابنه يوسف المؤتمن[4] أميرا سرقسطة ، من أكبر المعنيين بهذه العلوم . فأما الأب — المقتدر بالله — فقد تعاطى الفلسفة والرياضيات والفلك . وأما الابن — المؤتمن — فقد ألف كتاب " الاستكمال " في الفلك[5]. وقد نال هذا التأليف شهرة لدى العلماء المختصين في ذلك الزمان ، حتى ان واحدا من أشهر رجال الفكر الأندلسيين ، في القرن السادس ، واسمه موسى بن ميمون[6]

---

(1) كل الذين تحدثوا عن الشعر الأندلسي من العرب خصوا المعتمد بمكانة مرموقة . أما المستشرقون ، فانظر دوزى : تاريخ مسلمي اسبانيا ، دولة بني عباد في القسم الثالث . وتاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة مؤنس ، ص : 98 — 107 .

(2) انظر ما كتبناه عن بني هود في الفصل الأول من هذه الدراسة .

(3) المقتدر بالله بن هود : حكم من 438 الى 473 .

(4) المؤتمن يوسف بن المقتدر : حكم من 473 الى 477 .

(5) عن تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 454 .

(6) موسى بن ميمون ، يهودى من أهل قرطبة (529 — 600) ، ألف بالعربية وبالعبرية . تأثر بابن رشد فشغل بالتوفيق بين الدين والفلسفة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد درسه ، ووضع شرحا له ، ورأى أنه " جدير بأن يدرس بنفس العناية التي تدرس بها كتابات إقليدس[1] وكتاب المجسطي لبطليموس[2] "[3] .

ليس من غرضنا أن نحصي احصاء دقيقا كل من عالج أو حاول أن يعالج التأليف في لون من ألوان الفكر . ولعل النماذج السابقة ، والأسماء التي ذكرناها من ملوك الأندلس أثناء عصر الطوائف تكفي للدلالة على ما أردنا أن نبينه من ثقافتهم، ومجاوزتهم مجرد تعهدها ورعايتها الى المشاركة بالتأليف في بعض جوانبها . وهذا جزء مضيء في واقع سياسي مظلم .

فمن الطبيعي أن تكون بلاطات مثل هؤلاء الملوك العلماء مقصدا لرجال الفكر يشدون اليها الرحال لما تصورهم يجدونه لديهم من أصناف التشجيع المادي والأدبي . ولهذا وجب علينا أن نتوقف قليلا لنلم بطبيعة هذا التشجيع المزدوج ومداه ، فقد كنا عددناه واحدا من الحوافز الرئيسية التي ساعدت على تنشيط الحياة الثقافية .

3 — بذل التشجيع المادي والأدبي لرجال الفكر :

من المؤكد أن الاعتبارات الثقافية لم تكن وحدها تقرر أنواع التشجيع التي سنعرض طرفا منها ، ذلك أن الاعتبارات السياسية لم تكن أبدا غائبة ، ولا كانت ثانوية في الترتيب . لقد رأينا في الفصل الأول من هذه الدراسة كيف كانت العلاقات بين ملوك الطوائف تتصف بالتوتر الدائم ، وأن الحرب فيما بينهم لم تكن تضع أوزارها لفترة ما إلا لتبعث بعد ذلك بقليل على أشد ما تكون ضراوة وعنفا . وكان التنافس بينهم قائما في كل المجالات ، ومن بينها مجال الآداب والعلوم .

لقد رسخ في أذهان الملوك العرب جيلا بعد جيل ، منذ أقدم العصور ، أن الحاكم القوي ، والأمير اللامع هو الذي يكثر المدّاح لدى بابه ، وتزدان حلقات سمره

---

(1) اقليدس : عالم يوناني ، من رجال القرن الثالث ق . م . اشتهر بالهندسة .
(2) بطليموس : فلكي وجغرافي يوناني . أشهر مؤلفاته المجسطي .
(3) عن تاريخ الفكر الأندلسي ، ص : 454 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بجماعات من رجال الأدب والفن والعلم . وهكذا أصبح معظم ملوك الطوائف يتبارون في هذه الحلبة ، يروم كل واحد منهم أن يكون المجلّي ، وحائز قصب السبق بالسعي الى تجميع أكبر عدد ممكن من الشعراء والأدباء حوله . ولم يكن ذلك يتيسر له الا اذا كان قادرا على دفع نفقاتهم ، وهي كثيرة ، بأنواع العطايا والجوائز .

فهذا مجاهد[1] الفتى العامري يستقطب جماعة من أهل قرطبة حين ضاقت بهم أحوالها أثناء الفتنة . فقد ذكر صاحب الذخيرة " أن اليه كانت هجرة أولي البقية ، وذوي الحريمة ، من هذه الطبقة الأدبية القرطبية ، ليباهون جنابه ، وذكاء شهابه " . ثم يورد نقلا عن ابن حيان قوله : " أمّه جملة العلماء ، وأنسوا بمكانه ، وخيّموا في ظل سلطانه ، واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة ، وحلبة ظاهرة "[2] .

ولعل صاحب " البيان المغرب " كان أدق الجميع حين تحدث بصراحة عن المكافآت المالية التي كان مجاهد العامري يمنحها قصّاده من العلماء فقد ذكر أنه : "قصده العلماء من المشرق والمغرب ، وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم ، فأجزل صلاتهم على ذلك بآلاف الدنانير ، ومضى على ذلك طول عمره ، الى أن حانت وفاته بمدينة دانية . . . ."[3] .

وقد ضم بلاط هذا الأمير ثلة من الأدباء والعلماء منهم أبو عمرو المقرئي ، وابن عبد البر ، وابن معمر اللغوي ، وكان أشهرهم جميعا ابن سيده اللغوي الضرير ، صاحب التآليف المعجمية الشهيرة . وقد ألف لهذا الأمير أشهر كتبه " المحكم " و " المخصص " .

ولم يكن من المستغرب أن تسري عدوى حب الثقافة وتقريب رجالها في أعوانه وولاته ، ورجال دولته . فقد كان ولي على جزيرة ميورقة رجلا ذا علم ووقار هو أبو العباس أحمد بن رشيق[4] الذي " شارك في سائر العلوم ، ومال الى الفقه والحديث" وقد اشتهر ابن رشيق هذا بجمع العلماء والصالحين ، وايثاره اياهم . وقد آوى الى قصره جماعة من رجال الفكر الأفاضل منهم على سبيل المثال :

---

(1) مجاهد العقلبي أمير دانية ، انظر ماكتبناه عنه وعن امارته في الفصل الأول .
(2) الذخيرة ، 1/3 ـ 22 و 23 .
(3) البيان المغرب ، 3/ 156 .
(4) أخباره في الحلة السيراء ، 2/ 123 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو الوليد الباجي[1] ، وأبو محمد بن حزم الظاهري[2] ، ذلك الذى ثقل وطأة الفتنة عليه في قرطبة ، فانسحب الى هذا المكان البعيد بغية التفرغ للصلاة والتأليف .

فاذا تركنا مجاهدا العامري الى غيره وجدنا رجلا مقصودا كذلك من أمراء الطوائف وهو أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية ، وهو كما أسلفنا من الكتاب البارعين . وقد أثنت كتب الأدب والتاريخ عليه ، لما عرف عنه من جود وسخاء على منتجعيه من رجال الفكر . وقد كان على حد قول ابن الأبار[3] : " جوادا مُمَدَّحا ، ينتجعه الشعراء ، ويقصده الأدباء "[4] . وكان من أشهر هؤلاء الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد فيما بعد .

وفي طليطلة أحاط بنو ذى النون أنفسهم بمجموعة فاضلة من رجال العلم بوجه خاص . وكأنما أصبح لكل مملكة نوع من النشاط الفكرى يغلب عليها تبعا لهوايات الملك وميوله . فقد عاش في أكناف هؤلاء الزرقالي وهو من أبرع من أنجبت الأندلس من علماء الفلك ، وابن البغونش ، الفيلسوف الرياضي ، وابن وافد الطبيب الذائع الصيت . وممن عاش قريبا من بلاط بني ذى النون أيضا النحوى المعروف : أبو الوليد الوقشي ، والمؤرخان : صاعد الطليطلي ، والحجارى .

وفي بطليوس عاصمة دولة بني الأفطس : اشتهر المتوكل[5] خاصة بكرمه ، فوصف بأنه رحب الجناب للوافدين . وقد لمع في هذه الدولة جماعة من الشعراء والكتاب منهم : عبد المجيد بن عبدون[6] وابن السيد البطليوسي[7] ، وأبو بكر عبد العزيز بن سعيد[8]

---

(1) أبو الوليد الباجي : سليمان بن خلف ، معاصر أبي محمد بن حزم ومنافسه ، توفي سنة 474 هـ .
(2) أبو محمد بن حزم : امام الأندلس وأديب لامع نبيها . سبق أن ترجمنا له .
(3) ابن الأبار : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الابار . (595ـ658)
من كتبه ، الحلة السيراء .
(4) الحلة السيراء لابن الأبار ، 2 / 119 .
(5) المتوكل : عمر المتوكل بن المظفر الأفطسي . راجع ما كتبناه عنه في الفصل الأول من هذا الباب .
(6) عبد المجيد بن عبدون : من كبار كتاب الأندلس ووزرائها . أخباره وأدبه في ذ : 2 / 2 ص : 663 وما بعدها .
(7) ابن السيد البطليوسي : هو أبو عبد الله محمد ، من شعراء الغرب الأندلسي . انظر ذ : 2 / 2 ص 99
(8) ابوبكر عبد العزيز بن سعيد : أديب وزير من غرناطة . انظر تاريخ الفكر الأندلسي ص : 135 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأبو بكر بن قزمان الأكبر[1]، ومحمد بن أيمن[2].

وفي سرقسطة كان أميرها منذر بن يحيى رجلا لا شيء يؤهله لأن يعد في أهل الثقافة المكرمين لأهلها، اذ كان واحدا من الجنود البسطاء، ولم يصل الى رتبة من رتب القيادة الا في أواخر دولة المنصور ابن أبي عامر[3]. ولكنه ما ان استقل بحكم مقاطعة سرقسطة حتى ساير التيار العام المتمثل في الاقبال على الفنون، وتجميع رجال الفكر والأدب في بلاطه، بل انه رام أن يشارك الأدباء تعاطي فن الانشاء: فكان "يتمسك بطرف من الكتابة الساذجة"[4]. غير أن الذى يعنينا في السياق الذى نحن فيه شهادة من أرخوا له بأنه "كان كريما، وهب لقصاده مالا عظيما، فوفدوا عليه وعمرت لذلك حضرته سرقسطة، فحسنت أيامه، وهتف المداح بذكره"[5].

وفي المرية كان أبو يحيى بن معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم بالله الواثق بفضل الله، ممن عمل كل ما في وسعه لاستقطاب أهل الشعر والأدب، فكان - على حد قول ابن عذارى في بيانه - "لأهل الشعر عنده سوق نافقة، فقصده جميع منهم"[6]. وقد أثنى عليه ابن بسام، وأقر له هذا الفضل حين وصفه بأنه "كان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليما عن الدماء والدهماء، طافت به الآمال، واتسع في وصفه المقال، واعملت الى حضرته الرحال، ولزمه فحول من شعراء الوقت كأبي عبد الله بن الحداد[7]، وابن عبادة[8]، وابن الشهيد[9]، وغيرهم"[10].

---

(1) أبو بكر بن قزمان الأكبر: شاعر، ووزير للمتوكل الأفطسي صاحب بطليوس، توفي عام 507 هـ. وهو عم ابن قزمان الأصغر صاحب الأزجال المشهورة.

(2) محمد بن أيمن: من كبار المحدثين بالأندلس، وكان كتب زمنا للمتوكل بن الأفطس. ثم وزره له. وانظر ذ: 2/2، ص: 653.

(3) هذه المعلومات عن البيان المغرب: 3/176.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

(6) نفسه، 3/175.

(7) أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي. اختص به معن بن صمادح فقال فيه مدحا كثيرا. توفي عام 480.

(8) ابن عبادة: أبو عبد الله بن عبادة المعروف بالقزاز. ذكره ابن بسام في فصل طويل. انظر الذخيرة، 1/2، ص: 301.

(9) ابن الشهيد: أبو حفص عمر بن الشهيد كاتب شاعر من أدباء بلاط ابن صمادح. انظر ذ: 2/1، ص: 670 وما بعدها، وعرف بالموشحات.

(10) الذخيرة، 2/1، ص: 788.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يستلفت الانتباه في تقاليد أبي يحيى بن صمادح أنه كان يعقد في قصره مجلسا أسبوعيا يجلس فيه للفقهاء وغيرهم من المثقفين يفسرون القرآن والحديث، ويتناظرون في مختلف شؤون الفكر، مما لا بد أن يجرهم اليه ذلك التفسير (1).

على أن دولة الأدب في الأندلس قاطبة، في هذه الفترة، انما عقدت رايتها في اشبيلية عاصمة بني عباد، وبلغت فيها المنزلة التي لم تبلغها في أي اقليم آخر، ولا سيما في عهد المعتضد وابنه المعتمد، في هذه الدولة كاد أن يكون كل من فيها شاعرا أو يمت الى الشعر والأدب بسبب من الأسباب، يستوي في ذلك النساء والرجال، الوزراء والقادة، الخدام والجواري... وكان قائد المسيرة الشعرية في هذا البلاط المترف: المعتضد بن عباد أولا، ثم ابنه المعتمد أثناء ولايته للعهد، ثم لما جلس على كرسي الامارة.

ومما يدل على هذه العناية الفائقة بالشعر والشعراء أنه أحدث ديوانا خاصا، ضمن دواوين الدولة، مهمته متابعة شؤونهم، وترتيب أوقات انشادهم. وكان للمعتضد دار خاصة بالشعراء، ويوم محدد لدخولهم عليه فيه. وكان هذا الرجل، على ما عرف به من شدة وقسوة شديد الائتلاف للمال، كثير التبرع على الشعراء. وقد ورث عنه ابنه المعتمد هذه الخصال، بل لعله تجاوزه فيها اذ كان لا يكاد يجالس أو ينادم الا الشعراء حتى قيل انه كان لا يستوزر وزيرا الا أن يكون أديبا شاعرا حسن الأدوات. فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله (2).

ولو أننا ذهبنا نحصي كل الذين اتصلوا ببلاط بني عباد، واختصوا بهم، ونالوا جوائزهم الكثيرة لطال بنا الاحصاء والعد، ويكفي أن نقول ان من بين أشهرهم: ابن عمار (3) وابن زيدون (4)، وابن اللبانة (5)، وابن حمديس الصقلي (6). وكان يتردد على بلاطهم بوجه خاص معظم شعراء الغرب الأندلسي، وشعراء المغرب.

---

(1) الحلة السيراء، 2/32.

(2) وانظر المعجب في أخبار المغرب، لعبد الواحد المراكشي، ص 162 وما بعدها. والحلة السيراء، ج 2، ص: 52...

(3) ابن عمار: ذو الوزارتين أبوبكر، أديب لامع وزير المعتمد قتله بعد المودة الكبيرة بينهما. الذخيرة، 2/1، 363.

(4) ابن زيدون: أبو الوليد، الأديب القرطبي الكبير، صاحب ولادة. وقد تقدم التعريف به.

(5) ابن اللبانة: ابوبكر الداني المعروف بابن اللبانة، انقطع الى بني عباد فمدحهم ثم رثاهم عند زوال دولتهم توفي 507 هـ.

(6) ابن حمديس الصقلي: عبد الجبار بن حمديس: من شعراء بلاط بني عباد، في وقت المعتمد، خرج من بلاده صقلية بعد أن احتلها النرمان. ثم رحل الى افريقيا فمدح ملوكها ومات بها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أنه يحسن بنا أن نلاحظ أن هذه الصورة اللامعة لاقبال ملوك الطوائف على العلماء والأدباء ، وبذل أنواع من التشجيع المالي والمعنوي لهم ، لم تكن من العموم والشمول بحيث لانجد ملكا منهم الا وهذه صفته . والحق أنه وجد منهم من شذ عن القاعدة . وذكرت لنا كتب التاريخ جماعة منهم عرفت بالبخل وقلة العناية بالأدباء ، ونقلت لنا كثيرا من الأخبار والوقائع التي تشهد على ذلك .

فهذه طليطلة التي ذكرنا آنفا أمجادها في استقطاب العلماء والأدباء قد حكمها في بداية الأمر أمير : هو اسماعيل بن ذي النون[1] وصمه المؤرخون بالشح ، وذكروا أنه كان مغلول الكف " لم يرغب في صنيعة ، ولا سارع الى حسنة ، فما أعملت اليه مطية ، ولا استخرج من يده درهم في حق ولا باطل "[2] . وكان ابنه المأمون[3] هو الذي عالج هذه النقيصة في دولته حين ولي الحكم ، اذ تذكر المصادر أنه استقدم أبا الفضل البغدادي[4] " فأجزل قراه ، وتوسع له وله ولعبيده في البر ، وأجرى له آستين مثقالا في الشهر "[5] .

ومن هذه الفئة الشحيحة عبد الملك بن هذيل[6] صاحب السهلة . فقد ذكروا عنه أنه كان " متحسنا على الشعراء متحسرا بمطلوبهم من ميسور العطاء "[7] .

وكان بنو هود الذين رأينا مقدار احتفالهم بالعلماء ، ورعايتهم لهم ، ممن اعرضوا أيضا عن الشعراء حتى لقد لاحظ بعض المؤرخين أنهم " قبضوا أيديهم فقلت أمداحهم ، وترك الشعراء انتجاعهم ، الا في الغب والنادر ، على سعة مملكتهم ، ووفور جبايتهم "[8] .

---

(1) اسماعيل بن ذي النون : انظر الفصل الأول من هذا الباب ، وأخبار دولة بني ذي النون في ابن عذارى : 3/276 .
(2) انظر ماقاله ابن حيان في ذ : 1/4 ، ص : 143 .
(3) المأمون : هو ابن اسماعيل المتقدم الذكر . اخباره أيضا عند ابن عذارى : 3/277 .
(4) أبو الفضل البغدادي : أخباره في ذ : 1/4 ، ص : 87 . وهو من المشارقة الوافدين على الأندلس .
(5) الذخيرة ، 1/4 ، ص : 89 .
(6) عبد الملك بن هذيل : هو حسام الدولة بن رزين ، أحد أمراء بني رزين أصحاب السهلة . انظر البيان المغرب ، 3/131 .
(7) الحلة السيراء : ج 2، ص : 110 .
(8) نفسه ، ص : 246 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو من هذه الشهادات أن إعراض عدد من الممالك عن الشعراء لم يكن عن ضيق يد أو شح ، وانما كان نتيجةً لموقف مبدئي من الشعر والشعراء ، هو الذي كان يدفعهم الى مثل هذه التصرفات مع الشعراء خاصة ، والا فكيف نفسر سر هذا الاعراض ، وهذه العلاقة الفاترة بالشعراء لدى أمراء أعطوا الدليل القاطع على انهم رجال فكر وأدب ، انتسبوا الى رجالهما ، وجمعوهم حولهم ، وأكرموا وفادتهم عليهم واقامتهم بينهم . هذا مع ما يمثله الشعر من أداة دعائية فريدة في تلك العصور .

والظاهر أنه موقف أخلاقي ، حين لا يكون صادرا عن بخل صُراح ، أو ضيق ذات اليد . فقد بدأ في الأندلس ، تيار ، ظهر بارزا عند بعض أدباء القرن الخامس أنفسهم ، يتميز بالتبرم بالشعر ، والضيق بما فيه من ختل وكذب ونفاق ، مما تشمئز له النفوس الطاهرة ذات الأخلاق الفاضلة(1).

وبعد فلعله استبان لنا بقدر كاف مبلغ رواج الانماط الثقافية كلها عند الأندلسيين ، وانقسام ملوكهم في اختيار اللون الذي يتفق لديهم ، ويجد أصحابه عندهم التكريم والتشجيع .

* * *

---

(1) من أبرز من يمثل هذا الموقف ابن بسام صاحب الذخيرة . وانظر رأيه في الشعر في مقدمة الذخيرة حيث يقول : " ومع أن الشعر لم أرضه مركبا ، ولا اتخذته مكسبا ، ولا ألفته مثوى ولا منقلبا . . . . " ص : 18 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤ ـ انتشار روح التسامح مع المشتغلين بعلوم الأوائل :

كان انهيار الخلافة الأموية في قرطبة إيذاناً بانتهاء عهد من عهود النفوذ الكبير الذي كان للفقهاء وسائر علماء الدين الاسلامي لدى الملوك والأمراء . فلقد كان حكام بني أمية يحرصون على تقريبهم ، واستشارتهم ، وقبول نصائحهم ، ادراكا منهم ، في أول الأمر ، لفعالية العامل الديني ـ وهو الجامع الأعظم للفئات المتباينة التي يتألف منها المجتمع الأندلسي ـ في الحفاظ على وحدة الأمة ، وتعبئتها للدفاع عن عقيدتها وقيمها في تلك " الجزيرة " التي يحيط بها الأعداء من أكثر جهاتها ، فكان في اجلال علماء الدين اجلال للدين الاسلامي ذاته ، وتعميق لهيبته في النفوس . ثم اكتسب الفقهاء من جراء هذه المعاملة خاصة ، قدرا من القوة ، والنفوذ في أوساط العامة جعل الحكام بعد ذلك يتوددون اليهم ، ويسعون الى استمالتهم ، خوفا من ثورة الجماهير التي كان أولائك العلماء يحسنون تأليبها على من يسخطون عليه ، لهذا السبب أو لذاك ، من الملوك ورجال دولتهم .

وامتد نفوذ علماء الدين ، وسلطانهم على رجال السياسة والحكم ، لم يظهروا واضحين جليين ، في ميدان ما ، كما ظهرا في مجال معاداتهم للفلسفة خاصة ، ولسائر العلوم القديمة بوجه عام . ذلك أنه بدا لهم في جميع العهود ، أن في الاشتغال بهذه العلوم ، وفي طليعتها الفلسفة وفروعها ، خطرا فادحا على العقيدة الاسلامية ، يهدد جوهرها ، ويشجع على زيغ الشباب المسلم وانحرافه . بل ان هذه العداوة ستبلغ أوجها حين تمتد فتشمل بأذاها علماء الدين الاسلامي أنفسهم الذين درسوا الثقافة اليونانية القديمة ، وحاولوا تطبيق بعض مناهجها على ما تصدّوا لمعالجته من مسائل الشريعة الاسلامية وأسسها الاعتقادية (1) .

وهكذا تأخرت الدراسات الفلسفية في الأندلس ، وكادت تخلو الحياة الثقافية فيها من آثار الدراسات العقلية التي كانت قائمة في المشرق على قدم وساق .

واذا كان الحكم المستنصر قد حاول ـ كما رأينا ـ أن يحدث بيئة ملائمة لهذا النشاط بسعيه الحثيث الى جلب معظم ما ألف وترجم منها في بلاد المشرق ، فانه ما ان

(1) من أشهر من يصلح مثالا لذلك : أندلسي وهو ابن حزم الظاهري ، ومشرقي وهو أبو حامد الغزالي ، وكلاهما احرقت كتبه وناله سخط الفقهاء ونقمتهم الصارمة ، حتى هدد كل من يوجد عنده شيء من مؤلفات هذين الامامين بالويل والثبور .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مات حتى قوي ضغط الفقهاء على المنصور بن أبي عامر ، فاستجاب لهم ، بإباحة مكتبة الحكم لهم ، يستخرجون منها كل ما تشتم منه رائحة الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل ، ثم يلقونه في النار ذات الوقود .

وقد رأينا في أول هذا الفصل أن المنصور نفسه كان محبا للفلسفة ، يشتغل ببعض مسائلها في أوقات فراغه . ولكنه أدرك أن معاداة علماء الدين له اذا لم يستجب لمطالبهم باتلاف تلك الكتب ، سيثير عليه العامة ، وهو آنئذ في أشدّ الحاجة الى مسالمتها لبلوغ أهدافه السياسية . فهادن الفقهاء وضحى بالعلوم ، لنيل رضاهم .

ولسائل أن يتساءل : كيف نال الفقهاء من المنصور بن أبي عامر — وهو القادر على الفتك السريع الى سفك الدماء ، ذو الحيل الواسعة والدهاء العظيم — مالم ينالوه من الحكم المستنصر ؟ فهو وان لم يكن خليفة ضعيفا واهنا ، لم يشتهر على كل حال بالعسف والضراوة . والجواب في رأينا أن تلك الضغوط التي أشرنا الى صدورها عن الفقهاء ، كانت في غالب الأحيان تأتي في قالب مساومة ، أي أن علماء الدين يهددون الحاكم بشيء يكون في كشفه للعامة ما يستثير غضبها اذا لم يصالحهم على مايريدون ، سواء في ذلك صرحوا بهذه المساومة أو أحسها الحاكم ، من تلقاء نفسه . ونحن اذا درسنا أوضاع الخليفة الحكم ، وسياق عهده ، لم نجد فيها ما يمكن أن يهدد به عليه : كان خليفة شرعيا معترفا به ، ولم يكن لا في البيت الأموي ولا خارجه من ينكر عليه ذلك . ثم انه لم يكن يهيئ لمشروع سياسي كبير ، خارج عن نطاق الأمور العادية ، حتى يحتاج الى مسالمة العامة ، واسترضاء القادرين على إثارتها .

أما الحاجب المنصور فكان كل ما في أوضاعه يجعله في موقف شديد الاختلاف عن الحكم المستنصر . وقد اجتمع في تلك الأوضاع كل مايسخط العامة وفئات كثيرة من الأعيان الذين يتحينون الفرص لتزعم ثورتها : فهو أباد كل أعدائه بدءا بالحاجب المصحفي وكل الذين اتهمهم الا انتصار بعضهم على بعض [1] ، وهو قد اغتصب الحكم ، وأبعد الخليفة الشرعي ، وشدّد عليه السجن في قصره ، وهو يتهمه مع السيدة صبح زوجة الحكم ، وأم الخليفة " المسجون " بعلاقات مشبوهة لم يكن يخفى أمرها على المتتبعين لسقطاته . وهو مع ذلك كله يمهد لانقلاب سياسي عميق

---

(1) انظر تفاصيل ذلك في " البيان المغرب " ، ج 2 ، ص : 278 — 279 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يؤدى شيئا فشيئا الى عرش الحكم في قرطبة من البيت الأموى الى بيت آل عامر . فكيف لا يوافق من كان هذا واقع أمره ، وذاك مشروعه في المستقبل ، على التضحية بالفلسفة وغيرها من العلوم ؟ وكيف لا يفطن علماء الدين الى مواطن الضعف هذه ، والى مدى قدرتهم على استغلالها في المساومة ؟

ثم وقعت الفتنة ، وانتشر عقد الجماعة ، فانهار عامل أساسي كان يحث على تقريب الفقهاء ، وهو كما رأينا المحافظة على وحدة البلاد والمجتمع ، وكأنما بدا للناس أن من كانوا في نظرهم شبه " عاملين " لهذه الوحدة ، لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئا غير التفرج على نارها وهي تحرق الجميع . فالفتنة قد انتهت الى تجريدهم من دور أساسي كان يعتقد انهم القائمون به ، والمحافظون عليه .

ونشأت الدويلات المستقلة تحت حكم من عرفوا بملوك الطوائف . فكانت نشأتها عاملا آخر ساعد على تجريد علماء الدين من النفوذ الذي كانوا يمارسونه . فمن المعلوم أن أهم علماء الشريعة الاسلامية ، وأشهر ذوى المراتب منهم في سلّم وظائف الدولة كانوا يقيمون بقرطبة عاصمة الخلافة . فلما نشأت ممالك الطوائف ، نشأت بعيدة عنهم ، لم يشهدوا ميلادها ، ولم يكن لهم أيّ دور يذكر في قيامها .

وهكذا نستطيع أن ننتهي الى أن ظروف الفتنة أولا ، وظروف قيام ممالك الطوائف بعد ذلك ، قد أفقدت الفقهاء معالم نفوذهم على الحكام[1]. فكان ذلك عاملا حاسما أتاح للعلوم التي كانت قَبْلُ مُحَرَّمة أن تنتعش ، وتمكن المشتغلون بها من تعاطيها بعد أن كان الواحد منهم لا يجرؤ على تناول شيء منها الا في منزل بعيد عن الناس ، وقد أحاط نفسه بكثير من اليقظة والحذر[2].

كان لا بدّ لنا من أن نستعرض هذا الجانب من المسائل التي أدّت في مرحلة أولى الى معاداة العلوم العقلية ، وأدّت في المرحلة الثانية الى فك أسارها واتاحة فرص الانتشار لها . وقد حاولنا أن نتجاوز الاكتفاء بملاحظة الواقع التاريخي الذى تعرض له الناس

---

(1) سيعود علماء الدين الى سابق نفوذهم ، بل يتجاوزونه ، في أيام المرابطين بالأندلس والمغرب .

(2) انظر ما كتبه مؤلف " تاريخ الفكر الأندلسي " ترجمة مؤنس ، عن ابن مسرّة (269 — 319 هـ) وجماعته السرية ، ص : 330 وما يليها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قديما وحديثا ، الى البحث عن تفسيرات يمكن أن يطمئن لها الانسان ، وأن يقيم الجسر بينهما وبين ظروف الأندلس أثناء الخلافة وبعدها .

وسواء صحت هذه التفسيرات كلها ، أو صح بعضها ، فان الذى لا شكّ فيه أن مؤرخي الحياة الثقافية قد فطنوا الى التغييرات التي أدخلت على واقع الحياة الفكرية ، ورصدوا لنا بكل دقة وأمانة هذا التحول .

ولعل صاعدا الطليطلي (1) كان من أوائل مؤلفي هذا العهد الذين تناولوا هذه المسألة ، وسجلوا بعض جوانب القول فيها . قال : " لم يزل أولو النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها (الحكمة وعلوم الأوائل) ، ويظهرون ما تَجَوَّزَ لهم فيه من الحساب والفرائض ، والطب ، وما أشبه ذلك ، الى أن انقرضت دولة بني أمية من الأندلس ، وافترق الملك بين المستولين عليهم ، في صدر المائة الخامسة من الهجرة ، وصاروا طوائف ، واقتعد كل ملك قاعدة من أمهات البلاد ، فاشتغل بهم ملوك الحاضرة العظمى : قرطبة عن امتحان الناس والتعقب عليهم " واضطرتهم الفتنة الى بيع ما كان بقصر قرطبة من ذخائر ملوك الجماعة من الكتب وسائر المتاع ، فبيع بأركس ثمن وأتفه قيمة ، وانتشرت تلك الكتب بأقطار الأندلس ، ووجد في خلالها أعلاق من الكتب القديمة ، كانت أفلتت من أيدي الممتحنين بحركة الحكم أيام المنصور بن أبي عامر ، وأظهر أيضا كل من كان عنده من الرعية شيء منها ، ما كان لديه منها " .

" فلم تزل الرغبة ترتشح من حين في طلب العلم القديم شيئا فشيئا وقواعد الطوائف تتمصر قليلا قليلا الى وقتنا هذا . فالحال بحمد الله أفضل مما كانت بالأندلس في اباحة تلك العلوم ، والاعراض عن تحجير طلبها ، الى أن زهد الملوك في هذه العلوم وغيرها . لكنّ اشتغال الخواطر بما دهم الثغور من تغلب المشركين عاما فعاما (واستنقاصهم) أطرافها ، وضعف أهلها عن مدافعتهم عنها ، قلّل طلاب العلم ، وصيرهم أفرادا بالأندلس " (2).

---

(1) صاعد الطليطلي : (420 ـ 462 هـ) هو أبو القاسم صاعد بن أحمد ولد بالمرية وسكن قرطبة وتولى قضاء طليطلة . وهو مشهور بكتاب في تاريخ البشر والأجناس عنوانه : " طبقات الأمم " .

(2) النص مأخوذ من " تاريخ الفكر الأندلسي " ، ص : 332 ـ 333 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا لخص لنا صاعد الطليطلي بأحسن العبارات وأدقها كيف انتعش الاهتمام بالدراسات العقلية ، وكيف انقلبت الحال بها من الامتهان والتعقب والتحجير الى الاباحة والتحرر ، حتى أن الناس الذين كانوا يخفون ماعندهم من كتبها اطمأنوا الى اخراجها واظهارها ، اذ لم يعودوا يخشون عقابا .

ومن الطريف أن يلاحظ الكاتب أن بعض مؤلفات مكتبة الحكم لم تصل الىأيدي المتحمسين ، فلما جاءت الفتنة ، وبيعت الكتب الملكية لتحصيل ثمنها الذي كانت الدولة آنئذ في أشدّ الحاجة اليه ، استطاعت هذه الكتب أن تخرج الى النور . وهكذا ساهمت الأزمة الاقتصادية المستفحلة في فك الاسار عن كتب العلوم القديمة ، فانتشرت في الناس ، وزاد اليها اهتمامهم بها .

لقد هبت نسائم حرية الفكر على الأندلس في عهد ملوك الطوائف ، فانفتحت أبواب كانت موصدة أمام الطاقات العلمية ، وظهر في البلاد عدد من المشتغلين بعلوم الأوائل في زمن قصير ، برهنوا على براعتهم ، واستطاع بعضهم أن يكتسب شهرة تجاوزت آفاق بلادهم . (1)

<u>فعند بني رزين أصحاب السهلة</u> : ظهر ابن السيد البطليوسي عبدالله بن محمد (444 ــ 521) الذي تولّى الكتابة لعبدالملك بن رزين وكان له في دولته " مجال ممتد ، ومكان محتد " أو هو " امام الاوان ، وحامل لواء الاحسان " كما يقول ابن بسام (2) . وقد كان له كذلك اتصال بأمراء طليطلة ، وبلنسية ، وسرقسطة . ويبدو أنه اعتنى خاصة بتبسيط المسائل الفلسفية لعامة المثقفين في مؤلفه الذي سماه " كتاب الحدائق " .

<u>وفي بلاط بني ذي النون بطليطلة</u> : اشتهر الزرقالي وهو أبوابراهيم بن يحي النقاش وهو يعتبر اليوم من أعظم فلكيي العصور القديمة كلها ، لما شارك به في هذا العلم من مؤلفات ، واختراع الآلات الفلكية الدقيقة التي عرفها الغرب ودخلت مصطلحاتها في لغته (3) .

---

(1) معظم المعلومات في الفقرات التالية ، مأخوذة عن " تاريخ الفكر الأندلسي " ، وقد ذكرت مواضعها فيه .

(2) انظر الذخيرة : 3/2 ، ص : 690 وما بعدها .

(3) منها الزرقالية ، ومنها الصفيحة التي يسميها الاسبان والغربيون عموما : AZAFEH

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي دولة بني رزين أيضا ظهر ابن الخوش ، واسمه أبو عثمان سعيد بن محمد . وقد توفي سنة 444 هـ ، وهو فيلسوف رياضي نال حظوة كبيرة لدى أمير طليطلة وقتئذ ، وهو اسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون الملقب بالظافر ، حتى قال عنه صاعد الطليطلي انه "كان أحد مدبري دولته"(1) . وقد اشتغل ابن البغونش بالطب أيضا ، ثم ترك العلم جملة في أواخر حياته ، وانقطع للعبادة وقراءة القرآن حتى توفي عن عمر يناهز الخامسة والسبعين .

وفي بلاط بني هود بسرقسطة : ظهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني الذي توفي عام 435 ، وكان في شبابه قد رحل الى المشرق . وأخذ عن كبار العلماء فيه : الهندسة والطب ومسائل في المنطق والحساب . ويذكر صاعد الطليطلي أنه أول من أدخل الى الأندلس "رسائل اخوان الصفاء"(2) .

وممن عاشوا في كنف أمراء هذه الدولة أيضا الفيلسوف الشهير ابن باجة وهو أبو بكر محمد بن يحي المتوفي عام 522 أو 533 ، وقد عاش في أيام المستعين آخر أمراء بني هود(3) . ولما استولى المرابطون على سرقسطة نال ابن باجة ثقة قائد المرابطين أبي بكر بن تيفلويت ولازمه ، وبعد موت هذا القائد ، طاف الفيلسوف بجنوب الأندلس واجتاز في الأخير البحر الى المغرب ، واستقر بمدينة فاس ، وفيها مات مسموما .

ألف ابن باجة مؤلفات كثيرة ، واعتنى بشرح كتب أرسطو ، وكتب الفارابي ، ومن مصنفاته : "رسالة الوداع" وكتاب "تدبير المتوحد" وغيرهما .

وعند بني زيري في غرناطة : عاش أبو القاسم أصبغ بن محمد المهري (توفي عام 426) وكان نابغة في الرياضة مع شغف بالطب ، وهو واحد من تلاميذ مسلمة المجريطي ، وتظهر آثار الثقافة الفلسفية واضحة عند آخر ملوك بني زيري بغرناطة وهو "الأمير عبد الله" كما يتجلى ذلك في كتابه "التبيان" المعروف "بمذكرات الأمير عبد الله"(4) .

---

(1) نقلا عن "تاريخ الفكر الأندلسي" ، ص : 454 .
(2) وقيل انما قام هذا بنشرها ، وكان الذي ادخلها ايام الحكم المستنصر هو مسلمة المجريطي المتوفي عام : 394 هـ .
(3) توفي المستعين عام 503 هـ .
(4) نشره ليفي بروفنصال في مصر — دار المعارف — عام 1955 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي بلاط دانية ، عند صاحبها مجاهد العامري : اشتهر أبو القاسم أحمد بن عبد الله ابن الصفار بعلم الرياضيات والنجوم ، وقد ألف كتبا عديدة ، منها كتاب في العمل بالاسطرلاب .

هذه مجموعة من العلماء ، لمعت أسماؤهم في عدة أقاليم أندلسية ، واشتهروا بتعاطي شيء من علوم الأوائل ، والتأليف فيها . ونحن لو تعمقنا في أمر هؤلاء لما وجدنا عندهم ما يمكن أن يسمّى ازدهارا - بأتمّ معنى الكلمة - للفلسفة وفروعها وتوابعها من علوم الأوائل ، لأننا اذا استثنينا ابن باجة الذى امتدت به الحياة الى أواخر عهد المرابطين لم نعثر بين من ذكرنا على عَلَم بارز من أعلام الفلسفة يكون ابداعه قد أتاح له أن يخترق القرون الطويلة ، فتكون شهرته بيننا اليوم كشهرة ابن طفيل ، أو ابن رشد وغيرهما من علماء المفكرين في العصور القديمة بالأندلس والمغرب .

ويمكن أن يُبرِّر التفسير الملائم لما تردد عند الدارسين من ازدهار الدراسات العقلية ، وشيوع تعاطي الفلسفة ، الى الجو الجديد الذى ارتفع فيه الحجر على المفكرين ، فاستباح الخوض في المسائل المحرمة التي كانوا لا يتورعون على الخوض فيها الا سرًّا ومن وراء حجاب ، ومع ذلك فانه يكفي هذا العهد فخرا أن أطلع هؤلاء المفكرين ، وهم ان كانوا لا يمثلون ازدهار الدراسات الفلسفية ، فهم بكل تأكيد يمثلون فترة رئيسية من فترات انطلاقها . وهم الذين زرعوا البذور التي ستؤتي أكلها في عهد الموحدين بعد مرحلة اعتراضية تصاب فيها بالامتحان والتعقب ، والانكماش والتقلص في عهد المرابطين ، وهو العهد الذى عاد فيه علماء الدين الى سابق نفوذهم وتضييقهم الخناق على دراسة علوم الأوائل في الأندلس والمغرب .

وهكذا نخلص الى أن ملوك الطوائف قد خدموا الثقافة الأندلسية خدمة جليلة حين اتخذوا منها ميدانا للتنافس بينهم يتبارون على اجتذاب خيرة ممثليها الى بلاطاتهم ، ويبذلون لهم أصنافا من التشجيع والتكريم . ان الصراع الذى ألمعنا ، فيما مضى ، الى جانبه السياسي والعسكري ، قد امتد بكل قوة الى هذه الجوانب العلمية والأدبية التي فرغنا الآن من دراسة بعض مظاهرها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن صورة هذا النشاط الثقافي الغزير تبقى ناقصة مبتورة اذا لم نستكملها بجانب آخر له قيمته ، لأنه جزء من الثقافة بمدلولها الواسع ، ولأنه غدا أيضا واحدا من ميادين الصراع والتنافس بين الأمراء ، وهو أحد ميادين الفنّ الخالص ، ونعني به الغناء وما يتصل به من تربية القيان والجوارى .

بعض مظاهر النشاط الفني عند ملوك الطوائف :

كانت القيان والجواري المثقفات ، في جل عصور التاريخ العربي الاسلامي ، في المشرق والمغرب ، من متممات أبهة الملك ، يحرص الملوك والأمراء على اقتناء العشرات والمئات منهن ليزين مجالسهم ويحدثن فيها ذلك الجو الذى يلهو فيه الحاكم ، ويتخفف به من أعباء السياسة والحرب .

وكان للغناء شأن عظيم بالأندلس منذ أن حرص أمراء بني أمية على استجلاب الجواري المثقفات من المشرق ، ثم بلغ فيها أوجه بعد أن هاجر اليها المغني الشهير زرياب ، في عهد عبدالرحمن الأوسط[1] ، فرسخت تقاليد حتّى الموسيقى في البلاد حتى كانت العامة ، بلْهَ الخاصة ، تعقد مجالس الطرب ، وتنتشر في الحدائق والمروج ، وعلى ضفاف الأنهار ، وفي المتنزّهات ، تشرب النبيذ وتصغي الى غناء الجوارى وعزف الموسيقيين[2] .

ومن المعلوم أن عملية " تكوين " الجواري كانت تمر بمراحل معقدة من التربية والتثقيف ، وهي مهنة كان يقوم على شؤونها تجار محترفون ، يبذلون في سبيل ايصال الجواري الى المستوى الفني المطلوب ، والمهارة المنشودة ، كثيرا من الوقت والجهد . وكانت هذه المهنة تدرّ عليهم ، لقاء ذلك ، أرباحا طائلة .

كان من أهل هذه الصناعة ، في هذا العصر ، رجل يسمّى محمد بن الكتّاني المتطبب ، عرّفه صاحب الذخيرة بقوله : "فرد أوانه ، وباقعة زمانه ، منفق سوق قيانه ، يعلمهن الكتابة والاعراب ، وغير ذلك من فنون الآداب"[3] .

---

(1) تحدثنا في بداية هذا الفصل عن زرياب وعن آثاره في بلاد الأندلس.
(2) تمتلئ كتب الأندلسيين الأدبية بذكر هذه المجالس وما يكون فيها من أدب . ومنها بوجه خاص كتابا " الذخيرة " لابن بسام ، وكتاب "طوق الحمامة" لابن حزم . وسندرس في الباب الثاني بعض هذه المظاهر .
(4) الذخيرة : 3/1 — 319 وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأهم من ذلك ، أن المؤلف المذكور ، يورد لابن الكتاني هذا فصلا من رقعة - كما يقول - يتحدث فيه عن مهنته تلك ، مفتخرا بمهارته في القيام بها . وسنرى من خلال هذه الرقعة أنه كان رجلا مثقفا متأدبا، يُحسن الانشاء البليغ وفق أساليب الزخرفة الشائعة آنئذ ، مما يدل على أنه لم يكن يتعاطى هذه التجارة سوقة الناس . قال ابن الكتاني :

" فأنا منبه التجارة ، فضلا عن أهل الجهالة والفدامة ، واعتبر ذلك بأن في ملكي الآن أربع روميات ، كن بالأمس جاهلات ، وهن الآن عالمات حكيمات ، منطقيات فلسفيات ، هندسيات موسيقاويات ، اسطرلابيات ، معدلات ، نجوميات ، عروضيات ، أديبات ، خطاطيات[1]، تدل على ذلك ، لمن جهلهن ، الدواوين الكبار التي ظهرت بخطوطهن في معاني القرآن وغريبه ، وغير ذلك من فنونه ، وعلوم العرب من الانواء ، والأعاريض والانحاء ، وكتب المنطق والهندسة ، وسائر أنواع الفلسفة .

" ومن يتعاطين إعراب كل ما ينسخنه ، ويضبطنه فهما لمعانيه ، ولكثرة تكرارهن فيه . وفي هذا أعظم الشهود بأني واحد عصري ، ونسيج وحدي ، وأنني أنقيت الزمان تجربة ، والدهر تبصرة . فاعرف - أعزك الله - قدري ، ووف لي قسطي ، ولا تطمع أن تظفر بمال مثلي ، أو متفرغ فضولي شبهي ، ولو طفت الآفاق ، ومسحت الرفاق ، ومشيت العراق ، من زقاق الى زقاق "(2).

ونحن ميالون الى أن لا نرى في هذا القول الا نوعا " من تبجح دلالي الرقيق وتجاره " على حد قول دارس حديث[3]. ذلك أننا نجد المؤرخ الكبير : ابن حيان[4]، وهو رجل ثقة ، وشاهد معاصر ، يتحدث عن احدى جوارى ابن الكتاني هذا ، وكانت لأحد أمراء السهلة من بني رزين ، فيصفها بقوله :

" كانت واحدة القيان في وقتها ، لا نظير لها في معناها ، لم يُر أخف منها روحا ، ولا أملح حركة ، ولا ألين اشارة ، ولا أطيب غناء ، ولا أجود كتابة ، ولا أملح خطا ، ولا أبرع

---

(1) وفي بعض النسخ : " خطاطات " .
(2) الذخيرة ، 1/3 - 320 .
(3) احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف . . .) ص : 53 .
(4) سبق التعريف به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أدبا ، ولا أحضر شاهدا على سائر ما تحسنه وتدعيه ، مع السلامة من اللحن فيما تكتبه وتغنيه ". الى هنا يمكن أن لا نرى في أوصافها مايستعصي على العقل قبوله . ولكن ابن حيان يضيف بعد ذلك فيقول : " الى الشروع في علم صالح من الطب ، ينبسط بها القول في المدخل الى علم الطبيعة ، وهيئة تشريح الأعضاء الباطنة ، وغير ذلك مما يقصر عنه كثير من منتحلي الصناعة ، الى حركة بديعة في معالجة صناعة الثقاف والمجاولة بالحجفة ، واللعب بالسيوف والاسنة والخناجر المرهفة ، وغير ذلك من أنواع اللعب المطربة ، لم يسمع لها بنظير ، ولا مثيل ، ولا عديل "(1).

مهما يكن مقدار المبالغات في كلام ابن حيان ، وابن الكتاني ، فان الذي يبقى قائما لا مجال للشك فيه هو أن بعض الأندلسيين قد حذقوا فن تربية الجواري ، وتهذيبهن وتثقيفهن بأنواع مختلفة من المعارف والمهارات . ولقد بلغ من شهرة تفننهم في هذا الميدان ، أن ملوك النصارى المجاورين كانوا يتنافسون على اقتنائهن من عند المسلمين ، إما شراء ، واما هبة ، وكانوا يعقدون لهن مجالس الطرب ، على غرار ما عند ملوك المسلمين ويستمعون اليهن وهن يغنين بأشعار العرب .

من ذلك أن ابن بسام قد روى عن ابن الكتاني المتقدم ذكره ، أنه شهد مجلسا لملكة البشكنس ، زوج الملك شانجه بن غرسيّة ، كانت فيه " عدة قينات مسلمات من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم (2) أيام امارته بقرطبة ، فأومأت الحلجة (3) الى جارية منهن ، فأخذت العود وغنت بهذه الأبيات :

خليلي ما للراح تأتي كأنها	يخالطها عند الغروب خلوق
أم الريح جاءت من بلاد أحبتي	فأحسبها ريح الحبيب تسوق . (4)

---

(1) ابن حيان ، في الذخيرة : 3/1 ـ 112 .
(2) سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين بالله حكم في قرطبة سنة 400 مدة سبعة أشهر ، ثم عزل وعاد مرة ثانية سنة 403 ولم يدم حكمه الا سنوات قليلة وقتله علي بن حمود عام 407 .
(3) يقصد بالحلجة : الملكة البشكنسية .
(4) الذخيرة : 3/1 ـ 313 . وفي هذا النص شاهد على امتداد لون من ألوان الثقافة العربية الى الممالك النصرانية الاسبانية . ولابد أن يسير في ركاب هذه الموسيقى ما جرى تشربه من الشعر العربي وفنونه ، بالاضافة الى ما يكون من تأثير للألحان العربية على الموسيقى الاسبانية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد سعى بعض ملوك الطوائف الى الفوز بأشهر القينات ، وبذلوا للحصول عليهن أموالا كثيرة ، فاشتهر من بين هؤلاء ، هذيل بن رزين . وقد تحدث ابن حيان عن شهرته بين الناس في هذا المضمار فقال : " كان أرفع الملوك همة في اكتساب الآلة والكسوة . وهو أول من بالغ الثمن بالأندلس في شراء القينات . اشترى جارية أبي عبد الله المتطبب ابن الكتاني بعد أن احجمت الملوك عنها لغلاء سومها ، فأعطاه فيها ثلاثة آلاف دينار ، فملكها "(1).

ولعل الغلاء الفاحش في سعر الجواري المغنيات يعود الى ندرتهن ، إذ ربما اضطربت مسالك هذه التجارة بعد الفتنة ، كما اضطربت مسالك سائر التجارات ، فقلّ المشتغلون بها ، أو فسدت بعض مصادرها ، وقد كانت السبايا النصرانيات ، ايام قوة المسلمين ، يؤلفن جانبا هاما فيها . ويبدو من النصوص التي بين أيدينا ، على كل حال ، أن حواضر ممالك الطوائف الناشئة لم تستطع أن تعوض الدور الذى كان لقرطبة في هذا الميدان ، فظلت تستعين بها وتمد اليها يدها كلما احتاجت الى شيء منه .

على أن قرطبة نفسها ، التي فقدت أهميتها كحاضرة ثقافية ، بعد أن الغيت وظيفتها كعاصمة سياسية وادارية للأندلس كلها ، لم تعد قادرة على القيام بدور المصدّر للطاقات الفنية ، إما لأنه لم يعد عندها ما تعطيه ، واما لأن ما لديها من القلة بحيث لا يقوى على تلبية المطالب الكثيرة التي ترد اليها من مختلف بلاطات ملوك الطوائف ، وهي كثرة كثيرة .

ومن أمثلة ذلك مايذكره ابن عذاري من أن أبا الوليد بن جهور(2) قال : " وردت عليّ من الكتب في يوم واحد : كتاب من ابن صمادح صاحب المرية ، يطلب جارية عوّادة ، وكتابٌ من ابن عباد يطلب جارية زامرة ، وكتاب من سواجات صاحب سبتة يطلب قارئا يقرأ القرآن " ثم يحكي المؤلف كيف عجب أبو الوليد من هذا الأمر فقال : " جاهل يطلب قارئا ، وعلماء يطلبون الأباطيل "(3)

---

(1) ابن حيان ، في الذخيرة : 3/1ـ112 . وهذه الجارية هي التي تقدم وصفها عند ابن حيان .
(2) أبو الوليد بن جهور : من الأمير الثاني في دولة الجهاورة بقرطبة بعد الفتنة . خلف أباه بعد وفاته سنة 435 ، وفي عهده قضى بنو عباد على دولته الجهاورة ، وضموا قرطبة الى دولتهم في اشبيلية عام 462 .
(3) " البيان المغرب " ، 3/250 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا النص دلالة قوية على ما كان لملوك الطوائف من اقبال على اقتناء القينات. بل لقد رأينا حرصهم على ابداء رغبتهم في الحصول على ذوات اختصاص محدد في استعمال الآلات الموسيقية .

ويظهر تنافس ملوك الطوائف بصورة أوضح من هذه في نص آخر لابن حيان نفسه ، وذلك حين يتحدث عما لقيه المظفر بن الأفطس من العنت في الحروب التي شنّها عليه المعتضد بن عباد والتي استولى فيها على عدة حصون من بلاده ، ثم يقول : " وردت علينا بقرطبة غريبة يومئذ، وذلك أن رسول المظفر بن الأفطس ورد قرطبة إثر هذه الوقائع عليه يلتمس شراء وصائف ملهيات ، يأنس بهن ، نافيا بذلك الشماتة عن نفسه ، ولم تكن له عادة بمثله . فنقب له رسوله عن ذلك ، وكنّ قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما ، فاشتراهما له ".(1)

وقد بحث ابن حيان عن تفسير لهذه الغريبة ، كما قال ، حتى اكتشف أن المعتضد كان قد اشترى جارية الوزير ابن الرعيمي بعد وفاته ، فأحب المظفر بن الأفطس أن يقلده ، ورأى يظهر أنه لا يقل عنه تفرغا للهو ، فأرسل الى قرطبة من يبحث له عن الجواري (2).

وبعد ، فاننا نستطيع الآن أن نستخلص مما سبق أن النشاط الموسيقي كان جزءا من الحياة الثقافية أثناء القرن الخامس ، كما كان قبل ذلك . ولكنه من الواضح أن هذا الجانب من الثقافة لم يمتد اليه الازدهار الذي عرفته الجوانب الأخرى المتمثلة في العلوم والآداب ، والذي قد تجلّى لنا من الشواهد المتقدمة أن النشاط الفني عموما قد تدهور لأنه كان قائما على تربية الجواري وتعليمهن صنوفا من المعارف والمهارات. وقد اضطربت شؤون هذه المهنة ، وذبلت النشاطات الفنية المتصلة بها بعد انقلاب ميزان القوى ، ورجحان كفته الى جهة النصارى .

---

(1) " البيان المغرب " 3 ، ص : 212 .
(2) نفسه 3 / 312 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الموسيقى الأندلسية فلن تدخل مرحلة التنظير الرفيع، والتناول المنهجي المعمق لقضاياها، الا في أواخر القرن الخامس على يد المفكر أبي بكر بن باجة[1] الذى ألف كتبا في هذا العلم، وقد وصفه بعض المؤرخين بقوله : " وأما كتب علم الموسيقى، فكتاب أبي بكر بن باجة الغرناطي في ذلك فيه كفاية، وهو في المغرب، بمنزلة أبي نصر الفارابي[2] بالمشرق. واليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد"[3].

وبعد، اذا كانت الثقافة الأندلسية، بجوانبها الأدبية والعلمية، والفنية قد بلغت هذا المستوى الجيد الذى دلتنا عليه الشهادات والنصوص التي أثبتناها، فانه يحق لنا الآن أن نتساءل عن مقدار وعي المثقفين الأندلسيين بقيمتهم الثقافية، وادراكهم لمقومات أصالة فكرهم وما ينتجون من أصنافه المتعددة.

الوعي بأصالة الثقافة الأندلسية وقيمتها.

اذا كانت سائر العلوم والفنون لم تبلغ عند الأندلسيين المستوى الذى يجعل المشتغلين بها يشعرون باستغنائهم عما سواهم، وذلك هو الانطباع الذى تتركه في نفوسنا قراءة ما هو بين أيدينا من النصوص القديمة، فان الذى يبدو جليا أن هذا الاحساس كان غامرا لدى الأدباء وعلماء الدين في القرن الخامس، وقد بلغ في نضجه من القوة ما جعل مواقف رجال الثقافة الأدبية والدينية في هذا القرن تتراوح بين التعصب الذى لا يرى فضلا الا لأهل الأندلس، والنقمة العارمة عليهم لأنهم يهملون النفيس الذى هو بين أيديهم، ويتعلقون بما هو دونه لمجرد أنه بعيد عنهم.

---

(1) أبو بكر الباجي أو ابن باجة : محمد بن يحي ويلقب أحيانا بابن الصائغ : أحد فلاسفة الأندلس المشهورين، ولي الوزارة في غرناطة، واشتغل بالحكمة والطب والفلك والموسيقى توفي سنة 533 هـ. انظر الأعلام 8 / ص 6.

(2) أبو نصر الفارابي : عاش في بغداد، ثم في حلب ايام سيف الدولة. وهو أكبر فلاسفة الاسلام. توفي سنة 339 هـ. انظر تفاصيل أخباره في وفيات الأعيان : 5/ 153.

(3) عن نفح الطيب، ج 3 / 185.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينبغي أن نسارع الى الاشارة الى أن نضج هذا الاحساس عند الأدباء ورجال الدين قد ظهر قبل القرن الخامس بمدة طويلة ، وان لم يكتسب دائما طابع التصريح المباشر ، فكان يأتي في قالب تصرفات معادية للمثقفين المشارقة الوافدين على بلاد الأندلس، في كثير من الأحيان .

ولعلنا نستطيع أن نجعل بداية هذا الاحساس في تلك الفترة التي وفد فيها على البلاد الأندلسية المغني زرياب ، فقد رأينا [1] أنه نال من الخليفة عبدالرحمن الأوسط تكريما كبيرا ، وحظي منه بالتقريب والاعجاب فأغدق عليه الأموال والبساتين والقصور.. فكان لابد أن تبعث هذه الحظوة غيرة بعض رجال الثقافة في الأندلس وقتئذ ، وكان لابدّ أن تستثير في نفوسهم مشاعر الحسد لهذا "الغريب" الذي يحظى عندهم بما لم ينالوه وهم أهل البلد . فكان أن احتدم الصراع بينه وبين شاعر البلاد وقتئذ ، ورجلها اللامع ، يحي الغزال ، الذي كان أثيرا لدى الخليفة يرسله في المهمات الخاصة سفيرا عنه لدى الممالك الأجنبية ، حتى بلغت احدى سفاراته بلاط النرمانيين في أقاصي الشمال الأوربي [2]، ولكنه مع ذلك أبى الا أن يصب غضبه على زرياب ، فهجاه أقذع الهجاء ، فغضب من فعله الأمير عبدالرحمن الأوسط ، ونفاه من البلاد فخرج الى العراق [3].

ولما وصل الى بغداد ، واصل فيها تعصبه لثقافة بلاده ، فكان يرد على الذين يزرون بأهل الأندلس ويستهجنون شعرهم ، وينشدهم من شعره ما يجعلهم يعترفون بنبوته [4].

هل نستطيع ألاّ نرى في هذه الحادثة التي أبعدت من الأمير شاعره المفضل الا فصلا من فصول الوعي بقيمة الثقافة الأندلسية، ومقاومة غزو الثقافة المشرقية لها ؟.. ثم كان فصل آخر لهذا الصراع تمثل في ضيق بعض الأوساط الأدبية والدينية بالعا

---

(1) تناولنا مقدم زرياب وتكريم الخليفة له بشيء من التفصيل في بدايات هذا الفصل .
(2) انظر تاريخ الفكر الأندلسي في أخبار يحي الغزال وسفاراته . ص : 55ـ57 .
(3) خبر هجائه لزرياب ، ونفيه الى المشرق ، وأخباره هنالك في نفح الطيب : 261/2 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفائقة التي كان يلقاها العالم المشرقي : أبو علي القالي[1] لدى الخليفة عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وشاءت الظروف أن تمنح عالما دينيا ناشئا وقتئذ فرصة بيان مواهبه ، واظهار التفوق على أبي على الذي كان محل اعجاب من الحكّام وطلبة العلم ، وذلك حين أقام الخليفة مجلسا حافلا لاستقبال سفير ملك الروم صاحب القسطنطينية ، وأمر الشعراءَ بالانشاد والخطباءَ بالكلام ، فقام أبو علي القالي لانقاذ الموقف بعد أن غشي على الخطيب الأول ابن الكسنياني ، ولكنه لم يتجاوز عبارات الحمد والصلاة حتى " انقطع به القول فوقف ساكتا مفكرا "[2] فسارع منذر بن سعيد البلوطي الفقيه ، وكان حاضرا في المجلس ، فواصل افتتاح أبي علي بخطبة بليغة أعجبت الخليفة ، فسرّ بمنذر وأعجب به ، وأخذ يرقّيه في مراتب الدولة القضائية حتى بلغ القمة منها[3] .

لكن أهم ما في هذه الحادثة هو شعور الفقيه بعد أن أعطى الدليل على أنه يستطيع ما لا يستطيعه المشرقي الوافد . لقد عبر عن هذا الشعور بكل دقة في الأبيات التي أنشدها اثر ذلك ، وهي :

هذا المقام الذى ما عابه فند	لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا	لكنني منهم فاغتالني النّكد
لولا الخلافة أبقى الله بهجتها	ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد .(4)

ونلمح فصلا آخر من فصول هذا الصراع بين ممثلي الثقافة الأندلسية وضيوفهم في ذلك التهكم الذى كان يقابل به صاعد البغدادي[5] في مجالس المنصور ابن أبي عامر، الذى قدم الى البلاد في أيامه ، والترويج لسقطاته وغلطاته ، وتزيّده في الروايات، مما أثبت صاحب الذخيرة جانبا كبيرا منه .

---

(1) أبو علي القالي ، ويقال له أحيانا : البغدادى : صاحب الأمالي ، وهو من أدباء المشرق الذين وفدوا الى الأندلس . وقد بلغ من شأنه أن انتدبه الخليفة عبد الرحمن الناصر لتأديب ابنه الحَكَم الذى سيتولى الخلافة بعده بلقب "المستنصر" .

(2) تاريخ قضاة الأندلس ، للنباهي ، ص : 66 .

(3) أخبار منذر بن سعيد البلوطي ، وقصة خطبته في مجلس الخليفة في المرجع السابق ص : 66 — 75 .

(4) عن جذوة المقتبس الترجمة ، 311 ، ص : 348 .

(5) أخبار صاعد البغدادي ، وحكاياته مع علماء الأندلس في الذخيرة : 4/1 — 3 وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما ان نصل الى القرن الخامس حتى ينقلب هذا الاحساس الى موقف ثابت له دعائمه وقواعده ، ولعل الأخطار التي كانت تهدد البلاد في الداخل والخارج هي التي قوت من شعور الأندلسيين المثقفين بضرورة التمسك بما يمثل كيانهم الجماعي أدبهم ، وثقافتهم بوجه عام . فكان ابن حزم (1) أول من أطلق صيحة السخط على أهل بلده الذين رآهم مكبين على كل ما يأتيهم من الشرق من أدب وعلم ، مهملين لأمثاله من رجالات الفكر ، وعلماء البلاد في المجالات الثقافية . وقد جاءت صيحته تلك في أبيات من الشعر نثبتها لنقف على مبلغ ألمه وحزنه من المعاملة التي يلقاها من " مواطنيه " .

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب

ولو أنني من جانب الشرق طالع لجدّ علي ما ضاع من ذكري النهب

ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا بد أن يستوحش الكلف الصّب

فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب

فكم قائلٍ أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكُتُبُ

هنالك يدرى أن للبعد قصة وان كساد العلم آفته القُربُ الخ

وقد تضمن هذا الشعر لوعة صادقة على ما يحس به صاحبه من اضطهاد فهي شبه "عقدة" متمكنة من نفسه ، تصور له أنه لو ذهب هو الى العراق لأصبح الأندلسيون يقبلون على كتبه بشغف يضاهي أو يفوق شغفهم بكل ما يأتيهم من آثار علماء المشرق .

لكن هذه اللوعة تبقى محدودة ، لأنها لا تعالج الا واقع صاحبها (3) . أما الذي سيرفع هذه المسألة الى مستوى النظرية العامة التي يدافع من خلالها على مجمل الفكر الأندلسي ، فهو ابن بسام . وقد كانت هذه النظرية هي حافزه الرئيسي ، ان لم نقل حافزه الوحيد على تأليف كتابه الضخم: "الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة" .

---

(1) أبو محمد بن حزم : قاض ، فقيه ، أديب ، كثير التأليف في كل فنّ . أخبار وبعض أدبه في ذ : 1/1 — 167 وما بعدها .

(2) عن الذخيرة : 1/1 — 173 .

(3) يعالج ابن حزم الواقع العام في رسالة فضل الأندلس وذكر رجالها ، ولا سيما حين يقول : " ولا سيما أندلسنا فإنها خصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم الماهر منهم ، واستقلالهم كثير ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته ، وأكثر ذلك مدّة حياته ، بأضعاف ما في سائر البلدان " . الرسالة في نفح الطيب ، ج 3 ، ص : 153 . . . .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي مقدمة هذا الكتاب أهم خطوط هذه النظرية ، التي رسخت مراميها لديه بعد أن رأى أهل أفقه ـ كما يقول ـ منصرفين انصرافا كليا الى المشارقة " يرجعون الى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث الى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتابا محكما .... "(1) .

هذا
هذه لمحات خاطفة عن تطور الموقف ، الذى لم يكن يحمل عداء خاصا للمشارقة ، حين يتروى فيه الانسان ، بقدر ما كان يمثل رد فعل سليم من النخبة الواعية بضرورة صرف النظر الى حقائق البلاد ، وملح رجالها ومفكريها وأدبائها ، بعض ما هم أهل له من العناية والتكريم . ولعل التغييرات الماثلة التي كانت تحدث في خريطة البلاد ، ومدنها ، وقلاعها ، تتساقط تباعا ، الواحدة تلو الأخرى ، في أيدى الأعداء ، قد كثّف الشعور بضرورة الاعتناء بالذات ، وأنضج مقومات الكيان الجماعي ، الذي يقوم الأدب ، في كل المجتمعات ، بوظيفة التبشير به ، والدفاع عنه ، والتحصّن به في أوقات الضيق والحرج .

ولعله قد استبان الآن ، في ختام هذا الفصل ، أن الحياة الثقافية في الأندلس عرفت مراحل مختلفة كان يجمعها هدف واحد ، مهما تباينت الطرق اليه ، والأساليب المستعملة في الوصول اليه ، وهو تشييد صرح ثقافي متين ، يعكس عظمة البلاد ، ونبوغ أهلها . ثم وقعت الفتنة ، وقامت دويلات الطوائف ، فعمل ملوكها بكل ما أوتوا من قوة لفتح الأبواب على مصراعيها أمام الأدباء والعلماء : أبواب قصورهم ، وأبواب خزائنهم ، وأبواب قلوبهم . وكان من حسن حظهم وحظ الثقافة العربية قاطبة ، أن كان هؤلاء الملوك على ما فيهم من عيوب ، ينتمون عموما الى فئة المثقفين ، يأخذون أنفسهم ببعض مناحيها ، حتى ان بعضهم غامر بالمساهمة بالتأليف في واحد

---

(1) الذخيرة ، 1/1 ، ص : 12 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الفنون التي صادفت منه القبول....واحتدم التنافس بين هذه الدويلات ، فكان في ذلك خير عميم على الأدب والعلم ورجالهما .

والذى يستثير اليوم اعجابنا بالخطوات التي خطتها الحياة الثقافية في أندلس القرن الخامس ، انما يكمن في قدرتها على أن تنتج هذه الثمار الدانية : التي سنرى نماذج واسعة منها في الفصول القادمة ، وذلك في ظرف زمني وجيز نسبيا ، وفي بيئة لم تخلص فيها القرائح دائما لممارسة هواياتها العلمية والأدبية والفنية . لقد كانت البلاد واقعة بين آفتين : احداهما تنهشها من الداخل ، والأخرى تمتص دمها من الخارج ، وكانت خريطة البلاد في تغير دائم ، لا تكاد تغيب الشمس الا عن مدينة تسقط في يد الأعداء ، أو أرض تُنهب ، أو مزروع يُتلف ، أو امارة يعلو علمها لتدخل في أملاك النصراني الزاحف ، أو الأخ الأندلسي المسلم ، المعتز بقوته ، الجائر بغلبته . وتلك الحوادث كلها كان يتحمل أعباءها المواطنون " المدنيون " فهم الذين يدفعون ضريبتها من أموالهم ، وأرزاقهم ، ودمائهم ، ودماء أهليهم وأقاربهم .

ان الذى يستعيد معنا تاريخ هذه المأساة لا يملك نفسه عن الاعجاب الحقيقي بأولائك العلماء والأدباء ، ورجال الفكر عموما الذين انتجوا ، في هذه الأجواء المهددة دوما بالغزو ، المُثقلة أبدًا بأنباء الكوارث والملمات ، هذا التراث القيم . على أن ما ضاع من جهودهم ، وما لم تصل الينا أخباره ، ربما كان يربو على ما نعرفه لهم اليوم ، ويفوقه في الكيف والكم .

ولو أردنا أن نبحث عن تفسير منطقي لهذه الظاهرة التي تبدو منطوية على شيء من الغرابة : الازدهار الثقافي في وقت بلبلة وفزع ، لوجدناه في الانطلاقة الكبرى التي تمت في بداية القرن الخامس مع قيام الامارات المستقلة ، والتي كان أكثر ما يميزها أجواء التحرر التام من الرقابة على الأفكار ، وتمكن أهل العلم والأدب من اختيار البيئات السياسية التي تلائمهم ، والتحول عنها الى غيرها كلما ضاقت فيها نفوسهم .

ومن المؤكد أن تنافس الأمراء على رجال الفكر ، واستعدادهم لاستقبال كل من يلجأ اليهم ، واغداق النعم عليهم ، قد أتاحت نوعا من حرية التنقل ، وقدرا من اختيار

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المكان الأنسب ، ساعدت كلها على مضاعفة امكانيات التعبير الأدبي والعلمي . وهو ما لا عهد للمثقفين به ، أيام كانت العاصمة الموحدة : قرطبة ، تحتكر النشاط الثقافي في البلاد ، وتنفرد بمنح شهادة النبوغ وما يتبعها من علامات اليسر المادي والتكريم المعنوي ، فاذا أعرضت عن عالم أو أديب فكأنما أعرضت عنه الأندلس بأسرها .

وأخيرا فانه يجدر بنا أن لا نغفل أثر الماضي في الاعداد لهذا النضج وهذا الاكتمال في الأداة الثقافية . ذلك أن الجهود التي بذلت منذ عبدالرحمن الناصر وحتى قبله ، وتلك التي بذلها ابنه الحكم المستنصر وما سعى اليه من إمداد البلاد بعيون الثقافة الرصينة التي ظهرت في المشرق، بالاضافة الى حرصه الشخصي على توسيع شبكة المدارس، وضمان التعليم المجاني لأولاد الفقراء ، قد منحت التربة الثقافية في البلاد كل عناصر خصوبتها . فما أن انجابت الفتنة عن تقسيم البلاد حتى كانت الأذهان قد استعدت خير استعداد لتقبل الطرائق الفكرية المستحدثة ، وكان المثقفون قادرين على خوض تجارب الأصالة العلمية والأدبية في البلاد .

ولكي نقف على الصورة الميدانية ، والترجمة التطبيقية لهذه الجهود ، فانه يتعين علينا أن نتتبع تطور مسيرة الثقافة في جانب محدد من جوانبها ، وهو النثر الأدبي . وذلك ما نتناوله في الفصل القادم .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

النثر الأدبي الأندلسي
قبل القرن الخامس الهجري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

تطور النثر الأدبي الأندلسي قبل القرن الخامس .

أن دراسة الانتاج الشعري ، في فترة زمنية محددة ، لدى أمة من الأمم ، كفيلة بأن تكشف للدارس عن مراحل تطور حساسيتها ، ضمن بيئتها الحضارية ، وتتيح له أن يرصد ضروب التجارب الوجدانية التي كانت لها ، وأصناف الانفعالات التي واجهت بها ما في محيطها ، بكل عناصره ، من أنواع المؤثرات ، فمثل هذه الدراسة تكون ، في أدق صورها ، لونا من التأريخ الشامل للحياة العاطفية ، بأوسع مدلولات هذا التعبير .

أما دراسة ما انتجته تلك الأمة من قوالب التعبير النثري ، فانها تنطوي ، في جميع الحالات ، على نوع من التأريخ لتطور فكرها ، باكتشاف مراحل نموها العقلي ، وترتيب حلقات المواقف الموضوعية التي صدرت عنها ، لمواجهة الوضعيات التي تتطلب بسطا في القول لا يتسع له الشعر ، ووضوحا في الرؤية لا تتناسب مع طبيعته المجبولة على الرمز والتلميح ، وتناولا هادئا لوقائع محددة لا يصلح التهيج العاطفي أسلوبا لمعالجتها .

ومن هنا ، فنحن حين نروم استقراء أهم " المنجزات النثرية " خلال القرون الثلاثة الأولى من وجود الأندلس العربية المسلمة ، فانما نحاول أن نتمثل أهم ملامح المسيرة التي قطعها الأداء النثري في الحضارة الأندلسية ، منذ أيام الفاتحين الأوائل ، أي منذ أن بدأ فيها التعبير النثري ساذجا بسيطا في مثل بساطة الناس وخلوّ حياتهم من بواعث التعقيد ، الى أن أخذت تغزو أساليبه أنماطٌ الزخرفة والتأنق التي هي أثر من آثار النضج الحضاري وما يدفع اليه من تعقيد في سائر مظاهر الحياة . وحينئذ يرقى النثر ، ويغدو غير قانع بالاقتصار على وظائفه الأولى ، فيتطلع الى منافسة الشعر في الميادين التي كانت حكرا عليه . وتلك هي علامة التحول الكبير التي تقفز به من طور الى طور .

واذ كانت هذه الفترة طويلة ، تستغرق نحو ثلاثة قرون من الزمن ، حافلة بالتطورات والتحولات الهامة في مسيرة النثر الأدبي ، وكان لابد من استقصاء سمات هذا التطور

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتحول لفهم فنون النثر في القرن الخامس، وما ظفرت به من القيم الفنية، الجديدة على أشكالها ومضامينها، فان منهج الدراسة التحليلية يقتضي أن نقسم هذه الفترة الى مراحل فرعية ينسجم ضمن كل واحدة منها واقع التطور الحاصل فيها .

مراحل تطور النثر الأدبي :

ليست مراحل التاريخ الأدبي، وفترات تطوره هي بالضرورة مراحل التاريخ السياسي وفتراته . فالتغييرات الناجمة عن ثورة توصل أسرة ما الى الحكم، أو عن انقلاب يحوّل مجرى ولاية العهد من هذا الى ذلك، أو عن معركة فاصلة بين فريقين متحاربين، هي كلها حوادث يمكن — في الغالب — تحديد زمنها بيوم معروف، أو سنة معلومة من التقويم . أما التحولات الثقافية، وهي جزء من الظاهرة الاجتماعية العامة، فبطيئة، دقيقة لا تكاد تُلمح، تبدأ نُطفة لا يشعر بوجودها أحد، ثم تظهر بواكيرها في صورة قلّما تلفت الانتباه في وقتها، ثم تتطور وتنضج حتى تبرز للعيان في هيئة مكتملة .

ومع ذلك فانه يصعب على الدارس لحركة الآداب وتطورها أن يعتمد، في تمييز مراحلها، على الوقائع الأدبية وحدها . وانما يكون ذلك متيسرا في البيئات التي توزعت فيها الآداب مدارسُ فكريةٌ قائمة الذات، بحيث يكون ظهور كتاب واحد، أو ديوان شعر، أو مسرحية أو رواية ايذانا بتغير في النهج، وتحول في الطريقة، وقيام مدرسة جديدة لها أهلها، ولها أنصارها وأعداؤها .

أما في البيئات التي لم تتطور فيها الآداب على هذا النحو، فان اعتماد الفترات السياسية أسلم طريق للتمييز بين المراحل الأساسية في حركة التطور الأدبي، لأنها واضحة في الأذهان بارزة المعالم . ولعل هذه الطريقة أصلح للأدب العربي من غيرها، لأن القدر الأكبر من تراثه، وُلِدَ في أحضان السياسة، ونشأ بين يدي الخلفاء والأمراء والحكام، فهو يحمل سماتهم، ويعكس الكثير من وقائع عصورهم، فاذا كانوا ممن لهم رأي في شؤون العلم والأدب، حمل أيضا طابعهم الفكري .

وبناء على هذه الملاحظات فاننا نعتمد الفترات السياسية في التمييز بين مراحل النثر الأدبي في الأندلس، ويكون تقسيمنا لها كما يلي :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- المرحلة الاُولى : عهد الولاة : ويمتد من فتح الاندلس الى تغلب عبد الرحمن الداخل (93 ـ 138) .
- المرحلة الثانية : عهد الامارة : من قيامها الى اعلان الخلافة (133ـ316 ولكننا نقف بها سنة 300 لضرورات التقسيم في منهجنا .
- المرحلة الثالثة : عهد الخلافة : في زمن قوتها (الى سنة 366) وفي زمن ضعفها وقوة الحجاب الى تاريخ وقوع الفتنة ، أواخر القرن الرابع ،(عام 398) .

ونظرا لقلة ما بأيدينا من نثر المرحلة الاُولى والثانية ، فاننا نجد أنفسنا مضطرين الى الوقوف عند معظم النماذج التي وصلت الينا منهما ، مرتبين ذلك على حسب تعاقب الاُمراء الذين أثرت عن عهدهم ، اذ كانت في أغلبها صادرة عن الحكام ، وكُتّابهم ، ورجال دولتهم .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : النثر في عهد الولاة .

اذا استعرضنا النماذج التي احتفظت لنا بها المصادر التي بين أيدينا ، من نثر الأندلسيين في عهد الولاة ، وفي العهد الذي يليه ، بوجه عام ، فاننا نجدها قليلة مقتضبة ، بحيث يصعب كثيرا أن تسعفنا في تحديد صورة واضحة لمنهجها الأدبي وقالبها الفني . ذلك أن الكتب التي أرخ فيها أصحابها للأدب الأندلسي منذ أقدم عهوده والتي اعتنوا فيها بتصوير المراحل الأولى من الحياة الأدبية في الأندلس قد ضاعت ، ولم يعثر عليها أحد الى وقتنا الحاضر . ويعتبر ضياع "كتاب الحدائق" لابن فرج الجياني[1] الذي أرخ فيه لأدباء الأندلس وأورد أخبارهم ، ونماذج من انتاجهم منذ البدايات الأولى الى أيامه هو في القرن الرابع . . . يعتبر خسارة كبيرة لنا في هذا الميدان .

فلم يبق لنا اذن ، في البحث عن الآثار النثرية الأولى ، الا التعويل على ما أورده المؤرخون ، في كتبهم ، من فقرات منسوبة لصاحبها أو غير منسوبة . وينبغي أن نلاحظ أن طبيعة عمل المؤرخين تختلف عن عمل الأدباء في هذا الشأن ، فهم لا يوردون منها الا ما يخدم سياق سردهم التاريخي ، أي أنهم لا يوردون ، في الغالب ، ما يختار لجودته الفنية ، وانما يحرصون قبل كل شيء على ايراد ما يسند الوقائع التي يصفونها ويكون برهانا على صدقها .

ويمكن أن نلخص القول في هذه المسألة ، غاية التلخيص فنقول : ان المؤرخ ينظر الى النصوص التي يثبتها في كتابه على أنها وثائق تاريخية ، قبل أن ينظر اليها باعتبارها نماذج أدبية . وهذا ما يؤكد أن هذه الفقرات التي ستبنى عليها آراؤنا محدودة القيمة في الافصاح عن كل الجوانب الفنية التي تجعلنا نطمئن الى أنها تمثل كل قيم العصر الذي أنشئت فيه . ومع ذلك فليس لنا بد من الاعتماد عليها وحدها ، لأنها كل ما نملكه من تراث هذه الفترة .

(1) ابن فرج الجياني : أبو عمر أحمد بن محمد بن فرج ، من شعراء وأدباء عصر الحكم المستنصر ، وقد أودع السجن لخلاعته ومجونه ، وبقي فيه حتى مات سنة 366 هـ . وكتابه احدى حلقات السلسلة التي تروم اظهار فضل الأندلسيين على المشارقة ، وابن بسام يذكر في مقدمة كتابه أنه لا يتحدث عن أدباء الدولة المروانية ، ولا عن الذين مدحوا رجال الدولة العامرية ، لأن الجياني هذا وفاهم حقهم . ذ : 1/1 ، ص : 12-13 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذا تركنا هذه الاعتبارات المنهجية جانبا ، فان أول ما يلقانا من نثر هذا العهد الخطبة المنسوبة الى طارق بن زياد [1].

خطبة طارق بن زياد :

دأب الباحثون في الثقافة الأندلسية [2] على أن ينظروا الى الأدب المنسوب الى طارق بن زياد على أنه جزء من الأدب الأندلسي ، لو خلت المشكلات المتصلة بصحة نسبته الى صاحبه . ويبدو أنه من التجوز الكبير أن نعد طارقا أندلسيا لمجرد أنه قاد الجيوش التي فتحت البلاد . ولو حق لنا أن نعتمد على هذه القاعدة ، لوجب علينا أن ننسب أوائل الصحابة الفاتحين الذين قادوا الجيوش الاسلامية الى البلدان الكثيرة التي كانوا في كل مرّة قادة فتوحاتها .

ولعلّ الذى هو أصحّ من هذا المذهب أن ننظر الى ما أُثِر عنهم ، حين تصح نسبته اليهم ، على أنه يمثل لونا من ألوان الأدب التي دخلت مع الفاتحين ، والتي ربما كان لها أثر فيما ينتجه الناس بعد ذلك من فنون القول . وعلى ذلك فانه يكون قادرا على اضاءة جانبين : احدهما يتمثل في كشف نوعية الزاد الأدبي الذى أتى به الفاتحون وما فيه من قيم فنية ، والثاني تمكيننا من التعرف على مدى تأثير هذا الرصيد المجلوب في أدب الجيل الذى نشأ في البلاد المفتوحة ، ومقدار ابداعه ، بعد التكيف بمعطيات البيئة المحلية .

أما اذا تناولنا هذا الأدب المنسوب الى طارق بن زياد ، فاننا نجد أشهر ما يشتمل عليه الخطبة التي قيل انه ألقاها في جنوده بعد أن وطئت أقدامهم أرض الساحل الأسباني ، فقال لهم : " أيها الناس ! أين المفرّ ، البحر وراءكم والعدو أمامكم .... " [3]

ونحن نشك شكا قاطعا في أن تكون هذه الخطبة لطارق ، ويمكن تلخيص دواعي الشك في أربع نقاط :

---

(1) طارق بن زياد : (نحو 50 ـ 102 هـ) . انظر بعض أخبار طارق وما حولها من تضارب في نفح الطيب ج 1 ، ص : 230 . وانظر كتاب الاعلام ، ج 1 ، ص : 713 .

(2) على سبيل المثال ، كتاب : "الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة" لأحمد هيكل ، ص :

(3) نفح الطيب ج 1 ص : 240 . وفي بعض الروايات انه طارق بن عمرو : النفح 1/230 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأولى : أن طارق بن زياد رجل مغربي، ان لم يكن فارسيا، كما تزعم بعض الروايات [1]. فكيف استطاع، في هذا الظرف الوجيز من دخول الاسلام بلاد المغرب [2] أن يكون له من الثقة في النفس باتقان العربية ما يجعله يلقي بها الخطب، وينشد بها الأشعار التي تنسب اليه ؟

الثانية : أن معظم الجيش الذى عبر به البحر الى اسبانيا، بل كثرته الغالبة، كان مؤلفا من الجنود المغاربة كما تقول المصادر التاريخية [3]، فمن أين لهؤلاء أن يفهموا كلام طارق وهو يخاطبهم باللغة العربية. ثم ان الخطابة الحربية ترمي أساسا الى اذكاء عواطف الجنود، وبث روح الحماسة فيهم، وتعبئتهم بالمثل السامية، التي يحاربون من أجلها. وهي لن تبلغ منهم هذا المبلغ الا اذا كانوا قادرين على الانفعال بأساليب التعبير المميجة فيها، والتأثر بألوان أدائها البلاغي، وذلك مالا يتأتى الا بمعرفة لغة الخطبة معرفة تامة. ومن المؤكد أنه لم يكن في جيش طارق لا من الجنود المغاربة، ولا من قادة كتائبهم عدد كبير تتوفر فيهم يومئذ هذه الشروط.

الثالثة : أنه ورد في نص الخطبة، كما تروى في المصادر، مخاطبة أولائك الجنود المغاربة بهذه العبارة : " وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عربانا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ". وانه ليستحيل أن يصف طارق جنوده بأنهم أبطال عربان. ولو أنه سماهم أبطالا مسلمين، لما كان في قوله موضع للاستغراب.

الرابعة : أن هذه الخطبة لم ترد لا في كتب الأدب، ولا في كتب التاريخ التي ألفها قدماء الأندلسيين والمغاربة، من أمثال ابن القوطية [4]،

---

(1) " البيان المغرب "، ج 2، ص : 5.

(2) لنتذكر أن عقبة بن نافع قد مات سنة 64 هـ، وان الأندلس قد فتحت سنة 92 هـ.

(3) في النفح 231/1 انهم كانوا نحوا من اثني عشر ألفا " ولم يكن فيهم من العرب الا شيء يسير ".

(4) ابن القوطية : أبو بكر محمد بن القوطية (توفي سنة 367 هـ). من علماء الأندلس، شاعر وله مؤلفات في النحو واللغة، ويشتهر بكتابه : تاريخ افتتاح الأندلس.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابن عذاري[1]. وكان أشهر من روى الخطبة من المتأخرين : المقري الذي هو من رجال القرن الحادي عشر[2].

هذه الدوافع كلها حين تجتمع في وقت واحد ، لا تترك أمام الدارس الا الميل كل الميل الى اعتبار هذه الخطابة منحولة، نسبت الى الفاتح العبقري في وقت متأخر . ور بما كان ذلك حين اشتدّ الصراع بين المغاربة والأندلسيين ابتداء من عهد الفتنة الكبرى في أواخر القرن الرابع ، وهو صراع قد احتدم وبلغ أوجه بعد أن استقر الحكم المرابطي في الأندلس وضاق أهل البلاد بتصرفات المغاربة القادمين منهم في ركاب الدولة المسيطرة ، والذين كانوا بالجزيرة قبل ذلك التاريخ ، ثم ظل هذا الصراع قائما بعد تحوّل الأندلس الى ملك الموحدين ولعله زاد في شدته ، وانما تجاوز ميدان الحكم والسياسة ، الى الميدان الفكري ، بعد أن نبغ رجال من المغرب في العلوم ، وأتقنوا التأليف باللغة العربية[3].

في هذا الجو من التنافس ، وعدّ المآثر ، وتباهي كل من الأندلسيين والمغاربة بأمجادهم ، ألا يجوز أن يكون أحد المغاربة قد ارتأى أن يضيف الى أمجاد طارق بن زياد الحربية ، مجدا أدبيا بلاغيا في لغة العرب نفسها ؟ فيجمع بذلك شمل العبقرية من أطرافه ، ويكون في ذلك مفخرة للمغاربة الذين لم يكن الأندلسيون يرون فيهم الا مقاتلين أشداء ، ومغامرين يحسنون أساليب القتل والسلب والنهب .

يبقى لنا ، قبل أن نختم الحديث عن هذه الخطبة أن نلم ، على عجل بقيمتها الفنية .

أول ما نستخلصه ، بعد الامعان في دراستها ، أنها ليست بليغة ولا مؤثرة بالمعنى الذى نعرفه للخطابة العربية التي ازدهر شأنها في عهد بني أمية في ديار المشرق ،

---

(1) ابن عذارى : محمد (أو أحمد ؟) بن محمد المراكشي . مؤرخ أندلسي الأصل لم يبق من كتبه الا جزء من " البيان المغرب " . وقد توفي نحو سنة 695 هـ .
(2) الخطبة في نفح الطيب ، للمقرى ، 1/240 . والمقرى صاحب الكتاب توفي سنة 1041 هـ .
(3) في موضوع هذا الصراع ، انظر المنازعة التي أسفرت عنها رسالة الشقندى ، ردا على ابن المعلم الطنجي ، في النفح ، 3/136 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهي من ناحية الشكل : قليلة الماء ، باردة العبارة ، مبهمة الاشارة ، ساكنة النفس ، بطيئة الحركة ، عديمة الاثارة ، تخلو أو تكاد من مجمل المقومات الفنية التي يستخدمها القادة العظام في إلهاب عواطف جنودهم ، واذكاء شعلة الحماسة فيهم قبل خوض المعارك الحاسمة ، في ذلك الزمان .

ومن أغرب ما في الأمر أن دارسا حديثا يرى أن في الخطابة سجعا كثيرا ، ومحسنات متكلفة ، وأنها لذلك " أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسي ، وربما الى ما بعد ذلك ، حيث شاع السجع ، وكثرت المحسنات "(1).

والحق أن الذى يتأمل هذه الخطبة لايجد فيها من السجع الجدير بهذه التسمية الا فقرة واحدة قصيرة هي التي يقول فيها : " وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات في الدرّ والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك ، أمير المؤمنين ، من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان " .

فأين نحن من السجع الذى عرفه العهد الأموى ، وأين نحن من التنميق المستساغ الذي ألفناه عند خطباء هذا العصر سواء كانوا من ملوك الأمويين وقادتهم ، أو من الخوارج أو من الشيعة ، وغيرهم .

والذى يتأمل هذه الفقرة نفسها يجدها مختلفة أشد الاختلاف عن بقية فقرات الخطبة حتى ليدفعنا ذلك الى ترجيح أنها ليست من صنع رجل واحد ، ولعل هذه الفقرة بالذات قد زيدت في النص المنحول ظنا من صاحبها أن في ذلك تحسينا له ، واثراء لجوانبه الفنية .

أما من ناحية المضمون فانه من المدهش فعلا أن لايجد الفاتح الكبير مايغري به جيشه المجاهد من المغاربة المتطوعين لنشر الدين الاسلامي الا الحور الحسان التي ترفل في المرجان ، والعقيان ... ومصاهرة ذوى التيجان ... هذا اذا سلمنا بأن هؤلاء يعرفون العربية ، وكأنه قد غاب عنه أن لاشيء يحفز على النصر في تلك الظروف ، كإذكاء

---

(1) انظر كتاب : " الأدب الأندلسي " لأحمد هيكل ، ص : 81 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العاطفة الدينية ، والحث على الاستشهاد ، وتوجيه الأفئدة نحو رضى الخالق ، والالحاح على المعاني السامية ، والمثل الاخلاقية والروحية التي رفرفت من أجلها أعلام المسلمين في كل مكان . والملاحظ أن هذه هي المعاني التي رأينا الفاتحين المسلمين يستحثون بها عزائم جيشهم .(1)

في نهاية المطاف ، نرى أنه من الأحسن لطارق بن زياد ، وللمسلمين الذين معه ، بل ولسائر المسلمين في كل وقت ، أن لا تصح نسبة هذه الخطبة اليه .

أما النثر الأندلسي الصحيح فانه يبدأ مع الرجال الذين أقاموا بالأندلس ، وماتوا فيها ، وان دخلوها فاتحين .

نماذج من نثر عهد الولاة وقيمتها الفنية .

لعل البداية الصحيحة لعهد الولاة بالأندلس هي التي تكون عام 95 للهجرة ، اذ فيها تولى عبدالعزيز بن موسى بن نصير شؤون الأندلس ، خلفا لأبيه الذى استدعي الى عاصمة الخلافة في دمشق(2) .

من النصوص التي احتفظت لنا بها المصادر ، والتي ترجع الى هذه الفترة المبكرة ، العهد الذي كتبه عبدالعزيز المذكور ، لتودمير ، أحد الحكام الاسبان ، وقد تضمن الشروط التي تحفظ للنصارى حقوقهم ، وتقيدهم بواجباتهم نحو المسلمين ، بعد نزول أميرهم على الصّلح . وقد جاء هذا العهد كما يلي :

" بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالعزيز الى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وانه له عهدالله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لايقتلون ، ولا يسبون أولادهم ونساءهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ما تعبد ونصح ، وأنه لا يأوي لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا علمه . . . . "(3)

---

(1) انظر بعض نماذجها في تاريخ الطبري ، في أجزاء متفرقة منه ، وفي الكامل للمبرد ، وغيرهما . ويستوي في ذلك أن تكون الخطب بمناسبة الحروب الداخلية ، أو غزو الممالك الأجنبية .

(2) انظر أخبار ذلك في البيان المغرب ، 2/ 23 .

(3) عن غزيري 2 ـ 105 ، عن الأدب الأندلسي لأحمد هيكل ، ص : 76 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا النص في بساطته ، وتقشفه ، ودقته ، يعكس بكل أمانة ، ما نتصوره من واقع الكتابة في هذا العصر المبكر من دخول الأندلس في الأسرة الاسلامية . وهو بذلك يذكرنا حقا بالكتب التي كانت تصدر عن الخلفاء الراشدين ، وعن أوائل خلفاء بني أمية . ولذلك فلا نظن أننا نبعد عن الصواب اذا زعمنا أن هذه الصورة ستظل تمثل الملامح الرئيسية للنثر في الأندلس ، طوال مدة تشمل الجانب الأكبر مما سميناه المرحلة الأولى في مسيرة النثر الأندلسي .

ومما يعزز هذا الرأي ، أن لدينا نصا صادرا عن يوسف الفهري [1] ، وهو آخر ولاة الأندلس ، حين كتب الى عبدالرحمن الداخل [2] ، لما كثر أتباعه ، وتفاقم أمره ، فقال : " أما بعد فقد انتهى الينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش اليك ، ونزوع نحوك من السراق ، وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة ، التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفا ، وجنحوا الى النقض ، والله من ورائهم محيط ، فان كنت تريد المال وسعة الجناب ، فأنا أولى لك ممن لجأت اليه ، اكنفك ، وأصل رحمك ، وأنزلك معي ان أردت ، وحيث تريد ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب افريقية ولا غيره . " [3]

يشبه هذا النص من وجوه كثيرة عهد عبدالعزيز بن موسى لتدمير ، ولاسيما في وضوح مرماه ، ودقة عباراته ، وقرب مأخذه ومأتاه . ولكنه يختلف عنه بعض الاختلاف من حيث تدفق العبارة ، وثراء الأداء اللغوي ، كما في قوله : " من السراق ، وأهل الغدر والختر ، ونقض الايمان المؤكدة ، التي كذبوا الله فيها ، وكذبونا .... " أو كقوله : " اكنفك ، وأصل رحمك ، وانزلك معي ان أردت ، وحيث تريد ... "

---

(1) يوسف بن عبدالرحمن الفهري ، ولي أمر الأندلس وهو ابن 75 سنة ، عام 130 هـ وهو آخر ولاتها . توفي عام 142 هـ . انظر مزيدا من أخباره في " البيان المغرب " 2/35
(2) عبدالرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل ، فرّ من بلاده بالشام اثر الانقلاب العباسي عام 132 هـ ، وجاء الى المغرب ، ثم ذهب الى الأندلس سنة 136 ، بعد أن هيأ له الأمر فيها أنصاره وظل يحارب آخر ولاتها يوسف الفهري حتى انتصر عليه ، وأسس الامارة الأموية في الأندلس عام 138 هـ .
(3) " البيان المغرب " : 2/45 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس يكفي في تفسير ذلك اختلاف الموضوع ، واختلاف المخاطب، بتوجيه الكلام هنا الى عربي ، يعرف لغته بسليقته ، وهناك الى حاكم اسباني أعجمي ، ومن ورائه الى أهل ملته . والحق أن أساس التمايز بين الصيغتين اننا هنا أمام ضرب من الصيغ الديوانية التي بدأت تظهر مراسمها ، وتلوح تقاليدها . والدليل على ذلك اننا ما ان نصل الى عهد هذا الوالي حتى نجد لديه كاتبا متفرغا لمهنة الكتابة ، اسمه خالد بن يزيد [1] وكان يلازم الوالي ، ويكتب عنه كل ما يصدر من الرسائل ، كهذا الكتاب الموجه الى الأمير الأموي . بل ان المصادر تحدثنا عن كاتب آخر كان يساعده في هذه المهام ، اسمه امية بن زيد [2] الذي دخل الأندلس مع جند بلج بن بشر [3]، وقد تدل هذه المعلومات على اتساع في الأعمال بهذا المنصب ، حتى كان الكاتب الرئيسي يحتاج الى من يساعده فيه .

ثم أننا نجد في نفس كتب المؤرخين اشارات كثيرة تدفعنا الى الاعتقاد بأن الكتابة الرسمية كانت شائعة متداولة لدى الولاة ، وأنهم أخذوا يلجؤون اليها في كثير من المناسبات التي كان ، ربما ، يكفي فيها الرسول المشافه ، ولو لم يكن الانشاء الرسمي قد شق طريقه بعد ، ودخل الاعتماد عليه في أساليب الحكم وتقاليد السياسة . فهذا يوسف الفهري [4] ، ما ان يترامى الى سمعه تحرك جماعة من أنصار الأمويين ، ودعوة الناس على الشواطئ الأندلسية ، الى صاحبهم عبد الرحمن ، حتى يكتب اليهم مخوفا ومحذرا [5]. وهذا أحد أتباع عبد الرحمن الداخل يروي كيف كانت تجري عملية الترويج له فيقول : "ثم كاتبنا أهل قنسرين وفلسطين [6]. يقصد النازلين بالأندلس منهم . ثم يضيف بعد ذلك مبينا نوعية الخدمات التي أداها هو وجماعته لعبد الرحمن : " وأقمنا معه سنة نبرم له أموره ونكاتب له الناس" [7].

---

(1) خالد بن يزيد : كذا اسماه ابن عذارى في البيان المغرب : 2 / 45 أما صاحب الحلة فسماه خالد بن زيد ، وانظر الحلة السيراء ، ج 2، ص : 342 .

(2) أمية بن زيد : هكذا سماه ابن عذارى 2 / 53 ، وهو في النفح أمية بن يزيد 3 / 46 .

(3) بلج بن بشر : أحد قادة الجيش الشامي الذي أرسله هشام بن عبد الملك الى الأندلس، ثم صار واليا لها . انظر مزيدا من أخباره في المعجب ص: 36 والبيان المغرب 2 / 32 .

(4) يوسف بن عبد الرحمن الفهري وهو آخر ولاة الأندلس ، ففي عهده تمت غلبة عبد الرحمن الداخل .

(5) راجع " البيان المغرب " 2 / 44 .

(6) نفسه 2 / 46 .

(7) نفسه " " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذه الشواهد وغيرها[1] تبين بشكل قاطع أن الكتابة كانت شائعة ، وكانت مستعملة على نطاق واسع نسبيّا ، منذ أواخر عهد الولاة على الأقل . ولو أن كتب التاريخ التي أفادتنا بهذه المعلومات ، حفظت لنا بعض النماذج الواسعة من هذه المراسلات العديدة ، لأمكننا أن نخرج من استعراضها برسم صورة أقرب الى الدقة لأساليب النثر الأدبي في هذا العهد ومقوماته الفنية .

هل وجدت الخطابة في هذه الفترة ؟

والذى يلفت الانتباه في هذا المساق أننا لا نكاد نعثر على أية اشارة الى الخطابة، مع أنه يبدو ، لأول وهلة ، أن أهم دواعيها متوفرة بالأندلس في هذا العهد ، ولاسيما العصبية القبلية التي أضرمت نار الفتن المتلاحقة بين الجماعات العربية التي دخلت البلاد في أعقاب الفتح . وهي نفس العوامل التي أدت — في الظاهر — الى ازدهار الخطابة العربية في المشرق أيام بني أمية .

وقد وقف بعض الدارسين المحدثين[2] عند هذه الحقيقة ، فعدّ الخطابة أبرز فنون هذا العصر ، لتوفر تلك الدواعي . ولكنه عندما أراد أن يمثل لها بشيء لم يجد الا " خطبة طارق بن زياد " التي أشار الى مايدور حولها من شك ، والى سطور قليلة من كلام عبد الرحمن الداخل ، أثناء بعض معاركه مع يوسف الفهرى .

والواقع أن الذى جرّ الدارس المذكور ، وغيره ، الى خطإ التقدير في قضية وجود الخطابة المزدهرة في الأندلس ، انما هو اهمالهم لثلاثة من العوامل الرئيسية التي كانت تكمن فيها الدوافع الحقيقية لازدهار الخطابة في الشام والعراق والحجاز دون سواها من الأمصار الاسلامية في هذا العصر .

---

(1) منها مثلا في المصدر السابق 2 / 35 ، وفي غيرها ...

(2) هو سامي مكي العاني في كتابه : " دراسات في الأدب الأندلسي " ص : 134 . وانظر أيضا رأى صاحب كتاب : " فصول في الأدب الأندلسي " ص 61 . فهو يرى أيضا أن دواعي الخطابة متوفرة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العامل الأول :

أن أهل هذه الأصقاع من العرب الأقحاح ، أو هم في الشام والعراق خاصة يمثلون الأغلبية الفاعلة ، المؤثرة في مجرى الحياة ، بحكم انتمائهما القريبي . وهما بلدان أقام فيهما العرب قديما ، وجاوروا أهلهما ، وأسسوا فيهما ، أو على تخومهما ، منذ أوائل العصر الجاهلي الممالك المعروفة[1] . وعندما انتشروا فيهما بعد الفتح ، كان ذلك الانتشار مكثفا ، وكان ذا طابع عائلي ، حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه ، قد اختط لهم في العراق مدينتي الكوفة والبصرة ، فنزل فيهما الناس بحسب انتماءاتهم القبلية[2] ، وقد ساعد على استمرار الهجرة الى الشام والعراق ، قرب الدار ، واغراء المدنية النامية ، وغيرهما من العوامل التي لا مجال للتوسع فيهما هنا .

ولم تكن الحال في الأندلس على شيء من هذا النحو . فالعرب قلة قليلة في بحر السكان الاسبان الاصليين ، وتكاثر المغاربة الذين كانوا غالبية جيش الفتح كما رأينا ، وقد تقاطروا على الأندلس لنفس الأسباب التي أغرت عرب الجزيرة بالنزوح الى العراق والشام بوجه خاص . ثم ان عرب الأندلس قد دخلوها جيوشا نظامية مما ينفي عن دخولهم الطابع العائلي ، فكانوا مضطرين الى التزوج من السبايا الاسبانيات أو من بنات الاسر التي سارعت الى قبول الاسلام دينا . ومن المؤكد أن لهذا الواقع دوره في تكوين طبائع جديدة ، وتناسي بعض الطبائع القديمة ، وادخال قدر غير قليل من التغيير على المجتمع الذي تكون هذه هي القاعدة العامة فيه[3] .

وخلاصة القول في هذا العامل الأول : أن العرب الذين ربما كان في طبائعهم الأصلية ما يجعلهم يساقون الى التعبير عما في نفوسهم بأسلوب الخطابة الذي هو

---

(1) للتذكير فقط نشير الى ممالك : المناذرة في الحيرة ، والغساسنة في جلق ، والانباط في بطرا الخ ...

(2) انظر ما يرويه أبو عبيدة عمر بن المثنى عن تمصير سعد بن أبي وقاص لمدينة الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك في " معجم البلدان " مادة "كوفة" .

(3) انظر مثلا كيف استطاعت زوجة عبد العزيز بن موسى بن نصير (وهي اسبانية كانت زوجة سابقة لوذريق ، أحد ملوك الاسبان) أن تقنعه بلبس التاج ، مع شدة اعتراضه بأن ذلك ليس من تقاليد قومه . وحتى لو كانت الحكاية مصطنعة ، فانها تبقى ذات مغزى عميق — البيان المغرب ، 2/ 23 و 24 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من تقاليدهم الاكيدة منذ العصر الجاهلي ، قد وجدوا نفوسهم قلة في مجتمع ليس في تقاليده ، ولا في علاقته باللغة العربية ، ما يجعله يقبل على هذا اللون من الأداء الفني ، لا فاعلا، ولا منفعلا .

العامل الثاني :

وثاني العوامل التي أُهملت : أن الخطابة العربية المشرقية انما ازدهرت لأنها وَجَدت في الشام والعراق ، فضلا عن الجزيرة التي هي مهدها الأول ، ومنبتها الأصلي ، بيئةً طبيعية ومحيطا مكانيا ملائمين ، استطاعت التقاليد العربية المتأصلة منذ العصر الجاهلي ، وصدر الاسلامي ، أن تنمو فيهما بكل يسر . ونعني بصفة خاصة تلك الأسواق المخليمة التي كانت تنشط حيثما يقيم العرب ، وحيثمايجتمعون ، فما ان تنهض فيها حركة البيع والشراء حتى يرافقها موكب حافل من ضروب النشاطات الأدبية ، فيكون فيها ، الى جانب الباعة ، والعارضين ، والدلالين ... الشعراء ، والخطباء ، والقصاصون ... كل يعرض ما لديه بالأسلوب الذي يراه أقدر من غيره ، على لفت الانتباه اليه، وشدّ الاسماع والاذهان الى حلقته .

فاذا كانت صيغ التبادل التجارى هي هي بشكل عام ، في معظم أنحاء العالم القديم ، مما لا نستبعد معه أن يكون الفاتحون قد وجدوا في الأسواق الأندلسية ، حين دخولها ما يذكرهم بعلاقات البيع والشراء في أسواقهم بالمشرق أو بالمغرب ، وان اختلفت المادة المعروضة لذلك البيع أو الشراء ... فان الذى لا مِرَاءَ فيه أن أساليب التبادل الثقافي وضروب عرض الانتاج الفكرى ، هي شديدة الارتباط بأنماط السلوك الاجتماعي ، وثيقة الصلة بضروب التنظيم المجتمعي ، ومتغيرات التفاعل بين عناصره . ولذلك فمن يستطيع أن يجزم بأن العرب على قلتهم ما ان دخلوا الأندلس ، حتى أقاموا فيها قوالب التبادل الثقافي ، ونظموا فيها الأسواق لعرض البضاعة المادية ، والانتاج الأدبي ، على نفس الطرائق التي نقلت بها القبائل العربية المهاجرة تقاليدها ، وانماط سلوكاتها الاجتماعية الى الشام ، أو الى الكوفة والبصرة في العراق ؟

ومهما يكن من أمر ، فاننا لم نعثر في ما أمكننا الاطلاع عليه من المؤلفات الأندلسية والمغربية ، على ما يرجّح لدينا القول بأن العرب والفاتحين المسلمين عموما

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجدوا ، أو أقاموا في الأندلس مناخا خطابيا ، كالذي أوجده العرب لأنفسهم في مهاجرهم الأولى ببلاد المشرق .

العامل الثالث :

وأخيرا ، فان أهم عامل في نظرنا ، يمكن أن يفسر غياب الخطابة في الأندلس ، في فترة الولاة بشكل خاص ، انما هو فقر الحياة السياسية بما في هذا الفترة من وجود ما .

لقد وقف بعض الباحثين عند مجرد الفتن والثورات التي أسفر عنها ذلك الصدام الدامي بين القبائل العربية ، التي إن نقلت شيئا مؤكدا معها ، فقد نقلت إحنها القديمة ، وحزازات النفوس التي بقيت كما هي . . . . وقد اعتقد أولائك الباحثون أن العصبية القبلية وحدها — بالغة مابلغت من الشدة والعنف — تقوى على أن تؤدي الى نمو الخطابة وازدهارها . ويكفي لبيان مبلغ الخطإ في هذا المذهب أن نستنطق الأدب الجاهلي الذى بين أيدينا ، لنرى أى أثر أدبي عظيم يمكن ارجاع الفضل فيه الى العصبية القبلية — وكانت غاية في الشدة والتطرف — بل أى خطابة انتجها ذلك العصر في موضوع العصبية ، وما بقي لنا منها ، على قلته ، فاتر الصلة بهذه العصبية ان لم يكن عديمها بشكل مطلق . وهذا يقوم في نظرنا دليلا على أن العصبية القبلية لا تكفي أبدا وحدها ، كيفما كان مقدار شدّتها ، لانتاج أى ضرب من الأدب ، لا شعرا ، ولا خطابة ولا غيرهما ، لأنها موقف سلبي يفرز تهيجات عميقة لا تلد الفن الذى هو ظاهرة ايجابية تتمخض عن الحالات النفسية التي تتجاوز غرائز الذبح والفتك والسفك والتدمير والسباب الأجوف الى تصميم بناء نظري ، ومشروع فكري ، يؤمن به صاحبه ، وينافح عنه ، ويدعو اليه . ولا يضير في ذلك شيئا أن يكون البناء والمشروع بسيطين ساذجين كبساطة وسذاجة صاحبه ، ولا ينقص منه شيئا أن لا يُجمع الناس على صلاحيته .

وحتى لو انتجت العصبية القبلية فنّا مستساغا عند هذا أو ذاك لاستعداد خاصّ في النفس ، أو للتّلاؤم مع نوع محدد من الحساسية ، فانه من المحال أن تكون قاعدة عامة للابداع ، في أيّ فنّ من الفنون لدى أية أمة من الأمم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقــع ، ومن هذا المنطلق الذي حاولنا أن نبين مرتكزاته ، فان الذي أبدع تلك الخطابة الراقية المزدهرة في المشرق أيام بني أمية ، إنما هو ثراء الحياة السياسية بتلك الأحزاب الحديدة التي كانت في الحقيقة تتصارع على الحكم ، وكانت ذات مشارب شتى ، ومذاهب دينوية وأخروية متباينة ، فكانت تصطنــع لنفسها شتّى أنواع التعبير ، وكانت تبحث عن أنجع وسائل التبليغ والاقناع الملائمة لظروف ذلك العصر، ونوعية ثقافتــه التي كانت مازالــت تعتمــد على المشافهــــة ، فاكتشفت أن لاشيء أفعل في ذلك المجتمع المغرم بالفصاحة والبلاغة من الكلام القوي الجميــل ولاسيما عندما يأتي من صاحبه ارتجالا وبديهــة . فكانت منابــر الخطابــة ، وكان الخطباء فــي كل سوق ، وفي كل مجمــع ، وكان لكل حزب خطباؤه ، كما كان لكل حزب شعراؤه . فأين مــن هذا واقع التمزق القبلي في أندلس عهد الولاة ؟

نستطيع الآن أن ننهي الكلام في هذه المرحلة الأولى بالاشارة الى الحقيقة الوحيدة التي تبدّت لنا ، وهي أنها كانت فترة هيجان كبير، واضطراب بالغ ، لم تأنس فيها الأفئدة ، ولم تطمئن القلوب ، فقد وجد العرب أنفسهــم في تمزق وتناحر، بين بحر وراءهم وعدو أمامهم ، فلم يكـادوا يلتفتون الى أي ضرب من ضروب الفنّ والأدب الرفيعين ، وهما اللذان دلت تجارب التاريــخ المتكررة على الدوام ، أنهما لا يحلو لهما شأن، ولا تتفتــح لهما أكمام ، الا في محيط يضمن القــدر الأدنى من الرخاء والأمن والاستقرار(1) . ولذلك لم يبق لدينا الا الترجيح بأن الكتابــــة الديوانية ، على قلتها ، كانت ، بالاضافة الى بعض الشعر المحدود في شكله وفي مضمونه ، كل ما يمكن أن يظهــر في مجتمع كان على النحو الذي وصفناه .

فما الذي سيأتي به عصر الامارة لتغيير هذه الصورة المؤذية ، واتاحة الانطلاق لمسيرة الثقافــة الأندلسيــة على طريق النمو والتطور والازدهــار؟

* * *

(1) الصّميل بن حاتم وهو من رؤوس الفتنة القبلية في هذا العهد ، هو الذي اقترح على الناس تولية يوسف الفهري فصرف اليه يوسف تدبير شؤون الأندلس جملة وتفصيلا . كان هذا أميا لا يقرأ ولا يكتــب . " البيان المغرب " 2 / 43 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا : النثر في عهد الامارة الأموية :

— فترة عبدالرحمن الداخل :

كان عبدالرحمن الداخل أميرا عاش في قصور الخلافة الأموية في دمشق . وكان من النضج والفطنة بحيث لا نستبعد أن يكون — وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره ، عندما دخل الأندلس أول مرة — قد ألم بكثير من جوانب التنظيم في مملكة أجداده . ومما يدفعنا الى هذا الترجيح أننا وجدناه منذ بداية امارته ، يحيط نفسه بمجموعة من الترتيبات الادارية التي لم تكن قد عرفت قبله في الأندلس ، أو لم تبلغ فيها هذا المستوى من الوضوح والتمايز . فهو قد اتخذ الوزراء ، فكان له أربعة منهم . واتخذ الحجاب ، فعدّ له منهم خمسة ، وعين القضاة بصفة رسمية ، فكان مجموع من عينهم خمسة أيضا[1] . ولا بد أنه كان وراء هذه الاجراءات غاية محددة تتصل بتنظيم الدولة ، وتنهيج طرائق الحكم ، على نحو ما قد يكون عرفه الأمير الفتى في بلاده .

والذي نعده أهمّ من كل ذلك ، انه استبقى في منصب الكتابة ذينك الرجلين الذين كانا يكتبان لآخر ولاة الأندلس : يوسف الفهري ، وهما خالد بن يزيد وأمية بن زيد[2] . ولعل في هذا التصرف ما يصلح دليلا على أن الأندلس ، لم يكن قد نجم فيها الى ذلك الحين عدد كبير ممن يحسنون كتابة الرسائل ، فاضطر عبدالرحمن الداخل الى ابقاء هذين الرجلين في مكانهما ، مع أن الأول منهما — خالد بن يزيد — هو الذي كتب الى عبدالرحمن — باسم يوسف — رسالة الترهيب والترغيب التي كنا رأيناها قبل حين .

وقد اشتهر عبدالرحمن بفصاحته وبلاغته ، فحدثنا من ذكروه[3] أنه كان مطبوع الشعر ، وحفظوا له تلك الأبيات الرقيقة التي قالها في التشوق والحنين الى بلاده وقومه بالمشرق[4] . غير أن الذي يجدر بنا أن نقف عنده ، انهم ذكروا أيضا حذقه لأساليب الأداء النثري بالذات ، فقال بعضهم عنه : "كان .... فصيحا بليغا ، حسن التوقيع ، جيد الفصول "[5] . يعنون الفصول النثرية بدون شك ، مما قد يدل على أنه كان يباشر بعض أنواع الكتابة بنفسه

---

(1) اسماؤهم ، وغير تعيينهم في " البيان المغرب " 2/ 43 .
(2) سبقت الاشارة اليهما ، والى الاختلاف الوارد في اسميهما .
(3) منهم صاحب "المعجب" ، ص : 41 ، و" الحلة السيراء" 1/ 35ـ42 .
(4) انظر المرجعين السابقين ولا سيما الثاني منهما . وانظر كذلك النفح : 3/ 39 .
(5) " البيان المغرب " 2/ 53 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبالفعل، فان لدينا نصا بعيد الدلالة في بيان هذا الجانب عنده ، وفي كشف ذوقه ، وطريقته في الانشاء . فقد كتب عنه كاتبه : أمية بن زيد رسالة الى بعض العمال "يستقصره فيما فرط من عمله ، فأكثر وأطال الكتاب ، فلما لحظه عبدالرحمن . . . أمر بقطعه وكتب بخط يده : أما بعد ، فان يكن التقصير لك مقدما ، فعد الاكتفاء أن يكون لك موءخرا ، وقد عامت بما تقدمت ، فاعتمد على أيهما أحببت"(1) .

ولو أن المصادر حفظت لنا رسالة أمية بن زيد ، لأمكننا أن نتبين الفروق الأساسية في التناول وطريقة التعبير في الرسالتين . ومع ذلك فنحن نستنتج خلاصة أولى ، وهي أن الأمير يكره التطويل والاكثار . ونحن نلمح فيما كتبه الأمير جزالة محكمة ، وايجازا شديدا ، ونوعا من التلاعب بالالفاظ في المقابلة بين " مقدما " و " موءخرا " ، وكل ذلك مع وضوح تام في الغرض ، واصابة للهدف الذى قصده المنشيء ، وهو في آن واحد : الزجر عن التقصير ، والاغراء بالاسراع في انجاز ما رسم له . وقد جاءت العبارة على قصرها في غاية التوازن بين هذين القطبين ، وذلك بالضبط ما كان يريده الأمير .

ان الباحث ليرى فيما ذكر عن عبدالرحمن ، من الأخبار المتصلة بعنايته بالنثر، أنه كان ميالا الى حمل الناس على عرض شكاواهم في رقع مكتوبة بدل مشافهته بها ، ولاسيما اذا كان فيها مايوءذي كرامتهم من سوء الحال ، وقلة المال ، وربما كان في هذا ما يدل ، من ناحية أخرى ، على عنايته بتنظيم اعمال دواوينه التي لابد أن بعضها كان مختصا بالنظر في مثل هذه الشوءون . فلقد جاءه رجل ، ذات مرة ، يشكو اليه فقره في هذه العبارات :
" يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، اليك فررت ، وبك عذت من زمن ظلوم ، ودهر غشوم ، قلّل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير الى نداك المآل ، وأنت ولي الحمد والمجد ، والمرجو للرفد "(2) .

فأجابه الأمير بقوله : "قد سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودن ولاسواك لمثله ، من اراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والالحاف في الطلبة ، واذا ألم بك خطب ، أو حزبك أمر ، فارفعه الينا في رقعة لا تعدوك ، كيما نستر عليك خلتك ، ونكفّ شمات العدو عنك ،بعد رفعك لها ، الى مالكك ومالكنا عز وجلّ ، باخلاص الدعاء ، وصدق النية "(3) .

---

(1) " البيان المغرب " 2 / 53 .
(2) نفح الطيب : 3 / 39 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذان شاهدان يختلفان في دلالتهما على مذاهب النثر في هذا العصر .
فكلا هما مرتجلان فيما يبدو ظاهريا ، ولكن النص الأول فيه من السجع والازدواج ،
والتكلف في التنميق ، والجهد في الصنعة مايشي بأن صاحبه أعده إعدادا طويلا
قبل عرضه على الأمير . وهذا في حدّ ذاته شاهد على أن الأندلس لم تخل ، في النصف
الأول من القرن الثاني ، من بعض نماذج النثر المنمق ، الذي يحمل طابع الجهد
المبذول في توشيته ، وان أوهمنا صاحبه بالعفوية والارتجال .

أما كلام عبدالرحمن الداخل ، فانه مرتجل حقا ككل ماوصل الينا من نثره ، وهذا أمر
طبيعي بالنسبة الى من هو في موضعه ، فليست الكتابة شغلاً له ولا حرفة . ولكنه
مع ذلك يدل على تمكن كبير من ناصية اللغة ، واتقان لأساليب بيانها . وفي كلامه
جهد غير قليل من التحسين والتجويد ، يظهر بخاصة في ذلك الحرص الواضح على الموازنة
بين العبارات ، والانتباه بها الى فواصل موسيقية تستريح عندها الآذان . وقد يبلغ
جرس التنغيم فيها حدّا يوهم من لايدقق فيها بأنها سجع ، وليست اياه . ثم أن
كلامه في غاية الدقة ، قد بلغ أقصى المرام حين وعد ، ونهى ، وعلل ، وأصلح ، ودل على
لين ، وصرامة ، وتواضع وايمان ، بأقل الألفاظ وأوجز العبارات [1] .

وبعد ، فان عبدالرحمن رجل عربي أصيل ، زادته الحضارة تأنقا في منطقه ، ولكنها
لم تشط به عن منابع الذوق السليم ، فجاءت الفقرات القليلة التي وصلت الينا من نثره تحمل
كل سمات شخصيته التاريخية : القوة ، والدقة ، والوضوح في الرؤية ، والتسديد في
اصابة الغرض ، وبلوغ الهدف ، وهي نفس صفاته الذاتية التي بنى بها مجده :
ومجد أبنائه وأحفاده في الأندلس . فهل نعجب بعد ذلك ، اذا رأيناه ، كأسلافه
من العرب الأوائل ، يتأثر بكلمة تقال ، وتهتز مشاعره لعبارة بليغة ، فاذا أعجبه
نظامها ، ودلته على فطنة صاحبها أو حسن بديهته ، كافأه في الحال ، بما قد
لايخطر على بال . لقد ثار عليه مرّة ثائر ، فلما حاربه وتغلب عليه سيق أمامه
مكبلا محمولا على بغل . وكان الأمير على جواده ينظر اليه ، ثم لحقه وقال بصوت يسمعه

---

(1) وتظهر هذه الخصائص جلية في توقيع له أورده صاحب النفح : 3 / 39 : " أما بعد
فدعني من معاريض المعاذير . . . . "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأسير : " يا بفل ماذا تحمل من الشقاق والنفاق ! فقال الثائر : يافرس ماذا تحمل من العفو والاشفاق ! فقال (عبدالرحمن) والله لاذقت موتا على يدي ، فأطلقه "[1].

فترة الحَكَم بن هشام :[2]

لقد توارث أمراء بني أمية خلفا عن سلف هذا الميل الى المنطق الفصيح ، والتعبير البليغ حتى ليندر أن نجد واحدا منهم لايصفه المؤرخون بهذه الصفات : فهشام الرضى بن عبدالرحمن الداخل[3] " كان .... بسط البنان فصيح اللسان "[4] والحكم بن هشام : " كان .... فصيحا بليغا ، شاعرا مجيدا . "[4] . وقد قيل مثل ذلك في أغلب الأمراء الذين جاءوا بعدهما . ولكن المؤرخين كانوا يعنون بتسجيل ما أثر عنهم من شعر ، أكثر مما يلتفتون الى النثر .

فمن النصوص التي حفظوها للحَكَم بن هشام بن عبدالرحمن تلك الوصية التي خاطب بها ابنه وولي عهده عبدالرحمن الأوسط . وقد جاء فيها :

" اني قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الاعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة ، فأجر على ما نهجت لك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فهم أنزل ثقتك ، واياهم واس من نعمتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين الى مراتبهم من عوام رعيتك ، الذين لايزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم . فاحسم عليهم ببسط العدل لكافتهم ، واختيار أولي الفضل والسداد لأحكامهم وعمالتهم ، دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة . وان رأيت فيمن يرتقي من صنائعك

---

(1) " البيان المغرب " 2 / 59 .

(2) هو الحكم بن هشام الرضى بن عبدالرحمن الداخل ، ثالث الأمراء الأمويين حكم مابين 180 ـ 206 هـ ، وهو المشهور بالحكم الربضي .

(3) هشام الرضى بن عبدالرحمن الداخل ، خلف أباه بعد موته ، وحكم ما بين : 172 ـ 180 هـ .

(4) " البيان المغرب " 2 / 65 .

(5) نفسه ، 2 / 79 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رجلا لم تنهض به سابقة ، ويشف بخصلة ، وتدامج نفسه وهمته ، فأعنه ، واختبره وقدمه ، واصطنعه ، ولا يريبك خمول أوّله ، فان أول كل شرف ما ربيته . ولا تدع مجازاة المحسن باحسانه ، ومعاقبة المسيء باساءته . فان التزامك لهذين ، ووضعك لهما موضعهما ، يرغب فيك ، ويرهب منك "(1) .

هذا نص جميل ، فيه هدوء وسكينة ، يشف عن حكمة صاحبه المستخلصة من تجربة الحكم الطويلة ، ومعاناة أحوال السياسة . وفيما عدا ذلك فاننا لانكاد نلمح فيه خاصية فنية تميزه عن نثر عبدالرحمن الداخل مثلا . فهو يشبهه ، من جميع الوجوه ، النثر العربي المرسل الذى ينتمي الى هذه الفترة التاريخية . وهو يدل على أن كلام بني أمية ، في نهاية القرن الثاني للهجرة ، مازال محتفظا بفصاحة الأعراب وميلهم الى الايجاز ، وتوخيهم الدقة ، مع سلامة التركيب وجزالة اللغة . ولكن في النص من رقة الأداء ، وأبرية السبك مالا صلة له بخشونة البادية .

وينطوى هذا النص على قدر ظاهر من الحرص على نوع من التنغيم الذى تنتهي اليه فواصل الجمل القصيرة ، مثل قوله : "واعلم أن أولى الأمور بك ، وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ، ثم عشيرتك ، ثم الذين يلونهم من مواليك ، وشيعتك ، فهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من نقمتك . . ." فكافات الخطاب العديدة التي ينتهي اليها كل مفصل من مفاصل الجملة ، مع قصر تلك المفاصل وتقاربها ، يشيع في الجوّ نغمة موسيقية مريحة . فهي من الناحية الصوتية أقلّ ثراء من السجع ، ولكنها أُمكن في النفس من النثر العادى الذى لا يراعي مثل هذه التحسينات ، وهي التي لولاها لفقدت هذه النماذج كل قيمة أدبية ، وأصبحت من الكلام اليومي الذى لا يمكن أن يدوّن ، ولا أن يبحث فيه عن قيم فنية .

ومن الأمثلة الأخرى التي تبين لنا هذا الميل الواضح الى تجويد العبارة ، قوله في الوصية المتقدمة : " فأعنه ، واختبره ، وقدمه ، واصطنعه ، ولا يريبك خمول أوله ، فان أول كل شرف ما ربيته . . ." فان ترتيب هذه الأفعال ، وحشدها على هذا النحو ، لا يمكن الا أن يكون وليد تفكير مبعثه الحرص على التدقيق البلاغي ، والسعي الى تحسين هيأة الكلام .

---

(1) عن " الأدب الأندلسي . . . " لأحمد هيكل ، ص : 123 ، عن جزء مخطوط من المقتبس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا ينتهي القرن الثاني للهجرة[1] في الأندلس، دون أن يظهر في النثر الرسمي الذي وصلت الينا بعض نماذجه، شيء يميزه تمييزا كبيرا عن النثر الذي وجدناه في مرحلة الولاة، أو في عهد مؤسس الامارة الأموية. ولعل الفرق الوحيد هو ليونة الأداء، والحرص على التنغيم. أما من حيث المضامين، فالنثر مازال ذا طابع اعلامي بحت، تكاد تنحصر وظائفه في تبليغ ارادة الحكام، أو بسط وقائع الثورات والفتن، أو عرض أحوال الرعايا المتمردين.

فترة عبدالرحمن بن الحكم :

في مطالع القرن الثالث، ومع تولي الأمير عبدالرحمن الأوسط (ابن الحكم) نلمس مزيدا من العناية بكتاب الدواوين تجلت في ارتفاع عددهم. فقد اتخذ عبدالرحمن هذا ثلاثة منهم، هم : عبدالكريم بن عبدالواحد[2] وسفيان بن عبد ربه[3] وعيسى بن شهيد[4] كما تجلت في ترقية رتبة هذه الوظيفة، اذ صار بامكان أصحابها أن يعدّوا من الوزراء فكان الثلاثة المذكورون كتّابا وحجّابا لعبدالرحمن.

وكان أول ما صدر عن النثر الفني عن هذا الأمير خطبة افتتح بها عهده، أو ما يمكن أن نسميه خطبة العرش بمناسبة الجلوس على كرسي الامارة بعد موت أبيه. فما ان تمت له البيعة وصلى في جنازة أبيه، حتى جمع اخوته، وسادة أسرته. وكبار دولته، فجلس على الأرض، وجلسوا معه، ثم قال :

" الحمد لله الذي جعل الموت حتما من قضائه، وعزما من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلّ خلقه بالفناء، تبارك اسمه، وتعالى جدّه،

---

(1) توفي الحكم بن هشام، المعروف بالربضي عام : 206، كما ذكرنا في الهامش المتقدم.
(2) عبدالكريم بن عبدالواحد بن مغيث : من عظماء القادة في الأندلس أيام الحكم الربضي وابنه عبدالرحمن. كان حاجبا للحكم ثم لابنه عبدالرحمن. انظر أخباره في الحلة، ج 1، ص : 135. وهامش المحقق بها.
(3) سفيان بن عبدربه : مغربي الأصل، تولى الحجابة بعد موت عبدالكريم بن عبد الواحد سنة 209. وانظر المرجع السابق.
(4) عيسى بن شهيد : تولى الحجابة لعبدالرحمن الأوسط. وهو من أعظم القادة الأندلسيين في هذه الفترة (المرجع السابق).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليما . وكان مصابنا بالامام — رحمه الله — مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، واياه نسأل إلهام الصبر ، واليه نرغب في كل الأجر والذخر . وعهد الينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد ان شاء الله "(1).

هذه الخطبة : إما أن أهم أجزائها قد ضاع ، واما أن الأمير كان في قمة انفعاله ، فاشتد ازدحام العواطف المتباينة في نفسه : حزن على موت أبيه ، وغبطة باعتلاء عرش الحكم في الأندلس ، فجمدت قريحته ، وانعقد لسانه ، فلم يقل شيئا ذا بال . ومن المعلوم أن فترات التهيج الشديد ، وتناقض المشاعر لدى حادث ما ، لا تتيح الابداع الفني الذي يتطلب قدرا من الهدوء الوجداني يتسنى معه تنظيم الانفعالات ، وترتيب الأفكار .

نقول هذا الكلام ، لأننا لا نرى شيئا ، من ناحية المضمون ، في هذه الخطبة يمكن أن يرقى الى عظمة المناسبة أو يسمو الى جلال الموقف ، أو يُبين عن قدر المتكلم . ولعل كل ما يستلفت الانتباه ، بهذا الصدد ، أن الأمير الجديد قد حفظ وصية أبيه ، فبرنامجه السياسي هو نفس ذلك الذي عهد به والده اليه ، وهو يبدو وقتئذ مصمما على أن يلتزم بما جاء فيه ، وأن يمضي شوطا زائدا في اتجاه الأهداف المحددة فيه . وهذا ما يفهم بكل وضوح من قوله : " وعهد الينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله ."

أما من حيث شكل هذه الخطبة ، وأدواتها الفنية ، فاننا اذا استثنينا مدخل التحميد ، الذي هو افتتاح تقليدي ، وقد تكون أهم أجزائه من محفوظه القديم ، كقوله : " واياه نسأل الهام الصبر ، واليه نرغب في كل الأجر والذخر " . . . لا نكاد نجد شيئا يمكن أن ينسب الى ارادة التجويد والتحسين ، أو الى الرغبة في تنميق التعبير ، بل اننا نجد الكثير من عباراته لا تختلف عن الكلام اليومي العادي كمثل قوله : " ولسنا ممن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد ان شاء الله " .

---

(1) " البيان المغرب " ، 2/30 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لو لم يكن بين أيدينا الآن نماذج أخرى من نثر عبدالرحمن الأوسط، لظننا أن هذا هو مبلغ زاده من هذا الفن، وحكمنا عليه حينئذ، بلا تردد، بأنه زاد جدّ حقير. غير أن بين أيدينا من نثره ما يثبت أن حظه من الأدب أوفر مما تشير اليه تلك الخطابة.

فمن الأمثلة التي نحب أن نوردها لبيان قدرته على الانشاء الجميل، أنه أهدى ذات يوم احدى محظياته عقدا نفيسًا جدّا، فاستعظم جلساؤه هذا الفعل منه، واستغربوا أن تمدى مثل تلك الثروة الطائلة الى جارية من الجواري، فقال: "ان لابسه أنفس منه خطرا، وأرفع قدرا، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، وراق في النفس جوهرها، فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يغشى الأبصار ويذهب بالألباب، وهل على وجه الأرض من زبرجد ما، وشريف جوهرها، أقر للعين، وأجمع لـزين، من وجه أكمل الله فيه الحسن، وألقى عليه الجمال بهجته"(1).

ما أيسر أن نتمثل الفرق، في جمال التعبير وأناقته، بين هذه القطعة وما سميناه خطبة الجلوس على العرش. ان عبدالرحمن الأوسط، هنا، رجل فنان يتمتع بجمال جاريته مرّتين: مرّة بذكره، ووصف انبهاره به، ومرّة بالسعي الى أداء التعبير عنه في هذه القوالب الشفافة المتأنقة، التي تفصح عن بليغ حساسيته، وعظيم ما في نفسه من الغرام بحسن هذه الجارية.

ولو أننا رحنا نتأمل شكل هذه القطعة، للاحظنا، من أول وهلة، جنوحا بينا الى السجع، ولكنه من ذلك النوع الذي لا يثقل على السمع، ولا يركب من أجله صعب المطايا لأنه لا يضحي من أجله بتدفق العبارة، ولا يعتسف اليه الطريق اذا لم يكن يسير المنال، سهل المتناول. ولعل هذه الظاهرة أبرز في هذا النص، منها في كل النصوص الـ.. أسلفنا فيها القول، مما يوحي بأن هذه المرحلة التي تغطي القرن الثالث ستشهد اقبالا من الأدباء عليه، وتوغيا للاستكثار منه.

على أن النثر الأدبي، لا يمثله في هذا العصر الأمير الأموي وحده، بل ينبغي لنا أن نبحث عن نماذج أخرى لعامة المتأدبين أو عموم الناس الذين يلجؤون الى النثر الـ..

---

(1) "البيان المغرب"، 2/ 92.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للتعبير عما يشغلهم ويعنيهم . وليس أحسن لهذا الميزان من أن نتأمل بعض الرسائل الصادرة عن كُتّابه . فقد اشتكى سكان جزيرتي ميورقة ومنورقة الى الأمير ما لحقهم من أذى على أيدي المسلمين (1) فرد عليهم برسالة يقول فيها :

" أما بعد ، فقد بلغنا كتابكم ، تذكرون فيه أمركم ، واغارة المسلمين الذين بعثناهم اليكم لجهادكم ، واصابتهم ما أصابوهم منكم ، من ذراريكم وأموالكم ، والمبلغ الذى بلغوه منكم ، وما اشفيتم عليه من الهلاك . وسألتم التدارك لأمركم ، وقبول الجزية منكم ، وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة ، والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكروههم ، والوفاء بما يحملونه عن أنفسكم . ورجونا أن يكون فيما عوقبتم به صلاح حكم ، وتمنعكم عن العود الى مثل الذى كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله وذمته "(2).

في هذه الرسالة تقيد كامل بالتعبير الديواني الرصين ، المماثل في صراحة مضمونه ، وتقشف مبانيه ، واقتصاد معرضه ، لكل النصوص ذات الطابع الاعلامي التي أتينا على تناولها في هذا الفصل . ويبدو مؤكدا لدينا أن هذه الرسالة لا تكون الا من انشاء أحد الكتاب الرسميين لأنها لا تشبه في شيء ذلك التعبير الأنيق الذى وجدناه لعبد الرحمن الأوسط في حديثه عن جاريته . نعم ان مضامين الحكم والسياسة تستلزم من الصرامة في الأسلوب ما ينأى به عن رقة الغزل ، وشفافية الصبابة ، ولكننا مع ذلك لا نحسب أن الأمير كان يستفرغ جهده في تكرار ما جاء في رسالة المشتكين وعرض شكواهم من جديد ، لو كان هو الذى كتب هذه الرسالة الجوابية ، بل كان مايستشعره من القوة والسلطة يملي عليه الاستفاضة في الترهيب ، والانذار والوعيد ، ثم يخلص في النهاية الى الترغيب ، والتلويح بفوائد الطاعة ، ومزايا الاستكانة .

ومهما يكن من أمر ، فان النماذج الصحيحة التي حفظت لنا من انشاء عبد الرحمن تظهره لنا قوي الأسلوب ، شديد العناية بعباراته ، شديد البحث عن وجوه تحسينها ، دون أن يكون في ذلك تكلف أو استكراه (هذا اذا نحّينا جانبا الخطبة التي ألقاها بعد موت أبيه ، والتي بينا خلوها من كل ألوان الفن) . ولعل توقيعاته التي كان يُذيّل بها

(1) لم تورد المصادر التي تنقل عنها ، رسالة سكان الجزيرتين ، ولو كانت بين أيدينا لكانت ربما أفادت تنافي معرفة مدى استعراب النصارى الاسبان ، هذا أن لم يكتبها لهم بعض الأندلسيين المسلمين ممن يتقنون العربية .

(2) " البيان المغرب " : 2 / 39 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعض الرسائل الواردة عليه تبين لنا بوضوح هذا المذهب . فقد كتب اليه أحد عماله يسأله وظيفة رفيعة ، ولم يحسن التعبير عن رغبته هذه ، أو لعل رسالته لم تكن في مستوى من البلاغة يرضاه الأمير ، وينشرح قلبه له ، فوقّع له بالعبارة التالية : " من لم يصب وجه مطلبه ، كان الحرمان أولى به " (1) ومن يدري ، فلعل الوظيفة المطلوبة هي خطة الكتابة ، كما كانت تسمى وقتئذ ، وهي التي اشتد حرص الناس عليها ، وسعيهم اليها ، منذ أن رقي صاحبها الى مرتبة الوزير .

كتبة محمد بن عبد الرحمن الأوسط (2)

أجل ، ان ولاية الأمير محمد بن عبد الرحمن قد شهدت صراعا على هذه الخطة ترك أصداءه في بعض ما وصل الينا من رسائل ومحاورات هذه الفترة . ذلك أن الأمير قد افتتح عهده بتعيين وزرائه وقادته ، وكان عددهم اثني عشر ، وكتابه وكانوا ثلاثة هم : عبد الملك بن أمية (3) وحامد بن محمد الزجالي (4) وموسى بن أبان (5) .

ولم يكن الأول ذا قدم راسخة في الكتابة ، ولا موهبة خاصة فيها . وقد عرف ذلك من نفسه ، فلم يرد أن يتولى منصبا لا يقوى على حمل أعبائه ، فأرسل الى الأمير محمد يستعفيه . ولم نجد رسالة الاستعفاء هذه ، ولكننا وجدنا الرسالة التي ردّ بها الأمير عليه ، وهي التي يقول له فيها : " قد فهمنا عنك ، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك ، لكنْ اصطناعا لك ، وعائدةً عليك ، وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتّاب ، فتخيّر منهم من تثق به ، وتعتمد عليه ، ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبك ، والاصلاح عليك ، الى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة ان شاء الله تعالى " . (6) .

---

(1) " البيان المغرب " : 93/2 .

(2) محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حكم الأندلس بعد وفاة أبيه من 238 الى 273 هـ .

(3) انظر الحلة ، 140/1 ، وبخاصة هامش المحقق .

(4) نفسه ، الهامش .

(5) البيان ، 94/2 .

(6) نفسه ، 103/2 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الذي يجدر بنا أن نقف عنده ، من حيث محتوى هذا الكتاب ، فهو أن الأمير لا ينظر الى هذه الوظيفة — وظيفة الكتابة — على أنها منصب فني أو "تقني" ، كما نقول اليوم ، ينبغي أن يتولاها صاحب الاختصاص المُجلّي في الميدان ، بل يراها وظيفة سياسية ينهض بها من سارت أسرته منذ أمدٍ مبكر في تقاليد الـ... للكرسي الأموي في البلاد . ثم انه يتيح لكاتبه أن يستعين بمن شاء من "التقنيين" ذوي الخبرة والتمرس بأساليب الانشاء . وهو مع ذلك يحتفظ لنفسه بمهمة الاشراف على مايصدر عن ديوان الانشاء لأن تأثيره عظيم على حسن سير شؤون الدولة . بل انه يجيز كاتبه باصلاح ما يحتاج الى الاصلاح من رسائله ، مما يدل على وعيه بتمكنه من هذا الفن ، وثقته بسداد رأيه فيه . وأخيرا فان الأمير يرى أن الكتابة "طريقة" يمكن أن يحذقها الانسان بالتجربة والتمرس ، وأن كاتبه لابدّ أن يحسن يوما "ركوبها" .

هذه الاستنتاجات تعطينا فكرة واضحة ، في هذه الفترة من نهاية القرن الثالث الهجرى ، عن نظرة الأمراء الى الكتابة الرسمية ، وعنايتهم الشديدة بها ، وحرصهم على جودتها الفنية ، وتشددهم في اختيار أهل الثقة والولاء التام لحمل مسؤولياتها .

والدليل الآخر على الشرف الذي اكتسبته خطة الكتابة في عيون الناس ، أن واحدا من كبار قادة هذا الأمير ، واسمه هاشم بن عبدالعزيز[1] ، قد حسد عبدالملك بن أمية المذكور على توليها ، كما حسده عليها كثيرون ممن رأوا نفوسهم " أولى بها لاستكمال أدواتها " ، فكان ذلك القائد " يثير سقطاته ، ويتتبع هفواته ، ويطمع عليه والأمير محمد بفطنته يتغافل عليه "[2] حتى تجاوز في ذلك كل الحدود ، ولم يعد الأمير يتحمل الصبر عليه ، فدعاه وقال له : " قد أكثر أهل خدمتنا وأكثرت في هذا الكاتب ، تذكرون جهله ، وندامته ، وقد ضممنا اليه من الكتاب من يستعين به ، ويستظ على خدمته بمكانه ، وانما نقفو بخدمتنا ، ونسلك بمراتبنا طريق من ابتدأها وأسس ووضع أهلها فيها . واذا كنا لا نخلف آباءكم بكم ، ولا نخلفكم بأبنائكم ، فمتى من نهى إحساننا ؟ ونرب أيادينا ؟ أعند أبناء الفرانين ؟ أو الجزارين ؟ أو أمثالهم من الممتهنين ؟ وأنت كنت أحق بالحضّ على هذا ، وتصويب الرأي فيه ، لما ترجو من مثله في أولادك وعقبك

(1) قائد ووزير من رجال دولة الأمير محمد بن عبدالرحمن . في الحلة 1/137 ، نبذة صالحة من أخباره .

(2) " البيان المغرب " : 2/103 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا موقف الأمير من وظيفة الكتابة واسناد مسؤولياتها ، وهذه فلسفته في توزيع وظائف الدولة على من سبقت لآبائهم خدمة بني أمية ، واحلال الأبناء في وظائف الآباء ، كأنما هي مِلْكِيّة تورث ....

أما مبلغ الفن في رسالته ، ثم في مخاطبته القائد : هاشم بن عبدالعزيز ، فهو لا يختلف عما ألفناه في رسائل أبيه وجده ، وكلاهما . فالخصائص الفنية هي هي : جزالة في التعبير ، ودقة متناهية في اصابة الغرض ، وحرص متفاوت على قدر من الأناقة ، وحظ من النغم الموسيقي عند الفواصل ، وتقيد بالتعبير المباشر الذي لا يكاد يلجأ الى التشبيه أبدا ، وايجاز شديد ، كأن في تطويل الرسالة أو الخطاب نيلا من هيبة المُلك وجلال الامارة .

ومن مأثورات الأمير محمد التي يصح أن تكون خير شاهد على طريقته هذه ، قوله لقائده هاشم بن عبدالعزيز ، المتقدم ذكره ، حين عاتبه على عدم تثبته ، وتورعه ، لذلك ، في الخطأ : " ياهاشم ! من آثر السرعة أفضت به الى الهفوة ، ولو أننا أصغينا الى محو[1] زلاتك ، وأصخنا الى هفواتك ، لكنا شركاءك في الزلة ، وقسماءك في العجلة ، فمهلا عليك ، ورويدا بك ، فانك ان يُعَجِّلْ يُعَجَّلْ لك "[2].

كانت هذه نماذج من انشاء الأمير ، وديوان كُتابه في هذا العصر ، فكيف كانت الكتابة يا ترى خارج القصر ؟

لدينا من ذلك رسالة كتبها رجل اسمه الوليد بن عبدالرحمن بن غانم[3] الى الأمير محمد ، يطلب فيها منه ، بطريقة الاشارة والتلميح ، توليته منصبا كبيرا من مناصب الدولة . ونص هذه الرسالة ما يلي :

---

(1) كذا في الأصل ، ولم يستقم لنا المعنى بها ، وربما استقام بدونها واتضح .
(2) " البيان المغرب " : 2 / 107 .
(3) الوليد بن عبدالرحمن بن عبدالحميد بن غانم (توفي 272 هـ) . من وزراء الأمير محمد بن عبدالرحمن . الحلة ، 2 / 374 .
وانظر هامش المحقق في الجزء 1 من الحلة ، ص : 141 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" عَظُمَت نعمة الأمير ، أبقاه الله ، عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر ، فمتى رمت شكر أدنى ما غمرني ، وحمد أيسر ما اشتمل علي ، تكاءدني الشكر ، وعجز بي الجهد ، ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ في القول ، والاجتهاد في العمل ، اذ لم أرهما يدورا ن الا على نعمة أزلفت ، ويقتصران الا على زيادة انتظرت ، وأنا بهما مخيم ، وعليهما معول ، والله الناقل لعباده ، بطاعتهم له ، وشكرهم أياديه ، من دار الشقوة الى دار السعادة ، ومن نصب العاجلة الى راحة الآجلة "[1].

هامي ذي رسالة رجل من مثقفي هذا العصر ، وممن يرون في نفوسهم الكفاية لتولي المناصب العليا . ويُشتمّ من أواخر الكتاب ، أنه ربما كان له إلمام ببعض مسائل الفقه ، أو ممن أطال النظر في كتبه ، وهو على كل حال ينم عن نَفَس ديني واضح لم يسر انعكاسا له بمثل هذا الظهور في ما وجدناه من رسائل هذه المرحلة كلها . فاذا تجاوزنا هذا الجانب من الرسالة لم نجد فيها ما يميزها عن غيرها من الناحية الفنية لا من حيث بناؤها العام ، ولا من حيث أنماطها التعبيرية ، ولا من حيث أدواتها الفنية التي سعى الكاتب من خلالها الى التزيين والتجويد .

وقد علق الأمير على هذه الرسالة تعليقا يدل على أنها أعجبته ، اذ كتب عليها : " ان الله شاكر يحب الشاكرين ، وقد ناديت فأسمعت ، ولكل أجل كتاب "[2]. ومما يَلفت الانتباه ، أن وعد الأمير بالاستجابة قد جاء في نفس صيغة الاشارة والتلميح التي اعتمدتها الرسالة ، وفيه نَفَس ديني ، تجلى في الاقتباس من القرآن الكريم . وهو توقيع يدل فضلا على ذكاء صاحبه وفطنته ، ويُصدِّق ما ذكره أهل التاريخ من أنه كان : " فصيحا ، بليغا ... ذا بديهة وروية ".[3]

فترة الأمير عبدالله بن محمد :[4]

مع دولة الأمير عبدالله نصل الى أُخَرَيَاتِ القرن الثالث . ويحدثنا المؤرخون بأنه اتخذ ثلاثة من الكتاب[5] ليس فيهم واحد من كتاب أبيه ، وكأننا نجد دمياة الكتابة في ديوانه .

---

(1) أخبار مجموعة ، ص : 143 . وانظر رسالة لابن غانم هذا الى هاشم بن عبدالعزيز في سجنه . النفح : 3/373 .
(2) " أخبار مجموعة " ، 143 .
(3) " البيان المغرب " : 2/107 .
(4) عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن الأوسط . حكم من سنة 273 الى سنة 300 هـ .
(5) ذكرهم صاحب " البيان المغرب " : 2/120 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحسب أن نقف عند شاهدين اثنين من شواهد نثره . أما الأول فهو رسالة أملاها بنفسه على أحد كُتابه ، وهي في الردّ على أحد العمال أكثر من مراسلة الأمير ، وتوجيه الكتب اليه ، حتى أثقل عليه بذلك ، فزجره بقوله : " أما بعد فلو كان نظرك فيما خصصناك به ، واهتبالك به على حسب مواترتك بالكتب ، واشتغالك بذلك عن مهم أمرك ، لكنت من أحسن رجالنا عناء ، وأتمهم نظرا ، وأفضلهم حزما ، فأقلل من الكتب فيما لا وجوه له ، ولا نفع فيه ، واصرف همتك وفكرتك ، وعنايتك الى مايبدو فيه اكتفاؤك ، ويظاهر فيه غناؤك ان شاء الله ". (1)

ان الذى تجدر الاشارة اليه ، في البداية ، أن الكتابة قد بلغت عند الولاة مبلغا من اليسر ، والشيوع جعل بعضهم يستخدمها للاتصال بالأمير فيما " لا وجوه له ، ولا نفع فيه " ، ولا بد أن الذى حفز الأمير على زجر عامله عن الاكثار من المراسلة ، كثرة ما يرد اليه من الأقاليم ، مما هو في موضعه من وجوه النفع والأهمية ، فأَحَبَّ أن يخفف بالكف من تضييع وقت الكاتب والمخاطب فيما لا غناء فيه . ولو أنه لم يكن يرد على القصر الا رسائل هذا العامل لما انزعج الأمير ، الى الحد الذي رأيناه .

اما الشاهد الثاني من نثر الأمير عبدالله فهو محاورة جرت بينه وبين أحد رجال دولته . قال الأمير : " ان مخايل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبيء عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك ، وأسدل لستر العفو عليك .

فقال (الرجل) : قد اشتمل الذنب علي ، وحاق الخطأ بيّ ، وانما أنا بشر ، وما يقوم لي عذر .

" فقال (الأمير) : مهلا عليك ، ورويدا بك ، تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل ، وقد وسعك الغفران ". (2)

في هذا النص على قصره ، تظهر كل خصائص النثر الذى استظهرناه منذ لاحت عليه علامات التجويد والتجميل . فَهَا هُنَا التدفق العذب ، والسهولة الجزلة ، والتفنن في استعمال حروف الجرّ ، والايقاع الموسيقي الذى يوشك في كثير من الحالات أن يكون سجعا تاما ، والتوازن الدقيق المنسجم بين فواصل الجملة ، مع ترديد للمعنى الواحد من صياغات مختلفة ، وقوالب متعانقة ، تزيد المضمون دقة وتمنح التعبير جرسا يحبّبه الى الأسماع .

---

(1) ذكرهم صاحب " البيان المغرب " : 2 / 154 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهذا نصل إلى نهاية المرحلة الثانية من تطور النثر الفني في البلاد الاندلسية

ولقد درسنا معظم النصوص التي استطعنا العثور عليها في المصادر القديمة ، وحاولنا أن نقف وقفات مختصرة عند مضامينها وأشكالها ، لبيان أغراضها واستخلاص طابعها الفني ، وصلتها بالمحيط السياسي . ويحسن بنا أن نجمل الآن ما وصلنا اليه من الملاحظات التي تشمل المرحلتين المدروستين كلتيهما ، في عهد الولاة ، وعهد الامارة :

1 — ان النشأة الحقيقية للنثر الأندلسي يجب أن تلتمس عند أهل الأندلس الذين أقاموا فيها بعد الفتح ، أو نشؤوا بها وتأثروا بمعطيات أرضها وسمائها . ومن هنا يظهر عدم جدوى البحث في أدب ، يحف به الشك ، للقادة الفاتحين ، لنسبته الى الأندلس ، وعده من جملة تراثها . فذلك الأدب لو صح لهم لكان له باب آخر في غاية الأهمية ، يؤرخ لتطور الفتوح ، ويقيم مذاهب الفاتحين في الانفعال بالحوادث التي تمر بهم ، ويمايز بينهم على أساس الأساليب التي يتخذونها لتعبئة الجيوش واذكاء نار الحماسة فيهم .

2 — ان أهم النصوص التي تصلح أن تكون شواهد على ما أنتجه الأندلسيون من النثر الأدبي ، تعود الى أواخر عهد الولاة ، وتكاد أن تكون كلها مرتبطة بظهور دعوة عبد الرحمن الداخل ، وتفاقم أمر الدعوة الأموية في الأندلس ، مما قد يدل على قلة الآثار النثرية في الفترة السابقة لذلك ، أو على اهمال المؤرخين لها لعدم ارتباطها بحوادث بارزة ، كظهور الدعوة الأموية . . .

3 — لقد استند بعض الباحثين الى ما تأجج من نار الفتنة العصبية في البلاد ، بعد أن ارتحل عنها القادة الفاتحون ، فظنوا أنه عامل يكفي وحده لظهور الخطابة وازدهارها ، قياسا على ماحدث في المشرق ، في صدر الدولة الأموية . وقد بينا أن هذا العامل لا يكفي وحده لظهور الخطابة ، وازدهارها ، وأن الأندلس قد افتقرت الى العنصر الرئيسي الذي أوجد تلك الخطابة في المشرق وهو ثراء الحياة السياسية بالأحزاب الجديدة ، ذات المنازع المتباينة ، التي وجدت في الخطابة أسلوبا ملائما لبث دعوتها ، وربح الانصار لقضيتها .

4 — ووجدنا بعد ذلك ، أن أهم أغراض النثر ، في هاتين المرحلتين ، كانت تلتقي كلها عند ضرب من التعبير يتميز بالطابع الاعلامي . فهي في جلّ الحالات ، نصوص تبليغية ، توصل أمرا ، أو نهيا ، أو نصيحة ، أو تعرض وضعا من الأوضاع الجماعية أو الفردية ، ولذلك كان الشعر هو الذي يقوم بالوظائف التعبيرية الأخرى التي هي من خصائصه ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتي يكون فيها تجاوز " الخبر " الى وصف أثره في النفس ، بأسلوب يتلاءم مع طبيعة الشعر . وكان الأمراء أنفسهم يعبرون عن مثل هذه الحالات بواسطة الشعر ، ويلجؤون اليه كلما جاشت نفوسهم بما لا يستطيع أن يفصح عنه النثر الذي لم يكونوا يرون فيه — غالبا — الا جوانبه الاعلامية والتبليغية .

5 — وكان من الطبيعي ، اذن ، أن تكون النصوص التي وصلت الينا ذات علاقة ما ، على وجه من الوجوه ، بالرسائل ، والعهود والوصايا . وحتى المحاورات الشفوية ، التي استعرضنا جانبا منها ، والتي تجري بين الناس في اطار من التعبير الفني ، كانت تتخذ شكل الرسالة . فكأن المتكلم يوجه الى صاحبه الذي يحاوره رسالة اعلامية ، تشبه تمام الشبه ، في مضمونها وفي أدائها ، الرسائل المكتوبة .

6 — وقد استبان لنا أن أقطاب الكتابة في هذا الضرب من النثر انما هم الأمراء الأمويون أنفسهم ، طوراً يكتبون بأقلامهم ، وطوراً يملون على كتابهم . وقد اهتموا بخطة الكتابة في دولتهم ، وظلوا يرتقون بمناصبها حتى ألحقوها برتبة الوزارة . ورأينا كيف سمت هذه الوظيفة في عيون الناس ، وكيف كانوا يتسابقون الى الفوز بها ، ويتتبعون ، حسدا وغيرة ، السقطات والهفوات التي تصدر عمن يرتقي اليها . أما الأمراء الحاكمون ، فكانوا يعدونها من المناصب السياسية الخطيرة ، ولذلك لم يكونوا يولون عليها الا من ثبت ولاؤه ، ورسخ في القلب اخلاصه للعرش الأموي .

ودرسنا الجوانب الفنية المتصلة بشكل تلك النصوص ومظاهرها الخارجي فبينا ما استطعنا ، وما اتضح لنا من خصائصها ، وذكرنا أنها بدأت تتأنق شيئا فشيئا ، وأخذ أصحابها يحرصون على استخدام الكثير من أدوات الزينة ، ولكن هذا الحرص على الجمال لم يبلغ أبدا مستوى التبرج الذي بدأت تشيع بعض طرائقه في المشرق منذ أواخر هذا العهد الذي نؤرخه .

ولقد تطور هذا الأداء دون شك ، فهناك بون شاسع بين عهد عبد العزيز لتودمير ، أو رسالة عبد الرحمن الداخل الى سليمان بن الاعرابي ، وما فيها من أمثال : " لأُزوِّجنّ بنائها على رغف المصيبة ، نكالا بما قدّمت يداك "(1) وبين كلام حفيده عبد الرحمن الأوسط

---

(1) " البيان المغرب " : 2 / 54 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في النصف الأول من القرن الثالث ، حين قال في جاريته : " فلقد برأ الله من خلقه جوهرا يخشى الأبصار ، ويذهب بالألباب ، وحل على وجه الأرض من زبرجدها ، وشريف جوهرها ، أقرّ للعين ، وأجمع لزين ، من وجه أكمل الله فيه الحسن "(1) مما هو قريب النسب بذلك الكلام الذي سيظهر آواخر القرن الرابع ، والذي سنسميه نثرا بيانيا ، وهو الذي سيشرع في منافسة الشعر ، في الموضوعات التي كان بها مختصا .

7 — ولقد فعل الزمن فعله في تكييف الانسان بمظاهر النعمة ، وسمات الحضارة ، فلانت العبارة ، وسَهُلت المخارج ، وخَفّ الايقاع ، وطاب الجرس الموسيقي ، واطمأنت الفواصل . ومع ذلك فلم يحدث في هذا النثر على امتداد قرنين من الزمن ما ينقله من طور الى طور ، أو يدخله الى مجالات حديثة لم يكن يعرفها .

8 — وخلاصة القول أن النثر قد تطور في هذين القرنين تطورا ملحوظا في جزئيات دقيقة من معانيه ، ومبانيه ، ولكنه ظل وفيا في شكله ومضمونه لضرورات الرسالة الاعلامية ، والمهمة التبليغية التي حُصِر فيها .

وها هو ذا القرن الرابع على الأبواب ، يأتي وقد تخلت الأندلس عن معظم مكونات بساطتها الأولى ، وغزت ألوانٌ من التعقيد المدني ، والنعومةُ الحضاريةُ فيها عقولَ الناس ومحيطَهم الاجتماعي ، وجلس على العرش رجل سينقل البلاد نقلة خطيرة حين يعلن الخلافة فيها ، ويطبع الحياة كلها بطابع الشخصية القوية ، فتتحول البلاد من مرحلة التأسيس والتلقي الى مرحلة النضج والعطاء . فكيف سيعبر النثر عن جوانب هذه الحياة ؟

* * *

(1) " البيان المغرب " : 2/90.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا : النثر في عهد الخلافة الى أواخر القرن الرابع .

ما ان نأخذ في دراسة النثر الذى أنشأه رجال القرن الرابع الهجرى ، في الأندلس ، ونقترب من نماذجه وعيناته ، ونشرع في التعرف على فئاته وأصنافه ، حتى يغمرنا الاحساس بأنه قطع شوطا في مسيرة نضجه وتنوعه ، وعبر الى ضفة أخرى في مسار تطوره .

لقد وجدنا النثر طوال القرنين الماضيين : الثاني والثالث ، لايكاد يفارقه طابعه الاعلامي ، التبليغي ، ولايكاد يخرج عن دائرة الوالي ثم الأمير ، يحمل عنهما ما يريدان ايصاله الى الناس ، أو ينقل اليهما ما يعرضه بعض الناس عليهما من شؤون الحياة وصروف الزمان .

أما في هذا القرن ، فمنذ مطالعه الأولى ، نرى الصياغة النثرية تقتحم مجالات جديدة ، تعكس مدى النضج الذى ظفرت به العقول ، والازدهار الذى بلغته الحضارة في مختلف الميادين ، والتعقيد الذى بدأ يصيب المظاهر الاجتماعية والسياسية للحياة .

فلو لخصنا ، غاية التلخيص ، بنية الفنون النثرية في هذا العصر ، لجاءت صورتها كما يلي :

1 — **النثر الاعلامي :**

1.1 — رسائل التبليغ التقليدية .

2.1 — وصايا الاستخلاف .

3.1 — المناشير .

2 — **النثر التنظيمي :**

1.2 — مراسيم التوظيف في المناصب السامية .

2.2 — سجلات الزعامة على القبائل .

3 — **النثر الخطابي في المحافل الرسمية .**

4 — **النثر السياسي .**

5 — **النثر التدويني .**

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسنلم الآن بهذه الفنون واحدا واحدا ، متوقفين عند بعض نماذجها ، محاولين استخلاص ما يمكن من خصائص فنّها في المحتويات والأشكال .

1 — النثر الاعلامي :

رأينا في القسم الأول من هذا البحث أن النثر العربي في الأندلس، نشأ في أحضان السياسة : في ساحتها ولد ، وتحت رعاية الولاة والأمراء خطا أولى خطواته ، وأرسى أولى قواعده . فلا عجب ، حينئذ ، أن يرتبط تطور قسم هام منه ، بتطور مرافق الدولة ، وأن يسايرنموّه ، نموّ الحاجات التي كانت في الأول علة وجوده .

واذا كان ذلك صحيحا، فان الدولة الأندلسية الموحدة قد بلغت في القرن الرابع ذروة رقيها، فكثرت خططها ، وتنوعت مراتبها ، وتعددت حالات تدخلها بغية المزيد من التحكم في سير الشؤون العمومية ، وضبط اجراءات التنظيم التي لم تكن تبدو الحاجة اليها في العصور المتقدمة . ويمكن أن نعتبر — في هذا السياق — إعلان عبدالرحمن الناصر[1] للخلافة في البلاد سنة 316 هـ تحولا حاسما ، في مجال تنظيم الادارة المركزية ، ونقلة كبيرة لها ؛ فان أبهة الخلافة تتطلب من وجوه التنظيم ، والضبط ، والاتصالات ، والعلاقات مالم تكن تتطلبه الامارة[2] .

وكان من نتائج هذا أن ارتفعت قيمة الوظائف الكتابية ، وتعددت فروعها ، وشاعت ألقاب الوزارة عند من يتولونها ، وصار الكتاب الوزراء من أخص خاصة الخلفاء ، لأنهم لسانهم الناطق بتعليماتهم ، المبلّغ لاراداتهم حين يكتبون . وهم موضع الأمانة ، ومستودع السرّ ، في كل ما يصدر الى أمير المؤمنين من أنباء الأقاليم ، وتقارير العيون والجواسيس ، ومراسلات الأصدقاء والأعداء من الملوك والحكام الأجانب .

---

(1) عبدالرحمن الناصر أول وأعظم خلفاء الأندلس . ولي الامارة سنة 300 هـ . ثم أعلن الخلافة سنة 316 هـ . وتلقب بالناصر . وبقي فيها الى أن توفي سنة 350 هـ . تفاصيل حكمه في البيان ، 2/156 — 233 .

(2) انظر في هذا الموضوع كتاب ليفي بروفنسال : " الأندلس في القرن العاشر (الميلادي) : نظمها وحياتها الاجتماعية " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك كان لابد أن يستمر النثر الاعلامي التبليغي القديم، وإن طرأ عليه بعض التجديد في قوالبه ومحتوياته. وأن تستحدث أصناف جديدة منه استجابة لضرورات التنظيم الحديث. وسنعرض كلا الضربين بوقفة موجزة، في ما يلي.

1.1 : النثر الاعلامي التقليدي : رسائل التبليغ.

كان هذا الصنف من النثر أقدم صور الانشاء الديواني كما رأينا، لأن الحاجة اليه تبدو في وقت مبكر من تنظيم أي لون من ألوان السلطة، وإقامة أي ضرب من ضروب الحكم المركزي [1]. وهو في الغالب ذو طابع فردي، بمعنى أن مضمون الخطاب يقتصر على فرد واحد هو الموجّه اليه، والمعني بما فيه، وقد يتطور بعد ذلك فيكتسي طابع "المنشور" أو "التعميم" الذي يوجه الى مجموعة من الناس، في نسخ عدة، لأنهم معنيون كلهم بما يحتويه. وهذا كان يبعث الحاكم الى ولاة الأقاليم أمرا أو نهيا أو استيضاحا، أو توضيحا أو غير ذلك مما يحتاج الى تبليغه.

وتستمر الحاجة الى هذا النوع قائمة، كيفما كان مبلغ الدولة من الرقي والتقدم بعد ذلك، لأنه الأداة التي لاغناء عنها في إقامة "المبادلات" بين الحكام والأفراد، أو بينهم وبين جماعات القائمين باسمهم على رأس السلطة المحلية، والعاملين في وظائفها.

وعلى هذا الأساس، فان قيمة هذا الصنف من النثر عند من يتصدّى لدراسته في هذا العصر، لا تكمن في وجوده، كما كانت الحال في مراحل نشوئه، وانما تنحصر في معرفة مدى ما أصابه من التقدم الفني في أشكاله ومضامينه.

فاذا بحثنا عن نماذجه المأثورة عن هذا العصر، فاننا نجدها كثيرة لا تحصى، وانما نختار منها ما يمثل روح القرن أكثر من غيره.

من ذلك رسالة كتبت عن الحكم المستنصر [2] تتضمن قبول عودة ثائر الى الخضوع والطاعة [3]

---

(1) وهذا ظاهر في تاريخ النثر العربي عامة في كل عصوره منذ صدر الاسلام كما تدل على ذلك رسائل الرسول عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين، بل منذ العصر الجاهلي، كما تدل على ذلك الرواية المتعلقة بصحيفة طرفة والمتلمس ان صحت، أو الروايات المتصلة بأخبار الغساسنة والمناذرة.

(2) الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر: حكم من 350 الى 366هـ وهو خليفة عالم تحدثنا عنه بإسهاب في الفصل الثاني.

(3) هذا الثائر هو عبد الكريم بن يحي، صاحب عدوة الأندلسيين بفاس. أعلن العصيان ثم عاد الى الطاعة. وانظر المقتبس، ص: 126.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول في قسم منها : " وقد قبل أمير المؤمنين معاذيرك وأصغى اليها . فان يرد الله بك خيرا في عاجلتك وآجلتك ، يشرح صدرك لطاعة أمير المؤمنين وموالاته ، ويبسطك لما يلبسك رضاه ، ويقربك منه ، فانه جامع في ذلك أحوالا تحمد مواردها ومصادرها ، وأحياء ما أماتته الأيام منها ، وتجديد ما أخلقه المنحرفون عنها .... "(1)

هذه الرسالة مؤرخة في ذي القعدة من عام 362 هـ ، أي أنها في أواخر عهد الحكم. وهي كانت ، كما يفهم من المصدر الواردة فيه ، طويلة ، ولعل ما أُثبت منها فيه لا يعدو أن يمثل الجزء الأصغر منها . فهذا الطول في رسائل هذا العصر من الخصائص التي تنفرد بها عما سبقها في المرحلة الأولى . فقد أصبح الكتاب يطيلون العرض ، ويتوسعون في البسط ، وكانوا في المرحلة الماضية يتوخون الايجاز والاقتضاب في الكلام ، ويقتصرون منه على الاشارة الخاطفة ، واللمحة الدالة . وهي صفة الكلام العربي الأصيل .

وتظهر في هذه الرسالة ميزة ثانية ، هي امتداد العبارة ، واسترسال وتيرتها ، حتى ان الجملة الواحدة لتتجاوز في الطول عدة أسطر . أما الأدوات الفنية فيها فناقصة ، اذ هي عارية عن ذلك الايقاع الموسيقى الذي كان يوفره الازدواج ، والتنغيم عند الفواصل المتقاربة . ولكن هذا الاسترسال ، وقلة القيود الفنية هما اللذان مكنا الرسالة من أن تكون غاية في الرزانة والهدوء . تخاطب العقل ، وتعتمد على السرد المطمئن في ايراد محامد الخليفة ، وبيان فضل طاعته ....

ومن رسائل هذا القرن رسالة صدرت عن المنصور بن أبي عامر يخاطب فيها بعض جنوده الذين فرّوا أثناء احدى حملاته على النصارى الاسبان . ومنها قوله : " وكثيرا ما فرط من قولكم ، وسبق من عزمكم،(2) أنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون ، وتشتاقون ملاقاة الرجال على السهول ، فحين جاءكم شانجه (3) بالامنية ، وقاتلكم بالشرطية ،

---

(1) أثبتنا نحو ثلث ما أثبته صاحب المقتبس ، وهو نفسه جزء من الرسالة الأصلية : المقتبس ، ص : 126 .

(2) في المصدر الذي نقلنا عنه : " عزمهم " ، ونظن أنها غلطة مطبعية .

(3) شانجه بن غرسية أحد زعماء النصارى ، اذ كان ملك نبارة . ولعله والد / عبدة / الجارية النصرانية التي تزوجها المنصور ، وولدت له عبدالرحمن ، فسمته شنجول لتتذكر به أباها شانجو . وانظر الحلة ، هامش المحقق في : 1/272 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وظهرت لكم رعلة الطائفة النصرانية أنكرتم ما عرفتم ، ونفرتم (ممّا) ألفتم ، حتى فرّرتم فرار اليعافير من آساد الخيل ، وأجفلتم اجفال الرئال عن المقتنصين ، فألحقتم العار بأنفسكم ، بعد اختياري لكم ، وطوقتم الشر على أعناقكم ، وضيعتم حرماتكم ، وأحضرتم ذمتكم ، فلا نعمتي رعيتم ، ولا تزييني حفظتم ، ولا وجوهكم أبقيتم ، ولا غضب الله ورسوله اتقيتم ، فقد قال الله عزّ وجلّ : (يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة ، فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون) وقال (ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرّفا لقتال أو متحيزا الى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير) . ففيم ولمَ كان انحيازكم ؟ أشكّا في وعد ربّكم ؟ أم خورا في أصل طبعكم ؟ أم عجزا عن دفع باطلهم بحقكم ؟ . . . ماكان الا لسفه أحلامكم ، وسوء نظركم في عاقبة أموركم ، يا أحلام الأطفال وأخلاق الرجال . . . الخ . . . "(1)

هذه ، في الواقع خطبة في ثوب رسالة ، وهي مشحونة بالغضب والنقمة على جماعة الفارين ، وهي حقا تمثل التطور الكبير الذى أصاب الرسالة ، فهي تختلف كثيرا عن النموذج النثري الذى رأيناه في زمن الحكم المستنصر ، ولعل لموضوعها ، وما هو قادر على استثارته في نفس القائد الأعلى للجيش الأندلسي من مشاعر السخط ، دَخلاً في توجيهها هذه الوجهة الفنية ، فجاءت رسالةً مجلجلة الايقاع ، متلاحقة العبارات ، كثيرة الفواصل ، يشيع فيها التقابل بين المقاطع ، وينتشر فيها هذا النوع من السجع . انه سجع من النوع الميسور الذى لا يتقيّد به الكاتب تقيّدا دقيقا ، ولكنه يقصد اليه بدون شك ، حتى اذا لم تسعفه اللفظة لم يتعسف اليها كل طريق . ثم انه سجع قليل التنوّع ، فقير الى حدٍّ ما ، لأنه كثير الاعتماد على ياء النسبة : (الشرطية ، النصرانية) ، واسناد الكلمات الى جمع المخاطبين : (عرفتم ، نفرتم ، ألفتم ، فررتم) وما الى ذلك من الاستعمالات التي تعطي نغما يضاهي أثره الموسيقي ، أثرَ السجع ، ولكنه يختلف عنه في ثراء التقارب بين المخارج ، وفي كثافة النغم الموسيقي . ثم اننا نلاحظ في هذه الرسالة كثيرة الاستشهاد بالقرآن الكريم ، مما لم نعهد مثله في نثر المرحلة الماضية .

وأخيرا فاننا نلاحظ في المقاطع الأخيرة من هذه الخطبة نَفَسًا خطابيا يذكرنا ببعض الخطب المنسوبة الى الامام علي في نهج البلاغة ، ولاسيما الخطبة المعروفة بخطبة الجهاد حيث يقول مثلا : " فوا عجبا من جدّ هؤلاء في باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ،

---

(1) تاريخ قضاة الأندلس ، ص : 33 و 34 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون ..... " أوكقوله : " فأنتم والله من السيف أفر يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام أطفال ، وعقول ربات الحجال .... "(1) الى غير ذلك من المقاطع التي تذكرنا خطبة المنصور بمـا وبلهجتها .

ولكي تكتمل لنا صورة رسائل التبليغ في هذه المرحلة الثانية من تطورهـذا الصنف من النثر الاعلامي ، فاننا نحب أن نتوقف عند رسالة كتبها ابن برد الأكبر(2) عن المظفر بن أبي عامر(3)، رلعلها تمثل آخر ما وصل اليه هذا الطراز من الكتابة في أخريات القرن الرابع .

قال الكاتب في رسالته الى أحد الخارجين (4) : " أما بعد أتاك الله رشدك ، وأجزل من توفيقه قسطك ، فان الله تعالى خلق الخلق غنيا عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مهمل ، بل ليحصي آثارهم ، وليبلو أخبارهم ، وجعلهم أخيافا متباينين ، وأطوارا مختلفين ، فمنهم المختص بالطاعة ، ومنهم المبتلى بالمعصية ، وبين الفريقين أقوام خلطوا عملا صالحا ، وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، ولذلك خلقهم .

" والسعيد من خاف ربه ، وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فوتها ، واستمطر الرحمة قبل منعها ، وان كنت تركت قصدك ، وخالفت رشدك ، ونكبت عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به ، ولم يوءنسك ممن جنحت اليه ، أمل لم تطمع فيه الا لديه . بل كنت آمنا من المخاوف ، بعيدا عن المكاره ، قريب المكانة ، رفيع الدرجة ، مصدرا في أهل النصيحة والثقة ، خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب مالم يزل يحدث بين القواد والعمال ، على قديم الزمان ، مالم يبلغ أن يخرج ذا الرأى الأصيل عن طبقته ... ولن تضيق بك السبيل عند أمير الموءمنين ، وأنت بين طاعة سالفة ،

---

(1) راجع هذه الخطبة في العقد الفريد ، ج 4 ، ص : 70 .
(2) هو الوزير الكاتب : أبو حفص بن برد الأكبر . أخباره وأدبه في الذخيرة 1/1ـ 103 . توفي عام 413 هـ .
(3) عبد الملك المظفر . تولى الحجابة في عهد أبيه ، ثم خلفه فيها بعد موته . حكم الأندلس في عهد هشام المؤيد بالله من 392 الى 399 هـ .
(4) في الذخيرة ، أن الثائر الذى خرج عن المظفر هو هذيل بن رزين . وسيشتهر أمره كأحد زعماء الطوائف .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستنامة موروثة ، وبين أنابة منتظرة ، وتوبة مستقبلة ، فاحدى الحالتين تحمد الذنوب الكبيرة ، وتفطي على العيوب الكثيرة .

" فالآن ، عصمك الله ، واللب رخي ، والمركب وطي ، وبابك الى رضى أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك الى حسن رأيه سهل ، ولا يذهب بك اللجاج الى عار الدنيا ونار الآخرة ، اياك ومصارع الناكثين ، وحَذارِ موارط الغادرين " .(1)

لقد بُذِل في هذه الرسالة جهد واضح لينأى بها صاحبها عن لهجة التهييج والانفعال المتوتر . ولولا بعض المقاطع التي تضمنتها ، لكانت في جملتها أقرب الى الوعظ الذي يصلح توجيهه الى كل الناس ، منها الى زجر ثائر . ولولا الفقرة الأخيرة بالذات لما استطعنا أن نفهم بجلاء أن الخطاب موجه الى أحد أمراء المقاطعات الذين استقلوا بولاياتهم في وقت مبكر عن جسم الدولة ، وخرجوا عن طاعة السلطة المركزية .

والحق أن الرسالة قد تبنت أسلوب النصيحة ، والارشاد . والمجادلة بالحجة ، والاغراء بالطاعة والعودة إلى صفوف الجماعة ، والتهوين من شأن الخلاف الحاصل بين الثائر والحاجب . ولم يأت التهديد الا في أواخر الرسالة خَفِيّاً مستتراً ، ولكنه مع ذلك واضح النية ، صارم العزيمة .

أما من الناحية الفنية فان هذه الرسالة تمثل الروح التي سادت هذا الضرب من الانشاء طوال القرن الرابع ، وتعكس أهم الخصائص السائدة فيه ، والتي هي : التفنن في الأداء والحرص على جمال الصياغة ، ودقة التعبير ، ووضوح المقصد ، مع ميل واضح الى التجويد والتحسين بتوليد المعاني ، وحشد أدوات الزينة اللفظية من ازدواج ، ومقابلة ، وسجع خفيف لا تخلو منه ، كلّما أمكن استدعاؤه بيسر ، ولكنه لا يُطلب لحدّ ذاته ابدا ، ولا يَلُوح أبدا أن الكاتب يتكلف السعي اليه ، أو يُكره نفسه عليه .

---

(1) عن الذخيرة : ق 1/1 — 108 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويشبه هذا الصنف من التبليغ الكلام الذي جرت العادة على أن يوجهه الملوك لأبنائهم وأولياء عهدهم الذين سيخلفونهم في مناصبهم . وهو من الأنواع التقليدية ، وهو ذو طابع فردي لأنه يوجّه الى فرد بصفة خاصة ، ويمكن أن نسميه : وصايا المستخلفين .

2.1 : وصايا الاستخلاف :

هي نوع من العهود يضعها الحكام ، في أواخر عهد حكمهم ، الآراء والنصائح التي يودون أن يستضيء بها أو يسير على هديها من يرثون عنهم قيادة البلاد . وهذا الضرب أيضا من أنواع النثر التقليدي ، فقد عرف عند العرب وعند الأندلسيين منهم منذ زمن بعيد (1) .

ولدينا من هذا العصر ، القرن الرابع ، بل من أواخره (2) وصية المنصور بن أبي عامر الى ابنه عبد الملك المظفر ، وهو يقول له في جزء منها :

" يا بنيّ ! لست تجد أنصح لك مني ، فلا تعدين مشورتي . قد جرّدت لك رأيي وروّيتي على حين اجتماع من ذهني ، فاجعلها مثالا بين يديك . قد وطّأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت جباية تزيد على ما ينوبك لجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الانفاق ، ولا تقبض لظلامة العمال ، فيختل أمرك سريعا ، فكل سرف راجع الى اختلال لا محالة . فاقتصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية اليك .

" والرعية ، وقد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم مَنَا هَا أن تأمن البادرة ، وتسكن الى لين الجنبة ، وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ،

---

(1) كنا ذكرنا في بدايات هذا الفصل الوصية التي وجهها الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الى ابنه وولي عهده عبد الرحمن الأوسط .

(2) توفي المنصور بن أبي عامر ، صاحب هذه الوصية ، في رمضان من عام 392 هـ . وانظر ظروف موته في البيان المغرب ، 2 / 301 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والآفة ممن يتولاه ، ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة . . . . . "[1]

يبدو أننا لانطمع في أن نجد لدى المنصور بن أبي عامر — وهو على سرير الموت — التفاتا الى تزيين للكلام بخروجه عن الحد اللازم لبلوغ الإبانة والتأثير ، بسنا ندري بعد ذلك الى أيّ حدّ يصح لنا أن ننسب هذا النص بألفاظه الى المنصور . فقد رواه المؤرخ ابن حيان عن أبيه الذي "سمع المنصور يقول . . . . "[2] ، فالى أيّ حدّ استطاع والد المؤرخ أن يحفظ كلام ابن أبي عامر بحرفه . والأقرب الى المعقول أن يكون حفظ من معانيه أكثر مما حفظ من ألفاظه ، وعلى ذلك فلا فائدة ترجى من البحث عن خصائص فنية لهذا النص تدلنا على مذهب الحاجب في تأليف الكلام . واعل قيمته الكبرى في نمطه ، فهو يدلنا على أن هذا النوع من النثر الشفهي ظل موجودا في عهد كثر فيه اللجوء الى الكتابة في أبسط الأشياء .

ولم يقتصر النثر الاعلامي في هذه المرحلة ، على هذه الأنماط التقليدية ، اذ شاعت فيه صيغ حديثة لها صلة بالصيغ المستقدمة ، ولكنها تختلف عنها في الهدف الذي ترمي اليه ، والظرف الذي يلجأ اليها فيه . وأهم أنماط هذا النثر الجديد في صيغته : المناشير ، الرسائل المعفاة ، الاعلانات .

8.1 : المناشير :

يمكن أن نسمي هذا الضرب من التبليغ "المناشير" ، ويمكن أن نسميه "المعممات" أو "التعميمات" . وهي في جوهرها نوع من الرسائل ، لا تختلف عنها الا في أنها لا تقتصر على مخاطبة فرد أو جماعة قليلة ، وانما تهدف الى اعلام جمهور واسع من الناس أو من الموظفين في رتبة من الرتب : كالقادة ، أو الكتّاب ، أو الولاة ، أو القضاة . . . أو جميع هذه الفئات . . . تعلمهم بأوامر الحاكم ، أو تبلغهم المعلومات التي تتصل بها

---

(1) الذخيرة : 1/4 ، ص : 76 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقومـون به من الأعمال في دقائق وظائف الدولة . وقد تتسع كما سنرى حتى يكون النـاس كلهم معنيـين بها لأنها تتنـاول وقائع أو حوادث تعم البلاد كلها ، فالناس أجمعـون مخاطبـون بهـا .

ونورد فيما يلي ثلاثة نماذج من هذه المناشير ، ترجع الى فترات مختلفـة من القـرن الرابع ، ليتسـنى لنا استقراء ما قد يكون حدث فيها من التطور .

• منشـور عبد الرحمن الناصر :

احتفظـت لنا المصادر بأول منشور وجهه عبد الرحمن الناصر الى عماله في الأقاليم، بعد اعلانه الخلافة الأموية بالأندلس ، وتلقبـه بألقابها عام 316 هـ . ونص هذا المنشور ما يلـي :

" بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنا أحق من استوفى حقـه ، وأجدر من استكمل حظـه ، ولبس من كرامة الله ما ألبسـه ، للذي فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنـا فيه ، ورفـع سلطاننا اليه ، ويسّر على أيدينا ادراكـه ، وسهل بدولتنا مرامـه ، وللذى أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهـم الينا . واستبشارهم بدولتنـا .

" والحمد لله ولي النّعمة والانعام بما أنعم به .... وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا : بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنـا ، وورودها علينا بذلك ، اذ كل مدعو غيرنا بهذا الاسم منتحل له، ودخيل فيه ..... فأمر الخطيـب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطباتك لنا عليه ان شاء اللـه ....."(1)

هذا المنشور بليغ المعاني ، فصيح الألفاظ ، سهل الصياغة ، فيه حرص على توفير ذلك الجرس الموسيقي الذى يتصاعد من التوازن بين العبارات ، والتنغيم الذى تنتهي اليه الفواصل والمقاطع ، دون أن نستطيع تسمية ذلك بالسجع الحقيقـي . وان كان يعد ضربا من ضروبـه البسيطـة الجميلـة ، ولونا من ألوانـه قبل أن يصيبـه الاغراب والتعقيـد . وهذه الخصائص هي خصائص النثر الأدبي اجمالا في هذه المرحلـة ، بقطـع النظـر عن نمطـه ولوعيتـه .

---

(1) " البيان المغرب " : 2/ 198 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

- **منشور الحكم بن عبدالرحمن :**

ان المنشور الثاني الذي نريد أن نقف عند بعض خصائصه ، هو ذلك الصادر عن الحكم المستنصر الى الولاة ، يبشرهم فيه بالقضاء على ثورة ابن جنون[1] . يقول في بعض أجزائه :

" بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى لايحاط به ، والظاهر الذى لايظهر عليه ، الواحد الذى لايكاثر ، والقادر الذى لايقادر ، مقدر الأقدار ، ومصرف الأعصار ، ومكور الليل على النهار ، المتعالي عن العيان ، والممكن بكل مكان ، الموصوف بما علمنا من صفاته ، المعروف بما أرانا من آياته ، المعين على طاعته بقدرته ، الميسر لموجبات جنته برحمته ... الخ ...

" والحمد لله رب العالمين ، الذى اصطفى من عباده صفوة اختصهم بكرامته ، وأعزهم بفضيلة نبوّته ، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده ، فأيدهم بالسلطان والبرهان ، وعضدهم بالآيات البينات ، والشواهد المعجزات .... ثم ختمهم بأكرمهم عنده مكانا ، وأرفعهم لديه منزلة ، محمد صلى الله عليه وسلم ، أرسله الى الناس كافة بدين الاسلام ، الذى نسخ به الأديان ، ونهج به مناهج الايمان ..... واظهر فضله لقوله تبارك وتعالى : (انّ الدّين عند اللّه الاسلام) وقوله : (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) وقوله : (انّ اللّه اصطفى لكم الدّين ، فلا تموتنّ الا وأنتم مسلمون) ... الخ ....

" والحمد لله الذى اصطفى من عترته ، وانتخب من دوحته ، خلائف في أمته ، حملة لسنّته ، حفظة على شريعته ، رعاة لخلقه ..... وجعلهم خلفاء على عباده ، ذادة عن حزبه ...... حتى أورث الله تعالى مقامهم ، وارث شرف أنسابهم ، وحائز كرم أحسابهم ..... أمير المؤمنين .....

---

(1) حسن بن قنون (ويكتب بالجيم) الحسني . ثائر في المغرب في عهد الحكم المستنصر عام 361 ، وانحاز الى الدعوة الشيعية ، فسير له الخليفة جيشا بقيادة غالب بن عبدالرحمن الناصري ، فقضى على ثورته ، وعاد به الى الأندلس خاضعا مذعنا عام 364 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" فأيد الله تعالى جنده ، ونصره ، وأعلاه ، وأظفره بمن قد كان جاهر بمعصيته ، وأعلن مخالفته ، وتجانف عن طاعته ، وأخذ له بناصيته ، وأوقعها تحت رغبته ورهبته ، حتى استوثقت الطاعة في جميع بلاد المغرب . . . . "(1)

ان ما أوردناه من هذا المنشور لايعدو جزءا قليلا جدّا من النص الأصلي ، وقد أخبرنا صاحب المصدر الذي ننقل عنه " أنه من إنشاء الوزير الكاتب ، صاحب المدينة بقرطبة ، جعفر بن عثمان ، يعني الحاجب المصحفي المعروف (2).

فأول ملاحظة تسجل في تقويم هذا المنشور أنه مُفرط في الطول ، وكان منشور عبد الرحمن الناصر الذي مرّ بنا قبل حين مقتضبا . فهذا الطول هنا واحد من خصائص منشور الحكم . ثم أن الطول قد شمل المدخل خاصة ، حتى ان أكبر أجزاء النص المحفوظ هي مداخل من التحميدات ، والعناية بالتحميدات ، والتطويل فيها ثانية خصائص هذا المنشور ، وهي ثلاثة أنواع : التحميد الأول مدخل حقيقي ، والتحميد الثاني يؤدي الى ذكر الرسول والصلاة عليه ، والتحميد الثالث يفضي الى ذكر خلفائه الذين منهم " أمير المؤمنين " الحكم المستنصر . وكان هذا هو الهدف الحق لهذه التحميدات كلها . وهذه المميزات كلها لم يكن لنا عهد بها قبل هذا المنشور .

وأخيرا فان هذا النص ، ولا سيما في مقاطع التحميدات ، كثير السجع ، واضح الزخرف ، متأنق العبارة ، موشّى بالآيات القرآنية . ولكن هذه الألوان من الزخرف لا تشمل سائر الفقرات ، بل ان الأواخر منها كادت تعرى عن كل زينة ، وتتجرد من كل مظاهر التجويد التي حفلت بها أوائلها . ومما يستلفت الانتباه ، بهذا الصدد ، أن الكاتب قد أورد من جزئيات القضاء على الفتنة ، وتفاصيل استئصالها في المغرب ما يبدو غريبا أن يلجأ كاتب بليغ الى مثله . وتفسيرنا له أن الحكم المستنصر كان شديد الخوف من

---

(1) من جزء من المقتبس لابن حيان : ص 178 ــ 182 : في آخر نص " وكتب في صدر ذي القعدة سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ".

(2) كان وزيرا للحكم المستنصر ، ثم عينه حاجبا له ، وبعد وفاة الخليفة تغلب عليه ابن أبي عامر وأودعه السجن الى أن مات فيه عام 372 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحركة الشيعية في المغرب ، فكأن التوسع في أنباء القضاء على واحد من مظاهرها ، المتمثل في ثورة ابن تمون ممّا يكفل اعادة الشعور بالأمن الى البلاد ، واشاعة ما للجيوش الأندلسية وقادتها ، من كفاية في التغلب على كل من تسول له نفسه نبذ الطاعة واعلان العصيان .

• منشور عبدالملك المظفر :

وآخر ما نورد من هذا النوع من النثر الاعلامي الذي شاع استخدامه ، منشور عبدالملك المظفر، ويختلف عن المنشورين الأولين في أنه موجه الى الناس كافة . وهو يمثل صورة هذا الانشاء في أواخر القرن الرابع (1). وقد كتبه أديب مخضرم أدرك القرن الخامس، وهو أبو حفص بن برد الأكبر(2) . قال :

" أيها الناس، — وفقكم الله لعصمته ، واستنقذكم برحمته — ان من علم منكم حال الخائن عيسى بن سعيد (3)، بالمشاهدة ، ورأى مبلغ النعمة عليه بالمحاضرة ، فقد اكتفى بما شهد ، واجتزأ بما عاين وحضر ، ومن غاب عنه كنه ذلك من عوامكم ، بانتزاح منزل ، أو لاتصال شغل ، فليعلم أنّا أخذناه من الحضيض ، وانتشلناه من شظف العيش الأَنْكَد . . . فاعتمدناه ، ومهدت له فرش الكرامة ، وبوأته دار الفخامة . . . . فلم يقم لله تعالى بحق ولا قابل احسانه بصدق ، ولا عامل رعيتنا برفق ، ولا تناول خدمتنا بحذق ، بل أعلن المعاصي اذا ملكه الأشر ، وتنامى به البطر ، وغلبت به الأمور ، وغرّه بالله الغرور . . الخ . (4)

ذكر المؤلف الذى نقلنا عنه هذا المنشور أنه اجتزأ من الأصل بعض الفقرات . ونحن لم نورد منها الا قسما يسيرا ، وفي هذا دليل على ميل النثر الاعلامي الرسمي الى الافاضة والتطويل في أواخر هذا القرن . فقد كانت المراسلات كثيرة الايجاز ثم أخذت تتسع شيئا فشيئا حتى بلغت هذا الحجم الذي رأيناه .

---

(1) نذكّر بأن المظفر قد توفي سنة 399 هـ .
(2) وزير كاتب، سبق التعريف به .
(3) عيسى بن سعيد القطاع وزير الدولة في عهد المظفر قتله لمحاولة الثورة عليه بمبايعة رجل من بني أمية يكون خليفةً بَدَلَ هشام المؤيد . راجع ماكتبناه عن هذا العهد في الفصل الأول .
(4) عن الذخيرة : 1/1 — 121 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو هذا النص، من الناحية الفنية، أكثر صنعة، وأظهر تجويدا، وأكثر استعمالا للسجع والتزاما به من كل ما مرّ بنا من نوعه الى حدّ الآن، وهو قد جاء بالفصل مكتمل الأدوات البلاغية، ناضج الأساليب البيانية، ولا عجب، فان كاتبه ابن برد الأكبر من أساطين الترسل في هذا القرن والذى يليه، وممن نالت المكاتبات الرسمية على يديه تقدما ملحوظا.

لقد تبين لنا أن المناشير ضرب جديد من الانشاء الرسمي شاع في هذا العصر، وأنها على قسمين: قسم محدود النشر، يوجه خاصة الى فئة من قادة النظام الحاكم ورجاله، وقسم يوجه الى كل الناس، وكان يُقرأ لجمهور العامة في المساجد. وتحدثنا الكتب التاريخية (1) عن مناسبات كثيرة تتلى فيها هذه المناشير في المساجد، ولا سيما ما يسمّى: "كتب الفتح" وهي الرسائل التي يوافي بها القائد المنتصر في المعارك ضد النصارى الخليفة، فتكتب منها نسخ كثيرة وتوزع على أئمة المساجد لاطلاع الناس على ما فيها من وصف المعارك وتفاصيل الانتصارات (2).

واذا كانت هذه المناشير تختلف عن رسائل التبليغ التقليدية، ذات الطابع الفردى، فان هناك صيغة أخرى من الانشاء شاعت في هذا العصر أيضا، وهي تختلف عن الصنفين السابقين كليهما، ونعني بها الوثائق التي يتم بموجبها تعيين فرد في مهمة رسمية. وقد بدا لنا أنها هي نفسها على نوعين: مراسيم تتضمن تعيين موظفين في مراتب الدولة العليا، و"سجلات" تتضمن ولاء قبيلة بأكملها، وتعيين زعيم عليها.

2 — النثر التنظيمي:

وهو نوعان: أحدهما يختص بموظفي الدولة، والثاني يعنى بتنظيم الزعامة على القبائل، كما ذكرنا.

---

(1) منها كتاب الذخيرة، والبيان المغرب، في مواطن كثيرة، ولا سيما عند الحديث عن غزوات المنصور بن أبي عامر في بلاد النصارى، انظر مثلا "البيان المغرب" 2/220، و 236 و 233 الخ ...

(2) لم نجد شيئا من هذه الرسائل فيما استطعنا مراجعته من كتب الأدب الأندلسي وتاريخه ذلك أن المؤرخين كانت عنايتهم منصبة على ما يبحث به الحاكم لا ما يرد اليه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2.1 : مراسيم التوظيف في المناصب السامية .

مما لا شك فيه أن هذه الصيغة من الانشاء الرسمي أثر من آثار نمو الادارة الأموية، وتطور أدوات ضبطها ، وخصوبة الجانب التشريعي فيها . فلم يكن هذا النمط شائعا قبل القرن الرابع ، ولعله لم يكن معروفا بالمرّة ، في فترة حكم الأمراء . وقد أضحى الخليفة لا يعد مسؤولا كبيرا في وظيفة الا خاطبه بكتاب التولية الذي يتضمن قرار تعيينه ، ويذكره بالنعمة التي يُصبغها عليه ، ويحدد له بعض جوانب مهمته . ونمثل لهذه الصيغ بنموذجين : أحدهما في تعيين قاضٍ ، والثاني في تعيين والٍ . وكلاهما في عهد الحكم المستنصر .

• مرسوم تعيين القاضي محمد بن السليم (1).

" بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب أمر به أمير المؤمنين الحَكَم المستنصر بالله ، محمدَ بْنَ اسحاق بن السليم ، ولاه به خطة القضاء ، واختاره للحُكْم بين جميع المسلمين ورفعه الى أعلى المراتب عنده ، في تنفيذ الأحكام ، غير مطلق يده الا بالحق ولسانه الا بالعدل .

" . . . . وأمره بتقوى الله العظيم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وأن يجعل كتاب الله أمامه يظر فيه نظر المفكر المعتبر . . .

" وأمره أمير المؤمنين أن يقتدي بسنة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، التي بها عملت الأئمة ، وعليها اتفقت الأمة ، فالحق معروف ، والباطل مكشوف . . . .

" وأمره أن يصلح سريرته فيها ، يصلح الله علانيته ، وأن يبرأ من الهوى ، فانه مضلة عن طريق الحق ، وأن يجعل الناس في نفسه سواء ، اذا جلس للحكم بينهم ، حتى لا يطمع فيه الشريف ، ولا ييأس منه الضعيف . . . . . .

" وكتب يوم الاثنين للنصف من شعبان سنة 353 " (2)

---

(1) أبو بكر ، محمد بن اسحاق بن السليم ، ولي القضاء بعد منذر بن سعيد البلوطي وتوفي عام 367 هـ ، وأخباره في تاريخ قضاة الأندلس ، ص : 76 .

(2) عن تاريخ قضاة الأندلس ، للنباهي ، ص : 75 — 76 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في المصدر الذي نقلنا عنه هذا المرسوم ، قدم المؤلف له بقوله : " ولعل ظهير ولايته " يعني القاضي ابن السليم"، وأثبت القطعة التي أخترنا منها الفقرات السابقة . والذي استوقفنا في كلامه هذا مولفنا " ظهير " ، وأغلب ظننا ان لم يكن يقيننا ، أن هذا المصطلح لم يكن مستعملا في الدواوين الرسمية في هذا العهد ، وعلى هذا فالمؤلف قد يكون استعمل هذا المصطلح " استعمالا رجعيا " لمّا شاع في عصره هو[1] كما استعملنا نحن كلمة " المرسوم " الشائعة عندنا اليوم .

وليس في هذا النص ما يستوقف الدارس غير انتشار النفس الديني فيه ، وكثرة اشارته الى مبادئ العدل الاسلامية ، وحرص الخليفة على أن يكون القاضي متقيّدا بأحكام الشريعة ، لا تأخذه في الله لومة لائم . وليست هذه اللهجة بغريبة في نص يرسم به الخليفة تعيين قاض في أعلى المراتب القضائية في قرطبة عاصمة الخلافة . ولعل المرسوم الثاني أن يكون أكثر احتفالا بالجوانب الفنية التي يعنينا تتبعها .

. مرسوم تولية أصبغ بن محمد بن فطيس :

قال صاحب المقتبس في أخبار أهل الأندلس : في عام 361 " ولى الحكم المستنصر أصبغ بن محمد بن فطيس نصف كورة ريّة ، ووجه اليه كتابا هذا نصه :

" بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فانما تستدام النعمة بشكرها ، وتعرف النصيحة باستعمالها ، وبالنصيحة تتفاوت منازل العبيد لدى ساداتها . وقد رأى فيك أمير المؤمنين رأيا عظمت به عليك النعمة ، فاسع للمحافظة عليها بمقدار عقلك وكفايتك ، أو بحسب نقصك وتقصيرك فاستعن بالله ، وخذ بالرفق في أمرك ، وقلة الرغبة في شأنك .

" واجتنب التحامل على رعيتك ، فانها من حفي عناية أمير المؤمنين بموضع لا يترك معه البحث عن أحوالها ، والكشف عن سيرتك فيها ان شاء الله .

" ورأى تقليدك شطر كورة ريّة ، وهي من أهم كور الأندلس عليه ، برا ، وبحرا ، وجباياتها ، وضياعها . فانظر أيّ خادم تكون ، وشاكر للنعمة تظهر ان شاء الله "[2]

---

(1) أبو الحسن علي بن عبد الله المالقي النباهي من رجال الدولة وأعيانها المشهورين في مملكة بني نصر بغرناطة . وكان صديقا للسان الدين بن الخطيب .

(2) عن جزء من المقتبس ، ص : 77 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من أظهر خصائص هذا النص أنه قصير ، موجز ، في غاية الدقة والانسجام . وهو من هذه الناحية يلائم طابعه ومضمونه . وثاني خصائصه أنه واضح التقسيم ، بحيث يمكننا بكل يسر أن نميز بين محاوره الثلاثة : فقد كان البدء بتعظيم نعمة الخليفة على صاحب الولاية وما يستتبعه ذلك من حث على التمسك بطاعته ، والالتزام بحسن خدمته، والتقيد بما يرضيه . ثم انتقل الحديث في المحور الثاني ، الى الأمر بحسن معاملة الرعية والاجتهاد في العمل لاسعادها ، واختتم أخيرا بما يجوز لنا أن نسميه بمصطلحات اليوم " صلاحيات " الوالي والجوانب التي يمتد اليها حكمه : البر ، البحر ، الجباية الخ . .

أما لغة النص فكانت عادية ، سليمة ، واضحة القصد ، قليلة الصنعة ، عديمة الاحتفال بأدوات الزينة التي رأينا أنها بدأت تغزو النثر في هذا العصر .

2 . 2 — سجلات تعيين رؤساء القبائل .

هذه صيغة مستطرفة حقا ، ولكن لها ما يفسرها . فان الحرص على التدقيق في المعاملات الادارية ذات الطابع السياسي اقتضت أن تكون طرائق تعيين الموظفين في المراتب العليا مختلفة عن عقد الزعامة للأفراد على قبائلهم . ونحن فيما يلي نكتفي بفقرات قليلة من سجل طرط في الداول كان كتبه من سيعرف بعد ذلك بالحاجب المصحفي (1)

" بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد الله الحكم المستنصر بالله ، أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب ، أنه ولاه النظر في قبيلة أطالة مهران من كتامة ، مؤثرا له ، ومظهرا لحسن رأيه فيه ، وثقته به ، فيما فوضه اليه ، للذى أحبه من استصلاحه . . . .

" وأمره بتقوى الله العظيم ، فان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والتزام طاعته وطاعة خليفته التي افترضها عليه . . . . وأن يعطي صفقة أيمانه بين يدي الوزير القائد الأعلى ، غالب ، مولى أمير المؤمنين ، على الوفاء بما التزمه من الطاعة والنصيحة ، وأن يأخذ على ذلك أيمان وجوه القبائل المصروفة اليه ، وعلى مسالمة من سالمه ، ومحاربة من حاربه . . . . "(2)

---

(1) جعفر بن عثمان المصحفي ، سبق التعريف به .
(2) جزء من المقتبس ، ص : 111 — 114 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يمضي النص في أمر ناظر القبيلة بالصلاة، والصيام، حتى اذا أتى الى الزكاة توسع فيهما توسعا مفرطا، مُحيّرا، فتنقلب الرسالة الى محاضرة في تعليم الزكاة، ونصابها، وما يلزم منها في الابل من عدد كذا الى كذا، .... وفي الحبوب ... وفي غيرهما. وهي طويلة تقع في عدت صفحات.

ولعله من المهم أن نشير الى أن صاحب المصدر هو الذى سمّى هذه الرسائل سجلات حين قال: "ودفع الى أبي العيش بن أيوب سجله المعقود له على قومه، من قبائل كتامة الذين عاهدوا على طاعة أمير المؤمنين"(1). ثم وضح أكثر حين قال في نهاية النص السابق: "ودفع الى جميع من سجل له على قومه من قبائل البربر .... من سجلا تهم المنعقدة لهم، على نسخة سجل أبي العيش بن أيوب زعيمهم"(2) مما يدل على أن صيغة هذه السجلات واحدة، وانما يتغير اسم المعقود له(3).

هذه نصوص ثلاثة يجمعها شأن واحد، اذ هي تُعنَى بترسيم ثقات من خدم الدولة في وظائف بعينها، ثم هي بعد ذلك لا تكاد تجتمع على شيء. فالنص الأول يفيض بالنصائح الدينية، والنص الثالث سجل زعامة قبليّة يطغى عليه جانب وعظي، وآخر تعليمي فيه عناية كبيرة بالزكاة ووجوه تحصيلها وصرفها، والكلّ في ثوب فضفاض مسرف في الطول. أمّا الثاني فهو الذى جاء في مبناه وفي معناه وثيق الصلة بموضوعه، جديرا بأن يسمّى حقا كتاب تعيين أو "مرسوم" تولية لإلمامه بأهم ما ينبغي أن يتضمنه نص من هذا النوع.

واذا كانت هذه النصوص تتضمن إنعام الأمراء على من يشاؤون من الناس بهذه الوظائف ذات المنافع والمزايا، فانه يتعين على رجال الدولة — بوجه عام — أن يلهجوا بذكر أولي الأمر وأن يتغنوا بمزايا الخلفاء ولاسيما في ذلك الانشاء الذى يمكن أن نسميه "خطابة المحافل".

---

(1) جزء من المقتبس، ص: 111.
(2) نفسه، ص: 114.
(3) وقد ذكر منهم في المصدر السابق جماعة كبيرة. وانظر، ص: 114.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 ـ : النثر الخطابي في المحافل الرسمية

لا يبعد أن يكون قد شاع في الأندلس، في أيام عبدالرحمن الناصر، ولاسيما منذ اعلان الخلافة، وأمره الناس بمخاطبته بأمير المؤمنين، نوعٌ من النثر الذي يُلقى في المناسبات الرسمية، وهو ما يسمّى عادة خطابة المحافل. وتدل شهادات المؤرخين على أن عبدالرحمن الناصر وابنه الحكم كانا مولعين بعقد مجالس الفخامة والابهة، وترتيب الناس فيها على مراتبهم التشريفية. فيقوم الشعراء في هذه المجامع ينشدون، ويلقي أصحاب النثر، ما يُعِدُّون أو يرتجلون من الخطب[1].

والحق أنه لا مجال لمقارنة هذه "المداخلات" النثرية، بالخطابة الأصلية التي تنصرف الأذهان الى ما عرف عنها كلما ذكرت في صدر الاسلام، والعصر الأموي، في المشرق، بصفة خاصة. ان الخطابة التي نقصدها هنا قد أوجدتها ظروف سياسية معروفة: هي اجلال الخلافة، واظهار هيبة السلطان أمام الحاشية، وأمام الضيوف الأجانب، كلما أتيحت الفرصة لذلك.

فمن هذا القبيل خطابة منذر بن سعيد البلوطي[2] في مجلس عبدالرحمن الناصر، عندما أُعِدَّ المجلس على أرقى ما يمكن من أساليب الابهة والفخامة بمناسبة مَقْدَم السفارة التي بعث بها ملك الروم في القسطنطينية الى الخليفة الأندلسي.

ونحن اذا استعرضنا هذه الخطبة وجدنا فيها من السجع، والتناظر في العبارات، وباقي أنواع المحسنات، ما نرجح معه أن تكون أُعِدت إعدادا، ثم حُفِظت لتلقى أمام المحفل كما لو كانت مرتجلة. وكأن الخليفة قد فطن الى ذلك حين أعجب بها وقال انها تستحق التقدير سواء أُعدت تحسُّبًا لهذا الموقف، أو ألقيت بديهة وارتجالا[3]. والذي

---

(1) في الجزء الذي حققه عبدالرحمن علي الحجي من المقتبس، اشارات لا تحصى الى هذه المجالس، أيام الحكم المستنصر. ولكن الكتاب لا يورد نموذجا واحدا منها.

(2) منذر بن سعيد البلوطي: سبقت الاشارة اليه. ترجمته، ونص خطبته هذه، ومناسبتها في كتاب تاريخ قضاة الأندلس، ص: 66 وما بعدها.

(3) نص كلمة عبدالرحمن الناصر هذه في المصدر نفسه، ص: 69.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملح هذه الخطبة صيتا أنها جاءت بعد الخيبة التي مُنِيَ بها أبو علي القالي — وهو من هو — حين أصابه الحصر وامتنع عليه الكلام . وقد رأينا في مكان آخر من هذا الباب أن أخبار هذه الحادثة ربما كانت تدخل في اطار المنافسة بين الأندلسيين وضيوفهم من علماء المشرق .

ومهما يكن من أمر ، فاننا لا نكاد نجد في المصادر إلاّ هذه الخطبة ، مما قد يدلّ على أنها محاولات لم تعمّر طويلا ، أو أن المؤرخين لم يجدوا فيها ما يستحق التسجيل والتخليد . وهي في كل الأحوال لا تختلف عن النثر المكتوب حتى كأنها رسالة كتبت ، ثم حفظت ، ثم ألقيت على الناس مشافهة ...

عسى أن يكون في هذه النماذج التي درسناها من أصناف النثر الاعلامي والتنظيمي ما يكفي لبيان التطور الكبير الذي أصاب الانشاء الرسمي ، ومايدور في فلكه من صيغ التعبير في هذا العصر . فلقد واجهت الكتابة النثرية مطالب الحضارة المتنوعة ، ولبّت حاجاتها التنظيمية والاعلامية في جميع المجالات ، وأعربت عن معاني الفخامة والجلال التي أحسب خلفاء بني أمية أن يَظهَرُوا بها للناس في هذا العصر ...

بيد أن النثر ، على ماظفر به من أدوات الصنعة ووسائل التأنق البسيط المستساغ ، ظل نثرا فصيحا — ان صحّ التعبير — أي أنه لا يقصد به المتعة الفنية في حدّ ذاتها ، كما يقصد بالشعر . ثم أخذ الكتّاب يتطلعون الى تلك الآفاق ، ويرومون بلوغ هاتيك الغاية . وحينئذ بدأت النقلة الكبرى التي عبرت بالأدب النثرى من ضفة الى ضفة ، وقفزت به من طور الى طور : فكان ميلاد النثر البياني . وبذلك دخل الانشاء في صلب الأدب بعد أن كان يلهو على هوامشه .

4. — النثر البياني (1)

أجل ، كلّ النصوص النثرية التي استعرضنا نماذجها الى حدّ الآن ، تلتقي عند خاصيّة فريدة ، تجمع بينها ، على ما بينها ، فيما عدا ذلك ، من اختلاف شديد ، وهي

---

(1) لا نقصد بكلمة " البياني " أن ننسبه الى علم البيان كما هو واضح من السياق ، وانما نقصد ما فيه من جوانب الابانة عن مكنونات النفس ، وما تفرزه من مشاعر ازاء الجمال والقبح في نظر الانسان .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنها تنأى كلها عن التعرض لوصف أحاسيس النفس ، وذكر ما تجد في غمرة الأحداث التي تقع في محيطها ، بطريقة يكون الكلام فيها بثا متصاعدا من شغاف القلب ، وحديث النفس للنفس حين تسقط كل الأغشية ، وترتفع الحواجز المصانعة الوهمية ، ويواجه الانسان حقيقة الانسان في أجمل صورها ، أو في أبشعها وأحقرها ... لم يكن النثر يلتفت الى شيء من هذا ، لأن الشعر كان قد احتكر هذا النوع من التعبير. فكلما أحس انسان بجانب من تلك الحقيقة ، فر الى الشعر ، سواء كان ملكا ، أو واليا ، أو قاضيا ، أو صاحب مهنة في آخر قرية من قرى البلاد . وظل النثر ، لذلك ، إطارا مّا يبلّغ الأوامر، ويحط القضاة ، ويبرم الصفقات ، وينظم الوظائف ، ويرتب النفقات ....

لقد بدا الأمر ، في هذه المراحل كلها ، كأن الناس اصطلحوا باجماع على أن عالم الأدب جزآن ، أقيمت بينهما حدود فاصلة : جزء هو للعلم ، والمعرفة التي تأتي من الخارج وقالب التعبير عنها هو النثر ، وجزء مختص بالهمس الذى بداخل النفس ، والخفقان الذى في القلب ، والرعدة المكتومة التي تهتز لها الجوانح ، وقالبها التعبيري هو الشعر . وظلّت الحال كذلك الى أن ظهر من لم يعترف بهذه القسمة ، فسطا فوق الحاجز الفاصل ، وتخطى الحدود ...

وكان من أوائل من قاموا بهذا الصنيع : الخليفة الحكم المستنصر . وكأنما شاءت أقدار الأدب أن يكون الأمراء والخلفاء في الأندلس هم رواده ، وشاءت أقدار أخرى أن يكون الحَكَم بالذات أبا الثقافة العلمية في بلاده ، ورائد التحرر والانطلاق ، وأول باذر لهذه البذرة الأدبية الانسانية الميمونة في النثر الأندلسي .

رسالة الحكم الى جعفر بن عثمان المصحفي :(1)

أصابت " الوزير ، صاحب المدينة بقرطبة ، جعفر بن عثمان علة شديدة ، فلما صار في بعرائها يئس من الحياة ... فخاطب المستنصر بالله ، يَذْكُرُ ماهو عليه من الاشراف على المنية ..... ويسأله أن يخلفه في بيته "(2).

---

(1) جعفر أبو عثمان المصحفي هو الذى سيتولى الحجابة للحكم ، ثم تشتد العداوة بينه وبين المنصور بن أبي عامر فيتغلب عليه . وقد سبق الحديث عنه أكثر من مرة .
(2) جزء من المقتبس ، ص : 69 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو أن المصادر احتفظت لنا بهذه الرسالة ، لكنا ربما غيرنا رأينا في من يرجع اليه الفضل في نهج هذا الطريق من النثر . فجعفر بن عثمان هذا كاتب بليغ ، وهو — وهذا هو المهم — شاعر مبدع ، رقيق ، يحسن التعبير عن شجون النفس وكوامن همها[1] . أفلا تكون رسالته — وهو في بحران علة أيأسته من الحياة — هي التي فتحت الطريق أمام القول الذي رد الخليفة به عليه . فقد اغتم الحكم كثيرا لحال وزيره ، فكتب له بخط يده على ظهر رسالته :

" قرأنا كتابك بما ذكرت من اشتداد حالك ، ووقوع يأسك ، وارتفاع رجائك ، فعظم علينا ذلك ، وكثر غمنا به ، وأشفقنا منه ، ونرجو أن يأتي بخير ، ويعقب بعافية . فان كان ما لا بد من كونه قريبا أو بعيدا ، أو تخطانا ، فكل ما سألت ورغبت ، في نفسك وأهلك ومن تتخلف ، فعلى أفضل الذي رغبته واردته ، وأملته ورجوته .

" فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا ، لما بلوناه من شكرك ، ومجهود حرمتك ، ومحمود صحبتك ، وان لم يرد علينا من قبلك وناحيتك قط ما أغمنا ، ولا ما أنكرنا ، ولا سوء ثناء قط بشيء ، ظاهرا ولا باطنا .

" فان تكن المصيبة فانا لله وانا اليه راجعون ، وان تكن العافية فالحمد لله رب العالمين على جديد أفضاله ، وجميل بلائه ، وعلى كل أحواله ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته "[2] .

ما تركت هذه الرسالة لقصيدة الشعر ؟ أليس فيها رقتها ، أليس فيها نبرة الحزن الهادئة الوديعة المعبرة عن وقار صاحبها ، النابعة من احساس صادق بامكان فقد صديق حميم ، ومعاون مخلص ؟ وماذا كان يجيب الشاعر ، لو تخلى عن الوزن والقافية ؟ بأكثر من قوله : " فعظم علينا ذلك ، وكثر غمنا به ، واشفقنا منه ، ونرجو أن يأتي الله بخير ويعقب بعافية ... " ؟ ولو نظم الخليفة شعرا ما الذي يزيده على قوله ، باستثناء الوزن والقافية : " فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا ، لما بلوناه من شكرك ، ومجهود حرمتك ، ومحمود صحبتك ... فان تكن المصيبة فانا لله ، وانا اليه راجعون " .

(1) انظر مقاطع لطيفة من شعره في " الحلة السيراء " ج 1 ، الترجمة رقم 100 من ص : 257 الى 267 .

(2) جزء من المقتبس ، ص : 70 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لم تكن هذه الابداية الطريق الطويل الذى سيأخذ الأدباء بعد ذلك بالسير فيه واحدا واحدا حتى يكتظ بهم . بيد أن الرسالة التي يظهر فيها لأوّل مرّة هذا النثر البياني جليّا واضحا لا تخطئه العين، ولا يختلف عليه اثنان، انما هي رسالة أبي مروان الجزيرى،(1).

رسالة الجزيري في بنفسج العامرية :

كان المنصور بن أبي عامر، مولعا بأنواع الزهور، يحرص على اقتناء كل طريف منها، ويعتني هو نفسه بها في حدائق قصوره . وقد وصف الجزيري بهار العامرية شعرا فقال :

حدق الحسان تقر لي وتغار — وتضل في صفتي النهى وتحار
طلعت على قضبي عيون كمائمي — مثل العيون تحفها الاشفار
أنا نرجس حقا بهرت عقولهم — ببديع تركيبي فقيل : بهار. (2)

كما وصف نرجس العامرية، وغيره من أزهار الحدائق العامرية . ولا عجب في أن يصف الشاعر هذه الأشياء، بل يكون العجب كل العجب في أن لا يلتفت اليها . لكن الطريف حقا، والجديد المفاجيء، هو أن يكون شاعر مجيد، له هذه القدرة على وصف الزهر شعرا، ثم يجد في نفسه الحاجة الى معالجة هذا الوصف نثرا، فيقول، على سبيل المثال، في بنفسج العامرية :

" اذا تدافعت الخصوم - أيد الله مولانا المنصور - في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها، فاليه مفزعها، وهو المقنع في فصل القضية بينها، لاستيلائه على المفاخر بأسرها، وعلمه سرها وجهرها .

" وقد ذهب البهار والنرجس في وصف محاسنهما، والفخر بمشابههما، كل مذهب. وما منهما الا ذو فضيلة، غير أن فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلونا، وأعذب من

---

(1) أبو مروان عبد الملك بن ادريس الجزيرى من كبار الشعراء والكتّاب في القرن الرابع. وقد تولى ديوان الانشاء للمنصور . ثم توفي عام 394 هـ .

(2) عن الذخيرة : 4/1 — 48 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغمام الذى يسقينا ، مع أني أعطر منهما عطرا ، وأحمد خبرا ، وأكرم امتاعا ، شاهدا وغائبا ، ويانعا وذابلا ، فان فخرا باستقلال لهما على ساق هي أقوى من ساقي ، فلا غرو أن الوشي ضعيف ، والهواء لطيف ، والمسك خفيف ... الخ ..."[1]

مما لا شك فيه ، أن النثر قد انتقل الى مرحلة جديدة من تطوره ، مع الجزيرى ورسائله هذه . وقد انتبه القدماء فيما يبدو الى طبيعة هذا النثر وطرافته ، ولكنهم لم يدركوا كل أبعاده . فصاحب الذخيرة يقدم للرسالة السابقة بقوله : " ما اندرج له في أثناء نشره الذى ملح فيه ، مخاطبته ، على ألسنة كرائمه ، بزهور رياضه "[2] . فالمؤلف لم يستوقفه الا الرمز الذى استخدمه الكاتبين أخفى المنافسة الجارية بين كرائم المنصور ، فجعلها الأديب بين أزهار حدائقه .

والحق أن الجزيري قد ملح بشيئين :

— الأول هذه الطريقة في الحديث عن الزهور بالنثر ، وهو حديث لم تتعود آذان الأندلسيين سماعه إلا ضمن بحور الشعر وقوافيه .

— الثاني أنه نقل الحوار الذى كان معروفا بين البشر[3]، الى النباتات ، فأجراه بين الزهور في مفاخرة حماسية ، ينتصر فيها كل نوع لأخص خصائصه ، ويثني فيها على نفسه بأحسن أوصافه . وسيدخل النثر في القرن الخامس هذين البابين ، ويكون له فيهما شأن كبير .

هذه اذن خطوة كبيرة حاسمة خطاها النثر ، ليس في تجديد قوالبه وأنماطه كما كانت الحال طوال القرون الثلاثة التي استعرضنا أهم ملامح تطوره فيها ، ولكن في تغيير طبيعته بالذات . ولعل القرن الرابع لم يشهد ، في ميدان الأدب ، تحولا يشبه هذا أو يضاهيه[4] الا ما كان من ذلك التطور الكبير الآخر الذى حدث عندما غزا النثر

---

(1) عن الذخيرة : 1/4 — 48 .
(2) نفسه .
(3) لم يغب عن أذهاننا الحوار الذى يجرى بين الحيوانات أو حتى بين النباتات بقصد التربية ، والوعظ ، واستنباط الحكمة . نحن نعني هنا هذا الجانب الفني الخالص .
(4) يضاهيه في الشعر ما كان من نشأة الموشحات ، وهي في أواخر القرن الثالث أثناء حكم عبد الله بن محمد المرواني ، 275 — 300 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ميدان التأليف ، وغدا أداة لحركة واسعة الأطراف ، متعددة الجوانب ، ينشط فيهما كل ذي علم وأدب ، لتدوين ما انتهت اليه المعرفة في اختصاصه ، فكان القرن الرابع من بعض وجوهه ، عصر التدوين في الأندلس .

5 — النثر التدويني : (1)

يعتبر دخول أمة من الأمم ميدان جمع العلوم ، وتدوين المعارف ، واخضاع التراث الذي كان مبعثرا ، متداولا بالمشافهة ، للترتيب ، والتبويب ، والشروع في تناوله بالفحص ، والتحليل ، يعتبر دخولها هذا واحدا من أهم دلائل النضج الفكري فيها ، وعلامة بارزة على ولوج حضارتها ميدان العطاء والاثمار . فاذا كانت الصياغة النثرية تدخل لأول مرة هذا الباب من التعبير ، فذلك تحول حاسم في وظيفة النثر ، وتطور كبير . لا يمكن أن يَغفل أثره من يؤرخ لمسيرة نموه .

فمما لاشك فيه ، أن محاولات الجمع والتدوين قد بدأت في الأندلس منذ القرن الثالث ، بل لعلّ بعض المحاولات المبكرة ، ولاسيما في جمع الأحاديث النبوية الشريفة ، وتفسير القرآن الكريم ، قد شرع فيها منذ أواخر المائة الثانية . ولكنه لا يمكننا أن نعد تلك المحاولات " حركة " ، لأن الحركة حين تكون كذلك ، لا تقتصر على مجال من المعرفة ، ولا تقف عند نوع واحد من العلوم . وعلى هذا الأساس فنحن نميل الى أن حركة التدوين أو التأليف الحقيقية انما بدأت في القرن الرابع ، ولو أن بعض رجالها عاشوا شطرا مهما من حياتهم في القرن المتقدم .

وقد امتدت هذه الحركة الى معظم جوانب الثقافة المعروفة آنئذ ، حتى ليخيّل للمرء كأن الأندلسيين هبوا دفعة واحدة ، لضبط ما وصلت اليه المعرفة في عصرهم كلٌّ في مجال اختصاصه .

ولعله يحسن بنا أن نورد هنا طائفة من المصنفات التي وضعت في هذا العصر ، للتمثيل بها على حجم هذه الحركة ، وتنوعها .

---

(1) فضلنا أن نصف العمل في هذه المرحلة بأنه " تدويني " لأن الجمع فيه أظهر من الابداع عموما ، على أن نترك عبارة " النثر التأليفي " للأعمال التي انجزت في القرن الخامس . ونظرا الى دقة الفروق بين الاصطلاحين ، فانه يمكن أن نستعمل هنا أيضا مصطلح : التأليفي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* ففي الأدب، وما يتصل بـه : ألف ابن عبد ربه (246 ـ 328) كتاب العقـد الفريد . وأبو علي القالي البغدادي (288 ـ 356) كتاب "الأمالي"، وأبو الفتح بـن عيشون (ت : 333) كتاب "الشعراء من الفقهاء بالأندلس"، وابن سعيد الخـير المرواني (ت : 340) "أخبار الشعراء بالأندلس"، وعثمان بن ربيعة (ت : 310) كتاب : "طبقات الشعراء بالأندلس" ـ ومحمد بن مغيث الأنصاري (ت : 352) كتاب : "شعر الخلفاء من بني أمية" ـ أما ابن فرج الجياني (ت. 359) فقد جمع أخبار الأدباء الأندلسيين الى زمانه في كتابـه "الحدائـق".

* ومن الشـروح الأدبية : "شرح "أبي العباس الوليد بن عيسى الطبيخـي (ت : 352) لديوان مسلم بن الوليـد، صريـع الغواني [1].

* وفي اللغة والمعاجـم : ألف أبو علي القالي كتاب : "نوادر اللغة" ـ ومحمد ابن أبان بن سعيد اللخمـي (ت : 354) معجمـه الكبير الذى سمّاه "كتاب العالم" وقـد قال عنه الامام ابن حزم انه في مائة سفر على الأجناس، في غاية الايعاب، بدأ بالفلـك، وختم بالـذرة.

* ومن كتب التراجم ومعاجم الرجال : "تاريخ قضاة قرطبـة" للخشني (ت : 361، وقيـل 371) ـ و "تاريخ علماء الأندلس" لابن الـفـرضي (351 ـ 403).

* ومن كـتب التاريخ والجغرافيـة : كتاب "تاريخ افتتاح الأندلس" لابن القوطيـة (ت : 367) ـ وتاريخ عريب بن سعيد (ت : 369) ـ وكتاب "مسالك افريقية وممالكها" لمحمد بن يوسف الورّاق، (ت : 362) وهو المعروف بأبي عبدالله التاريخي.

* ومن كتب الحديث والفقه وأصول الدين : مؤلفات قاسم بن أصبغ (ت : 340) ولـه "كتاب الناسخ والمنسوخ" و "كتاب الانساب" وكتاب في حديث مالك بن أنس مما ليـس في الموطأ .....

* ومن أوائل المؤلفـات الفلسفيـة في الأندلـس : كتاب التبصرة لابن مَسَرّة (ت : 313).

---

(1) مسلم بن الوليد : المعروف بصريع الغواني، شاعر عباسي، عرف بالاكثار من الأساليب البديعيـة. توفـي 208 هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لعل هذه القائمة المختصرة(1) تكفينا لتصور ذلك الجهد الكبير الذى أخذ علماء الأندلس أنفسهم ببذله في هذا القرن ، والذى تناول معظم الجوانب الثقافية في ذلك العهد .

ويبقي علينا أن نقف وقفة موجزة عند كتاب العقد لابن عبد ربه (2) ، لنحاول أن نستخرج منه بعض خصائص النثر التدويني في هذه المرحلة .

العقد الفريد :

يشتمل كتاب العقد على مجموعة كبيرة من الأخبار والأقاصيص ، والروايات ، والاشعار ، والخطب ، وكل ما يمت الى الثقافة العربية القديمة بسبب . وقد جمع ابن عبد ربه مادة العقد الفريد من مروياته عن شيوخه ، وفيهم من كان رحل الى المشرق(3) ، وعن الكتب التي كانت تصل الى الأندلس من المشرق . فهل كان دور المؤلف يقتصر حينئذ على تسجيل ما سمعه من شيوخه ، ونسخ ما وجده في تلك الكتب ؟ . .

الحق أن جهد المؤلف يتمثل في جانبين : أحدهما تبويب الكتاب ، وحسن ترتيب المادة المعروضة ، والتأنق في اخراجها ، والثاني : التمهيد لكل باب من أبوابه بمقدمة صغيرة سمّاها فرشا ، وهي التي تعطينا صورة صادقة عن نثره وأساليبه في الكتابة . وقد اعترف المؤلف بما له من فضل محدود في تأليف العقد فقال : " وانما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش في صدر كل كتاب . وما سواه فمأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . . . "(4)

فاذا أردنا أن نتبين أساليبه الكتابية ، وطرائقه في التعبير ، فاننا مدعوون الى البحث عنها في هذه المقدمات ، والبعض القليل من أخبار الأندلس التي كان يشير اليها في أحيان قليلة . فلننظر في نموذج واحد من النمطين :

---

(1) أخذنا معظم هذه العناوين من كتاب تاريخ الفكر الأندلسي ، لبالانثيا ، ترجمة : مؤنس ، في أماكن متفرقة منه ، كما استفدنا أيضا من رسالة ابن حزم في فضل الأندلس . عن نفح الطيب 3/156 . ونحن لم نقصد الى الجرد الدقيق لكل ما ألف في هذا القرن ، وانما مرادنا بيان مدى سعة هذا النشاط .

(2) ابن عبد ربه : هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (246 ـ 323 هـ) شاعر مقرب من بلاط بني أمية ، وخاصة عبد الرحمن الناصر منهم .

(3) انظر تفاصيل ذلك عند جبرائيل جبور " ابن عبد ربه وعقده " ، ص : 69 و 70 .

(4) مقدمة العقد ، ج 1 ، ص : 2 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مقدمة كتاب الفريدة في الحروب : قال ابن عبد ربه :

" قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه ، وما على الرعية من لزوم طاعته ، وادامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته ، والرفق بأهل مملكته ، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها ، وقود الجيوش وتدبيرها ، وما على المدبر لها من إعمال الخدعة ، وانتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، واذكاء العيون ، وافشاء الطلائع ، واجتناب المضايق ، والتحفظ من البيات ... "(1)

هذه الفقرة تدلّنا على معالم لا يمكن أن يخطئها الدارس لنثر ابن عبد ربه ، وهي السهولة واليسر في التعبير ، والاسترسال في الصياغة ، والرقة والعذوبة في الألفاظ المختارة بكل عناية . وفي النص صنعة دقيقة بذل المؤلف فيها غاية الجهد ، ولكنه نجح في اخفاء آثارها أوكاد : أنظر الى هذه الثروة التعبيرية : "انتهاز الفرصة ، والتماس الغرة ، واذكاء العيون ، وافشاء الطلائع ، واجتناب المضايق " هل نتصور أن مثل هذا التفنن في تلوين الأداء ، كان بامكانه أن يأتي على هذا النحو لو لم يكن وليد الروية والتفكير ، والمراجعة والتحكيك . ثم لاحظ تلك المقاطع الصوتية ، والتنغيمات الحادثة التي جاءت في أوّل الكلام ، دون أن يرقى هذا التنغيم الى السجع الكامل . ولعلّ أوضح ما في هذا النص هو الازدواج ، والموازنة ، حتى ان العبارات الأولى قد جاءت مفصلة كل واحدة منها على قياس أختها .

أما النص الثاني فهو الذى يعرض فيه لبعض أخبار الأندلس ، كقوله عن الخليفة عبد الرحمن الناصر :

" ثم ولي الملك القمر الأزهر ، الاسد الغضنفر ، الميمون النقيبة ، المحمود الضريبة ، سيد الخلفاء ، وأنجب النجباء ، عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين ... فتولى الملك والأرض جمرة تحتدم ، ونار تضطرم ، وشقاق ونفاق ، فأخمد نيرانها ، وسكن زلزالها ، وافتتحها عودا ، كما افتتحها بدءا سميه عبد الرحمن بن معاوية ... "(2)

يبدو أنه ليس لدينا شيء نضيفه الى ما قلناه في النص الأول ، فكلا هما يغرفان من نهر واحد ، ويصبان في بحر واحد ، وانما كان نصيب هذه الفقرة من السجع والتنغيم أوفى

---

(1) العقد ، ج 1/ 93 .

(2) نفسه ، ج 4 ، ص : 498 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من النص الأول ، الذى كان ذا مضمون موضوعي واضح ذلك أن هذا النص انما هو مدح كالشعر الذى قاله فيه ، وهو خِلْو من الفائدة ، لا يعرّفنا حقا بالملك ، ولا يضيف الى معلوماتنا عنه شيئا ذا بال .

وخلاصة ما نقوله عن ابن عبد ربه ، أنه ألف واحدا من أوائل كتب الثقافة الأدبية العامة في الأندلس ، وقد برهن فيه على إلمام واسع بالثقافة العربية الأولى دون أن يرحل الى مواطنها في المشرق . وربما كان هدفه الوحيد من وراء هذا التأليف ، هو وضع موسوعة ثقافية عن تراث العرب بين يدى مواطنيه ، فاذا كان ذلك فنظن أنه قد بلغ الهدف وأصاب الغرض . وعلى كل حال فان منزلة العقد الآن رفيعة بيننا ، وقد صدق من قال : انه " يمثل في حياتنا الثقافية والأدبية المرتبة التي تلي كتاب الأغاني لأبي الفرج الاصبهاني "(1).

* * *

(1) دراسة في مصادر الأدب ، للطاهر أحمد مكي ، ج 1 ، ص : 237 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نأتي الى نهاية هذا الفصل الذى أتيح لنا فيه أن ندرس تطور النثر الأندلسي منذ بداية أمره، فتتبعنا مسيرته الطويلة على امتداد ما يقرب من ثلاثة قرون من الزمان، ولاحظناه وهو في نشأته الأولى، ثم رأيناه ينمو شيئا فشيئا ويجتاز مراحل نضجه الواحدة بعد الأخرى حتى وصلنا معه الى عتبات القرن الخامس .

ولعلنا استطعنا أن نبين، خلال هذا التتبع والملاحظة، أن الانشاء في الأندلس قد ظلّ يتدرج في سلم التحسن والاكتمال حتى بلغ مستوى رفيعا من الجودة في مضامينه وأشكاله .

واذا كنا قد لخصنا القول في أهم منجزات المرحلة التي تمتد من الفتح الى نهاية القرن الثالث، في القسم الأول من هذا الفصل، فاننا نستطيع أن نسجل النثر في هذه المرحلة الثانية، ثلاث علامات بارزة تمثل فترات تحول عميق في وظائفه، وانتقال نوعي في طرائق أدائه، وفنيات صياغته .

* **الأولى :** حين استجاب النثر الاعلامي للمتطلبات الحضارية الجديدة، ومقتضيات تنظيم الدولة/وهي في أوج قوتها، فتنوعت أنماطه، وتعدّدت أشكاله، وعبر عن كل مظاهر التعقيد الحضاري في السياسة والحكم بدقة ويسر .

* **الثانية :** حين شرع النثر يغزو المجالات التي كانت وقفا على الشعر، فأعطى الدليل، لأول مرة، على أنه يستطيع أن يعبر — بطريقته الخاصة — عما يختلج في النفس البشرية من آثار الانفعال العاطفي، وردود فعلها أمام سحر الطبيعة وجمالها .

* **والثالثة :** عندما دخل النثر ميدان التدوين، والتأليف، فغدا أداة تعليمية يتم بواسطتها جمع التراث، وتصنيف العلوم، وترتيب المعارف، فاستقام لأصحاب هذا الفن منذ البداية منهجٌ محكم، وجاءت كتب هذه الفترة تشهد على تحكّم في أساليب الجمع، ونضج في الأداء، وتفنّن في الصياغة تدل على مدى ما أصاب النثر من تقدّم .

ولم يكن تطوره من حيث الشكل، بأقل من تطوره من حيث المضمون . فقد رأيناه في البداية أداة تبليغ لا تكاد تعنى الا باصابة الغرض الأول منه، وبلوغ الهدف

الرئيسي الذى هو ذو طابع ملمحي يتمثل في حمل ارادة أو رغبة الكاتب الى المكتوب اليه . وكانت زينة ما يكتب، تأتي على قدر همة الكاتب وقدرته على التحسين .

ثم أخذت الصياغة تطمئن شيئا فشيئا بعد انقباض ، والعبارة تلين بعد شدة، ولكنه اللين الذى لا ينأى بها عن الجزالة ، ولا يشط بها عن المتانة . وما ان دخل القرن الرابع حتى ترك النثر الكثير من تقشفه ، وتخلى عن معالم طبائع اقتصاده ، وأخذ يتفنن في ألوان الزينة ، ويُقبِل على أنواع من الوشي الجميل الذى لا يتأتى الا بمقدار من الجهد في الصنعة . على أن تلك الزينة لم تبلغ به أبدا ، في أواخر هذا القرن الرابع ، حدّ البذخ والتّمتُّع ، ولا وصلت به الجهود المبذولة في سبيل التجويد والتفنّن ، حدود التبرج والابتذال .

فهل يثبت النثر في القرن الخامس على مناهج هذا التقدم الأصيل ؟ وهل يقوى على رفض اغراءات التعقيد الذى تنفثه الحضارة المتأنقة في كل ميادين الحياة، حين تبلغ ذروتها الشامخة في محيط سياسي متدهور ؟ وهل يصمد أخيرا لسيل "البديع" العاتي وأمواجه المتلاطمة حين تهب لها رياح الشرق العاصفة ، فتتدفق كالطوفان لتغمر كلّ فنّ من فنون التّعبير .

ذلك ما سنحاول الوقوف عنده دقائقه في الفصول القادمة بإذن الله .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البـــاب الثـــانـــي

أغــراض الشـعـر ومضـامينـه الرئيسيـة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثاني

أغراض النثر ومضامينه الرئيسية

بدأ النثر في القرون الماضية — كما كنا رأينا — محدود المجالات ، ضيق الانحاء ، محصور الأغراض ، حتى اذا بلغ في التوسع مداه ، في بحر القرن الرابع الهجري ، لم يزد في الحقيقة على الاستجابة لدواعي تنظيم الدولة الآخذة في الازدهار، ومسايرة ضرورات الاتصال والتبليغ المعتقدة فيها . هذا بالاضافة الى الرسائل والكتب المطولة التي نشط العلماء لتأليفها في كلّ فنّ .

وعلى ذلك صحّ لنا أن نذهب الى أن النثر الأندلسي كان ، في جملته اما اعلاميا وتعليميا،أو تنظيميا وتأليفيا ، أي أنه كان ، بوجه عام امّا ذا طابع ديواني ، أو ذا طابع تدويني . واذا كنّا قد وقفنا عند النماذج التي أخذ النثر فيها يتسلل الى بعض المواطن الجديدة ، ويغزو بعض المساحات الغريبة عليه ، فان ذلك لا يعدو أن يكون استثناء يؤكد القاعدة العامة ولا يخل بصحتها المطلقة .

ثم جاء القرن الخامس فكان عصر ازدهار الأدب النثري بكل مافي هذا التعبير من أبعاد . فلقد اتسعت مجالات النثر اتساعا لم يسبق له نظير، وامتدت أغراضه لتشمل كل مناحي التعبير حتى لم يكد يخلص شيء منها للشعر ينفرد أو يتميز به دونه .

ولعلّ أهمّ ما يستلفت الانتباه ، في هذا السياق ، أن الشعر الذى كان قد شهد التحول الكبير المتمثل في نشأة الموشحات ، لم يحدث فيه بعد ذلك من التطور والتغير ما يضارع التطورات والتغيرات البعيدة الأثر التي عرفها النثر منذ أخريات القرن الرابع ومطالع القرن الخامس الهجريين .

ان النثر لم يعد يقنع بمجرد منافسة الشعر ، ومضايقته في الأغراض التي كانت قبلّ مقصورة عليه ، بل انه رمى الى نوع من احتكار التعبير في معظم ميادين الشعر ، حتى ان الأديب أضحى يكتفي بايراد المقطوعة القصيرة من الشعر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضمن الرسالة النثرية التي تتناول التهنئة ، أو التعزية ، أو المدح والتودد ، أو الاعتذار ، أو التأنيب ؟ هذا اذا أورد شعرا ! ... وهذه كلها من الموضوعات التي ما كان النثر ليرقى الى التعبير عنها بحال من الأحوال ....

ومن مظاهر هذا التحول الشامل الذي حدث في وظيفة النثر الأدبية ، أن الانشاء الرسمي الذي لم تضعف حاجة الحكم اليه ، بل انها زادت بتعدد العلاقات بين الممالك الكثيرة ، وحاجتها الدائمة الى الاتصال فيما بينها ، أن هذا الانشاء الرسمي لم يعد يمثل إلاّ الجزء الأقل ، والمقدار الأدنى من مجموع غزير المادة ، متعدد المضامين ، متنوع الأشكال ، متباين الأساليب .

من هذه الغزارة وهذا التعدد والتنوع والتباين جاءت الصعوبة التي تواجه الدارس حين يروم جمع كل أصنافه تحت عناوين محددة ، ولمّ شتاته ضمن عدد معقول من الفصول يكون فيها ما يرضي منهجية البحث ، وضمان الانسجام بين الأنواع ، دون التفريط في بعضها أو التكلف للجمع بين المتنافر منها .

وقد استبان لنا — على أساس هذه الاعتبارات — أنه بوسعنا أن نُلِمَّ بجميع أضرب النثر التي عثرنا على نماذجها ، والتي نبغي دراستها في هذا الباب ، اذا نحن أدرنا بحثها على الأغراض الأربعة التالية :

أوّلا : النثر الديواني :

ونعني به كل المراسلات والمخاطبات والوثائق وغيرها من ضروب الانشاء ذات الطابع الرسمي التي تدخل في باب من أبواب ترتيب الحكم ، وتنظيم المملكة ، وضبط شؤون الادارة ، ومراسلة الأطراف التي يكون التعامل معها على وجه من الوجوه داخل البلاد وخارجها ، جزءا من النشاط السياسي .

ثانيا : النثر التوسلي :

في هذا الغرض جمعنا كل المضامين النثرية التي يوظفها أصحابها في شأن من شؤون التقرب من رجال الحكم وكبراء الدولة ، ووجهاء المجتمع وأعيانه ، سواء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكسب عطاياهم ، أو للتودّد إليهم ونيل رضاهم ، أو للتوسط بهم للمضطرين وذوي الحاجات . . . . وهو ميدان فسيح الارجاء، واسع الجنبات، ولكنه منسجم الغاية من حيث كونه لا يخرج عن أحد معاني التوسل .

ثالثا : نثر المبادلات الاجتماعية :

وهو كل انشاء ينهض بالتعبير عن معنى من معاني الاتصالات الانسانية التي تقوم بين أفراد المجتمع الواحد ، مما يدور أكثره عادة على المجاملات التي تكون بين الناس، وما يلجر عن التقصير فيها أو الاخلال بها من ضروب الانفعالات . فهو أدب نثري كما نرى ، اذ موضوعه علاقة الانسان بالانسان انطلاقا من مفهوم الانتماء الى مجتمع واحد ، وما يتضمن فيه من ضرورات التضامن ، وتبادل الخدمات والمجاملات . . . .

رابعا : النثر الاستعراضي :

وأخيرا بقيت لنا أنواع شتّى من النثر لا تحتمل ادراجها ضمن أيٍّ من الأغراض الثلاثة المتقدمة ، وقد تبين لنا عند دراستها أنها ، على بعد الصلة أحيانا فيما بينها ، تلتقي كلّها عند نقطة واحدة على الأقل هي جامعها المشترك ، وتتمثل في نزعتها الاستعراضية الواضحة : فهذا نوع من النثر يستعرض ما لبعض الناس أو الحيوانات أو الجمادات من أوصاف ، وذاك نوع ثان يُعنى باستعراض الحالات النفسية والانفعالات ، وذلك نوع ثالث يستعرض المذاهب والآراء والأفكار ، ونوع آخر رابع يختص باستعراض مواطن الحكمة ، ودواعي الحث على نصرة الدين والتمسك بفضائل الأخلاق . . . . وهكذا ارتأينا من الصواب أن نضم هذه الأنواع المتماثلة الى بعضها تحت عنوان النثر الاستعراضي .

لقد بدا لنا أن هذا التقسيم يمثل المحاور الأربعة الطبيعية لهذا الباب الثاني فاعتمدنا تسمية فصوله بتلك التسميات فكان لنا فصول أربعة أولها الفصل الخاص بالنثر الديواني . .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأوّل

النثر الديواني

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

النثر الديواني

النثر الديواني — الذي نريد الحديث عنه في هذا الفصل — هو كل إنشاء ذي طابع رسمي يصدر عن إحدى "مصالح" الدولة المركزية، أو عن تمثيلياتها وامتداداتها المختلفة في مستوى النواحي والجهات، ويقصد به تبليغ المعلومات، أو ضبط علاقات الحكم بالأطراف المتعاملة معه داخل الحدود وخارجها، وذلك بقطع النظر عن طبيعة الأشكال التي يكتسيها ذلك الانشاء، وصيغه الفنية، وأساليبه التعبيرية.

ويتضح من هذا المفهوم المحدد للانشاء الديواني، أننا نشترط فيه أن يكون صادرا عن الهيآت السياسية والادارية وغيرهما من التشكيلات التي كانت تستند اليها تنظيمات الدولة وتنشذ، حتى ولو انحصرت — أحيانا — في شخص واحد، كأن يكون قاضيا، أو واليا، أو قائدا الخ ... بشرط أن يتصل انشاؤه بغرض من أغراض تسيير الدولة، وتنظيم شؤون الحكم. ومن هنا نلسنا نعوّل على هوية من يصدر عنه الخطاب مادام من رجال الدولة بقدر تعويلنا على مضمون الخطاب نفسه. على أنه ينبغي أن نشير الى أننا نعد المعاملات الاجتماعية الصادرة عن قمة السلطة السياسية في صميم الانشاء الديواني، لأن كل ما يصدر عن الرّجل الأول في المملكة من المخاطبات والرسائل له وجه من وجوه السياسة، وعلاقة ما بتسيير البلاد.

ومن البديهي أننا لم ندرج ضمن هذا الفصل المراسلات الكثيرة التي كانت ترد على الملوك ورجال دولتهم ودوائر الحكم فيها من خارج الهياكل الحكومية، لأن تلك المخاطبات، وان كانت موجهة الى الحكام، فانها ليست ذات طابع رسمي، وانما يكون لها مكانها في فصل آخر.

ولما كانت المكاتبات الرسمية ترمي بالدرجة الأولى الى ضبط العلاقات ووضع ترتيبات الادارة والحكم، فقد قسمناها الى ثلاثة عناوين بحسب طبيعة العلاقة التي ترمي الى ضبطها أو ترتيبها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 – **العلاقات السلطانية** : وهي تقابل ما نسميه اليوم بالعلاقات "السياسية والدبلوماسية" وتشمل مجموع الميادين التي يتمّ فيهما تبادل المصالح والمجاملات والمعلومات بين الدول القائمة، آنذاك، في الأندلس .

2 – **العلاقات الادارية** : وهي بصفة أساسية الميدان الذى يمارس فيه الحاكم سلطات حكمه، وينفذ فيه ارادته عن طريق التعليمات والتوجيهات، ويصدر فيه مراسمه بالتولية والنقل والعزل . . .

3 – **العلاقات الشخصية** : وهو الميدان الذى يُطل الحاكم من خلاله، بصفة مباشرة، ودون وسائط، على طوائف من شعبه إما لتأديب الخارجين عليه، وإما لحث الناس على طاعته واما لتبشيرهم بالنصر، وقص بعض أخباره عليهم...

هذه في مجملها أهم المحاور التي باستطاعتنا أن ندير عليها الحديث عن النثر الديواني . وهي كما نرى شاملة لمجموع الأغراض التي تنصرف اليها اهتمامات الحكام داخل البلاد وخارجها، وان كانت قيمتها عندهم تختلف فيما بينها .

ولو أننا وضعنا نصب أعيننا الخارطة السياسية للأندلس خلال العقود السبعة الأولى من القرن الخامس، وتذكرنا تلك الصراعات المريرة التي احتدمت بين الأمراء الذين سمّوا ملوك الطوائف لأمكننا بكل يسر أن نتصور مقدار الأهمية التي كانوا يولونها – بدون شك – للعلاقات فيما بينهم . ذلك أنهم كانوا من الكثرة والتنافس والتطاحن بحيث أن كل تعديل، ولو طفيف، في وضعية التحالفات كان يخل بالتوازن الدقيق الذي كانت تعيش عليه أكثر تلك الدّويلات الهزيلة، والكيانات المصطنعة . ومن هنا كان حرصهم جميعا على العناية بضبط الاتصالات فيما بينهم، والاكثار من التكاتب والتراسل .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 ـ العلاقات السلطانية .

احتفظت لنا كتب الأدب (1) بطائفة صالحة من النصوص النثرية التي تدخل كلها ضمن وجه من وجوه العلاقات السلطانية بين ملوك الطوائف في البلاد الأندلسية . وقد وجدنا هذه النصوص من الكثرة والتنوع بحيث بدا من الأليق بمنهجية الدراسة أن نقف عند كل واحد من أصنافها ذات الملامح المتمايزة . وهي ـ فيما قدرنا ـ أربعة أصناف : المبادلات السياسية ، والمخاطبات الاعلامية ، والمجاملات الرسمية ، والعلاقات الخارجية .

أ = المبادلات السياسية :

ان المبادلات السياسية ركن ذو أهمية بالغة في كل علاقة تقام بين حاكمين ، حتى اننا لا نكاد نتصور بينهما أي نوع من الاتصال المستمر لا يؤدي في النهاية الى وجه من وجوه الترابط السياسي . ثم ان طبيعة الظروف التي أحاطت بميلاد تلك الممالك الصغيرة المتعددة في بلاد الأندلس ، وما كان بينها من صراع محتوم يغذيه طموح كل حاكم الى توسيع حدود مملكته ، قد فرضت على أولئك الملوك ـ كيفما كان نصيبهم من القوة ـ أن يسعوا الى التحالف فيما بينهم لتقوية صفوفهم ، والتعاون على ردّ غارات أعدائهم ، أو على مهاجمتهم بنقل الحرب الى ديارهم ، والتوسع في أراضيهم ، وهكذا نستطيع أن نذهب الى أن التحالف السياسي ، والتعاون العسكري في حالتي الدفاع والهجوم ، هما من أهم أغراض المبادلات السياسية بين ملوك الطوائف .

فهذا ابن مجاهد (2) يبعث برسالة الى المظفر بن الأفطس (3) في معنى تأكيد التحالف والتعاون السياسي بينهما ، والاعتزاز بذلك . يقول فيها : " اذا تشاكلت ـ أيدك الله ـ الأحوال والضروب ، تقاربت الأهواء والقلوب ، . . . .

---

(1) مثل كتاب الذخيرة ، وقلائد العقيان ، ونفح الطيب ، وغيرها . . .
(2) ابن مجاهد : هو علي " اقبال الدولة " وقد خلف أباه " مجاهداً " على كرسي دانية والجزائر الشرقية .
(3) المظفر بن الأفطس : محمد بن الأفطس : أمير بطليوس . وقد عرف باهتماماته العلمية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما تشتّت لنا بحمد الله شمل ، ولا انقطع بنا حبل ، ولا غيض بيننا وصل ، بحمل نحن على ثلج تواصل يقتضيه التشاكل والتآلف ، ونهج تداخل يستدعيه التعاقد والتحالف ، واني ، علم الله ، بمكانك لمُبَاهٍ ، وبزمانك لمفاخرٌ مُبَاهٍ ....."(1).

ولعلّه يحسن بنا أن نتنبه لقوله : " التعاقد والتحالف " فان العلاقة بينهما نوع من الالتزام الذي يتعين على كل طرف أن يتقيد به ، كما يكون التقيد بالعقد المبرم . واذا كان ابن مجاهد يحرص على الظهور بمظهر الملك المخلص لحليفه المتمسك ببنود العقد الذي أمضاه ، فالذي يبدو بجلاء من خلال رسالته أنه يود أن يرى حليفه يبدي نفس الحرص على التمسك بمواد تحالفهما . ولنستمع اليه في الشق الأخير من رسالته المتقدمة حين يقول : " أعتقد لك العقد الذي لا تجاذب أهْدَابُهُ ولا يُنازع جلبابه ، وقد نظمتنا من الأحوال المشاكلة ، والأسباب الواشجة ما كلانا له مُرَاعٍ ، والى قضاء الحق فيه وحفظ الحظ منه سَاعٍ ، ورُبَّ حال جددت تحالفا وودا ، وأكدت رشدت ـ على مر الأيام ـ عهدا وعقدا ، وبنت ما لا يهدمه الدهر ولو انتحاه من خطوبه بمعول ، وأحمى عليه بجران وكلكل ."(2).
ولعل الذي يشير الى ما يحنيه صاحب الرسالة بوضوح يفوق كل ما تقدم ، هو هذا الدعاء الحار الذي يرفعه الى الله جلّ وعلا في آخر رسالته : " والله يصلهما بيننا بالدوام والثّبات ، ويحرسه من الانصرام والانبتات "(3).

ويفهم من الرسائل التي وجهت عن ابن مجاهد هذا الى بعض ملوك الجزيرة ، وقتئذ ، أنه كان شديد الرعاية لعلاقاته ببعض الأقوياء من جيرانه . ذلك أننا نجده ـ على سبيل المثال ـ يوجه رسالة أخرى الى المنصور بن ابي عامر(4) يقول فيهما : "... فمن ظفر بصفائك عتادا ، وبوفائك عتادا ، فقد أصمى سهمه وقرطس ، ونزل ساحة الفضل وعرس ، وورد وردا لا تكدره الدلاء ، واعتقد عقدا لا يغيّره الاصباح والامساء ، وتلك حالي في ما مُنِحْتُهُ من صفائك ، ووُلِّيتُهُ من ولائك ، والله يحرس حظي من وفائك ، ويرفع المضارّ عن حوبائك "(5)

---

(1) ذ : 1/3 ـ 166 .
(2) و(3) نفسه .
(4) المنصور بن أبي عامر : هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد . حكم بلنسية وخلفه ابنه عبد الملك
(5) ذ : 1/3 ، ص : 165 و 166 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان تعلق ابن مجاهد بحلفه مع ابن أبي عامر لا يقل عن تعلقه بالحلف السابق كما نرى ، وذلك راجع الى ظروف مملكته الداخلية وكثرة الطامعين فيها . ولذلك بدا واضحا أن في تحالفه اختلالا ، فهو لا يخاطب حليفه مخاطبة الند للند ، وانما هو تابع يعلن الولاء أشبه منه بملك يخاطب نظيره ، وتلك حال كل ضعيف أمام من هو أقوى منه .

ومن أمثلة هذه المبادلات السياسية الدالة على التحالف الذى تميل فيه الكفة لصالح فريق دون آخر ، ما نقرؤه في رسالة كتبت عن ابن هود [1] الى المعتضد ابن عباد [2] يقول في أولها : " وأنا لا أزال بفضل خلوصي اليك ، وصدق انجذابي لك ، وشدة اغتباطي بموهبة الله السَّنيَّة فيك ، مصيخا الى كل داع بشعارك ، وحامل لآثارك ، مستهديا لطيب أحاديثك ومبهج أخبارك ، فاذا ظفرتُ بمحدث عنك فقد نلتُ جذلي ، واذا وقفتُ على خبر من لدنك ، فذلك من أملي ... " [3]

مما لا شك فيه أن جزءا من هذه الرقة البادية في رسائل ابن مجاهد وابن هود يعود الى تقاليد الترسل في بلاد الأندلس ، وميل كل كاتب الى التلطف لمراسله ، ومخاطبته بأفخم الألقاب ، وأعظم النعوت والصفات مما لا نعدم أمثلة عنه في الرسائل الحربية في كل العهود ، ولكن هذه الحقيقة لا ينبغي أن تخفي عنا حقيقة ثابتة أخرى وهي أن بعض الممالك لم تكن تبقى وتستمر الا بفضل ذكاء أمرائها ، وقدرتهم على اصطناع جيرانهم الأقوياء ، واقناعهم بأنهم لن يكسبوا بازالتهم أكثر مما يستطيعون كسبه بالابقاء عليهم .

---

(1) ابن هود : المقصود هنا أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر بالله ، أمير سرقسطة توفي 474 .

(2) المعتضد بن عباد : اسماعيل بن عبّاد الملقب بالمعتضد حكم بعد وفاة أبيه من 433 الى 461 هـ .

(3) ذ : 1/2 ، ص : 183 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد أنه من البديهي أن المبادلات السياسية التي كانت تتم بين ملوك الطوائف لم تكن تنحصر في هذا الغرض ، ولم تكن تكتسي هذا الطابع من الاختلال الواضح في العلاقة والتوازن :

فهذا حَبّوس[1] صاحب غرناطة يرد على رسالة ابن عبدالله[2] أمير قرمونة ردّا صارما حين يبادره برفض نصائحه : " ولم يكن لمن أوحشت جهته ، وتغيرت مودته ، أن يدخل مدخل الناصحين ، وقد خرج من جملة المشفقين "،[3] ثم يرفض تهديده وتخويفه ، ويرفض النزول عند رغبته في الخروج عن جماعته ، وكل ذلك في قوله : " وان كنت أردت التخويف والايعاد ، والابراق والارعاد ، فقد كفاني بيت الكميت[4]

أبرقْ وأرعِدْ يا يزيـ ـــــدُ ، فما وعيدك لي بِضائِرْ .

وأنا أحد البرابرة ، لا أخرج عن جماعتهم ، ولا أبعد عن موافقتهم ، ولا أرغب بنفسي عن نفوسهم "[5].

من الواضح البيّن أن نبرة الخطاب هنا تختلف تماما عن نبرة المخاطبات السالفة ، فهي هنا تدل على موقف ثابت ، ورأي راسخ لم تستطع رسالة ابن عبدالله على ما فيها من شدة أن تنال منهما فتيلا .

كانت هذه اشارات سريعة الى مضامين التعاهد والتحالف بين حكام الأندلس، وهي ان كانت جانبا هاما في المبادلات السياسية بينهم ، فانها ليست الجانب الأوحد ، بل ان هناك عددا من الأغراض في تلك المبادلات لا تَقِلُّ عنها أهمية ، وهي أحيانا مستمدة منها ومتولدة عنها ، اذ أن نجاح التحالف بين الفرقاء يتيح ألوانا من التبادل التي تكون من قبيل الاستشارة والنصح ، والتوسط وما الى ذلك .

---

(1) حبوس : هو حبوس بن ماكسن ، مؤسس دولة بني زيرى في غرناطة . توفي عام 428 هـ .
(2) ابن عبدالله : أبو عبدالله محمد بن عبدالله البرزالي بويع بقرمونة سنة 400 هـ ، وتوفي سنة 434 .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 625 .
(4) الكميت بن زيد بن خنيس الاسدى . من أهل الكوفة وهو شاعر الهاشميين المنحاز الى الشيعة توفي عام 126 هـ .
(5) ذ : 1/2 ، ص : 626 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضمن باب الاستشارة والاستنصاح ما كُتب عن المعتضد بن عباد الى ابن هود ، اذ يبدأ باطلاق أحكام عامة تتصل بما يكون بين المتحابين من تشاور وتناصح ، وتبادل للأسرار ، ثم يقول له : " والله لايعدمني الاستظهار برأيك ، أفشو اليه سراجا ، وسعيك احتذى عليه منهاجا " ، وهذه كلها مقدمات ليشاوره في الكيفية التي يواجه بها عداوة حكام قرطبة لمملكة بني عباد . يقول المعتضد في رسالته : " وقد علمت صورة حالي مع المدبرين لقرطبة ، وسمري لهم في الخطير والجليل ، والجراري معهم الزمن الطويل ، مُغضيا لهم على ما يوحش ويريب ... " وهي رسالة طويلة ينهيها المعتضد بالتهديد الصريح واعلان انه يستطيع في كل حين أن يلحق بحكام قرطبة شر الهزائم ، وأن يلحق بهم أفدح الأضرار . (ذ : 3/1 ، ص 135) .

وينبغي أن لا يفوتنا الوقوف عند ظاهرة معروفة من مظاهر العلاقات السياسية بين الدول ، ونعني بها السفارات التي هي أرقى أساليب التبادل السياسي ، والاتصال المباشر في تلك الأزمنة ، ونحن نجد في النثر الأندلسي أصداء متعددة لهذه الظاهرة ، ومن ذلك رسالة اقبال الدولة(1) الى المعتصم بن صمادح (2) التي يشير في مقدمتها الى أنه كتبها بعد أن عاد السفير الذي بعث به اليه ، وذلك حين يقول : " كتبت سد أدام الله إعزازك ..... بعد قفول من قفل عنك ، وحلول من صدر بما شرح الصدور من لدنك ... "(3)

واذا كنا لا نعرف بالضبط عن موضوع هذه السفارة شيئا ، فان الذي يبدو واضحا لدينا هو ان اقبال الدولة قد حقق بهذه السفارة من الفوز ما جعل سروره يبلغ هذه الدرجة التي يصفها بقوله : " فطارت بني هزة الشروق كل مطير ، وأطارتني غرة الفرح بين روضة غناء وواد مطير ، وقلت : الحمد لله ، قد وفّقت أموري ، وقام عند العواذل عذري ، وسطع شهاب حجتي بأن خلعت عليه نفسي ، وأودعت يديه مهجتي ...."(4)

ومما تناولته هذه المبادلات السياسية الوساطات ، وهي سفارة من نوع خاص ، فقد يقوم بها أحد الأمراء لصالح أمير آخر ، فاذا أثمرت جهوده ونجح مسعاه ، اشتدت مسرة

(1) اقبال الدولة : هو علي بن مجاهد العقلي صاحب الجزائر الشرقية ودانية .
(2) المعتصم : هو المعتصم بن صمادح : حاكم المرية من 443 الى 434 هـ .
(3) و(4) ذ : 3/1 ، ص : 322 الى 324 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المتوسّط له ، وعُظمت فرحته ، كما هو شأن ابن هود [1] حين كتب الى مجاهد أبي الجيش الموفق [2] يقول : " واني منذ استنجحت فيما كنت أحاوله من ذلك الأمر ببركة سفارتك ، واستظهرت عليه بسعادة وساطتك ، .... لم أزل أشيم تباشير النجح لائحة .... الى أن تأتّى بحول الله الأمل ، وأنجح العمل ، وأصحب ما كان أبيا ، وقرب ما كان قصيّا .... " [3] ولا بد أن حملا ثقيلا قد أزيح عن كاهل ابن هود ليبدي مثل هذا الابتهاج بنجاح وساطة أبي الجيش ، وليس ذلك من قبيل التكهن فانه يقول ، في مقدمة رسالته بصريح العبارة : " من استضاء بسراج رأيك المسدّد ، واستنجح بيمن سعدك المؤيد .... كان قمينا أن تنجاب عنه ظلم المشكلات ..... " [4]

ولعلنا لا نبعد كثيرا عن الصواب اذا ما ذهبنا الى أن هذه المشكلة التي دعت أميرا مهيب الجانب كأبي الجيش الى التوسط فيها والسعي لحلها ، قد لا تكون الا من نوع التسويات السياسية بين ابن هود وبعض الأمراء الأقوياء الطامعين في بلاده .

ومن الطريف — في السياق الذي نحن فيه — أن نرى ابن هود هذا نفسه يتمزق حسرة ، وينزف ألما ، لما وقع من الوحشة بين حليفيه القويين : مجاهد أبي الجيش صاحب دانية والجزائر الشرقية ، والمنصور ابن أبي عامر صاحب بلنسية . ولعل الذي كان يقض مضجعه أن الخلاف بينهما اذا كُتب له أن يستمر ، فانه قد يُلحق به الأذى الكبير لأنه سيُطلب اليه أن يختار بينهما وذلك ما لن يكون سهلا ولا محمود العواقب . ولنسمع اليه ، وهو يسارع الى تأكيد المودة ، وتقديم الولاء في رسالة وجهها الى مجاهد أبي الجيش : " نحن وان قصرنا بالمخاطبة ، وأغببنا بالمكاتبة ، محافظون على العهد القديم ، معترفون بالحق الكريم ، معتقدون للفضل العميم ، شاكرون لله تعالى على المحبة السنية فيك والنعمة بك " [5] .

---

(1) سبق التعريف به .
(2) مجاهد أبو الجيش الموفق بالله مؤسس دولة الصقالبة في دانية والجزائر الشرقية .
(3) و(4) ذ : 1/3 ، ص : 420 .
(5) نفسه : ص : 419 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد هذا المدخل الذي أوسع فيه مراسله مدحا واطراء ، وقضى به حقوق التحية والتبجيل يشير الى ما يثير همومه بقوله : "إلا أنه كدّر نعمتنا ، وصفو المعيشة عندنا ، وأقلق دعة النفوس ، وشرد وسن العيون ما ترد به الأنباء من الوحشة الواقعة بينك وبين المنصور أيدكما الله "(1).

وواضح جدّا أن الخلاف بين مجاهد وابن أبي عامر له وقع مباشر على حياة ابن هود ، ومفعول عميق الأثر في نفسه ، فلذلك يصرح بأنه يتأثر به كما يتأثر الطرف المعني ... لا الهوية المشاهد له والمتفرج عليه . وأي شيء أبلغ في الدلالة على ذلك من أن تكون الوحشة بينهما تكدر صفو المعيشة ، وتقلق النفس ، وتطرد النوم عن الجفون ... وهل يبقى له من مخرج الا محاولة الصلح بين المتخاصمين بالسعي الى اعادة الألفة بينهما ، متوسلا الى ذلك باضفاء جلباب سابغ من القداسة على حلفهما لأن فيه اعزازا للاسلام ونصرا المسلمين . وهذا ما يقوله ابن هود في رسالته : "رغبة في الألفة بينكما ، وحرصا على تمام النعمة للمسلمين فيكما ، فأنتما فئة الاسلام ، وعمدة الأنام ، ومتى اضطرب لكما حبل ، وانصرم منكما وصل ، فشمل الكل شتيت ، وو صل الجميع مبتوت . فالله الله في الدين أن يألم بكما ، والحرمة أن تذهب بينكما ، فالعيون في الصلاح انما كان سموها اليكما ، فما ظنكما بالمسلمين وقد أصيبوا في مستقر آمالهم ، وجدت الاستحالة حيث كان الرجاء في صلاح أحوالهم ".(2)

واذا وجدنا ابن هود يغري الأميرين المتخاصمين بالتوافق والتفاهم خدمة للاسلام والمسلمين في الأندلس ، من أجل تحقيق منفعة شخصية مؤكدة : لوقاية مملكته من آثار ذلك الخلاف ، فليس معنى ذلك أن ملوك الطوائف لم يكونوا يعون خطر القوة النصرانية الصاعدة ، أو أنهم لم يكونوا مخلصين — في الكلام على الأقل — لدواعي الأخوة الاسلامية التي توحدهم مشاعر الانتماء اليها كلما أنذرت الآفاق بمحنة وشيكة . وعندما تعبث المصالح العاجلة بهؤلاء الأمراء المتناحرين ، ويلجأ كل واحد منهم الى الاستعانة على خصمه بجيوش النصارى التي تثخن في المسلمين و تعيث في أرضهم فسادا ، فانه كان يوجد من بينهم من يستنكر مثل

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 419 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه التصرفات الخرقاء ، فيخاطب نظراءه بما تبقيه الإحن والترات من بقايا العقل والحكمة . وكأن ضمير الأمة الخامد في تلك الأزمنة الصعبة يصحو في أويقات قليلة ليُسمع الحكام صوت الصواب .

من هذا القبيل رسالة وجهها حبوس[1] صاحب غرناطة الى بعض ملوك الطوائف[2] يستنكر فيها مثل هذه الاستعانة بالنصارى على المسلمين . يقول فيها : " واتصل بي .... أنكم اضطررتم الى اخراج كل فريق منكم النصارى الى بلاد المسلمين ، فنظرت في الأمر بعين التحصيل ، وتأولته بحقيقة التأويل ، فعظم قلقي ، وكثر على المسلمين شفقي ، في أن يطأ أعداؤهم بلادهم ، ويوتموا أولادهم ، ويتسع الخرق على الراقع ، وينقطع طمع التلاقي على الطامع . ولو لم تكن — يا سيدي — الفتنة الا بين المسلمين ، والتشاجر الا بين المؤمنين ، لكانت القارعة العظمى ، والداهية الكبرى ، فاذا تأيدنا بالمشركين ، واعتضدنا بالكافرين ، وأبحناهم حرمتنا ، وملحناهم قوتنا ، وقتلنا أنفسنا بأيدينا .... كانت الدائرة أمض ، والحيرة أرمض ، .... والأوزار أثقل ، والمضار أشمل ، والله يعيذنا من البوائق ، ويسلك بنا أجمل الطرائق ".[3]

لقد حق لصاحب الرسالة أن يغضب مثل هذه الغضبة لأحوال المسلمين ، وما آلت اليه من تدهور وسقوط لم يسبق لهما مثيل . على أننا نعرف جيدا أن هذه البوائق هي التي ستزداد استفحالا ، حتى يغدو قتال المسلمين بجيوش النصارى أمرا شائعا لا يكاد يشعر أي استنكار أو استغراب في أوساط الحاكمين ....

ما أكثر الأغراض التي تناولها هذا النوع من النثر السلطاني الموقوف على الجوانب السياسية من المبادلات التي تتم بين الأمراء . وقد نطيل لو أحببنا أن نقف عندها جميعا ، ولكن ذلك ليس من شرط هذا البحث الذي يرمي الى استيضاح

---

(1) حبوس : مؤسس الدولة الزيرية في غرناطة . سبقت الاشارة اليه .
(2) في الذخيرة انه ابن منذر ، ولم يذكر ابن عذارى ملكا من ملوك الطوائف بهذا الاسم
(3) ذ : 2/1 ، ص : 627 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit.

ملا مح هذا النثر ، ورسم قسماته البارزة . وليس السعي الى الاستقصاء الشامل والاحصاء الكامل . على أنه يبدو أننا لن تكتمل لدينا الصورة التي أردنا ابرازها لهذا الضرب من الانشاء السلطاني اذا لم نقف عند ظاهرة فرار بعض رجال الدولة من الممالك التي كانوا يخدمونها ، والتجائهم الى بعض الممالك الأخرى ، مما يشبه ما يعرف في العصر الحديث " باللجوء السياسي " . وتَحكُمُه اليوم قوانين دولية محددة ، ومعاهدات تبرم بين الأطراف المختلفة .

وليست ظاهرة تحول الرجل من مملكة الى أخرى هو الذي يلفت الاهتمام ، فذلك أمر عادي لاغرابة فيه ، وانما الذي يستحق العناية ، لأنه يدخل في باب من أبواب العلاقات السياسية التي نحن بصدد بحثها ، هو ردّ الفعل الصادر عن الأمير المستقبِل ، وطبيعة تصرفه أمام الغضب الذي لابدّ أن يثيره هذا الفعل لدى الأمير الذي تمّ التحوّل عنه .

ونحن عندنا حالة محددة نحب أن نختم بها هذه الجولة في النثر السياسي وهي الرسالة التي وجهها المتوكل [1] صاحب بطليوس الى المعتمد بن عباد [2] صاحب اشبيلية ، حين انتقل الوزير أبو المطرف بن الدباغ من حضرة الثاني الى حضرة الأول .

لقد بدأ المتوكل رسالته الى المعتمد بتذكيره بسابق ودّ أبي المطرف وتفضيله اياه على سائر الملوك حين بدأ بخدمة مملكته واقتصر على موالاة دولته : " مَنْ تخيّرك — أيدك الله — على سواك ، وأرادك وترك وطنه هجرة الى ذراك ، ... فمجدك يقضي له .... أن تستمر عليه النعمى ... " (3)

وبعد هذا التعميم ، وضرب المثل المطلق يعود الى الحالة المحددة التي يريد بسط أمرها ، فيقول : " وهذه — أدام الله تأييدك — حال فلان ، فانه هجر اليك الورى ، وركب نحوك أعناق الابل والهوى ، وقد كان ظفر بالحظ من دنياه ...

---

(1) المتوكل : عمر المتوكل على الله بن محمد المظفر ، أمير بطليوس من أسرة بني الأفطس.

(2) المعتمد بن عباد ، آخر ملوك اشبيلية ، قضى المرابطون على دولته عام 484 هـ . وقد توفي بمنفاه في أغمات سنة 488 هـ .

(3) ذ : 2/2 ، ص : 664 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الا أن الزمان مِن بثّ العصم ، واحالةِ النِّعم ، والقطع بذوى الآمال والهمم جارٍ في سننه الذميم ..."[1] ويمضي في الاعتذار له على هذا النحو ، ويعد أن يشدد في رجاء الصفح عنه يلقي مسؤولية مادفعه الى الهجرة والتحول على مساعدى الأمير وأعوانه في تسيير لشؤون المملكة " وانما أتى ذلك التَّعدِّي لا محالة من جهة المتولي ، لأن قدرك – رفعه الله – منزّه عن ارتجاع موهوب ولو عظم ، ومعاملة خادم باستصفاء مكسوب وان ظلم ..."[2].

وان أجمل محاماة عن هذا الوزير المهاجر قد جاءت في حشو الرسالة حين قال صاحبها : " وحين جدّ به الجد العاثر .... في الانزعاج من جنابك ، ومفارقة العصمة من ملازمة ركابك ، وخدمة بابك ، لحق بحضرتي – طاعتك – يعتقد ، وحق ما اعتقده ، أنه لم ينفصل عن جماعتك ، ولا تحول الا الى أعمالك ...."[3]

ولا بد أن منطقا كهذا يرضي كبرياء المعتمد ، وأن حجة كهذه كفيلة بتسكين سورة غضبه . ألم يجعل المتوكل مملكته جزءا من بلاد المعتمد ؟ ألم يجعل نفسه عاملا من عمّاله ، وواليا على مقاطعة من مقاطعات امارته ؟ ولم ذلك يا ترى ؟ في الاجابة عن هذا السؤال يكمن بيت القصيد ، ذلك أن دولة المعتمد في اشبيلية كانت في أوج قوتها ، وكان يفهم أن يتهافت كل طامح الى المجد وطامع في السيادة على عتبات بابه يرجو أن ينال منهما أكبر حظ بوهس المعتمد وانتمائه . أما أن يهرب رجالات دولته الى الممالك المجاورة ، فذلك ما لا يمكن أن يسكت عنه . ولعله قد بادر الى تهديد المتوكّل والتشديد عليه في طرد أبي المطرف بن الدباغ ، ولذلك أسرع صاحب بطليوس الى الاعتذار والتودد ، بل لعلّه بعث بسفيره يشرح أبعاد احتضان المتوكل لهذا الرجل ، ويطلب العفو له على ما بدر منه ، أو ذلك ما نستشفه من قوله في آخر الرسالة المذكورة : " وعند الوزيرِ الكاتبِ أبي طالب من بسط هذه النكتة ما أنت بمعاليك تقتضيه منه وتستونيه . وتأتي متفضلا من الايجاب فيه ، بما يليق بسوددك الأثيل ، وقصدك الجليل "[4]

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 665 .
(2) و (3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا أمر ما يرى المتوكل أن الاستجابة لهذا الرجاء يعد خدمة جليلة ، ويدا بيضاء تضاف الى سابق الخدمات والأيادي : " واضعا بذلك عندي يدا تشف على متقدم أخواتها ، وتمتف بالتمييز عن معارضتها من جميع جهاتها "(1) .

هذا جانب من الاتصالات بين الأمراء في الأندلس ، ذو طابع سياسي بيّن كما اتضح لنا ، وهو جانب أولوه كبير عنايتهم . على أن هناك نوعا آخر من الاتصال يشبهه في نتائجه ، ويختلف عنه في أسلوبه لأنه يومي أساسا الى تبادل المعلومات .

ب : المخاطبات الاعلامية .

تشهد النصوص الوافرة التي بين أيدينا على أن ملوك الطوائف كانوا يحرصون أشد الحرص على تبادل المعلومات فيما بينهم ، وإخبار بعضهم بعضا بكل الحوادث التي تقع عندهم والتي يقدرون أن في اعلام الأطراف بها نوعا من المصلحة لهم ولحلفائهم بوجه عام . واذا كانت المبادلات السياسية ، التي كنا قد استعرضنا بعض نماذجها ، تدل على علاقة من نوع خاص بين المتراسلين ، فان المخاطبات الاعلامية هي واحدة من الطرائق التي تنمّي الثقة بين الأطراف المتخاطبة ، وتطوّر العلاقات شيئا فشيئا حتى قد تبلغ بها — اذا واتتها الظروف — مستوى التنسيق والتحالف .

وكيفما كانت الحال فان الذى لاشكّ فيه أن تبادل المعلومات على هذا النحو ليس عملا حياديا لا يرمي الى أبعد من تزويد المخاطب بعدد من الأخبار والوقائع ، بل الحق انه عمل يدلوي على بعد سياسي مؤكد قد يهدف المبادر به الى تخويفٍ أو انذارٍ ، أو تحذيرٍ أو استطلاعِ رأي طرف من الأطراف ، واختبار استعداداته وما الى ذلك مما لا يحصى من المآرب التي قد تُقضَى بواسطة صيغة اعلامية تبدو لأول وهلة — في منتهى البساطة .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 665 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن أشهر الحالات التي نجد فيها الملوك يتراسلون للاعلام بها ، وابلاغ نظرائهم بتفاصيلها ، الانتصارات التي يحرزونها على أعدائهم في المعارك التي تدور بينهم . فاذا كان الانتصار قد تمّ على فرقة من جنود النصارى فان تبليغ أنبائه يكون حينئذ وسيلة لاستصراخ أسباب القوة وتعظيم الملك .

ومن الرسائل التي تصلح للتعبير عما نحن بصدده ، الرسالة التي وجهت عن المعتمد بن عباد الى ابن صمادح[1] وهي التي يروي له فيها وقائع معركة من معارك لييّط[2] التي استطاع فيها جيشه أن يصدّ فرقة من النصارى المهاجمين . وهو يبدؤها باظهار رغبته في أن يشاركه نعمة هذا النصر ، ويقاسمه البهجة باحرازه " انما أشاركك — أيدك الله — في النعمة بأسوغها ، وأطالعك في المهمة بأبلغها .... "[3] ثم يأخذ في قص وقائع المعركة عليه : " وقد جرى بين فرسان من النصارى وبين سرعان من الجند — نصرهم الله — .... تناوش أطمع فيهم ، ودل بأنه قد سقط في أيديهم ، ثم صوحوا يوم كذا بالحرب ، وكرهوا الى أخوة بالضرب ، بالطعن والضرب ، وانصرفوا ولاذوا بالانجحار ، واحتجزوا بالجدران والأسوار .... وفي خلال ذلك ما أمرت بشربهم فغورت منابعه ، وقطعت مشارعه ، وحصلوا منا ومن العطش تحت محاربتين : ظاهر وباطن ، .... "[4].

ونحن لانقتطف من هذه الرسالة — وهي طويلة — الا هذا القدر لأنه كاف في الدلالة على ما قصدنا اليه من بيان الحالة النفسية للكاتب وهو يصف هذا الصدام المحدود ، الذي لايعدو أن يكون مناوشة صغيرة ، وكأنه معركة حاسمة .

والذي تجدر الاشارة اليه أننا نملك جواب ابن صمادح على هذه الرسالة

وهو يدل على أن رسالة المعتمد قد حققت هدفها من التفخيم والتعظيم ، كما يظهر ذلك في قوله : " والحمد لله تعالى على ما منح مُتَجِيِّنٌ ، وموضح الضراعة اليه في

---

(1) ابن صمادح ، هو المعروف بالمعتصم ، أمير المرية من 443 الى 484 هـ .
(2) لييّط ، ويرد احيانا باسم لبيط ، حصن بين لورقة ومرسيه ، كان قد حاصره يوسف ابن تاشفين ولم يستطع استعادته رغم تجمع جيوش الطوائف لديه ، لما دب بينهم من الخلاف والتحاسد . انظر تفاصيل ذلك عند يوسف أسباخ ، ص : 91 .
(3) و (4) ذ : 2/1 ، ص : 262 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الازدياد ظاهرتين ، على ما أولى من نعم ، أظهرت الاسلام بعد خمول ، والشكر له على قسم أعزت الدين وقد كان جد ذليل ".(1)

ومن الثابت في التاريخ أن هذا مجرد تصريح لاغناء من ورائه ، وأن الواقعة التي أثارت هذه الحماسة الجوفاء ليست الا مناوشة لاقيمة لها ، وأن الحقيقة أن جيوش المسلمين الأندلسيين لم تستطع ، هذه المرة ، أن تقهر عددا قليلا من النصارى المحتمين بحصن لييط الواقع في قلب بلاد المسلمين(2).

اذا تجاوزنا هذا الغرض ، الى غرض آخر يكون التعبير فيه أقرب الى الحقيقة ، وأصدق في تمثيل أحوال المسلمين وقتئذ في هذه البلاد ، كان من أول مايطالعنا أنباء الثورات والفتن التي تقع بين المسلمين ويتصدى أمراؤهم للقضاء عليها . ونحن نرى ملوك الطوائف يسارعون الى اعلام بعضهم بعضا بوقوعها ، ثم يتبادلون أنباء انتصاراتهم فيها حين يحققون فيها ما يعدونه انتصارا .

ومن هذا القبيل ما كتبه المعتمد بن عباد الى ابن صمادح أيضا اثر دخول ابن عكاشة(3) مدينة قرطبة ، وقتله ابن المعتمد فيها وهو الملقب بالظافر . فهو يبدأ رسالته اليه بالتفجع والتحسر : " كتبت على اثر النازل الشنيع ، والرزء الفظيع الذى صدع كبدي .... وأثكلني من كان القرة لعيني ، ما جرى على الفقيد الشهيد عباد ، ابني ...... رحم الله مصرعه وبرّد مضجعه .... "(4) ثم يأخذ المعتمد في شرح هذه الحادثة بايراد الكثير من تفاصيلها ، فيقول : " وشرح هذه الناجمة ، والناصعة الماجمة تسببت من مثابرة العدو المبين المفتون ، جاري الذميم

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 264 .
(2) راجع ما كتب في الهامش المتقدم والاحالة على كتاب يوسف أشباخ .
(3) انظر تفاصيل الفتنة كما يرويها ابن بسام في الذخيرة 2/1 من 263 الى 272 . وانظر أيضا نفح الطيب ، نقلا عن قلائد العقيان ، ج 1/ 623 ــ 627 .
(4) ذ : 2/1 ، ص : 266 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجوار[1] القبيح الآثار ، ومجاهرة الفاسق المعروف بابن عكاشة ، دليله في سبيل التسلط والعدوان .... طلب الغرة في قرطبة حتى أصابها .... الخ "[2]

والذي تجدر ملاحظته أن في آخر الرسالة اشارة واضحة الى الغرض الاعلامي ، وحرص ابن عباد على نقل هذه المعلومات الى ابن صمادح ، وذلك حين يقول : "بادرت الى عرض ما وقع على فضل تأملك ، لترى جد هذا العدو المطالب ، المشاقّ المناصب ، واكبابه على التسلط والتمرّد ، الى أن انتهك الحرمة ووتر في الواحد"[3] .

وكما هو متوقع ، فان المعتمد ماكان يستطيع أن يصبر طويلا على هذه الاهانة البالغة : خيل عدوه تقتحم مدينة هامة من أعماله ، فيقتل نبيها ابنه ، وتخرج هي من سلطانه .... ان حادثا أقل من هذا بكثير ، كفيل بأن ينال من هيبة المملكة ، ويغري كل طامع بامكانية التعرض لها بما شاء من الأذى . ولذلك كان لابد أن يعجل ابن عباد بمعاقبة المذنبين ، والثأر لولده القتيل . وقد فعل . واذا كان قد سارع كما رأينا — في الأول — الى ابلاغ أحد نظرائه أنباء ما وقع في قرطبة ، فانه — في هذه المرة أيضا — لايتأخر عن الاعلام بآثار ردّ الفعل .

على أن الجديد ، هذه المرة ، أن رسالة الاخبار بعودة قرطبة وقتل ابن عكاشة الثائر فيها ، لانجدها موجهة الى ملك معين ، كما كان شأن الرسالة الأولى ، وكأنما هي "منشور" أو " تعميم " بمصطلحات الادارة الحديثة ، وجّهه الملك المنتصر على أعدائه الى كل الملوك الذين يعنيهم الاطلاع على وقائع الحادثة ، وتهمهم معرفة أنبائها .

وهذا الكتاب يبدأ بالنص على أن قرطبة — وهي كانت حضرة الأندلس — عادت الى مملكة بني عباد : " وأنقذته عندما عادت الحضرة الى يدي ، وانتظمت ببلادي ، على صورة من التيسير ضاعفت حسن مواقع العارفة بها"[4] ، ثم تعرض الرسالة الى طاعة أهل قرطبة ، ومحبتهم بني عباد ، وهي طريقة في تأكيد ولائهم ليظهر ابن عكاشة

---

(1) يشير بهذه العبارة الى ابن ذي النون ، صاحب طليطلة ، وانظر ما كتبه ابن بسام عن العداوة بينهما في ذ : 1/2 ، ص : 263 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 267 .
(3) نفسه ، ص : 263 .
(4) نفسه ، ص : 272 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بمظهر المارق المنحرف . ثم يأتي القسم الوصفي وهو الذى يحفل بتفاصيل المعركة ، ويورد جزئياتها الكثيرة ، مثل قول الكاتب : " فاقتحمت من النهر مخاضة توازي الربض الشرقي منها ... وأحس ابن عكاشة ومن معه من الشيعة المفلولة بمكاني ففروا بأرواحهم ، وألقوا ما كان معهم من سلاحهم ...."(1)

غير أن أهم خبر في الرسالة إنما هو مقتل ابن عكاشة ، وهو خبر يؤخره بعد كل هاتيك التفاصيل ، ويختم به الرسالة ليكون وصف الانتصار مستكملا لكل أساليب التأثير(2).

كان هذا نموذجا من الرسائل التي تعرض الى قمع أنباء الثورات وحالات العصيان والتمرد ثم محاربتها والقضاء عليها،وعندنا نوع آخر منها وهو ذلك الذى تتعلق فيه الرسائل بذكر الوقائع التي تؤدي الى القضاء على ممالك بأسرها ، والغاء امارات من الوجود ، والحاقها ببلاد الملك المنتصر في حربها .

من ذلك ما وقع عندما استولى المعتمد بن عباد على مُرسية ، وأخرج أصحابها بني طاهر(3) منها ، والحقها بالبلاد الخاضعة لسلطانه ، فقد كتب رسالة ، لم يُذكر ملكٌ بعينه وُجّهت اليه ، مما جعلنا نقدر لها أيضا أن تكون من قبيل " المناشير " و " التعميمات " كسابقتها ، وهي صيغة يبدو أن بني عباد كانوا كثيرى الاستعمال لها ، لأنهم كانوا أقوى ممالك الطوائف ، فكانوا ربما أباحوا لأنفسهم من أساليب المخاطبة مالا يبيحه غيرُهُم لنفسه .

وتبدو مقدمة الرسالة حريصة على ازالة كل لبس ممكن يأتي من سوء تأويل ما حدث ، وذلك واضح كل الوضوح في هذه الأسطر الأولى منها : " وها أنا أعرض عليك من باطنها ما ربما خفي ، وأنهي اليك من نجواه ما لعله لم ينم على وجهه ولا أنمي"(4) وبعد ذلك يذكر الأسباب الحقيقية التي أدت الى ما أدت اليه ، وهي أنه كان مترددا في اعلان ولائه لبني عباد ، أو ذلك ما تدل عليه عبارة " وصاحبها مع ذلك عَمٍ عن رشده ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى في إعطاء صفقة يده "(5) ولكي لا يبدو المعتمد في صورة

(1) ذ : 1/2 ، ص : 273 .
(2) انظر أجزاء الرسالة الباقية في ذ : 1/2 ، ص : 273 .
(3) بنو طاهر : أمراء مرسية . وانظر أخبار القضاء على دولتهم في ذ : 1/3 ، ص : 24 ...
(4) ذ : 1/2 ، ص : 273 .
(5) نفسه ص 274 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعتضدي الظالم فانه يشدد في النهاية على أنه لم يزد على أن حقق رغبة أهالي مُرسِية ، ولم يَشُذّ الاستجابة لِنِدائهم ، فلذلك " أظهر أهل البلد من الاغتباط بمألمهم ، والاستبشار بمفاتحة حالهم ، ما يُظاهِر من خرج من ضيق الى سعة ، وانتقل من حرج الى دعة "(1) رأي عذر يهرب اليه من يفصل فعل المعتضد اذا لم يلجأ الى الشعب يستمد منه شرعية تصرفاته ، مع أن ارادة هذا الشعب المسكين هي آخر ما يُلتفت اليه في هذا البلد المشتتة صفوفه . . .

ولعلّ أبرز ما يميز كل بلد تنزل به الكوارث التي نزلت على الأندلس في هذه الفترة ، وتبلغ فيه الخلافات ذلك المبلغ الذي لا تكاد الكلمات تفي بوصفه ، أن علاقات الناس فيما بينهم تفتقد حينئذ الى أبسط عناصر الثقة التي لا بدّ منها لحصول الطمأنينة في المجتمع ، فيشيع الغدر ، وتكثر المؤامرات . فاذا تجاوزت كل الحدود وبلغت الى فصم وشائج القربى المقدسة ، فلم يرع الابن حق الأب ، ولا الأب حقوق الابن ، ودواعي الصفح عليه ، ولا حقوق الأخ على أخيه ، فتلك اشارة لا تخطيء في الدلالة على نوعية الأزمة في المجتمع : انها أزمة الأخلاق ، وتلك علامة الانهيار المحتوم .

ولقد حمل نثر المخاطبات الاعلامية أصداء هذه الأزمة ، وأبلغنا قدرا من تفاصيلها المُحيّرة ، مما نبا دل الملوك أنَباءَهُ فيما بينهم . من ذلك أن المعتضد(2) ابن عباد قد قتل ابنه اسماعيل(3) فبعث بوسائل اعلامية الى ملوك الأندلس يخبرهم بهذا النبأ الفظيع ، منهم ابن أبي عامر صاحب بلنسية ، ومنهم ابن مجاهد في الجزائر الشرقية ، وقد احتفظت لنا " الذخيرة " برديهما وفيهما معاني التألم لهذا المصاب والتعزية بالفاجعة . وقد احتفظ لنا ابن بسام(4) بالرسالة الاعلامية التي وجهها المعتضد الى ابن أبي عامر(5) المذكور ، وهي تبدأ على هذا النحو :

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 273 .
(2) المعتضد : والد المعتمد بن عباد . وقد سبق التعريف به .
(3) انظر تفاصيل هذه الحادثة وظروفها التاريخية في الذخيرة نقلا عن ابن حيان : 3/1 من 143 الى 143 .
(4) ابن بسام : أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، مؤلف كتاب الذخيرة ، توفي نحو 542 هـ .
(5) ابن أبي عامر : حاكم بلنسية وهو من سلالة الحاجب ابن أبي عامر الشهير .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وطرأت علي ياسيدي .... من خطوب الأيام طارئة دهياء دهماء ......
ثارت الي من مكمني ، وطلعت علي من مأمني ... " الخ [1] وهي رسالة بليغة من انشاء أبي محمد بن عبد البر [2] طويلة تجاوزت خمس صفحات من كتاب الذخيرة المطبوع. وقد أنهيت باعلام المخاطب بتعيين ولي جديد للعهد ، بعد قتل اسماعيل الذي كان عُيّن لذلك . وهي رسالة تدل على عمق مأساة أبٍ يعامل ابنه معاملة العدو، فيشتط في العقاب حتى لايصرفه عن قتله أي اعتبار من الاعتبارات !..

وعندنا أيضا من أنباء الغدر ما يقع بين الاخوة المتصارعين حين تُحمي المصالح الآنية بصائرهم ، وتقتل فيهم ارادةُ الحكم أسمى المشاعر الانسانية . فقد كتب يوسف ابن هود [3] الى ابن جهور [4] كتابا اعلاميا يبثه فيه بالكيفية التي حاول بها أخوه أحمد [5] أن يقضي عليه ، وذلك أنهما " أبْرَما عقدة السلم " بينهما بعد منازلات كثيرة ، ثم اتفقا على مكان يلتقيان فيه للتفاوض ، والاتفاق على ترتيبات الأمن، فاذا بجماعة من الفرسان يندفعون الى الفتك بيوسف الذي لم ينج الا بسرعة بديهته، وفطنة خدمه الذين أسرعوا اليه ....

وقد ذكر يوسف في آخر الرسالة حرصه على اعلام حلفائه بهذه الوقفة فقال :
" فرأيت مساهمة الأولياء والحلفاء بصفة الحال ، وعرضها من المبدإ الى الكمال " [6]...

ومن أمثلة الغدر بين الأخوين أيضا ما يقع بين ابني مجاهد [7] ، فقد كتب عليٌّ إقبالُ الدولة ، الى ابن أبي عامر صاحبِ بلنسية يطلعه على تصرفات أخيه حسن ، الذى

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 133 .
(2) أبو محمد بن عبد البر : الوزير الكاتب ابو محمد ابن الفقيه أبي عامر . وانظر تفاصيل اقامته عند ابن عباد في ذ : 1/3 ، ص : 124 .
(3) يوسف بن هود : هو حسام الدولة صاحب لاردة الذى تغلب على أخيه أحمد صاحب سرقسطة .
(4) ابن جهور : أسرة بني جهور حكمت قرطبة بعد الفتنة ثم قضى عليها بنو عباد وضموا قرطبة الى مملكتهم .
(5) أحمد بن هود : كان يريد أن يستقل بمملكة بني هود بالكيد لاخوته . ولكن أخاه يوسف تغلّب عليه .
(6) ذ : 1/3 ، ص : 426 .
(7) ابنا مجاهد هما : يوسف الملقب "اقبال الدولة" وهو الذى خلف أباه مجاهد الموفق بالله ، وأخوه حسن الملقب "سعد الدولة" . وقد قضى بنو هود على هذه الامارة وضموها الى مملكتهم سنة 463 . انظر ما كتبناه عن ملوك الطوائف في الباب الأول ، الفصل الأول .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان قد بايعه في الأول كما بايع الناس، وأقسم على طاعته، ولكنه " داخل صاحب اشبيلية[1] في الغدر والخلاف .... فأجمعوا أيديهم ... وأزمعوا كيدهم، ..... وتوخوا صدري من صلاة الجمعة .... فما استيقظت الا لصفح صفائحهم تُشْلَت عليّ، ولا انتبهت الا لضوء رماحهم تُشرَع الي، الا أن الله كان بازائهم ظهيرا، وتلقاني نصيرا ..."[2].

ان هذه الرسالة لتتضمن كل معطيات الغدر السياسي الذي كان شائعا في البلاد الأندلسية خلال هذه الفترة من تاريخها: نزاع بين الأقارب على خلافة الأمير الهالك، وتدخل أطراف سياسية أخرى تريد أن تحقق أطماعها القديمة في إضعاف تلك المملكة أو الحاقها بها، وتآمر على قتل الجالس على العرش انطلاقا من عواطف الكراهية والحقد الشديدة التي لا ترعى حتى للأماكن المقدسة حرمتها ....

والمهم - فيما يعني بحثنا الآن - أن هذا كله مادة صالحة للمخاطبات الاعلامية، وتبادل الرسائل الاخبارية التي رأينا أن أكثرها يدور على الثورات والفتن، والاضطرابات الداخلية، كما أنها قد تحمل أنباء الانتصار حين تتأتّى ظروفه ولو كان قليل الوقع مبيّن النتائج. والظاهر أن ملوك الطوائف كانوا قد آمنوا بقيمة هذه المبادلات وأحسنوا تقدير أهميتها في تطور العلاقات فيما بينهم، ولذلك فنحن لا نستغرب أن يتعاطوا كلهم تبادل المجاملات وأن يكثروا من الاتصالات الودّية كلما أتاحت لهم الظروف السياسية والمناسبات الاجتماعية ذلك.

جـ = الاتصالات الودية

ان هذه الاتصالات الودية هي ما يمكن تسميته باخوانيات الملوك، فهي تحمل المشاعر التي يتبادلونها في بعض المناسبات الاستثنائية سواء كانت ذات طابع سياسي أو اجتماعي، وهي، في جميع الحالات، لا تعدم صلة ما بالحكم والشؤون السلطانية، لأن المتراسلين امّا أن تكون بينهم علاقة ودية راسخة، فالمجاملة بينهم تأكيد

---

(1) صاحب اشبيلية: يعني به ابن عباد.

(2) ذ: 1/3، ص: 169.

لتلك العلاقة وتمكين لها ، وأما أن لا تكون ، فيبادر طرف ما بالمراسلة لوضع اللبنة الأولى في بناء لابد أنه ينتظر من ورائه فائدة يجنيها أو مصلحة يقضيها في يوم من الأيام .

ولعلّ واحدة من أقدم طرائق التقارب والتوادد بين الملوك هي التي تتمثل في إصهار بعضهم الى بعض ، فان الزواج يوثق عُرى القرابة بينهم ، ويجعل منهم أسرة واحدة . ولدينا عن مثل هذه العلاقة زواج ابن صمادح [1] من بنت علي بن مجاهد . وقد بعث الثاني برسالة الى الأول يذكر له معاني هذه القرابة : " قد انتظمنا — أيدك الله — انتظام السلك ، وشرعنا عن مشارب الحال الجامعة لنا قذاة كل شك وافك ، .... وأنفذت الهدية المقتناة محفوفة بالحرم والمحارم ، مكنوفة بالكرائم ثم بالاعلام الأكارم .... [2] .

وفي القسم الثاني من الرسالة يوصيه بها خيرا بقوله : " ثم حسبي عليها كرمك وكنفك ، وخليفتي عليها برك ولطفك ، فهي الآن ملكك وأنت الكريم المشجع .... " [3] ثم لا ينسى أن يلمح الى قيمة هذه " الهدية " التي خصه بها وجعلها من نصيبه ، وذلك حيث يقول : " وعندك ثمرة النفس، وفلذة الكبد ، فارقتها عن شدة ضنانة ، وأسلمتها بعد طول صيانة .... " [4] . وهي رسالة ، كما نرى ، ذات طابع ودي ، دون أن تعرى تماما عن كل اشارة تسلك بها دربا من دروب السياسة . والطريف في هذه الحكاية أن ابن مجاهد ظل يتشوق الى بنته وهي عند ابن صمادح ، ويذكر حنينه اليها بعبارات لم نألف وجود مثلها كثيرا عن الآباء العرب حين يذكرون بناتهم . وفيما يلي فقرة من رسالة ثانية ، بعث بها الى ابن صمادح ، تبين ما ذهبنا اليه . قال : " الى أن ترع ما قرع من لوعة الفراق ، ولذع من روعة الاشتياق ، وأنا أظن أن ذلك عاقبة الصبر تغلبه ، والجلد يعقبه ، وان انصرام الأيام ينسيه ويذهبه ، فاذا هو قد أفرط وزاد ، وغلب أو كاد ، حتى

---

(1) ابن صمادح : سبق التعريف به .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 127 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في السلو، ومنح الصدو، وتعدى اللذع الى الاحراق . . . ويتصور لي أن قطعة مني بانت منفصلة عني، وأن جزءا من أجزائي ذهب بصبري وعزائي . . ."[1].

أليست هذه لهجة تستغرب حين تصدر عمن يتشوق الى الأنثى من أولاده ؟ أليس المقصود منها بيان قيمة تضحية ابن مجاهد حين زوج بنته لابن صمادح ؟ وأن المطلوب هو " علاقة سياسية " تكافيء العلاقة الودية بينهما ! ذلك ما توحي به الأقسام الأولى من هذه الرسالة على كل حال حين يقول ابن مجاهد لصهره : " وقد توغلت معك في أسباب الألفة، وهتكت بيني وبينك ستار المراقبة والكلفة، فأنا أستريح اليك بخفيات سري، وأجلو عليك بثيات صدري . . ."[2].

ومن أمثلة المراسلات التي دارت مضامينها على معنى من معاني العلاقات الودية ما نجده يدور على صلة الأمير أبي عبدالرحمن ابن طاهر بابن عباد، وما أفضت اليه من تطورات ومضاعفات انتهت بالقاء القبض على ابن طاهر والقضاء على الامارة التي أقامها في مرسية [3].

فمن وجوه هذه العلاقة : الكتاب الذى بعث به ابن طاهر الى المعتمد بن عباد يعرض عليه فيه مودته، ويذكره بالصلة التي كانت بين أبويهما في سالف الأيام. يقول : " ان الزمان اللدن الذى انقضى وامحت صورته الحسنى نظم بين ذى الوزارتين : القاضي جدك، وبين أبي مولاى كان رحمه الله عقد الصلة، وأبرم بينهما حبل الخلة، الى ان امتزجت بينهما الحال امتزاجا، وكان كل واحد منهما لنفس صاحبه غذاء ومزاجا "[4]، وتدل هذه الرسالة على أن ابن طاهر هو الذى كان في موقف الضعف فهو الذى يخطب ود ابن عباد، وهو الذى يعرض صداقته عليه. ولنستمع اليه وهو يقول له : " فلما اطمأنت بك قدم الرياسة، واستقرت منك في شخص السيادة والنفاسة، جعلت الهمة تتطلع، والارادة مني تنقاد وتتبع في الالمام بمداخلتك، والتسبب لمطالعتك . . . ."[5].

---

(1) ذ : 1/3، ص : 131.
(2) نفسه، ص : 130.
(3) انظر الأخبار التي يوردها ابن بسام في الذخيرة 1/3، ص : 24 ـ 27.
(4) ذ : 1/3، ص : 45.
(5) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن علاقة ابن طاهر بابن عباد لم تزد بعد ذلك الا سوءا حتى غزاه بجيشه وألقى القبض عليه وقضى على امارته ، ثم كثر المتوسطون لاطلاق سراحه ، فلما أفرج عنه ، راسل عددا من رؤساء الجزيرة الذين كانوا وقفوا الى جنبه في تلك المحنة الشديدة التي ألمت به ، يشكرهم على موقفهم ذاك . فكان من هؤلاء صاحب المرية[1] الذى أرسل يقول له : " واما تخلت مني – أيدك الله – يد الزمان ونوائبه ، وتجلت عني غمراته وغياهبه ، ابتدرت مالمتك ابتدار الفرض ، وهصرت من مجاذبتك بالغصن الغض .... "[2]. ومنهم أيضا ابن هود صاحب سرقسطة ، فقد كتب اليه يقول : " ان الأيام ... أيدك الله ..... رمتني .... بسهامها ، وجرعتني غُصَص حِمامها فكان الله بِسِتْرٍ وَقى ، وصُنع أبقى ... وفي كل حال أخطرتني ببالك ومددت علي من ظلالك .... "[3]

هذه الرسائل وغيرها تأتي كلها في قالب الاعتراف بالجميل لمن وقفوا معه – ولو وقوفا معنويا – ولم يتخلوا عنه ولو بإخْطارِه ببالهم ، كما ورد في رسالته المتقدمة . وكل ذلك في وجه من وجوه الكتابة الودية ، وتبادل المجاملات التي كان ابن طاهر محبا لها .

ومن هذا القبيل أيضا مجموعة من الرسائل التي ضمنها أصحابها الثناء على " الوزير الأجل : أبي بكر بن عبدالعزيز[4] وتقديم الشكر الجزيل له على ما كان من سعيه الحميد ، وجهوده الموفقة لانقاذ أبي عبدالرحمن بن طاهر من ورطته . وهي رسائل عديدة تمثلها أحسن تمثيل الرسالة التي وجهها اليه المؤتمن بن هود ، والتي ورد فيها قوله : " وقد تتابع عنك – أعزّك الله – أحسن الحديث المذيع لخفايا سروك وسرائره ، المعرب عن سجايا سناءك ومآثره ، مذ ابتديت بشرف مسعاك ، لما يسّره الله من حميد مسعاك ... حتى شردت المحنة ، وممست المنحة بتخلص ذي الوزارتين الكاتب الأجل ...... فجزاك الله أفضل ما جازى علما من أعلام الوفاء ، ووفاك أكرم ما وفّى متقدما في أحوال الصفاء ".[5]

---

(1) صاحب المرية : كانت المرية قاعدة ملك خيران وزهير العامريين ثم صارت حاضرة امارة بني صمادح .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 34 .

(3) نفسه ، ص : 35 .

(4) ابو بكر بن عبدالعزيز من وزراء ولقبلنسية ، وانظر أخباره في الذخيرة 3/1 ص : 40–44 .

(5) ذ : 3/1 ، ص : 39 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انها كما نرى نغمة شجية من نغمات الاجلال والتعاظيم لمواقف الوفاء ، وقد أضحى خبره نادرا مستطرفا في بيئة تمتلئ بأسباب الخيانة والغدر والتآمر . ولذلك لم يترفع بعض الملوك عن مفاتحة وزير - د ونهم رتبة - بالخطاب ، وكيل الشكر له ، والثناء عليه مثلما رأينا .

ولسنا نريد أن نطيل في عرض نماذج أخرى من هذه المخاطبات الودية التي هي من الكثرة بحيث لافائدة من حصرها واحصائها ، وانما نريد أن نختم الحديث في هذا الضرب من نثر العلاقات السلطانية بايراد رسالة طريفة لأنها أرسلت من أخ الى أخيه ، فهي ترمز الى أكثر من مجرد التبادل الودّي ، الا أنها تدور على معاني اللوم والعتاب .

فقد لخص صاحب كتاب الذخيرة ظروف هذا التراسل وسياقه بقوله :
"اتصل بالمتوكل(1)، أيام سلطانه بيابره ، أنه قُدح فيه بمجلس المنصور يحيى أخيه (2) فكتب اليه : "كل صديق - أيدك الله - اذا خاطب صديقه ، فأغرب ما يتقلب عليه ، ويسهب فيه لديه أن يقول : أنا كأخيك ...." وبعد هذا المدخل الذي لا نلمح فيه شيئا من عواطف الاخوة الصادقة يبدأ اللوم والعتاب بقوله :
"غير أنه جرى في ناديك أنني أبيح الأحرار والحرائر ، واستصغر المعاصي والكبائر، والله نزهني عن هذا وأبعدني عنه ، فلا قدرة لبشر أن يبسطه بي ويدنيني منه .." (3)
وهذه رسالة تدلّ على ضرب من العلاقات التي تكون بين الاخوة حين تُحكِم الطموحات الى السلطة بينهما أسباب العداوة .

لقد اقتصرنا الى حد الآن على مبادلات الأمراء الأندلسيين فيما بينهم ، وقد اعتبرناهم كيانا واحدا ، مهما بلغت الخلافات والاحن والحزازات فيما بينهم ، وأرجأنا الحديث عن اتصالاتهم بمن هم خارج حدود البلاد الأندلسية ، لأن مثل هذه الاتصالات هي التي تحددها سياسة خارجية ، وبحث في المبادلات التي انتظمتها ، ومضامين النثر الذي صدر عنها .

---

(1) المتوكل : هو عمر بن المظفر صاحب بطليوس ، وقد قضى المرابطون عليه وعلى دولته عام 437 .
(2) يحي أخو المتوكل ، تولى الملك في بطليوس بعد موت أبيه المظفر سنة 456 ، وتلقب بالمنصور ، أما أخوه المتوكل فكان يحكم مقاطعة يابرة .
(3) ذ : 2/2 ، ص : 647 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د = العلاقات الخارجية

ينبغي أن نلاحظ بادئ ذي بدء أننا كنا نتوقع أن نجد سيلا من النصوص التي تدخل في علاقات ملوك الأندلس الخارجية ، بالمعنى الذى حددناه قبل حين ، ولكننا فوجئنا بأنهم لم يكونوا ذوي اتصال مكثف بالعالم الخارجي المحيط بهم ، سواء تمثل به الفرقاء العرب والمسلمين ، أو الأطراف الأوربية والأجنبية بشكل عام . ولسنا ندرى ما هو التفسير الصحيح لذلك ، ولكن يبدو أن الحكام لا يفكرون في " تنشيط " علاقاتهم الخارجية الا بعد الاطمئنان لأوضاعهم الداخلية ، والاحساس بأنهم يتحكمون فيها أتم التحكم . فكأن تطوير العلاقات بالعالم الخارجي ، والسعي الى تحسين الصلات بالأنظمة الأجنبية لا يكون الا في مرحلة ثانية بعد البناء الداخلي . وبديهي اننا لا نقصد بالبناء الداخلي تلك الكيانات المتعددة ، وانما نقصد مجموع الساحة الأندلسية .

على أنه ينبغي أن نشير ، من جهة أخرى ، الى أن تناحر تلك الممالك الصغيرة ، وصراعاتها التي لا تنتهي كانت جديرة بحفز ملوكها وأمرائها الى التطلع خارج حدود البلاد بحثا عن تحالفات جديدة ، وصداقات أجنبية تتيح لهم تحسين مواقعهم ، وتعزيز قواعدهم في خارطة السياسة الأندلسية .

وأيا ما يكون الأمر فان ما بين أيدينا من النصوص النثرية المتضمنة لمعنى من معاني الاتصالات بالخارج تشير الى أربع جهات أجنبية وقع التراسل معها وهي : حكام افريقية بالمهدية وحكام مصر ، والنصارى ، وأخيرا المرابطون .

• الاتصالات بحكام افريقية :

ممن اتصل بأمير افريقية في المهدية : المعتمد بن عباد ، صاحب اشبيلية ، فقد كتب اليه يقول : " انني ـ أيدك الله ـ على ما بيننا من لجج خضر ، وفياف غبر ، لمستكثر من اخائك ، مستظهر بوفائك "(1) . ويبدو من سياق الرسالة أن المعتمد يحاول أن يستدرجه نحو التعاقد والتحالف ، فهو يحرص عليه أن يوفد اليه جماعة من نبلاء مملكته ، أو ذلك ما يفهم من قوله . " ويعلم الله أن ما أملي الأبعد ، وعملي الأحمد ، الا أن يؤم

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 233 .

أفـقك الدالق .... من الخواص النبـلاء ، والأعيان الفضلاء ، من يبلغك كتابـي ، وينوب في انهاء طاعتي اليك منابي "(1).

بيد أنه ينبغي أن نلاحظ أن المعتمد لم يكن هو المبادر بهذه العلاقة ، اذ أن يذكر في رسالته هذه أنه استقبل السفير الذي بعثه صاحب المهدية ، وأحسن ضيافته ، وحمّله هذه الرسالة الى مولاه مما يدل بوضوح على أن زعماء المهدية كانوا يتطلعون الى الأندلس ، وأنهم على كل حال كانوا على اتصال بملوكها .

وممن كانت له علاقة بالمهدية أيضا اقبال الدولة(2) فقد كتب الى المعز بن باديس(3) يتودد اليه بقوله : " أدام بقاء سيدنا الأجل ، رافع أعلام الهدى ، ومحيي كلمة التقوى ، وقوام أمر الدين ، ونظام شمل المسلمين ، وشعار حزب المؤمنين ، وناظر عين الزمان ، وروح جسم الأوان ....."(4) والرسالة كلها على هذا النمط من الاجلال والتعظيم للملك والملكة . وفيها إغراء شديد بتمتين العلاقة به ، من مثل قوله : " وأن مع التجاور ليعلم البيان،ومع التحاور ليطمئن البرهان ، ومع التزاور لـتزول الأحوال ...."(5)

ولأمر ما نرى إقبال الدولة هذا يستمر في مراسلة المُعز بن باديس ويلح علـى الاتصال به ، فنحـن نجده يوجه اليه رسالة أخرى ، تتداخل بعض فقراتها مـع الرسالة المتقدمة ، ولكنها تتميز عنها في كل شيء ، وأوضح فرق بينهما أنه فـي هذه أكثر خضوعا وانقيادا ، وأحرص على ابراز طاعته وولائه حتى انه يقـول فيها : " وقد علم مبتلي السرائر ، وحافظ البواطـن والظواهر أنها بصيرتـي التـي استشعر ، وسريرتـي التي أضمر ، وحقيقتي التي أخفـي وأظهـر ، .... وأن مقالـي كفيل فعالي في موالاة سيدنا ـ خلّد الله ملكه ـ على طول المدى ..."(6) ، فمن

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 233 .
(2) اقبال الدولة : هو علي بن مجاهد صاحب الجزائر الشرقية . وقد تقدم التعريف به .
(3) المعز بن باديس : بن المنصور الصنهاجي (398 ـ 454) تولى افريقية مـن قبل الفاطميين ثم خرج عليهم ، فأرسلوا اليه اعراب بني هلال وبني سليم لتأديبه .
(4) ذ : 1/3 ، ص 245 .
(5) نفسه ، ص : 246 .
(6) نفسه ، ص : 362 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان ما يلقاه اقبال الدولة من تضييق ابن عباد عليه هو الذي دفع به الى الارتماء في أحضان المعز بن باديس ؟ ربما كان ذلك صحيحا . وكيفما كانت الحقيقة فان الذي لاشك فيه هو أن ابن مجاهد هذا كان لايتوانى في قرع كل الأبواب التي أمكنه قرعها حتى انه استطاع أن يربط أوثق الاتصال بحكام مصر .

.. الاتصالات بحكام مصر :

عندنا من الرسائل التي وجهت الى صاحب مصر مجموعة كبيرة صدرت كلها عن اقبال الدولة المذكور . وهي كلها تمتلئ بالثناء الجم ، والمدح الغزير ، في اطار من الاجلال والتعظيم يدعو الى العجب والحيرة ، وهي كلها من انشاء كاتبه أبي الأصبغ بن أرقم (1) ففي الرسالة الأولى التي يوردها صاحب الذخيرة سيل متدفق من المدح والشكر منه قوله : " فما الشكر وان جزل يرقى ثنايا ذلك الافضال والانعام ، ولا اللسان ، وان جحل يتعاطى ذلك الثناء ولا الأقلام ، ولا الجهد يقدر تدر ذلك الإكبار والاعظام ، ولا الوجد يفي بتلك الصوارف الجسام ، ولا الطوق يقوم بأعبائهما حق القيام ...." (2)

ثم نجد له رسالة ثانية تسيل بمثل تلك النعوت والأوصاف منها قوله مخاطبا " الوزير الأجل ، صفي أمير المؤمنين " دون أن يسميه ، " واني أطال الله بقاء حضرة سيدنا ، وان لم أحلّ بمكاتبته تقلبدا ، ولم أحظ بمداخلته مستفيدا ، فبه أثمر غرسي ، وله التئام غدي وأمسي ، وعليه تعدّل جنى نفسي ، فمحاسنه التي ملأت المَلَوَيْن ، شنفتني فأنستني ، وأنواره التي طبقت الخافقين ، هدتني فاهتديت ، فسرت اليه مسير السيل الى قراره ، وانجذبت نحوه انجذاب النجم الى مداره ، وجريت على نهج أبي ، رحمه الله ، في خدمة الحضرة ، والمكاتبة لها ، والمهاجرة اليها ...." (3)

ومن الواضح ، حسب الاشارة الأخيرة أن علاقة امارة دانية والجزائر الشرقية بحكام مصر قديمة قِدم هذه الامارة نفسها ، اذ أنها ترجع الى مؤسسها مجاهد الفتى العامري.

---

(1) أبو الأصبغ بن أرقم : عبدالعزيز بن محمد بن أرقم من كتاب اقبال الدولة ، انظر أخباره في ذ : 3/1 ، ص : 360 .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 394 .

(3) نفسه ، ص : 396 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى يستلفت الانتباه حقا أن ابن مجاهد يكثر من الحديث عن هذا الماضي ، ولا يتوقف عن التلميح اليه والتركيز عليه ، فهو في رسالة ثالثة يشير هذا المعنى من جديد فيقول : " وقد كان للموفق أبي ، مولى الحضرة ، مَنْزَعٌ علق بسببه ، وأرب وسم أجمل وسم به أن يُثبت في ديوان مكاتبتها [1] اسمه ، ويُلحق في رسوم خدمتها رسمه ، . . . . ويحلي مضربًا بما لم يكن حاليا به ، ويفُضّ عذرة أمر لم يفتض لجانبه ، فواناه حمامه — أكرم الله نزله — وهو في ذمائه يمد أكناف نيته . . . . فقضى ولم يسعده القضاء ، ومضى ولم يكن الامضى . . . " [2]

فهو هنا ، كما نرى ، يفصح عن خطة كان أبوه مجاهد — الملقب بالموفق — يريد تنفيذها ولكن المنية أعجلته ، وها هو ذا ابنه ، بعد أن تصدى لمشكلاته الداخلية ، يريد أن يبعث ذاك المخطط من جديد ، ولم يكتف بارسال الرسائل بل كان ينتدب السفراء الذين يحملونها الى مصر ، ويتخيرهم لهذه المهمة " من أبناء الوزراء ، وصفوة الظهراء ، من له السابقة المذكورة ، والحين المشهورة ، والأحوال الخطيرة ، والخلال المشكورة . . . . " [3]

ثم يعود الى علاقة دولته القديمة بأصحاب الأمر في مصر ، فيشير مرّة أخرى الى مسألة الاتصالات التي كان بدأها أبوه الموفق ، فيقول في رسالة أخرى ، بعد الثناء على " الوزير مالكه " : " وكان للموفق أبي نهج بمداخلتها [4] ومفتتح لمراسلتها ، لم يفارقه — رَوّى الله مثواه — الى أن فارق دنياه ، فكنت أبا عذرتها . . . " [5] بل اننا نراه يفتخر بأنه أسبق حكام المغرب الى هذه الاتصالات واقامة العلاقات ، وذلك حين يقول : " فبرزت بين أبناء مغربي في مداخلتها ، وعرض صاغيتي وخدمتي عليها ، وتوفيد مكاتبتي ومراسلتي اليها ، . . . " [6] وهو في هذه الرسالة أيضا يشير الى ارسال سفير من قبله ويذكر اسمه وهو " أبو مروان بن حبيبة " الذى يصفه بأنه " من صفوة نظرائه " [7].

---

(1) الضمير يعود على "الحضرة" الواردة في بداية الرسالة، ويعني بها دولة الفاطميين .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 398 .
(3) نفسه ، ص : 399 .
(4) الضمير يعود على دولة الفَاطِميين .
(5) ذ : 1/3 ، ص : 399 .
(6) نفسه ، ص : 401 .
(7) نفسه ، ص : 402 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى يبدو أن هذه الاتصالات الكثيفة لم تكن من طرف واحد ، فقد وجدت نوعا من القبول لدى حكام مصر الفاطميين ، وراجعوا ابن مجاهد برسالة واحدة على الأقل ، نراه يشير اليها في أحد كتبه ، وذلك حيث يقول : " فصدرت المراجعة الباهرة بمسا أنهاه جوانحه ، وزجر سوانحه ، وأسرع مواطنه ومسارحه ، وتبيّن السعد معالمه ومصالحه ، .... "(1)

ولعل ابن مجاهد كان صادقا حين قال انه فاق أبناء مغربه ، وتميز عنهم بربط هذه الصلة القوية بالخلافة الفاطمية في مصر، اذ أننا لا نجد من الرسائل التي بين أيدينا ما يشير الى أن مثل هذه المراسلة الكثيفة قد أقيمت بين مصر وأيٍّ من ممالك الطوائف الأندلسية في القرن الخامس .

واذا كنا لا نستغرب فتور العلاقات بين الحكم الشيعي في مصر، وامارات الأندلس، وقلة آثار الاتصالات المكتوبة بينهما ، باستثناء ماكان من علاقات امارة دانية والجزائر الشرقية به ، فان الذى لابد أن نستغرب به أكثر انما هو قلة ما بقي شاهدا على صلة تلك الامارات بالنصارى المجاورين .

.. الاتصالات بالنصارى :

لا نملك من الرسائل الموجهة الى النصارى ما يصلح أن يكون شاهدا على تلك العلاقات المكثفة والمتنوعة التي كانت بين حكام المسلمين من ملوك الطوائف ، وأمراء الممالك الاسبانية النصرانية في الشمال المسيحي .ولعل التفسير يمكن أن يلتمس في جانبين :

— أولهما أن المؤرخين المسلمين ، ومنهم صاحب الذخيرة ، كانوا يأنفون من أن يودعوا مجاميعهم ومؤلفاتهم شيئا من تلك المخاطبات التي لابد أن فيها من علامات الخضوع للنصارى ، والانقياد لارادتهم ، والتودد لهم ، مالا يشرّف أيّ مسلم معرفته أو الوقوف عنده

— وثانيهما أن العلاقات بين الطرفين كانت تقوم على أساس الوفود والسفارات ، والاتصالات المباشرة ، أكثر مما تقوم عن طريق الكتب والرسائل ، مما يطرح مشكلة ترجمتها وفهمها والاجابة المكتوبة عنها ....

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 394 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومهما يكن من أمر فاننا نجد من هذا القبيل رسالة ، احتفظ لنا بها ابن بسام وهي صادرة عن بعض "أمراء الثغور" ، ولم يذكر لنا اسمه ، وهي موجهة الى "قوم من النصارى" ، ولا نعرف من هم بالضبط . وهي رسالة قليلة الأهمية لأنها لا تفصح عن حادثة بعينها ، ولا تشير الى احدى الوقائع التاريخية المعلومة . وقد ابتدأها كاتبها(1) بوصف الدمار الذي ألحقه أولائك النصارى ببلاد المسلمين ، فكان من ذلك قوله :
" أيها الشرذمة الطاغية انكم لنا لقاذاون ، وانكم لتفسدون في الأرض ولا تصلحون ، ... وانتسفتم النِّعَم ، وهتكتم الحُرَم ، وبيتم سكوت الدهماء ، واستبيتم الحرائر في ربق الاماء ، وتوغلتم البسيطات ، وتسنمتم القلاع الممتنعات ، ولم ترقبوا فينا إلاًّ ولا ذمة ، ..."(2) الى غير ذلك من هذه الأوصاف التي تفيض بها كتب الأدب الأندلسي في هذه الفترة ... ثم ينصرف الكاتب بعد ذلك الى التهديد والوعيد ، فيكون منه مثل هذا القول : " فلتستشعروا حلول النقمة بكم ، وإناختها عليكم ، وتخطف المنايا لكم ، وقطعها لدابركم ، وان الذي بينكم وبين الهلكة لأقصر من ابهام الحبارى ، في يوم تَرَوْن فيه سُكارى ، وما أنتم بسكارى ...."(3)

وهي ، اجمالا ، رسالة لايفيدنا مضمونها بشيء جديد ، غير أنها تمثل بعد المسافة بين واقع المسلمين وقتئذ ، والأحلام التي تعد دهم في نوبات الخيال . وهي تدل على حاجتهم الماسة الى البحث في محيطهم القريب بعضمن يمكن الاستنجاد والاستغاثة به لتخليصهم من الويل والثبور . ومن كان أقرب اليهم من القوّة الصاعدة في بلاد المغرب: دولة المرابطين ؟

•• الاتصالات بالمرابطين :

لقد سبق لنا الحديث — في الفصل الأول من الباب الأول — عن الظروف التي استَقْدَم فيها ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين ، سلطان المرابطين ، الى بلاد الأندلس ، وكيف استطاعت جيوشه المنتصرة أن تنقذ الأندلس ، في ذلك الوقت ، من نهاية كانت تبدو حتمية الوقوع او لم يستجب للنداءات الملحة التي تستغيث به ...

(1) وهو الكاتب أبوجعفر بن أحمد . وانظر أخباره في الذخيرة 3 / 1 ، ص : 757 ومابعدها .
(2) ذ : 3/2 ، ص : 768 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد أن الذى لانعلمه على وجه اليقين هو عدد ونوع الرسائل التي لابد أن ملوك الطوائف قد وجهوها اليه ، وحملها عنهم رسلهم العديدون الذين كانوا يترددون على مراكش عاصمة الملثمين . والذى بين أيدينا ، ما أورده صاحب الذخيرة ، رسالة واحدة صادرة عن الملك الأفطسي ، المتوكل ، صاحب بطليوس . وهي رسالة لم تكن الأولى من نوعها ، لأن ابن بسام نفسه يشير الى أنها ربما " كانت ثالثة الفاتحة ، أو ثانية المداخلة "[1].

أما الرسالة نفسها فتبدأ بالثناء على الملك المرابطي والتنويه بجهاده وغيرته على الاسلام . فمن ذلك قول الكاتب[2] عن أميره : " لما كان نور الهدى ـ أيدك الله ـ دليلك ، وسبيل الخير سبيلك ، ووضحت في الصلاح معالمك ، ووقفت على الجهاد عزائمك ، وصح العلم بأنك لدعوة الاسلام أعز ناصر ، وعلى غزو الشرك أقدر قادر ....."[3]

وبعد هذا الثناء يخلص الكاتب الى وصف حال المسلمين مع عدوهم المتسلط، فيذكر أن فئة النصارى كان " دأبها التشطط والعناد " وأن دأب المسلمين " الاذعان والانقياد ، حتى استصفي الطارف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد "[4] ويسترسل في التفجع على المسلمين ، والتحسر لما أصابهم من قتل ، وسبي ، وما لحق مدنهم وقلاعهم الحصينة من غزو واحتلال ... ثم يختم الرسالة بطلب الغوث ، والاستنصار بجموع المرابطين لتدارك الأندلس " رُكْبانا ورِجالا " والاسراع اليها "خِفافا وثِقالا " .

ومما ينبغي أن يلاحظ في هذه الرسالة شيآن : أولهما أن المتوكل يشير في رسالته هذه الى أنه سبق له أن راسل ابن تاشفين بعد سقوط مدينة قورية ، مما يدل على أن المتوكل كان كسائر أمراء البلاد لايرى خلاصا الا في استقدام المرابطين ، وأنه لذلك كان ينهي الى مليكهم حوادث الجزيرة وأنباءها المحزنة لانتزاع قراره بالعبور الى الأندلس، اذ تؤكد بعض الأخبار أنه كان يتخوف هذا العبور .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 653 .

(2) الكاتب هو : أبو عبدالله محمد بن أيمن وزير المتوكل ومدبر أمر مملكته . أخباره في ذ : 2/2 ، ص : 652 .

(3) ذ : 2/2 ، ص : 653 .

(4) نفسه ، ص : 654 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والشيء الثاني في الرسالة أنه حملها سفيرٌ أُشِيرَ اليه بعبارة " الشيخ الفقيه الواعظ " ، ومعلوم أن فقهاء الأندلس ، وعلماء الدين فيها كانوا قد دعوا مبكرا الى الاستنصار بالمرابطين ، ومارسوا غير قليل من الضغط على الأمراء — عن طريق جموع المؤمنين — للتغلب على ماكانوا يستشعرونه من خوف على مُلْكِهِم اذا دخلت البلادَ جيوش الملثمين .

هكذا صور لنا النثر الأندلسي علاقات الممالك في البلاد بالأطراف الأجنبية عنها ، وهي في واقع الأمر صورة لاتوحي بنماء الاتصالات بالخارج ، وغِنَى جوانبهـا ، وتعدد أبعادها . والحق أن ملوك الأندلس كانوا في شغل شاغل عن التطلع الى ما وراء الحدود ، واستشراف الآفاق البعيدة . ولعلّ الذى كان يملأ دنياهم ، ويصرفهم عن كل تفكير آخر هو : أولا علاقتهم .... بالعدو المتغلب عليهم ، ولم يكن الاتصال به يستدعي كتبـا ورسائل ، لأنه عندهم ، يدق عليهم الأبواب في كل صباح ومساء ؛ وثانيـا علاقة بعضهم ببعض ، وتلك قد خلفت لنا زادا وفيرا من المراسلات كنا وقفنا على نماذج منها ، لعلنا وُفِّقنـا ، من خلالها ، الى استجلاء نوعيـة تلك العلاقات .

ان كل ما درسناه الى حدّ الآن من مضامين الترسل الأندلسي يمكن أن يدرج ضمن الاهتمامات الخارجية ، لأنه يُعبّر عن مخاطبة أطراف خارج حدود المملكة ، سواء كانت أطرافا أندلسية أو غير أندلسيـة . فما هو يا ترى واقـع اتصالات الحكم بمؤسسات الدولة ، وهياكلهـا الداخلية ؟ ذلك ما نريـد أن نبحـث فيه من خلال ما سميناه بالعلاقات الادارية .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 : العلاقات الادارية .

لابد لأية دولة تنام من ضروب من ضروب العلاقات الادارية بين قيادة الحكم فيهـا والمؤسسات أو"المصالح" أو الهياكل التابعة لها، حتى ولو كانت في بداية عهدها بالتقنين والتنظيم ، وارساء قواعد الضبط والتسيير . وخير مثال على ذلك ، بلاد الأندلس نفسها ، فقد عرفت في بداية عهدها ـ أثناء مرحلة الولاة ـ صيغا بسيطة من الادارة ، ثم ما ان استتب فيها الأمر لبني أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى أخذت الحياة الادارية تتعقد شيئا فشيئا الى أن بلغت شأوا عاليا في النضج والفعالية في عهد عبد الرحمن الناصر ومن تلاه من الخلفاء[1] .

ولا نستبعد أن تكون ممالك الطوائف قد حافظت على ذلك المستوى من الرقي بما أتيح لها من صغر الرقعة ، وكثرة الرجال الطالبين للمناصب ورغبة الملوك في الاكثار من الصنائع والموظفين . . . ولكن المفاجأة الكبيرة هي أن ما وصل الينا من نصوص نثرية لا يدل على حياة ادارية غنية أو متنوعة . وأغلب الظن أن أغراض النثر الكثيرة في القرن الخامس ، والمجالات الجديدة المتعددة التي اقتحمها ، قد أسقطت الانشاء الاداري المحض من مشمولات النثر الفني ، أو قللت من أهميته ، فلم يعد مؤلفو الكتب الأدبية يحتفون به مثلما كان شأنهم عندما كانت ميادين النثر قليلة ، فكان جلّ مُعوَّلهم فيما يوردون منه على ما يَصدُر عن دواوين الحكام في مخاطبة رجال الدولة[2] .

ونحن اذا تأملنا في ما انتهى الينا من نثر العلاقات الادارية وجدناه من القلة بحيث لا يتيح لنا أن نرسم صورة واضحة لمعالم هذه الادارة ، ونقاط ارتكازها ، وكيفية استخدامها لتنفيذ سياسة الدولة الداخلية . وكل ما نملكه نصوص قليلة يمكن أن تصنف مضامينها الى ثلاثة أغراض رئيسية هي : التولية والعزل ، ثم التنبيه والتوجيه ، ثم الانتداب والتكليف .

---

(1) انظر ما كتب في الباب الأول من هذا البحث : الفصل الثالث .

(2) في الفصل الثالث من الباب الأول من هذا البحث شاهد على ذلك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التولية والعزل :

من رسائل التولية: المكتوب الذي ذكر فيه المتوكل، أمير دولة بطليوس، تعيينه لوزيره ابن خيرة[1] نائبا له على مدينة اشبونة . قال : " ..... وقد وليت عليكم من لم أوثر — والله — فيه دواعي التقريب، على بواعث التجريب، ولا فرائض التخصيص على لوازم التمحيص، وهو الوزير القائد أبو عبدالله بن خيرة : أبيّ ذُربةً، ومضي صُحبةً، ...."[2] وبعد الثناء عليه، وذكر مقدار صلته به يتحدث عن السياسة التي اختطها له، فيقول : " وقد رسمت له من وجوه الذب والحماية، ومعالم الرفق والرعاية، ما التزم الاستيفاء بعهده، والوقوف بحده عند حده "[3].

ويختلف طابع هذه الرسالة عمّا كنا تعودناه من صيغ التولية والتعيين في المناصب الحكومية . ذلك أن رسالة التعيين كانت توجه الى المعني بالأمر، وكانت تتضمن أقساما متمايزة يكون منها بيان قيمة المهمة التي انتدب لها، ووجوب تأدية الخدمة على الوجه المطلوب، وغير ذلك من أجزاء التولية والتعيين . أما هذه الرسالة فان الخطاب فيها موجه الى أهالي أشبونة، وانما يأتي تعيين ابن خيرة ضمنها، ويتم التحدث عنه بضمير الغائب . وهذه صيغة أقرب ما تكون الى البلاغ الذي يقصد به إعلام عموم الناس بالتولية، وليس الرجل المعني بها .

ومما يؤكد هذا التحول في صيغة التولية والتعيين اننا نجد رسالة أخرى تتوفر على هذه المواصفات بالضبط، وهي الرسالة التي كتبها أبو عبدالرحمن بن طاهر، والتي تضمنت تعيين أحد رجاله على بعض مقاطعات امارته . يقول فيها : " قلدت فلانا النظر في أحكام فلانة[4] وتخيرته لها بعدما خبرته واستخلفته، وقد عرفته واثقا بدينه، راجيا لتحصينه، لأنه أن احتاط سلم، وان أضاع أثم، فليقم الحق على أركانه، وليضع العدل في ميزانه، وليساو بين خصومه،

---

(1) أبو عبدالله بن خيرة من وزراء المتوكل وقادته .

(2) قلائد العقيان لابن خاقان، ص : 46 وما بعدها .

(3) نفسه .

(4) فلانة : حُذف هنا اسم الجهة التي استعمل عليها الوالي الجديد، كما حذف اسمه واشير اليه بـ " فلان " وهو تقليد شائع في النصوص الأدبية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليأخـــذ من الظالم لمظلومه ، وليقف في الحكم عند اشتباهه ، ولينفذه عنـــد اتجاهه ، ولا يقبل غير المَرْضِيّ من شهادته . . . ."(1)

فهذه الرسالة مثل تلك في اعتماد الأسلوب الاخباري ، واعتمادها ضمير الغائب في الخطاب ، وان جاء هذا في قالب أفعال الأمر . ولعلّ الذي يلفت النظر من حيث المضمون قصر فضائل المعني على الثقة بالدين ، والسعي الى تحصينه ، وفيهما مجموع الخصال التي كانت ترتجى لدفع البلاء في تلك الظروف التي كانت تجتازها الأندلس .

وكما تكون التولية مكافأة ، يكون العزل معاقبة . والقاعدة العامة أنّ مَن يملك حق التعيين يملك حق الاقالة . وعندنا من رسائل العزل الصادرة عن ملوك هذه الفترة رسالة كتبها المتوكل — صاحب بطليوس — وخاطب بها وزيره أبا الوليد الحضرمي(2) حين صرفه عن خدمته .

والرسالة تبدأ بما أُتيح للملك أن يلاحظه من اختلال في شؤون دولته ، وتدهور في أوضاعها ، وفي ذلك يقول : " ولما رأيت الأمر قد ضاع ، والادبار قد انتشر وذاع . أشفقت من التلف ، وعدلت الى ما يعقبنا ان شاء الله بالخلف ، وأقبلت استدفع مواقع أنسي ، وأشاهد ما ضيعته بنفسي ، فلم أر الا لُجَجا قد تورطتها ، وغمرات قد توسطتها ، فشمرت عن الساق للجتها ، وخدمت النفس بمهجتها ، حتى خضت البحر الذي أدخلني رأيك ، ووطئت الساحل الذي كاد يحول بيني وبين فعلك "(3).

ثم يُقبِل الملك على تنويم تصرفات وزيره ، وبيان المسؤولية الكبيرة التي تحمّلها بسوء معالجته للأمور في المجالين : الخارجي والداخلي ، بالاضافة الى ما ركّب في طبعه من الزّهو والعُجْب . وفي ذلك يقول : " فنفسك لُمْ ، وبسوء صنيعها ألمم واعتصم ، وان مَتَتَّ بجميل اعتقاد ، ومحض اعتقاد ، فأنا مُقِر بذكره ، معترف بقلّه وكثره ، لكنك كالمثل السائر : " شوى أخوك حتى اذا أنضج رمّد " . حتى أطمعت فيّ العدوّ ، ولبست لأهل حضرتي الاستكبار والعتوّ . . . "(4)

---

(1) خريدة القصر ، للعماد الاصفهاني : ق 4 /ج 2 /ص : 322 .
(2) أبو الوليد بن الحضرمي وزير المتوكل الذي ضج الناس من تيهه وتجبره ، فعزله . وانظر الذخيرة 2 / 1 ص : 391 ، وهامش المحقق فيها .
(3) ذ : 2 / 2 ، ص : 646 وما بعدها .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى الرغم من هذه المآخذ الخطيرة التي يحصيها عليه ، وهذه المسؤولية التي يلقيها على سوء تصرفاته وأخلاقه ، فانه لايضمر له الحقد الذى يضمره بعض الملوك لمن يتحولون عن خدمتهم ، ولا يشتد في التنغيص عليه ، بل نراه ، على عكس ذلك ، يعده باستمرار المودة والعطف حين يقول له في آخر الرسالة : " ومع ذلك ، فليس لك عندي الا حفظ الحاشية ، واكرام الغاشية "(1) .

ولا بد أن الملوك كانوا قد واصلوا سيرة السلف في تفقد عمالهم وولاتهم وتعهد سيرتهم في الناس بالوعظ ، والتوجيه ، والتذكير بأوامر الشرع ونواهيه ، حتى لا يكون العزل قبل التنبيه .

التنبيه والتوجيه :

في كتاب الذخيرة رسالة شديدة الصلة بهذا الغرض الذى يجرى الكلام عليه . وقد جاءت في سياق يكتنفه بعض الغموض . ذلك أنها وردت ضمن أخبار " ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة "(2) ، وهو كاتب المعتمد بن عباد ووزيره ، وسفيره الى عدد من الملوك ، وصاحب الذخيرة يقدم لتلك الرسالة بقوله : " وله من أخرى عنه الى الفقيه قاضي الجماعة بقرطبة ... "(3) والضمير في " عنه " لا يعود الا على المعتمد بن عباد المذكور في الصفحات التي قبله . ومع ذلك فان ابن حمدين أبا عبدالله قاضي الجماعة بقرطبة لم يتولّ هذا المنصب الا عام 490 هـ أي بعد زوال دولة المعتمد بسنوات طويلة ، (إذ كانت قد زالت عام 484) بل وبعد موت المعتمد نفسه في أغمات عام 488 هـ . وهكذا يستحيل أن تكون هذه الرسالة صادرة عن المعتمد . والذى يساير العقل أن يكون صدورها عن بعض أمراء المرابطين . وكيفما كانت الحال فانها تدخل ضمن نثر القرن الخامس الذى ندرسه ، وانها في صميم موضوعنا ، كيفما كان الأمير الذى كُتبت باسمه .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 647 .
(2) راجع الذخيرة : 1/2 ، ص : 239 .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 260 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذه الرسالة جاءت جوابا عن مخاطبة بعث بها قاضي الجماعة ، يشكو فيها بعض تصرفات المرابطين ، وسوء معاملتهم لأهل الأندلس . ذلك ما نفهمه ، على كل حال ، من هذا القول في رسالة أبي بكر بن القصيرة : " وصل كتابك فوقفنا على معانيه ، وأحصينا المجمل والمفصل فيه ، مما ذكرته فيه . والذي أومأت اليه من الأمر الذي وليته ذو شعوب مشغبة ، وأشغال على محاولها صعبة ، حتى لا امتراء فيه ، ولا غطاء عليه من محصليه ، ولذلك ما اختير له على وجه الزمان أهل المنن من أولي الديانة والصيانة ، الذين نرجو أن تكون منهم محسوبا ، وفي صدر ديوانهم مكتوبا "(1).

فالواضح الجلي من هذا الكلام أن قاضي الجماعة يلقى عنتا في تطبيق أحكام العدالة على جماعة من الناس لعل انتصارهم السياسي ، وامتلاكهم أعنة البلاد قد أنساهم أنهم منقذون ومسعفون لافاتحون ولا محتلون ... والأمير حين يجيب لايملك الا أن يعترف بحرج موقف القاضي ، وعسر أحواله في أداء مهمته ، ولذلك نراه يأخذ في شد أزره ، بدعوته الى التمسك بمبادئ الدين وقواعد الشرع ، وذلك في قوله : " فاستهد الله يمدك ، واستعن بالله يعنك ، في صدرك ووردك ، وتولّ القضاء الذي ولاكه الله بجد وحزم ، وجلد وعزم ، وأمض القضايا على ما أمضاها الله تعالى في كتابه وسنة نبيه ".(2)

ان الأمير الذي يكتب عنه ابن القصيرة لايمكن أن يكون الا أحد المرابطين ، فلذلك وجب التفريق بين عامة الجنود المغاربة وحتى بعض الولاة الذين ربما خيّل اليهم أنهم يستطيعون أن يتصرفوا تصرف الغزاة ، وبين قيادة المرابطين التي كانت تحركها المشاعر الاسلامية ، فهي تدعو بل تأمر بتطبيق أحكام الشرع على الجميع دون أدنى تمييز بين الفئات التي تعيش في البلاد . هذا واضح من الرسالة التي جاء فيها : " ولا تبال برغم راغم ، ولا تشفق من ملامة لائم .... ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له ، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه ... "(3)

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 260 _ 261 .

(2) نفسه ، ص : 261 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا كلام يدخل البهجة على النفس حين يصدر عن أمير حاكم ، ولكنه كلام فحسب ، لا يكفي لاحقاق الحق ، وأقامة العدل ، ولذلك رأينا الأمير يخبر قاضيه بأنه تولى بنفسه ردع بطانته وتنبيهها الى أن قواعد الشرع تطبق عليها بدون أي شكل من أشكال المحاباة والمراعاة . ذلك قوله : " وقد عهدنا الى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تقضيه ، ولا يعترضوا عليك في حق تقضيه ، ونحن أولا ، وكلهم آخرا ، مذ صرت قاضيا ، سامعون منك ، غير معترضين في حق عليك ، والعمال والرعية كافة سواء في الحق ، فان شكت اليك بعامل ، وصح عندك ظلمه لها ، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله فاعزله ، وان شكا العامل من رعية خلافا في الواجب ، فأشكه منها ، وقومها له ، ومن استحق من كلا الفريقين الضرب والسجن ، فاضربه واسجنه ... "[1]. انه حقا لفصل مبهج في ديوان العدالة حين يصاغ الجميع لأحكامها ، ويؤمن الحاكم والمحكوم بأن لا مناص من الاذعان لها .

وهناك أسلوب آخر في مخاطبة القادة ، وولاة المقاطعات على سبيل انتدابهم لأمر معين ، وتكليفهم بمهمة محددة ، مما يقتضي استخدام أساليب المراسلة الجماعية .

الانتداب والتكليف :

اذا احتكمنا الى ظروف ملوك الطوائف في هذه الفترة التاريخية ، وشدة حاجتهم الى تبليغ قادتهم وولاتهم في المقاطعات أوامرهم المتتالية لانتدابهم الى القيام بعمل محدد ، وتكليفهم ، بصفة جماعية ، بنمط من المهام المستعجلة ، فاننا لا نتصور النثر الذي يبلغ به الأمير هذه الأوامر الا كثيرا ، متعدد الأغراض ، متنوع الغايات ، ولكننا في واقع الأمر لا نملك منه الا الشيء القليل ، الذي لا يكاد يفيدنا في تصور نوعية المهام التي كان ينتدب لها رجال الدولة في المقاطعات .

فمن هذا القليل الذي احتفظت لنا به الكتب الأدبية المتداولة اليوم ، رسالة وجهت الى القواد يبدؤها صاحبها بوصف الحال مع العدو — ويقصد النصارى الاسبان —

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 261 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقول : " الحال مع العدوّ بينة لا تحتاج الى جلاء ولا كشف ، معروفة لا تفتقر الى نعت، ولا وصف ، ومن لا يمكن مقاواته ومخاشنته ، فليس الا مداراته وملاينته "(1).
ثم يذكر خروج العدو الى بلاد المسلمين ، وما كان يعتزمه من اضرار بها وبأهلها، ولذلك لم يكن بدّ من النزول عند رغبته "فوقع الاتفاق معه على جملة من المال تقدم اليه ، ونستكيفّ بها الشرّ المرهوب لديه "(2). والكاتب — على لسان المعتمد بن عباد — يتوقع النقد والاعتراض على هذا الاذعان لأوامر العدو ، فيشير الى ما كان مقدورا على المسلمين أن يكابدوه من الويلات لو لم يقتنع العدو بقبول المال : " فكم حال كانت بخروجه تتلف ، ونعمة بأيدي طاغيته تنسف ، . . . "(3)

ولما كانت العامة مصابة بأنواع الكوارث التي منها القحط والجراد ، ولا يمكن أن ينتظر منها المساهمة في المبلغ المضروب من قبل العدو ، لأنها لا تملك شيئا ، فانه لم يبق الا اللّجوء الى موظفي الدولة يقتطع من كل واحد منهم ما تسدد به الغرامة . ولكي لا يترك شيء يمكن أن يتسرب اليه الغلط أو الوهم ، فان الأمير وضع قوائم بأسماء الموظفين المعنيين وحدد فيها ما يدفعه كل واحد منهم وأرسل الى كل وال بقائمة الذين ينبغي أن يسارع الى تحصيل الأموال منهم . والوصية الأخيرة هي : "ولتقبض ذلك كله في أعجل ما يمكن ، فالحاجة اليه وكيدة ، والضرورة حافزة شديدة "(4).

وتشبه هذه الرسالة في كل شيء أختا لها أرسلت الى العمال . وكل ما يميزها منها أنها أقل توسعا منها وأكثر اقتضابا . وكان أولائك العمال قد تعودوا على الصيغة، وألفوا المطلوب منهم فلم يعودوا في حاجة الى بسط الأعذار وشرح الظروف. والذى يبدو لنا أنها من انشاء كاتب واحد . فهي تبدأ بالمعنى الذى بدأت به الرسالة السابقة ، وهو قوله : " الحال مع العدو — قصمه الله — بينة لا تخفى ، ومداراته — مالم تكن مضاهاته — أولى وأحرى "(5).

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 252 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 253 .
(4) نفسه .
(5) نفسه ، ص : 252 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد ذ لك ، مباشرة ، يقول بدون مقدمات أخرى : " والتزِمْ له في الصلح المتفق عليه جملة من المال رسم عليك منه — بعد النظر لحالك ، والتحاشي من الاجحاف بمالك — .... "(1)

ويبدو من هذه الصياغة أنه رسم خاص ضرب على العمال ، وليس مما ينبغي أن يقتطعوه من أموال الموظفين التابعين لهم في الولايات . وفي كل الأحوال فان السرعة هي المطلوبة : " فعجل النظر فيه .... وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكون الاستدلال على طيب نفسك وصدق ضميرك . "

ما أقسى الظروف التي تدفع بالدولة الى أن تجعل مقياسها في وزن ولاء رجالاتها ينحصر ، أو يكاد ، في قدرتهم على الاستعجيل بدفع نصيبهم من المبالغ التي تدفع ضريبة للعدو . فاذا كانت هذه هي العلاقات بين الملوك ورجال دولتهم ، من خلال هذه النماذج القليلة التي وصلت الينا ، فانه يحق لنا أن نتساءل عن العلاقة التي استطاع نثر هذه المرحلة أن يصورها لنا بين أولائك الأمراء وجماهير شعبهم ؟

* * *

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 252 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — العلاقات الشعبية

•• كتب الفتح والتبشير بالنصر

لم يكن عند ملوك الطوائف الكثير مما يستطيعون أن يدخلوا المسرة بواسطته على قلوب المسلمين من رعاياهم ، فقد رأينا نبذة من الرسائل ليس فيها — على الغالب — الا التحذير من العدو ، والتنديد بتصرفاته ، والتشديد على التعجيل في جمع المال الذى اشترطه لكف أذاه ريثما يعود مرة ثانية ليطلب منه المزيد ... ولذلك فانا نفهم أى شعور بالسعادة يغمر هذا الأمير أو ذاك ، حين تتاح له فرصة النيل من العدو ، أو الايقاع به ، فيسرع الى ابلاغ أنباء الانتصار الى أفراد شعبه ، مبالغا في وصف آثاره . والحق أنها كانت فرصا نادرة الوقوع ، ان لم تكن منعدمة أصلا في هذه الفترة التي نقصدها .

ولعلّ الذى يكسب هذا الحديث دلالة خاصة أن النصوص التي بين أيدينا الآن ، والتي تتضمن التعبير عن أغراض النصر على المسيحيين وتبشير المسلمين به ، انما ترجع كلها الى فترة ما بعد دخول المرابطين بلاد الأندلس ، وعبورهم اليها استجابة لنداءات أهلها الملحة . بل ان نصّين من الثلاثة يتصلان مباشرة بأكبر معركة جمعت بين المسلمين والنصارى بُعَيد جواز المرابطين ، وهي المشهورة بمعركة الزلاقة(1) والتي تحقق فيها أعظم نصر في تلك الفترة .

وقد كتب أبو بكر بن القصيرة ، على لسان المعتمد بن عباد يقول : "كتبتُ صبيحة يوم السبت ، الثالث عشر من رجب ، وقد أعز الله الدين وأظهر المسلمين ، وفتح لهم بفضله على يد سماها الفتح المبين ، بما يسر الله في أمسه وسناه ، وقدر سبحانه وقضاه من هزيمة اذفونش بن فرذلند(2) ...."(3) .

يتضح جليا من مدخل هذه الرسالة أن المعتمد ينسب شرف هذا الفضل الى نفسه ، ويتقرب بهذا النصر الى المسلمين ليحوز اعجابهم . ثم يمضي في وصف بعض ملامح

---

(1) معركة الزلاقة وقعت عام 479 هـ ، والزلاقة من اقليم بطليوس في غرب الأندلس . وانظر أخبار هذه المعركة في الملحق الثاني بالبيان المغرب ، ج 4 ، ص 130 عن الروض المعطار .
(2) اذفونش بن فرذلند : هو الفونسو السادس ملك النصارى ، وقائدهم في معركة الزلاقة .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 241 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذلك النصر الساحق فيقول : " . . . واتيان القتل على أكابر رجاله وحماته (1) . . . . وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم ، ولم يُحتزّ منها الا ما قرب . . . واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها . والذى لامرية فيه أن الناجي منهم قليل . . . . والحمد لله على ما صنع حق حمده . . . "(2)

والغريب في هذا البيان الذى أسرع المعتمد بابلاغه الى الناس في مملكته أنه لا يشير بشيء الى يوسف بن تاشفين ، وجيوش المغاربة التي كانت الفاعل الحقيقي للنصر ، بل اننا رأيناه ينسبه الى نفسه ، ويجعله من فضل الله عليه اذ يسره على يديه . . . والذى يستحق الاشارة أيضا أن هذه الرسالة انما كانت بمثابة البرقية التي يستعجل الأمير في ابلاغ الانباء السعيدة بواسطتها ، أما الرسالة المطولة التي تتوسع في الشرح والبيان فهي التي يرسلها المعتمد بعد ذلك ، ويبدو أنها كانت من الطول والاطناب بحيث اضطر صاحب الذخيرة الى أن يكتفي منها ببعض الفصول . واذا كانت هذه الرسالة لا تعدو أن تكون تفصيلا لما كانت أجملته الرسالة الأولى ، فان الجديد فيها ، والذى تتميز به عن سابقتها هو عدم اغفاله الحديث ـ هذه المرة ـ عن دور يوسف بن تاشفين ، وجيوش المرابطين في تحقيق هذا النصر العظيم .

والرسالة تبدأ ـ كما هي في الذخيرة ـ بالاشارة الى ما كان يقاسيه المسلمون من غطرسة النصارى وكيف استمرت بهم تلك الحال على ما لا يستطيعون دفعه من الذل والهوان " الى أن سنّى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين . . . . ما سنى ، وأدنى من نأى دياره وشحط مزاره ما أدنى "(3)

وتكاد الفقرات الباقية من الرسالة تنحصر في الثناء على أمير المسلمين ، ووصف آثار الجيوش الاسلامية في الجيوش النصرانية . أما دور المعتمد بن عباد فيتضاءل في هذه الرسالة ، ولا يظهر الا باعتباره مساعدا ومعينا للملك المغربي .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 241 .
(2) نفسه ، ص : 242 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهو يقول في معنى ذلك : " وأنا أنجده بوسعي ، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعي ، الى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس ...."[1] وان كان في نفس الرسالة ما يفيد بأن تدخل جيوش المرابطين لم يأت الا بعد أن لاحت بوادر هزيمة النصارى ، وتأكد المسلمون من اقتراب النصر . فحينئذ فقط ، تقدم يوسف بن تاشفين ، " وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة ، فلم يلبث أعداء الله أن ولّوا الأدبار ، واستصرخوا الفرار ...."[2].

من الثابت في التاريخ أن المعتمد بن عباد قد نهض بدور هام في معركة الزلاقة كقائد أعلى لجيوش الأندلسيين ، وأن يقظته ، ومعرفته بأساليب الفونسو السادس الحربية ، اذ كان عليفه وعميده ، قد فوتت على النصارى فصول المفاجأة والمباغتة الذي كانوا يعولون عليه ، وأنه هو - المعتمد بن عباد - كان أول من لاقى تدفق السيل العرم حين أقبلت طوائف النصارى على الهجوم ، فأوقف تقدمها ، وعطّل زحفها ، ولكنه مع ذلك لم يكن بطل النصر ولا فاعله ، لا هو ولا جيوشه الأندلسية انما كان النصر من فعل ابن تاشفين ، وجيوشه .

واذا كان النموذجان المتقدمان كافيين للدلالة على طريقة أمراء المسلمين في التبشير بالنصر ، وأساليب الكتابة في مخاطبة الناس بهذه المناسبة ، فان الذي قد نستطرفه هو أن يعمد بعض الحكام الى مخاطبة سكان بعض المدن الأندلسية ، وموافاتهم ببلاغات عامة ذات طابع " دعائي "[3] في الغالب .

.. بلاغات الى سكان المدن الأندلسية :

ليست هذه البلاغات تلتقي في مضامينها بأي نوع من أنواع الرسائل التي تقدمت ، وهي ليست موجهة الى رعايا المدن التابعة للأمير أو الوزير المخاطب . ولو كانت كذلك لما أفردت بهذا العنوان ، ولدخلت في غرض من أغراض الاتصالات التي يقيمها الحاكم مع محكوميه . ان أهم ما يميز هذه الرسائل شيئان :

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 242 .
(2) نفسه ، ص : 243 .
(3) استعملنا هنا هذه النسبة الشائعة في استعمال اليوم من كلمة " دعاية " التي يرى المحققون في اللغة ان الصحيح فيها انما هو " دعاوة " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأول : أنها شعبية الطابع ، يقصد بها الى مخاطبة كل الفئات بلا استثناء، وإن كان واضحا فيها أن غرضها الأساسي هو التأثير على الفئات التي بيدها توجيه الأمور وتسيير شؤون البلاد .

والثاني : أنها ذات طابع " دعائي " كما أسلفنا ، بمعنى أنها ترمي الى بذر عناصر السخط والقلق في أرجاء بعض ممالك الأعداء ، وتهدف الى تعبئة العامة وإعداد هما الموقوف في صفها ضد الحكام الجالسين على العروش أو من يليهم من الأمراء والعمال .

من نماذج هذه الرسائل رسالتان موجهتان كلتاهما الى أهل قرطبة ، عاصمة الأندلس في عهد وحدتها وازدهارها ، والرمز الذى يتباهى بنو عباد بامتلاكه ، ويحسدهم عليه جل نظرائهم الآخرين ...

ان الرسالة الأولى قد صدرت عن زهير الفتى (1) وفيها ثناء على أهل قرطبة ، ومدح لهم بالحكمة ورجاحة الرأى ، وفيها بصفة خاصة حملة على ابن عباد ، وانتقاد واسع لأخطائه في الحكم ، فهو " الذى سل سيف الفتنة والبغي من قرابه ، وأثار بصير الظلم من مبركه ... ومشى في الأرض مرحا ، وظن أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا ، فغزا (أهل) الاسلام في عقر دارهم ، وأسقط عن نفسه حرمة الله فيهم ...." (2) الى غير ذلك من الأخطاء الكثيرة ، والعيوب الوفيرة التي عدت عليه . ولكننا ما ان نصل الى القسم الثاني من هذه الرسالة حتى تتضح أمامنا الأغراض الحقيقية من هذا الهجوم الكبير على صاحب اشبيلية . ان أمير المرية يدعو ببساطة الى عزل ابن عباد ، ويغرى أهل الرأى في قرطبة بأن يوجهوا الناس نحو الانقضاض عليه ، وخلع طاعته ، ومبايعة ادريس المتأيد . وفي ذلك يقول : " وكتابي هذا اليكم وقد اتفقت الكلمة .... وأصفقنا على بيعة رضى واتفاق وطاعة لعبد الله أمير المؤمنين ادريس المتأيد بالله .... وهتفنا بها هتف التباشر ، وقامت بها الخطباء على المنابر ....." (3)

---

(1) زهير الفتى من الصقالبة العامريين الذين حكموا المرية .
(2) ذ : 2/1 ، ص : 51 ك
(3) نفسه ، ص : 52ك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا كتاب لايختلف في شيء عما يفعله الدعاة السياسيون للتآمر على حكم قائم ، والتبشير بشرعية حكم جديد يريدون تنصيبه ، وقد لا يكتفي الدعاة بتوجيه النداءات الى الناس ، وحثهم على الانضمام الى دعوتهم، بل يستخدمون ما أوتوا من قوة السلاح لبلوغ الهدف الذي ينشدون . ولعل رسالة المنصور بن أبي عامر(1) الى أهل قرطبة أيضا ، هي خير ما يمثل هذا النوع من الدعوة .

والرسالة في تبشير أهل قرطبة بقرب ارسال خيرة جنوده للدفاع عنهم ، وهزيمة " عدو " ، يدعو عليه بقوله " قصمه الله " ، ولكن دون أن يسميه . ونحن نميل الى أن هذا العدو ليس الا ابن عباد الذى قضى على دولة بني جهور في قرطبة ، وضمها الى أملاكه .

ويحرص ابن عامر في بداية كتابه على أن يبين مدى صلته الروحية بقرطبة وأهلها الذين يقول لهم : " أراكم بعين المشاهدة ، وأكلأكم بعين الاحاطة ، أعد كبيركم كالعم ، وصغيركم كابن الأم ، فأنتم الأهل والجيران والذخائر للزمان ، في الدار التي منها خرجت ، والبيضة التي فيها نشأت .... "(2) وفي الرسالة ما يدل دلالة واضحة على أن أهل قرطبة استنجدوا بابن أبي عامر ، ولكنه لم يستطع أن يستجيب ويقتنذ لنداءاتهم المستغيثة لأنه كان منصرفا الى إخماد الفتن المشتعلة في مملكته ، ومعالجة الأوضاع الداخلية في بلاده . وهو يعتذر عن التأخر الذي اضطرته اليه مثل هذه الظروف بقوله : " فلو أمكن أن تصير اليكم امدادى مع الرياح ، وتطير نحوكم أجنادى بألف جناح ، ملبيا لدعوتكم .... لما تأخر ذلك عنكم طرفة .... لكن عوادى الفتن، وعوائق الزمن منعت من العجلة قبل احكامي لما حاولته من تأليف الكلمة ..."(3)

وبعد أن يبسط لأهل قرطبة هذه الأعذار يتناول بالحديث مجموع المبادرات التي أوعز بها الى رجاله استعدادا لنصرة أهل العاصمة الأندلسية المحيقة، فيقول لهم " نفذت ثقاتي الى الجهات لتخير الأجناد، وانتخال الانجاد ، ليكون جميعهم صفوة،

---

(1) هو عبد العزيز ، صاحب بلنسية ، تلقب بألقاب جده ابن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 246 .
(3) نفسه ، ص : 247 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا يشوبهم أحد من الحشوة ، وشرطت أن يتوجه مِنْ قِبَلي اليكم . . مَنْ له المزيّة والظهور . . . . يسمحون عنكم ببذل النفوس ، ويقوم الواحد منهم مكان الخميس . . . ."(1)

وسواء كان الأمير العامري صادقا في هذه الاستعدادات أم أنه كان يعد بما لا طاقة له عليه ، فالثابت في التاريخ أن محاولاته ومحاولات غيره لم تنل شيئا من خطط بني عباد الذين ملكوا بالفعل حاضرة البلاد ، ورمزَ أمجادها ، وضموها الى أراضيهم في جملة ماضمّوا من المدن والأقاليم .

في مثل هذه الرسائل نشاط سياسي مؤكد ، وفيها حرب للخصوم تشبه ، من بعض الوجوه ، ما يعرف اليوم بالحرب النفسية . ذلك أن مخاطبة الناس ، و " التشويش " على الحكام ، وتبشير الأهالي بقرب امدادهم بالجنود ، وتمكينهم من وسائل محاربة العدو والانتصار عليه ، كل ذلك مما يُدخل الرعب في قلوب الحكام ويملأ نفوسهم بالخوف والقلق .

والذى يستلفت الانتباه حقا في سياق هذه الفئة من الانشاءات النثرية ، أننا وجدنا رسالة ذات طابع شخصي لا تنطق باسم دولة أو حاكم معين ، ولكنها مع ذلك تخاطب أهل مدينة بأسرها ، تماما كما هو الشأن في الرسالتين المتقدمتين . وتلك رسالة وزير دولة المرية : ابن عباس (2) .

والرسالة فيها عتاب من موجه الى أهل غرناطة الذين ساءت علاقتهم بأهل المرية بعد أن كان بعضهم لبعض نعم الحلفاء والسعداء . وهو يستهلها بتساؤل حائر عن سبب انقلاب أهل غرناطة عليه : " لم أعثر ناقة رضاكم فأسخط ، ولا أكلت من شجرة عقوقكم فأشحط ، وانما أعطيتكم صفقة الصافية لا كرم ، وانحرفت عنكم على زاوية المقة كي لا أمان . . . ."(3)

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 247 .

(2) هو أبو جعفر أحمد بن عباس وزير كاتب في دولة زهير الفتى بالمرية ، مات مقتولا مع أميره في غرناطة بتدبير من حليفهما القديم الأمير باديس بن حبوس . في خبر طويل . انظر ابن عذارى : 3/ 169 ، وابن حيان في الذخيرة 1/2 ، ص : 656 .

(3) ذ : 1/2 ، ص : 649 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كان التاريخ يحدثنا بأن أصحاب غرناطة كانوا يحمّلون ابن عباس هذا، أكبر قدر من المسؤولية على ما آلت علاقتهم بأصحاب المرية من فساد وتدهور بعد التقارب والوداد، فان الرسالة تنقل الينا عينات معبرة من عواطف الحقد والكراهية التي يضمرونها له. وذلك حين يقول لهم : " جعلتموني مركز دائرتكم في اللفظ، وعين سهايتم في القصد، فضربتم بي أمثال السوء، الى معان طوال ألصقتم بي عارها، وطرقتموني شنارها، استدرارا عليّ كالسيل بالسبيل، وتسديدا اليّ كالسهم، وتولعا بي كأني عندكم ذنب الدهر، تلزموني صيد العنقاء في جحوركم، وتشترطون عليّ بيض الأنوق في بيوتكم .... "(1)

ويبدو أن ابن عباس قد ناله نصيب من انعام أهل غرناطة وأصابه شيء من جميلهم، فهم يمنون به عليه، فلذلك نراه لا يصل الى حد انكار تلك النعم كلها، ولكنه يقلل من شأنها، ويذكرهم بما قدمه لهم من الخدمات. يقول : " ولقد اجهدت نفسي في خدمة هواكم، واتباع رضاكم، وصرت منقادا لرمز حواجبكم، وتبعا لركابكم .... "(2)

أليست هذه رسالة طريفة من رجل الى " أهل غرناطة " ؟ بلى، ولكننا اذا تعمقنا فيها وجدناها تختلف عن الرسالتين السابقتين اختلافات جوهرية : منها أنها لا تشبههما في عمومية الخطاب، فهذه توجه الخطاب، بصفة رئيسية، الى مجموعة قليلة من الحكام في غرناطة، على رأسهم أمير البلاد، بينما كان الخطاب فيهما الى جماعة من الناس، لا يملكون شيئا من الحكم، ولكنهم يملكون توجيه الجماهير والتأثير فيها. فالمخاطِب يقصد، بكل تأكيد، أن يتجاوز الجماعة القليلة الى من وراءها من سواد الناس. ثم ان هناك فرقا جوهريا آخر بين هذين الضربين من المخاطبات وهو أن رسالة ابن عباس ذات طابع عتابي، فهي ترمي الى الدفاع عن النفس، وان بلغت ضرورات هذا الدفاع حدود الهجاء والسباب. أما الرسالتان المتقدمتان فهما استفزازيتان، فيهما اثارة مقصودة.

---

(1) ذ : 2/1، ص : 649.

(2) نفسه، ص : 650.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كان هذا نموذجا من النثر الديواني الذى يحمل طابع الخطاب الجماعي ، ويغلب عليه مخاطبة جموع الناس لتحقيق المآرب السياسية المبيتة . وفي التراث الأدبي الذى وصل الينا ، نوع آخر من هذا النثر يشبهه في كونه يخاطب أفرادا من الشعب، ويختلف عنه في أن هؤلاء الأفراد قد ثاروا على السلطة ، وشقوا عصى الطاعة ، ولاذوا بالتمرّد والعصيان ، وهذا هو النثر الذى فيه مخاطبة الثائرين على نحو من الادعاء

•• مخاطبة الثائرين :

كان العصر عصر فتنة متفشية في جميع أنحاء البلاد ، وكانت دواعي الثورة على السلطة المركزية ، والتمرد على الأمراء الحاكمين كثيرة ، منها ما يرجع الى عوامل سياسية ودينية ، ومنها ما هو من قبيل المطامع ، وسعى البعض الى الظفر بأسباب السلطة وبسط النفوذ . أما الأمراء الحاكمون فكانوا يدركون — أتم الادراك — أيّ شر تلحقه مثل تلك الثورات بالبلاد ، وأي نتائج وخيمة يكون لها على هيبة الحكم وسمعة المملكة ، ولذلك فلا غرْوَ أن يسارعوا الى مخاطبة الثائرين ، ومن يستطيع التأثير فيهم ، لحثهم على الصلح وإغرائهم بالابتعاد عن الفتنة ، والتزام صف المسلمين الواحد .

ومن أمثلة هذا الخطاب ما كتبه ابن برد الأصغر(1) في سياق لا نعرفه ، ولكننا نقدر أنه خطاب موجه عن أحد الأمراء الى بعض الثائرين في المقاطعات . والخطاب يبتدئ بمعاني الحث على اطفاء نار الفتنة ، من مثل قوله : " فقد آن أن توقظوا سواهي العقول ، وأن تريحوا عوازب الأحلام ، فتسلوا السخائم ، وتغمدوا الصوارم ، وتعيدوا السهام في كنائنها ..... "(2)

ثم يأخذ المخاطِب في الحديث عن جموع الأبرياء الذين يتحملون ويلات الفتنة دون أن يكون لهم ضلع فيها ، ولا مسؤولية عنها : " فكم صَالٍ بناركم لم يَشْرَكْكم في قدحها ، وشَقِيٍّ بفِتْنَتِكم ، ولم يخص معكم بدا فيها ، ومَوْتُور سعيتم لذهاب وفره ، ومستور أعلنتم على الكشاف ستره .... " (3)

---

(1) ابن برد الأصغر ، هو أبو حفص ، من أسرة قرطبية كبيرة . وأخباره في الذخيرة 1/1 ص: 486 .
(2) ذ : 1/1 ، ص : 489 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن الرسالة لا تخلص كلها لهذا الوعظ الصالح ، وهذا الاغراء الملحّ بالانحياز الى جانب الحق والصواب ، اذ أنها تعتمد بعد ذلك لهجة التهديد الواضح كما في قوله : " أما والله لتجرعُنّ الخُطّتيان ، ولتقرعن الاسنان ، ولتحاولن الأوبة ولا مآب لكم ، والتوبة ولا قبول منكم "(1) .

ولم تكن هذه الثورات تفضي دوما الى ما يحقق منطلقاتها ، فكان الحكام - في كثير من الأحيان - يحققون النصر عليها ويلقون القبض على مفتعليها ، وحينئذ تختلف معاملة أولائك الحكام للمسؤولين عن الفتنة والسائرين في ركابها ، فمنهم من يعاقب ويشتد في العقاب ، ومنهم من يغفر ويسامح استجابة لطبيعة فيه ، أو تحقيقا لمنافع سياسية لا تغيب عن بال .

فمن حالات المسامحة والمغفرة عهد الأمان الذي كتبه ابن برد الأصغر ، عن أمير لا نعرفه ، لثائر غير مذكور أيضا ، وقد انهزم ، فألقي القبض عليه ، ووقع في الأسر ، فهو لا يملك شرطا يشترطه ، ولا أمانا يجيبه ، ومع ذلك فانه فاز بالعفو وكتبت له السلامة .

يبدأ هذا العهد بالاشارة الى هذه الحقيقة بقوله : " ان الغلبة لنا ، والظهور عليك جلباك الينا على قدمك دون عهد ولا عقد يمنحان من اراقة دمك "(2) ثم يعلل هذه المعاملة الرحيمة بحكمة الأمير ، ويلقي بمسؤولية الثورة والعصيان على الوالي السابق للجهة التي وقع فيها التمرد ، وذلك حين يقول : " ولكنا بما وهب الله تعالى لنا من الاشراف على سرائر الرياسة ، والحفظ لشرائع السياسة ، تأملنا من ساس جهتك قِبَلَنا ، فوجدنا يدَ سياسته خرقاء ، وعينَ حزامته عوراء ، وقَدَمَ مُدَارَاتِه شلّاء ، لأنه مال عن ترغيبك فلم تَسْرُجْه ، وعن ترهيبك فلم تخشه ، فأدّتك حاجتك الى طلاب العلم المدنية ...."(3)

وتنحصر مسؤولية الوالي السابق - كما يفهم من هذا الكلام - في كونه لم يحسن استخدام الترغيب والترهيب في الوقت المناسب ، أما الأمان نفسه فالأمير يمنحه بشرط

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 498 .
(2) نفسه ، ص : 499 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكيد وهو أن لا يعود الى فعله الأول، أو يحاول الخروج عن الطاعة من جديد : " وأمان الله لك مبسوط منا ، ومواثيقه بالوفاء لك معقودة علينا، وأنت الى جهتك معروف ، وبعفونا والعافية منا مكنوف ، إلا أن تطيش الصنيعة عندك ، فتخلع الربقة ، وتمرق من الطاعة .... "(1)

انه لعهد غريب فعلا اذ يصدر عن أمير غالب، ويكون المستفيد منه ، على هذا الوجه المشرف ، مهزوم لا يستطيع أن يملي على قاهره أي شرط من الشروط . ولو أن المصادر حفظت لنا الأطراف المعنية بهذا الأمان لكان ربما أمكننا أن نعرف بعض أسرار هذا التعاقد الطريف .

واذا كانت طرافة هذا العهد تكمن في شذوذه ، لأنه في تلك الحالة كان يكفي المنتصر أن يعفو على المهزوم دون أن يلتزم بالتعاقد الذي أوردنا بعض فقراته ، فاننا نملك عهد أمان من النوع التقليدي ، وهو الذي يعني صداما بين طرفين بشروط تختلف باختلاف ميزان القوة بينهما . وهذا العهد من انشاء ابن برد الأصغر ، أيضا ، ونحن كذلك هنا لا نعرف لا الحاكم الذي صدر عنه ، ولا الثوار الذين مُنِحُوه ، وهو يبدأ بداية غريبة بالفعل ، وهي على هذا النحو : " أما بعد ، فانكم سألتم الأمان أو أن تلحظت السيوف اليكم ، وحامت المنايا عليكم ، وهمت حظائر الخذلان أن تفرج لنا عنكم ، وأيدي العصيان أن تتحفنا بكم ... "(2) .

أليس غريبا حقا أن نرى من يعطي الأمان يذكّر بقدرته على الفتك والبطش في موقف لا ينبغي أن يكون فيه الحديث الا عن السلم والأمن ... ولذلك فنحن نرى أن هذا العهد لا يختلف عن الأول الا في كون الثائرين هم الذين طلبوا الأمان ، فكأنه استسلام للأمير ، وهو يتفضل عليهم بالصفح والغفران . وفي النص ما يوحي بذلك . فها هو صاحب الأمر يتحدث عن قوته فيقول : " ولو كِلْنَا لكم بصاعكم ، ولم نَرْعَ فيكم ذمة اصطناعكم ، لضاق عنكم ملبس الغفران ، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان .... "(3)

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 500 .

(2) نفسه .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل ان في النص ذكرا للعفو بصريح العبارة ، فكأن العهد ليس الا بيانا عاما ، أو بلاغا اعلاميا بالعفو لاخبار الناس به . وهذا في قوله : " ولولا . . . . رجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأديبا لكم ، لشَرِبَت دماءكم سباعُ الكُماة ، وأكلت لحومكم ضِبَاعُ الفلاة . . . "[1] ومع ذلك ففي النص صيغة التأمين التقليدية في كل العهود العربية . ففي آخر النص : " وقد أعطيناكم ، بتأمينا اياكم ، عهد الله تعالى . . . ونحن لا نخفرهما أيام حياتنا ، الا أن تكون لكم كرّة ، ولغدرتكم ضرّة ، فيومئذ لا اعذار لكم ، ولا اقصار عنكم حتى تحصدكم ظُبَاةُ السيوف . . . "[2]

ان هذه النصوص كلها ، تحمل على ما بينها من اختلاف معاني التعاقد والتعاهد بين الحكام ومن يخرجون عن طاعتهم ، وقد وجدنا الأمان فيها يُعطى تارة بطلب من الثائرين ، وتارة بمبادرة من الأمير أو الحاكم على سبيل اصطناع أولئك الخارجين ، أو تألفًا لقلوبهم ، واشاعةً لجو الرحمة والأمان في البلاد .

ويبدو أننا نستطيع أن نعدّ بعض عهود البيعة من قبيل هذه النصوص ومن زمرتها . ذلك أن أحد النصوص التي بين أيدينا يحمل من معاني التشديد على الالتزام بطاعة الأمير ما يوحي بأن المبايع انما هو عاص تائب ، أو ثائر خرج من الصف ثم عاد اليه . وأيا ما يكون الأمر فنحن لا نرى لماذا تكون بيعة رجلٍ مّا موضوعَ عهدٍ مكتوب اذا لم يكتنفها ظرف استثنائي يقتضي ضرورة تسجيلها واشهارها بين الناس .

كتب عهد البيعة الكاتب المتقدم نفسه : ابن برد الأصغر ، عن " امام " يدعى " عبد الله " وهي بيانات غير مفيدة لأنها لا تشير الى امام بعينه ، ولا تعرفنا أي عباد الله هو المقصود . أما المُبايِع فقد حذف اسمه بتاتا وأشير اليه بلفظة : " فلان " وهي عادة صاحب الذخيرة التي لا يكاد يحيد عنها .

يبتدئ عهد البيعة ، في كتاب الذخيرة كما يلي : " بايع الامامَ عبدَ الله فلانٌ ، بانشراح صدر وطيب نفس ، ونصاحة جيب ، وسلامة غيب ، بيعةَ رضى واختيار ، لا بيعة اكراه واجبار ، على السمع والطاعة ، والموازرة والنصرة . . . في السرّ والعلانية . . . "[3]

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 501 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 493 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولكن ، اذا كانت بيعة " رضى واختيار " كما في العهد فلماذا كان على هـذا المبايع أن يقسم على الوفاء و " القيام بشروط بيعته " بهذه الأيمان المغلّظة التي جاءت في قوله : " يقسم .... بالله الذى لا اله الا هو الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة والقائم على كل نفس بما كسبت ، ويعطيه على ذلك كله ذمة الله وذمة محمد رسوله ، وذمة الأنبياء والمرسلين ، والملائكة والمقربين ، وعباد الله الصالحين "(1).

لا أظن أبدا ، أن بيعة عادية تستلزم هذا التشديد في القسم على الوفاء بها والقيام بشروطها . والحق أن هذه الصيغة توحي بأن المبايع اما أن يكون ـ كما أسلفنا ـ ثائرا عاد الى الصفوف ، أو رجلا خطير المركز محتمل الثورة وشيك الخروج ، لأن في ولاية الامام المذكور ما لا يرضيه ولا يقبله .

والطريف حقا ، في هذه المبايعة ، هو ما ينتهي به العهد من عد لضروب المستحيلات التي على المبايع أن يقوم بها اذا خان عهده ولم يف بوعده . وهي على هذا النحو : " ومتى خَلَعْتَ ربقةً بخَتْر أو غَدْر ، أو طويت كشحا على نكث أو حنث ، فعليك المشي الى بيت الله الحرام ، ببطحاء مكة ، من مستقرك ثلاثين حجة نذرا واجبا لا يقبل الله تعالى الا الوفاء به . وكل زوجة لك مصيرة ، أو تنكحها الى ثلاثين سنة ، فطالق تحتك طلاق الحرج ثلاثا . وكل أمة أو غمرة أو عبد لك أو تملكه ، فأحرار لوجه الله العظيم . وكل مال لك من صامت أو ناطق أو تملكه الى ثلاثين سنة ، غير عشرة دنانير .... فصدقة على الفقراء والمساكين ...." (2)

هذه نماذج من النثر الذى خاطب ، بواسطته ، حكامُ الجزيرة طوائف المتمردين على حكمهم ، الرافضين لسلطانهم ، أو من يُحتَمل منهم وقوع ذلك ، وبها نختم هذا الفصل الذى درسنا فيه أنواع الانشاء الديواني .

ولقد استبان لنا من خلال هذه الدراسة أن هذا النثر قد كان من التنوع بحيث استطاع أن يغطي مجموع الاهتمامات التي يمكن أن تكون لحكام الدولة والقائمين على تسييرها . وقد عمدنا الى النماذج التي تمثل ارادة الحاكم بالذات ، فهي اما صادرة عنه أو معبرة عن رأيه .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 499 .

(2) نفسه .

وقد رأينا أن هذا النثر الديواني قد نهض بالتعبير عن مجموع العلاقات التي يقيمها الحكم في الأندلس مع الأطراف التي لابد له أن يتعامل معها وأن يسعى الى مخاطبتها وتلقّي مخاطباتها المتصلة بشؤون الحكم وتدبير المملكة . وهكذا وجدنا العلاقات السلطانية نامية ، متنوعة ، تعكس شدة حاجة دُوَيلات الأندلس الى التشاور وتبادل المعلومات ، كما وجدنا طبيعة التخاطب بين أمرائها تعكس الى حد بعيد ميزان القوة فيما بينهم . وقد استخلصنا أن ظروفا سياسية معلومة ، ترجع الى طبيعة الصراع في الأندلس ، قد صرفت الكثير من أولائك الأمراء عن تنمية علاقاتهم الخارجية بالممالك العربية أو غير العربية القائمة خارج الجزيرة .

وكان محتملا ، بل متوقعا أن نجد لملوك الجزيرة علاقات ادارية واسعة ، تترجم عنها نصوص تنظيمية متعددة ومتنوعة ، ولكننا لم نجد شيئا من ذلك ، وانحصر ما وصل الينا من هذا الانشاء في نماذج قليلة لايمكن أن ترسم لنا بحال من الأحوال الملامح الحقيقية للحياة الادارية في هذا العصر .

أما العلاقات الشعبية ، فلئن كانت تعكس ، في مجملها ، اهتمامات الحكام وسعيهم الحثيث الى اخماد بؤر التوتر ، في ذلك الواقع الأليم المتميز بالفتن الكثيرة والحروب الأهلية العديدة التي مزقت شمل المسلمين في كل مكان ، الا أنها مع ذلك لا تمنحنا الا وجها واحدا من وجوه الواقع الشعبي في الأندلس ، وان كثيرا من ملامح صورة المجتمع في هذه الفترة ستتضح لنا في الفصلين الآتيين بعد دراستنا للنثر التوسلي ، والنثر الاجتماعي .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

" النَّثْرُ التَّوَسُّلِي "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

النثر التوسلي

بين أيدينا مجموعة وافرة من النصوص النثرية ، تلتقي كلها عند طابعها الاجتماعي الواضح ، ولكنها لا تقتصر على هذه السمات العامة التي تشترك فيها مع طوائف أخرى من " النثر الاجتماعي " بل تتعداها الى خصائص تفصيلية دقيقة تجمع بينها ، وتميزها عن سائر ضروب الانشاء الأخرى ، وذلك أنها ترمي كلها الى تحقيق غرض ما لدى الحكام ، وأعيان الدولة ، ووجهاء المجتمع ، متخذة الى ذلك أسلوبا من أساليب التوسل .

وهكذا ، فان كثيرا من نماذج هذا الانشاء يصح أن يوضع في مقابل النثر الديواني ليكون ، في وجه من وجوهه ، موازيا له . فبينما كان النثر الديواني صادرا عن حُكّام ، سواء كانوا ملوكا وأمراء ، أو قادة ، أو ولاة .... فان جانبا معتبرا من هذا النثر التوسلي صادر عن طوائف عديدة من أبناء الشعب ، أو كُتِب في قضاء حوائجهم ، وهم يعانون محن الزمان القاسية ، ويكابدون ألوانا من بلاياه .

وقد اقتضت ضرورات التقسيم والتنظيم المنهجيّين ، أن نوزع محتويات هذا النثر ومضامينه الكبرى على محاور ثلاثة هي كما يلي :

أ — في التودُّد والاستعطاف .
ب — في التكسُّب والاستجداء .
ج — في المنايسة والاستشفاع .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ – في التودّد والاستعطاف .

اذا كان صحيحا أن الانسان لا يستعطف الا من يقدِّر فيه أنه يملك امكانية العطف عليه ، سواء كانت ذات طابع مادي أو معنوي ، فاننا ندرك حينئذ أن هؤلاء المُسْتَعْطَفين، والمتودَّدِ اليهم ، لا يمكن أن يكونوا الا من الفئات النافذة في المجتمع ، ذات الهيبة والسلطان : من الأمراء والملوك أولا ، ثم من وزرائهم ومن كان في مستواهم من الكبراء والأعيان .

وهذا الاستعطاف لا يخرج في حقيقته عن معنى من معاني المدح والثناء . واذا كنا أفردناه بعنوان مستقل فلأنّ كل الانشاء التوسلي يدور في هذا الفلك ، والا فبأى شيء يتوسل الضعيف الى القوىّ ان لم يكن بتحريك أوتار الكبرياء والغرور والعنجهية فيه .... فالمدح اذن هو القالب العام الذى تَصُبُّ فيه المعاني الأخرى التي يتوسط بها الكاتب لبلوغ أهدافه المنشودة ، سواء كانت من قبيل الاستعطاف ، أو الشفاعة ، أو التكسب والاستجداء ....

1 – مدح الملوك واستعطافهم

ولدينا في استعطاف الملوك مجموعة من الرسائل الهامة التي صدر بعضها عن ألمع أدباء هذا العصر مثل ابن زيدون[1] الذى دبّج رسائل كثيرة في هذا الغرض. ونحن نريد أن نكتفي بالاشارة الى بعضها ، ولاسيما رسالته المشهورة التي خاطب بها ، من معتقله ، ابن جهور[2] زعيم قرطبة ، وهي المعروفة بالرسالة الجدّيّة[3] .

---

(1) ابن زيدون : شاعر قرطبة الأوّل في عهد ملوك الطوائف . قربه بنو جهور ثم اتصل ببني عباد . توفي 463 هـ .

(2) ابن جهور : أبو الحزم بن جهور حكم قرطبة من 422 الى 435 هـ . وانظر أخبار هذه الدولة عند ابن عذارى في ج 3 ، ص : 135 . ولعل المقصود هنا هو ابنه أبو الوليد الذي حكم بعده .

(3) تمييزا لها من الرسالة الهزلية التي أنشأها ابن زيدون في التهكم بابن عبدوس غريمه في " وَلاَّدة ".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

انها رسالة طويلة ، تظهر فيها نفس شاعر مرهف الحس، وهو يذوب حسرة لما يلقاه في سجنه من ألم وهوان . وهي تبدأ برسم ذلك الاطار العام ، الذي تحدثنا عنه ، من المدح والثناء والتودّد كأن يقول فيها : "يامولاي وسيدي الذي ودادي له ، واعتدادي به ، واعتمادي عليه ، أبقاك الله ماضي حد العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، ...."(1)

على أن هذا ليس الا واسطة تتيح له مخاطبة الأمير في الشأن الذي يزعجه ، ويسدّ عليه آفاق الأمل ، انه السجن الذي يكابد المحن فيه . ولابن زيدون أسلوب في طرح قضيته ، وهو يتلخص في الشكوى من عدم التفات الأمير اليه ، وعدم الاسراع الى فك قيوده . ولكن الطريف في هذا الطرح هو أن الكاتب يظهر ، في كلامه ، بمظهر من يوسّع للأمير باب العذر ، ويهون من نتائج اهماله ، على الرغم من ثقل الحمل الذي يحمله الأسير المكبل . ذلك حيث يقول : "ان سلبتني — أعزك الله — لباس انعامك ، ... وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى الى تأميلي لك ، وسمع (الأصم) ثنائي عليك .... فلا غرو ، فقد يغص بالماء شاربه ، ...... واني لأتجلد فأقول : هل أنا الا يد أدماها سوارها ، وجبين عضه اكليله ، .... والعتب محمود عواقبه ...."(2)

أجل ان ابن زيدون هو الذي يتحدث عن العتب وهو يخاطب أمير البلاد ، أليست هذه معاني طريفة ؟ ولعل مبعثها في نفس الكاتب الأسير أنه لا يدري أي ذنب ارتكب حتى يعاقب عليه بالسجن(3) : "وليت شعري ما الذنب الذي أذنبت ولم يسعه العفو ، ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ؟ أو مسيئا فأين الفضل ؟"(4) ثم يأخذ في استعراض طويل للذنوب التاريخية التي لو ارتكبها لكان فيها ما يسوغ هذا السجن المفروض عليه ، وهذه المعاملة التي يلقاها من أوليائه : "وما أراني الا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت ، وعكفت على العجل ، واعتديت في السبت ، .... وعاهدت

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 340 .
(2) نفسه .
(3) الذي سجنه هو قاضي قرطبة أبو محمد عبدالله بن أحمد المكوي الذي تولى قضاءها من 432 الى 435 هـ . وانظر هامش المحقق في ذ : 1/1 ، ص : 333 .
(4) ذ : 1/1 ، ص : 340 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قريشا على ما في الصحيفة ، . . . . . وأنفت من امارة أسامة ، وزعمت ان امارة الصديق فلتة ، . . . . . لكان فيما جرى علي ما يحتمل أن يسمّى نكالا ، ويدعى ولو على المجاز عقابا "(1).

وبعد هذا التهويل للعقاب الذى أصابه ، يأخذ في الاستعطاف والتصاغر ليستدر رأفة ابن جهور عليه ، ويختم بتعليق الأمل به والرجاء عليه . . .

لم نكن نريد الاحاطة بكل مضامين رسالة ابن زيدون الجدية هذه ، فهي طويلة جدّا ، واستعراض كل معانيها التفصيلية يخرجنا عن الموضوع . وحسبنا أن نشير ، في نهاية ما نقوله عنها الى أنها قصيدة شعر في قالب رسالة نثرية ، لأنّ نفس ابن زيدون هي قبل كل شيء ، نفس شاعرة . والدليل على ذلك أن الأديب لم يستطع أن يكبح جماح الروح الشاعرة فيه ، فأطلق لها العنان في الأخير ، وختم الرسالة بمقطوعة شعرية رقيقة فيها تلخيص لأمهات المعاني التي وردت فيها . . .

والحق أن هذا النثر الذى يخاطب به الأمراء والملوك ينقلب في كثير من الأحيان الى قالب المدح التقليدي في القصيدة العربية ، وكل ما يميزه عنه انه هنا نثر يفارق قيود الوزن والقافية وان التزم بقيود الموازنة والسجع والتنغيم . ولعل هذه المعاني المدحية أظهر عند ابن زيدون ، وهي أكثر عنده من غيره . فمن رسائله رسالة وجهها الى المعتضد بن عباد يحرض عليه فيها الانعام عليه بادنائه منه وتقريبه من مجلسه .

تبدأ الرسالة بمعاني التعظيم والاجلال المألوفة : "أطال الله بقاء الحاجب(2) فخر الدولة ، مولاى وسيدى ، ومولى المناقب الجليلة ، والضرائب النبيسة ، في أكمل ما تكفّل له به من علو القدر ، ونفاذ الأمر ، وخصه من النعم بأسبغها سربالا . . . "(3)

وفي اطار هذا المدح والثناء يسرّب معاني الأرب الذى يقصد اليه والغاية التي يبتغي الوصول اليها ، فيقول : " وحسبي أن أمَلي قد ارتاد الجناب الرحب

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 341 .
(2) من المعلوم أن المعتضد كان يدعي أنه مجرّد حاجب للخليفة هشام المؤيد الذى اختلف بشأنه واحدة من أغرب الحيل التاريخية . راجع ماكتبناه في الفصل الأول .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 405 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمشرب العذب ، ولعل الحظوظ ستكشف ، والنوائب ستصرف ، الى أن أبلغ أبعد غايات الأمل من مشاهدة حضرته العلياء ، والنظر الى غرته الزهراء ، فوالله مايصرف فكري ، ولا ينصرم حينٌ من عمري ، الا في الذكر له ، والشوق اليه ، وتصور المثول بين يديه ..... "(1)

وابن زيدون رجل خبير بمخاطبة الملوك ، يعرف كيف يهز عواطفهم ، وكيف يستميل أهواءهم لأنه يديم العزف لهم على الأنغام التي تزين لهم أنهم فارقوا مرتبة البشرية ، ودنوا من مرتبة التقديس والتأليه .... فانظر اليه كيف يجسّد لحظة وقوفه بين يدي المعتضد بن عباد ، وكأنها ليست مجرّد احتمال يكتنفه الغيب ، وهو موكول بارادة الملك ، بل يستحضرها كأنها شيء واقع . ويزيد في تكثيف أبعادها بأن يصف بعضا من وقائعها : المهابة فالحَصَر ، ويعتذر عن ذلك بمَثَلٍ يقتاده اقتيادا موفقا من تاريخ أرقى نماذج العظمة والسلطان عند العرب : هارون الرشيد . كل ذلك في هذه الكلمات القليلة : " وأنا أقدم الاعتذار من مهابة ستملك جناني ، وحَصَر يكاد يقطع في أول المشافهة لساني ، فان حدث ذلك فعذري عذر الفضل بن سهل (2)، وقد انقطع بين يدي الرشيد (3) فقال له : يا أمير المؤمنين من فراهة العبد أن تملك قلبَه مهابةُ سيّده ". (4).

والكاتب يضع نصب عينيه تقديم الولاء في قالب الشكر والثناء في كل ظرف من الظروف ، حتى ليبدو أحيانا وكأنه يتصيد فرص مخاطبة الملك ، وابلاغه مقدار ماعنده لديه من الجلالة والتقدير . وأية فرصة أكثر ملاءمة لقضاء هذا الغرض من مغادرة العاصمة الملكية والعودة الى دياره وقد نال مبتغاه من الثروة والجاه ، فلذلك كانت كل جارحة فيه لسانا يترنم بأناشيد المدح والثناء ، كأن يقول له : " ... إني لم أزل منذ فارقت حضرته الجليلة ، حضرة المجد والسيادة ، ومحل الاقبال والسعادة ، لَهِجَ اللسان

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 406 .
(2) الفضل بن سهل : (154 - 202 هـ) وزير المأمون وكان قبل ذلك صاحبه وأسلم على يده . وانظر وفيات الأعيان والاعلام .
(3) هارون الرشيد : خامس خلفاء الدولة العباسية ، أبوه المهدي وجده المنصور ، حكم من 170 الى 193 هـ .
(4) ذ : 1/1 ، ص : 406 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما أجناني من ثمار الحكمة والنعمة ، وأفادني من عقد الأدب والنشب .... والله يبقيه لعبيده الذين أنا آخرهم في الخدمة ، وأولهم في شكر النعمة ، ويرفع من هممهم ما انخفض ، ويبسط من آمالهم ما انقبض ، ولا يعدمهم التقلب في نعمه ، والاعتلاق بأسباب ذممه ، بمجده وكرمه ". (1)

ولعلّنا لسنا في حاجة الى التعليق على هذا الكلام ذي الغرض البيّن ، فهو ان كان يشكر ولي نعمته على ماسبق من أياديه ، فانه يحرص على الاستزادة منها ، والتمهيد للظفر بما يشبهها ويفوقها في مستقبل يراه وقفا على رضا سيّده ....

كان هذا شأن ابن زيدون في تطور علاقته بملك اشبيلية ، وطريقته في أداء واجب المدح جزاء على ماناله من عوارف المعتضد . وقد تبيّن لنا — من خلال النصوص التي استعرضناها — أنه يتحمل قدرا واضحا من المسؤولية في الزج بالنثر العربي الأندلسي في متاهات التوسل الرخيص الذي تهان فيه كرامة الكاتب عن طريق المبالغة في التصاغر والتذلل ، أمام ملك تحشد لوصف قدره النعوت الكاذبة ، البعيدة عن الحق ، المجانبة للواقع .... بيد أنه من الخطل الذهاب الى أن ابن زيدون يتحمل وحده هذه المسؤولية التي يتقاسمها كل كتاب هذه المرحلة سواء بما كتبته أقلامهم في تقديس أولائك الأمراء التافهين وكياناتهم المزيفة ، أو في قبول ذلك بالسكوت عليه .

ومن هؤلاء الذين سلكوا هذه السبيل واحد من أكبر كتاب هذا العصر وهو أبو عبدالله البزلياني (2) الذي قال عنه صاحب الذخيرة : " أحد شيوخ الكتاب ، وجهابذة أهل الآداب ، ممن أدار الملوك ودبرها ، وطوى الممالك ونشرها "(3).

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 407.

(2) ابو عبدالله محمد بن أحمد البزلياني كتب لأمراء دولة غرناطة الزيريين ، ثم انتقل الى دولة بني عباد في اشبيلية . وفي أخباره أنه ممن شارك في ثورة اسماعيل على أبيه المعتضد ، فقتل في جملة من قتل فيها .
انظر " الذخيرة " 2/1 ، ص : 624 وهامش المحقق فيها .

(3) ذ : 2/1 ، ص : 624.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد كتب البزلياني هذا مجموعة من النصوص احتفظت لنا المصادر ببعض مقاطعها ، في غرض مدح الملوك واستعطافهم والتودد اليهم . وينبغي الاشارة في البداية الى أن هذه النصوص قد جاءت مبتورة عن سياقها ، فنحن لا ندري ، على وجه الدقة ، الى من هي موجهة ، بل اننا لا نعرف بالتحديد ان كانت صادرة عن البزلياني نفسه ، فهي تعبر عن واقع حاله أو أنه كتبها على لسان غيره . ومهما يكن من أمرها فالذي لا يكاد يتسرب الشك اليه أنها توسلية الطابع ، وأنها في الصميم من الغرض الذي نحن بصدده : مدح الملوك واستعطافهم والتودّد اليهم .

من هذه المقاطع المدحية فقرة يقول فيها : " هذا الوقت الذي كنت أَتَأَيَّاهُ ، والحين الذي مازلت أتمناه ، والزمن الذي قاسيت فيه تعب الانتظار ، وقطعت الى بلوغه مسافة الليل والنهار . والى مثلك يُتَقَرَّب باخلاص الوداد ، ومن فضلك تُجتنى ثمرة حسن الاعتقاد . ولا يجتمع رجاؤك واليأس في قلب ، ولا تحل محبتك والحرمان في خلب"(1).

وله في مثل هذا مقطع آخر يقول فيه : " قد قيدني من برك وايثارك ، ما أفصح عن طيب نجارك ، وأوضح عندي كريم آثارك ، وتركني ارسف في قيود الامتنان ، وأنوء بأعباء الاحسان ". (2) ثم يتناول معاني الذلة والصغار ، وهوان الشأن ، وما يقابلها ضمنا ، أو ما توحي به من أوصاف الممدوح التي هي الجلال ، والعظمة ، والمهابة . يقول : " وأقعدني عن لقائك لسان حسير ، وخاطر يسير ، وحد كليل ، ولحظ من الحياء عليل ، . . . . "(3)

ثم تنتهي هذه المقطوعة بما يوحي بظروف قاسية جدت على الكاتب ، وانتقلت به من حال اليسر والأمان الى حال العسر والمشقة والاضطراب " وشيمة الدهر اذا صفا تكدّر ، واذا عافى تنكّر ، واذا سَرَّ أحزن ، واذا سهل اخشوشن ، واذا سمح بالانعام بخل بالتمام ". (4)

والذي يبدو جليا أن البزلياني أقل تطرفا في التذلل أمام الممدوح ، وأقل إغراقا في إضفاء الأوصاف الفضفاضة عليه . ولعل ذلك بالذات هو الذي جعل كتابته أقل

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 632 .
(2) نفسه ، ص : 631 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماء وأكثر صلابة ، وأقرب الى الخشونة منها الى الرقة . ونحن لا نستطيع أن نتوسع في التأويلات لتفسير الطابع الذى تتميز به مضامين هذه الفقرات مادمنا نجهل سياقها الحقيقي ، وأصحابها الموجهة اليهم . فربما كانت في النهاية مقتطفات من نصوص رسمية لا تعبر في كثير ولا قليل عن أوضاع الكاتب . . . وعلى كل حال فان نثر ابن زيدون لا يمكن أن يقارن بنثر البزلياني ، فهما يختلفان نهجا وأسلوبا وغاية . . . .

ولو كان علينا أن نبحث عمن يمكن أن نجد له شبيها بابن زيدون من بين الأدباء الذين طرقوا مضامين التودد والاستعطاف والمدح ، لكان الأديب أبو محمد غانم(1) في طليعة هؤلاء . وأقل ما يجمع بين الرجلين أنهما كلاهما شاعران يصدران في مدحهما النثرى عن كثير من القيم السائدة في المدائح الشعرية .واستمع اليه وهو يمدح ادريس بن يحيى الملقب بالعالي بالله (2) : " فقام العالي بالله بخلافة المغربين ، واضطلع بملك العدوتين ، ولما آن أوان امامته ، حان من عدوه حين قيامته . . . وقامت . . . دولة هذا الملك العالي ، والشمس تأخذ من قمر الفلك في الصعود ، وتؤذن بجرى الماء في العود ، وترقى بالعالم في درج السعود . . . . . . فسفرت الدنيا قناعها فتية ، وبلغت النفوس بخلافته الامنية ، وانثالت عليه بيعات الأمصار ، وأمت حضرته الرسل من جميع الأقطار ، وبدأ بالفضل ، وصدع بالعدل ، فأحيا مآثر أبائه الطاهرين . . . "(3)

ان النفس الشعري واضح المعالم في هذا النثر ، وهو لا يحتاج الى مزيد من التعليق، ويكفي لبيان ما ذكرناه من تأثير القيم المدحية التقليدية في الشعر أن نشير هنا أيضا الى أن الكاتب لم يستطع أن يعرض طويلا عن الشعر ، فخرج عن سياق النثر الى مقطوعة شعرية يبدؤها بقوله :

ضحك الزمانُ اليك بعد عبوس ... ونفى دجى الإيحاش بالتأنيس(4)

---

(1) أبو محمد غانم بن وليد ، من أهل مالقة، أديب فقيه ، توفي عام 470 هـ .
انظر الذخيرة 1/2 ، ص : 353 ، وهامش المحقق فيها .
(2) أخبار العالي بالله في ابن عذاري ، ج 3 ، ص : 217 .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 361 وما بعدها .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الذين مدحوا ملوك الأندلس بالرسائل النثرية كاتب مشرقي اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي[1]، وهو وإن لم يكن من أهل الأندلس إلا أنه أنشأ بها قسما من أدبه المحفوظ، وتأثر فيها بأساليب أهلها، ولاسيما وهو يمدح أمراءها. والذي ينبغي أن نسارع الى التنبيه عليه هو أن أبا الفضل البغدادي من الشعراء المشهورين بالشعر، ولذلك، فلا بدّ أن نجد في نثره، وهو يمدح به، صدى القيم المدحية التي اعتاد على تناولها أثناء النظم.

فمن الرسائل التي نريد أن نقف عندها برهة قليلة تلك التي وجهها الى أحد وزراء طليطلة في مدح أميرها المأمون بن ذي النون، والاعتذار عن الخروج من عاصمة مملكته. يقول في بدايتها: "أطال الله بقاء سيدي، وجعل درج المعالي مستقرة تحت قدمه، وسرج المساعي مسفرة عن بوارق هممه، وظماء الأماني روية من لعاب سنّ قلمه ...."[2] وبعد هذا المدخل الدعائي يقول: "وقد كانت — أيّدك الله — ريا من أخباره تزمر عندي بنوار خلائقه الزكية التي هي أشهر من فلق الصباح، وتعبق بمحاسنه الرضية التي هي أسير في الآفاق من هبوب الرياح، فتلطف بنوافر الأرواح، حتى كأنها المصافاة بين الماء والراح، فترتع الأسماع من نضارتها في مرتع خصيب، وترفل من غضارتها في ثوب من الانس قشيب ...."[3]

هذه المناظر البهيجة، وهذه اللوحات الحية، انما ترسمها ريشة شاعر تعودت أن تبدع في الشعر، فاستوحت مصادر الهامها وهي تمدح بالنثر. وهو الى حد الآن مدح شاعري جميل تأنس اليه النفس لأنها لا تصطدم فيه بتلك الإحالات الكريهة، والمبالغات القبيحة. ولكن القارئ ما يلبث أن يكتشف أن داء التطرف والاغراق قد كان من الذيوع والشيوع بحيث لم يكن ينجو منه أحد. فهذا أبو الفضل نفسه قد أصيب بشيء منه حيث يقول: "وقد أكبرت أن أفارق بلد الأندلس وقد أظهر الله فيه احدى آياته الدالة على عظم معجزاته، الناطقة بصحة براهينه وبيّناته،

---

(1) أخباره بالتفصيل في الذخيرة 4/1 ص: 37 وما بعدها. توفي بطليطلة سنة 455 هـ.
(2) ذ: 3/1، ص: 410.
(3) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسيدنا المأمون بن ذي النون — أطال الله بقاء سلطانه ، وقوى دعائم ملكه وأركانه — الذي أيده الله بعناية بسطت قدرته ، وأعلت كلمته فأضرمت شهاب هيبته فملأت القلوب رُعبا ، وأذكت بوارق سطوته فاختطف النفوس شرقا وغربا ، ومدت بحار سحائبه فاستملك الرقاب عُجما وعُربا ، لا أجلو قذى ناظري بمحيي طلعته ، وأزين أصغري بتحبير بدائع مدحته ....."(1).

وواضح أن مدحا كهذا لا يمكن أن يصدر الا عمّن يرجو الكثير من العطاء لدى ممدوحه ، أو هو يسبح في بحر من سابق إنعامه وإحسانه . ونحن نعرف أن المأمون بن ذي النون هو الذي رفع مقام أبي الفضل البغدادي وشمله بحسن رعايته حين تنكرت له الدنيا وبخسه بعض أمراء الأندلس حقه وعاملوه معاملة المتسول المسكين(2). ولقد بلغ من عنايته به وعطفه عليه أن أجرى عليه راتبا مقداره ستون مثقالا في كل شهر ...(3) فهل نعجب حينئذ أن رأيناه يثني هذا الثناء الحار على مولاه وولي نعمته ؟ ....

هكذا كان شأن هذا النثر الذي أنشأه أصحابه في مدح الملوك ، والتودد اليهم ، والثناء عليهم ، وهو مدح تكمن طرافته في أنه جاء في قالب نثري ، أما فيما عدا ذلك فانه يشبه المدائح الشعرية في جلّ مقوماتها . وهو يشبهها ، بصفة خاصة ، من جانب له أهميته ، وهو أنه لم يقتصر على الملوك ، بل ان أصحابه سعوا عن طريقه الى التقرب من طوائف شتى من الوزراء والولاة ، وسائر أعيان الدولة ، يقرعون أبوابهم ، ويتمسحون بأعتابهم ، للتوسط بهم الى الملوك ، أو لتكثير مصادر الجوائز والعطايا التي كانوا — عموما — يسعون الى الحصول على أكبر قدر منها .

2 — مدح الوزراء وسائر أعيان الدولة :

ان المدح الذي نجده في النماذج التي بين أيدينا هو دائما من النوع المنفعي الذي يتخذه أصحابه سلّما لبلوغ مآربهم سواء كانت ذات طابع أدبي أو مادي . والأدباء

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 413 .

(2) ذ : راجع ما ورد من اشارات صريحة الى ذلك في الذخيرة 1/4 ، ص : 89 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ربما مدحوا بعض الرجال البارزين في الدولة ، ولكنهم لا يرجون شيئا من عوارفهم وانما يريدون منهم أن يكونوا وسطاء لهم لدى الملوك الذين هم في خدمتهم ، ليس لأن جوائز الملوك أسنى من جوائز وزرائهم فحسب ، بل لأنهم — علاوةً على ذلك — يريدون تحقيق نوع من المجد الأدبي والشهرة ، إذ من الواضح أن الذي ينتسب الى خاصة الملك وحاشيته رجاله المقربين أكبر جاهاً ، وأعظم شرفا من الذي ينتسب الى حاشية الوزير ، مهما علا قدره وارتفع شأنه في مراتب الدولة .

ولعله يمكننا أن نعد من هذا القبيل الرسالة التي كتبها أبو محمد عبد الغفور[1] الى أحد الأعيان ، والتي بدأها بذكر ماله من أياد عليه : " ومازلت معتزيا الى أدبه ونسبه ، منفقا من غرب كَلِمِه الرائق وذهبه ، مقراً بفضله ، معترفا بتبريز خصله ، مرتسما في جريدة من أدّبه ودرّبه ، وأرهفه وذرّبه ، ولقّنه وعلّمه .... "[2]

ثم ينتقل الى أسلوب آخر في المدح يقدمه في قالب التضرع ، وذلك حيث يقول : " فليصل مني ولدا ثانيا ، وليجبر كسيرا وانيا ، وليأس بالكلام العذب ، بل اللؤلؤ الرطب ، كلّما داميا أصاب والجِذار مُبْتِقل ، وما أجلب والشيب عليّ مشتمل "[3] . وليس الاعتراف بسابق الفضل ، ولا التضرع والتصاغر الا منهجا في بلوغ الأرب الذى هو الغرض المقصود من انشاء هذه الرسالة ، والذى يعبر عنه الكاتب بقوله : " وليمنّ على وليّه ، وغَذِيّ وسميه ، برقعة يضمنها وجه الحيلة في مداخلة تلك الدولة الجليلة ، أيّد الله سلطانها ، ووطد أركانها ، ليَبْنِي على ما أسّس ، ويَجْتَنِيَ من ثمر النجاح ما رشح وغرس " .

ان الملتمس واضح بين في هذه الرسالة ، وهو التوسط بهذا الرجل الذى يراسله ويثني عليه هذا الثناء البالغ لكي يمكنه من الاتصال " بالدولة الجليلة " . ويمكننا أن نفهم من هذه الرسالة أن الدولة المقصودة انما هي دولة المرابطين التي يبدو أن أبا محمد بن عبد الغفور هذا قد استطاع في النهاية أن يكون واحدا من وزرائها الكتاب[4] .

---

(1) أبو محمد عبد الغفور من رجال دولة بني عباد ، وانظر ماقاله عنه ابن بسام في الذخيرة 2 / 1 ، ص : 325 ، وما أورده المحقق في هامش الصفحة نفسها . وكان أبو هذا الأديب ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عبد الغفور من أصدقاء المعتمد بن عباد ، ومن أركان دولته

(2) ذ : 2 / 1 ، ص : 359 .

(3) نفسه .

(4) انظر في هامش ص : 325 من ذ : 2 / 1 ما ينقله المحقق عن الخريدة ج 3 ، ص 92 من أن ابن عبد الغفور كان كاتبا بمراكش سنة 531 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على أن الذى ينبغي التنبيه اليه هو أن طلب التوسط هذا لدى الملوك يبقى حالات نادرة اذا ما قيس بسائر الحالات التي عمد فيها الأدباء الى مدح أعيان الدولة والتودد اليهم لتحقيق مختلف الأغراض لديهم بصفة مباشرة . والحق أن مناصب الدولة السامية كانت مواقع خطيرة تبيح لمن يحتلها أن ينعم بقدر غير قليل من الثراء والسلطة ، فكان أهل تلك المناصب مقصد الأدباء : يمدحونهم ، ويحققون لديهم ما شاؤوا من المآرب المادية والأدبية . ولم يكن ملوكهم يتأذّون من ذلك الاجلال الذى ينالونه لدى الأدباء اذا كانوا يحسنون التواضع لديهم ، والظهور أمامهم — كلما واتت الفرصة — بمظهر العبد الذليل والخادم المطيع . وانما كانت النكبات تحل بهم اذا لم يحسنوا القيام بهذا الدور ، فاغترّوا بمظاهر الجاه والسلطان . وكان حسادهم يلجون من هذه الثغرات لإيغار صدور الملوك عليهم ، فاذا ما نجحوا في ذلك كان التنكيل بهم عظيما .....(1)

فمن الوزراء الذين مُدحوا بما تُمدح به الملوك : الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد البر(2) فقد كتب اليه أبو المطرف بن الدباغ(3) يقول : " (انك) المنتهى الذى اليه يجرى ، وتُبتغى لديه الزُّلفى ، ويُتوصل به الى العَليا ، وأنا ممن يتشيع فيك تشرعا ، ويحبك طبعا لا تطبعا ، واستنزل في الجمع بك الأقدار ، واستخدم في التعلق بأسباب الليل والنهار ...."(4)

فلعل هذا الكلام واضح الدلالة على ما نقصده من أن الأدباء لم يكونوا يتحفظون في مدح الوزراء ، خشية إسخاط الملوك ، ولم يكونوا يقتصدون في اضفاء النعوت الفضفاضة عليهم . واذا كان الغرض المالي مقصدا منشودا ، في جميع الحالات ، بصفة أو بأخرى ، فانه قد لا يكون الهدف الرئيسي اذ قد يَتوخى الأدباء أهدافا أخرى يتحقق معها ،

(1) لعل خير مثال على ذلك ما وقع لوزير المعتمد وصديقه أبي بكر بن عمار . انظر أخباره في الذخيرة 1/2 ، ص : 363 — 433 .

(2) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر ، توفي عام 474 هـ . وكان وزيرًا للمعتضد بن عباد ثم تنقل بين ملوك الطوائف حتى وزر أو كتب للكثير منهم . انظر ذ : 1/3 ، ص : 125 وما بعدها .

(3) الوزير الكاتب أبو المطرف عبد الرحمن بن الدباغ ، خاف من أمير بلده المقتدر بن هود ، صاحب سرقسطة ، ففر الى المعتمد بن عباد الذى أحسن استقباله . انظر ذ : 1/3 ، ص : 251 .

(4) ذ : 1/3 ، ص : 316 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في جملة ما يتحقق الكسب الوافر والجاه العريض . ولنستمع الى ابن الدباغ وهو يُلوّح الى مثل تلك الأغراض بقوله : "(وأنا ممن) ..... لتلحقه بالعتاق السوابق ، وتلقي عليه شعاعك فيشرق في المغارب والمشارق"[1]. وهي اشارة خفيفة ، لايزيد عليها الكاتب حرفا واحدا ، لأنه يعود بعدها مباشرة الى صيغ أخرى في المدح والثناء . ولكنها اشارات لاتخطئها المسامع ، فهي جد دقيقة في التعبير عن ارادة الكاتب في أن يلحق بحاشية الوزير من أصدقائه وأصحاب خدمته المقرّبين ، ثم هو لايرضى بأقل من أن ينال من الجاه ما يجعله الشعاع الذى ينبعث ضياؤه في المشارق والمغارب ! ...

ونشير في الأخير الى أن الرسالة تنتهي بمقطوعة من الشعر ، فبذلك يقوم ابن الدباغ بواجب المدح بالنثر والنظم .

ويبدو أن معظم الأدباء ، في تهافتهم على كل من يملك اصطناعهم بالمال والسلطان ، لم يصيروا يسألون عن شخص من يمدحون ، أو يتقيدون بحدود القيم الاجتماعية التي كانت تصنف الناس الى مراتب محددة ثابتة لايمكن أن يتغير فيها شيء مهما استطاعت أن تحقق لنفسها من أنواع المجد الطارئ والسلطان المكتسب ..... ولعل حوافز الكسب والثراء ، والرغبة العارمة في ضمان أيسر ظروف المعيشة هي التي كادت أن تتغلب على كل التقاليد الاجتماعية العتيقة ، وأوشكت أن تصبح القيمة التي تتضاءل عندها كل القيم الأخرى . هذا والا كيف نفهم اقبال عدد من الأدباء على مدح آل النغريلي[2] اليهود ، بعد أن ارتفع بهم المقام الى تقلد منصب الوزارة في دولة الزيريين بغرناطة . ولقد تدافع الناس أمام أبوابهم ، ومدحوهم بكل الصفات الفخمة التي كانوا يمدحون بها أعظم خلفائهم وخاصة أسيادهم من الأمراء والولاة الكبار . والذى يبدو من استعراض مثل هذه الحالات أن الأدباء لم يكونوا يمدحون في واقع الأمر — رجلا بعينه ، وانما كانوا يمدحون كرسيا من أعلى كراسي الحكم في البلاد يستطيع الجالس عليه أن يهب النعمة والرخاء والعيش الهني ....

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 316 .

(2) ابناء النغريلي (ويكتب اسمهم بصور أخرى ، منها النغدالة والنغريلة) . وهم أسرة من يهود غرناطة اشتهر منها اثنان : صموئيل وابنه يوسف ، وكلاهما وزر لبني زيرى ، أصحاب دولة غرناطة . وقد ثار الناس على يوسف وقتلوه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن أشهر من مدحوا الوزير اليهودي بالنثر والشعر ، وأكثروا من اطرائه والثناء عليه ، الأديب القرطبي الأصل عبد العزيز بن خيرة المعروف بالمُنْفَتِل[1]. ولبيان نموذج من أساليبه المفرقة في تعظيم ممدوحه ذاك ، نورد له فقرة من رسالة في مدحه يقول فيها : " فتى كرم خالا وعما ، وشرح من المجد ما كان معمّى : قسّا فصاحة ، وكعبا سماحة ، ولقمان علما ، والأحنف حلما ، أكرم همة من همّام ، وأعظم بسطة من بسطام .... مأوى السماح والضيف ، ورحلة الشتاء والصيف ، ... لا يظلم نقيرا ، ولا يخيب فقيرا .... "[2]. وقد أنهى المنفتل رسالته هذه بمقطوعة شعرية في مدح ابن النغريلة ، وقد بلغ فيها من الافراط ماجعل صاحب الذخيرة يقول " وله في هذه القصيدة من الغلوّ في القول ، ما نبرأ منه الى ذى القوّة والحول ... "[3]

على أن الذى يمكن أن نلتمس فيه بعض الشفاعة لهؤلاء الأدباء في انتهاجهم هذا المنهج انما هو ما كان يتخبط فيه بعضهم من سوء الحال ، وما كانوا يلاقونه من عَنَتٍ في دنياهم تلك ذات الكروب والمصائب ...وممن أشار الى هذه الأوضاع في مدحه الكاتب ابن الحداد[4] حين أخذ يستعطف ممدوحه بهذه العبارات المؤثرة التي توحي بقوة الى ماكان يعانيه . قال : " ومازلت أصبو اليك صبوّ الهائم ، واظمأ نحوك ظمأ الحائم ، وارتقب للإمكان صالحة ... أتوسل بها الى مناطاتك أفنان الالتئام والاتصال ، والزمان يأبى الا اللّيّ فيهدد المواثق اليّ ، الى أن دهمني من ضروب خطوبه بعجائب ، واستقبلني من صنوف صروفه بغرائب قذفتني من سمائي ، وسقتني غير مائي ، فأيدى التغرب تتعاطاني ، وأقدام السنوب لا تتخطاني ، والله يحسن العقبى ، ويعقب الحسنى ، بمنه "[5].

وتبدو هذه الرسالة في بعض مقاطعها على أنها ضرب من ضروب التراسل الشائع بين الأدباء ، مما سنراه في حينه ، ولكننا ما نلبث أن نرى فيها نغمة المدح

---

(1) المنفتل من الشعراء الكتاب ، ذكره صاحب الذخيرة في 1/2 ، ص : 754 .
وانظر هامش المحقق .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 762.
(3) نفسه ، ص : 765.
(4) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد أديب شاعر له اشتغال بالفلسفة ، اصله من وادى آش ، واستوطن المرية ، توفي نحو 480 هـ .
(5) ذ : 1/2 ، ص : 702.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاستعطاء واضحة . ولاسيما في جملها الأخيرة ، والذى يقوى ميلنا الى الأخذ بهذا التأويل أن الكاتب — ابن الحداد — قد تنكّرت له الدنيا بعد الاقبال اذ كان من المقرّبين عند الحكام من بني صُمَادِح أصحاب دولة المَرِيَّة ، ثم ساءت حاله هناك ، فغادرها على عجل ، ولعله عنى هذا الانقلاب في حياته عندما قال في الرسالة السابقة وهو يصف الخطوب التي ألمت به : " قذفتني من سمائي ، وسقتني غير مائي ".

وكما قرع الأدباء أبواب الوزراء من أعيان الدولة ، قرعوا من أعيانها كذلك أبواب القادة ، وكان شأنهم في كل وقت عظيما لأنهم رمز القوة : بأيديهم السيوف ، وتحت إمْرتهم الجيوش التي تبني مجد الممالك أو تثل عرشها وتقوّض أركانها . وممن تقربوا من القادة ومدحوهم بالنثر الأديب ابن الحناط[1] الذي أنشأ في القائد ابن درّي[2] رسالة ، يخاطبه في بعض مقاطعها بهذه العبارات التي تصوره لنا في صورة الغريق المستنجد . ولنستمع اليه وهو يقول : " هنالك أيها الغيث الهَطِل ، ولبيك أيها الروض الخَضِل ، فانه طلع علينا رائد رتع بروضك ، وكرع في حوضك ، مزّ بك عِطف الشعر فمدّ اليك طرفه ، وثنى اليك عنان الشكر ، فحث نحوك طرفه .... "[3] .

وليس شرطا أن تكون ارادة الحصول على الجوائز المادية هي التي اركبت الأديب هذا المركب ، وأملت عليه هذا الأسلوب ، فللمرء من المآرب وهو يخاطب ذوى المراتب السلطانية مالا يحيط به الحصر . ونحن هنا لا ندرس هذا الجانب من التعبير فله مكان ... آخر في أدب التكسب والاستجداء ، ولعلّ أهم ما يمكن الخروج به من ظاهرة مدح الملوك وأعيان دولتهم بالنثر ، أن قيم المدح هي هي وأن تلك المبالغات الشعرية هي نفسها التي نجدها في النثر ، فكل ممدوح ، مهما تضاءل شأنه يصير نموذجا لمن

---

(1) أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحَنّاط الكفيف . شاعر وكاتب له معرفة بالطب والهيئة توفي عام 437 هـ .
(2) القائد ابن درى ورد له ذكر عارض في الذخيرة : 1/2 ، ص : 757 .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 433 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هم في رتبته ، بل مثالا أعلى تجتمع فيه كل الخصال .. وهذه مسألة فكرية ، ترجع الى التصور الموروث الضارب بجذوره في القدم ، أكثر مما ترجع الى مجرد البنيات التعبيرية وأساليب الانشاء ....

واذا كان أكثر المدح الذي رأيناه يرمي أصحابه ، من ورائه ، الى تحقيق أغراض مبهمة ، فيها منفعة للكاتب ، ولكننا لا نعرف ما هي بالضبط ، فلدينا بعض الرسائل التي خوطب بها هؤلاء الأعيان وقد جاء فيها المرمى واضحا ، والغرض مذكورا . ولعل من أكثر هذه الرسائل وضوحا ما كتبه ابن زيدون[1] الى أبي عامر بن مسلمة[2] ، وزير المعتمد بن عباد . وهي التي يلتمس فيها وظيفة سامية في بلاط المعتضد بن عباد باشبيلية . وهو يبدأ بالحديث عن بطالته الحالية ، وسعيه الى الانتفاع من ثمار شجرة الأدب ، وقد طال تعهده لها . يقول : " في علمك _ أعزك الله _ ما تقتضيه العطلة من إظلام الخاطر ، وصدإ النفس ، ويجنيه طول المقام من إخلاق الديباجة وارخاص القدر . وقد آن أن اجني ثمرة من آداب أطلت الاعتناء بها ، وأخلاق أدمت رياضة النفس عليها "[3] ، وبعد أن يحدث الوزير عن اعزازه واجلاله للجالس على عرش اشبيلية ، ويصفه بأنه عميد ملوك الأندلس ، يصل الى بيت القصيد فيعرض خدمته على الملك ، ويرشح نفسه لتقلد منصب في الدولة . والطريف في هذا المقطع من رسالته ، أنه يُغلي سَوْمَ بضاعته ، ويصف ما عنده من أدوات خدمة الملوك بأنه " نعمة " ثم هو يكاد أن يمن على الملك بأنه رأى _ لحسن الظن فيه _ أن يعرض هذه النعمة عليه لعله يفوز بها قبل غيره ، وما لم يقله يمكن أن يصاغ هكذا : فان لم يحسن انتهاز هذه الفرصة ففي البلاد خُطّاب لها ، وساعون الى الحصول عليها ... ولنترك ابن زيدون يعبر عن هذه المعاني بنفسه حيث يقول : " فرأيت قبل أن أحمل لغيره نعمة ، أو أرسم ممن سواه بصنيعة ، أن أعرض نفسي مملوكة عليه ، عرض من لا يؤملها لاجازته الا بالاستجازة ، ولا يطمع لها في قبوله الا مع

---

(1) ابن زيدون ، أبو الوليد ، من أشهر أدباء الأندلس في القرن الخامس ، سبق التعريف به .
(2) أبو عامر محمد بن عبد الله ... بن مسلمة ، من أدباء قرطبة ، هاجر الى اشبيلية ، وتقلد الوزارة في دولة المعتضد بن عباد .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 403 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المسامحة .... لم يعدم مني نجابة غرس اليد ، وإصابة طريق المصنع ، من ولاية أخلصها ، ونصيحة أمحضها ، وشكر أجتنيه الغض من زهراته ....."(1)

وإذا لم يذكر ابن زيدون ، بصراحة ، المنصب الذي يسعى الى الحصول عليه ، فليس امام القارئ أن يفهم شيئاً آخر غير منصب الكتابة في ديوان الانشاء . فلا يمكن أن يعني أمراً آخر وهو يتحدث عن ثمرة آداب أطال الاعتناء بها .

وكما أن التأميل والرجاء ينطلقان صاحبهما بالمدح والثناء ، وكما أن حب الحاكم ، بل هو في الواقع حب ما عند الحاكم ، وما يراد استمناحه منه ، مدعاة للتودد والتلطف ، فان خشية صاحب الأمر والنهي ، والخوف من غضب السلطان ، والحرص على استرضائه ودفع عادية نقمته ، قد تؤدي الى ضرب آخر من المدح وهو ذلك الذي يتضمن معاني الاعتذار وطلب العفو .

3— الاعتذار وطلب العفو :

منذ أن أنشأ النابغة الذبياني(2) قصائده الاعتذارية في أبي قابوس(3) ، وأدباء العربية يمزجون في اعتذارياتهم — النثرية والشعرية — معاني طلب الصفح بمعاني المدح والثناء . ذلك أنهم لا يتصورون طريقة أخرى يخاطبون بها الملوك ، مهما كان موضوع الخطاب ، غير تغليف ذلك بالاطراء والاجلال والتعظيم .

لقد رأينا في الفصول الأولى من هذا البحث مدى حرص ملوك الأندلس على الأدباء النابهين ، ومقدار سعيهم الى استجلابهم واغرائهم بالمال ، لاستبقائهم عندهم . ذلك انهم يعدونهم من جملة مظاهر أبهة الملك ، وجلال السلطان . فلا عجب حينئذ أن يكون في انصرافهم عنهم ، وتحولهم الى غيرهم ما يحفظهم ، ويثير في نفوسهم عواطف الغضب عليهم . ولم يكن الأدباء المنصرفون يحبون أن يتركوا هذا

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 403 .

(2) النابغة الذبياني : هو زياد بن معاوية ، من قبيلة ذبيان ، شاعر جاهلي مشهور ، يعد من أصحاب المعلقات العشر .

(3) أبو قابوس : النعمان الثالث من ملوك المناذرة في الحيرة ، ممدوح النابغة الذبياني والمعتذر اليه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأثر السيء وراءهم احتياطا للمستقبل الذى لم يكونوا يعرفون تطوراته في بلاد ما أكثر فيها المفاجآت . ولذلك نراهم يحرصون أشدّ الحرص على مخاطبة أولائك الملوك معتذرين اليهم عن الظروف التي اضطرتهم الى التحول والانصراف .

فمن الأدباء الذين كتبوا في هذا الغرض أبو عمرو بن الباجي [1] الذى خاطب ابن هود [2] معتذرا اليه ، برسالة قال في أولها : " كتب مملوكه الملتحف في نعمائه ، المتقلب في آلائه ، . . . . وما قطع مرحلة ، ولا احتل منزلة ، الا ودأبه وصف معاليه ، ونشر أياديه " [3] ، وهو مدخل كما نرى واضح الدلالة على أن الكاتب لا يقتصد في تقديم البراهين على الطاعة التامة والولاء الكامل ، ثم يأتي الى ذكر مسألة الانصراف عنه ، فيصور نفسه كما لو أن ظروفا قاهرة هي التي أجبرته على الفراق . على أنه ما زال محافظا على العهد ، يعد نفسه في جملة حاشية ملكه على الرغم من تباعد الدار .
ويكفي أن نورد العبارات التالية من رسالته لنتبين المضامين الكبرى لهذا الاعتذار :
" وأما مفارقة ذراه ، فيكاد الاشفاق يصمي الجنان ، ويدمي الأجفان . . . وهو أمر حمّ واقترب ، وقضاء سبق وغلب ، وأنا مع انفصالي عن ذلك الكنف الجليل المأمول . . . غير خارج عن عداد من يتقلب فيه ، وجملة من يراوحه ويغاديه ، لأن فضله بي حيث كنت محيط ، وأملي به منوط . . . . " [4]

وسواء كان الباعث على هذا الأسلوب هو الوفاء لولي النعمة والاخلاص لصاحب الفضل الأول ، أو كان مجرد سياسة يأمن بها الكاتب مكيدة سلطان قويّ تستطيع أن تمتد اليه يد أذاه ، فان الذى هو بين أيدينا من كلام ابن الباجي يرسم المعالم الدقيقة لهذه الطريقة في الاعتذار ، وهي التي تصور الأديب في صورة المغلوب على أمره ، الذى ان كان ارتكب ذنبا ما فالمسؤول عنه هو القضاء الذى حُمّ ، والقدر الذى غَلب . . . .

ويظهر أن حالات الانصراف من حضرة الى حضرة ، والتحول من ملك الى ملك ، لم تكن أمرا نادر الوقوع ، ولعل تفسير ذلك ما أسلفناه من تنافس الأمراء على الكتاب

---

(1) أبو عمرو يوسف بن جعفر الباجي وزر لابن هود في سرقسطة . وانظر ما قاله عنه صاحب الذخيرة 1/2 ، ص : 136 .
(2) المقصود هو المقتدر بن هود صاحب سرقسطة . وقد سبقت الاشارة اليه .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 191 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النابغين أو ما يجد على أعيان الدولة من ظروف لم يألفوها ، وما يطرأ عليهم من حالات لا يستطيعون الصبر عليها ، فلا يكون أمامهم الا الهجرة .

فمن هؤلاء الذين كتبوا الى الملوك يعتذرون عن مفارقة حواضرهم الوزير الأديب أبو الفضل بن حسداي الاسلامي [1] حين انصرف عن دولة المستعين بن هود [2] فقد وافاه بكتاب افتتحه بجملة عبارات ذات طابع تأملي فلسفي . قال : " الدهر — أيد الله مولاي — منتقل متقلب ، والدنيا دول وعقب ، ومقام القطان في الأوطان كمقام الأرواح في الأبدان ، تصحبها الى آجال موقتة ، عند آماد مستوفاة ، فمدد الأحوال مناسبة للأعمار " [3] .

وهذه لهجة رجل حكيم تساير ما عرف عنه من اشتغال " بأنواع التعاليم " على حد قول صاحب الذخيرة . وفي كلامه نبرة رجل واقعي يعرف أن لا شيء يدوم على حاله ، وأن خير ما يفعله العاقل أمام صروف الزمان أن يصون كرامته ، ويحفظ قدره باتخاذ المواقف الملائمة لذلك . وهو ما فعله ابن حسداي ، وعبّر عنه بقوله : " وقد عمرت ذلك الأفق ما امتدّ المهل ، فلما نبا أُجِدَّ الظعن والتحول .... ولكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال ، وفي كل مضيق مجال ، وقلما اطردت الحظوة في الدول ، لمن اختص بالاسلاف الأول ، ومن خدم الآباء لم يخدم الأولاد ، فضلا عمن خدم الأجداد " . [4]

واذا كان الكاتب قد أبدى هذه الواقعية في وزن الأحوال وتقديرها ، فانه لا ينسى مع ذلك أنه يخاطب ملكا في دولة خدم أمراءها منذ ثلاثة أجيال ، ولذلك يقدم له كل مراسم الطاعة والولاء ، ويذكر له أنه سيحافظ على العهد كيفما كانت الظروف حياته الجديدة . ويختم كتابه بالاعتذار ، وطلب الصفح ، ولكن دون اراقة ماء الوجه ، ولا تصنع الصّغار والمذلة ، لأنه رجل كريم النفس ، يعتذر عن فعل لم يكن له الخيار في اتيانه . ولذلك جاءت رسالته خالية من التودّد الكاذب والمدح المتملق . يقول : " فان جاد مولاي بالصفح ، وعاد بالخلق السمح ، فهو الذي يضطره اليه عالي

---

(1) كاتب شاعر ، تقلد الوزارة في دولة بني هود . وهو من أصل يهودي ، ثم أسلم فحسن اسلامه . أخباره في ذ : 3/1 ، ص : 257 .

(2) هو أحمد المستعين بن المؤتمن بن المقتدر ، من ملوك بني هود في سرقسطة حكم من 473 الى 503 .

(3) ذ : 3/1 ، ص : 461 .

(4) ذ : 3/1 ، ص : 461 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

منصبه ، وسامي رتبه ، وان صرم الحبل ، وجذم الأصل ، فهو حكم الزمان الفاسد ، ولا نعمى للشامت الحاسد ، فليس بالباقي ولا الخالد ..." (1).

هذان نموذجان من الرسائل الاعتذارية الموجهة الى الملوك ، يعبران عن واقع حال مَنْ كتبهما . فالمنشيء يعتذر الى ملك عرفه وعاش عنده وخدمه ، عن فعل صدر عنه . وقد يكون الاعتذار غير معبّر عن واقع من يكتب ، اذا كان المنشيء يتحدث بلسان غيره . وهذا ما تمثله رسالة أبي بكر بن سعيد البَطَلْيَوْسي (2) الذى خاطب أميرا ، لم يذكره على وجه التحديد ، على لسان رجل " فرّ من موضع اعتقال ".

في الرسالة شرح لظروف الفرار من السجن ، وهي تتلخص كلها في الخوف والارتياع . وهو ما يعبر عنه الكاتب على النحو التالي : " الأمير – أيده الله – حُرّك الى ظاهي فسكن ، وجاءه عني فاسق بنبإ فأخذ بأدب الله تعالى وتبيّن ، وأنا رِعْتُ فارتعت ، وقرأت قوله تعالى : (ففررت منكم لما خفتكم ...) (3) وسواء كانت هذه الرسالة من الأدب الواقعي ، أو كانت من الانشاء التخيلي ، فهي ضرب من اظهار البراعة بواسطة الكتابة عن موضوعات مختارة ، فليس هناك في الحقيقة لأفارّ من السجن يعتذر ، ولا أمير يَعتذِر اليه – وهو ما نرجحه ونميل اليه – فانها تدل على أسلوب من أساليب مخاطبة الأمراء حين الاعتذار اليهم عن فعل لا يرضون عنه ، ولا يحبون أن يصدر عن رعاياهم .

ويمكن أن نعدد من هذا الباب أيضا الرسالة التي أنشأها أبو محمد بن عبد البر (4) وهي ذات مضمون واضح الصلة بالاعتذار وطلب الصفح ، ولكنها مبهمة السياق ، لا نعرف لا الطَرَف المعتذِر ، ولا الطرف المعتذَر إليه ، ولا الجُرْم المُرتكَب الذي اقتضى مثل هذا التضرع " تلزمني – أيد الله مولاي – علائق ، لو وقف منها على السر ، لتجلّى له وجه العذر ، من هزّ فضله في شأن " فلان " مملوكه ... ليعطف عليه عطفة

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 763 .
(2) عبد العزيز بن سعيد البطليوسي : من الكتاب البلغاء بالأندلس ، وزر وكتب للمتوكل ملك بني الأفطس ببطليوس ، ثم كتب لابن تاشفين بعد تغلب المرابطين على الأندلس مات بعد عام 520 هـ .
(3) ذ : 2/2 ، ص : 763 .
(4) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر ، من وزراء المعتمد ، توفي عام 474 هـ ، وقد تقدم التعريف به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الماجد ، ويحنو عليه حنوّ الوالد ، على فراخ كزغب القطا ، وعيال ليس منهن الا المفجعة الحرّى ، دموعها تنهل كالسحاب ، وضلوعها تلتهب بنار الاكتئاب ..... "(1)

والذي يلوح من عبارات هذا النص أنه في طلب العفو لسجين يوشك أن يُنَفَّذ فيه حكم الإعدام إثر حركة تمرّد قادها أو شارك فيها . وهو نص يعتمد بصفة كلية على عواطف الشفقة الموجهة الى حال أهل المحكوم عليه من زوج وولد . بل ان الكاتب يطلب العفو مراعاة لهؤلاء ، ان لم يكن في المحكوم عليه ما يدعو الى العفو عنه . وفي هذا المعنى يقول : " وأنا أمد الى مولاي يد الضراعة ، واسأله ان لم يستوجب المذكور الرعاية لنفسه ، فَلْيَرْعَه لأصله ومغرسه ، وان لم يرقّ لذاته ، فَلْيَرِقّ لبنيه وبناته ، وأهله وعوراته ... "(2) وتنتهي الرسالة بإيراد طائفة من شواهد العفو التاريخية التي تميز فيها بعضٌ من أشهر ولاة المسلمين وخلفائهم بالجنوح الى الصفح ، وترجيح كفة العفو على كفة العقاب .

ربما وجدنا في هذه الرسالة طابع الشفاعة ، وهو غرض سنلم بمضامينه في حينه ونفرده بكلام خاص . والواقع أن موضوع الاعتذار هو المسيطر في هذه الرسالة حتى لو كان الكاتب لا يعتذر لنفسه ، وانما يعتذر لغيره .

لقد حاولنا أن نبين من خلال هذه الصفحات أن نثر التودّد والاستعطاف يمثل جانبا هاما في الانشاء ذي الطابع التوسلي ، وأنه ، سواء خوطب به الملوك الجالسون على العروش ، أو خوطب به الأكابر والأعيان من خدام دولهم ، والقائمين بِشُؤون ممالكهم ، فانه لا يخرج في الحقيقة عن مضامين المدح والثناء والتقرب لغرض من الأغراض ، حتى حين يكون ذلك من أجل كسب العواطف واستدرار الرحمة للصفح عمن يخالف قواعد السلوك ازاء الملوك ، والعفو عن العصاة ومرتكبي الجرائم .

وربما بدا في بعض الأحيان كأننا لا نريد أن نطيل الوقوف عند ظاهرة تزلف الكتاب ، بل كأننا نتجنب الحديث عن مظاهر المتاجرة الرخيصة ، وتسخير الأدب من أجل تحقيق المكاسب المادية ، وجمع ما لا بدّ منه من الدراهم والدنانير ...

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 212 .
(2) نفسه ، ص : 213 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أننا أشرنا في الفقرات التي أفردناها الى مدح الملوك والوزراء وسائر الأعيان الى هذه المسائل اشارات كافية — فيما نقدر — ولكننا فرقنا بين ظاهرتين متمايزتين : ظاهرة المدح الذى لايخلو من خلفية مادية وغرض من أغراض الكسب، مما تنتشر نماذجه في كل عهود الأدب العربي في المشرق والمغرب، وبين ظاهرة التكسب والاستجداء بالأدب النثرى التي أفردنا لها الأقسام التالية من هذا الفصل .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب — في التكسب والاستجداء

اذا كنّا من الناحية المبدئية لا نملك الا أن ندين عملية السقوط الأخلاقي التي تدفع ببعض الأدباء الى امتهان الفنّ ، والتضحية بقيمه السامية في سبيل تحقيق المكاسب المادية ، فاننا لا نستطيع — مع ذلك — أن نشتد ، بقدر واحد ، على هؤلاء الأدباء جميعا ولا أن نحملهم نصيبا واحدا من المسؤولية ، ما لم ننظر الى أحوالهم ، ونتبين ظروف معيشتهم التي لم تكن دائما سهلة ولا ميسورة للجميع .

والحق أننا لا نبحث عن عذر يسوّغ جناية الذين أهدروا الحقيقة الفنية الخالدة ، وأراقوا ماء الوجه تحت أقدام طوائف عدة من الأنذال والخونة والغاصبين . . . . وحولوا المثل الأدبية من طريق التبشير بالحق والخير الى مناهج النفاق المبتذل ، والتمريغ الرخيص . . . وانما نريد أن نصدر عن العدل ، ونحن نثير هذه القضية ، فلا ننظر من زاوية واحدة الى الذين لم يروا في الأدب إلاّ أداة تتيح لهم جمع الحطام وتنمية الثروات ، وتحقيق مالهم من مآرب الجاه والسلطان . . . . وأولائك الذين قست عليهم الحياة فلم يجدوا بدّا من استصراخ كل ذي مال من الحكام والأعيان ، ينفخون في بوق فضائله المزعومة للظفر بما يضمن لقمة العيش لهم ولأبنائهم الجائعين . . .

1 — ملامح من بؤس بعض الأدباء

ليس قصدنا الى استقصاء كل مظاهر البؤس التي سجلها أدب الكتاب[1] الأندلسيين ، فقد يطول بنا المقام لو فعلنا ذلك ، وانما المراد هو الوقوف عند نماذج معبرة من النصوص التي حملت أصداء هذا البؤس .

ولعل في مقدمة الأدباء الذين عكست آثارهم الباقية الكثير من صور الشقاء والحرمان الأديب أبو محمد عبد الغفور[2] الذي يبدو أن الأيام أذاقته كأس المذلة بعد الـ

(1) نقتصر هنا على الكتاب من الأدباء . وفي كتاب تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين حديث مفصل عن بؤس الشعراء .
(2) سبق التعريف به أكثر من مرة . وزر للمعتمد ، ثم وزر للمرابطين . انظر ما تقدم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والسوءدد ... فما هو يعدد أنواع شقائه في أيام الأسبوع كلها ، ويشير الى شقاء أمه بعبارات موءثرة . يقول : " فيوما في سوق فليق ، ويوما في طحن دقيق ، ويوما أَقْتَاتُ فيه بسخت السويق ، ويوما اقطعه على الريق، ويوما في شهيق ، ويوما بالجامدة، ويوما بالسليق : سبعة ألقاب لسبعة تأكل شلو الأحقاب . . . . فأنا آلم من السليم بوجعه ، وأشغل بهذا الكد منه بأشجعه ، حتى آوي الى عجوز،لم يبها المرادفة من يجوز ، . . . . "(1)

ويفهم من تعابير هذه الرسالة ، أن أم الكاتب قد طولبت، على هذا البوءس الذي هي فيه ، بغرامة، لم تعف منها كما أعفيت سائر النساء ، وبعض الرجال ولذلك يقول ابنها : " ولم يبق على هذا القياس بعد مغرم الثغور والدروب الا أن تشمر عن ساق للحروب . . . . فان رأى أعزه الله أن يعفيها ويكفيها ، فلها أمثال في ربات الحجال، وفي ذوي اليسار من الرجال .وقد تقدم أمر الأمير باعفاء النساء . . . فما شأن هذه المرأة تخص بالغرامة، وتستثنى بهذه الحضرة من الكرامة . . . "(2).

ولا يكاد أبو محمد يفارق هذه النبرة الشجية من وصف أحواله البائسة ، فنحن نراه في نص آخر يعتذر عن لقاء بعض الأكابر باستغراق مجمل وقته في تحصيل قوته وقوت أهله ، وهو يعرض هذا الواقع الأليم ، في سطره ، على النحو التالي : " على أن لقاء سيدي ومشافهته ، ومحادثته ومفاكهته ، كان أحبّ اليّ وأمتع لسمعي ، . . . . ولكنّي مشغول بيومي ، مدفوع الى تقويت قومي . "(3) وقد يبلغ أقصى حدّ الصراحة حين يعرض لما أصابه من عقدة الفقر ، تلك التي تضيف عذاب الخجل الى الشقاء بمعاناة الحرمان : " قد عُدْت أعْرَى من نواة ، وكنت أكسى من قطاة ، فاذا لقيت ذا هيئة خجلت خجل بخراء ، اضطرت الى سرار ، وهمماء همت بافترار ، ووزير بل أمير ، دفع بعد ركوب الفاره الى ركوب حمار . "(4) وفي هذه العبارات خير دليل على أن الكاتب قد أفضت به صروف الدهر الى الحرج والضيق بعد اليسار ،

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 334 .
(2) نفسه ، ص : 335 .
(3) نفسه ، ص : 340 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واتساع الخال . ومن البديهـي أن المصائب تكون أبلغ أثرا ، وأشدّ وقعا على الذيـن لم يألفوا من دهرهم الا النعمة السابغة والرخاء العميم . ولعلّ في هذه الحقيقة مـا يفسـر إلحاح الأديب ابن عبد الغفور على فكـرة شقائه تلك ، وهي التي تبرزه لنا دائما في صورة من لا يعرف راحة ولا سكونا لأنه دائم البحث عما يقوت بـه عياله ، فهو فـي احدى الرسائل التي يشفع فيها لبعض الأدباء يقول ، متحدثا عن نفسـه : " يودّ ي لتناهـي المحبـة والولاء ، لو أضحـي مكان كتابـي فأسعد بالوفود عليه ، . . . . ولكنـه قد حيل بين عبده البائس وبين مراده ، وشغل بقوت يومه لنفسـه الشقيـة وأولاده ، فتأخـر عن حضرتـه السنيـة تأخـر الكسيـر . . . . "(1)

وإذا تركنا ابن عبد الغفور الى أديب آخر ، ممن عنوا بذكر شقائهم ، والحديث عـن تعاستهـم وجدنا ، على سبيل المثال ، أبا الربيـع سليمان بن أحمد القضاعي (2) يكتـب الى أحد الرؤساء يطلب المعروف ، ويعرض عليه حاله في هذا القالب القصصي المؤثـر : " بعثـت ابني وغلامـي عشـيـة العيد للسوق ، فاخطـأ أوجه النجاح ، وعاد مثخنـا بالجراح ، فبـت انقلـب بين ألم العلـة ، ومضض الذلة ، وبات من عندي طاويا الا مـن الكرب ، وصاديا الاّ من الدمع ، . . . . وسيدنا الرئيس ــ أدام الله تأمين سربه ، وإعـزاز حزبـه ــ أجل من أن يضـام جاره . . . . "(3)

ما أعظم مصـيبة تحل بهذه الأسرة الفقيرة عشـية العيد ، فتسلط عليهم حزنـا تضاعفـه فرحـة الآخرين ، وما أقسى دهرا يشتـد على أهل الكاتب، ويجرعهم كؤوس المذلة والحرمان عندما تلوح في الآفاق أعلام المسـرة والابتهاج بعيد المسلمـين . . .

في هذا السياق ، يعنّ لنا سـؤال لا بدّ من طرحه ، وهو الى أيّ حدّ يمكـن اعتبار الأدباء صادقين في وصـفهم لمثل هذه الحالات من البؤس ؟ وبعبارة أخرى ألا يمكن

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 356 .

(2) أبو الربيع بن أحمد القضاعي كاتب شاعر ، ذكره ابن بسام في الذخيرة 1/3 ، ص : 499 ، ونقل عنه صاحب المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ، ص : 423 .

(3) ذ : 1/3 ، ص : 507 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تكون هذه الرسائل ضربا من الانشاء الذى تعودوا على كتابته في هذا الغرض أو في ذاك، فهو لا يخلو، كله أو جله، من المبالغات، والتطرف، والكذب المقصود لاستدرار العطف والتأثير على مراسليهم من رجال الحكم، وأعيان الناس ؟

والواقع أن الجواب على هذا التساؤل، لا يمكن أن نلتمسه بعيدا عن ظروف الكاتب في ذلك الوقت، وتقاليد الكتابة في هذا الموضوع بوجه عام.

فأما ظروف الكتاب عموما، فقد ألمعنا، قبل، الى أنه قد تطرأ على بعضهم ظروف أيسر ما فيها أنها تنقلهم من وضع الممدوح الى وضع المادح، ومن منزلة المطلوب والمرغوب في عطائه، الى منزلة الطالب، الراغب في الحصول على بعض ما عند الآخرين. ذلك أن ظروف السياسة المتقلبة، كثيرا ما تفضي الى إبعاد رجال كانوا مقربين من الحكم، وادناء من كانوا بعيدين عنه، لا أمل لهم في الجلوس على كراسيه. وكثيرا ما كانت تتم هذه التحولات بتشريد المغضوب عليهم، واستصفاء أموالهم، فكانوا يجدون أنفسهم، بين عشية وضحاها، على عتبات الفقر المُدقِع، والعُدْم الكامل.

وأما عن تقاليد الكتابة، فمن المعلوم أن الأدباء، سواء كانوا شعراء أو كتابا، لم يكونوا أبدا يستجيزون أن يصرحوا بفقرهم، ولا أن يستعطفوا ممدوحيهم بعرض المناظر التعيسة لأسرهم. ونحن اذا استثنينا حالات قليلة، اضطر فيها الشعراء والكتاب الى انتهاج هذه السبيل، على مضض، فان العادي والمألوف لدى أدباء العربية أن يصوروا أنفسهم في مظاهر من حاز الغنى، ونال الثروة بفضل جوائز الأمير، فاذا لم يكن ذلك قالوا انهم باتصالهم بالممدوح يتمنون أن يحصلوا على الثراء، وأن يصيروا بفضل عطاياه من الأغنياء.. وشتان بين من يذكر الطوى، والدموع، والمرض، والعلة، والذلة،... وبين من يتطلع الى الثروة بواسطة كرم الممدوح (1)، ولذلك فنحن نميل الى تصديق هؤلاء الكتاب الأندلسيين الذين وصفوا تعاستهم. وهم، مهما بالغوا في بعض ملامحها، لابدّ أنها في الأصل أمر واقع، وأنّ بؤس بعض الأدباء كان حقيقة لا سبيل الى انكارها.

---

(1) ولذلك فرقنا في هذا البحث بين المدح الذى صنفناه في أدب التودد والاستعطاف وبين التوسط الى المال بوصف الفقر والتعاسة، وهو الذى سميناه استجداء.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ جانبا آخر من أحوال الأدباء الكتاب سيظهر لنا أيضا ، وان بصفة غير مباشرة ، من خلال استعراض نماذج من انشائهم الاستجدائي الموجه الى الحكام، أو الى أكابر الرجال وأعيانهم في المجتمع .

2 — استجداء الحكام :

من أقدم أدباء الفترة المؤرخة ، الذين ولجوا باب هذا الأسلوب من الاستجداء، وانتهجوا هذه السبيل في الاستعطاء ، الأديب أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي (1) الذي له رقعة طريفة يمدح ، ويعرض جانبا من أحواله المادية فيها . يقول : "ياسيدي، ومن أبقاه الله كوكب سعد ، في سماء مجد ، وطائر يمن . . . . وكنت قد نشأت في معقل من الصفا والوفر ، محدقا بسور من الأمن والستر ، حتى أرسل الىّ سلطان الفقر رسولا من نوب الدهر يريد استنزالي اليه ، وخضوعي بين يديه ، فأبيت من ذلك عليه ، فغزاني بكتائب من النوائب ، تسير تحت ألوية المصائب . . . . " (2) وتمضي الرقعة على هذا النحو من التشخيص والتمثيل فيذكر كيف تلقّى تلك النوائب بالجلد والصبر ، حتى بعث اليه الممدوح برسول : " يسمّى حسن الثناء ، فضمن لي عنك فديتي ، من يدي أَسَرَتِي . . . " .

وقد اندرجت في كتاب الذخيرة لأبي عمر بن دراج رقع أخرى تلتقي مع هذه في هذا الطابع الاستجدائي الواضح الذي لايعبأ فيه صاحبه بالكشف عما يلاقيه من أذى الدهر وتصرف نوائبه . فقد كتب الى الخليفة سليمان بن الحكم (3) يقول في حال أولاده : " وقد قلبت لهم ظهر الأمور وميزت بين المعسور والميسور ، فما وجدت أحسن بدءا ، ولا أحمد عودا ، مما أذن الله فيه . . . وحيث تقلبي ففي كرمك ، وأين نأمن ففي حرمك . . . . " (4) وكان قد بدأ هذه الرقعة بأبيات من الشعر ضمنها بيت الحطيئة المشهور :

---

(1) أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي ، كاتب شاعر من كبار أدباء الأندلس ، ولد سنة 347 في قَسْطَلَّة ، غرب الأندلس ، ووفد على المنصور بن أبي عامر في قرطبة ومدحه ، وتأخرت به الأيام حتى أدرك الفتنة فمدح بعض زعماء الطوائف ولا سيما أمراء سرقسطة التجيبيين ، وتوفي سنة 421 هـ .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 62 .

(3) سليمان بن الحكم : من خلفاء عهد الفتنة وهو الملقب بالمستعين ، راجع ماكتبناه في الفصل الأول من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ ∴ حمر الحواصل لاماءٌ ولا شَجَرُ

وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على اشتراك الشاعرين في هذا المنهج التسولي .فلعل الحطيئة من أوائل من طرقه ،على هذا النحو ، من أدباء العربية .

ومن كتاب هذا العصر الذين استعطفوا أكابر الدولة مصرّحين بما يعانونه من عنت الأيام ، الأديب أبو بكر عبد العزيز بن القبطرنة[1] ، فقد كتب الى الوزير أبي الحسين ابن سراج[3] معبرا له عن عظيم شوقه اليه بطريقة أقل ما يقال فيها أنها تستلفت الأنظار ، لما فيها من التطرف والمبالغة في المعنى والمبنى كان يقول : "لولا أن عوائق الزمان — أدام الله عزك — تعوق ..... لطرت بجناح ، وامتطيت أعناق الرياح .... ولا تخذت المجرّة سبيلا ، وسهيلا دليلا ، ولقدت البدر المنير ... والا اتخذت السمكة سفينة ، وأقمت لها النعائم ألواحا ، وعطارد ملاحا ،وقيرت بالغيوم ، وسمرت بالنجوم ، وجدفت بالفرقدين ، وحملت من أمالي فيها من كل زوجين اثنين ...."[3] ولا نظن هذه العبارة الأخيرة في حاجة الى طويل الشرح والتعليق ،فان هذا الأمل المذكور لايمكن أن يدل على شيء آخر غير مطلوب الكاتب والعطية التي ينتظرها من ممدوحه ...

والغريب أن ابن القبطرنة لايتحرج حتى من استعمال المصطلحات الدينية المقدسة التي لم تجر عادة الناس باستعمالها في غير سياقها الديني المعلوم . فهو يقول في الرسالة السابقة نفسها : " ... حتى احط في واديك ، واعرض نسخة مذاهبي في ناديك ، فأرتسم في الجملة ، وأصلي الى تلك القبلة ، وأسعد بتلك الغرة ، وأقضي من لقائه الحجّ والعمرة ، وأطوف بذلك المقام ، واذكر الله عند المشعر الحرام ...."[4]

أليس هذا الكلام غريبا ؟ بلى ، وان الذي يزيده غرابة أنه موجه الى واحد من أكابر فقهاء عصره ، وابن فقيه جليل من علماء الدين في قرطبة . والحق أنه لايمكن

---

(1) أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي ، المعروف بابن القبطرنة ،كتب للمتوكل أمير بطليوس ، ولابن تاشفين ، وكانت وفاته بعد سنة 520 . انظر ذ : 2/2، ص: 753، وهامش المحقق بها .

(2) الوزير الفقيه أبو الحسين بن سراج من أعيان قرطبة .أخباره في الذخيرة 1/2 ص 321 .

(3) ذ : 2/2 ، ص : 754 .

(4) نفسه ، ص : 755 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يكـون وراء هذا المسلك الا طمع كبير ، أو فقر كبير ، على أن الفقر ، بالغا ما بلـغ ، لا يمكن أن يقوم عذرا ليتمرغ صاحبه في مثل هذه الأوحال القذرة . . .

ثم نصل من الرسالة الى بيت قصيدها ، والغرض المنشود مما حشيت به من أنواع التوسل والتضرع ، وهو الاستجداء الواضح . وفي ذلك يقول ابن القبطرنة : "وبيديه حملته من عقوق زماني ما ليس ينكر ، ومن عثرات أيامي ما لم يكن ببكر ، وعود تني ـ دام عزك ـ الأخذ بيدي عند العثار ، والنهوض بي على رغم أنف الليل والنهار . . . . والله يبقيك للمنن تتقلدها ، والمكارم تشيدها . . . ."(1)

هذا نوع من الاستجداء ، يركب صاحبه هذا الأسلوب المغرق في التطرف لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ونحن لم نجد الكاتب يشرح الظروف التي رمت به الى هذا الشاطئ التعيس ، ليلتمس فيه لقمة العيش بهذا الأسلوب المهين . على أن الانصاف يقتضي أن هذا لم يكن دأب جميع الكتاب ، فلهم في عرض شقائهم ، واثارة عواطف الاشفاق عليهم مذاهب أخرى ، قد تنأى بأصحابها عن هذه المزالق ، وربما كان من خير من يمثل هذه الفئة الكاتب ابن شمّاخ(2)، في رسالته التي خاطب بها قاضي الجماعة الفقيه أبا عبدالله بن حمدين(3).

اذا كانت رسالة ابن الشماخ واضحة المقصد ، صريحة المضمون الاستجدائي ، فانها مع ذلك تتميز بنبرات القصد والاعتدال التي تحفظ لصاحبها وقارا يقربه من النفس ويدفع الى حبه وليس الى مجرد الرثاء له والشفقة عليه . وقد يكون مرجع ذلك الى أن الكاتب أحسن شرح الظروف التي قست عليه في قالب تقديم نفسه لمراسله بغية تعريفه بها . فبعد المدخل المدحي الذي يعظم فيه القاضي ، ويشيد بعلمه ومجد أسرته القديم يقول له : " ما أرى الفقيه يعلم من أمري أكثر من معرفته بِخُبَيْثِيَ وبجري ، سألمع لك في شأني بلمحة واختصر ، فقد يروي ، وان قل ، الزلال الخصر "(4).

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 753 .

(2) ابن شماخ : أبو مروان عبد الملك بن محمد بن شماخ كاتب شاعر ذكره ابن بسام في ذ : 2/1 ، ص : 327 .

(3) أبو عبدالله بن أبي القاسم بن حمدين كلاهما ولي قضاء الجماعة بقرطبة ، انظر أخبار أبي عبدالله في الذخيرة : 2/1 ، ص : 339 ، وهامش المحقق فيها .

(4) ذ : 2/1 ، ص : 823 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يبدأ التعريف بهذه العبارات البسيطة المؤثرة : "كان مدة في يدي زمام بلدى ، ثم نقلت الى حمص ، وكانت لخم متى شاءت أمرا لم تعص ، فلما رمت بصنهاجة اللجج ، وثار لهم ذلك الرهج ، في يوم أشرعت فيه الاسنة ، واجهضت لشدة خطبه الاجنة ، فانتهب مالي كما انتهب مال المصر، وكسد في حمص سوق النظم والنثر، زهدنا فيهما فمقتناهما ، وسكتنا عن الكتابة فما أبناهما ، ولجأنا الى غافق ، بحلق من الادب غير نافق، بحيث يتساوى الجهل والعلم ، ويصفع البليغ المفدم . . ."(1)

اذا كنا ننتظر من ابن الشماخ حشدا من التفاصيل تتعلق بأهله ونسبه ،ومراحل حياته ، وما طرأ عليها من حوادث ، فاننا لن نجد في تعريفه السابق ما يشفي الغليل . والواقع أننا لسنا في حاجة الى هاتيك التفاصيل ، ولو أنه تصدى لكتابتها ، لجانب الصواب ، وخرج عن القصد ، ذلك أنه قد استطاع أن ينفذ الى أعماق نفوسنا بواسطة ذلك التعريف الموجز الذى كشف فيه النقاب عن ظروف لها أهميتها البالغة في استثارة المشاعر ، ولكنه لم يبلغ أن يعريهما من جميع أثوابهما فيكشف الجانب المصون من شخصية كل انسان ، ذلك الذى يكون في غموضه وابهامه سرّ هيبته واحترامه .

ويختتم الكاتب رسالته بكلمات صوبها تصويبا الى قلب الفقيه المخاطب ، وهي التي شحنها بكل ما استطاع من المعاني المثيرة لمشاعر العطف والاحسان ، حيث يقول : "فان تبك عين الفقيه الشفيق ، ضياع صديق ، فلتبك مني لطائر كريم ، رُدّ الى وكر لئيم ، ولترْثِ لدرّة سنيّة ، رُدّت الى صدفة دنيّة . وحسبنا الله ، أنا المصدور أكثرت نَفْثا ، وشكوت بَثّا . . . ."(2)

لله درّ ابن الشماخ فانه عرف كيف يستجدي ، فاهتدى الى سبيل يصل منها الى نفس الأهداف التي يتوخاها كل المستجدين ، المتسولين بالأدب ، دون أن يحتاج الى ركوب الصعب من أساليب التذلل ، واهانة نفسه ، واحتقارها . وحسبه أنه لم يبك وانما جعل عين الفقيه مهيأة لذرف الدموع على صديق تنكرت له الأيام وقلبت له ظهر المجن . بل حسبه أنه في معرض الاستغاثة والاسترفاد لم ينس اطراء نفسه ، والثناء عليها ، في قوله المتقدم : "فلتبك مني لطائر كريم ، رُدّ الى وكر لئيم ، ولترث لدرة سنية ، ردّت الى صدفة دنيّة . . . ." (3)

---

(1) ذ 1 : 2/1 ، ص : 329 .

(2) نفسه . (3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لاندري ماذا كان حظ ابن الشماخ من جود القاضي ابن حمدين ، ولكن الذي لا مجال الى الشك فيه أنه من الناحية المعنوية قد كسب مودته ، وحبه ، واحترامه الكبير، والرسالة الطويلة التي ردّ بها على كتابه ينطق كل سطر فيها بهذه المعاني [1] ، ويحق لنا أن نتساءل ، بهذه المناسبة ، عن مدى استجابة الحكام وأعيان المجتمع لنداءات الاستغاثة والاستنجاد الموجهة اليهم ؟

من الثابت الأكيد أن أكثر المسترفدين من رجال الحكم وأكابر المجتمع الاثرياء كانوا يمنحون المساعدة المرجوة منهم في حدود تختلف باختلاف طباعهم وظروفهم . ولو أن مثل هذه الاستجابة كانت نادرة ، أو قليلة العائدات لما ظل الأدباء ، جيلا بعد جيل ينتهجون سبيلها ، ويطرقون بابها . وربما كان الخير ، كل الخير، للأدب بوجه عام لو أن الأدباء أغلقت في وجوههم هذه الأبواب ، فيئسوا منها، وأقبل كل واحد منهم على عمل شريف يرتزق منه ... ولكن ذلك لم يحدث ، وانما الذي حدث بالفعل هو أن الأدباء لم يكونوا يجدون في كل مرّة مبتغاهم عند ممدوحيهم ، فربما أعرضوا عنهم ، وربما منعوهم فلم يعطوهم شيئا فتضطرب لذلك نفوسهم وتختلف تصرّفاتهم .

فقد يسارع الأديب ، حين يتأخر عنه جواب صاحبه الى مراجعته بخطاب ثان كما فعل أبو محمد عبد الغفور [2] الذي له في " صناعة " التسول بالأدب باع وذراع . قال " وكنت اعتقد — أعزه الله — أنه بجوابه لايبخل علي ، وقد بسطت لنيلي به الأمل يديّ .... وحتى الآن فلم يرتدّ طرفي الشقيق الي .... فما ظنه بصفر اليدين من الأمل ، ناظر الى أحد الشقين كالمختبل ...."[3]

ويفهم من رسائل ابن عبد الغفور هذا أنه كثيرا ما يتأخر عنه جواب مراسليه ، فنحن نجده مرة أخرى يضطر الى كتابة رسالة تذكير فهو يقول في أحدى رسائله الى بعض

---

(1) الرسالة في ذ : 2/1 من ص 830 الى ص 839 .
(2) أبو محمد عبد الغفور بن عبد الغفور سبق التعريف به .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 330 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القضاة من ممدوحيه : " ولما طال علي أمد ذلك الوعد المنتظر ، رأيت أن أذكر . . . "(1)

وربما بلغت الحال بالكاتب بحيث لا يكون التنبيه أو التذكير كافيا ، فيتطور الموقف الى الحاح في الطلب لا يخلو من ضرب من ضروب التهديد ، كأن يقول الكاتب السابق نفسه الى بعض مراسليه : " سألت الفقيه أعزه الله حاجة منذ عامين ، وأخرى منذ شهرين ، ولم تويـا بكبيرتين ، وفي كليهما نفض من ودي اليدين . . . . وسأسأله ثالثة . . . . فان قضاها شكرته . . . . وان أباها ضيل عتابي اليه سارية طارقة "(2).

هذه لهجة واضحة ، صريحة القصد بالتهديد ، بل ان الرسالة تتضمن عينات من الهجاء الذي يمكن أن يسلطه على القاضي المتلكئ اذا لم يقض هذه الحاجة الثالثة، وتتمثل تلك العينات في قوله : " تالله ليدفعن من بني الأيام ، الى لئام غير كرام ، أغر من السراب ، وأغدر من الذئاب . . . "(3).

وربما عجز التهديد عن الوصول الى شيء مما عند الناس، وربما لم يغن التلميح الى امكانية العقاب بالذم والشتم ، ولم يبق الا اشهار سيف الهجاء ، واعلان الحرب على الأثرياء ، فيكون من ذلك مثل هذا الكلام : " هل ظفرت بمطلوب يداك ، كلا ولكنك رأيت سرابا ، فحسبته شرابا ، وغرتك دمامة تحتها غثاثة ، وسكون لا يصلح الى جانبه ركون ، وبحكم الرغبة والحرص ، كانت فراستك في ذلك اللص . . . ودمع فاجر لا تروى منه المحاجر . . . فمن العناء مطالبته ، ومن الندامة قربه ومداناته ، فاستشعر اليأس منه ، واصرف عنان التثريب والعذل عنه ، فانما هو كذئب في ثلة ، في أرض مذلة ، في ليلة بعيدة مسافة الصباح . . . . . بل هو أعق من ضبّ حرب ، في جحر خرب . . . . . "(4)

ها هو أبو محمد عبدالغفور قد أمكننا من كل المواقف التي نتصورها لدى الأدباء بازاء ما قد يصابون به من منع مخاطبيهم وتجافي ممدوحيهم . قد يعيدون طرق الباب على سبيل التذكير والتنبيه ، وقد لا يفيد ذلك فيلجؤون الى العتاب المشوب بالتهديد ، فاذا صمّم أولائك المخاطبون على السكوت والمنع أطلق الأديب اليهم أفراس التقريع والذم في قالب الهجاء المقذع الذي استعرضنا نموذجا منه .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 366 .
(2) نفسه ، ص : 361 .
(3) نفسه .
(4) نفسه ، ص : 336 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو دققنا النظر في الفقرة السابقة لتبين لنا من وراء الشتيمة والسباب شقاء ما بعده شقاء ، إنها المرارة العظمى التي يختنق بها أديب خابت آماله العريضة، وقد استبان بعد فوات الأوان أنه وضعها في غير محلها ، فلم تصدق له فراسة ، ولم تصلح له أمنية ، ولم يتحقق له رجاء... وهكذا مدح ، وتضرع ، ومدّ يد التسول وألحّ في الطلب والاستجداء ، ثم لم يكن عن كل ذلك الا الخيبة وشبح البؤس الباقي ...

أفلا يتفجر الكاتب نقمة وسخطا على نفسه وعلى هذا المجتمع الذي يمثله رجل أناني ثري ، منّاع للمعروف ، هو أقرب الى الذئب المراوغ منه الى الرجل الفاضل العطوف ..

لقد أتيح لنا ، في الصفحات السابقة ، أن نستعرض عددا من النصوص النثرية ، الصادرة عن أدباء الأندلس ، والتي هي في حقيقتها من أكثر ما كتبوا صلة بنفوسهم ، واتصالا بأحوالهم ، وتعبيرا عن ذواتهم . فلسنا هنا أمام أغراض ذات طابع " موضوعي " أو مضامين " برانية " يتعامل الأديب معها عن الخارج ، وانما نحسن في صميم عالمه الداخلي ، نتتبع حركات نفسه حين تشقى ببؤسها ، وحين تنافق ، وتتذلل ، وتتضرع ، وتجاهد لإرضاء غرور الآخرين ، في سبيل الحصول على لقمة العيش وما يلتحق بها مما يقيم به الانسان أوَد الحياة . ونساير تلك النفس الجريحة وهي تتعلل بالأمل ، فتارة تظفر بما يزيد في رغبتها ، ويفتح آفاق رجائها ، وأبواب شهيتها ، وأحيانا تصدم بمواقف الشح ، والأنانية ، والملح ، والسأم من كثرة الطلب ، فتغضب وتثور ، وتنتقم لما أصابها من أذى الاهانة وأذى الحرمان ، بالشتم والسب والهجاء المقذع . وكل تلك ظروف الأدباء المساكين الذين يشقون بحمل تراث أجمع الناس على أنه كنز ثمين ، ولكنهم هائمون حائرون في كيفية التصرف فيه : لا هو يحقق لهم المنى ، ويوصلهم الى المراد ، كما وصل أقران لهم ، ولا هم يقوون على التخلص منه فلا يهتمون به ، ولا يعوّلون عليه . ومن هنا شقاؤهم الكبير ، ذلك الذي بلاه ابن بسام ، صاحب الذخيرة ، وجماعة من رفاقه الأدباء المغتربين فقال في وصف حاله وحالهم : " وبارحمتا لبحور أدب ، وصدور رتب ، كان نظمني وإياهم ودّ قديم ... قد طال ما عاطيتهم أكؤس الخمول ، على البكاء والعويل ، في أيام أوحش من توديع الشباب ، وليال أنكد من مناقشة الحساب .... " (1)

---

(1) مقدمة كتاب الذخيرة ، 1/1 ، ص : 21 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد أننا نبعد عن الصواب بكل تأكيد، ونجانب الحقيقة اذا نحن اعتقدنا أن الصورة العامة لمعاملة الأدباء الفقراء، أو الذين تنكرت لهم الظروف، تنفرد بما مواقف الصدّ، والمنع، والمجافاة، واللا مبالاة.

والواقع أنه كما وُجد المدّاحون المِلْحاحون الذين ربما بالغوا في الطلب حتى أقلقوا مخاطبيهم، فانه وجد الممدوحون الذين عرفوا كيف يسلكون الى النفس البشرية التي فطرت على حبّ المال، الطريق الكفيلة بهزها وتحريك أوتار الانسانية الحساسة فيها. ولعلّ من أبرز مظاهر التضامن في هذا العصر، ومشاركة المصابين مصابهم، أننا نجد الناس يسارعون الى العناية بطوائف شتى من هؤلاء الضعفاء، فيتوسطون لهم لدى القادرين على انقاذهم أو التخفيف من عنائهم، وذلك بتوجيه كتب العناية بهم، وهو ما سميناه نشر العناية والاستشفاع الذي نتصدى الآن للبحث في أهم أغراضه ومضامينه.

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ ـ في العناية والاستشفاع

من الظواهر التي تستوقف الدارس للنثر الأدبي في القرن الخامس كثرة الرسائل التي جاءت مضامينها تدور حول معاني التوسط لفئات مختلفة من الناس، ليتمكنوا من الاتصال بحكام البلاد، وأعيان المجتمع وأثريائه، بُغية الحصول لديهم عمّا هم في حاجة اليه من العون والمساعدة . وقد يسمى هذا الانشاء " عناية " أو " وسيلة " أو " شفاعة " .

ولو بحثنا في دوافعه لوجدناها ، بوجه عام ، تكمن في ظروف البلاد السياسية الداخلية منها والخارجية ، وما كان يترتب عليها من انقلابات خطيرة العواقب ، عميقة الأثر في حياة الناس، اذ كانت تتحول بهم فجأة من يسر الى عسر، ومن رخاء الى شقاء ، ومن استقرار الى تنقل واضطراب . وهكذا قد تتتابع الحوادث فتصفر يد البعض من كل ما يملكون ثم يضربون في أنحاء أخرى من البلاد يفرّون اليها بأرواحهم وأهليهم ، فلا يكون لهم من حيلة في اصلاح بعض أحوالهم الا بالتقرب ممن يملكون وسائل التفريج عنهم من الحكام والأعيان .

ولا غَرْوَ مالم يكن هؤلاء المحتاجون قادرين على الاتصال المباشر بمن يتوسّمون فيهم القدرة على إجلاء الغمة ، وتفريج الأزمة ، بل كانوا مضطرين الى طلب وساطة جماعة من ذوي السمعة الطيبة ، والذكر الحسن ، يفتحون لهم الطريق الى محط الأمل ، ومُناخ الرجاء . . واذا كنا نفهم هذا التصرف من الذين لاحظّ لهم من قدرة على المراسلة والتفنّن في أساليب الكتابة ، فانه يكون أمرا عجيبا للغاية حين يصدر عن مشاهير الأدباء وفحول الكُتّاب كما سنرى . والذي يزيد الأمر غرابة أن بعض الذين كتبوا يتوسطون لغيرهم لم تسبق لهم لا معرفةٌ مَنْ يتوسطون له ، ولا معرفةٌ من يتوسطون لديه ، مما يدل على أننا هاهنا أمام ضرب من التضامن الاجتماعي الذي أوجدته الظروف العامة في البلاد ، واقتضته ضرورات التعاضد بين أبناء الملة الواحدة حين هددتهم محن لا أحد يعرف من يكون هَدَفها القادم في مستقبل قريب . . .

ولعلنا نستبين الكثير من أغراض هذا الطراز الأدبي اذا درسنا طوائف المشفّعين ثم طوائف المشَفّوع لهم .

1 — طوائف المشفّعين

من المعلوم اننا نقصد بالمشفّعين ، أولائك الذين تُرجى مساعدتهم للضعفاء والمحتاجين . وقد رأينا أن نقسمهم الى فئتين ، كما كنّا نفصل في الأغراض الأخرى : وهم طائفة الملوك ومن في صفهم ثم طائفة الأعيان من الكبراء في الدولة ووجهاء المجتمع .

فممّا يلتحق بالرسائل الموجهة الى الملوك في هذا الشأن ، الكتاب الذى أرسله الأديب الشهير ابن زيدون[1] الى المظفر بن الأفطس[2] في الشفاعة لأحد الأدباء . وهذه الرسالة يمكن أن تعد نموذجا في بابها ، لأنها قديمة العهد نسبيا بالنظر الى غيرها ، ولأن كاتبها ابن زيدون .

وهي تبدأ بما تبدأ به كل رسالة موجهة الى ملك من المدح والثناء . ثم ينتقل الكاتب الى ذكر اعجابه بهذا الملك ، ووصف أصداء مآثره في نفسه حتى تحركت فيه الرغبة الشديدة الى الوصول اليه ، والاتصال به . وبعد ذلك يمهد لغرضه — على سبيل حسن الانتقال — بأن يجعل الأديب الذى يستشفع له يحرضه على الاستعاضة بالكتابة عن السفر مادام البعد مانعا له عن تحقيق هذه الرغبة . ثم يأخذ في طلب العناية به على هذا النحو : " ورأيت من شكر يد العلياء فيما حثني اليه .... أن استفتح باب المكاتبة بالشفاعة ، وانهج طريق المخاطبة في العناية به .. "(3)

وتبدأ الشفاعة بعد ذلك بذكر ما للكاتب من قرابة أدبية ، وصلة أخوية بهذا المشفوع له ، حتى انه ليشعر بالتقصير في حقه وهو يكتفي بالكتابة في التوسط له ، وكان من حقه أن يتحمل مشقة السفر من أجله .... ومثل هذه المعاني كفيلة ببيان حرص الكاتب على قضاء حاجة صاحبه ، مما يحث الملك على الاعتناء به ويحرضه على أن يبذل له أقصى ما يمكن من العون المطلوب .

ويلي ذلك القسمُ الاهم في هذه الرسالة كلها ، وهو الذى يصف فيه أحوال المشفوع له ، ويذكر استحقاقه للمساعدة المرجوّة ، يقول في ذلك : " وهو فتى نام جدّه ،

---

(1) أبو الوليد بن زيدون . سبق التعريف به . توفي عام 463 هـ .
(2) المظفر سيف الدولة أبو بكر بن الأفطس من ملوك بطليوس .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 393 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستيقظ حدّه ، فتنكر الزمان له ، واعترت الأيام به ، بين ذئاب سعاية عوت عليه ، وعقارب وشاية دبت اليه ، وأصلي بنار حرب لم يجنها .... وآل به الأمر الى فراق أحبته ، والبعد عن مسقط رأسه .... وأشهد أن ذلك لم يزده للحاجب الا ولاء ... وأنه لايزال يعيد شكره ويبديه .... الخ "(1)

كانت هذه شفاعة أديب كبير لدى أمير عظيم . ونحن ان كنا لا نعرف شيئا عن المشفوع له فان في الرسالة ما يفيد بأنه احدى ضحايا المؤامرات التي كان يدبرها المقربون من البلاطات الملكية عن غيرة أو حسد ... ونحن نكتفي بهذا النموذج من الشفاعة لدى الملوك ، لأن المنهج واحد ، والمخطط أيضا لا يكاد يختلف ، وانما يكون التباين في الحجم وطريقة العرض والتخلص (2)

ولو انتقلنا الى الرسائل الموجهة الى الأعيان والكبراء ، لوجدنا من أمثلة ذلك الرسالة التي وجهها أبو القاسم بن الجد (3) الى الفقيه القاضي بقرطبة . وحال الكاتب هنا ، كحال ابن زيدون من قبل ، لأنه هو أيضا لم يسبق له أن خاطب هذا القاضي الذي يراسله لأول مرة . وهو يعتذر عن ذلك بأن بينهما من وشائج العلم وصلات الأدب ما يجعلهما صديقين حميمين بدون أن يحتاجا الى التعارف والالتقاء وفي هذا ما يدل مرّة أخرى على مدى تضامن الكُتّاب مع هؤلاء المحتاجين تضامنا يدفعهم الى تخطي عوائق كثيرة منها حرج الاتصال بمن لم تسبق لهم به معرفة ولا صلة .

وبعد أن يطنب في الحديث عن قيمة صحبة العلم والأدب ، وقدرتها على التأليف بين المتباعدين ، يأخذ في الثناء على القاضي والتوسع في ذكر فضائله العلمية والأخلاقية ليصل الى موضوع الشفاعة فيقول : " ولماعلم " فلان " أن القيم عندك بحسب الانسان ، وعلى قدر تصرف اليد واللسان ، وأن أحظى ما قُرِعَ به بابك ، ورُفِعَ له حجابك ، رقعة تشير بها الى علم وأدب .... استنهضني شفيعا . فأجبته سريعا ... "(4)

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 393 .
(2) انظر رسالة ابن اللمائي الى القاضي ابن عباد في الشفاعة لأديب ، ذ : 2/1 ، ص : 619 .
(3) أبو القاسم محمد بن عبدالله بن الجد شاعر كاتب فقيه من رجال دولة المعتمد ، أخباره في ذ : 2/1 ، ص : 285 .
(4) ذ : 2/1 ، ص : 308 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والغريب أن الأديب ابن الجد يستشفع لرجل يبدو أنه ليس جديدا أمره على الفقيه المشفّع، فكما ذهب صاحب ابن زيدون السابق ضحية لمؤامرات القصر، فان هذا أيضا حدث له ما فرض عليه العطلة، والخروج من العمل فقد: "كان له بتلك الحضرة النيرة بعدلك فيما سلف ظهور، وتصرف مشهور، ثم ألقت عليه العطلة ثقل جرانها، وجرت به ملء عنانها، حتى انتسفت ما كان بيده، وحلت جميع عقده (1)."
وما الذى يمكن أن يطلب للعاطل عن العمل أحسن من العودة الى الشغل، وذلك بالضبط ما يطلبه ابن الجد لصاحبه حيث يقول: "وهو بكرم الصنيعة خليق، ولحمل المنن مطيق، وغرضه أن يصرف في بعض وجوه العمل، ويختبر حاله في الشدّ والزّل، وأنت بمجدك تقرض له من شرف عنايتك نصيبا، وتوليه من رعايتك وجها خصيبا .... الخ"(2) والحق أن طلب العمل من الأمور الدائرة في رسائل العناية والاستشفاع، لأن أكثر ما تدور عليه هو طلب المساعدة المادية الآجلة، أو الادناء والتقريب اللذان يدران على المشفوع له جراية منتظمة مثلما كان ذوو السلطان يفعلونه للأدباء المرتبطين بهم .

ومن أمثلة التشفع لدى أعيان الدولة أيضا ما كتبه أبو الربيع سليمان بن أحمد القضاعي (3) الى الوزير ابن محاسن(4) الذى يذكر له في أولها ما تواضع رجال السياسة عليه، منذ أقدم الحقب من عناية بالأدباء وتقريب لهم لأن "من شأ الأدباء (...) يناقض أرباب الرياسة، ويعارض أقطاب الوزارة"(5). ثم يأخذ في اطراء الأديب المشفوع له بذكر بضاعته من الأدب دون أن يطيل في ذلك اذ أنه يتحدث بعد ذلك مباشرة عن فقره وحاجته الى المال، ولكن بأسلوب مستطرف حقا، لأنه جاء في قالب قصصي، معتمدا على الرمز، محسنا استخدام بعض آيات القرآن الكريم .... مما قد نتناوله في الباب الأخير من بحثنا هذا .

كثيرة هي كتب العناية والاستشفاع الموجهة الى من يحتلون المنازل المرموقة في درجات الحكم ولذلك فلسنا نبتغي الالمام بها جميعا، لأننا نخرج بذلك عن القصد .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 308 .
(2) نفسه .
(3) سبق التعريف به . أخباره في ذ : 1/3 ، ص : 499 .
(4) وزير كاتب من رجال دولة التجيبيين في سرقسطة .
(5) ذ : 1/3 ، ص : 505 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانما نريد أن نمثل لها بنماذج شتّى تبين لنا مختلف الجوانب التي يمكن أن تتطرق اليها مضامينها الفرعية . ومن هذه النصوص التي يجدر بنا أن نشير اليها في سياق هذا التمثيل الرسالة التي وجهها أبو الفضل ابن حسداي الاسلامي[1] الى وزير المعتمد بن عباد الشهير : أبي بكر بن عمار[2] .وخلافا لطرائق بعض الادباء في كتابة العنايات ،فان أبا الفضل بن حسداي لايذكر شيئا عن سعادته بالفرصة التي تتاح له لمراسلة هذا الوزير الخطير ، وكأنما من عادته أن يفعل ذلك ،أو أن له به من الاتصال الوطيد ما يرفع عنه كلفة هذه المجاملة ، وانما يأخذ رأسا في المدح والثناء ،وهو سبيل لابد من أن يسلكه كل طالب عون . غير أن الذى تتعين ملاحظته في هذا المدح أنه لايداوي على شيء من الاغراق والمبالغة وانما هو ثناء جميل فيه عدل واقتصاد يدلان دلالة قوية على ما في شخصية الكاتب من وقار واعتدال .

فمن أمثلة مدحه قوله : " المحاسن التي تؤثر عنك بالسرو والسناء ، والمحامد التي تتلاقى عليك بها ألسنة الثناء ، تميل اليك أحناء القلوب ، وتقف عليك نخائل الصدور ، وقد أصبحت بفضل الله حلية الزمان ، ومفخر الأوان ، ومسمى عيون الأفاضل والأعيان بما نزعت به من كرم الخلائق ..... وما زلت — أدام الله عزّك — تجلو على المتوسلين اليك صفحات البشر ، وتنزلهم في ذراك عرصات الاجمال والبرّ ، فتجني ثمرات المجد ...."[3]

هذه الطريقة في القصد والاعتدال حين يمدح من عرف عنه أنه يرى نفسه يتجاوز منزلة الوزراء الى منزلة الملوك ، هي نفسها التي نجدها عند ابن حسداي حينما يأخذ في تقديم المشفوع له . فهو لابدّ من اطرائه ، وبيان فضائله ، ولكن هذا الاطراء لايفارق المقبول من الصفات فهو يقول منوها بعلم الأديب المشفوع له ، وبراعته ، متحدثا عن : " اعتلائه في مراقي العلم وتسنمه ، وشفوفه بالبراعة في الابداع وتقدمه "[4].

---

(1) كاتب شاعر سبق التعريف به . وهو من أصل يهودي أسلم ، وتقلد الوزارة في دولة بني هود . انظر أخباره في ذ : 1/3 ، ص : 257 .

(2) أبو بكر بن عمار أديب لامع من أدباء الأندلس ، صديق المعتمد بن عباد ووزيره وقتيله . انظر أخباره المفصلة في ذ : 1/2 ، ص 363 — 433 .

(3) ذ : 1/3 ، ص : 467 .

(4) نفسه ، ص : 468 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل ان أبا الفضل يقول لمراسله بكل بساطة : لا يمكن أن تخفى عنك قيمة هذا الأديب " فانك أعلى ملحظا ، وأزكى تيقظا من أن يخيب عليك مكان مثله ، ولا يتقرر لديك سموّ محله ... "(1)

هذه لهجة رجل صادق ، لا يسعى الى اطراء رجل كما لو كان تاجرا يريد أن ينفق بضاعته ، وانما هي وقفة انسان مخلص الى جانب صديق عرضت له محنة أو عنّ له التوجه الى جهة لقضاء مأرب فيها . ولعل خير ما يلخص هذا الموقف ، ويدل عليه أحسن دلالة قولُ الكاتب في آخر رسالته : " وحسبك به جملة تغني عن التفصيل ، من عالي تذلك الجليل ، اني ما عاشرت أكبر منه في البرّ والصلة ، ولا أقوم بحقيقة الود والخلة ، ولا نافست أطيب منه نفسا ، ولا أمتع أنسا ... "(2)

لقد كان من حسن الحظ أن يذكر لنا صاحب المصدر الذي ننقل عنه اسم الأديب المعني بهذه الشفاعة ، ذلك اننا حين نعرف انه الأديب الكبير ابن الحداد (3) نزداد تقديرا لأبي الفضل بن حسداى على صدقه في وصف صديقه ، واخلاصه في الوقوف الى جانبه .

ويحسن بنا أن نتعرف الى فئات المشفوع لهم لأننا نستطيع أن نكون لأنفسنا — بواسطة ذلك — فكرة واضحة المعالم ، عن نوعية الرجال الذين يتدخل مثل هؤلاء الأعيان لقضاء حوائجهم لدى الأمراء والوزراء والكبراء ، وربما تسنى لنا ، من خلال ذلك أيضا ، أن نقف على بعض الظروف التي دفعت بهم الى تلك المضائق الحرجة .

2 — طوائف المشفوع لهم :

يمكن أن نحصر هذه الطوائف في ثلاث فئات رئيسية هي : رجال الدولة ثم أعيان المجتمع ، ثم الأدباء . ولابدّ أن نخصّ كل فئة بحديث منفرد .

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 463 .

(2) نفسه .

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحدّاد كاتب شاعر ، سبق التعريف به توفي نحو سنة 480 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* — **رجال الدولة :** لعلنا لسنا في حاجة الى التذكير ، من جديد ، بأن اللوحة الخلفية لهذا النوع من الانشاء ، الذى شاع وازدهر في القرن الخامس بالذات ، انما هي الأحداث التي شهدتها الجزيرة في هذا العصر ، وما كان ينجر عنها من تغيير مستمر في الخارطة السياسية للبلاد . وأهم تلك الحوادث ماكان منها يؤدي الى سقوط الدول والقضاء على الامارات ، واحتلال المدن والحصون : فاذا بعظماء الأمس ، وأكابره المهيبين ، ووزرائه وقادته المبجلين ، بين قتيل وسجين ، واذا الذين تمكنوا من الفرار أو النجاة ، بحيلة من الحيل ، في أشد الحاجة الى نفس رحيمة تكرم ضيافتهم ، وتبعد عنهم أشباح الجوع والبؤس والهوان .

في هذا الاطار يمكننا أن ندرج الرسالة التي كتبها الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] في الشفاعة لأحد أمراء دولة بني هود في سرقسطة وهو من أبناء أحمد بن هود المستعين بالله[2] يقول فيها : " أكرم يد ... يطوقها المرأ جيد مجده ، ويزين بها ديوان حمده ، ما سدّ خلة من حسيب أقعدته يد الدهر المريب "[3] وهي مقدمة تُنْبِئُ بالحق عن موضوع الرسالة ، وتدل — مع ايجازها — على ضرب من استنهاض الهمم لمساعدة هؤلاء المشرّدين .

ونحن في هذه الرسالة لانجد المدح الذى اعتدنا أن نجده في أكثر هذا النوع من الرسائل ، تمهيدا لعرض حال المشفوع له وانما تنتقل الرسالة بصفة مباشرة الى الموضوع . ولا يبدو من السياق أن ذلك من آثار الحذف الذى يكون أجراه مؤلف المصدر ، وانما هو أصل الانشاء قد جاء على هذا النحو . وابن طاهر يذكر أحوال الأمير لمراسله فيقول : " وموصله — وصل الله حرمتك بالسلامة من نكد الأيام — : ابن المستعين بالله ... توسل بي الى مكارمك في ترميق حالته ، والرم لحوالته ، لما جفت غضارته ، (وعُوّض نَكَدَ) العَيش من رَغد النعمة ، وحُوّلَ الى الضيق بعد السَّعَة ، والى التجول من الدعة "[4] .

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير كورة مرسية ، اشتهر بالكتابة . مات ببلنسية سنة 507 أو 508 هـ ، وانظر أخباره في ذ : 3/1 ، ص : 24 وما بعدها ، وهامش المحقق فيها .

(2) المستعين بالله من أشهر أمراء بني هود في سرقسطة . انظر ما كتبناه عن هذه الدولة في الفصل الأول من هذا البحث .

(3) ذ : 3/1 ، ص : 62 .

(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وجلي أن ابن طاهر لايتوسط الى مراسله الا بشقاء المشفوع له ، وتعاسته ، فهو لا يذكّر بسابقة سياسية ، ولا يدعو الى تضامن بين أفراد الطبقة الحاكمة . انما هو رجل مشفق على عزيزٍ أذلته الأيام ، ورفيع قومه اهانته حوادث الدهر . وتنتهي هذه الرقعة بعبارة قصيرة ، فيها اماءة ذكية الى هذا المصير المظلم الذي لايستطيع أحد من أمراء الأندلس أن يضمن لنفسه النجاة منه ، وذلك في دعاء الكاتب لمخاطبه : " والله لايحدعك ارتهان المدن ، وارتباط الأحرار ، ويحرسك من حوادث الليل والنهار "(1) .

وكما تتغير أحوال الأمراء تبعا لصروف الدهر وحوادث الأيام ، فان أحوال الوزراء تتغير هي الأخرى ، بل لعلهم كانوا أكثر عرضة لذلك لأنهم هدف بارز لسهام الحسد والغيرة وتجبر السلطان . . . .

وبين أيدينا من نصوص هذا الغرض رقعة كتبها الأديب أبو بكر ابن المرخي (2) يشفع فيها لوزير إما لأنه فقد منصبه بمجيء هذا الرجل الذي تُطلَب الشفاعة لديه ، فهو يُرجى للعودة به الى سالف المكانة ، واما أنه يطمح الى مزيد من الارتقاء في دولة هذا المشفّع الذي لانعرف عنه ـ للأسف ـ شيئا على الاطلاق .

يبدأ الحديث عن المشفوع له ، بعد مقدمة موجزة على هذا النحو : " والوزير أبو فلان " ـ أبقاه الله ـ ممن يفتن في شكرك فيسحر المسامع ، ويوقع ذكرك في القلوب أكرم المواقع . . . . وكان له من رأيك الجميل في سالف المدة ، أشرف ذخيرة وعدّة . فلما ملّكك الفضل أزمّة النقض والإمرار ، ورتبك في ديوان الايراد والإصدار ، علم أنه لايسقط نجمه مع علو نجمك ، ولا تلدغه عقارب الدهر وهو يرقيها باسمك . . . . "(3)

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 63 .

(2) الأديب أبو بكر محمد بن عبدالعزيز المعروف بابن المرخي كاتب شاعر من رجال السياسة ، خدم عدة دول ، آخرها دولة المرابطين تأخرت وفاته الى قريب من سنة 540 . انظر أخباره في ذ : 2/2 ، ص : 533 ، وهامش المحقق فيهما .

(3) ذ : 2/2 ، ص : 542 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأغلب الظن لدينا أن هذه الشفاعة ليست لتخفيف الشقاء عن وجيه تنكرت له الأيام بقدر ما هي تهدف الى طلب المزيد من الشأن والرفعة لرجل يطمح اليهما . وأقرب الى نوع الشفاعات التي تعنى بالمصابين والمتحسين من رجال الدولة ، الرقعة التي كتبها الأديب أبو محمد بن عبد البر[1] عناية بأحد القواد[2]

والحق أنه من غير المألوف أن نجد شفاعة لقادة الحرب وأمراء الجيوش ، لأن مصير هؤلاء ، انما يتقرر عادة في ميادين القتال وساحات الوغى ، لا بالتوسط الى الحكام والتوسل اليهم بكتب العنايات والشفاعات . . .

ومهما يكن من أمر فان ابن عبد البر قد كتب الى مراسله يقول : " وقد سمت بي همتي ، التي هو بفضله أسماها ، وأطال مداها ، أن أقرع باب كرمه شافعا ، واستمطر سحاب نعمه راغبا ، في اقالة عثرة عبد من عبيد الدولة ... قد اتخذني سببا الى علائه ، وسلما الى سمائه ، اذ علم اني لدولته — خلدها الله — ولي ، وبدر نعمته غذي . . . . "(3)

ونحن قد أثبتنا هذه الرسالة وان كان يراودنا في أمرها شك مزدوج من حيث المخاطب بها ، وطبيعة مضمونها . فأما من حيث المخاطب فلعلها موجهة الى ملك من ملوك الطوائف ، لا الى مجرد رجل من رجال الدولة ، لأن عبارات التقرب والتودد التي يستعملها الكاتب أقرب الى أن تكون مما يخاطب به الملوك في العادة . وأما من حيث المضمون فهي ضرب من ضروب طلب الصفح للمذنبين مما كنا وقفنا عنده في مكان آخر من هذا الفصل . على أن ذلك لا يغير كثيرا من طبيعة هذه الرقعة الاستشفاعية ، ذلك أن الذي يكتب له شافعا لامداده بوسائل الرزق ، يمكن أيضا أن يكتب شافعا له في سبيل تأمينه واستصدار الصفح له من أميره الساخط عليه . وعلى ذلك كان بوسعنا أن ندرس هذه الرقعة هنا على أنها كتاب شفاعة ، كما كان بمقدورنا النظر اليها هناك ، من حيث هي رسالة في طلب العفو والأمان .

* — **أعيان المجتمع :** لذا انتقلنا الى الشفاعات التي كتبت في سبيل التوسل لأعيان المجتمع من ذوي العلم والجاه والثراء فيه ، فاننا نجد مجموعة من الرقاع التي تدل على أن الحوادث كانت تصيب هذه الفئة أيضا ، فتغير حالها من يسر الى عسر ، وتجبرها على التماس العون عن طريق التوسط بكتب الشفاعات .

---

(1) الوزير الكاتب أبو محمد بن عبد البر ، تقدم التعريف به . أخباره وأدبه في ذ : 1/3 ، ص: 125 — 226 .

(2) هو الذي سماه صاحب الذخيرة : "ابن حماد" وقال عنه "من أفراد القواد" . وانظر ذ : 1/3 ، ص : 208 . (3) نفسه

وأعيان المجتمع الذين أحوجهم الزمان الى الاستشفاع كثرة كثيرة لا يمكن أن نطيل في إحصاء أعدادهم، واستقصاء أحوالهم، وانما نذكر لهم مثالا واحدا يصح أن ينطبق عليهم جميعا، وهو الذى ذكره الكاتب ابن الدباغ[1] في رقعة لا نصرف الى من هي موجهة بالضبط .

هذه الرقعة في غاية الايجاز والاختصار، وهي بعباراتها القصيرة قد استطاعت أن تطرح معضلة هذا الوجيه بكل بساطة ووضوح . بل ان الأديب الكاتب يذكر لمراسله أنه لا يريد أن يتطرق الى ما تحدثه تقلبات الأيام، وما تتركه من وخيم العواقب في حياة الأفاضل، لأن مثل هذه الأحوال معروفة لديه . وكأنما أضحت مثل هذه الأمور من كثرة الحدوث، بحيث لم يعد يحتاج الكاتب الى التمهيد بها في ما يكتب من الرسائل، والالحاح عليها لاستدرار عطف مراسله .

ويجمل ابن الدباغ كل ذلك في هذه الكلمات القليلة : " معرفتك بتقلب الأيام بذوي الفضل، وحكمها (فيهم) بغير السوية والعدل، تغني عن عرض ذلك عليك وتقريره لديك " [2]. ثم يدخل بعد ذلك رأسا في الحديث عن المشفوع له، وهو الذى يبدو، من عبارات ابن الدباغ، أنه رجل ذو شهرة واسعة، يعرف المخاطب ماكان ينعم به من عريض الجاه وواسع الثراء . وفي ذلك يقول الكاتب : " وفلان ممن عرفت حاله في الثروة والمنعة، ورتبته في الجاه والرفعة، لكن أساءت اليه بعد الاحسان، وامتحنته بأنواع من الامتحان، حتى ذهبت بجميع وفره، واضطرته الى بني دهره "[3]

فهذه هي مأساة هذا الرجل وقد أحسن الكاتب عرضها، وكما كان حريصا على بسطها في منتهى الايجاز واليسر، فان الهدف المرجو، أو الغرض المنشود من هذه الشفاعة قد جاء أيضا دقيقا، واضحا، صريحا مع أنه في قالب الاطلاق، والاجمال، والاشارة البعيدة، اذ يقول : " وقَصَدَك مُسْتَجِيرا من عثرته، ومثلك بادر الى مشاركته، وحض على إسلاف البر اليه، ورغب في وضع الصنائع لديه "[4]، فما هي الاستجارة

---

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ كاتب شاعر، كان في خدمة المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ثم حدثت وحشة بينهما ففر منه الى المعتمد بن عباد . . . . أخباره في الذخيرة 3/1 ابتداء من ص، 251 .

(2) ذ : 3/1، ص : 309 .

(3) نفسه .

(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من العشرة ؟ وكيف يريدهما أن تكون أو مع ذلك فهل للواقع من علياته هدف أشدّ وضوحا وأكثر دقة من النهوض ؟ . . .

وهناك سؤال قد يتبادر الى الذهن ، وهو من هم هؤلاء الوجهاء والأعيان الذين تحوجهم الأيام الى استصراخ ذوي النفوس الكريمة،والاستجارة بالأفاضل الماجدين ؟ والذى يبدو من أغلبية النصوص التي بين أيدينا أنهم رجال من الثغور ، وهي بلاد المسلمين الواقعة على الحدود مع دول أعدائهم من النصارى الاسبان ، وهي حدود غير قارّة لأنها كانت تتقهقر كلما تقدمت جيوش الاسبان وسقطت في أيديهم العواصم والمدن والقلاع .ولعله يحسن بنا أن نشير الى بعض هذه الحالات اشارة خاطفة للتمثيل بها لكل الحالات الأخرى المضاهية لها .

فهذا الأمير أبو عبدالرحمن بن طاهر يكتب الى مراسل لانعرف من هو ، في شأن رجل " من أهل شلب ممن كانت له حال بذلك الغرب ، الا أن عادة الأيام في مثله مبلوّة ، ومنازلهم عندها مجفوّة ، ونَبَذَتْه عن الوطن والصميم ، كما ينبذ الكراع من الأديم : . . . وأنت مَحَط أمله ، ويد عمله . . . . "(1)

ان الأديب هاهنا ينبئنا ببلدة المشفوع له وهي شلب ، احدى مدن الغرب الأندلسي ، ولكنه لايخبرنا ، بدقة ، عما اذا كان سبب خروجه منها يعود الى اجتياح النصارى لها . أما ابن الدباغ[2] فانه يمنحنا تفصيلات هامة عن أحوال المشفوع له ، أولها أنه من أعيان تلك الجهة ووجهائها المعروفين ، ثم ينبئنا بأنه شيخ هرم . ومن المعلوم أن المحن في مثل ذلك العمر تكون أشد وأقسى على أصحابها ، وأكثر اثارة للرفق والشفقة لدى الناس .وكأن هذه المحن لم تستوف ما تريده من تعذيبه حتى ابتلته بالسجن عند الكفار ، واستصفاء المال في فديته ، وفوق كل ذلك فان أولائك الغالبين قد احتفظوا بأولاده رهينةً عندهم ليضمنوا دفع ما ضربوه عليه من المغارم ، مما لم تستطع كل ثروته الماضية أن تفي به...! أليست هذه مأساة انسانية حقيقية يدمى لها الفؤاد . .ولنستمع الى أبي المطرف بن الدباغ وهو يقصها بهذه العبارات الموجزة : " وموصل كتابي رجل من الثغر ووجوه الأطراف ، امتحنته الأيام في

(1) ذ : 3/1 ، ص : 62 .

(2) أبو المطرف عبدالرحمن بن الدباغ ، سبق التعريف به منذ قليل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النعم ، أوان الشيخ والهرم ، وابتلته بذل الاسر ، وطول الشقاء في دار الكفر ، وبحسب حاله في الثروة ، ومكانه من النجدة ، اشتُطّ عليه ، وأُخذ منه في الفِداء جميعُ ما في يديه ، وارتهن أولاده في بقايا بقيت عليه ".(1)

اننا نرى أن الكاتب لايحاول على الاطلاق اضفاء زينة خاصة على معانيه للتأثير علينا أو على مراسله ، واستفزاز أحاسيس الرحمة والاشفاق فيه ، ذلك أن هذه الحالة نموذج من نماذج المأساة العربية الاسلامية في الأندلس . فالسرد العادي للوقائع ، والعرض المجرد للحوادث يكفيان وحدهما لبلوغ أقصى غايات التأثير .

هذه نماذج ثلاثة أوردناها للتمثيل بها على مضامين النثر الأندلسي حين يدور على الشفاعة للأعيان الممتَحَنين في أوطانهم إثر الحوادث والنكبات ، وهي حالات لم تكن نادرة الوقوع ولا قليلة الضحايا ، وقد استدعت العدد الجم من كتب انسفاعة . بيد أن الذي بدا لنا من ترتيب هذه النصوص أن الأدباء قد نالوا حظ الأسد من هذه الشفاعات .

* — رجال الأدب : لو أردنا البحث عن تفسير لوفرة النصوص الاستشفاعية التي دارت على التوسل للأدباء من شعراء وكتاب ، لوجدناه — ربما — في عاملين اثنين : أولهما انهم يعرفون قيمة الأدب ، ومدى تأثيره على المشفعين أكثر من غيرهم ، وثانيهما — وهو الأهم — انهم يملكون الأداة الكفيلة باستنهاض أولائك المشفَّعين لمساعدتهم ، واغرائهم بمدّ يد المساعدة اليهم ، وتخفيف بعض ما يعانونه من المصائب ونعني بها المدح والثناء بالمنظوم والمنثور . ولعلّنا لا نشط عن الحقيقة اذا أضفنا اليهما عاملا ثالثا ، لايستهان به ، وهو استخدام التضامن الذي لابد أن تستدعيه أحوالهم من " زملائهم " الأدباء الذين ينتدبونهم الشفاعة لهم ، فيميلون الى الاستجابة لهم ، حتى ولو لم تسبق بينهما علاقة ولا صلة .

واذا كانت الشفاعات للأدباء على هذه الدرجة من الكثرة ، فاننا نكتفي باستعراض بعض نماذجها المعبرة .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 311 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك ما كتبه أبو القاسم بن الجد[1] في الشفاعة لأحد الشعراء. وهو يصفه بأنه ممن اضطره كلب الحرمان ونوب الزمان، الى اعتماد الكرام واسترفاد الأعيان "[2]، وهو مدخل مألوف كما رأينا. وأما الذي يمكن أن يستلفت الأنظار في وضع هذا الشاعر أنه ذو سابقة في طرق باب هذا الوجيه الذي تطلب منه اعانته. فقد كان حل ساحته في زمن مضى وجنى من ثمار حديقته الغناء، وهو رأى – كما قال الكاتب – أن " العود أحمد ". والغريب أنه يصوره في شكل الرجل القنوع الذي يرضى بالقليل، ولا يلح في الطلب ولا يثقل بادامة القرع للأبواب الموصدة، وفي ذلك يقول الكاتب: " وليس ممن يسأل شططا، ويتعسف غلطا، وانه ليتبلغ بالتسيير ويستنجز الوعد بالتسليم، وحسبه ما يرقع جانب خلته، ويبقع بعض غلته، وأنت بفضلك تشفق لما مني به من الاغتراب والاضطراب ... "[3]

ما الذي دفع الشفيع الى ذكر هذه الصفات، التي يعدها من الفضائل، في المشفوع له؟ لعل السادة المشفعين صاروا يقلقون بالحاح الأدباء المحرومين في الطلب، ويتضايقون من كثرة ترددهم عليهم استنجازا للوعد، أو طلبا للمزيد، فلذلك أراد ابن الجد من مراسله أن يطمئن، من هذه الناحية، فلن يكون المشفوع له مصدرا للاحراج والازعاج ......

هذه شفاعة لشاعر لا نعرف بالضبط ظروف كربته، وإنما قد نستشف بعض جوانبها من الاشارة الواردة في الفقرة السابقة اذ ذكر فيها " الاغتراب والاضطراب ... " وعندنا من انشاء أبي القاسم بن الجد نفسه رقعة أخرى في الشفاعة لشاعر أيضا، أورد لنا بعض المعلومات الكافية عن طبيعة تلك الظروف. وأول ما يدعو الى التوقف في هذه الرسالة أن المشفع نفسه يبدو وكأنه قد طرأ على أحواله ما غيرها وتصرف بها من حسن الى سيء، ولذلك فالكاتب يومي

---

(1) أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد. سبق التعريف به. أخباره في ذ: 2/1، ص: 285.

(2) ذ: 1/3، ص: 303.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى ذلك قائلا : " لئن كانت الأيام ـ أعزك الله ـ قد قلصت أذيال أحوالك، وسلطت هجيرها على برد ظلالك، وكدرت بأقذاء صروفها صفو زلالك "(1) الا أنه يحمله مع ذلك على المعروف ويحفزه الى ذلك بمثل هذه الأمثال وما تتضمنه من مدح : " فقد يجري الجواد وهو منكوب، ويتحمل الحر وبه ندوب ... "(2)

هذا جانب من ظروف المنتدب للمعروف والاحسان. أما ظروف الأديب المشفوع له فهي نتيجة مباشرة للآفة المستشرية في جسم الأندلس العليل : زحف الاحتلال النصراني . وهو زحف تتوالى أخباره ويعرف الناس كلهم أي نوع من الفظائع كان يُرتكب فيه . ولذلك نرى الكاتب يشير الى علم مراسله بذلك. يقول له : " وفي علمك ما دهي به وطنه من خطوب الزمن، وضروب المحن، وتغلب (3) عباد الوثن، ودفعته الضرورة الى استرفاد الاحرار والتكسب بالأشعار ... "(4)

ظروف النكبة واضحة أشد الوضوح، وحال الشاعر هي نفسها حال جموع الأدباء الذين لا حيلة لهم في اكتساب القوت لهم ولأهلهم الا باسترفاد الأحرار. هذا صحيح، ولكن ألم يكونوا قبل الكارثة أيضا يتكسبون بالأشعار ؟ ذلك سؤال لا يبدو الجواب عنه بديهيا كما يظهر من كلام ابن الجد ! ...

وهناك حالة أخرى، لا تخلو من طرافة وجدنا فيها نص شفاعة، وهو الذي صدر عن الكاتب أبي محمد بن عبد البر.(5) ووجه ذلك أنه كتب يرجو المساعدة لأديب طاعن في السن بلغ الثمانين من عمره . وهي رسالة مؤثرة بالفعل لأنها تتصل بهذه الطائفة من الناس : المسنين الذين كثيرا ما تعزلهم ظروف الحياة، ويشغل الناس عنهم بصخب الدنيا فلا يلتفتون الى مصابهم وما يقاسونه في شتاء العمر البارد من حرمان وعذاب . ولقد أحسن الكاتب في التعبير عن حال هذا الرجل الذي كان ينطق الصم بيانا، فاذا به كتلة مهملة في بعض زوايا النسيان . وقد قال في ذلك :

---

(1) ذ : 1/2، ص : 302.
(2) نفسه .
(3) في النص " وتقلب " بالقاف ، ويبدو أنه خطأ مطبعي .
(4) ذ : 1/2، ص : 302.
(5) سبق التعريف به في هذا الفصل .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد تحيفت الايام قواه ، وتخونت الحادثات عراه ، وقربت الثمانون خطاه ، فاختلج بنانه حتى كأنه لم يتعلق من الكتابة بأطناب الإطناب ، ولا تصرف من البلاغة في سهوب الإسهاب ، ولا عُدّ في الدواوين من صدور الكتاب "[1].

تعددت الأسباب والبؤس واحد . فهذا الرجل الأديب الكاتب لا يبدو أنه يشكو نزوحا عن الوطن ، أو اغترابا عن الأهل ، أو احتلالا لبلاده ، ومع ذلك فإن حاله تبعث على التألم والحزن الشديد . ولسنا ندري أكان عليه — كباقي الأدباء — أن ينتدب ذوي الجاه من الكتاب للشفاعة له لدى من يقوون على تقديم العون والمساعدة ، أم أن ابن عبد البر هو الذي انبعث من تلقاء نفسه الى معاناة هذا الزميل المسن ، فسعى لتخفيف الحمل عنه ، أم أن طرفا ثالثا ، من المبادرين بالاحسان ، هو الذي نبهه الى الشفاعة له وحثه عليها ؟ . . .

ومع أن في ما أوردناه من هذه الرقع ما يكفي لبيان مختلف الحالات التي كانت تتم فيها الشفاعة للأدباء ، فاننا لا نريد أن ننهي الكلام في هذا الجانب دون الاشارة الى شفاعة أخرى من نوع خاص . لقد كنا نتصور مختلف أنواع الاضطرار التي تجبر أهل الأدب على استرفاد ذوي الجاه واليسار من رجال الدولة وكبراء المجتمع ، ولكننا لم نكن نظن أنه يمكن أن يُمدّ من بينها الغرض الذي يشير اليه الأمير أبو عبد الرحمن ابن طاهر[2] في رقعته الآتية .

فلقد كتب الى أحد الأصدقاء يوصيه بأحد أصفيائه من الأدباء ، وهو الذي سمّاه " الاستاذ أبو القاسم عبد الدائم "[3] ولم يكن هذا الأديب في حاجة الى مساعدة أو اسعاف بالمال ، لأن الأمير ابن طاهر هو مستضيفه ، وهو يقول عنه : " وقد كانت استقرت به الدار عندي ، وأضاء به أفقي وزندي "[4]. مما لا يترك أدنى مجال للشك في أنه كان مَكْفِيّ الحاجة ، مُعَزّز الجانب ، لا تدفعه الى الضرب في الأرض الحاجة المادية أو ارادة الكسب . فما الذي تطلّب شفاعة الشفيع حينئذ ؟ انه

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 211 .
(2) أمير مرسية ، وسبق التعريف به .
(3) يرجح محقق الكتاب أن يكون من الطارئين على الأندلس ، وفي رسالة ابن طاهر في ذ : 1/3 ، ص : 59 ، ماقد يؤيد ذلك .
(4) ذ : 1/3 ، ص : 60 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبب صحي بحت يتمثل في السعي الى ظروف استشفائية أحسن للتداوي من علة ألمت به لايذكرها لنا الكاتب . وقد جاء ذكر هذا السبب في رقعة الأمير على النحو التالي : " حتى أوجدته النفس أدواء ، وآثر بمكانك لها شفاء ، حيث المحل فسيح ، والهواء صحيح ، والطبيب مواتٍ ، غير آب ولا عاتٍ . . . "(1).

وقد يتسرب الى النفس شك في أن لايكون هذا الكلام على الحقيقة ، فيحمل على المجاز ، وتلتمس له التأويلات والتفاسير التي تخرجه ذلك المخرج . والواقع أن خلاصة تلك الرقعة لاتترك أى مجال للشك ، حيث أن الكاتب يقول : " وقد دعوت الله أن يبرئه من وصبه ، ويرعاه في تقلبه ، وأنت بمجدك تؤمن على الدعاء ، وتبتدر هذا العلق بالاحتواء ، وتلزمه من مهرة الأطباء ، كل محمود النقيبة ، مأمون الضريبة . . . . "(2).

فلم يبق الا أن نعترف بأن الشفاعة للأصدقاء ، ولو كانوا من الأدباء ، قد تنقلب الى نوع من طلب العناية المعنوية بهم ، واستضافتهم ، مما ينأى بها بصفة كلية عن الطابع المادي للاستشفاع الذى يسعى بالدرجة الأولى الى تحصيل المعونة المالية أو الوظيفة الادارية للمشفوع له .

هذه طوائف من الراغبين في المعونة ، والساعين اليها قد استعرضناها بعد أن ألممنا قبل ذلك بطوائف من المنتدبين لهذا العون . ولعلنا استطعنا أن نكوّن لأنفسنا فكرة لاتخلو من دقة ووضوح عن هذه العلاقة الثلاثية ذات الأبعاد الانسانية والسياسية المختلفة بين مستغيث ، ووسيط ، ومستغاث به . بيد أن في الصورة عنصرا مفقودا قد لاتكتمل ملامحها الا به وهو : كيف كان المستغاث بهم يستقبلون هذه الشفاعات وماذا كان ردّ فعلهم ازاءها ؟

واذا كنا لانملك من النصوص ما يتيح لنا أن نستقرىء جميع الحالات ، فانه يمكننا أن نوضح ، بما لدينا منها ، موقفين على الأقل :

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 60 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الأول فهو موقف الاهمال، واللا مبالاة، وعدم العناية، ولسنا نعرف ان كان هذا الموقف شائعا لدى المسترفدين ؟ ولكن لدينا منه حالة واضحة وهي التي اضطر فيها الأديب ابن الحداد [1] الى قرع باب مراسله من جديد، ليستفسر عما حال دونه ودون تحقيق المرغوب فيه، بل ليحثه مرّة أخرى على قضاء حاجة من أرسله اليه، وذلك في كلام لايخلو من لهجة عتاب، ونبرة غضب. يقول: " قد كنت خاطبتك في أمر فلان .... وشكوت اليك عُجَري وبُجَري.... فما أمرت بنهرك زَبَدا ولا حَبَبَا .... ولا سلكت لشحبك صُعُدًا ولا صَبَبَا .... فماالذي عاق بدارك الى رغباتي، وسكن مشارك في طلباتي، فعَوْدًا الى مُتَعَتَرَفاتك، وجريا على قديم عاداتك .... الخ "[2]

أما الموقف الثاني فيشير صراحة الى الامتناع، بل الى اعلان الرفض والمغالاة في ذلك. ومن العجيب أن يكون صاحب هذا الموقف هو الأمير أبو عبدالرحمن بن طاهر الذي طالما وجدناه شفيعا لطوائف شتى من المحتاجين والمحرومين. قد تكون له أسبابه. وهو على كل حال يبوح لنا بالظاهر منها، وهي التي يجملها في قوله: " ثم رأيت ما نشرته من الرغبة في جبر فلان، قبحه الله من انسان، وعاء فسوق، له في البغي أكثف سوق"[3] وهي تهم عامة لاتدل على شيء محدد، ولكنها مع ذلك تصلح دليلا على أن المشفعين كانوا أحيانا يرفضون الشناعة لسوابق المشفوع له عندهم، لما اشتهر به من نقائص غابت عن الشفيع، ولأسباب أخرى لايمكن حصرها...

وقد تبلغ العداوة بين المستغيث والمستغاث به حدا يجعل الأول لايرى في الثاني الا كتلة من العيوب. فابن طاهر يتحدث عن المشفوع له بهذه اللهجة القاسية، بل يحذر الكاتب منه، ويدعوه الى معاداته ومحاربته: " فليكن عندك نسمة حرب، وقرارة ريب، ليس كما نحتله من الخلال،.... ووصفته بالحج وانما

(1) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن الحداد. سبق التعريف به، انظر ذ: 2/1 ص691.
(2) ذ: 2/1، ص: 703.
(3) ذ: 1/3، ص: 53.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حجبت الصير ، وبالفقه وانما هو منه الخلي الفقير ، وبالقراءة وما يحفظ التنزيل ، ولا يميز المحرف من الحروف ولا المستطيل ". (1)

هذا الموقف الصارم يقفه الأمير ابن طاهر من المشفوع له ، لا من الشفيع ، ويعني ذلك ان الأمير لم يضق بالشفاعة نفسها ، ولم يعترض عليها من حيث هي ، وانما رفض أن يستجيب بها لرغبة فرد معيّن من الناس ، له فيه أسوأ الآراء ، دون أن نعرف اليوم دوافع هذا الغضب عليه والنفور منه . وقد تضمنت رقعة الأمير هذا التفريق الدقيق بين الرفض العام ، والرفض الخاص بهذه الحالة المعروضة ، وذلك حين قال لمراسله : " وكل شفاعتكم عندي مقبول ، فالقلب على ود تكم مجبول ، لكنها معوذة من أن يدنّس بذلك الساقط طاهرها ". (2)

والموقف الثالث الذي لم تشر اليه النصوص ، ولم ترد في عرض حالاته ، فهو موقف القبول ، والاستجابة ، وتحقيق الحاجة . وهو أشمل ، وأوسع ، وأكثر عدّا من أن تخلده النصوص . بل مالنا لا نقول انه هو الحالة العادية ، والتصرف المألوف . والا فلم استمر الناس في التخاطب من أجل قضاء حاجة هؤلاء المحرومين والمنكوبين ؟ واذا كانت المصادر قد خلدت هذه النماذج القليلة بل النادرة من الرفض وعدم الاسراع الى الاجابة ، فلأنها حالات شاذة تثير التساؤل ، وتسترعي الانتباه ، وتستحق التقييد .

والواقع أن النثر التوسلي هو نافذة الأدب على قلب الانسان ، وأحاسيسه الدفينة ، وواقعه الذي قد لا يرتاح دائما الى التصريح به . أما القسم المتصل بالشفاعة منه ، فلئن كان يمثل مشاهد دامية من الجسم الأندلسي الجريح ، فانه يرمز الى مقدار عمق المشاعر الانسانية في الناس ، وقدرة الأدب على التأليف بينهم ، والمشاركة في التخفيف على المصابين منهم ، حين تتلاشى أو تضعف الروابط الأخرى .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 58 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نصل الى خاتمة حديثنا عن النثر التوسلي . وقد وجدناه انتاجا أدبيا شديد الصلة بأصحابه ، وثيق العلاقة بالبيئة الأندلسية وظروفها التاريخية . فلقد حمل عن أهله مهمة التودد الى الحكام ، واستعطافهم لنيل رضاهم من أجل الفوز لديهم بمنافع مادية أو معنوية . فأتاح ذلك للنثر أن ينافس ، منافسة قوية ، الفن الشعري في غرض المدح الذي هو من ألصق الأغراض به ، وأقربها اليه ، منذ العصر الجاهلي . واذا لم يخرج الشعر خاسرا من هذه المنافسة ، فظل ذا وجود كثيف في كل مناسبات اظهار أبهة الملك ، والتغني بمجد الحكام واطراء فضائلهم ، فانه يكفي النثر علوّ مكانة ، أن صار الشعراء المبدعون . أمثال ابن زيدون وغيره ، لايجدون في المدح الشعري مايستوفي كل حاجاتهم ، فيقبلون على تدبيج الرسائل الكثيرة في التقرب من بلاطات الملوك ، والتودّد الى مختلف طوائف الحاكمين والأثرياء بالرقاع النثرية .

وكما عبر الشعر ، منذ أقدم الأزمنة ، عن بؤس البائسين ، وحرمان المحرومين ، فقد عبر النثر أيضا من واقع هذه الفئات المستضعفة في المجتمع . واتخذه الكتاب وسيلة للتكسب والارتزاق ، تماما كما صنع الشعراء بالشعر . فلقد استجدى الكتاب ملوك زمنهم ، ورجال دولتهم . وذوي اليسار من أعيان الناس ، بانشائهم ، واستحانوا بهم على شقاء دهرهم ، وبلوا أخلاقهم بهذه الوسيلة ، فكان منهم الأجواد الكرماء ، وكان منهم أهل الشح الذين لايرون في مالهم أي حق للسائل والمحروم .

أما أدب العنايات والشفاعات ، فهو من الظواهر الفنية المستلفتة للانتباه ، لأنها ردّ فعل أدبي متميز ، اقتضته ظروف الأندلس التاريخية وما شهدته من البلايا والمحن التي اصطلى الناس بنارها ، فكانت فرصة أظهرت مدى التضامن الاجتماعي بين الأدباء . ومقدار حساسيتهم لما كان يعانيه المصابون من أنواع الويلات .

لقد نهض الأدباء ، في حركة انسانية نبيلة ، يدبّجون تلك الرقاع المؤثرة ، الى من يعرفون ومن لايعرفون من الملوك والوزراء ، يتوسطون ببلاغتهم الأدبية ، وبراعتهم الانشائية ، لأولئك البائسين ، يرجون لهم المساعدة المالية ، أو الخدمة السلطانية ، أو الالتفاتة المعنوية التي تعيد الأمن الى نفوس الخائفين منهم ، وتبعث في حناياهم شعاعا من الأمل والرجاء في عتمة ذلك اليأس والقنوط .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث :

النثر الاجتماعي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث = النثر الاجتماعي

ماذا نقصد بالنثر الاجتماعي ؟

مما لاريب فيه أننا لانعني ، بحال من الأحوال ، كل نثر يطرق في مضامينه جانبا من جوانب اصلاح المجتمع ، أو وصف أحواله ، أو تحليل الحوادث التي تقع في رقعة الأرض التي يحيا عليها . لو حاولنا أن نفعل ذلك لكنا أقرب الى الدارس الاجتماعي ، منا الى الدارس للانتاج الأدبي ، والمتتبع لمضامينه ، وفنونه ، وأساليب التعبير فيه .

والواقع أن أهمّ ماينبغي أن يفهم من النثر الذى ينسب الى المجتمع أنه العلاقات الانسانية التي يقتضي تعايش الجماعة البشرية اقامتها على شكل يكاد يكون واحدا في جوهره ، لدى كل الأمم والشعوب ، وانما يكون الاختلاف في الطرائق ، والأساليب ، ومناهج تعهد تلك العلاقات ، ونوعية الانفعالات التي تَحدُث لدى الأفراد عندما يكون التقصير في صيانتها ، أو عدم الوفاء بمراسيمها على الوجه الذى أقرته التقاليد العريقة ، والمثاليات الراسخة في الذاكرة الجماعية .

ومن البديهي أن أنواع العلاقات الانسانية بين أفراد المجتمع قد تطلبت مجاملات ومبادلات مختلفة ليس باختلاف المناسبات فقط ، فأوجدت لكل مناسبة صيغا تلائمها دون غيرها ، بل انها تختلف ، بشكل خاص ، حسب نوعية الصلة التي تربط بين الأطراف . وهكذا فان نوعية العلاقة بين من نسميهم " الأصدقاء " لاتشبه تماما العلاقة التي تكون بين " زملاء " العمل الواحد . وهذه لاتشبه الوشائج التي تكون بين المتجاورين . وهكذا ، فان للتعبير الاجتماعي سَلاَلِمَ عديدة يؤدّى عبر درجاتها المتنوعة . . .

فاذا كان قد اتضح لنا مانعنيه بالضبط حين نبتغي الحديث عن نثر المبادلات الاجتماعية والمجاملات الاخوانية ، فانه يمكن حصر المضامين التي نتناولها في المحاور التالية التي استخلصت من جملة النصوص النثرية التي درسناها . وهي خمسة محاور :

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ — في الصداقة والأصدقاء .
ب — في الهدايا .
ج — في التهاني .
د — في التعازي .
هـ — في العتاب والهجاء .

ولعلنا نخرج من دراستنا لمجموع هذه العناوين بصورة تامة الملامح ، واضحة القسمات للنثر الأندلسي ذي الطابع الاجتماعي ، ومن خلاله لجوانب هامة من حياة المجتمع الأندلسي .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ـ في الصداقة والأصدقاء

ليس من السهل أن نحيط بمجمل النصوص التي أنشئت في معنى من معاني الصداقة والأصدقاء ، وأن نلم إلماما مفصلا بكل المضامين التي تطرقت اليها تلك النصوص . فالصداقة ـ كما هو معلوم ـ علاقة انسانية معقدة تثير في النفس مختلف المشاعر ، وتؤدي الى انفعالات يختلف الناس اختلافا كبيرا في الابانة عنها . ولذلك فاننا نكتفي بالأغراض التي تساعدنا على تصور عام لبعض مظاهرها الأساسية كما بدت من خلال الأدب الأندلسي . وقد يكون أحقّ هذه الأغراض بالأسبقية ، رأيُ الأدباء في الصداقة ، والأوصافُ التي مدحوا بها الأصدقاء والخلان .

ولعلّ أحسن من عبر عن هذه الأوصاف ، الأديب أبو حفص بن برد الأصغر(1) الذي أوردها في مجموعة من العبارات جاءت غاية في الدقة والتركيز والاختصار ، مثل قوله : " بيننا خصائص وِدَادة ، كأنها وشائج وِلادة ـ رَعَيْتُ به السّعدان ، وأخذت من ريب دهري به الأمان ـ أمضى لساني ، وبل ريقي ، وأشاد باسمي ، وأعلى قدري .... ـ ناصري اذا تكاثرت الخطوب علي ، ومُجيري اذا أثخنت الأيام جانبيّ ..... ـ يحسن عشرة الجار ، ويسيء عشرة الدرهم والدينار ... الخ " (2)

انها معان تدور ـ كما نرى ـ على صفاء المودة ، والاخلاص ، والاطمئنان الى أخلاق الصديق ، وائتمان جانبه ، وحسن معاشرته ، وهي كلها مما تمتلىء به القصائد والرسائل التي يتبادلها الاخوان وقت صفاء الود ، مما لا نريد الاطالة فيه . وان كنا لا نحسب أن نترك ابن برد الأصغر قبل أن نشير الى أن له ـ كذلك ـ مجموعة من العبارات في عكس تلك الأوصاف . وهي هامة من حيث أنها تريها الصورة السلبية للصداقة عنده ، ونقيض تلك الأوصاف الحميدة المتقدمة .

---

(1) الوزير الكاتب أبو حفص بن برد الأصغر ـ جده أبو حفص الأكبر ـ ، انظر الذخيرة 1/1 ، ص : 436 ، وهامش المحقق فيها بأهم مراجع ترجمته .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 504 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقـول : "بَبْخُسُ الأُنُوق من رفده أمكن ، وصفـا المشقّـر من خده ألـين . ــ مـنزور النوال ، رث الفعال . ــ أحاديث وعده لا تعود بنفـع ، ولا هي من غرب ولا نبع . . . . . . ــ غني من الجهل ، مفلس من العقل . . . . . . ــ غربال حديـث ، اذا وَعَى سرّا قطر منه . . . . ــ شرّ بقعـة لغرس المودة ، وبذر الإخاء . ــ قصير الوفـاء للإخوان ، عون عليهم مع الزمان . ــ هو كدر الدنيا وسقـم الحيـاة . . . . الخ " [1]

هذه أوصاف شائعة في ذم الأصدقاء حين يخونون عهد المودة ، ويتقلبون عونـا مع الزمان على من كانوا يبادلونـه الودّ والإخاء . ولسنا ندري في أي سياق جاءت هذه العبارات المـقتضبـة المتلاحقـة ، المدحية منها والهجائيـة ، ولا ما هو موقعهـا مـن انشاء ابن برد الأصغر ؟ وعلى أية حال فان لها قيمـة محدودة في رسم الصورة الـتي وعدنا بجمع ملامحها ، لأنها أحكام مطلقة ، مجرّدة ، تدل على رأي صاحبها ــ بكـل تأكيـد ــ ولكنهـا لا تصدر عن تجربـة حية ، أو معاناة واقعية ، وهو ما نجده أوضح وأبين في الرسائل المتبادلة بين عبد المجيـد بن عبدون[2] ، وأبي القاسم بن الجد[3] . فـقـد نشطت بينهما صداقة ما كادت تنبعـث أول مرة حتى رسخـت وتأصلت ، وخلّفت لنا عـددا من الرسائل ، هي من أجمل ما تخاطـب به صديقان ، ومن أحسن ما تناجي به متحابان . واذا كان المقام لا يتسـع لاستعراض تلك الرقاع البديعة ، فلا أقل من أن نورد بعـض الجمل الواردة في وصف كل منهمـا لفضائـل الآخـر .

فاما ابن عبدون فيقول : " يا أعظم من لو سريت بأنواره لاهتديت ، وأفخم من لـو اقتديـت بآثاره لاكتفيـت ، ومن أبقاه الله لفضل آبائـه بفضلـه الا من بنـيه ، ولستر إغضائـه يسدله على مستحقيـه . "[4] وأما ابن الجد فمما يجيبـه به قوله : "تمهدت لك يا عمادي أكناف الحمم ، ودرت عليك أخلاف النعم ، وألقـت اليك مكنون ضمائرهـا ومصون جواهرها أصداف الحكم ، فما أتـم فضائلك وشمائلك ، وألمّ بأنوار المحاسـن خمائلك ، وأسمح بكل جوهرة ثمينـة ولؤلؤة نفيسـة بحارك . . . الخ "[5]

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 505 .
(2) أبو محمد عبد المجيد بـن عبدون من أكابر وزراء الأندلس وأدبائها . انظر أخباره في الذخيرة 2/2 ، ص : 666 ، وفيها هامش المحقق وفيه ثبت طويل لمراجع ترجمته .
(3) أبو القاسم بن الجد ، تقدم التعريف به في الفصول السابقة .
(4) ذ : 2/2 ، ص : 674 .
(5) نفسـه ، ص : 677 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يظن أن هذه الصيغ الفضفاضة ليست الا تعبيرا عما اقتضته تقاليد المجاملة، عند التراسل، بين أديبين كبيرين، لهما شأنهما الخطير، وقتئذ، في بلاد الأندلس. ونحن وان كنا لا نريد أن نقلل من أثر التقاليد الأدبية التي بسطت سلطانها على فنّ الترسل كله، الا أننا نرفض أن نرى في هذا التعبير الحار عن عواطف المحبة بين صديقين، مجرّد اصطناع لأساليب جاهزة، ومناهج مطروقة، في متناول كل من أوتي القدرة على تأديتها بألفاظ بليغة. ذلك أن الصنعة شيء، والصدق شيء آخر، واللهجة الصادقة لا يكاد يخطئها الدارس المتأني. وربما كان من المناسبات التي يستبين فيها صدق المشاعر، اظهار الكتّاب لما يجدونه من المسرة والابتهاج عند ورود كتب أصدقائهم، وذلك مثلما نراه عند الأديب الكبير أبي القاسم بن الجد الذي كتب في وصف تلك المسرة يقول: "قد يرد من تحف الاخوان مالم يراقب له مورد، ولا ضرب فيه موعد، ولا غازله ضمير، ولا تقدّم فيه بشير، فيكون لجامع الانس أجلب، ولمجامع النفس أذهب، وعلى صفحات الفؤاد أندى وأبرد، والى تلمحات الفؤاد أهدى وأقصد ..."(1)

وقد ضاعف من احساس ابن الجد بالسعادة، عند وصول هذا الكتاب اليه انه صادف انقباضا في نفسه، وجرحا في قلبه، لا يذكر لنا سببهما. ومن المؤكد أن الصديق الذي يذكُر صديقه في مثل تلك الأوقات يفاجئه بقدر من السرور لا يمكن أن يُحاط بجميع أبعاده، فكيف اذا كان الصديق المراسِل قد انقطعت أخباره منذ أمد بعيد، كما يفهم من هذه الرسالة. ولنعد الى ابن الجد، نسمع اليه وهو يحدثنا عن كل ذلك: "لاسيما اذا ورد وللوحشة جثوم، وبين الجوانح كلوم، كمورد خطابك، فانه هجم ولا تأهب له خَلَد، ونجم وفي جَفن الأنس رَمَد، فأذكرني حسنه زمن الصّبا، ونفس الصّبا، .... وجدّد من رسم الصبابة والمقة قديما، وأحيا من شخص القرابة رفاتا رميما .... فلله درّ عهدك ما أجمل محيّاه، وأنم في روض الوفاء رياه .... الخ"(2)

أيخالجنا أدنى شك في أن الرجل هنا انما يصدر عن قلب طافح بسعادة حقيقية، ويصف من نفسه موقع الارتياح العظيم لهذه الالتفاتة التي أكرمه بها صديق قديم

---

(1) ذ: 2/1، ص: 297.
(2) نفسه، ص: 293.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في الوقت الذى لم يكن ينتظرها ، بل في الوقت الذى كان منطويا على جرحه ، وهو ظرف يكون الانسان فيه ـ عادة ـ مُفرط الحساسية ، كثير الانتباه لأدنى تظاهرات الودّ والوفاء ....

بيد أننا لا نستطيع أن نقول مثل هذا الكلام ـ لأسفنا الشديد ـ عن كل الفقرات الترسلية التي ورد فيها وصف لكتب الأصدقاء . ذلك أن أغلب الأدباء الذين تناولوا هذا الوصف انما اعتنوا بالجوانب الخارجية ، لا يتعدونها الى الأثر المتروك في نفوسهم . فأقبلوا على تلك الرقاع يَطْرُون بلاغة كتابها ، ويثنون على مهارتهم الأدبية ، وقدرتهم البيانية .... ومع أن الأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، فلا بأس من ايراد هذا النموذج لمجرد بيان ما نعنيه .

ففي رسالة لأبي محمد بن عبد البر، الى بعض أصدقائه ، ورد هذا الوصف للرسالة التي كانت قد وصلت اليه : " ورد كتابك ، فلحظت منه فجر البيان ، وشجر الاحسان ، وثمار البديع المزرية ، واستخفني باعجابه ، واستفزني بإطرابه ، فأشهد لو كان خلقا لكان إنسا ، أو نورا لكان شمسا ، أو روضا لكان حزنا ، أو ماء لكان مزنا ... "(1)

مما لا ريب فيه أننا لا نحتاج الى تحليل طويل لبيان الفرق الشاسع بين النصين ، فهذا كلام صناعي لا يعبر عن عاطفة ، ولا ينبئ عن احساس ، وانما هو مجاملة جوفاء ، واطراء كاذب ، لا طائل فيه من امثال " فجر البيان " و"شجرة الاحسان " و " لو كان خلقا لكان انسا ". وهناك كلام يؤثر في القلب لأنه صادر عن القلب ، على الرغم مما فيه من تأنق لفظي ، ومسايرته لمقتضيات التعبير الشائعة تواليها يومئذ ، في كل بلاد الحرب ...

ومما يتصل بغرض " الصداقة " وملاحقها ، ان جاز لنا التعبير ، المواقف العاطفية التي تمليها المناسبات التي يغيب فيها أولائك الأصدقاء ، لشأن من شؤون الحياة ، وما أكثرها ، ثم عودتهم بعد مدة تطول أو تقصر ، وما يكون لتلك العودة من أثر في نفوس أصدقائهم المحبين .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 206 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وممن عالجوا هذه المعاني الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر(1) الذي له جملة رقاع في هذين المعنيين كليهما . فمما يندرج في باب الحزن لغياب الأصدقاء ، واضطرارهم الى السفر والهجرة قوله : " . . . فلا تتكون من مقالي ، ما يمليه لسان الشوق من حالي ، . لما تحققت (خبر) تغيبك ، لاعدمت الأنس بسببك ، هاجني من ذكرك هائج ، ومسني منه حرق وامج ، شرد لي منامي ، وردد قعودي وقيامي ، وأقرح المآقي ، وبلغ بالنفس التراقي ، تأسفا لبعدك وحالفة للهموم من بعدك "(2) .

في هذه الرقعة من معاني التأسف والألم لغياب هذا الصديق ما هو ظاهر للعيان ، ولا يحتاج الى من يبينه أو يدل عليه . أجل انها معاني الحزن ، لا عواطفه . والواقع أن الأمير ابن طاهر لا يحس في قرارة قلبه بشيء مما يقوله لسانه ، ويكتبه قلمه ، وانما هي أضرب من المجاملات اقتضتها ظروف لا نعرفها ، وربما كانت سياسية أو من نحو ذلك ، أما الصدق فلا حظ له ولا نصيب . .

ولابن طاهر هذا نفسه رسالة في التعبير عن عودة صديق وانتهاء غربته ، يقول فيها وقد جمع بين معاني الحزن لفراقه ، ومعاني الابتهاج بعودته : " . . . وانك — أحسن الله مقامك وظعنك — لما امتطيت ركاب النوى . . . كحل السهاد جفني ، وتمكن الاشفاق مني ، وأخذت نفسي في الذهوب ، وشمس أنسي في الغروب ، حتى طلع البشير بالقفول ، فجعلت أقول :

لِلَّهِ نُذْرٌ وَاجِبٌ . . . وَلَكَ البِشَارَةُ يَارَسُولُ

وثابت اليّ المسرّة كأوّل مرة ، وظلت أمرح في أثوابها وانى لي بها ، فالحمد لله على صنعه الكريم . . . . الخ "(3)

هذا نموذج آخر من المعاني التي يتبادلها الأصدقاء ، وقت عودة بعضهم من السفر ، ودخولهم الى مواطنهم بعد الهجرة والاغتراب . وليس لدينا ما نقوله عنه

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير امارة مرسية ، وكاتب بليغ . سبق التعريف به .

(2) ذ : 3 / 1 ، ص : 52 .

(3) نفسه ص : 51 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بعد الذى قلناه آنفا ، فما نكاد نلمح في ما يكتبه الأمير صدقا ، وانما هي مراسيم التجامل بين الاخوان قضاها بهذه الرسالة ، أما المشاعر الحقيقية فلا وجود لها . وليست مبالغات التعبير ، كيفما كانت ، بقادرة على أن توهمنا بخلاف ذلك .

رسائل الاستزارة والاستدعاء الى مجالس الانس :

تقوم الرسائل ، بين الأصدقاء المتباعدين ، بدور الوسيط الذى يسعى بينهم بما يريد أن يُبلِّغه بعضُهم بعضًا . فاذا لم تفرق بينهم المسافات ، فللصداقة طرائف أخرى تقضي بها واجباتها ، منها التزاور ، ومنها الاجتماع في مجالس يأنس فيها المتصادقون ، بعضهم ببعض ، ويقضون فيها ما شاءوا من أوطارهم في اللذة والاستمتاع .

وليس في هذا شيء يدعو الى الاستغراب ، فمثله وقع ، ويقع في كل وقت ، وفي كل البيئات التي اجتمعت فيها عوامل الحضارة والفراغ . وانما الذى لا يخلو من طرافة هو أن يكون الأصدقاء ، في هذه الظروف بالذات ، محتاجين الى التراسل وتبادل الرقاع المكتوبة ، وأن ينشط عندهم لون مستحدث من ألوان الأدب النثرى يتمثل في تلك المجموعة التي وصلت الينا من الرسائل التي فيها استدعاء الاخوان والرفاق الى مجالس الانس التي كانت تعقد في رياض الأندلس الجميلة ، بين منابت الزهر الفواح ، ومجارى المياه الرقراقة ....

وفيما يلي رقعة لابن خفاجة(1) ليست في الاستدعاء ولكنها في وصف مجلس من هذه المجالس التي يعقدها البعض من الرفاق ثم يكتبون الى اخوانهم الغائبين يطلبون منهم الالتحاق بهم . قال : " ولما أكبّ الغمام اكبابا ، لم أجد منه إغبابا ، واتصل المطر اتصالا ، لم آلف معه انفصالا ، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته ، وينشر صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ... وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس

---

(1) أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة كاتب شاعر ، من أشهر شعراء الأندلس توفي سنة 533 هـ ، وأخباره في الذخيرة 3/2 ، ص : 541 . وانظر هامش المحقق فيها وقائمة وافية بمراجع ترجمته .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحدل نقابها ، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت ، وقد تحلت ذهبت في لمة من الاخوان تستبق الى الراحة ركضا ، وتطوى للتفرج أرضا ، وتنشر أرضا ، فلا تدفع الا الى غدير نمير ، قد استدار منه في كل قرارة سماء ، . . . وأنساب في كل تلعة حباب . . . . "(1)

ليس هذا الا الاطار الطبيعي ، للمجلس الذي يبدأ ابن خفّاجة في وصفه بقوله " فاحتللنا قبة خضراء ، ممدودة أشطان الاغصان ، سندسية رواق الأوراق ، وماز لنا نلتحف (منها) ببرد ظل ظليل ، ونشتمل عليه برداء نسيم عليل . . . . وقد حضرنا مُسمِعٌ يَجري مع النفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهواها ، ويغني لها مقترحها ومناها ، فصيح لسان النقر ، يشفي من الوقر . . . . الخ " (2).

فها هو ذا مجلس قد اجتمعت فيه كل لوازم الراحة وأدوات السعادة والحبور من طبيعة باسمة ، وأرض مضيافة ، وفن كما تشتهي النفوس وتتمنى الأرواح . أليست ساعة يتذكر فيها المرء خيرة رفاقه ، وأقرب أصدقائه ، فيبحث في طلبهم ، لأن النفس الآدمية قد جُبِلت على طبيعة لا تكتمل فيها سعادة الانسان الا اذا امتدت ظلا لها الوارفة الى كل من يحبهم قلبه ؟ بلى ، وان الأدباء الأندلسيين قد أوجدوا نمطا خاصا من الأدب، هو ذلك الذي يستدعون فيه أمثال أولائك الرفاق والأصدقاء الى مشاركتهم ملذات تلك المجالس .

فممن مارسوا أدب الاستدعاء : ابن برد الأصغر (3) الذي كتب الى صديقه مبتدئا بوصف الطبيعة كما هي القاعدة العامة في معظم هذه الرقاع ، فقال : " اليوم يوم بكت أمطاره ، وضحكت أزهاره ، وتقلحت شمسه ، وتعطر نسيمه ، وعندنا بلبل هزج ، وساق غنج ، وسلافتان : سلافة اخوان وسلافة دنان ، قد تشاكلتا في الطباع ، وازدوجتا في إثارة السرور . . . "(4)

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 543 .

(2) نفسه ، ص : 544 .

(3) أبو حفص بن برد الأصغر كاتب ، شاعر ، من أسرة قرطبية مجيدة . أخباره في ذ : 1/1 ، ص : 466 وفي هامشها ثبت لمراجع ترجمته كما أحصاها المحقق .

(4) ذ : 1/1 ، ص : 502 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا هو المدخل الوصفي الذي يمهّد به الأديب ابن برد الأصغر للغرض الرئيسي وهو استدعاء صديقه الى الحضور للتمتع مع الرفاق . ونحن نلاحظ أن عناصر المتعة هي هي : طبيعة جميلة ، وخمر موفورة يبذلها " ساق غنج " ، وأنغام لطيفة يقوم على أدائها " بلبل هزج " .

أما صيغة الاستدعاء نفسه ـ أو الدعوة كما نقول اليوم ـ فتأتي في هذا القالب من الاغراء والاستفزاز : " فاخرق الينا سرادق الدجن ، تجد مرأى لم يحسن الا لك ، ولا يتم الا بك . "(1)

ويبدو أن بعض هذه المجالس ربّما عُقد لجماعة متجانسة لا تريد أن تخلط بين أنواع الملاذ ، ولا أن تتعدد مصادر سرورها ، وإلّافبماذا نفسّر قول أبي محمد بن السيد البطليوسي(2) حين قال لصاحبه الذي كتب يستدعيه : " نحن ـ أعزك الله ـ في مجلس مدام تديرنا أفلاكه ... "(3) فهل ينبغي لنا أن نفهم أن هذا اللقاء لامكان فيه إلّا للخمر ، فلا حاجة لأصحابه " بالساق الغنج " و " البلبل الهزج " كما قال ابن برد . أم أنهما من متممات كلّ المجالس ، ولذلك لم يجد أبو محمد حاجة الى ذكرهما ؟ ...

ومهما يكن من أمر ، فان الأديب المذكور لم يغفل الاشارة اليهما في نص آخر حين كتب الى صديقه يقول ، مغريا له ، مستفزا لكل مراكز الانفعال فيه " ما ظنك ـ أعزك الله ـ بعروس لهو ، تختال في ثياب عجب وزهو ، وتصبي القلوب بحسن قصف وشدو ، قد سفرت من وردها عن خد خجل ، ورنت من نرجسها بطرف غير مكتحل ، ونحن بين فرش مرفوعة ، وأكواب موضوعة . فبادر الينا "(4) .

من الواضح الجلي أن هذه الرقعة تدل بوضوح على أن الكاتب قد منح الجانب الأكبر من عنايته للخمر . ومع ذلك فانها لا تحتكر قائمة المسرات في ذلك

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 502 .
(2) الشيخ أبو محمد بن الحسين البطليوسي ، شاعر كاتب من شلب ، أقام ببطليوس فنسب اليها . انظر أخباره في ذ : 2/3 ، ص : 394 .
(3) ذ : 2/3 ، ص : 396 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجلس الموصوف ، لأن فيه مكانا " للقصف " و " الشدو " وان ورد الحديث عنهما كما لو كانا مجرد أتباع وخدم لعروس اللهو المختالة .

ومن ناحية أخرى نستطيع أن نلاحظ ، في هذه الرسالة أيضا ، ماكنا لاحظناه قبلُ ، من الاعتماد على الاختصار الشديد عند الوصول الى صيغة الاستزارة نفسها . بل انها هنا جاءت غاية في الاختصار حتى كأن الاستدعاء الحقيقي انما هو الوصف المتقدم وما يحمله من عناصر الاغراء والاستثارة ، لاقوله : " فبادر الينا " . الذى جاء في آخر الكلام كأنه " برقية " استعجال .

ولعلّنا لاحظنا أن أكثرية النماذج التي أشرنا اليها من هذه الرقاع تنبئنا بأن تلك المجالس — الموصوفة فيها — قد عقدت بعد انقشاع الغيوم ، وعودة الصحو مباشرة ، مما قد يدل على أن الأمطار العارضة الخفيفة التي يعقبها الصحو سريعا ، لم تكن لتعوق أصحاب هذه المجالس عن عقد لقاءاتهم .

أما عند اعتدال المناخ ، وشيوع الصحو واستمراره ، فيبدو أن تلك المجالس تكثر وتتعدد لأن الاطار الطبيعي الملائم يشجع على عقدها ، واستنهاض الأصدقاء اليها .

فممن تحدث عن مجالس الصحو هذه ، وكتب في الاستدعاء اليها الأديب أبو المطرف بن الدباغ [1] الذى كتب في وصف يومه ذاك : " طلع علينا هذا اليوم فكاد يُمطر من النضارة صحوه ، ويتمشّى من الانارة جوّه ، ويُحيي الرميمَ اعتدالُه ، ويصبي الحليمَ حسنُه وجماله " [2] ثم ينتقل بعد ذلك الى وصف المكان الذي اختاره القوم لمسرتهم فينعته بهذه العبارات : " في روضة خلعت عليها السماء سبائبها ، ونثرت علينا كواكبها ، ووفد عليه النعمان بشقيقه ، . . . وبكى اليه بابل برحيقه ، . . . . " [3] وبعد أن يفرغ من هذا الوصف يصل الى دعوة الصديق المخاطب بهذا الكلام ، فاذا هو يمدحه ويثني عليه بمجموعة من الفضائل تجعله أحد العناصر الفلكية التي يزيد تألقها في جمال المنظر وبهائه ، ولنستمع اليه وهو يقول له :

---

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر بن الدباغ . سبق التعريف به . كاتب خدم المقتدر أمير بني هود ثم ساءت العلاقات بينهما فخشيه وفر من بلده والتحق بالمعتمد بن عباد . انظر أخباره في ذ : 3/1 ، ص : 251 ، وهامش المحقق بها المتضمن قائمة بمراجع ترجمته .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 305 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وتمنينا ـ أعزك الله ـ أن يتبلج صبحك من خلال فروجه ، وتحل شمسك في منازل بروجه ، فان رأيت أن تطلع علينا الأنس بطلوعك ، وتهدي الفرح بوقوعك ، فلن تعدم نورا يحكي شمائلك طيبا وبهجة ، وراحا ، تخال خلالك صفاء ورقة ، وألحانا تثير أشجان الصبّ ، وتبعث أطراب القلب ، وندامى ترتاح لهم الشمول ، . . . . ويقصر بمجالستهم الليل الطويل ". (1)

فها نحن هنا ازاء صيغة أخرى من صيغ الاستدعاء تضمّنت غير قليل من الاطراء والتودّد الممزوجين بالهيبة ، مما يجعلنا نجنح الى الاعتقاد بأن هذا الرجل المخاطب ليس صديقا عاديا ، فربما كان وزيرا أو أحد كبار رجال الدولة . وليس ذلك بالأمر العجب فان وجهاء الدولة وكبار رجالاتها كانوا يعقدون هذه المجالس ، ويدعون لها ، ولم يكن أحد يرى في اقامتها أو في حضورها ما ينتقص من قيمتهم أو يسيء الى سمعتهم لدى الناس . ذلك أن الملوك أنفسهم ـ والناس على دين ملوكها في كل وقت ـ كانوا يعقدون مثل تلك المجالس ، ويحرصون على توفير ما يلزمها من المباهج والمسرات .

فمن ذلك مجلس الناعورة بطليطلة الذي ورد وصفه على هذا النحو : " في المنية المتناهية البهاء والاشراق ، المباهية لزوراء العراق ، التي تتفجر أبدا وتقطر ، وتكاد من النضارة تمطر ، والقادر (2) قد التحف الوقار وارتداه ، وحكم العقار في جوده ونداه ، والدولاب يحن كناقة اثر الحوار ، أو كثكلى ، من حر الأوار ، والمجلس يروق كالشمس في الحمل ، وأهله يبتهجون بمثل الأمل ، والجو قد عبرت أنواؤه ، والروض قد بللته أنداؤه . . . . الخ " (3)

فهذا وصف لمجلس ملكي من مجالس الانس ، وقد رأينا أنه يشتمل على ما في المجالس الأخرى من خمر وغناء وما يصحبهما من تظاهرات الطرب والسرور . . . وليس صاحب

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 305 .

(2) القادر : المقصود هنا هو يحيي بن اسماعيل بن المأمون بن ذي النون . أحد ملوك طليطلة تولى سنة 467 هـ ، وقد ثار الناس عليه وخلعوه فتحالف مع النصارى لاستعادة عرشه ولكن هذه المحاولة لم تثمر . راجع ماكتبناه عنه في الباب الأول .

(3) عن ذ : 2/3 ، ص : 394 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا المجلس أحد الأمراء المغمورين ، بل أنه من احدى أشهر الأسر المالكة في الأندلس خلال عهد الطوائف ؛ وهو حفيد وسمي ملك عظيم هو : يحيى الملقب بالمأمون [1].

هذه مجالس متنوعة ، يجمع بينها أنها كلها قد ائتلفت بين أحضان الطبيعة ، اما لأن الصحو قد عم الأرض ، واما لأن الشمس قد تغلبت أشعتها المتوهجة على جحافل الغيوم ، وغلبت دموع المطر . ولكن ماذا يفعل رواد هذه المجالس اذا حالت ظروف الطقس دون الخروج الى الحقول ، والذهاب الى الرياض ؟ لعلنا نظن أنهم يؤجلون مجالسهم تلك ، ويحتمون بأمل عقدها عند أول ما يسمح الطقس بذلك .... والواقع أن الحل عند أولائك أبسط من هذا الانتظار ، لأنهم يميلون بأفراس لهوهم الى الدور المسقوفة ، والبيوت المحمية من أذى المطر والبرد ، حيث يصلون فيها ما انقطع من أسباب سرورهم . وهذا ما يخبرنا به أبو حفص بن برد الأصغر [2] حين بعث الى أحد أصدقائه يستدعيه الى هذا المجلس "المغلق" ان صح التعبير : " نحن من منزل أبي فلان بحيث نلتمس سناك ، ونتنسم رياك ، وقد راعنا اليوم باكفهرار وجهه ، وما ذرّ من كافور ثلجه ، فادرعنا له بالستور ، .... وأحببنا أن نشهد جيش الشتاء كيف يهزم ، وأنفاس البرد كيف تكظم "[3].

هذا مجلس شتائي ، في يوم لم يكتف فيه الشتاء بأن يهجم بالمطر ، فثنّى بالثلج ، ولكن طلاب هذا النوع من الملاذ أكثر تصميما على نيلها من أن يقوى الشتاء على صرفهم عنها ، كيفما كانت جيوشه ....

---

(1) لعل في انصراف هذا الملك الى اللهو ما يفسر المصير الذى لقيته طليطلة عاصمة هذه المملكة اذ سقطت في يد النصارى بعد حصار سنة 474 . على أن القادر ليس بدعا بين ملوك عصره ...

(2) أبو حفص بن برد الأصغر : تقدم التعريف به منذ قليل .

(3) ذ : 1/1 ، ص : 503 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعل مثل هذا الحل : اللجوء الى البيوت ، هو الذى عناه أبو المطرف بن الدباغ[1] حين استدعى صديقا له الى مجلس، فمهّد له بوصف ظروف انعقاده قائلا : " ياسيدى ..... يومنا يوم تجهم محياه ، ودمعت عيناه ، وبرقعت شمسه الغيوم ، .... وملأ الخافقين دخانُ دجنه ، وطبّق بساط الأرض هملانُ جفنه ، فأعرضنا عنه الى مجلس وجهه كالصباح المسفر ، .... وندّه يتضوع ... وأبارقه تركع وتسجد ، وأوتاره تنشد وتغرد ، وبدوره تستحث أنجمها محيية ، وتستقبل أنملها مفدية .... "[2] أما صيغة الدعوة الى هذا المجلس فقد حررها الكاتب على هذا النحو : " وأقصى أملنا ، ومنتهى جذلنا أن تحث خطاك ، حتى يلوح سناك ، ونشتفي بمرآك "[3].

لعله اتضح لنا الآن كيف جعل أدباء الأندلس ، في هذا العصر ، من الدعوة الى حضور مجالس اللهو فنّا نثريا قائما بذاته ، لا يخلو من ملامح تميزه عن غيره ، وأنه اذا كان دائما مطية لوصف الطبيعة ، ونعت مباهجها ، فقد يغدو ، في مدسبات أخرى ، مطية للمدح والثناء حين يكون المخاطب من رجال الدولة ، أو من أكابر المجتمع. وقد رأينا أن هذا الانشاء يقع في الصميم من أدب المبادلات الاخوانية ، لأنه يجسد هذه العاطفة التي تجعل الصديق يصبو الى الاجتماع بمن يصادقه ، في تلك اللحظات التي تجد فيها النفس مبتغاها مما تتصور أن فيه أسباب سعادتها وحبورها ، فلا يكتمل الاحساس بالسعادة الا اذا اجتمع شمل الأصدقاء وَالْتَأَم ، فاذا تخلف أحدهم عن حلقة الأنس ، أكب صديقه على تحرير رقعة اليه ، يستدعيه فيها بعد أن يصف له الاطار الخارجي والداخلي لذلك المجلس ، وصفا يغريه ويستفزه .

تلك جوانب أخرى من مظاهر التحابّ بين الناس ، والتعبير عن العواطف التي يكنها بعضهم لبعض ، حين ترسخ المودة بينهم . وقد يتبادل اثنان من الناس التقدير ،

---

(1) أبو المطرف بن الدباغ : تقدم التعريف به أيضا منذ قليل .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 304 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والاحترام ، وحتى الحب ، ولكن من بعيد ، ودون أن يكون قد أتيح لهما التعارف الذي يجعل منهما صديقين بالمعنى المألوف للكلمة . فاذا بلغت الرغبة عند أحدهما غايتها في عقد المودة ، والارتباط بميثاق الاخوة الصادقة ، بادر بعرض مودته على الطرف الآخر . وذلك ما يسمّى عندهم : " خطبة الودّ " ، أو " استدناء الخلطة " .

خطبة الودّ

من ذلك ما كتبه الأديب أبو محمد بن عبد البر،(1) مشيرا الى معاني حصول المودة بين الناس على ما بينهما من بعد الشقة . يقول الكاتب : " قد يتراسل الناس وان لم تتقدم مباسطة ، ولا سلفت مخالطة ، لأسباب تصل أهواءهم ، وأحوال تجمع آرائهم ، فتأتلف قلوبهم ، وتعود ذات بينهم كأن لم تزل ملتئمة .... "(2) ثم يتحدث عن أسباب الرغبة في الاتصال ، وابرام عقد المودة ، فيلخصها في سببين اثنين : " أحدهما ما أرج اليّ من طيب أخبارك ، وجلي عليّ من محاسن آثارك .... (و) الفضائل حيث كانت مرغوبة محبوبة ، والهمم نحوها جانحة طامحة .... والسبب الآخر : مكانك من سيدنا الملك الأعظم .... وحظك الرفيع من أثرته ، وحالك المشكورة في خدمته .... "(3)

لقد كان ابن عبد البر صريحا ، غاية الصراحة ، حين جعل لاتصاله بالمخاطب ، في رسالته هذه هدفين : أحدهما حصول المودة بينهما ، والثاني الاستفادة من صحبته للدنو من " الملك الأعظم " . ولعل الهدف الأول نفسه ليس — في هذه الحالة — الا فرعا من الهدف الثاني الذي يرجو الأديب تحقيق مرغوبه بالوصول اليه .

على أن هذا ليس هو دائما شأن ابن عبد البر، فقد تكون مثل هذه الحالة شاذة ، نادرة عنده ، أما القاعدة العامة فهي طلب الصداقة في حد ذاتها ، أو ذلك ما يفهم

---

(1) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبي عامر بن عبد البر . أخباره في ذ : 3/1 ، ص : 125 .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 121 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من رسالة أخرى له ، يقول فيها : " ... أن توق النفوس الى استصفاء الفضلاء ، واقتناء مودات الأوفياء ، أقوى أسباب الارتباط ، وأدعى أبواب الاختلاط ، ... وقد تخلت مخاطبتي لك من الأسباب الا من سبب المحبة فيك ، والمعرفة بجميل مذاهبك ومساعيك ، والرغبة في اقتناء خلتك ، وادخار صداقتك ، لما شهر من أحوالك الجميلة ، ... ومن كان على ما أنت عليه ، فمرغوب فيه ، منجذب اليه ، مطلوب اخاؤه ، مخطوب صفاؤه ... "[1]

هذا نموذج من رقاع خطبة الودّ ، وقد رأينا لكاتب واحد صنفين منها ، أحدهما لا يخلو من طابع " مصلحي " لأن الكاتب انما يرجو الاتصال والمودة للاستفادة ممّا للمخاطب من علاقة بالملك الحاكم ، والثاني يبدو خالصا لوجه الصداقة لا تشوبه شائبة من المطامع والمنافع .

وربما كانت من أشهر المراسلات التي تمت بين متباعدين ، وعبرت عن مقدار مايكنه كل واحد للآخر من عواطف الحب والتقدير ، تلك الرسائل البليغة التي تبادلهما أديبان مشهوران وهما الوزيران أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[2] ، وأبو القاسم بن الجد[3] ، وقد احتفظ لنا كتاب الذخيرة بعدد هام منها[4] . وهي شاهد بليغ على مدى الألفة التي يمكن أن تنشأ بين اثنين من الناس لم يتح لهما أن يجتمعا أبدا .

ها نحن وقفنا — من خلال الصفحات الماضية — على بعض مظاهر الصداقة في الأدب النثري الأندلسي ، وقد لاحظنا مقدار تعلق الأندلسيين بأسبابها ، وحرصهم على اقتنائها حتى انهم ليبادرون بالسعي الى تحصيلها بواسطة

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 192 .
(2) الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون : سبق التعريف به . وانظر ، ذ : 2/2 ، ص : 668 .
(3) الوزير الكاتب أبو القاسم بن الجد : تقدم التعريف به . وانظر ، ذ : 2/1 ، ص: 235 .
(4) ذ : 2/2 ، ص : 669 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المراسلة حين لا تمكن الظروف من فرص اللقاء المباشر ، وكل ذلك دليل ، لا يرد ، على ثراء الحياة العاطفية عند الناس ، ولدى الأدباء منهم بوجه خاص . وقد نجد أكثر شاهد على هذه الحساسية البالغة ، في العناية التي كانوا يولونها لتبادل الهدايا فيما بينهم ، وانشاء الرقاع المصاحبة لها ، والشاكرة عليها .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب = في الهدايا

الهدية ظاهرة اجتماعية تُعبِّر — وهي الملموسة المادية — عن علاقة روحية، لأنها نوع من التجسيد لمشاعر الحب، والمودّة، والصداقة، بين الناس، كيفما كانت نوعية وطبيعة الصلة أو القرابة بينهم. وهي تختلف اختلافا جوهريا عن الجائزة أو العطية، حتى حين تكون من "فوق" الى "تحت" أي حتى حين تكون من ملك أو وزير الى أحد الأدباء. ذلك أن الجائزة مكافأة مادية، أو مساعدة مالية لمن استحقها بالمدح، أو بتقديم الخدمات المختلفة، أو بما هو عليه من حال العوز والاحتياج. أما الهدية فليست الا صدى التقدير الذي يحمله المُهدي الى المُهدَى اليه، سواء بلغ ذلك التقدير درجة المودة والصداقة، أو هو في مرحلة الاعجاب و "الاحترام"..

ثم ان الهدية — فوق ذلك — ظاهرة حضارية، بمعنى أنها تصدر عن قيم ثقافية معينة، قد يكون من بينها تقوية المودة، وتعزيز أواصر الصداقة بين الناس. ذلك أن الهدية تدل — في جملة ماتدل عليه — على أن المهدي يستطيع أن يضحي بالمادي المفيد، المستنفع به، من أجل تعهد هذا الجانب الروحي، المجرد، الذي يطلبه في صداقة من يصادق. وبالجملة فان الهدايا هي نوع من التحايا، وهذا ما فهمه الأندلسيون أنفسهم (1).

وقد عبر النثر الأندلسي، في الفترة المؤرخة، تعبيرا واسعا ومتنوعا عن هذه المظاهر المتمثلة في الهدية، ورصد الكثير من معانيها وقيمها. ولعلّ أول ما يحسن بنا الالمام به هو فكرة "الاستهداء". ذلك أنه قد يبدو غريبا، نوعا ما، أن يكتب، صديق الى صديقه طالبا منه أن "يُهديه" شيئا ما، فقد يكون في هذا الطلب ما يُهدر معنى الهدية أصلا، اذ ينبغي أن يبادر المُهدي بارسالها الى من يريد اهداءها اليه، والاّ صارت نوعا من أنواع العطايا التي يحصل الناس عليها بالطلب والمناشدة.

ويبدو لنا أن الذي يفرق في النهاية بين "الاستهداء" و "الاستعطاء" انما هو طبيعة الشيء المرغوب فيه. فاذا كان مالا، أو ذا قيمة مادية واضحة، فلا يمكن

---

(1) هذا من قول ابن خفاجة: "ان خير الهدايا ماجرى مجرى التحايا". ذ: 2/3، ص: 545.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن يكون طلبه الا من قبيل الاستعطاء والاسترفاد . أما اذا كان ذا قيمة معنوية اعتبارية، تُطلب لتوفره عند صاحبه ، أو لجودة نوعه عنده ، مع امكان الحصول عليه بزهيد المال ، فهذا استهداء لا يؤذي كرامة المستهدي ، ولا يحسن أن يخرج من عند المطلوب منه ، الاّ على أنه هدية .

وخير ما يصلح أن يكون شاهدا على ماأسلفنا ما كتبه ابن خفاجة[1] حين بعث الى أحد أصدقائه يستهدي منه ماء ورد ، فقال: " واني وجهت رقعتي هذه خاطبة الى صفو ودّك ، كريمة من (بنات) ماء وردك . وقد سقت اليها الشكر مهرا ، وأنفذت الاناء للزفاف خدرا ، والطّول لك في قبول نقد الثناء ، وتعجيل الجلاء والهداء ، موفقا ان شاء الله "[2].

والذى يعطينا دليلا قاطعا على الجوانب الروحية التي يحدثنا عنها ، هو أنواع الهدايا التي كانت تتبادل بين الناس ، وهو ما يكشف لنا في الوقت نفسه عن رقة الأندلسين ، ورهف احساسهم .

فهذا ملك دولة بني هود : المقتدر[3] يكتب الى أخيه[4] صاحب لاردة يشكره على هدية أرسلها اليه . فاذا قرأنا الرسالة علمنا أن الهدية كانت أنواعا من الزهر بعث بها اليه . منها : الآس " الذى أذاع ما حمل من طيب الانفاس " والذى هو " سيد الزهر والنوار، بدوام عهدته ، وبقاء جدته "[5] ومنها " مبكر البهار الجني " الذى وجده المقتدر " ممتعا بمنظره البهي ، وعرفه الذكي ، قد شخصت أحداقه وراقت أوراقه ... "[6] وغيرهما مما هو مذكور في الرسالة .

---

(1) أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة : كاتب شاعر . تقدم التعريف به . وانظر ، ذ : 2/3 ص : 541 .
(2) ذ : 2/3 ، ص : 546 .
(3) المقتدر بن هود . حكم دولة بني هود في سرقسطة وتوفي سنة 474 . سبق التعريف به : وانظر ماكتبناه عنه وعن بني هود في الفصل الأول من الباب الأول .
(4) أخوه هو يوسف المسمّى حسام الدولة المظفر . تآمر عليه المقتدر مع النصارى وقضى عليه .
(5) ذ : 1/3 ، ص : 469 .
(6) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فان لم تكن الهدية من أنواع الورود والزهور ، فقد تكون من الفواكه ، ولا سيمـــا تلك التي رسـخ الادب العربي ، منذ القديم ، جوانبها الرمزيـة ، كالتفاح .

فـممن أهداه الى الأصدقاء الأديب ابو عبدالله الجزلياني الذي كتب مع الهدية الرقعة التي يقول فيها : " لو لم تكن نفسي لك لأهديتها اليك . . . لكن لك الابتداء بالفضل والاعادة ، ولي الاقتداء والجري على العادة ، في اهداء الحقير الى الخطير . . . . وَلِكَلَفي بشمائلك الشمولة ، وشغفي بخلا ئقك المعسولة ، بعثت بما يحكيهـــا ولا يدانيهــا . . . تفاح قطعـت حمرتـه وصفرتـه من خجلات الخدود . . . . .
" وخـتم على أَلَذّ من سلوى النحل ، وأعذب من جنى النخل . . . . "(1)

وممن أهدى التفاح أيضا أبو اسحاق بن خفاجة ، فقد بعث منه واحدة الى صديـق له مع رقعة يقول فيها : " ان أفضل سفـير سفر بين صديقين ، وتردّد بين عشيقـــين ، سفـير أشبـه المحـب خفّةَ روح ، والمحبوب عَبَق ريح ، ولما طال ـ ياسيدي ـ العهد فأحببت أن أجدده ، . . . . لم أر أن أجمل رسولي وأجشم في انتضاء سولي مثـــل حمراء عاطرة ، كأنها دمعـة صبّ قاطرة ، أو جمـرة تصطلى واقدة ، أو خمرة تُجتلـــى جامدة . . . . بعثت بها بين تحيـة لك ، ورسول اليك ، معتقدا أنها ستقبـل عند مـــا تقبل وتفـدّى حين تتصـدّى ، فوددت أن أكونها ، واحظى بتلك الحال دونها . "(2)

ومن الواضح أن ابن خفاجة لم يهد الّا تفاحة واحدة ، ولو كان الأمر في الجانـــب المنفعي من التفاح لما صلحـت واحدة منه أن تكون هدية . وكأن التفاحة الواحـدة نفسها وما فيها من رمز المودة والاخاء ليست الا ذريعة لكتابة الرقعـة المرافقـــــة . فالهدية الحقيقيـة هي في الثناء والتحية اللذين يشتمـل عليهما الكتا ب .

وقد يختار الصديق فاكهة أخرى تحمل عنه مايريد من رموز الوّدّ والمحبة . كالأديـــب عبدالعزيز بن خيرة المنفتـل(3) الذي بعث الى أحد أصدقائه بأُترجّـة ، مع رسالـة

---

(1) ذ : 1 / 2 ، ص : 642 .

(2) ذ : 3 / 2 ، ص : 545 .

(3) المنـفتـل : هو أبو أحمد عبدالعزيز بن خيرة القرطبي . تقدم التعريـف بـه . وانظر ، ذ : 1 / 2 ، ص : 754 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يقول له فيها : " وقد بعثت اليك من بنات الثمار أجملها ، ومن نتائج البستان أفضلها ، فلما تكامل حسنها ، وماد بها غصنها ، وارتوت من ماء الجمال . . . . هتكت سترها ، وارقت خدرها ، . . . . . وآثرتك بها على جميع الاخوان ، فبحرمة الكأس التي رضعنا ، وأمير الظرف الذى بايعنا ، الا ما رفعت قدرها ، وجعلت القبول مهرها . . . . يالها من أُتْرُجَّة غضة ، قد صُوِّرت من ذهب، وفضة ، قد سرقت من العاشق سيماه ، ومن المعشوق طعم ثناياه . . . . الخ "[1].

هذا نموذج آخر من مخاطبة الأصدقاء بالرقاع المرافقة للهدايا ، ولئن اختلفت الهدية هنا عن الهدية هناك ، فان طابع الرقعتين هو هو : وصف للفاكهة المهداة ، وربط في المعنى بين نعوتها وشمائل المهداة اليه ، وتحميلها التعبير عن ألوان من المودة الخالصة ، وفي النهاية الرجاء الحار في أن تحظى لدى المخاطب بالقبول .

ويبدو لنا - أكثر فأكثر - أن معاني التحية هي الغرض المقصود من وراء عملية الاهداء هذه ، والدليل على ذلك أننا وجدنا من يلجأ اليها حتى في حالات التعبير عن معاني الألم ، والمشاركة في المصاب . ففي كتاب الذخيرة أن المقتدر بن هود أرسل الى أخيه المظفر[2] رقعة ، وقرن بها " ظرف بَلُّور (أحمر) مملوءا خمرا مع باقة آس ، يسليه عن ابن تُوفي له ، واشتد حزنه عليه "[3] . فما مكان الخمر هنا والآس اذا لم يكونا رمزا لعواطف الأخ الذى يريد أن يبلغ أخاه أنه متأثر لمصابه ، وأنه مع ذلك يدعوه الى الالتفات الى ما في الدنيا من مباهج تنسي الهموم بعض همه ، وتصرف عنه جانبا من حزنه ، كما هو وارد فصلا في الرقعة المذكورة[4].

واذا كان المُهدي ، لايكاد يغفل الا أعدّ الرسالة التي ترافق هديته ، فانه من الطبيعي أن نجد المخاطبين الذين يتلقون الهدايا يسارعون بالكتابة الى أصدقائهم ، أو أوليائهم لتقديم واجب الشكر . وكثيرا ما يكون ذلك فرصة لوصف الهدية ،

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 754 .
(2) عرفنا ، قبل قليل ، بالمقتدر وأخيه المظفر .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 473 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وابداء الاعجاب بها ، والرفع من قيمتها ، مما يعد أحد التقاليد الراسخة في مثل هذا الباب . وكما خلفت لنا عملية الاهداء لونا من الرسائل المتميزة ، وقد استعرضنا بعضها منذ حين ، فان تقاليد شكر المُهدي ، ووصف الهدية والثناء عليها ، قد خلفت لنا أيضا نوعا من الرقاع الأدبية لها خصائصها الفنية الواضحة .

فممن كتبوا في شكر الهدية الأديب أبو محمد بن عبدالبر[1] الذى أهدي اليه غزال وشطرنج ، فبعث الى صديقه صاحب الهدية يقول له : " ورد كتابك ، ففضضت ختمه عن رياض تفتحت عن أزاهر كلمك ، ونشرت طيه عن جواهر حكمك .... ووصل معه الغزال الأهيف ، وكأن عينيه عينا وسنان مالت به نشوة الراح ، وثنى عطفه هزة الارتياح ، كأنما كحلا سحرا ، وأشربا خمرا ، يلحظ بهما نظر المريب ، ويعرض إعراض الحبيب .... " (2)

وبعد أن يوسع الغزال وصفا ، ويطيل في نعته بهذه الطريقة التمثيلية الجميلة ، ينتقل الى الحديث عن الشطرنج فيقول عنه : " وقرنت الى هذه الهدية الرائقة ، والمنحة الفائقة ، شطرنجا صغيرا كأن اقليدس قسم أجزاءه ، ورقق أشكاله وأنحاءه ، يحار في لطيف صنعه الوهم ، ويضل في كيفيته الفهم .... "(3)

وتنتهي الرسالة بعد وصف طويل لهذه اللعبة ، دون أن نجد فيها شكر المُهدي كما كنا نتوقع ، خلا بيتين من الشعر ، يشير الشطر الأخير من البيت الثاني منهما الى أن المهدي " جَمَعَت محبَّته عُرى الأكباد "(4). ومما لاريب فيه أنه ما كان لمثل هذه الرسالة أن تخلو من الشكر ، بل ان الشكر هو الباعث الأول على كتابتها ، وربما كان قسما طويلا فيها تنتهي الرقعة به ، وانما حذفه صاحب المصدر الذى ننقل عنه ، لأن مظهر البراعة الأدبية عنده انما يكمن في ذلك الوصف الجميل حقا ، لا في المدح أو الثناء الذى له مواطن خاصة به من المصدر المذكور .

---

(1) تقديم التعريف به ، وأشير اليه في بداية هذا الفصل .
(2) ذ : 3/1 ، ص : 214 .
(3) نفسه ، ص : 215 .
(4) نفسه ، ص : 216 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد نكون أحيانا أخرى أمام رسائل ليس فيها الا الشكر على هدية لا يذكر شيء عن طبيعتها ، ولا يتناول الكاتب شيئا من أوصافها ، وانما يستفرغ أقصى طاقته في بيان قيمة المتبرع بها ، وذلك مافعله الأديب أبو عُمَر بن الباجي (1) الذي يبدو أنه يخاطب بالرقعة الآتية أحد رجال الدولة ، ان لم يكن الملك نفسه ، لأن في الرسالة من آيات الخضوع والاذعان مالا يجوز أن يكون بين الصديقين المتآلفين ، ومع ذلك فان لبعض الكتاب طرائق في التعبير ، وأساليب في المبالغة والتعظيم ، يستخدمونها مع كل المخاطبين ، حين المدح والثناء ، دون تمييز كبير بين المواقع والرتب ...

قال ابن الباجي : " بأيّ لسان — أعزك الله — أناجيك على بعد الدار ، وقد أَخْرَسْتَ عن واجب الشكر لساني ، وَطَمَسْتَ عليّ وجوه بياني ، بما أضفيت من حلل برك التي اخجلتني ، وطوقتني من منتك التي ألجمتني ، بالهدية السّنية التي لايزال الدهر ينشرها ، وأيدى الثناء تنشرها ، فكم من علق نفيس شافهني منها بلسان بغداد وعدن ، ولاحظني بمقلة مصر واليمن .... وحق لهدية أمدتها أناملك المستهلة السحائب .... أن يَحْنُوَ لها القمران ، ويُحاسِنَ بها زماننا كل زمان ... "(2)

فمما لانكاد نشك فيه أن في رقعة ابن الباجي مبالغات كبيرة . وأن هذه الهدية بالغة ما بلغت ، لايمكن أن يحنو لها القمران ، ويحاسن بها "زمانه " كل زمان . والمهم أن هنا أسلوبا آخر من أساليب الثناء على صاحب الهدية ، فاذا استخدم الأديب تارة معاني الثناء المباشر الذي هو مدح للمُهدي بالخلال العربية المعروفة ، فقد يتوصل أديب آخر الى هدف الشكر بالمغالاة في تعظيم قيمة الهدية ، انطلاقا من أن في ذلك تعظيما موكدا لقيمة مهديها ...

هذا لون آخر من ألوان التبادل بين الاخوان ، وهو ذو أثر بين في تنمية المودة بين الناس ، وتعهد نبتها . واذا رأينا أن الملوك قد يسمّون عطاياهم هدايا ، وان الأدباء

---

(1) هو أبو عمر يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي : كاتب بليغ ، أخباره في ذ : 1/2 ، ص : 136 ، وانظر ، هامش المحقق فيهما .

(2) ذ : 1/2 ، ص : 191 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد يمدحونهم على تلك العطايا واصفين لها بأوصاف الهدايا ، ناعتين لها بذلك ، فان مثل هذا التجاوز في التعبير لايكون الا بين طرفين لم تحل مراتب السياسة من أن تقرب بينهما ، وأن تجعل العلاقات القائمة بينهما قريبة من الصداقة .

واذا كانت الهدايا في حقيقتها — كما رأينا — سفارة بين الطرفين المتوادين ، وتحية مجسّدة من صديق الى صديقه ، حتى اننا لانكاد نستعير أوصافها لما يكون من العطايا الأخرى ، الا بشيء من التجوز ، واشتراط أن يكون بين من يعطي ومن يأخذ ضربا من العلاقة ، إلّا يَكُنْ هو الصداقة عينها ، يكنْ شيئا يقرب منها أو يُذَكِّر بها . . . . . فان من ضروب التعبير الاجتماعي ما يكون في آن واحد من قبيل المبادلات الاخوانية ، والمجاملات التي يجرب الناس عنها بعضهم لبعض ، بقطع النظر عن فوارق الرتب ، واختلاف الأوضاع . ولعل ذلك يظهر أكثر من غيره في مناسبات التهاني ، والتعازي .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ = فـي التهانـي

التهنئة مظهر من المظاهر الاجتماعية الموغلة في تاريخ الانسانية ، لأنها تعبير مباشر عن عواطف الاجتماع البشري التي اقتضت ، منذ أقدم الحقب ، أن يسر الانسان بما يُسرّ به صديقه ، أو جاره ، أو قريبه ... وقد عرفنا ، من ناحية أخرى ، أن الانسان لا يمكن أن تكتمل له سعادة بحادث سار طرأ عليه ، الا اذا وجد من يقاسمه المسرة به من جموع الاخوان والأصدقاء المقربين . من هذا المنطلق كان حرص المجتمعات ، في مختلف البيئات ، على توطيد علاقات التبادل الاجتماعي ، وترسيخ أساليب التجامل بين الناس ، بتقديم التهاني ، واظهار البشر واعلان السعادة ، عندما يحدث ما يكون سببا للسّرور والابتهاج عند الذين يحبونهم ، أو يرتبطون معهم بسبب من أسباب الخلطة والاتصال .

ومن أقدم المناسبات الموجبة للتهنئة ، وأكثرها وقوعا : ميلاد الأطفال ، وما يُحدِثه مجيئُهم الى هذه الدنيا عادة من ألوان الابتهاج .

فممّن طرق هذا الباب : الكاتب أبو محمد غانم(1) الذى بعث الى بعض اخوانه بغرناطة يهنئه بمولود له ، وكان قد تأخر عن فعل ذلك لأنه فاته أن يتقدم اليه فقال : " ومما أغفلته بقلة اليقظة ، وسألت الله أن لا تكتبه علي الحَفَظَة ، تَهنِئَتُك بالفارس المولود ، والفرع المودود ، والنجم السعيد ، الذى تطلّع في أفق سمائك ، وتلفع بلفاع ضيائك ، مُلَبِّيَته ولدا بَرّا ، ووفيا حُرّا "(2)

هذه الأسطر القليلة ، في رسالة يبدو أن التهنئة ليست هي الغرض الرئيسي لها ، تحتوي على معظم عناصر المجاملة في هذا الباب : من ذكر للمولود ، واشادة بشريف مُنتماه ، والدعوة له بأن يكون قُرّة عين والده ... والذى لا نجده في هذه الرسالة من العناصر التقليدية الأخرى هو اظهار السعادة بقدومه .

---

(1) قال صاحب الذخيرة : " الأديب العالم الناثر ، الناظم ، أبو محمد غانم " . وهو غانم بن الوليد ابن محمد بن عبد الرحمن المخزومي . توفي سنة 470 هـ . وهو من أدباء مالقة . وانظر أخباره وأدبه في ذ : 2/1 ، ص : 353 ، وهامش المحقق بها والثبت الذى أورده بمراجع ترجمته .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 355 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع أن الرقعة ليست أصلا في التهنئة ، كما أسلفنا ، فان لذلك سببا آخر ، فيما نقدر ، وهو أن المولود قد جاء الى الدنيا في بيت لا ينقصه الأولاد ، فقد يكون تقدّمه اخوة كثيرون ، منهم الذكور ، ومنهم الاناث ، فليس في مَقْدَمِه مايكون مدعاة لفرح استثنائي ، زيادة على الفرح الذى يكون عند كل ولادة .

أما اذا كان المولود مُنتظرا ، مُرتقبا ، تتطلع الى مجيئه همم الوالدين ومن يرتبط معهما بسبب من أسباب القرب والولاء والصداقة ، فالفرحة لايمكن اخفاؤها ، والسرور طافح لايمكن أن تخطئه عين ولا أذن ..

وممن هنأ بمثل هذه المواليد : أبو القاسم بن الجد (1) الذى بدأ رسالته ، الى صديقه ، ببيان معاني الانتظار والترقب ، هذه في قوله : " ان أحق ما انبسط فيه للتهنئة لسان .... أمل رُجِّي فتأبّى زمانا ، واستُدعي فلوى عنانا ، وطاردته المنى فأتعبها حينا ، وخازلته الهمم فأسرها حينا ، ثم طلع غير مرتقب ، وورد من صحبة المباهج في عسكر لَجِب ... " (2)

هذه عبارات جليّة المعنى في الدلالة على أن المولود لم يكن عزيز المَقْدَم فحسب ، بل انه كان مطلوبا ، مرغوبا فيه ، مُتَشوّقا اليه ، وأنه أتعب الأهل والأحباب بتمنعه وتأبّيه ...حتى كادوا منه ييأسون . فلا غرو حينئذ أن تتجاوب أصداء الفرحة بمجيئه في كل مكان : " فكان كالمُشير الى مابعده من مواكب الآمال ، والدليل على ما وراءه من كواكب الاقبال ، أو كالصبح افترّت عن أنوار الشمس مباسمُه ، والبرق تتابعت اثر وميضه غمائمُه .... " (3)

وبعد وصف ما أحدثته هذه الولادة من السعادة في المحيط القريب ، يستوفي الأديب باقي معاني التهنئة من ثناء على العرق الكريم والأصل الشريف وحمد الله على ما أعطى ، وتمني المستقبل المشرق للوليد ...

---

(1) أبو القاسم بن الجد : تقدم التعريف به : وزير فقيه ، كاتب . انظر ذ : 1/2 ، ص : 235 .

(2) ذ : 1/2 ، ص : 292 .

(3) نفسه ، ص : 293 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذان نموذجان ، لعلهما يكفيان في الدلالة على ما نقصد اليه من المضامين الفرعية التي تتطرق اليها التهنئة بالمواليد وما يأتي في سياقها من الثناء والمدح للوالد المخاطب ، والتمنيات للوليد .

واذا كان ميلاد الطفل مناسبة سعيدة تلهج فيها الألسن بالتهاني ، فمما يسعد الناس به أيضا ، ويتقدم الاخوان والأصدقاء على التهنئة به : تقلّد مناصب المسؤولية العليا في الدولة .

ليست الاطالة في تفسير معاني التهنئة بتقلد المناصب الرسمية من موضوعنا ، وانما نكتفي بالاشارة الى أنها ذات منطلقات عديدة ، ربما كانت كلها مقصودة عندما يهنئ أحد الناس صديقا له ، في تلك المناسبة . فمن هذه الاعتبارات المقصودة الثقة الملك التي وضعت فيه وهي رأس مال لا يستهان به . ثم هناك الجاه ، أي المكانة الاجتماعية التي تتيح للانسان أن ينعم بامتيازات مادية وأخرى معنوية لا تأتي الا من خلال أمثال تلك المناصب . وأخيرا فربما كانت الكفاية والمهارة والنباهة ، التي تم الاعتراف بها ، وتوّجت باسناد منصب المسؤولية الى صاحبها ، من المعاني المقصودة بالتهنئة .

وقد كان الأندلسيون يعيرون انتباها خاصا لهذه المسؤوليات ، وكان ذوو الكفاية والسياسة منهم يرون بلوغها هدفا شرعيا يجدّون السير اليه ، ومكافأة طبيعية لهم على ما حصلوا من العلم والمعرفة والمهارة في التصرف . ولذلك كانوا يسعدون أكبر السعادة بالوصول الى تلك المناصب ، وكانوا يهنئون عليها ، ويكثرون من الثناء على أصحابها .

وكانت الوزارة منصبا راقيا لا يبلغه من رجالهم الا من حصّل قدرا كافيا من الحكمة ، والحنكة ، والنبوغ . فاذا تقلّدها واحد منهم أقبلوا عليه يشاركونه سروره وابتهاجه بمثل هذه التهنئة التي كتبها الأديب أبو محمد بن عبد البر[1] والتي يقول فيها : "أطال الله بقاء الوزير الأوحد ، الخطير الأمجد مسرورا بسموّ الأحوال والرّتب معصوما من طوارق الاحداث والنّوب "[2].

---

(1) أبو محمد بن عبد البر : تقدمت الاشارة اليه .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 217 .

وهو يصف وقوع سيل البُشرى عليه في العبارات التالية : " واما طلع البشير عليّ بتصيير الوزارة اليه ودَوْرِ رَحَى الخلافة عليه ، جدّدت لله تعالى حمدا وشكرا ، وللنعمه الجزيلة ذكرا ونشرا ، وأخذتني هزة الجذل والارتياح ، وأسفر لي وجه الأمل والاقتراح ، فاتشيت من فرح وطرب ، ونيل مراد وأرب ، ودعوت الله أن يجعلها ولاية ، تبلغ من السعد نهاية ، وتَضَاعِف للدين حماية . . . الخ "(1).

هذه المقاطع التي انتخبناها من رسالة ابن عبدالبر تبين مقدار السرور الذى كان على المهنىء أن يظهره بتقلد المخاطب منصب الوزارة ، وفي ذلك مايشير الى عظيم قيمتها . وكما أنها تأتي الى صاحبها في موكب مَهيب من الجاه ، والسلطان ، والعزة ، والأُبّهة ، فانها قد تُؤخَذ منه ، فيفارقُها في موكب رهيب من الأذى والاهانة ، والاذلال ، والأوجاع التي قد تؤول الى استصفاء المال ، والتنكيل بالأحياء ، والتمثيل بالجثث . . . ولذلك فنحن نفهم الدعوة التي صاغها الكاتب حين تمنى لصاحبه المستوْزَر أن يكون " معصوما من طوارق الاحداث والنوب ".

وربما أتيح لبعض الناس أن يتقلدوا أكثر من منصب ، في آن واحد ، فيدل ذلك على مبلغ مالهم من الفضل ، ويسرع الرفاق الى التهنئة بكل ذلك ، متخذين منه ذريعة للاغراق في المدح والثناء ، ونعت صاحب الولاية بكل الصفات الحميدة .

وقد كان لابن خفاجة صديق عين قاضيا ، وثنيت له الوزارة ، أى سمي ذا الوزارتين ، دُفعةً واحدة ، فبعث اليه برسالة يهنئه فيها على هذه الرتب العالية . فقد كان لخطة القضاء شأن عظيم فكيف اذا قرنت بالوزارة ، وكانت الوزارة منصبا خطيرا فكيف اذا جاءت بالتثنية . ولكن الكاتب يرى أن صاحبه أعلى من جميع الرتب ، ذلك " أن القضاء وان شرف مرتبة ، وكرم مأثرة . . . ليضيق عن نصل فضلك غِمدُه ويغرق في بحر فخرك مَدّه ، ويزدان بنحر مجدك عِقدُه "(2)

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 217 .
(2) ذ : 2/3 ، ص : 555 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولذلك فان ابن خفاجة يهنيء القضاة على فوزه بالمخاطب ويهنيء الوزارة على أن حظيت برجل مثله ، وفي ذلك يقول : "فليهنه أن تسربلت طوقه ، وتحملت أوقه ، وليهنيء الوزارة أن شدّت بجيدك عراها ، وبيطت بحرك حلاها "[1].
أما عن تشنيتها فليست الا احدى نتائج فضله ، وثمرات مجده : " وشفع لها فضلك ، فأصار وترها شفعا ، وجمع الى بصر بها سمعا .... "[2]

واذ كان الموضوع هو التهنئة ، فان الرسالة كلها تأتي في قالب بيّن من المدح والاطراء ، وحشد النعوت والأوصاف التي توهم أن الممدوح ملك عظيم ، أو بطل له في كل أفق موقعة ، وليس مجرّد موظف كبير ، رفع الى رتبة سياسية ـ ادارية ـ يملك فيها ولي نعمته حق موته وحياته ...

كانت هذه المناصب ، في الواقع ، عرضة لكثير من التقلبات . وكانت النعمة بها كثيرا ما تنقلب الى نقمة يخص بها المصاب ، وتنغص عليه صفو الحياة ، فاذا نجا الانسان من محنة ، أو سرح من سجن ، أو زال عنه غضب السلطان ، اعتبر الأصدقاء هذه الحوادث مناسبات للمسرّة والابتهاج ، وسارعوا الى التهنئة بها .

فممن لهم رسائل في هذا الغرض الكاتب أبو القاسم بن الجد[3] الذى بعث الى الوزير الفقيه أبي القاسم الهوزني[4] يهنئه بالنجاة من نكبة كادت تحل بسه ، أو ما سماه صاحب الذخيرة : " نبوة خلصت الى غربه ، وروعة كادت تطير بصبر به "[5].
ويبدو من هذه العبارات ، ومن المعاني المفهومة في الرسالة أن أبا القاسم الهوزني هذا قد صدر عنه ما يغضب السلطان ، فساءت أحواله لذلك ، ثم رضي عنه السلطان ، أو

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 556 .
(2) نفسه .
(3) أبو القاسم بن الجد : سبق التعريف به أكثر من مرة .
(4) أبو القاسم الهوزني : حفيد أبي حفص بن عمر الهوزني الذى قتله القاضي بن عباد في اشبيليا سنة 460 هـ . وانظر، تفاصيل ذلك في ذ : 2/1 ، ص: 31 فانتقم له أبو حفص هذا بتحريض يوسف بن تاشفين على المعتمد بن عباد .
(5) ذ : 1/2 ، ص : 291 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

زالت أسباب غضبه ، فبعث اليه الأصدقاء برسائل التهنئة ، كهذه التي يقول فيها أبو القاسم بن الجد : " قد يُجتنى ــ أعزك الله ــ من شجر المَساءة ثمر المسرّة، ويُجتلى وجه المحبوب ، غبّ المكروه ، مشرق الأسرّة ... "(1)

ونحن لا ندري ما هو سبب الوحشة ، ولا ما هي المآخذ التي أثارت نقمة السلطان عليه ، ولكننا نفهم من الرسالة أنه امتحان عسير مرّ به ، كاد يعصف بكل حياته . وهو أمر يكاد أن يكون شائعا أو مألوفا في بلاطات الملوك ، أولائك الذين اذا أعجبوا بالواحد من الناس ، رفعوه الى أعلى المراتب في وقت قصير ، ثم قد يغضبون عليه ، لغير سبب مفهوم ، فيبالغون في اهانته ، ويذيقونه ألوانا من العذاب .

ولابن حيان (2) رقعة " يهنيء بها بعض العمال بخلاصه من نكبة " يقول فيها : " كتابي عن نفس قد أشرق وجه صباحها ، وهبت رياح ارتياحها ، وسرى نفس السرور فيها ، بما طلع علينا من البشائر السارة بخلاصك ، وجميل انفكاكك ومناصك "(3). وهو مدخل يظهر فيه الكاتب ، كما نرى ابتهاجه بخلاص هذا الوالي من النكبة التي كادت أن تُودي به . ثم ينتقل الى ذكر ما بأصحابه من الحزن عليه ، ملمّا ــ من خلال ذاك ــ ببعض المدح لهذا الوالي المنكوب ، حين ينسبه الى الفضل الذي دأبت الأيام على مناهضته ، ومناصبته العداء منذ أقدم الأزمان . ويختم الرقعة بما ينتسب أيضا الى المدح ، حين يذكر معاني الصبر الذى أبداه الوالي المصاب ، والجَلَد الذى واجه به الأيام المتنكرة . وفي ذلك يقول له : " بل صادفت منك الابريز الذى لا يزيده السبك الا تخليصا ، والمُبرّز الذى لا يُعقِبُه حُؤُولُ الأحوال نكوصا ، تتلقّى الخطوب ، بصدر وَساع ، وصبر فاسح الباع ، وتسبر الدهر بمسباره ، وتصرف من مكنونه حقيقة إيراده واصداره "(4).

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 291 .

(2) هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، شيخ المؤرخين في الأندلس توفي سنة 469 هـ . تحدث عنه ابن بسام في ذ : 2/1 ، ص : 573 . وبها ثبت للمحقق بمراجع ترجمته وأخبار كتبه .

(3) ذ : 2/1 ، ص : 534 .

(4) نفسه ، ص : 534 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى يحسن بنا أن نشير اليه ، في هذا المقام ، أن المدح الذى يأتي في سياق التهنئة يختلف تماما عن أنواع المدح التي يكون فيها التمجيد مقصودا لذاته ، أو لكسب مصلحة مادية أو أدبية من ورائه . ذلك أن المدح الوارد في سياق التهنئة هو جزء من المجاملة التي يقصد اليها المهنيء من حيث يبتغي اظهار قيمة المخاطب ، وأن تنكّر الأيام له لايعدو أن يكون خطأ منها ، بالاضافة الى أن مظاهر النكبة لم تنل شيئا من مجده وسؤدده . فكأنها حين تكالبت عليه انما أصابت منه العَرَض الذى لايضر ضياعه ، أما الجوهر فباق كما هو .

هذان نموذجان تقدما لنا من الكتب التي هنأ فيها أصحابها مَن نَجَوْا من نكبة ، وتخلصوا من ورطة . وهما كافيان في الدلالة على هذا النوع من الترسل الاجتماعي ، لولا أننا لانريد أن نختم الحديث في هذا الموضوع من دون أن نشير الى واحدة من تلك الرقاع الكثيرة التي دبجتها أقلام الأدباء عندما أُطلِق سراح الأمير عبدالرحمن بن طاهر من سجنه عقب النكبة التي حلّت به [1] وقد اخترنا منها الرسالة التي كتبها الأديب أبو جعفر ابن جرج [2] الذى بدأها بهذه التأملات العامة في الأيام وصنيعها :
" ما أعجب الأيام ! ـ أُعْقِبْتَ منها السلامة والسلام ـ فيما تقضي ، وكيف تمضي ، تتعاقب بتلوين ، وتتراءى بين تقبيح وتحسين ، وهي تَعتِب ، وتُعْتِب ، وتعتذر كما تذنب ، وتصدع وتشعب ، كما تجدّ وتلعب " [3] . هذا هو رأى الناس ، والعاقلين منهم بوجه خاص ، في الدنيا أو الأيام ، أو الدهر ، وغيرها من الأسماء التي ترجع الى مسمّى واحد .. ولكن الناس لايكادون يرون هذه الصفات في الأيام الا حين تكشر لهم عن نابها ، وتذيقهم كأس أَوْصَابها ، أما قبل ذلك فما أعظم غفلتهم عن مكرها ، وانقيادهم لأساليب خداعها . . . .

---

(1) هو محمد بن أحمد بن اسحاق بن طاهر ، صاحب امارة مرسية ، وقد احتلها أبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، ثم استقل بها ، وسجن بها أبا عبدالرحمن بن طاهر هذا ولم ينقذه الا شفاعة أبي بكر بن عبدالعزيز صاحب بلنسية . انظر تفاصيل ذلك في ذ : 3 / 1 ، ص : 24 ومابعدها .

(2) الوزير الكاتب أبو جعفر بن جرج كان وزيرا لأبي بكر بن عمار حين ثار بمرسية . وانظر أخباره في ذ : 3 / 1 ، ص : 443 .

(3) ذ : 3 / 1 ، ص : 449 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويأخذ ابن جرج بعد ذلك في التهنئة ، مازجا فيها بين معاتبة الأيام على مافعلته بالمُهَنَّـإ ، وحمدها على ما ألت اليه من تفريج كربته . ومن هنا يتجلى لنا أنه كان قد أحسن افتتاح هذه الرقعة حين بدأها بذكر ما تأتي به الأيام من حسن الصنيع وقبيحه . وفي ذلك يقول : " وان صنيعها عندنا فيك وان كان ألَامَ ، فقد أَحْمَد ، اذ أخمد ما أوقد ، فعاد غيث [1] على ما أفسد . . . "[2]

ويمزج التهنئة بالمدح ، مسليا في آن واحد عما أفسدته الأيام من ذلك الشمل الملتئم ، والنظام المكتمل للأمير المنكوب فيقول : " وعند مثلك للقدر التسليم ، فأنت الخبير العليم ، أنه ما اختلف الليل والنهار ، الا بنقض وامرار ، ولا دار الفلك الدوار الا بطوالع ومغار ، وكنت في الأرض من أسنى مطالعها الباهرة الأنوار ، فلا غرو أن أدركك ما يدركها من الأفول حينا والسرار . "[3]

هذه نبرة تعزية واضحة ، تختلط بالتهنئة . والواقع أن الحاجز بينهما دقيق للغاية في مثل هذا السياق . ذلك أن المرء ليحار ، حين يخاطب ابن طاهر في مثل هذه المناسبة التي تشتبك فيها المواقف المتناقضة : أيعزّيه على ضياع ملكه ، أم يهنئه بخروجه من سجنٍ ربّما كان ينتهي بموته ؟ ومع ذلك نرى الكاتب أبا جعفر يرفع زاوية من الحجاب الكثيف ليطل منه بصاحبه على شعاع الأمل ، فيقول : " فقد تُكسف البدور ، ثم تعاودها الاضاءة والنور "[4] ، ولكنه أمل ضعيف جدّا ولذلك تغلب الكاتب عواطف الابتهاج بالنجاة على معاني التطلع الى استعادة مافات . وتبقى نغمات التعزية هي المسيطرة في مثل قوله : " ولا تأس على أعراض الدنيا ، فهي رهينة بزوال وذهاب ، وكل الذى فوق التراب تراب "[5].

وقد فهم الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر غاية الفهم معاني هذه الرسالة ، وأدرك مرامي صديقه أبي جعفر ، فعرف أنه يريد التسلية في قالب المشاركة والتهنئة ، فقال له حين كتب اليه جوابا عن رقعته تلك : " وافى كتابك الكريم رائدا في جناب التسلية ، ومنيرا من أفق المشاركة والتهنية . . . "[6] ولذلك كنا

---

(1) كذا في المطبوع .
(2) ذ : 3 / 1 ، ص : 450 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .
(5) نفسه .
(6) نفسه ، ص : 451 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نرى أن التهنئة في هذا السياق لا تخلو من أن تكون ذات صلة ما بالتعزية والبحث عن الأساليب الملائمة لتعبير المصاب ، وادخال العزاء الى قلبه .

ومما يلتحق بالتهاني التي تكون فرعا من تبادل المجاملة بين الاخوان، اظهار الابتهاج والمسرة بأداء فريضة الحج التي كانت مناسبة حقيقة بالتعبير عن عواطف المحبة والوفاء ، لما يمثله أداؤها من قيمة في عمر الانسان المسلم ، ثم لما كان يكتنفها من مشاق وأهوال وأتعاب في ذلك الأوان . فاذا عاد الحاج وقد فاز بالحج وسلامة الاياب ، كان في ذلك غرض واسع لاظهار الحبور ، والتعبير عن التهاني .

وممن طرق هذا الباب : الأديب أبو القاسم بن الجد [1] حين بعث الى أحد أصدقائه العائدين من الحجاز رقعة يقول في مفتتحها : "كتبت وقد هزني وافد البشرى ، واستخفني رائد المسرة الكبرى ، بما سنّاه الله من قدومك محمود الجوانب والأرجاء ، منوط الفخار بذوائب الجوزاء ، محطوط الآثار في مواطن الرسل ومواطىء الأنبياء ..." [2]

لقد ضمن الكاتب هذه المقدمة الموجزة مجمل المعاني التي أشرنا اليها قبل حين عند اظهار المسرة بالبُعْدَين اللذين تنطوي عليهما مثل هذه التهنئة وهما : سلامة الأوبة ، وقضاء الفريضة وما فاز به ، لذلك ، من عالي المنزلة وعظيم الفخار . ثم ينصرف الكاتب في باقي الرسالة ، وهي طويلة نسبيّا ، الى تتبع الحاج وهو ينتقل عبر كل مراحل حجه : من الاحرام ، الى الطواف ، الى السعي بين الصفا والمروة ، الى الوقوف بعرفة ورمي الجمار ... دون أن ينسى زيارة قبر الرسول قبل ذلك ، أو بعده ....

---

(1) هو الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبدالله بن الجد : تقدمت الاشارة اليه عدة مرات .

(2) ذ : 1/2 ، ص : 288 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والطريف في كل ذلك أن هذه التهنئة ذات الموضوع الديني قد أخرجها الكاتب مخرج المدح والثناء ، ورفع فيها الحاج المهنأ الى مكانة سامقة من العز والمجد ، مما قد يوحي بأنه لم يكن صديقا عاديا لابن الجد ، وأنه ربما كان من الأئمة الكبار أو القضاة ، أو أهل الحكم والسياسة . وقد يُقوي هذا المذهب أننا وجدناه يقول في آخر الرسالة : " ولما قصد بي عن قصدك ما قصد ، ولم يمكنّي الوفود عليك في جملة من وفد ، استنبت كتابي منابي "(1) . ان الاعتذار عن عدم القيام بالزيارة وتقديم التهنئة حضورا ، لاكتابة ، مما قد يدلّ على أن المهنّأ ليس من عامة الناس . ولكن ذلك لايعني مطلقا أن الصديق لايزور صديقه ، اثر عودته من الحج ، ولو ارتفعت بينهما الكلف ، وسقطت كل دواعي الحرج والاحتياط .

كانت كل أنواع التهاني التي تناولناها الى حد الآن ذات طابع اخواني ، كيفما كانت الفوارق الاجتماعية أو السياسية بين الكاتب والمخاطب . بيد أن لنا رقاعا أخرى وجهها أصحابها الى الملوك في أغراض التهنئة . ولو كان الكاتب يصدر فيها عن منطلق رسمي ما ، لما وجدت هذه الرسائل مكانها في هذا الفصل ، لأنها تكون حينئذ من الانشاء الديواني . ولذلك لم يكن بوسعنا أن نجد لها مكانا يلائمها أكثر من هذا الفصل . والحق أنها رسائل اخوانية باعتبار ما ، والا فما الذي يبيح لرجل ، مهما علا شأنه أن يخاطب الملك مخاطبة المهنئ ، المشارك له في الفرح والسرور .

فمن هذا الصنف من التهاني ما كتبه أبو محمد بن عبدالبر (2) الى المعتضد بن عباد (3) مهنئا بأخذ مدينة شلب ، وانتصاره فيها على خصومه ، حكام الغرب الأندلسي (4) : " أعز به من صنع جميل صنع الله لك بحصول قاعدة شلب

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 239 .
(2) أبو محمد بن عبدالبر . من الوزراء الكتاب في بلاط المعتضد . وقد سبق الحديث عنه
(3) المعتضد بن عباد : ابن القاضي أبي القاسم بن عباد مؤسس الدولة في اشبيلية . والمعتضد هو والد المعتمد ، وقد حكم من 433 الى 461 هـ .
(4) وهم بنو الأفطس ، وعاصمتهم : بطليوس . راجع ماكتبناه عنهم في الفصل الأول من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وذوأتهما في قبضتك ، واستظلال ذلك الأفق بظل طاعتك ، وخروج صاحبهما عنهما من غير عقد عاصم ، ولا عهد لازم ، قد خاب ظنه في التماسك ، وأخلفه أمله في التهالك ، فأي نعمة ما أجلّها وأجزلها ... "(1) .

في هذه الرقعة نبرات من الأدب الرسمي الذي تتجلى فيه هيبة الكاتب لمخاطبه فلا مجال فيه للمداعبة ، ولا لاستعمال الصور البلاغية التي توهم بنوع من الصحبة بين المتخاطبين ، وإذا كان لابد من اظهار مشاعر السرور والابتهاج ، فليكن ذلك في قالب المتابعة للملك ، والنسج على منواله . كأن يقول له : " فظهوري منوط بظهورك ، وسروري مَوْصول بسرورك ، واتصال حالي بأحوالك ، وحبلي بحبالك ، هناك الله وإياي ما خوّلك ، وقرن بالزيادة آلاءه قِبَلَك . "(2) .

ولا غرابة في أن تظهر على الكاتب سيماء هذه الهيبة التي هي من الخوف لأن المخاطب هو ذلك الملك العنيف الشديد : المعتضد بن عباد الذي أرسى دعائم المملكة ، والذي بلغ من قسوته أن قتل ابنه اسماعيل حين أخذ يتآمر عليه (3) ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نخلي العلاقة بين الرجلين من كل معاني الصداقة وإن كان لابد لها من أن تكون من نوع خاص ، فالكاتب وزير للملك ، ومقرب منه ومن أدنى رجال حاشيته اليه .

وثمة نص آخر يشتمل على مثل هذه التهنئة بين كاتب وملك ، وهو الذي بعث به الوزير الكاتب أبو عبيد البكري (4) الى المعتمد بن عباد يهنئه فيه "بالفتح الذي كان سنة تسع وسبعين وأربعمائة "(5) وقد جاء فيه : " أطال الله بقاء سيدي ومولاي .... وهنأ ما منحه من فتح ونصر ، واعتلاء وقهر . بطالع السعد يامولاي أُبْت ، وبسانح اليُمْن عُدْت ، وبكَنَف الحرز غُذت ، وفي سبيل الظفر سرت ، وبقدم الصبر سعيت .... "(6)

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 129 .

(2) نفسه .

(3) أنظر أخبار ذلك في البيان المغرب مج 3، ص : 244 ومابعدها وفي ذ : 3/1 ص 143

(4) الوزير الفقيه أبو عبيد ، عبد الله بن عبد العزيز البكري ، أديب فقيه له تآليف في اللغة والجغرافية ، توفي عام 487 . وانظر ، ذ : 2/1 ، ص : 232 .

(5) المقصود هنا هو معركة الزلاقة التي انتصرت فيها جيوش المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين على النصارى في التاريخ المذكور (479 هـ) الموافق لسنة 1086 م ، وهي التي يعرفها التاريخ الاسباني باسم " ساكراليناس " .

(6) ذ : 2/1 ، ص : 235 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن نلاحظ في هذا المدخل أن التهنئة نفسها تبدو وكأنها مجرد ذريعة تتيح للكاتب أن يمدح مولاه ، ويثني عليه وهو في نظره الملك الظافر في معركة حاسمة . على أننا ما ان نتقدم شوطا في قراءة الرقعة حتى نرى معالم التهنئة أكثر وضوحا ، وذلك من خلال بيان الآثار الايجابية لهذا الفتح على الاسلام والمسلمين : " فغدا الدين جديدا ، والاسلام سعيدا ، والزمان حميدا ، وعمود الدين قائما ، وكتاب الله حاكما ، ودعوة الايمان منصورة ، وعين الملك قريرة "(1) .

ثم لا يلبث الكاتب أن يعود الى صيغ المدح التي يبدو أنه ذو مهارة عالية في تنويعها ، واخراجها مخارج جديدة ، كأن تأتي مثلا في سياق حمد الله على سلامة الملك " بعد أن صَلِيَ من الحرب نيرانَها ، فكان أثبت أركانها ، وأصبر أقرانها "(2) . والواقع أن التهنئة في هذه الحالة ، كما في الحالة السابقة ، لا تعدو أن تكون فرصة يبرهن فيها الأديب المقرب من الملك ، أو الوزير الطائع لسلطانه ، عن عظيم الولاء عبر ألوان من المدح ، وصيغ من الثناء ، يحتال للوصول اليها كيفما كان الغرض الذي يتناوله . وأي غرض أصلح لمدح الملوك من مناسبات انتصارهم في المعارك والحروب ؟ فكيف اذا كان الانتصار في حجم ذلك الذي تمّ في الزلاّقة ! . . . .

هكذا نستطيع أن نقول ان أدب التهاني قد غطّى مجمل مناسبات التهنئة الاخوانية والسياسية ، فشارك أصحابه أصدقاءهم وأولياء نعمتهم في ابتهاجهم وسرورهم ، وقاسموهم أسباب الانشراح والارتياح بميلاد الأطفال ، وتولي المناصب السامية في الدولة ، والنجاة من محن الزمان ومصائبه ، ولاسيما تلك التي تأتي عن طريق الملوك وأرباب السلطان . . . . وكانت التهاني في كل مناسبة مَطِيَّةً ذَلُولا

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 236 .

(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يركبها الأدباء للمدح ، والثناء ، والتغني بفضائل المهنأ وصفاته الحميدة . واذا كانت التهنئة تعبيرا عن سرور ، فان السرور بطبيعته لا يمكن أن يدوم في هذه الدنيا ، والأيام التي تضحك في وقت ما ، تبكي في وقت آخر ، و " من سرّه زمن ساءته أزمان " ولذلك ، وكما حمل النثر في باب المجاملات أعباء التهنئة واظهار المسرة ، فقد حمل أيضا هموم التعزية وابداء عواطف المشاركة في مناسبات البؤس والحيرة والحزن .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

د - في التّعـازي

إن ما كنا قلناه عن المظهر الاجتماعي للتهنئة ينطبق تماما على التعزية ،
خلا أن تلك تعبير عن عواطف المشاركة في مناسبات المسرّة والابتهاج ، وهذه مشاركة
في الأحزان ، والأتراح ، وأثناء الحوادث المختلفة التي تأتي بما لا يحب الانسان .
ولعلّ التعازي أكثر من التهاني تأثيرا في العلاقات الاجتماعية ، وتكييفا لها ، لأنها
ركن هام من أركان التضامن والتكافل ، فاذا كان الانسان يبتغي أن يشاركه من يحسب
لحظات السرور ، ويقاسمه السعادة في أوقات راحته وهنائه ، فانه حين يفاجئه
من دهره ما يكره ، أو تتبدّى له الدنيا بوجه العداوة الذى كانت تخفيه ، . . . .
ينتابه احساس غامر بالكآبة والبوءس ، فاذا قل المواسون من الرفاق والاخوان في
مثل هذه الظروف الصعبة ، وتفرق الصحب والخلان ، في الوقت الذى تشتد حاجته
اليهم ، فقدَ الامل ، واستسلم لليأس والقنوط .

لهذه الاعتبارات كانت أوقات المحن وأزمنة البلاء أحسن مقياس لمعرفة مدى
اخلاص الأصدقاء ، ووفاء الخلان بعضهم لبعض ، اذ كان الإعراب عن المحبة ، وتقديم
البراهين على الاخلاص سهلا ميسورا في فترات الرخاء ، لايكاد أحد يقوى على التمييز
فيه بين المودة الحقيقية ومواقف المداهنة والنفاق . . . .

لقد سبق لنا أن تحدثنا عن كثرة التقلبات التي كانت حياة الناس ، والأعيان منهم
بخاصة ، عرضة لها في الأندلس خلال الفترة المورخة ، إذ كان عدم الاستقرار السياسي ،
وانتقال السلطة فجأة من يد الى يد ، وطمع كل أمير في ما عند جاره ، وسعيه الى
الاحتواء على أرضه وسلطانه ، كل هذه الظروف كانت تقوض أمجاد الكبراء في زمن
قصير ، وتقضي بَغْتَةً على ما كان لهم من عظيم المنزلة ، ورفيع المكانة .
وحينئذ تتفرق عن المُصاب الجموع التي كانت تبدي له من التقدير ما يضاهي
العبادة والتقديس ، فلا يبقى بجانبه الا عصابة قليلة من الأوفياء ترثي
لحاله ، وتعزّيه على ما قد حلّ به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هذا القبيل ما كتبه أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال [1] الى أحد الوزراء المنكوبين نكبة " أنبأت بتحذر أوطار ذوي الأخطار ، وأعلنت بكساد الفضل ، واستفساد النذل "[2]. وقد بدأ رقعته اليه بالثناء على صلابة عوده ، وشدة جلده في المكاره وهو ما نعبر عنه اليوم برفع " المعنويات " ، وذلك في قوله : " مثلك . . . . يلقى دهره غير مكترث ، وينازله بصبر غير منتكث ، ويبسم عن قطوبه ، ويفل شباة خطوبه "[3] ثم يُعقب بعد ذلك بالتبشير بقرب انجلاء الظلمة عن فجر لا ريب فيه . وهو معنى لا يكاد يستغني عنه كاتب يعزي في مثل النكبة التي أصيب بها الوزير المعني ، لأن في ذلك تعبيراً عن الأمل الذي لا يفارق نفس المنكوب في تحسّن الأحوال ، وتصرف الأيام بالاحسان بعد الاساءة . بيد أن الكاتب لا يلح كثيرا على هذا المعنى ، وكأنه يراه بعيد المنال فيكتفي بالاشارة الخاطفة اليه في قوله : " فما هي الا غمرة ثم تنجلي ، وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلي "[4]. ثم يقبل على صاحبه ليُنسيه خمول حاضره بترقيص المعالم المَجيدة من ماضيه ، فيثني عليه في لهجة من يريد أن يقنع غيره بشيء ، لا من يذكر البديهيات المتفق عليها ، كما هو الشأن عادة في المدح المقصود لذاته . ويختم الرقعة باظهار التوجع من صنيع الأيام ، وتوبيخها على ما تقترفه من الذنوب في حق الكرام ، بينما تنزل اللّئام المنازل الرفيعة .

وقد تكون تعزية ابن عبدالبر لأحد أصدقائه من هذا القبيل أيضا ، وإن لم يذكر للطبيعة النكبة التي أصيب بها . والطريف في الأمر هنا أن المعزي — ابن عبدالبر — نفسه منكوب بما سبب له الحيرة والألم . فهو يقول لصاحبه : " واتفق لي ما

---

(1) هو أبو عبدالله محمد بن مسعود بن طيب بن أبي الخصال من أدباء كورة شقورة ، في الجانب الشرقي من الأندلس . عاش ما بين 465 — 540 : شاعر كاتب ، أخباره في الذخيرة 3/2 ، ص : 786 . وانظر هامش المحقق بها ، ففيه ثبت بمراجع ترجمته .

(2) ذ : 3/2 ، ص : 306 .

(3) نفسه .

(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد علمت من الانزعاج والاضطراب، والتغرب والاياب، لا والله ما جرى من حركاتي شيء على مرادي واعتقادي، وانما هيأتها الأقدار والآثار"[1].

غير أن ظروفه الخاصة لا تمنعه من أن يسارع الى مشاركة المعزّى في مصابه بتوجيه هذه الرقعة اليه، وهو يعلمه فيها بأنه علم بعد عودته من غربته بما أصابته به " صروف الأيام من الامتهان والائتلام "[2]، وهكذا أصبح الموجوع يروم التخفيف عن موجوع آخر، والمتألم يسعى الى تسلية متألم آخر من رفاقه، وقد صحّ له أن يقول: " فقد جمعتنا حوادث الأيام وصروفها، وقد اختلفت أنواعها وصنوفها "[3] وان كان ابن عبد البر يعترف بأن مصيبته أقل من مصيبة صديقه، فلذلك يقول له: " على أن الذي أصابك أثقل عبئا، وأعظم رُزْءاً "[4]،

والحق أننا اذا استثنينا الجمل الدعائية القصيرة في آخر الرسالة — من مثل قوله: " والله يعظم أجرك، ويجزل ذخرك " — فاننا لا نجد فيها الصيغ التقليدية للتعزية، ولعلّ مردّ ذلك الى أن الكاتب المعزِّي نفسه منكوب، يتألم من مصابه، ويجد في مصاب صديقه ما يعينه على التأسي، وتصعيد حزنه نحو منافذ التأمل والتفلسف، وهو ما كان بدأ به الرقعة. وفي ذلك يقول: " من صحب الدهر — أعزك الله — رتع في أحكامه، وتصرف بين أقسامه: من صحة وسُقم، ووجود وعدم وفتاء وهرم، وبعاد واقتراب، وانتزاح واغتراب "[5].

من الواضح أننا هُنَا أمام صوت الوقار والحكمة حين يعبر عن حوادث الدهر القُلَّب. وفي هذا التأمل تعزية قوية لأصحاب العقول، لأنه يخرج النوازل المؤلمة مخرج الشيءِ العادِيِّ الوُقُوع، ففي طبيعة الأيام أن تفعل ما فعلت، فما معنى الغضب والجزع حينئذ؟ ولكن أمزجة الناس مختلفة، وطبائعهم في مواجهة الخطوب متباينة. ومن مناسبات التعزية ما لا تكون فيه للمعزّى قدرة على امتلاك انفعالاته، كما هو الشأن في كثير من حالات الموت ...

---

(1) ذ: 1/3، ص: 128.

(2) نفسه.

(3) نفسه، ص: 129.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص: 128.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان حتمية الموت حقيقة مطلقة لا يرقى الشك اليها أبدا، ولا تحتمل أيّ وجه من جوه الخلاف بين الناس. ثم ان الانسان — منذ أن خلقه الله — لم يعتد وقوع حادث كما اعتاد وقوع الموت، الذى هو جزء من مظهر الحياة نفسها. ومع ذلك فلا شيء أكثر تأثيرا في النفس، ولا مصاب أفعل في وجدان الانسان منه . فهو الكارثة الكبرى التي يهون أمامها كل خطب، وتصغر عندها كل مصيبة .

وقد احتفظت لنا المصادر بمجموعة كبيرة من رسائل تعزية الاحياء في من يموت لهم من الأقارب والأصدقاء، بعضها يركب فيها كتّابها أسلوب الجزع، والانفعال، والتألم، كما فعل أبو عمر بن الباجي[1] حين كتب معزيا فقال : "كتابي عن نفس مستطارة بلوعتها، وكبد مذابة بروعتها، وعن قلب شحاره برح الجرى، وأعشاره نهب الأسى، تفجّعا لما فَجَعَك، واشتراكا في عظيم المصاب معك ....."[2]

وابن الباجي هذا نفسه يقول في تعزية أخرى، وقد استخدم فيها الأسلوب المتقدم ذاته : "بأى لسان — أيدك الله — أخاطبك مذكّرا، أو بأي مقال ألاطفك مصبّرا، وقد أذهلتني فجأة الخطب، وتركتني طائر القلب واللّبّ، وقد رماني ساعد الزمان حين رماك وأصماني سهمه كما أصماك ..." الخ من هذه التعابير التي يخلع فيها الكاتب لباس الأناة والصبر، ويأوي الى ركن التفجع والتحصر، وذكر ما أحدث فيه نبأ موت الفقيد من عميق الجراح ...

أما بعض الكتّاب الآخرين فيفضلون أسلوب التأمل والحكمة الذى يصف من حال الدنيا مايجعل الموت فيها أمرا عاديا، أو يلح على فكرة حتميته وشموله . فممّن انتهج هذا الطريق في التعزية : الأديب أبو العباس أحمد بن قاسم المحدث حين كتب الى بعض الأعيان يعزيه في امرأة ماتت له، فقال : "قد علم — أطال الله بقاءه ..... — أن سكان هذه الدار، وان تراخت بهم الأعمار، ينتقلون منها تنقل الأفياء ..... فان من وقع تحت الكون والفساد، وانبعث من الأضداد في مركز الأضداد، غير بديع في طباعه أن ينحلّ جرمه، الى ماينه تألف جسمه، ..... فتعود عند ذلك الطبيعة الترابية الى أصلها، والشعلة النورية الى شكلها ...."[3]

---

(1) سبق التعريف به .
(2) ذ : 2/1، ص : 190 .
(3) ذ : 2/1، ص : 912 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أليس عجيبا أن يكون هذا الكلام في تعزية رجل بامرأة هي منه — كما يقول الأديب نفسه — : "كالبنان من اليد والزند من العضد"(1) ، وهو يعترف في مكان آخر من هذه الرسالة ، بأن المعزّى ممن يعرف بالتفصيل مثل هذه الأمور التي تحدث للحيّ والميت . ولكنه أسلوب في التفلسف غمر التعزية حتى ان القارئ ليَنسى أن هذا الكلام موجه الى من فقد عزيزا عليه ....

غير أن أغرب الغرائب في هذا الباب رسالة التعزية التي كتبها أبو محمد بن عبد البر ، الى بعض أصدقائه يعزيه في والدته التي قضت نحبها ، فاذا به يحاول اقناعه بأنه لا شيءَ أليق بالنساء — ومنهن والدته التي يبكيها — من الموت ، ولا شيء أحسن لهنّ من ظلمة القبر !! وها هي عباراته : " والنساء كيف كانت مراتبهنّ والحُرَم وان جَلّت منزلتهن ، لم يُغلق عليهن كأبواب التراب ، ولم يُسدل دونهن كستور القبور "(2) وليس تفسيره لهذا الموقف بأقل غرابة من الموقف نفسه ، فهو يقول : " وربّ أم مبرورة ، وأخت كبيرة ، قد برست منزعا من الصيانة ، وذهبت مذهبا من مباح الديانة ، ودّ ابنها وأخوها قبل ذلك لو طواها نفَن ، و وَاراها جنن ، فتقدُّمهنّ أصون لهنّ ، وأولى بهنّ "!! (3)

على أنه من الانصاف أن نسارع الى التنبيه الى أن هذه اللهجة قد اقتصرت على صاحب هذه الرقعة ، وأن سائر الأدباء قد أظهروا من الألم والتفجع في التعزية بموت النساء ، مثلما أظهروا منهما عند التعزية بموت الرجال . ولذلك كنا نظنّ أن بعض الظروف الشخصية الخاصة التي مرّ بها الأديب ابن عبد البر ، هي التي ربما دفعته الى هذه المضائق التي لا غناء وراءها .

ونجد في بعض التعازي عناية كبيرة بوصف مآثر الفقيد ، وذكر ماله من عظيم القيمة ، بصفة مجملة ، دون أدنى تحديد ، وهي تمتاز تذكّرنا بقصائد الرثاء

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 912 .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 218 .
(3) نفسه ، ص : 219 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العربيـة وما فيهـا — عادة — من المبالغـة والتهويـل في الحديث عن الأثر الذي يجدر بموته أن يحدثه في عالم الاحياء . وذلك نظير مافي قول أبي عبدالرحمن بن طاهر حين عزّى بعض أمراء الأندلس بموت أبيـه : "كتبت لمشان وقد أسمع الناعي ، فأضرم نار الأسى بين أضلاعي ، للرزية العظمى التي رمى سهمهـا فأصمى ، بوفاة من جُمعت فيه المحاسن والخلال ، وزال كما تزول الجبال ، وقلّ له المشابـه والنظير ، ومـات بموتـه البشـر الكثير ، الحاجب ذي الرياستين أبيك ، ربّ الشرف الصميم . . ."(1)

ويتجلّى هذا المنهـج عند ابن طاهر في رقعة أخرى هو فيها أبين وأظهر حيث يقول عمن يُعـزّي بموتـه : "وكان البقيـة التي يؤنس لبقائهـا ، ويحشى السـى أضوائهـا ، فاختلستـه المنية ، وفجعت به الدنيا الدنيـة . . . . . وأما عهدنا فقد درس منـه العهـد ، بخطوب يتمنى منها الفقـد : بلاد لحقهـا التغيير ، واستولى عليها التدمير ، وأكلت الجوعة بنيهـا ، وتعطل الشرع والدين فيها ، فلا صلاة تجمع ، ولا منـبر يرفع ، والكل ذاهل ، وفي حوض الردى ناهل ، فليبُـكِ على الاسلام نائـح ، وليجبـه صدًى من جانب القبر صائح"(2).

وواضح أن هذا النوع من التعزية يكاد أن يكون وقفا على أصحاب الرياسة من رجال الممالك ، وهو في حقيقتـه جعجعة فارغة ان كانت ترضي مراسيم المجاملات اللائقة بأصحاب السلطان ، فانها عديمـة الفائدة من الناحية العاطفيـة ، لأنها لا تمثل بصدق حال المعزّي وطبيعـة انفعالاته . بل ان فيها من المبالغـة ما يحجب عن القارئ كـل أثر للصدق فيها ، فهي مجرّد لوحة فنيـة يُظهر فيها الكاتب مهارتـه "التقنيـة" فـي التعبير عن حالات التفجـع الصناعيـة ، أو وصف الصفات التي تليـق بمنزلـة المعزّى فيـه ، ومكانتـه في سلم السلطـة . . . .

وهكذا استخدم الأدباء هذا الفرض في التقرّب من الملوك والحكام ، ولم يملحهـم جلال موضوعـه عـن تسخيره لقضاء مآربهم ، حتى كأن موت الميت فرصـة أتيحـت لهـم ، فكل واحد يريد أن يُظهـر بمناسبـة ذلك مقدار وفائـه واخلاصه بتدبيـج التعازي واستمطار شآبيـب الرحمة على الفقيـد ، سواء كان من أقارب السلطان ، أو حتى مـن خدامـه ، ورجال دولتـه .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 75 .
(2) نفسـه ، ص : 77 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن أمثلة التعزية، في الحالة الثانية، ماكتبه أبو عامر التّاكرنّي [1] الى بعض الأمراء يعزيه في فقد قاضي دولته، في حادثة ما، لعلها كمين نصب لجماعة من رجال الأمير، ذهب القاضي — فيمن ذهب — ضحية له.

قال الكاتب: " واتصل بي الحادث على القاضي أبي العباس — رحمه الله — فقصم ظهري، وجَلّ مُصابُهُ عندي، وعلمت موضع فقده من نفسك العزيزة — حرسها الله — وأشفقت من ذلك أشد الاشفاق، واحترقت نفسي (له) أبلغ الاحتراق "[2].

ويورد في سياق هذه الرسالة ما يفيد بأن الملك لايرى في القاضي الفقيد مجرّد خادم، كسائر الخدم من سامي الموظفين في دولته، وأنه يخصه ببعض اعتبار ربّما كانت له صلة بالصداقة والمودة. ولذلك كان في الرسالة نصيب من التعزية التقليدية كما في قوله: " وعلمت أنه لابد، في مفارقة الاخوان، وثقات الخدمة والأتباع، .... من لوعة تلذع الكبد، وتفت العضد، لكنّ من كان في قوى نفسه على خليقتك، وجرى في اعتبار الدنيا على طريقتك، فهو يلقى خطوب الدهر بمجنّ من الصبر، اذ قد ذاق حلوها ومرّها ... "[3]

وكيفما كانت عاطفة الكاتب في حقيقة أمرها، ومبلغ صدقه في التأثر لفقد القاضي، فان غرض المدح، والتقرب من الملك، وتقديم براهين الولاء له، مما لا يمكن أن تخطئه العين في كتاب أبي عامر. ويكفي في الدلالة على ذلك أنه يختم الرقعة بهذا الثناء الجم في قوله: " وكل جليل يصغر عند الدفاع عن حَوْبائك، وكل خطير محتقر مع سلامتك وطول بقائك ".

وربما وجد الأدباء — المساكين — أنفسهم في حيرة من أمورهم حين تتصرف الأيام بشؤون ملوكهم، وأولياء نِعَمِهم، تصرفا تمزج فيه بين ما يبهج وما يحزن، وتخلط

---

(1) أبو عامر محمد بن سعيد التاكرنّي، نسبة الى تاكُرُنّا من قرى رُنْدَة. وكان أبوه من وجوه الدولة العامرية. فلما قامت الفتنة لجأ الى بلنسية حيث دولة مظفر ومبارك فلما زالا وتولّى مكانهما عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر صار أبو عامر عمادا لدولته، وموضعا لثقته. انظر ذ: 3/1، ص: 226.

(2) ذ: 3/1، ص: 244.

(3) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيه مناسبات السرور بمناسبات البؤس والألم . وإذ كان لابدّ لهم من مشاركة أولئك الملوك في انفعالاتهم بحوادث دهرهم، فإنهم يجتهدون للمزج بين السعادة والشقاء حين تُسفِر الأيام عن حوادثها التي يكون فيها ما يبكي وما يضحك ، أو ما ينبغي أن يتلقاه الخدام الطائعون ، الحريصون على رضى الملك ، بالبكاء والضحك في آن واحد .

وكثيرا ما يكون هذا في ظروف أضحت معروفة لدى أدباء العربية في المشرق والمغرب وهي حين يموت الملك ويخلفه على العرش ابنه ، فيخاطب الملك الجديد بعبارات التعزية بوفاة الوالد ، وعبارات التهنئة لانتقال الخلافة اليه .

ومن هذه الحالات التي تمتزج فيها أيضا دواعي التعزية بدواعي التهنئة موت وليّ العهد ، وعقد ولاية العهد لابن آخر مكانه . وهذا ما أراد أبو محمد بن عبد البر أن يعبر عنه في رسالة مزج فيها بين هذين الغرضين . وقد بدأ رسالته ممهدا لهما بما يناسبهما من المداخل ، حين تحدَّث حديثا طويلا عن أحوال الدنيا وما فيها من تناوب للمسرّات والمساءات ، فالأيام تتنقل بين حادثة تسعد الانسان ، وأخرى تملأ قلبه كربا وشقاء . ثم يدخل الى موضوع رسالته فيقول :

" أنهي إليّ من تقليدك العهد ، وإمضائك العقد للناصر ، (سيدي ، وأسنى عددي ، أبقاه الله) — على بلنسية — .... مكان المعتصم — رحمه الله — فقلت مُلْك تسرد في عنصر ، وخاتم تنقل من خنصر الى خنصر ، وقد سَدَّدت — أيدك الله — ثلما وشفيت كَلْما ، وسُمْتَ الخطوب رَغْما ، وأوسعتها همّا "(1).

ونحن نلاحظ أن هذه الرقعة تخلو من كل أثر للعاطفة الحقيقية ، والانفعال الصادق بالحادث المزدوج . فلا هي تنطوي على شيء من المسرة بولاية العهد الجديد، ولا هي تتضمن أيّ قدر من الحزن على ولي العهد الذي فارق الدنيا في مقتبل عمره ، وإنما هي رسوم من المجاملة كان على الأديب أن ينشيء فيها رقعة فأنشأها . وكل ما فيها من عمل ايجابي للأديب الكاتب انما هو المهارة "التقنية" في الجمع بين غرضي التعزية والتهنئة ، وهو ما لفت

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 216 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الانتباه من يجمعون الأدب ويكتبون تاريخه ، وربما كان ذلك هو السبب الذي حفظها لنا ، اذ أن صاحب الذخيرة قد أوردها في كتابه ، مقدما لها بقوله : " وله من أخرى جمع فيها بين التهنئة والتعزية "(1) . ومن يدري ، فربما لم يكن فيها ما يستحق الاهتمام ، لولا هذه الثنائية الدالة على المهارة الفنية . . .

ويمكننا أن ننهي الحديث عن التعازي بملاحظة أن هذا الغرض قد استوفى معظم المعاني التي تصرفها في التعزية والرثاء بالشعر . وقد خاطب الأدباء بالمتعزية أصنافا عديدة من الناس . أغلبهم من الحكام ، وعزّوهم في طوائف كثيرة من المفقودين . . . ولكن عواطف المشاركة الحقيقية لم تكد تظهر في النماذج الكثيرة التي استعرضناها ، وكأن الكتّاب أقاموا حاجزا منيعا بين قلوبهم وعواطفهم ، وبين الحوادث التي ينقلون اخبارها ، ويكتبون ، في الأصل لاظهار مدى انفعالهم بها . ولعل خير ما كتبوه في هذا الغرض انما هو تلك التعابير " الفلسفية " التي قدّموا بها ، غالبا ، لرسائلهم ، والتي جاءت طافحة بالحكم البليغة ، والتأملات العميقة في تصرفات الأيام وتقلباتها المحيرة .

* * *

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 216 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ ـ في العتاب والهجاء

كاد العتاب ـ في مسار العلاقات الانسانية ـ أن يكون لازمة من لوازم المودة حين يعرض لها ما يعكر صفوها ، وضريبة لا تكاد تنجو منها الصداقة المكينة الراسخة حين تواجه ، في ظرف من ظروفها ، عواصف الزمان وتقلباته . ولعل الشاعر قد أحسن ما شاء في التعبير عن هذه الحقيقة حين قال :

أعاتب ذا المودّة من صديق — اذا ما رابني منهُ اجْتنَابُ
اذا ذَهَبَ العِتابُ فليْس وَدٌّ — ويَبقى الود مابقي العتابُ (1) .

فالعتاب بهذا المعنى ، يصبح شكلا آخر من أشكال التعبير عن المودة بين المتصافيين ، وحارسا لها يحميها من الذبول والتلاشي . وتفسير هذا التأويل الايجابي للعتاب أنه يأتي نقيض الاهمال واللا مبالاة ، فالانسان لا يعاتب من لا تربطه به علاقة صداقة أو قرابة ، لأنه لا يكاد ينتبه لتصرفاته . أما الذى ينتمي اليه بصلة ما ، فانه لا يفتأ يتحسس ما يصدر عنه وما لا يصدر ، فاذا تغيرت أساليبه في التعامل معه ، أو بدر منه ما ينم عن برود عاطفة ، أو فتور علاقة ، سارع الى استنكار هاتيك التصرفات ، والتشكي منها ، وطلب التفسير لها . وذلك هو الذى نسمّيه : العتاب .

ومن الأدلّة على فعالية العتاب في تحريك العواطف الساكنة وتسخين المودة الفاترة ، ذلك التأثير البالغ الذى يكشف عنه الأصدقاء الذين يتلقون كتب العتاب ، فيسارعون الى الردّ عليها ، والتبرؤ مما فيها من المآخذ ، كما فعل الأديب أبو عمر بن الباجي (2) حين بعث الى صديق معاتب يقول له : " المودات ـ أعزك الله ـ انما تثبت دلائلها ، وتصح مخايلها ، بمضمرات الفؤاد ، لا بمزورات المداد ، .... وفي علمه تعالى أني من الاعتداد بحمدك ، والاعتلاق بحبل ودّك ، والاسناد الى كرم عهدك ، بمنزلة لا يتعاطى ادراكها أحد ، ولا تَطُول يدَ صفائي فيها يد .... " (3) .

---

(1) راجع مادة " عتب " في لسان العرب .
(2) أبو عمر بن الباجي تقدم التعريف به .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 192 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان هذا المدخل الرقيق الذى فيه هذا المقدار من اظهار المودة ، والاعتزاز بالصداقة ، يخفي تأثرا بالغا بالعتاب الذى وصل اليه من صديقه ، وهو تأثر سرعان ما يحمله على امتطاء أعنف الأساليب في الردّ عليه ، ولا سيما حين يقول له " وقد ورد كتابك ففضضته عن مثل عقارب لاسبة ، وسهام نافذة صائبة ، من عتاب صدع قلبي ، وفتّ في عضدى ، وتقريع لم أقف ببابه ، ولا جذبت بأسبابه ..." (1)

ما أعظم انفعال أبي عمر بعتاب صديقه ، وما أشدّ ما وصفه به حين جعله " عقارب لاسبة ، وسهاما صائبة " . فلا عجب أن يكون العتاب محييا للمودة اذا صفا منحشه ، لأنه يستثير الصديق ويستفزه ، فيكون في ثورته تمكين للمودة وترسيخ لها .

وبعدُ فاذا كنا حاولنا أن نتبيّن موقع العتاب من مسار العلاقات الاجتماعية بين الناس ، ونقف عند مثل واحد من أمثلة التأثيرات البالغة التي تحدثها كتب العتاب في الأصدقاء حين يصيرون موضوعا للّوم والتقريع ، والأمثلة على ذلك كثيرة متنوعة (2) ..... فانه يتعين علينا أن نستجلي أنماط العتاب من خلال بواعثه لنعرف أهم مضامينه ومحتوياته في أدب هذه الفترة المؤرخة .

ويبدو أننا لن نكون في حاجة الى بذل الكثير من الجهد لنعرف أن أهم محاور العتاب ، وأكثرها ورودا ، تدور — بشكل رئيسي — على مسألة التنكر للصداقة ، والتفريط في بعض ما تستلزمه من واجبات ، والتقصير فيما ينبغي للأصدقاء من التأييد والمساعدة . وربما جاء العتاب في قالب الرد على كتب الأصدقاء العتابية لدحض التهم ، والتنصل من الأسباب التي كانت وراء غضبهم . وقد يرمي بعيدا فيفقد طابعه الأول : حماية المودة من الذبول ، ويصبح نوعا من أنواع الهجاء ، لا يقل عنه في شيء .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 192 .

(2) انظر على سبيل المثال رسالة ابن الحداد في " الجواب عن كتاب عتاب " في ذ : 1/2 ، ص : 693 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولأبي حفص بن برد الأصغر[1] قطعة بينة الدلالة على هذا المذهب من العتاب المخلص الذى مبعثه الحرص على اتصال المودة . يقول في بداية رسالته " أظلم لي جوّ صفائك ، وتوعّرت علي أرض إخائك ، . . . . فليت شعرى ما الذى أقسى مهجة ذلك الودّ ، وأذوى زهرة ذلك العهد ؟ عهدي بك وصلتنا تفرّق من اسم القطيعة ، ومودتنا تسمو من صفة العتاب ونسبة الجفا "[2] .

ويبدو أن ما طرأ على العلاقة بين أبي حفص وصاحبه من تغير قد دفع بالكاتب دفعا الى أن يضع مستقبل هذه الصداقة ضمن ثلاثة آفاق لا رابع لها ، وذلك على النحو التالي : " وأنا الآن على طرف من اخائك معك ، فاما أن تدلي بحجة فأنتصل عدك ، واما أن تنبيء بحقيقةٍ فاستديم خلتك ، واما أن تأزم على فأسك فأقطع حبلي منك "[3] وهذا ، كما نرى ، موقف غاية في الصراحة والصرامة .

ولأبي حفص بن برد رأي في العتاب عموما ، يختم به رسالته وهو أنه " كثيرا ما يكون حيلة تُسبَر المودّة بها . . . . كما يُعرض الذهب على اللهب ، وتصفّق المُدام بالفِدام . وقد يخلص الود على العتب خلاص الذهب على السبك . فأما اذا أعيد وأبدي ، وردّد ووولي ، فانه يفسد غرس الاخاء ، كما يفسد الزرع توالي الماء "[4] .

وهكذا نرى الكاتب يحدث في المقولة الشعرية السابقة : " ويبقى الود ما بقي العتاب " تغييرا ملحوظا حين يرى أن العتاب يستنهض المودة ويستفز الصداقة ماجاء قليلا ، نادر الوقوع ، فأما اذا كثر وتوالى فانه يؤدى الى افساد ذلك الود بكل تأكيد . ونحن نستطيع أن نضيف الى هذا الرأى تصحيحا يكمله – فيما نعتقد – وهو أن توالي العتاب يدل دلالة قاطعة على فساد ذلك الود ، فهو يعبر عن ذلك الفساد – ولو في مرحلة من مراحله – أكثر مما يسببه أو يؤدي اليه . . . .

---

(1) تقدم التعريف به ، وانظر ذ : 1/1 ، ص : 436 .
(2) ذ : 1/1 ، ص : 501 .
(3) نفسه ، ص : 502 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الواضح من رسالة ابن برد أنه يرد على عتاب، فهو لذلك يعاتب ذلك الصديق الذي فاتحه بالعتاب. والكاتب الذى هذا شأنه يكون في موقف دفاع لا هجوم، وفي وضعة من يرد الفعل لا من يبدأ به. ولذلك فلعله يحسن بنا أن نقف عند بعض الرسائل التي بادر أصحابها فيها بهذا النوع من الخطاب، للدرس من خلالها لونا من ألوان الأسى الذى مبعثه تنكر الأصدقاء لرسم المودة.

من هذا القبيل الرسالة المطولة التي بعث بها أبو عامر بن التاكرني (1) الى أبي جعفر بن عباس(2) يشكو فيها ما يلقاه من اهمال صديقه له واعراضه عنه. يقول في مقدمتها: "كتبت عن نفس تفيض بمائها، وتجيش بدمائها، وتشكو الى الله عظيم أدوائها، غيظا على تقلب الزمان، وعجبا من تنكر الاخوان ..."(3)

وكما هي عادة المصابين على هذا النحو في عواطفهم، فانهم يحمّلون الحوادث ما قد لا تحتمله من التأويلات حين يجعلون أنفسهم غرضا تتكالب الأيام على تسديد سهامها نحوه. فالكاتب يضيف بعد كلامه السابق: "لا يلفظني عجب الا الى مثله، ولا انتقل من مستغرب الا الى شكله، ان أبرمت حبلا من الاخاء نقض المفسد مريرته، أو ملأت يدي بمن اعتد به للشدة والرخاء، أفسد الواشون سريرته ..."(4)

وكان من شأن هذا العتاب بين الرجلين أن طال حتى غدا حوارا مسلسلا في حلقات. وقد بدا أن لكل واحد منهما على الآخر مآخذ تتجاوز ما يكون عادة بين الصديقين، عند تقصير أحدهما في ركن من أركان الصداقة. والذى يبدو لنا أن الخلاف السياسي بين امارتي المرية وامارة بلنسية (5)

---

(1) هو أبو عامر محمد بن سعيد التاكرني، خدم امارة بلنسية عندما كانت تحت حكم مظفر ومبارك، ثم قامت دولة المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن، فأصبح أبو عامر من أشهر رجالاتها. انظر ذ: 1/3، ص: 226 وهامش المحقق بها.

(2) أبو جعفر بن عباس أديب ورجل سياسة، وزر لزهير الفتى الصقلبي حتى قتلهما باديس صاحب غرناطة. انظر خبر هذه الواقعة عن ابن حيان في ذ 2/1، ص: 656 وما بعدها.

(3) ذ: 1/3، ص: 229.

(4) نفسه.

(5) يراجع ما كتبناه في الباب الأول عن امارة المرية وامارة بلنسية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد ألقى بظلاله على المودة التي كانت بين الرجلين ، فحجب عنها شعاع الطمأنينة التي تكون بين المتصافيين ..... ففي رسالة ثانية لأبي عامر ابن التاكرني — يرد فيها على الرقعة التي ردّ بها ابن عباس على رسالته المتقدمة، اشارة واضحة الى أن واحدا من الأسباب البارزة للفتور الحادث في العلاقة بينه وبين ابن عباس مرجعه الى تردد بعض الناس من "غير المرغوب فيهم" — على حد تعبيرنا في هذا العصر — على أروقة الحكم في امارة بلنسية . ولكننا لا نعرف هل هؤلاء "المكروهون" هم أعداء لأبي جعفر بن عباس ، تلقاهم ابن التاكرني بالمودة والترحاب ، أم أنهم أعداء أميره زهير الفتى ، حظوا عند أمير بلنسية بالعطف والتقريب ، فعادى وزير هذا وزير ذاك ، لأن الوزير لا يملك — في الغالب — الا أن يكون على دين مليكه (1) .

ما أغرب شأن الحكام يملكون الأرض ومن عليها ثم يضيق براحتهم الأفق الرحيب اذا لقي أحد الذين يسخطون عليهم موطىء قدم ، أو فاز برغيف الخبز وابتسامة الأمان عند حاكم آخر ، فلا يرتاح لهم قلب ولا يطمئن لهم بال حتى يسعوا في تشريده ، واثارة الدنيا عليه ، أو تكون العداوة والبغضاء جزاء كل من يسكّن رَوْعَه ، ويزيل أساه .

فاذا كان هذا شأن الحكام في التعامل مع نظرائهم من رؤساء الدول الأخرى ، فكيف يكون تصرفهم مع رجالهم ، وأعيان دولتهم حين يكون لهم أي نوع من أنواع الاتصال بمن لم يحظ برضاهم من الناس ؟ ذلك ما ستبين بعض جوانبه في رسالة كتبها الأديب أبو المطرّف بن الدباغ (2) الى صديق من أعيان الناس فاجأته الدنيا بما يأتي في أذيال الجاه والسلطان من أمور ينتشي بها الكائن الضعيف فينسى منشأه الأول ، ومنبته الأصلي ، والمحيط الذي كان يألفه أيام المنزل الخشن ...

---

(1) الاشارات الى هذا السبب السياسي واضحة كل الوضوح في رسالة ابن التاكرني ، ذ : 1/3 ، ص : 237 . فلا حاجة بنا الى ايراد شيء منها .

(2) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ . كان من رجال دولة المقتدر بن هود ، ثم استوحش منه فخرج من البلاد فارا ولحق بالمعتمد بن عباد في اشبيلية . ولم تخل حياته هناك من تنغيص ففر منها أيضا . انظر أخباره في ذ : 1/3 ، ص : 251 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذا السيد من الأعيان قد نسي صديقه القديم ، حين غضب عليه السلطان ، وتنكرت له الدنيا فخاطبه بقوله : " لشد ما ألهتك الدنيا — أبا علي — باقبالها ، وشغلتك بأحوالها ، فما تفكر في صلة ، ولا تبتدئ بمكاتبة ، أو تراجع عن مخاطبة "(1).

ولسائل أن يتساءل أهي شؤون الحكم وأمور السياسة تشغل هذا الرجل عن التفكير في أصدقائه ، وتصرفه عن تذكر ماله صلة ما بحياته الشخصية ، وهو المستغرق في أداء الواجبات لقضاء حق الجماعة عليه ؟ والجواب عند ابن الدباغ يكتب به الى هذا الصديق ، في قالب الاعتذار له : " ومن أين تجد سبيلا الى ذلك ، وزمانك كله مقسّم في أشغال ، ومرتب على أحوال : تنام بالضحى مثقلا من السكر ، وتتململ على فراشك الى الظهر ، حتى يتكرر رسول فلان ، فيوقظك من المنام ، ويحركك الى القيام ، ثم تركب وتجد المائدة موضوعة ، والأيدي ، لابطائك مرفوعة ، فتدنو من الطعام بكسل .... ثم تستلقي وتتمدد ، وتتثاءب وتتوسد ، وتستحضر جنّانك ، فتسأله عن الجنة متى سقاها ... "(2) ويستمر الأديب في تحديد مشاغل هذا الصديق على هذا النحو ، فبعد أن يطمئن على الازهار ، يسأل عن المزرعة وما جمع فيها ، وما زرع ، ثم يلتحق بمجلس الأمير ، ويعقد دست الأنس فيأكل ويشرب ويلهو الى أن يداهمه النوم ، ويصل الى النقطة التي بدأ منها بالأمس ، وهكذا دواليك ....

هذا برنامج كفيل بأن يشغل صاحبه عن القريب والصديق . ولكن التفسير الملائم لاعراضه عن كاتب الرسالة بالذات مرجعه الى أسباب دقيقة واضحة يلخصها في عبارات موجزة هي : " وأيضا فان السياسة تقتضي أن تُعرِضَ عَنْ ذِكر مثلي وتلقّنَ وَثَّتَ وَصَلْتَ به حبلي ، لاسيما وقد دهيت من جهتي ، وكاد السلطان يجفوك من أجل خُلطتي ..! وتنتهي هذه الرسالة بهذه العبارة الرائعة : " أنت لعمري في أوسع العذر ، فاجر مع الدهر "(3).

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 307 .
(2) نفسه ، ص : 308 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لانظننا في حاجة الى تعليق على هذه المقاطع البليغة من عتاب صديق لا يتذلل ، ولا يستعطف ، ولا يبيع كرامة بالمزاد ، ولا يشترى مودة بالتزلف والنفاق .

ولم تكن مثل هذه المواقف نادرة في حياة الناس وقتئذ ، فعلى كثرة ما كانت تسفر عنه الدنيا من الانقلابات التي تضع هذا من عليائه ، وترفع ذلك فجأة الى المراتب التي ماكانت تخطر له على بال ، وعلى كثرة ما كان يصدر عن أولائك المغترين بابتسامات الدنيا العابرة لهم ، فانه من الانصاف أن نلاحظ تميز العديد من ذوي الأصالة في الرأي ، وانحيازهم عن ركب المنافقين الذين يسارعون بالمدائح والتهاني الى أبواب كل من يجود عليهم السلطان بلقب من الألقاب .

وينبغي أن نذكر من هؤلاء المتميزين الشاعر الناثر أحمد بن هريرة القيسي المعروف بالأعمى التطيلي (1) . فانه يزيد في قيمة هذا الرجل أن صداقته القديمة الراسخة لمراسله لم تمنعه من أن يتحسس موقف الأذى من خلال تصرفات ذلك الصديق ، فكتب اليه يذكّره بعهد المودة ، ويدعوه الى احياء رسم الألفة ، في غير مس بكرامته ، أو اهدار لماء وجهه ، بل انه يختم الرقعة كما سنرى بنبرة عالية من العزة والاعتداد بالنفس . يقول : " شاكرك أو شاكيك من لا يحمد ولا يذم الأيام فيا ، ياسيدي — كناية عن ذكره ، لا توخيا لبره ، واحياءً رغبة في انصافه ، لا طمعا في استعطافه — الذي عاطيته كأس الوداد وأمرّها ، وزففت اليه بنت الفؤاد فأضرّ بها وأضرها ، ومن أطال الله بقاءه ممتعا بظل السلطان ، واقبال الزمان ، فان الرجل بسلطانه لا باخوانه ، وباقبال زمانه لا باحسانه ...." (2)

ثم انظر اليه كيف يتحدث عن نفسه أمام هذا المخدوع بمظاهر منزلته الجديدة " اني — أعزك الله — وان كان الدهر وضعني ورفعك ، وذاق عني ووسعك ، بين جنبي نفس عصام ، وبين فكّي صارم بسطام ..." (3)

---

(1) أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي المعروف بالأعمى التطيلي ناثر شاعر وصاحب موشحات . انظر أخباره في ذ : 2/2 ، ص : 723 وهامش المحقق بحث على ثبت وافٍ بمراجع حياته .

(2) ذ : 2/2 ، ص : 729 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد أن يذكره بما كان عليه من ابداء الحاجة اليه عند بداية ولايته ، ثم كيف تغير له ، وأعرض عنه ، يصل الى التسبوء له بالعودة الى أصله ، فيقول : " وولايتك خطر ، وفي عملك نظر ، انما هو ظلّ غمامة ، وَمَبِيض حمامة ، ثم تعود الى استحلاس البيت ، وأكل الخبز بالزيت ". (1)

وهكذا كان عتابه فئة من الأصدقاء لمن ارتبطوا معهم بودّ قديم ، ثم تنكروا لتلك الروابط . وقد جاء ، كما رأينا ، ملاما رصينا ، لم يخرج عن حدود اللياقة ، ولكنه كان واضح التعبير عن كرامة أصحابه ، فيه ملامح الشخصية المحترمة ، وبمرات الذات النبيلة التي ترفض التدني والسقوط .

وقد يكون العتاب في قالب التبرؤ من التهم ودفع الشبهات ، كما فعل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون(2) الذي كتب يلوم أحد أصدقائه ، ففاتحه بهذا التقريع الشديد : " سلام على من نظر بقلبه لا بعينه ، وحكم بيقينه لا بظنه ، ونطق بعقله لا بهواه ، وأخذ من دنياه لأخراه ، ولم يستفزّه قال ولا قيل ، ولم تهزه تلك الأباطيل " (3) .

ويأتي الى موضوع هذا العتاب فيقول : " بلغني قول من قضي عليّ بالظنة وحكم بالشبهة ، والمقولات طرق لا يتعداها متعدّ ، الا وكان وبال ذلك راجعا عليه ... لاسيما في ضربة توجب حدّا ، وتضرع خدّا ، وتفل من فاضل حدّا "(4) .

ويبدو أن هذه التهمة التي رُمي بها ابن عبدون قد أثرت فيه تأثيرا عظيما ، لأننا نجده في هذه الرسالة يحرص أشدّ الحرص على ابطالها ، فهو يبدأ بنفيه رأى من صدرت عنه : " لم يطلع مشبهها مني على ريبة ، ولا وقف مذ بعها على حقيقة ،

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 730 .
(2) أبو محمد عبد المجيد بن عبدون وزير بني الأفطس أصحاب بطليوس ، تقدم التعريف به ، وانظر ذ : 2/2 ، ص : 668 وما بعدها .
(3) ذ : 2/2 ، ص : 680 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بل افتراء من مفتر ، وادّعاء من مدّع ، في تلك التي لا أسميها ، فاني طلقتها قبل الدخول ثلاثا .... "(1) ثم يحلل ذلك الطلاق بالظروف التي تكتنف اليوم حياته ، ثم يخشى أن لا يصدقه الناس على ما في ذلك التعليل من صدق ونزاهة ، فيقسم على وقوع ذلك الطلاق منه لها ، بهذه العبارات : " وأقسم ، واعرف بما أقسم ، والتزم من ذلك ما التزم ، لقد تركتها خوفا للمعاد ، لا رياء للعباد "(2).

ان هذه التي يبدي حرصه الملحوظ على التنصل منها .والابتعاد عن ساحتها هي الخمر التي طالما عاطى أكؤوس سهها " والزمان مساعد ، والسلطان معاود " . ويكاد المرء أن يستغرب حدة الانفعال الناجم عن هذه التهمة ، وهو يعلم أن شرب الخمر لم يكن يومئذ يعتبر فضيحة يتجشم الرجل — كيفما كان وضعه في المجتمع — مشقة التنصُّل منها . فقد كان أهل الأندلس حكاما وسُوقَةً ، رؤساءَ ومرؤسين يشربون منها مايشاؤون ، ويتسابقون الى وصف مجالسها — كما كنا رأينا —(3) بلا حرج . فما الذي دفع ابن عبدون الى توجيه هذا اللوم العنيف ، والفرار بهذه الحرارة من جرم لم يكن المجتمع الأندلسي — فيما يبدو من أدبه — ينظر اليه على أنه كذلك ؟ لعل التفسير الوحيد هو الذي ذكره الكاتب نفسه من أنه " خوف المعاد " الذي جاء توبة نصوحا من رجل علته " أبهة الكبير ، ووخطته واعظة القتير ، ورد ما استعار من الشباب الى المُعِير "(4).

هذا عتاب فيه تكذيب لمضمون التهمة ، ولكنه تكذيب لجانب محدد من هذا المضمون ، اذ أن الكاتب لا يزعم أنه لم يشرب الخمر بتاتا ، وانما ينفي أن يكون الآن من خطابها بعد أن " طلقها ثلاثا " كما قال . فهو اذن تكذيب جزئي .

ومن وجوه العتاب على اشاعة التهم ما يكون فيه الكاتب في موقف من ينفي وقوع ما يتهم به من الأساس ، وهذا كثيرا ما يكون في الوشايات والنمائم التي يحرص الناس عادة ، في كل الأحوال ، على دحضها ، وابطال كل صلة لها بالواقع والحقيقة .

(1) ذ : 2/2 ، ص : 630 .
(2) نفسه .
(3) ينظر ماكتبناه في أدب الاستدعاء الى مجالس الانس حول محور "الصداقة والأصدقاء"
(4) ذ : 2/2 ، ص : 630 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويكفينا من نماذج هذا الضرب من العتاب الرسالة التي كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] والتي يقول في بعض أجزائها : " وأكرم بخطابك الأثير، .... ولم أزل ألمحه ، وأجيل طرفي وأتصفحه .... الى أن انكشفت لي أغراضه المبتدعة .... عن ظن حكّمته في اليقين ، وشك غلّبته على الصبح المبين . أنا أنزه ميزك الثاقب ، ونظرك الصائب ..... عن انتساب مثل ذلك اليك ، واشتباه ما فيه عليك .... ولا أدري له سببا ، ولا أعرف له موجبا الا الاصغاء الى من يضرب ويسعى بالفساد ، ويدب بعقارب الأحقاد ... وأنت أجل من أن تلتفت الى غاش، أو تعرج على ساع بالنميمة واش. "[2]

ان هذه المقتطفات من رسالة ابن أبي طاهر تلخص غاية التلخيص منهج هذا الضرب من العتاب الذي تتوزعه الاهتمامات الرئيسية الآتية : البدء بالثناء على المرسل اليه وتعداد محامده ، فالاشارة الى سداد نظره وحصافة رأيه ليتخذ من ذلك معبرا الى التعجب من انطلاء زيف ما نُمي اليه من الأخبار ، وأخيرا التشديد على بطلان التهمة وبيان براءته مما عزي اليه ، ونسبة المسألة كلها الى النميمة والوشاية اللتين يبعثهما الحقد والغيرة وما الى ذلك .

وكثيرا ما يتضمن العتاب ، الذي يأتي على هذا النحو، قدرا كبيرا من السباب والهجاء الموجهين الى أولائك الوشاة المسؤولين عن تعكير أجواء الود ، وافساد العلاقات الطيبة بين الاخوان . أما المخاطب نفسه فيبقى في محل الاجلال والاحترام . بيد أن هناك نوعا من العتاب يمتطي من الأساليب ما يجعله في الحقيقة ضربا من الهجاء الصريح ، في بعض الأحيان .

ليس العتاب في الأصل وسيلة تمكن الصديق من ايذاء صديقه ، او توجيه الضربات الموجعة اليه . وانما هو منفذ لطيف يهيء لأحد الأطراف المتعاقدة على المودة أن يصف ما يجده من ألم أو حزن أو مرارة ... من جراء تصرفات صادرة عن الصديق المخاطَب ، آذتْ ، دون قصْد مُبيَّت من صاحبها ، أو كانت

---

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر أمير كاتب ، صاحب مرسية ، وقد تقدم التعريف به في هذا الف...

(2) ذ : 1/3 ، ص : 30 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليدة سوء الفهم والتأويل . فاذا جنح العتاب الى الاساءة ، وقصد الى اهانة " الصديق " وجَرْحِه ، خرج عن غرضه الى شيء آخر .

وللنظر ، في ضوء هذه المعطيات ، الى رسالة كتبها ابن الدباغ [1] الى بعض أصدقائه [2] حيث يوجه اليه في أولها هذا السؤال الجارح : " فمن أين حدث هذا التعالي ، وما سبب هذا التغالي ، عرّفني — جُعلت فداك — وكأني أراك تتوقد في قعدتك ، وتتشاوس في نظرتك ، فما تُكلّم الا ان ابتسمت . . . " [3] ثم لا يكفيه هذا القدر من الاشارات المؤذية والعبارات الجارحة ، بل يشرع في تفسيرها بارجاعها الى عواطف الطمع الملتهبة في صدر هذا الصديق ، تلك التي زينت له أن يطمح الى نيل خطة القضاء السنية في عاصمة المملكة . وهذا التطلع ليس عيبا في الحقيقة وأيّ حرج يكون على رجل فاضل أن يتوق الى نيل منصب عظيم يرى نفسه كفوءا له . ولكن ابن الدباغ يبلغ قمة العنف ، وينزلق بخطابه من العتاب الى أقبح انواع الهجاء حين يعرّض بماضي صديقه هذا ، ويقول له : " وهبك تحلّيت بهذا الشنب ، وتهيأت لهذا الدّست ، ما تصنع في قصة السّبت " [4] . ذلك أن هذا الصديق كان يهوديا ، ثم أسلم ، وحسّن اسلامه ، وتبحّر في فقه الشريعة الاسلامية . فلو كان طموحه الى هذا المنصب أمرا ثابتا . وليس مجرّد فرض أو احتمال ، أفكان يجوز للكاتب أن يقول مثل هذا الكلام لصاحبه لو كان في معرض هجائه ؟ فكيف وهو فيما يبدو لم يكن ينوي أكثر من العتاب . انه لعتاب ألطف منه بعض الهجاء ! . . .

وتشارك هذه الرسالةَ في طابعها المشوب بالهجاء ، رسالةٌ كتبها أبو عبدالله البزلياني [5] الى واحد من أشهر وزراء دويلات الطوائف في هذا العهد ، وهو

---

(1) الوزير الكاتب أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ . انظر ذ : 1/3 ، ص : 251 .

(2) يبدو أنه خاطب بهذه الرسالة ابن حسداى الذى كان يهوديا وأسلم ، وانظر الهامش 6 في ذ : 1/3 ، ص : 307 .

(3) ذ : 1/3 ، ص : 307 .

(4) نفسه .

(5) أبو عبدالله البزلياني تقدم ذكره . انظر ذ : 1/2 ، ص : 624 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو جعفر ابن عباس[1] . والذي أثار عواطف السخط لدى الكاتب انما هو الكبرياء التي أبداها الوزير المذكور بعد ما وفد أبو عبد الله عليه .ولذلك نراه يفتتح الرسالة بالتشديد على ذم الصفات التي تلتقي بالكبر أو تتفرع عنه . قال : " كُلَفُ المروءة ـ أبقاك الله ـ صعبة الا على الكرام ، وطرق الجفاء رحيبة لسلوك اللئام ، والأحمق يرى البرّ خسراناً ، ويعتقد اكرام الوافدين نقصانا . . .(فـ) يجعل الكبر بناء رداءه . . . والكبرياء رِدَاءُ الله الذي من جاذبه اياه قصمه . . . ."[2]

ونحن هنا لانظن أن البزلياني يفتري على ابن عباس الكذب،أو يتهمه بما ليس فيه ، فقد شهر بالكبر حتى عدّه صاحب الذخيرة من صفات أربع تقدم فيها سائر الناس وهي : " المال . . . والعجب . . . والبخل . . . . والكتابة : وهي أقل أربعته . . . ."[3]. وقد بلغ من عجبه أن أهان رجلا أديبا لامعا كالبزلياني إهَانَاتٍ لايَقْدِرُ ذو نفس كريمة على احتمالها .وهو يعرض علينا هذا الجانب منها في قوله : " وجئتك زائرا فكأني جئتك آملا ، وأردت مصافحتك فما مددت يدا ، وطلبت مناقشتك فخلتك مُقصدا . . . ."[4]

على أن الهجاء الصريح الذي يقصد اليه الكاتب قصدا ، ولا يبتغي له تلطيفا أو تخفيفا بإخراجه مخرج اللوم والعتاب ،إنّما نجده في نماذج متميزة ، لعل أشهرها ، وأكثرها تمثيلا لهذا النوع من الأدب : الرسالة التي أنشأها أبو الوليد بن زيدون[5] في هجاء ابن عبدوس[6] والتي عُرفت عند الأدباء بالرسالة الهزلية . ذلك أن طابع السخرية هو الذي أدخلها في نوع الهجاء ، من بابه العريض .

---

(1) أبو جعفر أحمد بن عباس : وزير لزهير الفتى ، وقد تقدم ذكرهما وللاشارة الى ماوقع لهما مع أمير غرناطة .

(2) ذ : 1/2 ، ص : 633 .

(3) نفسه ، ص : 643 .

(4) نفسه ، ص : 633 .

(5) أبو الوليد بن زيدون ، من ألمع أدباء الأندلس ورجال الحكم فيها .أخباره في ذ : 1/1 ، ص : 336 ، ومابعدها .وبهامش المحقق ثبت لمراجع ترجمته .

(6) أبو عامر بن عبدوس غريم ابن زيدون ومنافسه على ولادة توفي سنة 472 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولسنا نريد أن نطيل في استعراض فقراتها ، وانما حسبنا أن نلم بأهم محاورها . فهي تبدأ بوصف ابن عبدوس بالجهل والنفاهة والحقارة : " البيّن سَقطُه ، الفاحش غَلَطُه ، . . . . . الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفَراش في الشهاب . . . "(1)

ثم يبدأ الاستهزاء عن طريق سيل من " الومضات "(2) التاريخية تهدف كلها الى التحقير الكلي بواسطة التعظيم الساخر . ويتأتى ذلك بفعل المقابلات التي تُظهر المهجوّ في قالب المتفوق على النماذج المثالية ، كلّ في الميدان الذي شهر به عبر الحقب المتطاولة من التاريخ .

وهكذا يعرض شريط متصل من وجوه التاريخ الانساني وعظمائه ، وذوي الشهرة فيه ، فاذا بابن عبدوس كأنه العملاق الفرد المتميز الذي لايدانيه أحد في جمال ولا في علم ولا في سلطان . والمنهج الواضح عند الكاتب هو بلوغ منتهى التحقير والتصغير عن طريق التعظيم الاستخفافي ، والمبالغة الاستهزائية .

من هذا القبيل قول الكاتب لمهجوه : " انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، حتى . . . . ان يوسف — عليه السلام — حاسدك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، . . . . وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك . . . . "(3) ويمضي الكاتب في هذا الاستعراض ، فيطيل فيه ، وينتقل خلاله من مشاهير الفرس ، الى مشاهير اليونان ، ومنهم الى رجالات العرب ، وأدبائهم ، وعلمائهم ، ومن اشتهر منهم بخصلة من الخصال في كل زمان ومكان . فاذا ما فرغ من ذلك أخذ في عدّ الفتوحات التي تهيأت لمهجوّه في كل باب من أبواب المعرفة . وهكذا ، فبعد بلوغ التحقير

---

(1) من الأدب الأندلسي ، لمصطفى الشكعة ، ص : 595 .
(2) نستعمل هنا كلمة ومضات مقابلا لكلمة " فلاش " في اللغات الغربية .
(3) الرسالة في سرح العيون لابن نباته المصري (686 — 763 هـ) نشر دار الفكر العربي عام 1964 . وهي في كتاب " الأدب الأندلسي " للشكعة ص : 596 . وفي " ابن زيدون " لشوقي ضيف ، ص : 93 وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالمقابلة المعكوسة التي يظهر فيها المهجو هو المنتصر الفائز على من لا يمكن أن يتصور أنه يفوز أو ينتصر عليه ، يبدأ رَمْيَه بأوصاف الجهل والغباوة عن طريق المبالغة في الإيهام بالذكاء والعلم والسبق الى كل فن : " وانك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدّ الماهية ، وصف الأسماء والأفعال ، وبوب الظرف والحال " (1) . وكأن هذا القدر وحده من التحقير بواسطة التعظيم الكاذب لا يكفي ، فاذا به يجعله قادرا على صنع الخوارق والمعجزات ، وفعل كل مستحيل من الأعمال ، فيقول : " وانك لو شئت خرقت العادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عذبة ، وأعدت السلام رطبة ، ونقلت غدا فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت خمسا .... " (2)

ثم يظاهر على ابن زيدون الإعْيَاء من هذا الوصف المتواصل ، وهذا التكلف والالتواء في النيل من عدوه ، فيغيّر من أسلوبه فجأة ، ويأخذ في الهجاء الصريح المباشر الذى لا يكون عنده في البداية الا أتيًّا مندفعا من الأوصاف الذميمة ، والنعوت القبيحة من مثل قوله فيه : " هجين القذال ، أرعن السّبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، .... ظاهر الوسواس ، منتن الانفاس ، .... كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ... ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة " (3) .

وبعد غمز كثير ، ووخز متصل ، تنتهي الرسالة بانذار شديد لا يترك له فيه الا الخيار بين سبيلين : اما التوبة ، واما العقاب الشديد ، بنفيه الى الحقول والمزارع حيث يغدو لعبة يتسلى بها جموع المزارعين .

هذه باختصار أهم مضامين الرسالة الهزلية المشهورة . وهي في الحق سباب رخيص ، وتهجم من النوع المرذول ، الذى ليس فيه غناء للأدب ، ولا ايذاء حقيقي للمهجوّ به . والواقع اننا لم نجد في هذه الرسالة شيئا تكون من أجله جديرة

---

(1) عن " الأدب الأندلسي " ، ص : 599 .

(2) نفسه .

(3) نفسه ، ص : 601 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالبقاء والخلود، ولعلّهما تخلو من كلّ مقوّمات الفنّ الصحيح في موضوعها . ويبدو أن قيمتها كلها لاتعدو كونها برهانا على ثقافة ابن زيدون، ومعارفه الواسعة، واطلاعه الكبير . ولكن الذي يلفت الانتباه أن الكاتب لم يحسن توظيف هذه المعلومات ليبعث الروح في كائن ذميم سمقته لجهله، أو غبائه، أو جبنه، أو حقارته .... وانما جاءت الرسالة سردا رتيبا، وتداخما مملّا للأمثلة التاريخية، وأسماء الأشخاص والصفات الجوفاء . أما معالم الابداع الفني، فهي غير واضحة ان لم تكن عديمة الوجود على الاطلاق . ولذلك فينبغي أن تلتمس البراعة الفنية عند ابن زيدون في ميادين أخرى من نثره الجميل وشعره الرائق . وعزاء ابن زيدون أنه قلّ الناجحون في موضوع الهجاء والسخرية في كلّ آداب العالم، ذلك أنه من السهل على ذي الموهبة أن يُبكي الناس، وأن يستدر منهم دمع الاشفاق والاكتئاب، أما أن يدفعهم الى أن يضحكوا ضحكا صُراحا عن طريق الاستهزاء والسخرية بالنماذج الحقيرة التافهة من البشر، فذلك مالم يَتأتَّ الا لعدد قليل جدّا من عباقرة الأدب في العالم، أتقنوا التصرف في هذا الضرب من الأدب الاجتماعي الذي يتغلغل في طوايا النفس الانسانية، ويكشف خباياها ويجعل المجتمع يكتشف بعض عيوبه ويضحك منها مجسّدة في الهيئات التي يحركها الأديب وينفخ فيها الحياة .

هكذا نأتي الى نهاية هذا الحديث الذي كان نثر المبادلات الاجتماعية موضوعا له . وقد رأينا من خلاله ألوانا من السلوكات، والانفعالات، وردود الفعل التي مبعثها هذا الضرب أو ذاك من ضروب التعبير عن "الجوهر" الاجتماعي للانسان، وحرصه على تلقي أو تبليغ العواطف التي تُشعر بهذا الانتماء في مختلف المناسبات.

والذي يمكن أن نستخلصه من هذا الاستقراء الواسع لثمار هذه المبادلات الاجتماعية المتنوعة، هو أن المجتمع قد أبدى حرصا ملحوظا على التماسك والتضامن في تلك الآونة العصيبة من تاريخ البلاد . وذلك دأب الأمم العريقة ذات التراث الأخلاقي الأصيل، فانها، على ما يكون في ظروفها الداخلية من أسباب الفرقة، والشحناء، والخلاف، والتمزق .... تستشعر الحاجة الى أن يكفل أفرادها بعضهم بعضا، ويقفوا في وجه الحوادث العاصفة بهم متكاتفين متعاضدين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد أنه من السذاجة أن نظن أن مراقبة هذا التراث — كيفما كانت وصيد الأمة من الأخلاق — مهما كان مبلغه — يضمنان المجتمع ، حين تُلح عليه أمثال تلك الظروف الانقلابية ، وما كان يصحبهما من نواجح وكوارث ، تقلب الأوضاع رأسا على عقب ، في يوم أو بعض يوم ، بحصانته من السلبيات المعهودة ، والآفات التي كثيرا ما تجد طريقهما السهل الى صفوف المجتمع في مثل هذه الأحوال .

والحق أنه كما قويت دواعي التلاحم ، والتضامن ، والتمسك بحبل الجماعة ، والبحث عن صلاحها ، كثرت في الوقت نفسه الأسباب المستحثة على الأنانية ، والكسب الحرام ، والإعراض عن أخلاق المروءة النبيلة ، والتنكر للصداقة ، والانسياق في تيارات النفاق والخداع الجارفة ، والتهافت على أصحاب المراتب والمناصب . وكان من نتائج هذه الحوادث ومضاعفاتها الاجتماعية أن استنسر الذباب ، واستأسدت الثعالب ، وساد سفهاء الناس وجبناؤهم ، فارتفعت الى أجواز السماء ، وتسلمت المراتب العليا خلا يُشَقّ من البشر : منحطة الأخلاق ، دنيّة الطبيعة ، وجدت نفسها ، على حين غرة ، في مراتب لم تكن تخطر لها على مجرد البال ، فأساءت التصرف في البلاد ، وأساءت معاملة البقية الباقية من أفذاذ الرجال الذين أظلمت آفاق دنياهم ، وعبست في وجوههم أيامهم ، فمنهم من ذاق ويلات البؤس ، ومرارة الجوع والحرمان ، ومنهم من دفعته ضرورات الحياة دفعا الى التقرب من أولائك الكبراء المتغطرسين ، فعاملوهم معاملة اللؤماء الأراذل ....

ومهما يكن من أمر ، فان النثر ، في هذه الفترة ، كان آلة تسجيل حسّاسة ، استطاعت أن ترصد سيلا من الانفعالات والمشاعر الغنية المتنوعة . فقد وقف الى جانب الصداقة يذود عن حرمتها لأنها واحدة من أبرز ظواهر الاجتماع الانساني . فتغنى بها ، ووصف أجمل لحظاتها ، ودعا الى تعاطي أصفى وأحلى كؤوسها . فاذا طغت الغرائز الحيوانية ، واضمحلّت انسانية الانسان ، وتغلبت نواحي البهيمة فيه ، وأزرى تصرفه بأنقى وأرقى ما فطر الله الانسان عليه : المودة الصادقة ، والسعي الى خير الجماعة ، وقف النثر يدافع من القيم النبيلة ، ويرد عنها السهام الجائرة .

وكم سعى النثر الى توطيد علاقات المودة بين الناس ، ونشر أعلام التراحم بينهم ، فهنّأ في مختلف المناسبات التي يسر بها الناس ويسعدون ، وعزّى في كل أنواع المصائب الداهمة ، والمناسبات الباعثة على الحزن والاكتئاب .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن ناحية أخرى ، تحسس النثر — بصفة واسعة — كل ما ولدته تلك الظروف التاريخية المشار اليها ، من دواعي الضيق والحرج عند جماعات كثيرة من الأقران والزملاء ، وسائر الناس الذين طوّحت بهم النوائب وبشرتهم في كل الأصقاع ، فأوصى بهم أصحاب الجاه والسلطان ، وحث على اكرامهم ، ودعا الى توسيع مضائقهم ، وفرج بعض كربهم ، لتخفيف ما يعانونه من البؤس والحرمان ، في ظروف قاتلة من الضياع والاغتراب . فخط الأدب النثري بذلك ، أجمل الصفحات في سجل التضامن الذي مبعثه العاطفة الانسانية ، والشعور بوحدة المنتمى ، فدلّ على أن الأدب يستطيع أن يرتفع بأصحابه الى هذه المراتب العليا من النبل والخلق القويم .

وكما وجدنا النثر يرصد الخير، فينبه اليه ، ويحث عليه ، ويمدح به ، فقد رصد بنفس الحرارة والوعي السلوكات السلبية ، والتصرفات الجانحة ، فحذّر وعد حين أن يكفي لردعها مجرد التحذير والوعيد ، فاذا لم يسر ذلك مجديا سلك سبيل التهديد الشديد ، يقرّع المتنكرين للصداقة ، والمنسلخين من عقد المودة ، يجلدهم بسياط ملهبة من اللّوم والتوبيخ . وقد ينقلب العتاب الى هجاء صريح ، يجسد الذنوب ، ويظهر المهجوين في صورة كريهة من أثر ما ألحقه بها من المسخ والتشويه ، مصورة تدعو — في أكثر الأحيان — الى الاشفاق عليهم ، ان لم يكن الى الضحك منهم والسخرية بهم .

وخلاصة الرأي عندنا ، أن الأدب النثري قد أبقى صفحات خالدة في هذا السجل الاجتماعي من تاريخ الأندلس . ونحن اذا استثنينا عددا من المناسبات التي كان التجامل الاجتماعي فيها يجرى وفق المناهج التقليدية ، التي لا مجال فيها للتعبير عن مشاعر النفس وخلجاتها الحميمة ، فانه قد عبّر — في سائر ما لدينا من النماذج — بحرارة ، وعمق ، ونزاهة ، عن أنبل المشاعر الانسانية ، ووصف تلك اللحظات المشحونة بانفعالات الحقد والتسامح ، والغضب والرضى ، والرجاء واليأس ، التي مرّ بها الناس في ذلك الزمن الطافح بالأزمات ، الحافل بأنواع الكوارث والملمّات .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

البحر الاستمراري

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

النثر الاستعراضي

دار كل واحد من الفصول الثلاثة الأولى من هذا الباب على مضامين متجانسة من حيث طبيعتها ، اذ تلتقي الأغراض الأدبية فيها ، وان تعددت ، عند هدف كبير واحد ، تسعى كلّها الى بلوغه .

أما المضامين التي تأوي الى العنوان الذي اخترناه لهذا الفصل ، فانها لا تتمتع بمثل هذا القدر من الانسجام ، في الظاهر . ومرجع ذلك الى أن النثر في العصر الذي نؤرخه — قد بلغ حدّا من التنوع ، والتفرع ، جعله يستعصي على الحصر ، ويضيق بذلك التصنيف التقليدي الذي لم يكن يرى فيه الا طبيعته الديوانية الرسمية ، أو مناحيه الاخوانية الاجتماعية .

واذ كان واضحا أنه يتعين علينا أن نحرص على استقراء كل ما نظفر به من مظاهر الأدب النثري ، في أقصى ما يُتاح لنا الوقوف عليه من نماذجه ، أكثر من الحرص على مجرد توزيع تلك النصوص على عدد محدّد من الفصول ، فاننا لم نحتفل كثيرا بما قد يفضي اليه هذا المنهج ، في هذا الفصل وفي غيره من الفصول ، من مجافاة للتقسيم الشائع ، وخروج عن العناوين المألوفة ، وتجاوز للتصنيفات المعتادة . . .

وهكذا ، فبعد استفراغنا القول في المضامين الثلاثة الكبرى التي أدرنا عليها الفصول المتقدمة ، وجدنا أمامنا طائفة معتبرة من النصوص ، لا يمكن أن ندرجها بصفة منطقية في أيّ واحد من هاتيك الفصول . ولم يكن بوسعنا أن نهمل هذه النماذج فنضرب عنها صفحا لما تتميز به من أهمية المضمون ، وطرافة المحتوى ، اذ يتناول قسم كبير منها موضوعات جديدة ، بل ان بعضها يعد من المكاسب الملحوظة للأدب النثري ، وواحدا من أهم ملامحه ، وأبرز سماته في هذا العصر .

ولقد أطلنا الوقوف عند هذه النصوص بالذات ، وتروّينا في جوهر محتوياتها ، فتبيّن لنا بشكل جلي أنها ، على ما بينها من اختلاف لا مراء فيه ، تنزع كلها منزعا استعراضيا واضحا ، أبرز ما فيه جنوحها الى التعويل على المجادلة والاحتجاج ، وميلها الى حشد الأدلة والبراهين ، أو النعوت والأوصاف لتصوير حالة مادية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجسدة ، أو تصرفات معنوية مجرّدة ، وكل ذلك لبلوغ التأثير في النفس ، أو الانتصار للرّأي ، أو تعليل موقف ، أو الاقناع بصواب رأي ما ....

ومعلوم أن القالب العام قد يأتي ، في بعض الأحيان ، ذا طابع وصفي . ذلك أن العرض ، كيفما كان ، لايخلو من معطيات وصفية . ولكن ، شتان بين حالات الوصف الصريح التي يقصد بها رسم صورة واضحة المعالم لكائن ما ، في الاحياء أو الجمادات ، نريد تقريب صورته من الأذهان ، وبين مختلف الحالات الاستعراضية الأخرى التي لا تندرج ضمن الاطار الوصفي بالضرورة ، وان استخدمت بعض أدواته الفنية ، وسيتبين لنا ذلك جليّا عندما نتناول بالتفصيل المحاور الثلاثة الرئيسية التي ارتأينا أن ندير عليها هذا الفصل والتي هي :

1 — الشعر الوصفي
2 — شعر المعارضات والمفاخرات
3 — شعر الوعظ والاصلاح .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 — النثر الوصفي

من أقدم أغراض " الكلام " لدى كل الأجناس البشرية : الحديث عن المشاهد الغائبة التي يراد نقل " صورتها " الى من لم يرها من الناس . فالذى يحكي عن واقعة من الوقائع ، أو يروي حادثة من الحوادث ، ذاكرا خصائص المكان الذي تمّت فيه ، ناعتا هيأة الذين شاركوا في تلك الوقعة أو الحادثة ، وماكان بأيديهم من أدوات ، وما صدر عنهم من أقوال أو أفعال . . . انما يمارس في الحقيقة صورة من صور الوصف . فاذا أتاح له تطور اللغة ، ونضج المسيرة الحضارية أن يتأنق في ذلك النقل ، بأن يستعمل له " فنيات " خاصة تحدث له صدًى في النفوس ، وتأثيرا في القلوب ، وتتجاوز به مجرّد الافادة الى إكساب المتعة الجمالية . . . كان ذلك أدبا وصفيا بأدق معاني الكلمة .

وهكذا يمكن أن يكون " الوصف " ، بأبسط معانيه ، من أقدم أغراض النثر الأدبي ، لأنه ، كما رأينا ، واحد من الأغراض الرئيسية للكلام ، بوجه عام . والواقع أن النثر الوصفي — بهذا المعنى — قد وجد في الأندلس منذ بداية الانشاء فيها . أما النثر الوصفي ، ذو الطابع الفني ، المكتمل الأدوات ، الذى يغلب فيه جانب الامتاع الجمالي على جانب تحقيق المنفعة الاخبارية . . . فانه لم يبدأ الا أواخر القرن الرابع الهجرى . ثم نُهِّجَت سبلُه في القرن الخامس ، وبلغ عندئذ أقصى مراميه .

ولما كان من باب المتعذّر أن نحاول الاحاطة بكل تفاصيل الأدب الوصفي في هذا العصر ، لكثرة نصوصه ، وتنوعها ، فانه يتعين علينا أن نقف عند عدد من النماذج ، تتمثل فيها الأغراض الكبرى لهذا النثر . ويمكن تلخيصها في ثلاث اتجاهات هي :

أ — وصف المحيط الطبيعي
ب — وصف الحالات النفسية والأوضاع الانفعالية
ج — وصف المسالك والممالك .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ — في وصف المحيط الطبيعي وأدواته

سحرت الطبيعة الانسان العربي منذ أقدم حقب تاريخه . وكان من علامات هذا السحر ، اعجابه الشديد بمظاهرها المختلفة ، حتى انه عبر عن الاحساس العميق بجمالها في أقدم ماوصل الينا من آثاره الأدبية .

ثم جاء العرب الى الأندلس ، فوجدوا فيها طبيعة تغاير ماألفوه في بلادهم ، فتذوقوا هذا الجمال الطارئ ، وتغنوا به في أشعارهم . وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، فان الشعر والطبيعة توأمان لانظنّ أنهما افترقا طويلا لدى أمة من الأمم . انما الجديد على الأدب العربي في الأندلس هو أن ينافس النثرُ الفنيُّ الشِّعرَ في مثل هذا الميدان الذي كان مختصا به ، حتى غدا حكرا عليه .

وقد رأينا كيف بدأ النثر يقترب من هذه المجالات على استحياء في أخريات القرن الرابع . أما في القرن الخامس فلقد تناول الانشاء وصف الطبيعة تناولا واسعا حتى وجدنا هذا الوصف يمازج الكثير من الأغراض المتصلة بحياة اللهو والفراغ التي كنا وقفنا عند جانب منها ، عند الحديث عن المجالس التي كانت تعقد لشرب الخمر وسماع الموسيقى في الحدائق والمروج .

وقد لانبعد عن الصواب اذا ذهبنا الى أن للمطر — من بين كافة المظاهر الطبيعية — مكانة خاصة في تصورات العربي ، ومنزلة متميزة في سلم قيمه الجمالية . ذلك أن المطر في البيئة العربية الأولى كان يعني الحياة — ولذلك سموه (غيثا / حيا) — ، بينما يعني انقطاعه الموت المحقق ، والفناء المؤكد . فاذا كان في الماء معنى الحياة لكل الناس ، في كل مكان ، فانه عند العربي بديهية تتصل بالذات ، وحقيقة بسيطة يعانيها بنفسه ، ويقف على صدقها كل يوم . وقد وصف الشعر العربي المطر في أقدم ماوصل الينا من نماذجه (1) . ولكن الذي لايخلو من طرافة هو أن نجد للأندلسيين في القرن الخامس عناية ملحوظة بوصف المطر ، تجاوزت الشعر الى النثر ، حيث نرى ثلاثة من ألمع الكتاب يتنافسون على ذكر ما يكون للغيث من أثر بعد القحط والجفاف .

---

(1) انظر معلقة امرئ القيس ابتداء من قوله : " أصاح ترى برقا أُريكَ وَميضَهُ .. الخ . . . "

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد سبق الأديب أبو القاسم بن الجد [1] الى هذا الغرض حين أنشأ فيه رسالة ابتدأها بالحديث عن الحكمة الالهية وأسرارها في العباد . ثم أخذ يصف ما أشاعه القحط من علامات الحزن في الطبيعة فقال : " ولما ساءت بتشبيط الغيث الظنون، وانقبض بتبسط الشك اليقين، واسترابت حيا من الوهاد، بعهود العهاد، وأصبحت رياض النجاد، لبرود الحداد، واكتحلت أجفان الأزهار، بإثمد النقع المُثار، وتعطلت الأنوار من حلي الديمة المدرار ".. [2]

لقد جاء الحزن شاملا لكل بقعة كانت مكانا للبهجة ، وكل نبتة كانت مصدرا للسعادة والسرور. وهو وصف لا يتناول أبدا كآبة الانسان بصفة مباشرة ، وانما يصورها لنا أدق تصوير حين ينشر هذه الاعلام السوداء من الحيرة والحزن على كل المعالم التي ترمز الى حبوره وهنائه .

ثم ترتفع في الآفاق بشائر الخلاص التي تأتي الرحمة الحميمة في موكبها الجليل ، فيحدثنا عن ذلك بقوله : " أرسل الله تعالى بين يدي رحمته ريحا بليلة الجناح ، سريعة الإلقاح ، فنظمت عقود السحاب نظم السخاب .... " ثم انهمرت الأمطار ، فلا يطيل الكاتب في هذه المقدمات وانما يستعجل الوصول الى ما خلفه هذا الغيث من آثارٍ في الطبيعة وقد تقابلت دموع المطر بضحكات الروض . قال : " فاستغربت الرياض ضحكا ببكائها ، وامتزت زفات النبات طربا لتغريد مكائها .... وخيل للعيون أن زواهر النجوم قد طلعت من مواقع التخوم . " [3]

واذْ كان غرض وصف المطر ، والحديث عن آثاره في الطبيعة يرتبط بذكريات العرب، وماضي حياتهم في مهدهم الأول : الجزيرة العربية ، فان الكاتب ينغمس في هذا الاطار الطبيعي ، ويعبر فنّيا عن هذا الانغماس باستعارة صوره من محيط العرب الأصلي ، واذا بالأديب يقول في تشبيه ما أحدثه المطر من أثرٍ في المنازل الأندلسية :

---

(1) محمد بن عبد الله بن يحي بن فرج بن الجد : كاتب فقيه ، وزير في دولة المعتمد ثم تفرغ للقضاء في بلدته " لبلة " . توفي سنة 515 . وانظر أخباره ذ : 2/1، ص : 235 وهامش المحقق فيها .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 239 .

(3) نفسه ، ص : 290 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" كأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بساطا مُفـوّفا ، وأهدت اليها من زخارف بزهـا ومطارف وشيهـا ألطافا وتحفا ". أليس عجيبـا أن لا يجد ابن الجد ما يشبه بـه جنة الأرض الأندلسية غِبّ الأمطار المُحْيِيَـة الا سوق صنعاء الأغبر وما فيـه مـن الأقمشـة ذات الأصباغ والألوان المختلفة ؟ ولكنـه المضمون الضارب بجذوره فـي أعماق الذاكرة الجماعيـة للعرب يجر معه الأساليب البلاغيـة ، والأدوات الفنيـة المرتبطـة به منذ أن قال امرؤ القيـس : " نزولَ اليماني ذي العِيَابِ المُحَمَّل "(1).

ويختم ابن الجد هذه الرسالة بوصف السعادة التي غمرت النفوس عقب نزول الغيث في نبرات شعريـة رائعة . يقول : " فيا برد موقعها على القلوب والأكباد ، ويا خلوص ريها الى غلل النفوس الصَّوَاد . كأنما استعارت نفوس الأحباب ، أو ترشفت شنبـا من الثنايـا العذاب ، أو تحملت ماء الوصال الى نار البلبال ، أو سرت على أنـداء الأسحار ، وريحان الآصال "(2).

ان المعاني التي تضمنتها هذه الفقرة أشبه بالشعر ، وأقرب الى طريقته ، ولكنه نثر القرن الخامس حين يعبر عن هذه المعاني الرقيقـة ، يغدو شعرا خالصا دون أن يحتاج الى الأوزان ...

والذي يبدو هو أن رسالة أبي القاسم هذه قد نالت ضربا من الشهرة لدى الكتاب المعاصرين ، اذ وجدنا أديبا كبيرا هو أبو عمر بن الباجي(3) يلاحظها بعـين الاعجاب ، وينشـيء في معارضتها رسالة على منوالها ، تتحدث عن سقوط المطر بعـد قحط طويل . وهو يبدؤها بذكر الحكمة في التصرفات الالهية ، ذات العدالة المطلقـة تماما كما فعل أبو القاسم بن الجد ، فيقول في ذلك : " ان لله تعالى قضايا واقعـة بالعدل ، وعطايا جامعة للفضل ، ومنحا يبسطها اذا شاء انعاما وترفيها ويقبضها اذا أراد الهامـا وتنبيهـا "(4).

---

(1) البيت في المعلقة ، عن " شرح المعلقات السبع " للزوزني ، كما يلي :
والقى بصحراء الغَبيطِ بَعاعَه .·. نزولَ اليَماني ذي العِيابِ المُحَمَّـل .
ويقصد باليماني : التاجر اليماني المحمل بالعياب وهي الثياب .

(2) ذ : 1/2 ، ص : 290 .

(3) أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي : أديب عاش في بلاد ابن هود المقتدر صاحب سرقسطة . انظر ذ : 1/2 ، ص : 136 .

(4) ذ : 1/2 ، ص : 196 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويترسم خطى الرسالة التي يعارضها فيشرع في ذكر آثار الجفاف البادية على مشاعر الانسان ومعالم الطبيعة . فلقد كان من انحباس المطر " ما ريع به الآمن ، واستُطير به الساكن ، ورجفت الاكباد فزعا ، وذهلت الألباب جزعا ، . . . . واكتست الرياض غبرة بعد خضرة ، ولبست شحوبا بعد نضرة ، وكادت برود السماء تُطوى ، ومدود نعم الله تُزْوَى "(1).

وواضح أن المعاني هنا هي نفس المعاني هناك ، فالمقصود في الحالين هو بيان مدى ما ألمّ بالانسان من حيرة من جرّاء امساك السقيا ، وما أصاب الحقول والرياض من زوال معالم حسنها وآيات جمالها ، على أنه ينبغي أن نلاحظ أن " النفس الشعري " أوضح في رسالة ابن الجد منه في كلام ابن الباجي .

ثم يعبر الكاتب الى القسم الرئيسي من كتابه وهو وصف ما آلت اليه الأحوال حين استجابت السماء لآمال الخلق ، وجاءت الرحمة الالهية بالغيث العميم ، فيقول في ذلك : " ثم نشر تعالى رحمته ، وبسط نعمته ، وأتاح منته ، وأزاح محنته ، فبعث الرياح لَوَاقِحَ ، وأرسل الغمام سوافح ، بماء دفق ، ورواء غدق ، من سماء طبق ، استهل جفنها فدمع ، وسمح دمعها فهمع . . . . فزينة الأرض مشهورة ، وحلة الزهر منشورة ، . . . . والوجوه ضاحكة بعد عبوسها ، وآثار الجزع مَمْحُوَّة ، وسور الشكر متلوة . . . . "(2)

وتنتهي رسالة ابن الباجي بعبارات قصيرة في الدعاء ، شأنها في ذلك شأن الرسائل المتقدمة عليها . ونحن نرى أنها جاءت دونها في وصف المشاعر والتعبير عن صور الطبيعة في حالي حزنها وحبورها . ويكفي لتبين ذلك أن نقارن بين نعت ابن الباجي لمحاسن النبات بعد نزول الغيث ، ومثل ذلك النعت عند ابن الجد . ولسنا ندرى الى أيّ شيء ينبغي أن نرجع هذا ؟ فان الرجلين يعدان من الشعراء ، وقد روى لهما صاحب الذخيرة نماذج من شعرهما (3).

---

(1) ذ / 2 / 1 ، ص : 196 .

(2) نفسه .

(3) انظر شيئا من شعر ابن الباجي في ذ : 2/1 ، ص : 197 ، وابن الجد في ص : 313 منه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما المعارض الآخر لرسالة ابن الجد، فهو الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور[1] والحق أنه يعارض الرسالتين المتقدمتين معا، وذلك ما يفهم من قول ابن بسام في التقديم لانشائه: "وعرضت عليه رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمتين في صفة المطر بعد القحط فعارضهما برقعة "[2].

والرسالة تتقيد — بوجه عام — بمخطط الرسالتين السابقتين، ولكنها تختلف عنهما في البنية التي تظهر بها، والهندسة التي تقوم عليها. من ذلك أنه يبدأ كزميليه بالاشارة الى الحكمة الالهية في طوايا التصرفات الكونية التي يلاحظها البشر، الا أنه يخرجها مخرج الاجلال لعظمته سبحانه وتعالى، ويبين من غموض أسرارها على الناس مالانجد مثله في الرسالتين السابقتين. من ذلك قوله: "ولله جلت عظمته أوامر تحيل المنيرة عن طباعها، وتسلب من حصى المعزاء فضل شعاعها .... لا تلحق بسوابق الرهان، في ميادين الأذهان، ولا تدرك بقداح القمار، من محليات الابصار، تطلع الملح من ثنايا المحن ... حكمة بهرت حقيقتها زواهر الأفكار ...."[3]

ان المدقق في ما كتبه أبو محمد عبد الغفور يتجلى له الفرق بينه وبين صاحبيه من وجهين: أحدهما هو ذلك التصرف في مخطط النص كما كنا أشرنا اليه، والثاني هو عنايته بالتدقيق والتفصيل، وحرصه على استقصاء المعاني التي يكتفي زميلاه بالالمام العابر بها.

ولنقف مثلا عند القسم الثاني من رسالته، وهو الذي يدور على بيان ما لحق الناس والطبيعة من الحزن هنا، والذبول هناك، نتيجة لاحتباس الحيا، والحاح الجفاف. فأول ما نلاحظ فيه أنه يفتتحه بحمد الله وشكره على أن اتاح نزول المطر بعد مدة القحط التي ألحقت ضررا كبيرا بالخلق والطبيعة. ومن هنا يأخذ في وصف هذه الأضرار، فيقول على سبيل المثال: "وان أحق النعم بالشكر .... نعمى أحييت

---

(1) الوزير الكاتب أبو محمد عبد الغفور، ابن ذي الوزارتين الكاتب أبي القاسم محمد بن عبد الغفور، الذي كان صاحب المعتمد. وقد نشأ أبو محمد في دولة المعتمد وبعد زوالها ايد وأنه خدم دولة المرابطين فقد شوهد في مراكش سنة 531. وانظر ذ: 2/1، ص: 325، وهامش المحقق فيها.
(2) ذ: 2/1، ص: 342.
(3) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالسقيا أرضا مواتا .... وقد غبط طير الماء ضباب اليَهْماء، وحجب كاسف الرجاء نيرات النعماء، وشابت بفارق الرياض، وغاضت مفعمات الحياض .... وباتت أزهار الغيطان، عليلات الأجفان، تستسقي نجوم السماء، وتتوسل بالشبه الى ذوات الانواء ...."(1)

وتتميز معاني هذه الرسالة، في هذا القسم وفي غيره بشيء من الغموض، لأن صاحبها يبالغ في التعمق فيفضي الى الابهام والتعمية. فهو في القسم الثالث يصف نزول المطر بهذه الطريقة المشوبة بشيء من الغموض فيقول: "أُرسل الله تلك النعمة، بين يدي الرحمة، ريحا لينةَ هبوبِ النسيم، في الروض المشيم، شديدة حفز الغمائم لتدارك مافي الكمائم ... فلما لمت قزعها، ووصلت بقدرة الخلاّق قطعها، سفحت عيون تلك النجوم .... رحمةً لعليل النبات، ورقة لأليل المُهجَات...."(2)

أما ما تركه هذا المطر من الآثار الحميدة في الأرض والطير والناس، فيحدثنا عنه بقوله: "وضحك ثغر الروض بعد عبوس، ونقل الى سعة الرحمة من ضنك البوس، وسحبت فواهق الأنهار مذانبها ونشرت عرائس الأزهار ذوائبها ... فترمي الذاهس برباها، وتحيّي النائم وما حياها .... وقام من مترنم الأطيار على منابر الأشجار خطيب يتلو ما حبّر من الثناء على سابغ النعماء ... فيالها نعمة ما أحسن موقعها، ورحمة ما ألطف محلّها من النفوس وموضعها، لقد بردّت حرّ الأكباد، وشفت غليل القلوب الصّواد ... الخ"(3)

وهو قسم تضاهي الروح الشاعرية فيه روح ابن الجد، ملهم هذه المعارضات، واذا بدا لنا أبو محمد أكثر غوصا على الأفكار، وأكثر اجهادا لنفسه في سبيل الحصول عليها، فاذا هي تأتي جميلة عميقة يلفها شيء من ضباب الغموض.

وتنتهي الرسالة، كما انتهت سابقتاها، بعبارات قصيرة في حمد الله وشكره على ما أنعم به وأسداه.

والذى ينبغي أن نستخلصه من هذه الرسائل الثلاث أن المضمون فيها يبدو منفصم الصلة بالواقع، مبتور العلاقة به، لايدل على قحط معين، ولا على مطر محدد

---

(1) ذ: 2/1، ص: 343.

(2) نفسه. (3) نفسه، ص: 344.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وانما هي حالة من الجفاف يمكن أن تكون في أية بقعة من أراضي العرب الشاسعة المترامية ، أعقبتها حالة من المطر يمكن أيضا أن تصدق على أصقاع لا تحصى من بلاد الله الفسيحة ، وحتى لو سلمنا بأن انشاء ابن الجد ، باعث هذا الوصف ، يدل على شيء واقع في بيئته ، فان الكاتب كان مشدودا الى معاني عامة يريد أن يظهر من خلالها انتقال الطبيعة من حال الى حال ، أكثر من عنايته بوصف قحط جاء بعده غيث نافع في مكان بعينه من البيئة الأندلسية المتميزة . أما مُعَارِضاه ابن الباجي ، وابن عبد الغفور ، فمن الواضح أنهما طرفان في منافسة فنية بحتة : لا صلة لها بقحط ولا بغيث حقيقيين[1] . ولو بحثنا عن وصف أصيل لطبيعة الأندلس في الأدب النثري لوجدنا واحدا من أجمل نماذجه في رسالة ابن الدباغ[2] .

كان الأديب أبو المطرف بن الدباغ قد أقلع عن شرب الخمر، فصرف نفسه عنها ، وعن الجماعات التي تتعاطاها ، ولكنه لم يحرم نفسه ، ذات الوثبات الشعرية ، من المحيط الطبيعي الجميل الذي كانت تنعقد في اطاره مجالسها . ولذلك بقي يتردد على الخمائل والمروج ، وكتب منها ذات يوم الى جماعة من قدماء الأصدقاء العاكفين على معاقرة العُقار، فقال : " كتابي هذا من وادي الزيتون ، ونحن فيه محتلون ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع الزهر ، وتخايلت بأنهار تتخلّلها وأشجار تظللها ، تحجب أدواحها الشمس لالتفافها ، وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها ، وما شئتم من محاسن تروق وتحجب ، وأطيار تتجاوب بألحان تُلهي وتُطرب . . . . "[3]

---

(1) ولكن ليس معنى ذلك أن الأديب لا يَصدُق وصفه أو يَحْسُن الا اذا كان متصلا بما وقع تحت حواسه، انما الواقعية التي نقصدها شيء آخر ، تتمثل بخاصة في القدرة على تصور الوقوع المراد وصفه .

(2) أبو المطرف ، عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ وزير كاتب في دولة المقتدر بن هود فحدثت بينهما وحشة ، ففرّ بسببها الى اشبيلية ، ولم تصلح حاله مع وزير المعتمد : ابن عمار فالتحق بالمتوكل في بطليوس .

(3) ذ : 3/1 ، ص : 232 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان أول مايسترقفنا في هذه القطعة أن صاحبها يقول فيها متحدثا عن وادي الزيتون الذى يصفه : " ونحن فيه محتلون" مما يوحي بأن الناس كانوا يخرجون في جماعات الى هذه الحدائق الغناء ، والمروج الخضراء ، ويعقدون فيها مجالس ليست الخمر من شروطها . والذى يرجح عندنا ان ابن الدباغ لم يكن وحده في وادى الزيتون عبارته السابقة التي فيها " نحن" ، والتي لا تدل في رأينا على ضمير المعظم نفسه لأن الرسالة قد بدأت بقوله : "كتابي " ولو كان يعظم نفسه ويتحدث عنها بضمير الجمع لقال : "كتابنا " .

أما اذ عدنا الى المضامين المتصلة اتصالا وثيقا بالوصف فالذى يبدو ظاهرا للعيان أن طبيعة ابن الدباغ طبيعة "مَتْلُومة " ، ذات هُوِيَّة تميزها ، و"شخصية" واضحة السمات : فهي ذات أنهار تتخللها ، وأشجارها تحجب الشمس ولكنها تأذن للنسيم بأن يهبّ من خلالها . وهي بالاضافة الى هذه الحيوية مأوى للأطيار التي تشترك، بتجاوب الالحان، في اكسابهذه الطبيعة ما ينبغي لها من انسجام يمنح المشهد كله ذلك الاحساس بالراحة والسعادة اللتين يطلبهما كل من يقصد الطبيعة ، ويلوذ بها ....

فلعله استبان لنا الفرق الكبير الذى أشرنا اليه بين الرسائل الثلاث التي وصفت الطبيعة من خلال نزول الغيث بعد القحط ، وبين هذه الرسالة في وصف مقطع حي من الطبيعة الأندلسية المتأنقة ... على أنه ينبغي أن نعرف أننا قلما نجد — في النثر — وصفا مستقلا للطبيعة ومشاهدها المختلفة ، مثلما نجد ذلك في الشعر . وأكثر مايكون منه في النثر، انما يأتي في سياق أغراض أخرى ، لعل أشهرها وصف مجالس اللهو التي تقدّم الحديث عنها في فصل سابق .

* في وصف بعض أنواع الحيوان

وكما وصف الكتّاب مثل هذه المناظر الطبيعية ، فانهم وصفوا أيضا ما في محيطهم من المخلوقات الأليفة أو التي يسخّرونها لأغراض منفعتهم ولهوهم ، كالطيور الجارحة التي يستخدمونها في الصيد والقنص ، والتي منها هذا الطائر القناص الذى يصفه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ابن خفاجة [1] بقوله : " ... طائر يستدل بظاهر صفاته ، على كرم ذاته ، طورا ينظر نظر الخيلاء في عطفه ، كأنما يزهى منه جبار ، وطورا يرمي نحو السماء بطرفه ، كأنما له هنالك اعتبار ". [2]

هذا الجانب من وصفه يتناول هيأته العامة ، وأصالة ذاته التي تترجم عنها تصرفاته ذات الهيبة والجلال . ويحد أن يلخص الكاتب في عبارات قليلة مبلغ قدرته على أداء الوظيفة التي يقتنى من أجلها : " وأخلق به أن ينقض على قنصه شهابا ، ويلوي به ذهابا ، ويحرقه توقدا والتهابا " يأخذ في تفصيل نعوته الجسدية والروحية ، مازجا بينها هذا المزج الطريف الذي يكاد ينسينا أن الكاتب انما يصف لنا واحدا من الطيور وليس فارسا مغوارا تحرّكه ، في معركة حاسمة ، مُثُل عليا ، وأهداف انسانية نبيلة ....

يقول ابن خفاجة في هذا الطير : " قد بعثت به سابغ الذنابي والجناح ، كفيلا في مطالبه بالنجاح ، حميد العين والأثر ، حديد السمع والبصر ، يكاد يحس بما يجري ببال ، ويسري من خيال ، قد جمع بين عزة مليك وطاعة مملوك ، لَوْ سُبِكَ له النجمُ قنصا ، أو جرى بذكره البرق قَصَصا ، لاختطفه أسرعَ من لحظة .... قد أقسم بشرف جوهره ، وكرم عنصره ، لا توجّه مُسفِرا ، الا غادر قنيصه مُعَفَّرا ، وآب الى مُرسِله مظفّرا ، مورّد المخلب والمنقار ، كأنما أختضب بحِنّاءٍ ، وكَرَع في عُقار " [3].

هذه ليست ملامح كل طير جارح ، وانما هي ملامح هذا القنّاص بعينه الذي أرسله ابن خفاجة الى صاحبه . وهو كما لاحظنا ذو سمات دقيقة ، وقد خلع عليه الكاتب من الأوصاف ما جعله أميرا في فصيلته من الطيور ، وهو يتمتع بخصال روحية تقرّبه الى الصور البشرية المحبّبة ... ولا عجب أن يكون هذا شأن موصوفات ابن خفاجة فانه من أقدر الأندلسيين على الوصف شعرا ونثرا .

---

(1) أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة جنان الأندلس ، وواصف طبيعتها الخلابة في منثوره ومنظومه . توفي سنة 533 هـ وقد تنسك وتاب بعد خلاعة ومجون . وانظر ذ : 3 / 2 ، ص : 541 .

(2) ذ : 3 / 2 ، ص : 645 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* في وصف بعض الأدوات :

وكما وصف النثر الأندلسي المحيط الطبيعي وظواهره ، والحيوان الذى سخره الانسان لمآربه ، فانه وصف أيضا بعض الأدوات التي تستخدم في الحياة اليومية . من ذلك ما ورد في صفة السوط ، وهو — في حدود ما نعلم — لم يحظ بعناية سابقة ولا لاحقة من قبل الأدباء ، فانه ليس من الأدوات ذات " الوجه " الأدبي ان صح التعبير ، فلا هو مما يستخدمه الجمهور الواسع من الناس ، ولا هو مما يصلح أن يتضمن معنى رمزيا يوظفه الأدباء في غرض من الأغراض ، ومع ذلك وُجد في هذا العصر من يصفه .

ونحن حين نقرأ مقدمة الرسالة التي ورد فيها هذا الوصف نتبين أن الكاتب انما هو يتحدث عن سوط قدمه هدية الى الفقيه الذى يخاطبه ، فلذلك نعته في رقعته .

والنص الذى فيه هذا الوصف لأبي عبدالله الظّفري[1] . ويقول صاحب الذخيرة أن هذا السوط " يُجاَب لحث الخيل من المغرب "[2] . وفيه يقول الكاتب : " وتوأم هذا الجواب — أعزك الله — البعثة بالمِحَثّة ، وقد تخيرتها عقيلة أتراب كريمة أصحاب ، تسمو بالنسب البحري ، وتنتسب بالنصاب الملوكي . قد أشبهت سبائك الحرير لمسا ، واشتُقّ اسمها منه ، ودعج الآبنوس لبسا ، محكيّ لونها عليه ، كأنما استُلّت من ظهر حيّة .... أبهى في أيدي الصِّيد ، من طُرَر الغِيد ، وأحسن على أعناق الجرد ، من قطاطي المرد ... "[3]

وهكذا نرى أن هذا الوصف ليس غرضا مقصودا لذاته وانما شاء هذا الأديب أن يُطرِف صديقا له ويُتحِفه بهذا السوط ذي النوعية الجيدة ، المستورد من بلاد المغرب ، فقدمه له هدية ، وبعث معه برقعة يتحدث في بعض فقراتها عن هذه " المحثة " بأسلوب بارد ، عديم القدرة على الاثارة ، لأن الموضوع لم يستخدم ذلك الاستخدام الرمزي القادر على التأثير .

---

(1) هو أبوعبدالله محمد بن مالك الظّفري ، من أدباء غرناطة . وقد ذكر ابن بسام أنه لم يقف له على نماذج كثيرة من أدبه وانه مع ذلك "صدر أديب ذو حفظ كثير ، وأدب غزير " ذ : 2/1 ، ص : 805 .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 805 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووجدنا لابن برد الأصغر[1] كلاما في وصف القلم والمداد والكتابة وهي موضوعات غنية للغاية بالمعاني المعبرة لما ترمز اليه من المثاليات في مسيرة الانسان الحضارية ، وما يتصل بها من قيم العلم والقراءة والكتابة ذات المحتويات المقدسة لما ترتبط به لدى المسلمين بشكل خاص — من الدلالات الدينية ، والاشارات القرآنية . ولكن الذي كان بمثابة المفاجأة، أننا لم نر كلام ابن برد يرتفع الى مستوى هذه المعاني العظيمة ، بل ظل مشدودا الى الأرض ، مقيدا بكبل ثقيل يمسح عنه كل حيوية ، ويحرمه من عناصر التأثير الحقيقي في النفس .

لقد جاء كلام ابن برد الأصغر في شكل عبارات قصيرة متتابعة ، كأنها أمثال تضرب ، وذلك على هذا النحو :

— " الكتاب من حلية الملائكة ، قال الله تعالى : " كراما كاتبين ، يعلمون ما تفعلون "[1] .
— " المداد كالبحر والقلم كالغواص ، واللفظ كالجوهر ، والقرطاس كالسلك .
— " الدواة كالقلب ، والقلم كالخاطر ، والصحيفة كاللسان . . . .
— " ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة ويلفظ نورا . . . .
— " لولا القلم ما عبئت كتائب ، ولا سريت مقانب ، ولا انتضيت سيوف ، ولا ازدلفت صفوف "[2] .

ان الكثير من المعاني الجيدة التي ترد على الخاطر عند ذكر القلم والحبر والكتابة . . . قد أشار اليها الأديب ابن برد في هذه الأقوال ، ولكن الذى قصر به أنه لم يستخدم طريقة الانشاء الاسترسالي ، الذى هو الملائم لطبيعة الكلام ، الكفيل باتاحة التحليل والتفكيك للمعاني ، وتقليبها على مختلف وجوهها ، فتكتسب الكتابة ذلك العمق المؤثر ، وتحظى بتلك " السيرلة " التي تغرى السامع أو القارئ بالاستسلام لمنطلقها والانسياق وراء ما تدعو اليه ، وذلك هو الذى نسميه الانفعال . . . .

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر — تمييزا له من جده أبي حفص الأكبر — كان بارعا في النثر والنظم ، وقد اتصل بعديد من ملوك الطوائف منهم مجاهد العامري . والمعتصم بن صمادح . وقد ألف في الفخر بأسرته المشتهرة بالبلاغة كتاب : " سر الأدب ، وسبك الذهب " .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 495 .

(3) نفسه ، ص : 496 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما لا نكاد نشك فيه أن الأدباء قد وصفوا الكثير من أدوات محيطهم ، وامتعته التي يحتاجون الى استعمالها في شتى مجالات الحياة ، وأنه اذا لم يبق لنا اليوم بين أيدينا الا نماذج قليلة من الرقاع النثرية التي كتبت فيها ، فما ذلك الا لأن كثرتها الكثيرة قد ضاعت ، لأن الذين دونوا هذه النصوص واحتفظت لنا كتبهم بها ، ربما ، لم يكونوا يولون عناية فائقة لهذه الأدوات المتاحة للجميع ، والتي هي في نظرهم شرقية لا فائدة في نقل أوصافها أو الاحتفاظ بها . ودليلنا على ذلك أن معظم ما وصل الينا من تلك الأوصاف قد جاء في سياق عام أدرج فيه ذلك الوصف ادراجا ، ولم يكن الوصف هو الغرض المقصود بذاته كما هو الشأن في القلم والحبر والكتابة ، لأن هذه ليست من الأدوات العادية وليست من أمتعة العوام .

ومهما يكن من أمر فان واحدا من أجود وأبرع النصوص التي كتبت في نعت مثل هذه الأدوات ، قد جاء معترضا في سياق أشمل منه وأعم ، ونعني به وصف السّراج للأديب ابن أبي الخصال (1) .

كان ابن بسام قد أرسل الى هذا الأديب يطلب منه نماذج من شعره ونثره لايداعها كتاب الذخيرة ، فأجابه الى ما طلب ، وكتب اليه يعتذر عن الاكتفاء بتلك النماذج من أدبه لما يلقاه من صعوبة في الكتابة بين نوم يغازل الأجفان ، وريح تعبث بمصدر الضوء الذي يكتب عليه ، فكان وصفه للسراج . ويفتتح ذلك بقوله : ".. وعندي اليك ـ أعزك الله ـ في ابي خططت والنوم مغازل ، والقرّ منازل ، والريح تلعب بالسّراج ، وتصول عليه صولة الحجاج "(2) .

هذا هو المدخل الذي يكشف فيه النقاب عن الطريق الذي أوصله الى الحديث عن ضوء هذا السراج . ثم يشرع في نعته ذلك النعت العجيب ، فيصف عبث الريح به ، واصرارها عليه ، كما يصف مقاومته العنيدة لها ، فيقول : " فطورا تسدده

---

(1) أبو عبد الله محمد بن مسعود . . . بن أبي الخصال (465 ـ 540) كاتب شاعر ، وكان من أعيان الكتاب في ديوان السلطان المرابطي أبي الحسن على بن يوسف بن تاشفين . وانظر المعجب ص : 237 ، وذ : 3/2 ، ص : 736 ، وهامش المحقق عليهما .

(2) ذ : 3/2 ، ص : 792 ـ والرسالة أوردها أيضا صاحب المعجب في كتابه ص : 239 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة تطويه حبابة ، وأخرى تنشره ذؤابة، وتقيمه ابرة ذهب ، وتعطفه بُرَة ذهب ، أو حُمَة عقرب ، وتقوّسه حاجب فتاة ذات غمزات .(1)

ويبدي الكاتب قدرة مدهشة على تتبع الحالات التي يصير اليها ضوء السراج ، واجدا بينها وبين أشياء متنوعة في محيط الانسان وفي أجزائه ، أدق التشبيهات ، مقيما بينهما أوثق الصلات ، في تدفق ، واسترسال ، لا نكاد نعرف لهما نظيرا في هذا الموضوع . وهكذا فهو يعدد تلك الأوصاف الكثيرة ، لا ينفد له زاد ، بل يواصل قائلا : " وتتسلط على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخلفه نجما ، وترده رجما ، وتستحيل روحه من ذُباله ، وتعيده الى حاله ، وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد . . . "(2)

وينتهي بعد هذه الأجزاء الممتعة من رسالته الى موطن العذر الذي يستشفع به الى صاحب كتاب الذخيرة ، وهو صعوبة الكتابة في مثل هذه الأوضاع ، وعلى ضوء مثل هذا السراج ، فيقول : " فلا حَظّ منه للعين ، ولا هداية في الطرس لليدين ، والليل زنجي الاديم ، تِبْرِيّ النجوم ، قد جَلَّلَنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه . . . . والكلب قد صافح خيشومُه ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه ، والتوى التواء الحُباب . . . فحماه مباح ولا هرير ولا نباح ، والنار كالصديق أو كالرّحيق ، كلا هما عَنْقاء مُغرب ، أو نجم مغرب "(3) .

وبذلك تنتهي هذه الرسالة البديعة وقد عرج كاتبها في أخرياتها على بعض حال الطبيعة في تلك الليلة الحالكة التي استكان فيها الكلب للنوم ، وغابت فيها أخبار النار .

ان الذي نستخلصه من هذه الرقاع التي أدرجناها هو أن النثر الأندلسي لم يبد عناية ملحوظة بوصف الطبيعة وصفا مستقلا عن الأغراض الأخرى ، لسببين يبدوان واضحين لنا : أولهما أن رسائل الاستزارة ، ووصف مجالس الانس قد وفت هذا الغرض حقه ، ورسمت لنا مشاهد مؤثرة من الطبيعة الأندلسية الممتعة . والثاني أن الكثير من أوصاف الزهور ، والأحاديث المتصلة بها قد وردت في أشكال أدبية أخرى ، غير الوصف البحت ، المباشر ، وهو ما سنتناوله في صفحات قادمة .

(1) ذ : 3/2 ، ص : 792 .

(2) نفسه .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا ... كان هذا حظ الموصوفات المادية من عناية الكتّاب الأندلسيين ، فلعل حظ المعنويات والحالات النفسية أوفر وأغزر . وهو مجال يبدو أن النثر نافس فيه الشعر منافسة جدية ، فنقل الينا ما اعتلج في قلوب المغضوب عليهم من سجناء ومنفيين ، وما أحدثته أصناف من النكبات في نفوس أصحابها من الحيرة والمرارة ، وما شعر به بعض الناس من محاربة الزمان لهم ومعاداته ايامهم ، فشكوه ، وحملوه مسؤولية ما يلقَوْنَه من العنت في دنياهم . وربما التفت الكُتّاب الى مناسبات السرور فوصفوا وقعها عليهم ، وأثرها السعيد في مسار حياتهم .

ب — في وصف الحالات النفسية

الواقع أن الحزن أقدر على توجيه الانسان نحو نفسه ، فيفحص خباياها ، ويفتش في طواياها ، ويصغي الى ما ينبعث من أناتها المكتومة ، وبثها الخفي . ذلك أن الانسان يُشغل — عادة — في أوقات سروره ، عن الانتباه الى مشاعره . فهو يحيا السعادة ، ولا يفكر فيها ، ويعيش أوقات المسرة ، ولا يتأمل أحوالها . ولذلك سجل أدبه من مناسبات الحيرة والحزن والألم أكثر مما سجل من مناسبات المسرة والابتهاج والحبور .

ومن الحالات التي وجدنا الأدباء يُعْنَوْن بالحديث عنها ، وتسجيل ما يشعرون به فيها ، تلك الحالات التي تُفرَض عليهم فيها العزلة ، وتُضرَب عليهم الوحدة فينطوون على نفوسهم يتحسسون أدنى دبيب فيها للمشاعر .. ومن أشهر حالات العزلة والوحدة والانفراد :

السجن .

فمن أشهر الذين كتبوا رسائلهم الشجية من سجونهم وأماكن اعتقالهم : الأمير أبو عبد الرحمن بن طاهر[1] ، الذى قضى بنو عبّاد على دولته وضموا أراضيها الى مُمْتَلَكَاتهم . فكتب الى وزيرهم النافذ ذي الجاه والسلطان أبي بكر بن عمار[2] رقعة ،

(1) أبو عبد الرحمن بن طاهر : سبق التعريف به .

(2) أبو بكر بن عمار : وزير المعتمد وصديقه . كان شاعرا بارعا . استقل بأعباء دولة ابن عباد ثم تغير ما بينهما فقتله في حكاية طويلة ثابتة في ذ 2/1 ، ص : 405 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يُروى أنه خطها بقطعة فَحْم على ظهر آجُرّة (1). فاذا صدقت هذه الرواية فان هذا العنصر يضاعف من المحتوى المأساوي لهذا النص، ويضفي على اعتقال الأمير صبغة " درامية " تليق بمكانته، بوصفه حاكما وأديبا في آن واحد . . .

يقول في بداية هذه الرقعة : " قد كنت أعزك الله أتيقن من حسن طويتك، وكرم سجيتك، أنك لي أسرع في الملمة من اليمين الى الشمال، فارتقبت ورودك ارتقاب الصائم للهلال، فلما وافيت تحدثت بملاقاتك، وتطلعت الى مراعاتك، فأبطأ ذلك من سنائك، ولزمني أن استعلم السبب الموجب له من تلقائك " (2).

في هذه الأسطر تلهف واضح من الأسير الى ملاقاة الوزير ابن عمار، وهو تلهف ليست الصداقة وحدها باعثة له، بل ان الباعث الحقيقي هو مكانة ابن عمار لدى الملك — المعتمد بن عباد — ومنزلته في هذه الدولة. فهو بتعبير آخر يملك من وسائل الافراج عن الأمير السجين ما لا يملكه انسان آخر.

وتمضي بقية الرسالة على هذه الوتيرة، فيقسم ابن طاهر على أنه لم يمتنع عن مخاطبة الوزير المَصيب، وانما لم يُمَكَّن من وسائل الكتابة، فلا ورق ولا حبر، وهذا ما قد يعطي رواية الكتابة بالفحم على الآجرة شهادة بالصدق . ثم هو يتنصل من تهم يبدو أنها ألصقت به، مؤداها أنه كان شريكا في التخطيط لفتنة أو شيء مما يشبه ذلك . . .

أما حاله النفسية فيصفها بهذه العبارات القليلة الموجزة، والتي تحمل، مع ذلك، ما تحمل من وطأة الهم، وثقل التنكيد : " ولولا صدع بالفؤاد، وقلب مليء من الخطوب الحداد، لبذت اليك ما بالنفس بذ النواة، فأنت موضع السر والمناجاة . . . " (3)

وقد يحق لنا أن نعجب من أمر هذا السجين الذي لا تظهر لوعته الا بهذا القدر الذي تنبيء عنه العبارات القصيرة المتقدمة. ولكن ابن طاهر ليس سجينا عاديا، انه أمير ينبغي له أن يحفظ على النفس كرامتها، وأن لا يتصرف الا وفق ما يرضي النفس الكبيرة، تلك التي لا يمكن لها أن تُري الناس الا جَلَدا وصبرا، فاذا كشفت عن بعض ماتعانيه كان ذلك في اطار صارم من المهابة الخليقة بوقار الملوك، المناسبة للصورة الثابتة عنهم في الأذهان . . .

---

(1) ذ : 3/1، ص : 28.
(2) نفسه .
(3) نفسه، ص : 29.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاذا كنا نبحث عن نغمات الحزن الشجية ، ونبرات الألم المتصاعدة من كتابات الأسرى ذوى النفوس الملتهبة ، والعواطف المتأججة، فاننا نجد معظم هذه الملامح في أدب أبي المطرف ابن الدباغ[1] الذى صاغه في منفاه .

ان أفظع ما يمكن أن يصاب به رجل له حساسية أبي المطرف ، هو أن يحشر في هذا المكان الضيق الذى تشمئزّ منه النفس ، وتختنق فيه الأنفاس .ولنسمع اليه وهو يصفه لنا في قوله : " فَرْقٌ ما بين المكان الذى وَرَدْتُ عليه ، وبين القبر الذى مآلُ الانسان اليه ، أن المقيم به والساكن فيه يُدفَن حيا ، ولا يعلم من نور الدنيا شيئا "[2] .

فأي شيء أفزع للانسان ، وأقدر على اثارة الرعب فيه من مكان يذكّره برهبة القبر، بل ان هذا المكان هو عند الكاتب ارهب؟ لأن الساكن يدفن فيه حيّا ...

على أن قلق النفس من هذا المكان لا يعد شيئا اذا قيس بجوّ العزلة القاتلة المفروضة عليه . وأي معنى للسجن والنفي اذا لم يكن فيهما ضيق المكان ، وضراوة الوحدة؟ تلك الوحدة التي ينزف منها ابن الدباغ دما، ويعبر لنا عن وحشيتها وقلة صبره على أذاها في قوله :

" وأنا . . . أفرغ من حجّام ساباط ، أركل واضرب الآباط، وتارة العب، بشطرنج ونَرد ، وتارة أُطالع أخبار بِشْر وهند ، وأخرى أيضا أَضُلُّ رِدائي فوق رأسي قاعدا ، أعدّ الحصى جاهدا ، وأرمي بها صادرا وواردا "[3] .

ما أقسى حياة هذا الرجل المعزول ، المحروم من العشرة التي تسعده ، فهو قلق مضطرب ، يلعب بالشطرنج والنرد ، فلا يجد لذة اللاّعب ، ويطالع فلا يُحس بلذة المطالع، ويهرّب من الدنيا بتجاهلها فلا يُفيد ذلك في شيء ...

ان شِئاه في محادثه انسان يسمع منه بعض ما يمتلىء به ذلك الفؤاد المشحون ، فاذا لم يكن ذلك، فإنه يستعيض عنه بالكتابة الى من يتوسم فيهم القدرة على تخفيف

---

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، كان في خدمة امير بلده المقتدر ابن هود ، ثم تغيرت المودة بينهما ففرّ من عنده والتجأ الى دولة ابن عباد . انظر ذ : 1/3 ، ص : 251 .

(2) ذ : 1/3 ، ص : 274 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصابه ، والتهوين عليه من فظاعة المأساة . ولكن أين الأصدقاء الذين يثبتون على عهد الوفاء ، ويستجيبون النّداء في الوقت الذى تشتد فيه الحاجة الى الاعتماد عليهم، وشد الأزر بصدقهم زمن الصدق ، واخلاصهم زمن الاخلاص . يكتب أبو المطرف ، فلا يجني من ذلك الا الندم المحرق ، والحسرة المُمِضّة ، على مخاطبة من ليس أهلا للمخاطبة والمراسلة .

ويقص علينا ابن الدباغ قصة خيبة أمله هذه بقوله : " كانت راحتي في مخاطبة صديق أجاذبه الكلام ، وأقطع بمناجاته الأيام ، ولكن من محن الدنيا ألّا أجد من يتحمل لي كتابا . ولقد ظفرت بمن توجّه الى تلك الناحية فكتبت مخففا عن صدري ، ومطالعتك أنت والاخوان ببعض أمرى . وانتظرت صدر ذلك الانسان ، بأجوبة تفيد بعض السلوان ، فلم يكن منهم الاكل جافٍ جلف ، لم ير في دينه المراجعة بحرف ، فساء بذلك ظني ، وقرعت على مافعلته ، بالندم ، سني . . . "(1)

لقد ألحت الأيام على أبي المطرف بالاساءة ، فهو منكوب بتغير الأمير عليه ، وهو يصف هذه النكبة وصفا مؤثرا ، ويتحدث عنها حديث شاعر " ينظم نثرا " تماما كما ينظم غيره موجدة النفوس شعرا . وقد ضاق هو نفسه بكثرة حديثه عن هذه النكبة، وطول شكواه من الرزايا المتكالبة عليه ، فقال :

" ليت شعري متى افتتح بالرضى ، وهل أكتب وقتا من الدهر ولا أتشكّى ، فاني أحمد الله على حياة اقطعها في شدائد لا تنثني ، وسكرات غمّ لا تنجلي ، ونكد أخلاق لا يشوبه ابتهاج ، وضيق أحوال لا يتخللها انفراج ، ولئن كان باقي العمر كماضيه ، وعوائد العيش كبواديه ، فالحِمام أعذب موردا ، والوفاة أحسن مشهدا . . . "(2)

انها النفس تتألم حقا ، وتحيا كلّ دقائق مأساتها بمواجهة عنيفة واصرار على تحديد المسؤولية الملقاة على من يتحملون تَبِعَات ما هو فيه من الكرب . فهو يتحدث عن أمير بلده(3) بهذه الحدة ، وهذا الحقد اللذين نُحسّ بهما في قوله :

---

(1) ذ : 3 / 1 ، ص : 274 .
(2) نفسه ، ص : 265 .
(3) هو المقتدر بن هود واسمه أحمد . حكم دولة بني هود في سرقسطة وتوفي 474 هـ . وانظر ماكتبناه عن هذه الدولة في الفصل الأول من الباب الأول .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" لكل زمان طاغية يُشقى به ويُعبأ له ، وربما خُصَّ بتسلطه ، وانقبض في تبسطه ، ولم يَصِلْ بِضِرَامِه الا من ضايق في خطامه ، فهذا المعهود ، ولاكمن جمعنا به عصر ، وضمنا معه مِصْر ، فانه جامر الكلّ بالقِلَى ... ، وامتُحِنتُ منه وممن معه بأشد محنة ... فمن أيدٍ تستبيح الحمى ، وألسنة تنطلق بالخنا .... "[1] فلعلّنا لاحظنا كيف يجعل طغيان أمير بلده فوق كل طغيان ، وظلمه أكثر من كل ظلم .

وربما بلغت شدة العذاب بالكاتب هذه الدرجة التي يصبح فيها الانسان فاقد الحسّ ، عديم الانفعال ، لا يريد أن يرى فرقا بين وجهي الحياة ، لأنها عنده ، دائما ، ذات وجه واحد ، هو وجه الحيرة والعذاب . وهو يصف حاله بهذه الكلمات الدامية التي تنبئنا بذلك القدر العظيم الذي يضطرم في أحشائه من الأسى والكرب اللذين يورثان هذه اللا مبالاة المزعومة أمام تصرف الزمان ، والتي لا تدل في حقيقة الأمر الا على يأس عميق . يقول : " أنا في هذا الوقت بحكم الزمان ، بِثَمّ مُستودع الهوان ، أضحك لمن شتم ، واعتذر الى من ظَلَم ، وأُغضي لمن هَمَز ولَمَز ، وأتعامى على من أشار وغمز ، وأتلقى المكروه والأذى ، بطلاقة التقبل والرضى ، فمثلي ان ابْتُلي صَبَر ، وان أُوذِي شَكَر ، أو أسخطته الاقدار تجمّل ، أو حُمِّل مالا يُستطاع تحمّل .... "[2]

ولو أننا شئنا أن نستقصي مثل هذه النماذج عند ابن الدباغ لطالت بنا الحال ، وخرجنا عن القصد ، وحسب أننا بيّنا بقدر كافٍ كيف استطاع النثر في هذا العصر أن يرصد الحالات النفسية ، وأن يعبر عن كل ما يختلج في نفس المرء المصاب في حريته وفي كرامته ، ومُنع مما لابدّ منه لاكتمال انسانية الانسان .

ولما كان كل موجود الى زوال ، وكل مبدوء الى انتهاء ، فقد شاء الله أن تنفرج أزمة ابن الدباغ مرّتين : مرة بعفو المقتدر ابن هود عنه ، ومرة أخرى بالتحاقه بدولة بني عباد التي كان يرى أن الأيام ستعوّضه عندهم عن كل ما سلف لها من الاساءة بحقه . وكما سجل مشاعر الحزن ، ورصد دبيب الألم في نفسه المُرْهَقة ، فانه حاول أن يسجل كذلك مسرى نشاط السعادة في أوصاله ، فكتب عندما وصل الى قرطبة — وهي من أملاك بني عباد — يقول : " كتابي من قرطبة وقد ورد تها

(1) ذ : 3/1 ، ص: 262 .
(2) نفسه ، ص: 263 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بحمد الله على رحب وسعة ، وأخلدت منها الى سكون ودعة ، وذهبت ، بحمد الله ، تلك الحيرة ، وانجلت تلك الغمرة ، واستقال الجد من عثاره ، ولاح قمرُ السعد بجد يسراره .... "(1)

وقد لانكون في حاجة الى التعليق على هذه الفقرة لبيان الفرق في دقة الوصف وحرارته بينها وبين الفقر السابقة ، مما يعزز الرأي الذى كنا أبديناه ، والذى فحواه أن الأدب بوجه عام ، أقدرُ على وصف الشقاء ، منه على وصف السعادة ....

كانت هذه نماذج من النثر الذى اعتنى بوصف حالات النفس المختلفة ، وأوضاعها في تصرف الزمان بها ما بين لين وشدة ، وسعادة وشقاء . وقد كنّا بدأنا هذا الفصل ببعض ما كتبه أدباء الأندلس في وصف الطبيعة ، وما يقع تحت حواسهم من مناظرها المختلفة . بيد أن الكلام عن الوصف في النثر الأندلسي ، خلال العصر الذى نؤرخه ، لايكتمل ، ولا يستوفي كل شعبه إلاّ اذا ألممنا بنوع من النثر لا ينحصر الى قسم الموصوفات المادية ، ولا الى الموصوفات المعنوية المتصلة بأحوال النفس ، لأنه جاء جامعا للقسمين ، متضمنا للفنين ، وهو ما يمكن أن نسميه ، في الحالة التي سنذرسها : نثر المسالك والممالك .

جـ = وصف المسالك والممالك

بأيدينا من هذا النوع من الانشاء رسالة طويلة ، عمل صاحب الذخيرة جهده في تلخيصها واختصارها ، ولكنها جاءت ، مع ذلك ، تربو على عشرين صفحة من مطبوع كتابه وهي لكاتب سماه " الوزير أبا عبدالله محمد بن مسلم "(2) وقد كتب هذه الرسالة الى صاحب ميورقة (3) .

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 293 .

(2) أبو عبدالله محمد بن مسلم من أهل دانية ، وهي قاعدة امارة مجاهد وابنه اقبال الدولة الصقليبين . أخباره قليلة جدا . وانظر ذ : 3/1 ، ص: 427 والمغرب 2/ص: 405 .

(3) أغلب المذكور هنا كان واليا على ميورقة في زمن مجاهد وابنه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن المتأمل في هذه الرسالة يراها أقرب، الى صيغة تقرير مفصل عن مهمة يكون هذا الوزير الكاتب قد كلف بالقيام بها في عدد لا يحصى من ممالك الطوائف. وقد جاء هذا التقرير المفصل، المسْطِيب، في شكل مذكرات ضمنها الكاتب كل ما تجمع لديه من أوصاف المدن التي زارها، والمعالم التي وقف عليها، وتحدث باسهاب عن اتصالاته بالحكام، فوصفهم، وذكر الكثير من أخلاقهم، ونوعية علاقاتهم فيما بينهم. وكل ذلك يجعلنا نرجح أن يكون محمد بن مسلم هذا يعمل طوال عشرين سنة – كما قال – لحساب "إقبال الدولة، والجهات العسكرية من دولته، التي نرى أن "أغلب" هذا، ربما كان من ركائزها المتينة .

أما الرسالة نفسها، فان ابن بسام يخبرنا بأن صاحبها "سماها طيّ المراحل "(1). وهو يبدؤها باظهار الحنين الى لقاء "أغلب"، والتشوق الى مشافهته. ثم يحرص على أن يبين له مدى مايلقاه من العناء في هذه الرحلة المضنية، مذكرا بأن " السفر قطعة من العذاب، والمسافر ومتاعه على قلب الذهاب "(2)، ثم يحدثنا بما استغرقته هذه الرحلة من سنوات طوال فقال: " ولي منذ أجول البلاد، وأجوب الصخر بالواد، ما يزيد على عشر حجج نصفها، وعلى سبعة أعوام ضعفها، لم ألق الا يوما يجعل الولدان شيبا، والجبال كثيبا مهيلا "(3).

هذه أكثر من عشرين عاما قضاها هذا الجوّال الغريب، وسط أهوال كثيرة، ومحن متصلة، أفلا يكون أمره أهمّ مما يمكن أن نتصوره لنا المعلومات القليلة التي نملكها عنه ؟ هل يجوز لنا أن لا نرى فيه الا " رسولا الى بعض ملوك الطوائف عن اقبال الدولة بن مجاهد حين نازعه المقتدر أحدَ الحصون "(4)؟ وهل تقتضي سفارة من هذا النوع مدة من الزمن كالتي ذكر هذا الرسول أنه قضاها في التطواف بين ملوك الأندلس، والولاة الحاكمين من قبلهم، ووزرائهم النافذين ؟

---

(1) ذ : 1/3، ص : 423 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) هذا رأي الدكتور احسان عباس في هامش الذخيرة رقم 1 من ذ : 1/3، ص : 427 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والرسالة تتضمن فصولا عديدة في وصف الماديات نورد منها فقرة واحدة لمجرد التمثيل وهي قوله : " حتى وصلنا الى دار منفرجة الاقطار ، مستوفزة الانوار، متدفقة الأنهار، هواؤها جلاء للغم ، وزيادة في العمر، وضياؤها شفاء للكظم ، وانشراح للصدر. . . . وميل بنا الى " التاج " وهو مصنع على مفرق القصر ، من جانب البحر : مُرّد من قوارير، وألبس الصبح المستنير، . . . فمن يقول هو قبة الفلك ، ومن يقول هو السماء ذات الحُبُك . . . . "(1)

والحق أن أباعبدالله محمد بن مسلم وصّاف بارع ، دقيق الملاحظة ، ذكي الاشارة . وهو كما يصف الماديات ويحسن في وصفها ، فانه من أقدر الناس على رصد تموجات النفس وتحت أحوالها المختلفة . ولنسمح اليه ، هنا أيضا ، في نموذج واحد من انشائه لبيان ما قلناه . " فجئنا فلانة (2) ، وقد سُدّ بابها ، ونام بوابها ، والسيل قد طمى ، يحمل غُثاء أحوى ، فلم تشك القلوب أن نفوسنا ذائقة الموت ، حتى اذا بلغت النفوس التّراق ، والتفت السّاق بالسّاق ، وقيل من راق ، وأشعر صاحب الحصن بمكاني ، وقصّ عليه شأني ، فأمر بفتح باب المدينة ، وآواني الى دار حصينة ، وتقدّم بالضرام فأجّج ، وبالطعام فروّج ، وبالعد، فشبّ وأسرج . . . "(3) .

ان رسالة " طي المراحل " ضرب ممتع من الانشاء ، وهو بكل تأكيد نوع من أنواع أدب الرحلات ، ولكن أين ذلك السرد الرتيب، للفراسخ والأميال ، والعد الممل للمدن والمحطات ، والوصف الآلي لما تعج به الساحات العمومية ، والأسواق التجارية . . . . من فصول بليغة في قالب مذكرات يدون فيها السفير المتجول ، ذو المهمة السرية الخطيرة ، فيما نقدر ، كلّ ما تلتقطه عين مدربة على المناظر البديعة ، وكل ما تلقاه نفس مرهفة الحس من ضروب المشاعر ، وما تعيشه من المغامرات والأهوال .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص: 432 .
(2) اسم مدينة حذفت ، على عادتهم في تعمية أسماء الناس وما يمكن أن يشير اليهم أو يدلّ عليهم .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 430 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحديثنا عن رسالة أبي عبدالله ينهي الحديث عن النثر الوصفي ، على أن هناك نوعاً آخر مبنية يأتي في قالب التفاخر والتنازع بالأوصاف والنعوت بدل الوقوف عند مجرّد الحديث عن وجودها . وهو ما نريد أن نتناوله في الصفحات القادمة .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 — نثر المنازعات والمفاخرات

من المعلوم أن النثر الفنّي الذي يستحق الدراسة من الناحية الأدبية هو ذلك الذي يتجاوز مجرّد الابانة عن المعاني، الى احداث المتعة الفنية التي يتوصل اليها عبر ضروب من الأساليب والطرائق التعبيرية، والصيغ البلاغية، والتمويجات الموسيقية. ومن المعلوم أيضا أن النثر كلما زادت أصالته الابداعية، وتمكنت من النفوس مناهجه الفنية، رمى الى المزيد من التحليق في عالم المجردات، وتناول أكثر فأكثر، المثل العليا، والقيم الأخلاقية، والمذاهب الفكرية، فولج أبوابها، ووقف كُتّابه من خلالها مكافحين عن آرائهم، منافحين عن اتجاهاتهم، يحاولون عرضها " والدعاية" لها، والتبشير بها، في اطار لا يخلو من الحماسة وحتى من الشدة والعنف، حين يتناول هذا النوع من الأدب النضال عن المقدسات، والعقائد، والنزاع السياسية وما الى ذلك ... وكثيرا ما يحتاج كُتّاب هذا اللون من الانشاء الى التصدى الى نظريات الغير بغية هدمها، وتقويض أساسها، ليبنوا على أنقاضها ما يتجردون لتقريره من المذاهب والآراء .

وعرف النثر الأندلسي هذا اللون من الانشاء الذى يندرج في اطار المنازعات والمفاخرات، وحفظت المصادر نماذج متنوعة منه، تدل على توسع في استخدامه، ولجوء في كثير من المناسبات اليه. وقد درسنا أهم هذه النماذج فوجدناه ينقسم الى قسمين متمايزين : أما الأول منهما فيتناول قضايا فكرية على جانب كبير من الخطورة في حياة الأندلس من حيث انتماؤها، وتاريخها الثقافي والعلمي. وأما الثاني منهما فهو يمثل طفرة نوعية أخرى في مسار نضج النثر، وتطلعه الى الخوض في كلّ مجالات التعبير الانساني. ومن أرقى صور هذا التعبير المرحلة التجريدية التي يغدو فيها الانشاء النثري صالحا، لا للحديث عن أحاسيس الجمال التي توحي بها الجوامد، والكائنات المتضمنة لرموز الجمال، كالأزهار، والنباتات العطرة الأخرى، وهو ما كان الشعر يحتكره حتى بدأ النثر يغزوه منذ أواخر القرن الرابع، كما كنا رأينا، بل ان النثر في هذه المرحلة المتقدمة من مسيرة النضج يصبح فيها لغة لهذه الرموز فيما بينها، وأداة لتحاورها بالذات، وذلك منتهى التطور. أليس ارتقاء مدهشا للنثر في القرن الخامس أن لا يكتفي النثر بوصف هذه الرموز، والحديث عنها، بل يصبح لسانا لها تتحدث به، وتتفاخر وتتباهى، من خلاله، بما تُنتقى له، وتُفضّل من أجله، وتُحبّ بسببه !..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبدون الخوض في القيم الفنيـة لهذه الأشكال الجديدة في النثر الأندلسـي ، لأننا سنتناول كل ذلك بالتفصيل في الباب الأخير من هذا البحث ، فاننا سنتحدث عن القسمين اللذين رأينا أن هذا الضرب من الانشاء ينقسم اليهما ، بادئين بالمنازعات ذات الطابـع الفكـري .

أ ـ المنازعات ذات الطابع الفكرى :

يبدو أن القرن الخامس الهجرى هو العصر الذي بعثت حوادثه الخطيرة تساؤلات مختلفة ماكان أحد يجرؤ على أن يرفع صوته بها ، أو ماكانت تخطر له أهميتها على بال ، حسب موقع المتسائل من تاريخ الأندلس ، ومكانته من خصائص شخصيتها . وقد حفز على ذلك ـ فيما نظـن ـ شيـآن :

أحدهما أن كل أمة تتعرض فيها الحياة العامة الى هزات لها عمق ومدى تلك التي تعرضت لها الأندلس في هذا القرن ، يُقبِل أفرادها على التفتيش في ذواتهم ، واستنطـاق ماضيهم ، والتحصّن بخصوصيتهم التي يرون في التشبث بها ، لاستثارة دوافع النضال من أجلها ، سبيـلا لاغِنى عنها لتحقيـق الاستمرار لوجودهم الجماعـي ، والانقاذ لمصيرهـم الممـدّد .

وهكذا تساءل الأندلسيون عن حقيقـة أصلهم ، واستنطقوا في سبيل ذلك كل مكونات بيئتهم ، فكانت النتيجـة التي تظهر للعيان في كل ماكتبوه ، مما له أدنى اتصال بهـذا الشأن ، أنهم أندلسيون . ومعنى هذه الحقيقـة التي تظهر اليوم بديهيـة ، لاتحتـاج الى عناء البحـث والتدليل ، معناها أوّلا أنهم ليسوا أشتاتـا من الناس ، وخليـطا من البشـر ، جاؤوا الى هذه الأرض من آفاق مختلفـة : منهم عرب الجزيرة ، ومنهم عرب الشام ومصر ، ومنهم المغاربـة البربـر ، ومنهم طوائف الاسبان .... أجل انهم مـن أصول مختلفـة ، ولكنهم بعد أربعة قرون من الحياة المشتركة ، صاروا شعبا واحدا كثيرا ما يعبرون عنه في ما يكتبون بـ " أهل الأندلس " . والمعنى الثاني لهذه الحقيقة أن هذا الشعب الواحد ، له تراث ثقافـي وعلمـي واحد ، انصهرت فيه وحدة هـــذا الشعـب ، وتجلـت فيه ، فلذلك ينبغـي أن يعتزّ الجميـع بـه ، وأن يدافعوا عنـه كما يدافعـون عـن وجودهـم التاريخـي بالذات على أرض هذه الجزيـرة المتطرفـة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في جسم العروبة والاسلام . وكان من هذا المنطلق تأليف الأديب الفاضل ابن بسام[1] لموسوعته الجليلة التي سماها " الذخيرة .... " .

وكان من هذا المنطلق أيضا تلك المرارة التي كان بعض المثقفين يشعرون بها وهم يرون مجتمعهم كثير الاقبال على الأدباء المشارقة وعلمائهم ، قليلي الالتفات — أوذاك ما بدا لهم — الى أدبائهم وعلمائهم الذين يشاركونهم الحياة على نفس الأرض ، ويتنفسون معهم نفس الهواء .

في هذا السياق تسترقفنا الرسائل التي كتبها أصحابها لبيان فضل الأندلس ، والتباهي بأمجادها ، والرد على من ينتقص مزاياها ، ويقلل من شأنها . وتأتي في طليعة ما كُتب عن هذا الموضوع رسالة الامام أبي محمد بن حزم[2] ، وهي رسالة لها حكاية لابد من ايرادها لفهم سياقها والظرف الذي أنشئت فيه .

* رسالة ابن حزم في فضل الأندلس

لقد بدأ الأمر برسالة كتبها أحد المغاربة من أبناء تاهرت ، واسمه ابن الربيب[3] الى أحد الأدباء الأندلسيين واسمه أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم[4] ، يلوم فيها علماء الأندلس ومؤرخيها على تقصيرهم في حق تراثهم ، " لم يُتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بَلَّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاسا بمحاسن قضاته وعلمائه ... "[5]

---

(1) أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني ، صاحب كتاب الذخيرة توفي نحو سنة 542 هـ .

(2) أبو محمد علي بن حزم (383 — 456 هـ) . من أسرة عريقة . وهو شخصية علمية ، شاركت بعشرات التآليف في الأدب ، والفقه ، والفلسفة ، وعلوم الدين .. وكان من أقطاب الظاهرية في الأندلس .

(3) أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الربيب التميمي ، المنسوب الى القيروان وهو من تاهرت . انظر هامش النفح ، ج 3 ، ص : 156 .

(4) أبو المغيرة عبدالوهاب بن أحمد بن عبدالرحمن .... بن حزم . ابن عم الامام أبي محمد علي بن حزم وكانت بينهما مشاحنة (انظر ذ : 1/1 ، ص : 161—166) . لحق أبو المغيرة ببلاد الثغر ، وتولى الكتابة هنالك لعدة أمراء . وذكر ابن حيان انه " اعتبط شابا " . وقد مات سنة 433 هـ .

(5) الرسالة في النفح : 157/3 ، وفي الذخيرة 1/1 ، ص : 133 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد ردّ أبو المغيرة على رسالة ابن الربيب، ردّا جميلا، فأكثر الثناء عليه، وشكره على عنايته بالأندلس، واعترافه بفضلها. ثم شرع فيما يمكن أن يسمّى ردّا على مراسله، فاذا به يعترف له بمعنى الاعتراف بما ذهب اليه، وان كان هو يثير المسألة من جانب آخر، لها صلة باغفال الأندلس للأحياء من عظمائها. وفي ذلك يقول: " وما أشبهها بالغريبة التي خيرها يدفن، وشرها يعلن، يتعب أحدنا نفسه، ويرهف حسه، ويمارس السيف بفهمه، والبحر بعلمه ...، ونتائج فكره محجوبة، وبنات صدره غير مخطوبة ... "(1)

ويبدو أن أبا المغيرة قال ما قال في عتاب أهل زمانه على ~~ما يحس~~ أسّاس به كل ذي فكر من أنه مضطهد بالتغافل عنه وتناسي فضائله ... ثم مال الى الردّ الحقيقي على ابن الربيب، في فصول مطولة احتج فيها لعلماء الأندلس، وبين أنهم لم يقصروا، مثلما زعم الأديب التاهرتي، في حق عظماء البلاد. ولكن ابن بسام استطول — للأسف — هذه الفصول، فحذفها كلها، وحرمنا منها.

وتناهت رقعة ابن الربيب الى أبي محمد علي بن حزم، وقد وجدها، حسبما يُفهم من رسالته، مُدرَجة بين مجموعة من الكتب والوثائق في بيت لصاحبه الوزير أبي بكر بن اسحاق المهلّبي. ثم لما حضر مجلس "يُمْن الدولة" (2) طلب منه هذا الأمير أن يكتب شيئا في الرد على رقعة ابن الربيب، فكتب هذه الرسالة في بيان فضل الأندلس، والحديث عن أمجادها العلمية والأدبية، وهذه هي حكايتها. وهي تستلزم في البداية بعض التعليقات:

أولا - أن هذه الرسالة يوجهها الامام ابن حزم الى صديقه السالف الذكر: أبي بكر (محمد بن اسحاق المهلبي الوزير)، ولكنه يقصد من ورائه كل الذين يهمهم الاطلاع على أحوال الأندلس. وفي ذلك يقول ابن حزم: " فانك وان كنت المقصود والمواجه، فانما المراد من أهل تلك الناحية مَنْ نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي".

---

(1) ذ: 1/1، ص: 133.

(2) أحد أمراء بني قاسم الذين أسسوا دولتهم في "البونت" من أعمال بلنسية. وحكم يمن الدولة من 421 الى 434 هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا = أن هذا "السائل الماضي" ليس الا أبا علي بن الربيب الذى بادر الى مخاطبة أبي المغيرة بن حزم في مسألة تقصير الاندلسيين . وقد أدركته منيته قبل أن يتصدّى الامام أبو محمد بن حزم لكتابة هذا الرد . فلذلك نراه يتحدث عن موت ابن الربيب بقوله : " فتناولت الجواب المذكور بعد أن بلغني أن ذلك المخاطب قد مات رحمنا الله تعالى وإياه ، فلم يكن لقصده بالجواب معنى ، وقد صارت المقابر له مغنى ، فلسنا بمُسمعين من في القبور ... "(1)

ثالثا = أن الامام أبا محمد كان يجهل – فيما يبدو – أن ابن الربيب كان يخاطب ابن عمه أبا المغيرة بن حزم ، ذلك الذى كنّا أشرنا الى ما بينهما من مشاحنات . فمن باب أولى وأحرى أنه كان يجهل أيضا ردّ أبي المغيرة على رسالة ابن الرُّبيب . وهذا هو الاحتمال المعقول الذى يستخلص من قول أبي محمد " ... خطاب لبعض الكتاب من مصاقبينا في الدار ، أهل افريقية ... الى رجل أندلسي لم يعيّنه باسمه ولا ذكره بنسبه "(2).

أما الرسالة نفسها فهي تبدأ بمخاطبة الكاتب لصديقه مخاطبة يعرب له فيها عن شوقه اليه ، ثم يشير الى الظروف التي مكنته من الاطلاع – صدفة – على رسالة ابن الربيب ، وكيف طلب منه أمير البُونت أن يرد عليها . وهو مدخل يشكل تمهيدا مفيدا لصُلْب الرسالة . ثم يشرع في مناقشة الرأى القائل بأن مآثر الاندلس لم تخلَّد في كتاب عام ، ويذكر أن ما ألفه أحمد بن محمد الرازي التاريخي (3) يفي بهذا الغرض .

ويترك أبو محمد هذا الحديث ، حتى ليوهم القارئ بأنه لن يُعنى بعدُ بمؤلفات الاندلسيين ، ويأخذ في شيء آخر : وهو فضل الاندلس . ويبدأ بأفضليتها من الناحية الدينية، فيشير الى حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، الذى وصف فيه جماعة من

---

(1) نفح الطيب : 3 / 160 .

(2) نفسه ، ص : 159 .

(3) من آل الرازي بالاندلس ثلاثة مؤرخين : أولهم محمد بن موسى وهو الوافد الى الاندلس سنة 249 هـ ، واشتغل بالتاريخ . وثانيهم واهمهم ابنه أحمد بن محمد (وهو الذى قصده ابن حزم) 274 – 324 هـ . وكان كاتبا شاعرا له تآليف كثيرة في تاريخ الاندلس ، وثالثهم ابنه : عيسى بن أحمد بن محمد ، وقد عاش في عهد هشام المؤيد .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المجاهدين " يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرة ، أو مثل الملوك على الأسرة .... "(1)، ويرى أن المقصودين به هم أسلاف الأندلسيين الذين فتحوا الأندلس مجاهدين . ويورد ما لديه من البيانات التاريخية ، والمنطقية ... على أن الأندلس هي المقصودة بالحديث النبوي الشريف وليست قبرص ، ولا إقريطش ، ولا صقلية .....

ثم يتحدث عن موقع الأندلس من الناحية الفلكية ، ويستدل بهذا الموقع على مالها من نتائج أيجابية في حقل التمكن من العلم ، حسب رأى الخبراء بالأحكام المستنبطة من الكواكب ....

وبعد أن يقرر هذه النظرية التي يرى أن الواقع يؤيدها ، وينبيء بصدقها يلتفت الى ابن الربيب ، فيقول ان ما أبداه من رأى في علماء الأندلس ، ينطبق على القيروان نفسها . فهو لا يعرف عن أخبارها تأليفا الا كتاب " المعرب عن أخبار المغرب "(2) ، وما كتبه محمد بن يوسف الوراق (3) للحكم المستنصر من مؤلفات تتصل بتاريخ افريقية ومسالكها وممالكها ... على أن محمدا هذا " أندلسي الأصل والفرع ، آباؤه من وادي الحجارة ، ومدفنه بقرطبة ، وهجرته اليها ، وان كانت نشأته بالقيروان "(4).

وإذ وصل الى هذه النقطة فانه يثير مسألة على جانب كبير من الأهمية ، مازال الجدل حولها قائما الى اليوم ، حين يختلف الناس في نسبة هذا الأديب أو ذاك العالم ممن ولدوا في بلد ما ، ورحلوا وعاشوا ببلد آخر . وخلاصة رأى ابن حزم لا يخلو من عمق ، وهو مبني على رأى الأئمة السابقين الذى يلخصه بهذه الكلمات " ان جميع المؤرخين ، من أئمتنا السالفين والباقين ، دون محاشاة أحد ، بل قد تيقنا اجماعهم على ذلك ،

---

(1) النفح : 3 / 161 .

(2) ذكر محقق النفح (3 / 521) أن هذا الكتاب لليسع . وترجم المقرى في الجزء الثاني منه ، ص : 379 ، " لليسع بن عيسى ... بن عبد الله الغافقي " فقال انه صاحب كتاب " المعرب في أخبار محاسن أهل المغرب " وأنه جمعه لسلطان مصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وقد هاجر اليها ومات فيها سنة 575 . ونحن نعلم أن الامام ابن حزم مات سنة 454 هـ . فمن المحال أن يكون كتابه هو المقصود .

(3) محمد بن يوسف الوراق ، ويعرف بالتاريخي 291 ـ 362 هـ . وماقاله عنه ابن حزم هو كل ما نعرفه عنه .

(4) النفح : 3 / 163 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

متفقون على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التي استقرّ بها ، ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات "[1]. والقاعدة العامة عنده هي : " من هاجر الينا من سائر البلاد ، فنحن أحقّ به ، وهو منّا .... ومن هاجر منّا الى غيرنا فلا حظّ لنا فيه ، والمكان الذي اختاره أسعد به "[2].

ثم يعود الى ندرة التآليف بوجه عام ، وأن الأندلس ليست بدعا في المدن والممالك ، فهذه بغداد العظيمة " حاضرة الدنيا ، ومعدن كل فضيلة ... " وهذه البصرة " وهي عين المعمور في كل ما ذكرنا " لا يُعلم في أخبارهما تآليف كثيرة غير كتب قليلة مفردة يذكرها بأعيانها . ومثل ذلك يقال في الكوفة . وأما " خراسان ، وطبرستان ، وجرجان ، وكرمان ، وسجستان ، والري ، والسند ، وأرمينية ، .... وتلك الممالك الكثيرة ، فلا أعلم في شيء منها تأليفا قُصد به أخبار ملوك تلك النواحي وعلمائها وشعرائها وأطبائها "[3].

وبعد هذه المقدمات كلها يصل الامام ابن حزم الى رأي يفاجئنا به ، وهو بكل بساطة ، موافقته ، على وجه من الوجوه ، لرأي ابن الربيب ، وان كان شأنه شأن ابن عمه أبي المغيرة يخرجه مخرجا ذاتيا ، لأنه يُشتَمُّ منه غضبُه على أبناء وطنه ، وما يُعرَف عنه من لَوْمٍ لهم على ترحيبهم بالعلم الذي يأتيهم من بعيد ، واهمالهم للعلم الموجود بين ظهرانيهم . وفي ذلك يقول : " وأما جهتنا فالحكم في ذلك ما جرى به المثل السائر : " أزهَدُ الناس في عَالِمٍ أهلُه " .... ولاسيما أندلسنا فانها خُصَّت من حسد أهلها للعَالِم الظاهر فيهم ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثيرَ ما يأتي به ، واستهجانهم حسناته .... وأكثر ذلك مدةَ حياته بأضعاف ما في سائر البلاد "[4].

على أن أبا محمد ان كان يبدو كمن يساير ابن الربيب ، فانه في الحق يجنح برأيه الى سبيل آخر ، وهو أنه يرى احتقار الأندلسيين لعلمائهم ، مع أن هؤلاء من العباقرة الذين لم يتركوا بابا في العلم الا ولجوه ، ولا فنّا من فنونه الا ألّفوا وصنفوا فيه .

---

(1) النفح : 3/164 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 165 .
(4) نفسه ، ص : 166 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن هنا تنفتح أمامه طريق الحديث عن مؤلفاتهم، ويأخذ في عدّ مابادئا بالفقه، مثنيا بتفسير القرآن الكريم، مُثلِّثا بالحديث الشريف، دون أن يحترم هذه القسمة لأنه بعد قليل يعود الى الحديث، ثم الى تفسير القرآن من جديد، ثم يعدد ما أُلّف من كتب اللغة، والتراجم، والأخبار، ثم يذكر الطب والفلسفة، والعدد، والهندسة، وعلم الكلام، وهو في أثناء ذلك يقارن بين كتب الأندلسيين وكتب المشارقة، ولا سيما في ميادين الشريعة الاسلامية، وتفسير القرآن، والحديث، فيميل الى تفضيل كتب الأوّلين. أما اذا قيست الأندلس بالممالك الاسلامية الأخرى من أمثال فارس، والأهواز، وديار مضر، واليمن، والشام، فانها تبدو المُجَلِّيَة السابقة التي لا يُشق لها غبار. ولذلك فالذين يسميهم "المشارقة" هم عنده أهل العراق ثم أهل مكة والمدينة في باب العلوم الاسلامية. وهو على كل حال يعتبر العراق "دار هجرة الفهم وذويه، ومراد المعارف وأربابها"(1).

بذلك تنتهي هذه الرسالة، وهي في الحقيقة منازعة من جانب واحد، لأنّ الرسالة التي اقتضت هذا الردّ ليس فيها ما يُفهم منه أنه إنكار لفضل الأندلس، أو تنقص من قيمة علمائها، بل ان كل ما فيها هو اعتراف بهذا الفضل، واجلال لذلك العلم. وانما كتب ما كتب من باب الغيرة على الأندلس، فقد كان يحب أن يقرأ كتابا جامعا في علمائها وملوكها. كان يودّ أن يجد في الأندلس كتابا كالعقد الفريد(2) تكون مادته مأخوذة من أخبار الأندلس وتاريخها السياسي والثقافي، وليس من المشرق. وفي عمل ابن عبد ربه يقول ابن الربيب بكل وضوح: "على أنه يلحقه فيه بعض اللوم لا سيّما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطةَ عِقده، ومناقب ملوكه يتيمة سلكه، أكثر الحز وأخطأ المفصل، وأطال الهز لسيف غير مقصل(3)".

---

(1) النفح : 3/177.

(2) مؤلفه : أحمد بن عبد ربه (أبو عمر) : شاعر، كاتب، اتصل بالخليفة عبد الرحمن الناصر، وتوفي عام 328 هـ.

(3) النفح 3/156.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى منح الموضوع هذا الطابع الجدلي ، وأضفى عليه صبغة المنازعة انما هو مزاج أبي محمد الحاد الذى لايكاد يتناول موضوعا من موضوعات العلم الا من زاوية الرد الذى لايخلو من خصومة وعنف .

كان هذا مظهرا من مظاهر المنازعات التي تنشأ بين رجال الفكر حول موضوعات أدبية أو علمية . ولكن هناك جانب آخر ، لعله أهمّ من هذا الذى تناولناه لأنه متصل ببيئة الحرّية التي أتاحها القرن الخامس في الأندلس للناس ، فعبر كل عن رأيه بطريقة ربما لم تكن تخطر لأحد على بال قبل هذه الفترة من التاريخ . ومن الطبيعي أن تجد بعض الفئات الاجتماعية ، في هذه الأجواء ، فرصة تمكنها من إخراج ما بين ضلوعها من الحقد على العرب ، والكره لهم . وهي حالة عُرفت في التاريخ العربي باسم " الشعوبية " .

* الموقف من الشعوبية في الأندلس :

لو شئنا الدقة في الحديث لقلنا انه يمكننا أن نسمّي القرن الخامس الهجرى ، من بعض الوجوه ، " عصر القوميات " مع ما ينبغي من الاحتياط عند اطلاق هذا المصطلح على فترة تاريخية كالتي ذكرناها . ورأينا أنه كما آوى الأندلسيون الى أصالتهم ، والى مميزات كيانهم الجماعي ، زملا مع شخصيتهم ، يتشبّثون بها ، ويدافعون عنها ، ويدعون الى التمسك بها ، وقد ظهر ذلك جليا في صورة الدعوة الى العناية بتاريخ الأندلس ، وأخبار ملوكها ، والعناية بعلمائها ، . . . . فان بعض الفئات التي لم تنصهر في المجتمع الأندلسي ، ولم تستطع الانسجام مع خصائصه ، ومميزاته ، وجدت في عهد التفكك ، والانقسام ، والاضطراب ، فرصة مواتية تثبت فيها تطلعاتها العميقة الى التخلص من الحكم العربي ، وارجاع الأوضاع العامة في البلاد ، من الناحية السياسية والثقافية ، الى ماكانت عليه قبل الفتح الاسلامي . وقد كانت انتصارات الممالك المسيحية وخضوع الدويلات الاسلامية لها حافزا قويا على مثل تلك التطلعات ، فظهرت الى السطح أفكار ما كان بامكانها أن تظهر أبدا أيام سلطان المسلمين وقوتهم الفعلية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الطبيعي أيضا أن لا تبرز هذه الأفكار في شكل عداوة للاسلام والمسلمين، لأن في ذلك ما يجهضها، ويقضي عليها قبل الأوان، باثارة الحمية، واكساب الصراع طابعا دينيا استفزازيا. ولذلك كان الأسهل والأيسر أن تبدو في شكل مصاداة للعرب، وتحقير لتاريخهم، واستهزاء بأنماط معيشتهم ... وهل كانت الشعوبية في المشرق عند أبي نواس، أو عند بشار بن برد شيئا آخر غير هذا [1]. ومن الغريب أن الاسلام يُضرب ضربا مُوجِعا عن طريق ضرب " العروبة " فلا يحس بعض المسلمين — الذين لا شأن لهم بالشعوبية، ولا يمكن أن ينسبوا اليها — بشيء من الغيرة، لأن "العروبة" تبدو في نظرهم شيئا كالمنافس للاسلام، أو كالمُضايق له ....

أما الأندلسيون فقد فهموا مقدار الصلة بين العروبة والاسلام، وفطنوا الى أن الذى يهدم هذه انما يروم هدم ذلك، ولهذا تصدّوا الى من أظهر تلك الأفكار الشعوبية ببيان " المآثر العربية والمفاخر الاسلامية " على حد قول ابن بسام [2].

* رسالة ابن غرسيّة الشعوبية :

كان أول من أثار نغمة الشعوبية في الأندلس، بشكل واضح صريح، وعبر عن احتقاره للعرب، وحقده عليهم في رسالة مطولة : هو رجل أصله من نصارى البشكنس اسمه أبو عامر أحمد بن غرسية [3]، وقد وجه رسالته الشعوبية الى الأديب أبي جعفر بن الخرّاز [4] وهو يلومه فيها على " تركه مدح مجاهد واقتصاره على مدائح ابن صمادح التجيبي " [5] وهذا نفسه هو السياق الملائم للنغمة الشعوبية، لأن مجاهدا صقلبي، لا يتحرك فيه وَتَر للعروبة، وان كان لا يُنكَر جهاده ضد النصارى في اطار حملاته البحرية. بينما ينتمي بنو صمادح الى التّجيبيّين، وهم من أصل عربي أصيل [6]. أفكنا ننتظر من مجاهد أن يعاقبه على تحقير العرب كما كان يفعل لو أنه حقّر الصقالبة، وسخر منهم ؟

---

(1) وهل هي اليوم شيء غير هذا ؟
(2) ذ : 2/3، ص : 705 .
(3) أبو عامر أحمد بن غرسية كان صبيا نصرانيا من البشكنس سُبي صغيرا، ورباه مولاه مجاهد الصقلبي أمير دانية والجزائر الشرقية، وعاش في دولته .
(4) أحمد بن محمد أبوجعفر ابن الخراز. وسماه صاحب المغرب "ابن الجزار الشاعر" (2/407) وجعله صاحبا لابن غرسية .
(5) ذ : 2/3، ص : 704 .
(6) جمهرة أنساب العرب للامام ابن حزم .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتبدأ رسالة ابن غرسية باثارة حفيظة ابن الخراز على بني صمادح باظهارهم في صورة المقصر نحو شاعرهم ، اذ لم يكفوه حاجته ، وألجأوه الى أن يضرب في الأرض القاحلة اليباب ، ولا يقصد الجيل النجيب الذي يتألف من " الصهب الشهب " الذين " ليسوا بعرب ذوي أينق جرب ، بل هم القياصرة الأكاسرة[1] . وهذا هو المدخل الذي يتيح له أن يشرع في الفخر بالأعاجم ، وأن يذم العرب في أثناء ذلك .

وطريقة ابن غرسية في الفخر بالعجم هي ايراد الفضائل في صورة صفات ايجابية لهم ، ثم يعقبها بنفي صورتها السلبية ، المخالفة أو المناقضة لها ، وهي التي يجعلها من نصيب العرب دون أن يصرح بذلك أحيانا . كأن يقول مثلا : " مجد نُجُد : بُهْم لا رعاةُ شُوَيْهات ولا بَهْم ، شُغلوا بالمَاذِيّ والمُثَران ، عن رعي البُعران ، وبجلب العز عن حلب المعز . جبابرة قياصرة ، ذوو المغافر والدروع ، للتنفيس عن رَوْع المَرُوع ، حماة السروج ، نماة الصروح ، صقورة غليت عليهم شقورة..."[2] .

والغريب أن أكثر ما يفخر به ابن غرسية صفات تعودنا أن لا نتصورها الا للعرب ، سواء حسنت في الأنظار أو ساءت ، من نوع الاسراع الى شنّ الغارة ، والتعويل على السلاح وحده ، والعناية باعداد آلة الحرب ، وحبّ الموت ، والاقبال على المنية . . . . فاذا بابن غرسية لا يكتفي بأن يجعلها من نصيب قومه العجم . بل يعمد الى نفيها عن العرب . ولنسمع اليه يقول : " اذا قامت الحرب على ساق ، وأخذت في اتساق ، وقُرِعت الظَّنَابِيب ، وأُشْرِعَت الأنابيب ، وقَلَّصَت الشِّفاه ، وفَغَر المِدان فاه ، وولّى قفاه ، أَلْفَيْتَهم ذَعَرَة الناس ، عند احمرار الباس ، الطَّعْنُ بالأَسَل ، أحلى عندهم من العَسَل "[3] ، وهو في أثناء ذلك - وهذا أيضا من غرائب هذه الرسالة - يكثر من التمثل بأشعار العرب التي قيلت في الحماسة والشجاعة وصدق الاقدام في الحرب . . . من مثل قول أبي تمام الذي أورده مباشرة بعد الكلام السابق :

---

(1) ذ : 3/2 ، ص : 706 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 707 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُسْتَسْلِمِين الى الحُتُوف كأنما .·. بين الحتوف وبينهم أرحَــام .

ويبلغ ابن غرسيــة قمة عالية في المغالطة حين يأتي الى بعض ما عُرف للعرب دون غيرهـم من سائر الأمم ؛ أو هو ما اشتهروا به حتى عُرفوا به ، ونُسِب أكرمُه اليهم ، فيجردهم منه ، ويجعله من نصيب قومه . من ذلك ركوب الخيل وتربيتها ، والمعرفة الدقيقـــة بشؤونها . أليس مدهشا أن يقول ، مبتدئا بتأويل يناسب ادعاءه لبيت أبي العلاء المعري؟ :

مِنَ الأُلَى غيرُ زَجْرِ الخَيْلِ ما عَرَفُوا .·. إذْ تَعْرِفُ العُرْبُ زَجْرَ الشَّاءِ والعَكَرِ .

فالبيت قاله عربي في العرب وليس في العجم ، وصاحب الشعر يقصد ، كما قال شارحه : " انهم قوم ملوك ، فهم يزجرون الخيل ، اذ كانت الابل والشاء انما يزجرها العبيـــد والصعاليك . أو هؤلاء أصحاب حروب ومغاورات"(1) أما صاحب الرسالة فهو يستشهد به على أن العرب خلقوا لرعي الشاء والابل . ثم يردف بعد ذلك قوله في قومه : " بُصُرٌ صُبُرٌ : تردان بهم المحافل والجحافل ، كواكب المواكب ، قيول على خيول ، كأنهم فيول ....."(2)

ويذم العرب بأنهم أبناء " ذوات الرايات "(3) . ويسكناهم بيوت الشعــــر واستغنائهم بالبعر عن الحطب ، وأكلهم الأحناش ....

ويخلص بعد ذلك الى الفخر بعلوم العجم ، فيسميها بأسمائها اليونانية قائلا في ذلك : " حَمَلَةُ عِلْمٍ : ذوو الآراء الفلسفية الاريضية ، والعلوم المنطقية الرياضية ، حملة الاسْتُرُلُوميقي ، والجُومَطْرِيقي ، والعلمة بالارَتماطيقي ، وأَنُولوطِيقا ، والقَوَمَةُ بالموسيقى والفُوطيقا ، والنَّهَضَة بعلوم الشرائع والطبائع ، والمَهَرة في علوم الأديان والأبدان ، ماشئت من تدقيق وتحقيق ، حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية ، لا على وصف الناقة الفَدَنِيَّة "(4).

---

(1) سقط الزند ، 140/1 (شروح سقط الزند ، طبعة الدار القومية ، القاهرة 1964 .
(2) ذ : 2/3 ، ص : 703 .
(3) اشارة الى البغايا في العصر الجاهلي ، وقيل انهن كن يرفعن رايات على بيوتهن لتكون علامات مميزة لهن .
(4) ذ : 2/3 ، ص : 711 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويختم باستثناء الرسول عليه الصلاة والسلام فهو : " ابن عمنا ، الذى بالبركة عمنا ، الاسماعيلي الحسب ، الابراهيمي النسب . . . " ولا ينبغي أن يجني العرب أى فخر من كونه واحدا منهم ، لأنه يقول لهم : " ولا غرو ان كان منكم جِبْرُهُ وسِبْرُهُ ، ففي الرغام يلفى تِبره ، والمسك بعض دم الغزال ، والنِّطاف الجذاب مستودعات مسك الغزال "(1)

وهو لا ينسى أن يمجد الرسول الكريم ، لأنه كما قلنا يريد أن يفرق تفريقا " تكتيكيا " بين العروبة والاسلام ، فيقول : " بهذا النبيّ الأمّي أفاخر من يفخر، وأكاثر جميع من تقدم وتأخر ، المُنيف الطرفين ، الشريف السلفين ، المتلقّى بالرسالة . . أُصَلّي عليه عَدَدَ الرمل ، وعَدَدَ النمل . . . "(2)

وتنتهي رسالة ابن غرسية بمثل ما بدأت به : لوم ابن الخراز على تركه لمدح أمير دانية والجزائر الشرقية الذى يكيل له المديح قائلا : " العلق الربيح ، سهمنا النفيس ، وشهمنا الرئيس ، معز الدولة . . . . " ويوجه هذا التهديد الصريح الى هذا الشاعر : " نحن معشر الموالي لا نوالي الا من هو لعظيمنا موالي فاستأخر أو تقدم ، وحذار أن تقرع سن الندم . . . "(3)

هذه هي رسالة ابن غرسية الشعوبية ، وقد حاولنا أن نلخص أهم الأفكار الواردة فيها ، وهي اجمالا لا تخرج عن فخر بالعجم الذين أخرجهم في صورة الشجعان الكرام ، ذوي النسب الصحيح ، والعيش الكريم ، والخلق القويم ، والفكر النير الذى أبدع في كل علم ، أما العرب ، فتبدو لهم صورة باهتة القسمات ، لا مجد فيها ولا سؤدد : حياتهم بؤس ، ومعيشتهم شظف ، ومسكنهم حقير ، ورزقهم فقير . . . وبالجملة فانهم أمة عقيم ، لا تنبت فيها للشرف نبتة ، باستثناء الدوحة النبوية التي جاءت فيهم ، كما يجيء التبر في التراب . . .

---

(1) ذ : 3/2 ، ص : 712 .
(2) نفسه ، ص : 713 .
(3) نفسه ، ص : 714 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* الردّ على رسالة ابن غرسية :

ولقد ردّ على هذه الرسالة عدد من الأدباء يذكر منهم صاحب الذخيرة ثلاثة هم، على الترتيب الذي أوردهم فيه : أبو جعفر بن الدّودين[1]، فأبو الطيب عبد المنعم القروي[2] فابن عباس[3].

هذه الردود يجمعها ، بطبيعة الحال ، شيء أول ، وهي أنها كلها تمجد العرب ، وتفخر بهم ، وتضيف اليهم شريف الأعمال ، وتذكر أهمّ الأحداث المشرفة في تاريخهم القديم ، وثاني شيء يجمعها أنها تسفه رأي ابن غرسية ، فتردّ كيده الى نحره ، بتحقيره ، وتحقير قومه العجم ، وذكر سوآتهم ، وتأويل معظم الأمجاد التي فخر بها بكشف جوانبها المخفيّة . وقد قلبوا أحاديث فخره بهم ، الى رذائل ونقائص تدعو الى الاستهزاء والسخرية ، لا الى الاجلال والاعجاب .

واذا كانت هذه الرسائل تلتقي عند النقاط التي ذكرناها ، فانها تختلف بعد ذلك في كل شيء : في طريقة تناول المعاني التي تردّ بها ، وفي أسلوب تناولها ، وفي مبلغ شدّتها على ابن غرسية وتعنيفها له ، وفي اختيار الحوادث التاريخية التي تمثل بها لمجد العرب أو لمعايب العجم . . . . ونحن لن نتناول شيئا من ذلك لأنها معان يسهل علينا أن نتصورها ، ولو أننا قمنا بتلخيصها ، أو تتبعها والتعليق عليها لخرجنا الى التطويل الممل دون فائدة معلومة[4].

---

(1) أبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي كاتب شاعر ، لقيه صاحب الذخيرة ، وشافهه سنة 477 هـ بالاشبونة ، وأملى عليه فيها رسالته التي ردّ بها على ابن غرسية . وانظر ذ : 2/3 ، ص : 703 .

(2) أبو الطيب عبد المنعم بن من الله القَرَوي ، كاتب شاعر ، توفي سنة 493 هـ .

(3) أبو جعفر أحمد بن عباس وزير امارة " المرية " في عهد زهير الفتى . وقد قتل هو وأميره في غرناطة عام 429 هـ .

(4) هذه الردود موجودة كلها في كتاب " الذخيرة " . وأماكنها كما يلي من المجلد الثالث ، القسم الثاني (2/3) .

— رد أبي جعفر بن الدّودين ، ص : 715 .
— رد عبد المنعم القروى " " 722 .
— رد ابن عباس " " 746 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نختم هذا الحديث الذى حاولنا أن نبيّن فيه هذه المجالات المختلفة التي شاء أدباء الأندلس أن يتناولوها في نثرهم ذى الطابع الوصفي . والظاهر أن الانشاء قد وصف مظاهر الطبيعة فكان فيها طورا تقليدي الطابع ، بارد النَّفَس ، حين صدر عن مجرّد المعارضة الفنية لبعض النصوص ذات الشهرة ، ولكنه استطاع في مناسبات أخرى كثيرة أن يجمع بين دقة الوصف ، وعمق العاطفة وصدق المشاعر ، فأحسن التطرق الى أسمى المحيط من جمال ، وعرف كيف يعبر عن النظرة الجمالية والدلالة الفنية في عدد من الأدوات لا يكاد الانسان عادة يلتفت اليها ، لأنها مما يستعمله في حياته اليومية .

بيد أن النثر الأندلسي في هذه الفترة قد حلق تحليقا بعيدا حين تناول وصف الحالات النفسية ، ونقل تلك اللحظات المشحونة بالاحساسات المتفجرة في أوقات الضيق والحرج .

وقد دخل النثر حلبة الصراع الفكرى ، والنضال المصطبغ بالصبغة المذهبية — السياسية ، فنقل الينا جانبا معتبرا من ميلاد " القومية الأندلسية " — ان جاز لنا أن نستعمل مثل هذه المصطلحات الحديثة — وانبعاث المشاعر المعادية لها . فكشف لنا الأدب النثرى عن عينات صالحة من طرائق الدفاع عن الحضارة التي يحس الفرقاء المختلفون بأنهم ينتمون اليها .

ولعلّ أغرب ما في ميلاد هذه " القومية " أنها نشأت على أساس ليس بعيدا عن فكرة معاداة الثقافة المشرقية المُمَثَّلة خاصة في رجالها المشهورين من علماء وشعراء وكتّاب ، احساسا من رجال الأندلس بأنهم ينافسونهم في عقر دارهم ، ويستولون دونهم على قلوب وعقول مواطنيهم الأندلسيين . ولكن هذه " القومية " لا تتنكر لأصلها العربي ، اذ نراها ما ان يَجْرُؤ أحدُ الكتاب ، من ذوي الأصول النصرانية الاوربية ، على النيل من العرب ، وتحقيرهم ، انطلاقا من مذهب شعوبي صريح ، حتى يتصدّى له نفر من ألمع أدباء العصر ، برسائل مطولة يتغنون فيها بالأمجاد العربية ، ويُعْرِبون فيها عن تعلقهم الشديد بهذا الركن من انتماءاتهم الأصلية .

وقد كشف هذا الصراع ، فيما كشف ، عن عوامل الهدم التي يُبدي أصحابها — نفاقا — التشبث بالاسلام ، لتخلو لهم سبيلُ النَّيل من " العروبة " ،

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهي نفس العوامل التي سيأخذ شأنها في التعاظم شيئاً فشيئاً فتنخر المجتمع من داخله ، وتوصل البلاد ومن فيها الى ذلك المآل المشؤوم الذي نعرفه .

هذه كلها مجالات دخلها النثر الأندلسي ، ونهض — خير نهوض — بالتعبير البليغ عن مضامينها الثرية ، ومحتوياتها المتنوعة . غير أن النقلة الكبيرة التي تحققت للنثر ، والقفزة العظيمة التي أتيحت له في المجال الفني البحت ، انما هي توشيحه لأن يغدو أداة للتخاطب لا بين الأزهار والورود فحسب ، بل بين سائر المعالم الفنية التي يصنعها الانسان لراحته ورفاهيته فتتحاور وتتصارع فيما بينها ، كما يتحاور الناس ويتصارعون .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب — المفاخرات الخيالية

كنّا ، في نهايات الباب الأول من هذا البحث ، قد وقفنا على نموذج من النصوص ، دخل النثر الأندلسي بواسطته ميدانا جديدا كل الجدة ، وهو إنطاق الأزهار بما يجعلها تذكر محاسنها ، وتفضل نفسها على أصناف أخرى من الزهور والورود[1]. أما في الفترة المؤرخة الآن فان النثر قد تناول كل ما يخطر على البال من الأغراض التي لم يكن يلم بها مطلقا ، حتى لم يعد شيء من هذا القبيل يثير العجب أو يستحق الاستغراب . والمهم الذي تجدر ملاحظته هو : أن هذه الصيغ من اجراء الحوار بين النباتات قد اتسعت حتى غدت ميدانا يتسابق فيه الكتاب ، ويعارض فيه بعضهم بعضا . ثم ان هذا الأسلوب قد تجاوز الأزهار الى معالم أخرى من الفنّ والجمال توفر ظروف الراحة والرفاهية ، أو الى ما يحمل دلالات تاريخية ورموز اجتماعية من الأدوات التي يستخدمها بعض الناس ، ويمكن أن يراها الجميع في حياتهم اليومية . فاذا بهذه الكائنات العجماء تفصح عن فضائلها ، وتتحاور فيما بينها ، وتتباهى بمناقبها ، كما يتحاور البشر ويتباهون .

ولقد حصرنا ما بأيدينا من هذه المحاورات والمفاخرات التي أجراها الكتاب بين تلك الموجودات المختلفة ، فوجدناها تنقسم زمرا كما يلي :

1 — مفاخرات بين الأزهار .
2 — مفاخرات بين المباني .
3 — مفاخرات بين الأدوات .

* — المفاخرات بين الأزهار :

ليس جديدا علينا حبّ الأندلسيين للأزهار ، وولوعهم بها ، واعتناؤهم بحدائقها . . . وليس جديدا علينا اختلاف الناس ، في تفضيل هذا النوع أو ذاك . فقد يميل هذا الى البَهَار ، ويستحسن غيره النَّرجس ، ولا يرى آخر أحسن من الورد . . . وانما الذي يستحق الانتباه ، من الناحية الأدبية ، هو أن لا يكتفي الأدباء بالحديث

---

(1) نقصد رسالة أبي مروان عبد الملك بن ادريس الجزيري (توفي عام 394 هـ) وهي في الذخيرة 1/4 ، ص : 43 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هذا الميل ، وتحليله بابراز محاسن النوع المفضل من الأزهار ، بل يشخصون هذه الأزهار يُنطقونها بالفخر ، في منافسة فنية بديعة .

فمن أوائل أدباء القرن الخامس الهجري الذين سلكوا هذه السبيل : الأديب أبو حفص بن برد الأصغر [1] الذي كتب الى أبي الوليد بن جهور [2] رسالة ، لاندري مناسبتها ، اجرى فيها هذا الحوار الطريف . وقد بدأها بالاشارة الى اجتماع عقدته الأزهار والأنوار بغية ايجاد حلف فيما بينها . فقام قائم منها يحمد الله ويشكره على ما منحه أنواع الزهر من حُسْنٍ جعلها تُحب وتُقْتَنَى . ثم يشرع فيما يشبه النقد الذاتي لعدم الاعتراف بالفضل لذويه . ويتمثل ذلك في إنكار الرئاسة على الورد مع أنه " الأكرم حسبا ، والأشرف زمنا "[3] .

ويجلس هذا الخطيب — الذي لم يبين لنا الكاتب جنسه — وكأنه حكيم الجماعة ، وضميرها الحي ، فيقوم البنفسج مؤيدا لهذا الرأي ، مبايعا الورد على الحكم والرئاسة ، وينهض البهار بعده فيرى رأي البنفسج ، ويذهب مذهبه . ويأتي الخَيْرِي آخر المتحدثين ، فيُحقِّر نفسه ، ويُعظِّم الورد ، ويمد اليه يمين البيعة على الطاعة والولاء .

ويختم الكاتب رسالته بالاشارة الى أن مجمع الازهار هذا قد انتهى باعتماد وثيقة رسمية فيها : " هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر وضروب الزهر . . . عندما راجعت من بصائرها ، وألهمت من مراشدها ، واعترفت بما سلف من هفواتها ، وأعطت للورد قيادها ، وملّكته أمرها . . . واعتقدت له السمع والطاعة ، والتزمت له الرق والعبودية ، ووثقت من كل زهر نازعته نفسه المباهاة له ، والاعتزاء عليه في كل وطن ، ومع كل زمن "[4] .

وهكذا كانت أزهار أبي حفص بن برد تلجأ الى النقد الذاتي ، وتعترف بالخطأ ، وتنحاز الى الحق . ثم هي تحرص على أن تكون الأمور على وضوح تام فلا تفترق الا بعد أن توقّع ما يشبه " البيان المشترك " في مصطلحاتنا اليوم ، فتنص على مبايعة

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر ، أديب قرطبي سبقت الاشارة اليه . وانظر ذ : 1/1 ، ص 36 .
(2) أبو الوليد بن جهور ، خلف أباه ، أبا الحزم بن جهور على حكم امارة قرطبة سنة 435 هـ ، وزالت دولة بني جهوره ، بقضاء المعتمد بن عباد عليها سنة 462 هـ ، في خبر طويل ، أوجزناه في الفصل الأول من هذا البحث .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 123 .
(4) نفسه ، ص : 129 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الورد ، وتجعل هذا العقد مُلزما لكل أنواع الزهر ، حضر أم لم يحضر هذا المجلس ، وأدرك زمانه أم لم يدرك الورد . وهي مبايعة فيها معنى الخضوع المطلق الذي يبلغ حد " الرق والعبودية " . وهي أخيرا تتبرأ من كل من يشذ عن هذا العقد ، أو يخرج عن بنوده ، بمنافسة الورد في امارته ، أو عصيانه والانتزاء عليه .

وقد اطلع أديب أندلسي آخر على هذا المذهب في تغليب الورد ، وتمييزه بالرئاسة وهو الأديب أبو الوليد اسماعيل بن محمد الملقب بحبيب [1] ، الذي يجعل رسالته تتم مباشرة لرقعة أبي حفص ، فينتهج منهجه من التشخيص للأزهار ، ويحدثنا أن نواوير فصل الربيع — المجاورة للورد مكانا ، والمعاصرة له زمانا — تطّلع على تلك " الوثيقة " فتُنكِر على أصحابها ما جاء فيها ، وتعترض على مبايعة من بايعوه فيها ، وقد عزمت على اسقاط هذه الإمامة المغتصبة ، ونقض ما عقد منها ، " فكتبت الى الاقحوان والخيرى الاصفر كتابا قالت فيه : لو استحق الورد إمامة ، واستوجب خلافة ، لبادرتها آباؤنا ، ولعقدتها أوائلنا ... " [2]

وترى أنوار الربيع هذه أن الجدير بالرئاسة ، والمؤهل الحقيقي لها ، انما هو نور البهار الذي تضمنه بأنه " البادي فضله بُدُوّ النّمار ، والذي لم يزل عند علماء الشعراء ، وحكماء البلغاء مشبها بالعيون التي لا يحول نظرها ، ولا يحور حَوَرُها ... " [3] وأما الورد فتشبه به الخدود . والفرق في القيمة واضح بين الخدود والعيون ، فالعيون من الحواس ، وليست الخدود منها ، والشاعر يعبر عن هذا الرأي في قوله :

أين الخدود من العيون نفاسةً ∴ ورئاسةً ، لولا القياس الفاسد .

ولم يكن أبو الوليد ، هذا بدعا في تفضيل البهار ، فقد ذهب فيه مذهبه أبو عمر بن الباجي [4] وانما اختلف بينهما الأسلوب الذي يعرضان فيه هذا التفضيل . فكل منهما أنطق الزهر

---

(1) أبو الوليد اسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب . أديب مات شابا لم يتجاوز الثانية والعشرين من العمر . وقد توفي نحو سنة 440 هـ . انظر : ذ 2 / 1 / ص 124 ، وهامش المحقق بمصادر ترجمته . له كتاب " البديع في فصل الربيع " .

(2) ذ : 2 / 1 ، ص : 131 .   (3) نفسه .

(4) أبو عمر ، يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي أديب ينتمي الى أسرة انجبت عددا من بلغاء الكتاب منهم جده الباجي . وكان أبو عمر كاتبا للمقتدر بن هود صاحب سرقسطة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بفضائله ومحاسنه ، غير أن رسالة أبي الوليد جاءت في قالب قصصي بينما اكتسبت رسالة أبي عمر طابع السرد المباشر . فقد جعل البهار يُدَبِّج رقعة الى ابن هود المقتدر[1] ، يرجو فيها الانعام عليه بادنائه منه وتقريبه اليه . وتبدو في الرسالة هذه المنافسة الشديدة المُحْتَدِمة بين البهار والورد . فان البهار يقول في رسالته للمقتدر : " ولا اشمت بي عدوًّا من الرياض يناصبني ، وحاسدا من المواوير يراقبني ، وقد ع اسم الورد موقع امارتي ... "[2]

ويبدو البهار في صورة من يعرف لنفسه قيمتها ، ويرى أنها جديرة بعالي المراتب . ومما يفسر به هذه المنزلة التي هو أهل لها انه " سابق حلبة النوار ، وأول طلائع الأزهار " وهو " ناظر الفضل وعينه ، ونُضار الروض ولجينه ، وقائد الظرف وفارسه ، وعاقد مجلس الأنس وحارسه "[3] .

وفي خاتمة الرسالة مدح للملك ، وثناء عليه بعد التصريح بالرغبة في الدنو من مجلسه وهي رسالة رمزية تحمل الكثير من عواطف كاتبها ، في شكر ابن هود ، وبعض تطلعاته الى مزيد من الحظوة لديه .

ويبدو أن المقتدر بن هود هذا له ولوع خاص بالأزهار ، وشغف متميز بها ، فبعد رسالة ابن الباجي اليه على لسان البهار ، نجده يبعث الى أخيه صاحب لاردة ، باقة من الأزهار منها : " الآس " الذي " فأذاع ما حمل من طيب الانفاس " ومنها " مبكر البهار الجني " الذى كان " ممتعا بمنظره البهي ، وعرفه الذكي " ومنها " غَضّ الأُشْقُرْج " الذي جاء محملا بما خُصَّ به البلد من " التراب الدَّمِث والهواء السَّجْسَج " ، بالاضافة الى " الريحان المشموم " ومع الكل " رحيق مختوم "[4]

بيد أن الذى يعنينا أكثر أن هذا المقتدر نفسه يوجه اليه أحد أدباء بَلَاطِه رسالة على لسان النرجس . نجد أن خاطبه البهار بقلم ابن الباجي ، يخاطبه النرجس بقلم أبي

---

(1) المقتدر بن هود ملك سرقسطة بعد أن تغلب على اخوته . توفي سنة 474 هـ .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 134 .
(3) نفسه .
(4) هذه العبارات مقتطفة من رسالة ابن حسداى في ذ : 1/3 ، ص : 469 و 470 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفضل بن حسداي (1) فيقول له ، باذنا بعرض خصاله ، وما يمتاز به على سائر الأنوار من فضائل : " أنا . . . قائد النوار، ووافد الأزهار، وأنا لها جالب وهي طاردة ، ومبشر بورودها ، وهي مُبَيِّتة متباعدة ، فاني غلبت ، بما في طبعي من التيقظ والذكاء ، خُلَد التراب ، وبَرد الهواء "(2).

والنرجس – في هذه الرسالة – شأنه شأن الأزهار الأخرى ، يحاول بوجه خصام أن يسمو على الورد ، وأن يفوقه حسنا وفضائل أخرى ، يقول في سردها : " وفضلت الورد ، سيد الأزهار طرا . . . . . فلي عليه فضل العيون على الخدود ، وشرف السيد على المسود "(3) وهو ما كنا رأينا مثله عند أبي الوليد اسماعيل بن حبيب . ثم لابد أن ننبه أيضا الى أن النرجس يعترف للورد بأنه سيّد الأزهار طُرّا فهو لا يقدم عليه الا نفسه ، كما هو واضح .

وللنرجس أبي الفضل قصة ، كما كان لبهار ابن الباجي . فان رسول الملك يقف على ما يعانيه النرجس من الظروف السيئة ، فيخاطبه متسائلا : " مالي أرى قضيبك غُبْرًا ذَابِلة ، ومنابتك شُعْثا ناحلة ، . . . . وقد ساءني ما عاينت من ضناك وتحولك ، فبادرت جناك إشفاقا من ذبولك "(4) ، وهكذا يتلطف هذا الرسول الملكي بالنرجس ، ويبالغ في الاشفاق عليه من مجاورة " النبات الهشيم " فينقله الى " جناب السرور المقيم " حيث يسعد " بالفوز العظيم ، باستلام راحة الملك الكريم "(5).

ويأخذ هذا الزهر عندئذ في التغني بمناقب الملك ، ومدحه ، والثناء عليه ، كما يأخذ في الفخر العريض على كل نبت أريج بهذه المكانة التي أتيحت له من بلاط المقتدر ابن هود . ولا ينسى أن يشكو ما يلقى من حسد على هذه المنزلة فيرجو من الملك أن يقسو ويشتد على من يكدرون مشاربه من الحساد .

وليس يخفى على أحد ما لهذه الرقعة من قيمة رمزية ، فان النرجس ليس الا أبا الفضل بن حسداي نفسه ، وقد أتاحت له هذه الصبغة الأدبية ذات الطابع القصصي أن يعبر عما يكنه من العواطف ، وعما يختلج في قلبه وفكره من الأحاسيس والآراء .

---

(1) أبو الفضل بن حسداي الاسلامي : أديب من أصل يهودي أسلم وقربه ابن هود . وكان واسع العلم، كثير الاطلاع . وانظر المزيد من أخباره في ذ : 3/1، ص : 457 .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 470 .

(3) نفسه .

(4) نفسه ، ص : 471 .

(5) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تبين لنا بوضوح ، من خلال هذه المجموعة من الرسائل التي وقفنا عندها مدى التنافس الواقع بين هذه النباتات العطرة ، وما يعكسه هذا التنافس بينها من أهواء الناس وميولهما . وهي عواطف رمزوا لها بهذا الصراع الذي أنشأه الأدباء بين النباتات كما أنشأوه أيضا بين المباني والعمارات .

* المفاخرات بين المباني

وصل الينا من هذه المفاخرات نصان كتبهما الأديب أبو جعفر بن أحمد الداني(1) في مخاطبة نثرية تمت بين قصرين من قصور المعتمد بن عباد باشبيلية : أحدهما اسمه " المبارك " ، والثاني اسمه " المكرم " . وهي مخاطبة طريفة لما فيها من أساليب التخاطب الحضاري ، ومايشيع فيها من المجاملة الرقيقة . ولذلك فانه يتعين علينا الاسراع بالتنبيه الى أن المفاخرة الواردة بين القصرين انما هي مفاخرة ضمنية ، تتم من خلال الصفات التي يوردها كل طرف ويجعلها من نصيب الطرف الآخر . فهي في الواقع مفاخرة بحكم الموضوع ، اذ ماذا ينبغي أن تكون " عاطفة " مكان يهجره الملك الى مكان آخر ؟ . فالمفاخرة مسجلة في صميم التبادل الأدبي الذي تم في المراسلة بين القصرين ، وان لم تفصح التعابير المستعملة ، والصيغ الانشائية المستخدمة عن هذه المفاخرة بصفة مباشرة .

يبادر القصر "المبارك" ــ وهو المهجور ــ فيكتب الى القصر "المكرم" ، وهو الذي انتقل اليه الملك ، فيبدأ بحديث له طابع الوقار والرزانة والحكمة فيقول : " نحن ايها المحل السعيد ، والقصر القديم الجديد ، وان نبضت فينا للنفاسة عروق ، نعلم أنه لبعضنا على بعض حقوق ، فما أحقنا بحق المشايعة والمتابعة لما .... تشرفنا به من ولاء الدولة المعتمدية .... "(2)

---

(1) أحمد أبو جعفر بن أحمد الداني ، أبوه " رجل من شرط ابن مجاهد بدانية ، وقد نسبه صاحب الذخيرة الى البطالة والاستهتار . انظر ذ : 2/3 ، ص : 757 ، والمغرب لابن سعيد 2/404 .

(2) ذ : 2/3 ، ص : 759 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبعد هذه المقدمة التي فيها وعي تامّ بالقيمة الذاتية أولا ، وبضرورة الاطمئنان بعد ذلك الى الأقدار التي تصرف كل شيء ، لأن تحول الملك عن القصر المبادي؛ بالمخاطبة ارادة ينبغي عدم مناقشة نتائجها . . . يشرع في سرد شيء من التاريخ فيه تأكيد لقيمة " المكرم " ولكن فيه أيضا ، وهذا هو المهمّ ، بيان قيمة " المبارك " . فان الأول أقدم الاثنين ، وهو الذى اتخذه مؤسس الدولة العبادية ـ القاضي أبو القاسم بن عباد ـ مقرا له ، ثم خلفه فيه ابنه المعتضد . ويضيف القصر المبارك قائلا : " واما ثاب من سعدي ثائب ، وأسعدَ جدي قدرٌ غالب ، درج عنك اليّ ، والح من تلقائك بطالع الاقبال عليّ ، المولى المعتمد ، الذي أحياك رُفاتا قدُم ، وأشبّ منك كبيرا هرم ، كما أحيا من ذكري ، ونوّه من قدري . . . . "(1)

وهكذا فان تحول المعتمد عنه اليوم ، هو بازاء التحول اليه في زمن مضى . وكما هجره الى غيره ، فقديما هجر غيره اليه . فما أجمل هذه النفس الحكيمة التي لا تجد شيئا يستحق الغضب والسخط في تقلبات الدهر وتصرفاته . ولكن هذا الاستسلام للمشيئة التي لا حيلة في تغييرها ، لا يمنع هذا القصر الشامخ من أن يعرف لنفسه قيمتها .

وتعود المجاملة فتطغى على الخطاب اذ تتناول باقي أقسامه محاسن القصر الذى انتقل اليه المعتمد فنجد وصفا جميلا لبساتينه وأزهاره . ويعقب ذلك ندم صادق يبديه "المبارك" على عدم الاتصال بزميله " المكرم " قبل اليوم ، ويحدسني أثناء ذلك هذه العبارة المشحونة بأنواع من الدلالات ، ويقدمها على أنها تفسير لغفلته عن مواصلة هذا الزميل في القصور . يقول : " فاني كنت آنفا في نَحْوِهَا انْتَ فيه اليوم زاهيا "(2).

وتخالف خلاصة هذه الرسالة ما اعتدناه ، اذ يصرح القصر هنا بأنه بحث طويلا عن كاتب يكتب عنه هذا الرقعة فاهتدى الى منشىء هذه الرسالة الذى يرجو له وسيطا يحدث عنه الملك ، فلم يجد خيرا من هذا القصر الذى عمته الرحمة باختيار الأمير اياه مقرا لعمله وسكناه . وفي ذلك يقول : " واسألك فضل العناية به دوني ، وصدق الشفاعة له عني ، عند المولى المنعم . . . "(3)

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 760 .
(2) نفسه ، ص : 761 .
(3) نفسه ، ص : 762 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتنتهي هذه الرسالة بهذا المقطع ذي الملفحة البَيّن صاحِبُها وهي بكل تأكيد غرض رئيسي من أغراض هذا الانشاء التخيلي . فماذا يكون موقف القصر الآخر ؟

يسارع القصر"المكرم"الى الجواب عن كتاب " المبارك " ، وتظهر عليه المسرة منذ الأسطار الأولى ، مسرة بالنعمة التي حصلت لديه ، وسعادة باشتهار أمرها ، وحديث " الناس"عنها . ولكنها مسرة لا تفقده صواب الرأي ، بل اننا نراه يبادل مجاملة رقيقة بمجاملة أرق منها ، ويبادل صاحب الفضل فضلا لا يقل عنه . فيمدح القصر المهجور ، ويمحضها يقول فيه : " لقد هيأت لك الهيأة العلوية ، مراتب سنية ، .... سمت بك صُعُدًا من الصعيد ، ومحتك من عزة السلطان ، ما أتاك بك على الأقران الى العنان ، فأين منك الجوزاء ، وقليل لك أن أقول الابلق الفرد وتيماء ؟ أنت فلك نجوم الملك وسماء رجوم الشرك "(1)

بيد أن هذه الأخلاق النبيلة التي بدت في مخاطبَتِهِ القصرَ المهجور على هذا النحو، لا تنسيه الفخر بفضائله ، والحديث عن محامده التي تتجلى في " روضة غناء ، وحديقة خضراء ، وبهجة زهراء "(2) ، وهي في نظره " محاسن تأخذ بمجامع القلوب ، وتحير صفاتها البعيد ، فضلا عن القريب : أشجار نجمت لحينها ، وتفتقت أثناءُ رياحينها ، نقلت عن ري الى ري ، فتجلت في أحسن زي ... "(3)

وفي هذه الرسالة اعجاب ببراعة كاتبها ، ومهارة منشئها الذي " أوجز فأعجز ، واقتضب فكأنما أسهب "(4) . وهي مع ذلك لا تخلو من ملاحظة خلال صدر علمه ، صفته ضمن الغفلة وعدم الانتباه ، وذلك حين تعجب من تكامل القصر المكرم في زمن قصير ....

ان المعاني التي تضمنتها القصّان تومىء الى عِبَرٍ كثيرة ، وعِظات حسنة حين يتدبرها المرأ من زاوية تقلب الملوك ، وتغيرهم على الناس ، وتقلبهم بالحاشية من حال الى حال

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 762 .
(2) نفسه ، ص : 766 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم يُخفِل الأديب هذين النصّين من المنفعة التي ربما كانت منطلقه الأول، فأشار الى ما يرجوه من حظوة وتقريب لدى المعتمد، وأثنى أجمل الثناء على نفسه بذكر براعته الأدبية، وقدرته الانشائية.

وكما تحاورت الأزهار، وتحاورت العمارات، وتبادلت التحايا والمجاملات، في قالب المفاخرة والمباهاة، تحاورت كذلك الأدوات في أدب الأندلسيين. ولعل أروع ما خلفه لنا هذا الطراز من الانشاء الحوار البديع الذي جرى بين السيف والقلم.

* المفاخرة بين السيف والقلم :

هي رسالة كتبها الأديب أبو حفص بن برد الأصغر[1] الى الموفق أبي الجيش مجاهد[2] وهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون من الانشاء المدحي، ولكن الكاتب اختار هذا الأسلوب فرارا من الطريقة التقليدية.

والرسالة مناظرة حقيقية بين طرفين متخاصمين اشتد بينهما الخلاف حتى أنساهما كل قصد في الاحتجاج، أو عدل في المجادلة. والذي يلفت الانتباه أننا لا نجد هنا ـ في البداية على الأقل ـ اثرا لتلك المجاملة التي كنا وجدناها في الحوار بين القصرين الذي سبق الحديث عنه. ثم ان رسالة ابن برد هذه حوارية مستوفاة للشروط يتناوب فيها الخصمان على الكلام. يبدأ القلم بالتباهي بما ورد له من ذكر في القرآن الكريم، في قوله تعالى : " ن، والقلم وما يسطرون " وفي قوله عز وجلّ : " إقرأ وربك الأكرم الذي علّم بالقلم ".

غير أن السيف يحرص على المسائل البيّنة، والفوائد المادية الملموسة، والصفات المجسدة التي لا يختلف اثنان على حقيقتها : وهي قدرته على التفريج عمن يحمله، وقيمته في نصرة الحق. ويحاول القلم أن يحرز نوعا من السبق عندما يقرر أن الممالك تدور على الكتابة، وما تنتجه الاقلام من مخاطبات. ولكنه ميدان لا يعدم فيه السيف فخرا فيذكّره بأنه هو أداة الملوك وحليتها، لا القلم.

(1) أبو حفص بن برد الأصغر، سبقت الاشارة اليه منذ قليل.
(2) الموفق بالله أبو الجيش مجاهد : هو الفتى العامري الصقلبي الذي أقام دولة في دانية والجزائر الشرقية. توفي سنة 436، وقد حكم ستا وثلاثين سنة. انظر ما كتبناه في الفصل الأول من هذا البحث.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذه الرسالة مناقشات طويلة يحشد لها الكاتب ضروبا من الحجج والبراهين، ويتفنن في تشخيص الأداتين حتى ليلبس القارئ أنه حديث خيالي مصطنع، وذلك بما يبثه من الحيوية في الحوار، وما يضيفه على السيف والقلم من العواطف البشرية، وما يهيئ لهما من أنماط السّلوك الانساني .

ولنستمع الى القلم وهو يعدد بعضا من مساوئ السيف، وأفعاله الذميمة . يقول له : " تَتَرَوّد ما يبغّض الصفاء، وتكدّر ما أخلص الاخاء، وتوكد أسباب الفتن "(1) . وهو في نفس السياق يمدح نفسه بمثل قوله : " أحكم فاعدل، وأشهد فأقبل، وترحل عزماتي شرقا وغربا ولا أرحل، أعد فأفي، وأستكفي فأكفي، أحلب الغنى من ضروعه، واجتني الندى من فروعه "(2) .

ويجيب السيف، ويكيل الصاع صاعين، فيبدأ بالتحقير من محاوره قائلا : " لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة، وانتفاضا بجناح كسيرة . أمستعرب والفلس ثمنك ؟ ومستجلب وكل بقعة وادلك ؟ جسم عار، ودمع بار، تحفى فتُقصل بَريا، حتى يعود جسمك فيا . ان الملوك لتبادر الى دركي، ولتتحاسد في ملكي، ولتتوارثني على النسب، ولتغالي في على الحسب، فتكللني المرجان، وتحلني العقبان ... "(3)

وهكذا يتعاتب السيف والقلم على هذا المنبر يتبادلان من خلاله السباب، والتهم، ويُعرّض كل منهما بالآخر، ناسبا كل فضل الى نفسه .

ثم طال بينهما هذا الخلاف، واستفرغ كلٌّ جهده في النيل من صاحبه، فجنحا الى السلم، واعترفا بأنه يقبح بهما أن يستمرا في تشتيت شمل لا يتحقق المجد الا بالتئامه . فاقترح القلم أن يُبرما عقدا يدوّنان فيه مبادئ ائتلافهما على نبذ كل خصام، فوافقه السيف على ذلك، على أن يتولى القلم تحرير هذه المعاهدة، فارتأى القلم أن تكون شعرا، لأنه " شدو الحادي، وزاد الرائح والغادي " وهذا الشعر انما هو في الحقيقة مدح لمجاهد :

---

(1) ذ : 1/1، ص : 524 .
(2) نفسه .
(3) نفسه، ص : 525 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قد آن للسيف ألا يفضُل القلما .·. مذ سَخّرا لفتىً حاز الحلى بهما

ويصرح الكاتب، في هذه المقطوعة، بأن الغرض من انشاء هذه الرسالة كلها انما هو مدح الملك :

لَوْلاَ طِلاَ بي غَريبَ المَدْحِ فيك لَمَا .·. وَصَفتُ قَبلَ عُلاَكَ السَّيفَ والقَلَمَا .

وبذلك تنتهي هذه الرقعة الداريفة. والحق أنها، على الرغم من هذا المقصد المدحي المعلن عنه، تنطوي على دلالات لا يستهان بها لما فيها من رموز واشارات تعكس ما هو موجود بالفعل في الحياة الأندلسية وتنشد من صراع مستحكم بين رجال القلم، وهم النخبة المثقفة الطامحة في احتكار السلطة، وبين رجال السيف الذين يعتقدون أنهم الأجدر بالحكم، لأنهم الأقدر على توفير شروطه، والمحافظة عليه والدفاع عنه. أما أهل القلم فليسوا عندهم أكثر من خدم وأتباع .

لقد استعرضنا، فيما مضى، نصوصا مختلفة من الأدب النثري، يجمع بينها هذا الضرب من الخيال الذي يمكّن الكائنات التي لا تنطق بلسان البشر، أن تستعير منهم أداتهم للتخاطب بها، واجراء الحوار، فيما بينها، عن طريقها .

وقد تبين لنا أنها شكل فني متميز، سندرس خصائصه من هذه الناحية الفنية، في مكان آخر، وانما الذي يعنينا هنا هو هذه المعاني التي اشتملت عليها، والتي ترتبط كلها، بشكل وبآخر، بالملوك والأمراء، تهدى اليهم الرقاع، وتتصارع من أجلهم الجوامد اللطيفة المتصلة بهم. ولذلك كان من رأينا أن هذا الأدب يعكس القدر الأكبر من أحوال الكتاب الذين صاغوه، ويشتمل على الكثير من الدّلالات الرمزية المعبرة عن أوضاع أولائك الأدباء، من حيث انها تشير الى تطلّعاتهم، وتنم عن جوانب من ذلك الصراع الذي لابدّ أنه كان محتدما بين المتنافسين على رضى الملك، ونيل جوائزه، والفوز بقربه والانتماء الى حاشيته .

وكيفما كان الأمر، فان هذه النصوص، تعدّ من الناحية الفنية من مكاسب النثر الكبيرة، في هذا العصر، وعلامة متميزة على طريق نموه، وتطويرا مستمرا لذلك الاتجاه الذي بدأ في أواخر القرن الرابع مع الأديب ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبــي مــروان عبد الملك بن ادريــس الجزيــري [1]. ولكنــه خــطا بعد ذلك مــ
الخطوات الملحوظــة على درب الكمــال ...

كان هذا شأن الشعر وهو يقوم بوظيفــة استعراض المشاعر والمواقــف الناتجة عــن حــالات الصراع الفكــري ، والتناحــر والتباهــي ، فماذا يكون من شأنه حــين يعالج بعض مظاهر الحياة الدينيــة ، وأوضاع الناس الأخلاقــيــة ، ومواقفهــم ازاء المحن الــتي تتعــرض لهــا البــلاد ؟ لابد أن الأدب قد حاول مرّة أخــرى أن ينهــض بدور الواعــظ والمصلــح ، فما هــي حقــيــقــة ذلك وآثــاره في ما وصل الينا من التراث الأدبــي لهــذا العــصــر ؟

* * *

(1) سبقت الاشارة اليه أكثر من مرة . وقد توفي سنة 394 هـ . والمقصود هنا رسالتــه التي ضمنها تنافس أزهار المنصور بن أبي عامر ، وقد كنّى بها عن تنافس كرائمه عليــه . انظر الرسالة في ذ : 4/1 ، ص : 43 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — شعر الوعظ والاصلاح

كان الشعر عند العرب ، منذ نشأته الأولى ، في حدود ما وصل الينا من نماذجه — وعاء لسلوكات مختلفة ، من حيث قيمتها الاخلاقية : منها ما يرضى عنه المجتمع لما له من علاقة بالآداب العامة ، والمثاليات التي آمن بها الناس ، وتمسكوا بها ، ومنها ما هو مناف لكل ذلك ، منحرف عنه ، يمثل السلبيات ، والرذائل التي يحاربها الناس ، ويُنزلون ، بسببها ، شديد العقاب بمن يرتكبها ، ويتمادى فيها ، ويصر عليها[1].

ولم يكن النثر كذلك . فأقدم ما وصل الينا من نصوصه وعيناته مرتبط بالفضائل ، مقتصر على المظاهر الجدية للحياة ، فهو مَثَل سائر ، أو خُطبة محمِّسة ، أو منافرة تشتمل على التفاخر والتباهي بالمناقب الموروثة ، والاحساب الكريمة ، والمجد التليد ، أو هو رُقًى لشفاء الناس ، وأحكام دينية نابعة من عقائد تلك البيئة وأساليب عباداتها لمقدساتها ، كما هو الشأن فيما يسمّى بسجع الكهان ...

وهكذا يسمح لنا أن نقول ان النثر لم يدخل ميدان اللهو الا بعد قرون طويلة من نشأته بين أحضان الحياة الوقورة ، الرزينة ، وحتى المتزمتة الجامدة في بعض الأحيان ، بينما كان الشعر حيناً لهذه ، وحيناً لتلك منذ أقدم عصوره . ومن هنا نتبين أن ميدان الوعظ ، والارشاد ، واصلاح ما فسد من الأخلاق ، والحث على الطريق المستقيم ، من المضامين المتأصلة في الأدب النثري العربي في كل أصقاعه ، لأنها من ملامحه التي ولدت معه ، ولم تفارقه حتى حين جنح — بعد تقدم الحضارة — الى اللهو ، وأخذ ينافس الشعر في كل مجالاته .

وبامكاننا أن ندرس شعر الوعظ والاصلاح الذي أنشأه أدباء الأندلس في هذا العصر على أساس ثلاثة جوانب هي أهم محاوره :

أ — الجانب التعبدي .
ب — الجانب الارشادي .
ج — الجانب السياسي — الاجتماعي .

---

(1) نعني ظاهرة " الخلع " في العصر الجاهلي التي كانت تعاقب بها القبائل بعض المارقين المنحرفين من أفرادها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ـ الجانب التمهيدي

من المعلوم أن النفس هي الأَولى والأَحرى باصلاح صاحبها ، وأن الاصلاح الذى يَنشُده كل راغب فيه لدى الخير ، لا يستقيم على الوجه المطلوب ، ولا يؤتي ما يرتجى له من الثمار ، الا اذا صدر عن نفس أخلصت السير في مناهجه ، وعملت بكل مبادئه ومنطلقاته .

وأي شيء أصلح للنفس ، وأقوَم لها من أن تجد الطمأنينة التامة في حمد ربّها ، وشكره على ما منحها من نعم ؟ ولا غرو ما شاء المولى تعالى أن تكون الوظيفة الأساسية لمخلوقاته عزّ وجلّ ، كل مخلوقاته ، هي أن تسبح بحمده .

ولذلك عددنا من دعوى هذا المحور ، تلك الفقرات القصيرة ، التي أنشأها الأديب أبو حفص بن برد الأصغر في التحميدات ، والتي منها على سبيل المثال قوله : " الحمد لله جالي الكُرب السود ، وفاتح المبهم المسدود ، الذى أقال العثرات ، وأدال من الحسرات ، وأنتاش من البأساء ، وأعقب بالنعماء ، وأراح من جهد البلاء "(1)

وهي فقرات عديدة ، في نحو صفحتين من كتاب الذخيرة ، كلها على هذا المنوال في حمد الله على بديع صنعه ، وكبير علمه ، وعلى خفي أسراره ، وهي أنواره ... وتأتي نغمة الحزن والأسى ، وطلب التأسي والارتجاء في بعض هذه التحميدات كحديث الكاتب في الفقرة السابقة عن الكُرب السود ، وكقوله في مكان آخر : " الحمد لله وان عثرت الجدود ، وهوت السعود ، المرجوّ للادالة ، والمدعوّ في الاقالة ، والقادر على تعجيل الانتصار ، والآخذ للاسلام بمُليم الشار "(2).

وقد أورد صاحب " الذخيرة " هذه التحميدات بدون تفسير واضح لها ، ولكن صاحب " المغرب " الذى أوردها أيضا ذكر أنها مقتطفة من كتاب صنفه ابن برد ، ورفعه للمعتصم بن صمادح (3).

وكما حمد الله وأثنى عليه ، فانه شكره على نعمه ، والحمد والشكر مثلا زمان ، فمن ذلك قوله

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 492 .
(2) نفسه ، ص : 493 .
(3) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد 1/36 . والمعتصم بن صمادح هو صاحب المرية ، حكم فيها من 444 الى 484 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" أن للنعم عيونـا اذا كُحلـن بالشكر أرين المُنعَم عليه السبيل التي يأتي المزيدُ منهـا، وتنحدر المواد عليها، والمناهج التي تفضي بها الى دار اقامتهـا، وتبلغها مأمَنها، ومُلقى عصاهـا "(1).

وقـد جعل صاحب " المغرب " هذه الفقـرة في شكر النعم جزءا من الكتاب الذي ذكر انه صنفه لابن صمادح ".

ومما يلتحق بهذا الضرب من التعبد، أداء الفرائض الدينية. واذا لم يكن من سبيل الى اظهار التعلق بها، عن طريق وصف الانسان نفسه وهو يؤديها، فمن المناسبات المواتية أن يتحدث الانسان عن أداء الغير لها، ويتلـذذ بذكرهـا، ويترديـد الكلام فيهـا.

من ذلك الرسالة التي أنشأها الأديب أبو القاسم بن الجد (2)، والتي خاطب بها من أدّى فريضة الحجّ. واذا كان الجزء الثاني منها مدحا خالصا، ينتمي الى الرقاع التي أنشئت في هذا الضرب من التقرب من الأمراء ورجال الدولة، وهو ماكنـا وقفنا عنده في حينه ...، فان الجزء الأول يدور على هذه اللّـذة التي يجدها الكاتب وهو يعدّد تلك الأماكـن المقدسـة، ويصف تنقل الحاج بين معاهدها وان لم يخـلُ من المعاني المدحية. يقـول في ذلك: " اهتز البيت العتيـق لطوافك واستلامك، ورضيت المروة والصفا عن كمـال أشواطك، وتهلل بطن المسيل لسعيك فيه وانحطاطك، ثم بالموقف الأعظم من عرفـة سطـع عرف تخشعك ودعائـك ...."(3) أما الرقعـة التي يبدو فيها الكاتب متفرغـا للتغني بالشعيرة الدينيـة، مقتصرا على التلذّذ بأدائهـا، فهي تلك الرسالة، ذات الطابع الخيالي، التي تصور فيها الكاتب أنه أدى فريضة الحج، وزار المدينة المنورة، ثم خاطـب الرسول، عليه الصلاة والسلام، قائلا: " كتبت يا أكرم الأنبياء وسائـل، وأعظمهم فضائـل، وأعمهـم فواضـل ... وقلبي بحبك معمور ومأهول، وعلى الايمان بك مفطور ومجبول(4).."

---

(1) ذ: 1/1، ص: 434.

(2) أبو القاسم محمد بن عبد الله بن يحي بن فرج بن الجد: فقيه أديب، محدث تولى الافتاء في بلده " لبلـة " وقد تقلد وزارة في الدولة العبادية. توفي سنة 515 هـ.

(3) ذ: 1/2، ص: 233.

(4) نفسـه، ص: 237.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يحدث الرسول عن مقدار الأسف الذي يملأ قلبه لمفارقة مزاره ، فهو ما ان غادر جواره الشريف حتى أخذ يحن اليه ويفكر في العودة الى قربه . وهو يقول في هذا الأمل المتوثب بين جوانحه : " وكيف لا أحن الى قربك ، وأتهالك في حبك ، وأعفر خدي في مقدس تربك ، وبك اقتديت فاهتديت . . . . بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي ، ويتأكد انقطاعي ، وبك استشفاعي ، واليك مفزعي يوم الداعي . . . . "(1)

هذا جانب مما سميناه النثر التعبدي ، وهو يدل دلالة واضحة على اصلاح النفس برفعها الى هذه الأجواء الصافية ، المطهرة . غير أن أوضح أدوات الاصلاح ، عند الداعين اليه تتمثل في الارشاد والوعظ ، والحث على الاعتبار بما يكتنف الناس من عبر .

ب — الجانب الارشادي

ليس شرطا أن يكون الكلام المتضمّن معاني الوعظ والارشاد ، مستقلا عن غيره من الأغراض ، قائما بذاته ، بل انه ربما حَسُن هذا الوعظ والارشاد حين يرتبط بحياة الناس ، ويأتي نتيجة للتعامل معهم ، والاتصال بهم . فهذا أديب " من أفراد الزهاد "(2) يتعدى بعضُ الناس على أرضٍ له فيشكوهم الى من بيده السلطة والحكم . وليس هذا بالأمر المجديه وانما الذي فيه بعض الطرافة هو أن يأتي هذا التَّظَلُّم في قالب العِظَة والحثّ على الاعتبار بما في الدنيا من عبر تدعو الى الزهد فيها ، أو القناعة بما قسم الله منها .

فمن أمثلة الصيغ التي يخاطب بها الوزير الذي تُوجّه الرسالةُ اليه قولُه : " ان للدنيا حرثا والناس زارعون ، وكلٌّ في مَعَادِه ، يأكل من حَصَاده ، وذو الجاه يُسأل في الآخرة عن جاهه ، كما يُسأل ذو المال عن ماله "(3) .

ومن الواضح أن هذا الوعظ يبدو مرتبطا بمصلحة صاحبه ، يخدم منفعته ، ويقضي حاجته . ولكن هذا الكاتب نفسه ، قد يوجه مثل هذا الخطاب الوعظي حتى حين لا تبدو له منفعة واضحة فيه ، كما في قوله الى بعض اخوانه ، في سياق مدحه بالرشاد والصلاح .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 237 .
(2) هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عيسى الالبيري . انظر ذ : 2/1 ، ص : 347 .
(3) نفسه ، ص : 343 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ان للّـه ، يا أخي ، عبادا ، أقام أرواحهـم بِقَيُّو مِيَّتِـه على صراط مستقيـم ، فمشـت بأقدام الصدق الى الحق ، فدنت منه ، فنظرت اليه على جلالـه ، في اتساع كماله ، فخضعت لكبر سلطانـه ، ثم أفاقـت بالاسلام ، ونطقـت بالايمـان . . ."(1)

وان ما يلفت الانتباه في هذا الوعظ أنه ينهج نهجا ايحائيا ، فهو لا يأمر ولا ينهى ، ولا يعد ولا يحذر ، وانما يصف حال المرضيّ عنهم من الناس المتّصفين بما فازوا به من قرب الله . فمنظر سعادتهم الجلية هي لسان الحال الذى يستفز الكلّ الى السير على طريقهم وترسم خطاهم .

أما الوعظ المباشر ، الذى يعتمد صيغ التوجيه ، والمنع ، والنصح ، والردع ، فنجد مثالا له في رسالة الكاتب أبي عبدالله بن مسعود (2) الذى كان له ولد توجه الى الغرب ، وأقبل هنالك على شهواته وملذّاته ، فخاطبه بقوله : "فاز يابُنَيّ من استشعر البر والتقوى ، واستمسك بالعروة الوثقى ، واعتصم بحبل القناعة والرضى ، وتحصن بالعفاف ، وتبلغ بالكفاف..."(3) . وهذا ضرب تقليدى من الخطاب يلجأ اليه كل انسان ويجد نفسه في معترك التوصية بالمحافظة على الأخلاق الكريمة ، وتجنب مذموم الأفعال .

بيد أن أجَلَّ ميدان يمكن أن يجول فيه المصلح ويصول ، انما هو أوضاع الأندلس السياسية والاجتماعية في هذا العصر العصيب من تاريخها . فكيف عالج النثر الاصلاحي هذه الأوضاع ؟

ج ـ الجانب السياسي ـ الاجتماعي

من البديهي أن يكون الحث على الجهاد ، وتعبئة الصفوف في وجه النصارى المتغلِّبين ، واستصراخ المسلمين لتخليص المصابين ، هي المضامين الرئيسية لهذا النثر الاصلاحي .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 349 .

(2) أبو عبدالله محمد بن مسعود القرطبي ، كان أديبا ظريفا كثير الهزل في نظمه ونثره وانظر "المغرب"1/ 134 ، وبه هامش المحقق عن مصادر ترجمته .

(3) ذ : 1/1 ، ص : 549 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كانت مدن المسلمين، وحصونهم المنيعة تتساقط تباعا في أيدي النصارى، فيحزن الناس، ويتشاءمون من المصير المظلم الذي تُنذِر حال التفكك الشامل بوقوعه ... ولكن الذي حدث لمسلمي "بَرْبَشْتَر" قد فاق كل وصف . فقد غزا النرمانديون هذا الموقع الأشم من بلاد يوسف بن هود ، أمير سرقسطة ، وذلك سنة 456 هـ . وقد شددوا الحصار عليه ؛ فلما اشتدّ بأهله الجوع والعطش، استسلموا للعدوّ مقابل تأمينهم على نفوسهم ، ولكن المتغلب نكث عهده ، وأخلف وعده ، وأقبل على تقتيل المسلمين والتنكيل بهم ، وَفَضْح النساء أمام أقاربهنّ، فبلغ عدد القتلى ، حسب بعض الروايات، نحو مائة ألف نسمة ، بينما قدرته روايات أخرى بخمسين ألفا (1).

أنطقت هذه الحادثة الأليمة أديبا كبيرا ، من أشهر أدباء هذا العصر ووزرائه (2) فكتب باسم أهل "بربشتر" رسالة مؤثرة جعلهم يستصرخون فيها اخوانهم المسلمين ويستحثونهم لتخليصهم من العذاب الذي هم فيه . وقد افتتحها كاتبها بهذا المدخل : " من الثغور القاصية ، والأطراف النائية ، المعتقدين للتوحيد ، المعترفين بالوعد والوعيد ... المعتصمين بعصمة الاسلام ، المتآلفين على الصلاة والصيام ، المؤمنين بالتنزيل ، المقيمين على سنة الرسول ... الى من بالأمصار الجامعة ، والأقطار الشاسعة ، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين ، وحماة المسلمين ، ورعاة الدين ، من الرؤساء والمرؤوسين ... "(3)

وبعد هذه التوطئة التي تشدد على مدى قرابة المصابين بباقي الأمة ، وتنص على معالم دينهم وايمانهم ، لتنتبه كل حاسة الى ماسيقولون ، يشرع الكاتب حينئذ في الخطاب ، بادئا بوصف عام لحال أولائك المنكوبين الذين يتحدث باسمهم ، فاذا هم يقولون : " خاطبناكم مستنفرين ، وكاتبناكم مستغيثين ، وأجفاننا قَرْحَى ، وأكبادنا حَرّى ، ونفوسنا منطبقة ، وقلوبنا محترقة ، على حين نشر الكفر جناحيه ، وأبدى الشرك ناجذيه ، واستطار شرر الشر ، ومسّنا وأهلنا الضرّ ... "(4)

وبعد وصف مستدل لوقوع الحادثة ، وتوسّع في ايراد تفاصيل الكارثة التي حلّت بأهل "بربشتر"، وما عانوا من الويلات ، يصل الى الجانب الاصلاحي الذي يهمنا ، في سياقنا هذا ،

---

(1) انظر أخبار هذه المصيبة في الذخيرة حيث أورد أخبارها المؤلف عن المؤرخ ابن حيان . ذ : 3 / 1 ، ص : 179 ومابعدها . وانظر خبر ذلك أيضا عند ابن عذارى 3 / 225 . وقد استرجع المسلمون بربشتر بعد سنة من ذلك عام 457 هـ . وانتقموا لقتلاهم .

(2) هو الوزير الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر . توفي كما ذكر صاحب الذخيرة سنة 474 هـ . انظر ذ : 3 / 1 ، ص : 125 .

(3) ذ : 3 / 1 ، ص : 173 .   (4) نفسه ، ص : 174 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أكثر من غيره ، وهو الحديث عن الجهاد . غير أن الكاتب لا يأخذ مباشرة في الحث عليه ، وانما يمهّد له بالحديث عن حالة التمزق التي يتميز بها المجتمع الأندلسي ، وما صحبها من ضعف هوّن أمر المسلمين على النصارى ، وأطمعهم في القضاء عليهم . وفي ذلك يقول : " ولولا فرط الذنوب لما كان لريحهم علينا هبوب ، ولو كان شملنا منتظماً ، وشعبنا ملتئماً ، وكنا كالجوارح في الجسد اشتباكاً ، وكالأنامل في اليد اشتراكاً ، لما طاش لنا سهم ، ولا سقط لنا نجم ، ولا ذلّ لنا حزب ، ولا فلّ لنا غرب "(1).

ثم نصل الى كلامه عن الجهاد ، فاذا بالاصلاح المنشود ليس خطة لتتميم السعادة الروحية ، أو لاستيفاء شروط الكمال الاخلاقي ، وانما هو المصير الجماعي كلّه في كفّة الميزان ، واذا الخطر الداهم ليس عِلّةً تَعْمي أو تُصْمي وانما هي عاصفة النار تهب باللهب المحرق الذي لا يبقي من الأمة شيئاً ولا يَذَر . وفي ذلك يقول : " الحَذَرَ الحذر ! فانه رأس الخطر ، من بركان تطاير منه شرر مُلهب ، وطوفان تساقط منه قطر مُرهِب ، فلما يؤمن من هذا إحراق ، ومن ذاك إغراق ، فَتَنبّهوا قبل أن تُنَبّهوا ، وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم ، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم . . . ولقد آن أن يبصر الأعمى ، وينشط الكسلان ، ويستيقظ النومان ، ويشجع الجَبان "(2).

أليس هذا إصلاحاً له شأن عظيم في بلاد الأندلس التي تنهشها كلاب الأعادي من كل ناحية ؟ أليس هذا الاصلاح طريفاً لأنه يرمي الى الإقْناع بالحجة والبيان ، والى التأثير وبلوغ شِغاف القلب عن طريق عرض المناظر الرهيبة لمآسي المسلمين ، والتخويف بالمآل الذي قد يؤول اليه الجميع إذا لم يبادروا الى لمّ الشتات وتوحيد الصف ؟

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 173 .

(2) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد انطلقت حادثة "بشتر" هذه أديبا كبيرا آخر هو الوزير الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني[1] الذى خاطب المعتضد بن عبّاد برسالة طويلة يصف فيها حال المسلمين بعد تلك النكبة، ويدعو الأمير الى الجهاد .

وتلتقي هذه الرسالة مع سابقتها في كثير من معانيها . فهي مثلها في تعظيم ما وقع: " وكتابي عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يخبر لورودها وجه الصعيد، بدوها يسف الطريف والتالد، ويستأصل الوليد والوالد "[2] وهي كسابقتها تتعجب من سكوت امارات المسلمين على ماوقع : " كأن الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعد صادق من الصرف والكشف . . . . ان حاربوا موضعا أرسلناه، أو انتسفوا قطرا سوغناه "[3] . وهي مثلها أيضا في كونها لا ترى ماوقع الا بداية لن تنتهي الا بحادث جلل، أو ذاك مايفهم من قوله المقتضب : " وان هذا الأمر له مابعده، إلاّ أن يسبّي الله على يديك دفعه وصدّه "[4] .

غير أن رسالة الهوزني تختلف اختلافا بينا عن سابقتها ولاسيما من حيث النَّفَس الاصلاحي . ذلك أن هذه الرسالة جاءت في قالب المدح للملك العبّادي، فاذاك كان أسلوب الاستنهاض للجهاد والحثّ عليه هو اخراج الممدوح في صورة المهيّئ وحده، لمهمة الدفاع عن المسلمين، والقادر، دون غيره، على الثأر من قاتليهم، ومضطهديهم .

وتحدثنا المصادر الأدبية بأن المعتضد قد كلّف وزيره ابن المعلم[5] بالاجابة عن هذه الرسالة، فيخبرَ الفقيهَ ابنَ الهوزني بأنه (المعتضد) قد حاول جمع الشتات وتوحيد الكلمة، فخاطب أمراء الطوائف بذلك، وأرسل اليهم رسله بهذه الرغبة، ولكن " صُمَّت المسامع، واتفقت في التَّثاقُل المَنازِع . . . . وتُجُوِّزت الجَمْجَمَةُ في ذلك الى الاعلان، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى "[6] . وفي آخر تلك الرسالة يدعو ابنُ عبادٍ الفقيهَ ابنَ

---

(1) من كبار أدباء الأندلس وفقهائها . رحل الى المشرق ثم عاد الى الأندلس واستقر بمُرْسِيَة . الى أن دعاه المعتضد الى اشبيلية حيث قتله بها عام 460 هـ .

(2) ذ : 2/1، ص : 34 .

(3) نفسه .

(4) نفسه .

(5) الوزير أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم . من وزراء المعتمد، كاتب شاعر . أخباره وأدبه في ذ : 2/1، ص : 112 .

(6) ذ : 2/1، ص : 119 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الموزي الى أن يقيم عنده في اشبيلية حيث لن يعدم فيها " المحلّ الرفيع ، والجانب المنيع ، والسكون (.) الى من لم يزل يعتمدك بإيعتاره ، ويشاركك في خاص أسراره ، ويرفع أقدارك فوق أقدار الأكفاء . . . "[1]. ولم يكن هذا اللطف ، في الحقيقة ، الا فخاً وقع فيه الفقيه ، فكانت فيه منيته ، اذ جاء اشبيلية وفيها قتله ابن عباد الذي كان يحرص فيما يبدو ، أشدّ الحرص على أن يسكت ، الى الأبد ، هذا الصوت المزعج الذي يُذكّر الأمراء بواجبهم في الدفاع عن رعاياهم....

ولم يشتغل كاتب بوصف ثغور المسلمين ، والحديث عن مصائبهم ، وذكر ما يلقونه من أذى النصارى في أملاكهم وأرواحهم ، كما فعل أبو عبد الرحمن بن طاهر، صاحب مُرسِيَة[2]، وقد أورد له صاحب الذخيرة مجموعة من الفقرات المقتضبة من رسائل ، لم يشأ أن يوردها كاملةً ، تحت عنوان " فصول . . . في وصف ثغور البلاد ، والاستنفار للجهاد "[3]، الا أن أهم ما كتبه هو تلك الرسالة التي يقص فيها واقعة أسره ، بعد المحنة العظمى التي أصابت بلنسية حين غزاها واحتلها من يعرف بالسيد الكنبيطور[4]، وهي حادثة لا تقل فظاعة عمّا وقع ببربشتر ، ان لم تكن قد تجاوزتها . . . وفي ذلك يقول : " كتبت منتصف صفر ، وقد حصلنا في قبضة الأسر ، بخطوب ، لم تجر في سالف الدهر، فلو رأيت قطر بلنسية . . . وما صنع الزمان به وبأهليه ، لكنت تندبه وتبكيه ، فلقد عبث البِلَى برسومه ، وعفّى على أقماره ونجومه . . . "[5]

من الواضح أن ذكر هذه المصائب ، ووصف بعض جوانبها ، والوقوف عند جزئياتها وتفاصيلها ، يقع في الصميم من أغراض الوعظ والاصلاح ، لأن هذا الارشاد الايحائي ، الذي يبلغ من النفس البشرية ، ومواقع الحساسية فيها ، مالا يمكن أن يبلغه الكلام المباشر، بَالِغًا ما بلغ من الزجر والتقريع ، والافزاع ، والترهيب .

---

(1) ذ : 1/2، ص : 119 .
(2) ابن طاهر: ذو الوزارتين ، صاحب المظالم ، أبو عبد الرحمن بن طاهر . سبق التعريف به . وانظر ذ : 1/3، ص : 24 ، وما بعدها .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 35 .
(4) انظر ماكتبناه عنه في الفصل الأول من هذا البحث . وانظر ماكتبه عنه ابن بسام في ذ : 1/3، ص : 95 ومابعدها . (5) ذ : 1/3، ص : 97 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد يتحقق للكاتب غرض الاصلاح المطلوب عن طريق المدح نفسه ، ولاسيما حين يكون الممدوح من أبطال المسلمين ، فكيف اذا كانت المناسبة مرتبطة باستعادة المسلمين لمدينة كان العدو قد احتلها وبالغ في التنكيل بأهلها . ذلك ما فعله الأديب ابن بسام ، صاحب الذخيرة حين قصّ ما وقع في بلنسية ، ثم وصل الى كيفية استنقاذها من يد "القنبيطور" فقال عن يوسف بن تاشفين ، ملك المرابطين : " وتجرّد أمير المسلمين – رحمه الله – لما بلغه هذا النبأ الفظيع ، واتصل به هذا الرزء الشنيع ، فكانت قذى أجفانه ، وجماع شأنه ، وشغل يديه ولسانه ، يسرب اليها الرجال والأموال ، وينصب عليها الحبائل والحبال . . . . حتى رحض عارها ، وغسل شنارها . . . "(1)

ان أبا الحسن بن بسام لايمدح ، هنا ، أمير المسلمين ، ابن تاشفين ، مدحا تقليديا ، لأنه قد مات ، وهو يشير الى ذلك بقوله " رحمه الله " ، وانما كان يسرد تاريخا ، فوجد الفرصة مناسبة للوقوف عند فضائل هذا الرجل البطل ، ويده الطولى في اغاثة أهل بلنسية والثأر لكل مالقوه فيها من تعذيب وتقتيل(2) .

وهكذا نتبين ، من هذه النصوص المتنوعة التي استعرضنا منها بعض المقتطفات ، المكانة المتميزة التي يحتلها هذا المنزع الاصلاحي الوعظي من نثر الأندلس . ولكننا مضطرون مع ذلك الى القول بأنه جاء دون ماكنّا نتوقع – حجما ، ونوعا – بالنّسبة الى ما نعرفه من ظروف الأندلس . ولعلّ ردّ الفعل على تيارات اللهو ، ومذاهب اللّذّة لم يكن قد استفحل بعد ثم ان المسلمين كانوا قد اطمأنوا الى تنامي قوة المرابطين في الأندلس . وربما استنام بعض الشيء بفضل هذه الطمأنينة ، ذلك الخاطر الذى يُبْقي توجّسهم من الخطر الداهم . ومهما يكن من أمر فانه اصلاح صادق المصدر ، سليم الطوية ، ينبع من ايمان عميق لدى أصحابه بضرورة تغيير السلوك الاجتماعي للأندلسيين ، وتبديل أوضاعهم السياسية بصفة جذرية لتتحقق وحدة الشمل ، وتتعبّأ الأمة أحسن تعبئة ، لمواجهة عدوها اللّدود .

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 100 .

(2) فتحت مدينة بلنسية ، واستعيدت الى حضيرة الاسلام سنة 494 (وكانت قد سقطت في يد "الكنبيطور" سنة 487 هـ) . وقد قاد الحملة لاسترجاعها القائد مزدلي ، ابن عم يوسف بن تاشفين وقد عيّن بعد ذلك واليا على تلمسان (497 هـ) ثم على قرطبة (500 هـ) وتوفي سنة 508 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد كنا نستطيع ، من ناحية أخرى ، أن نوسع مدلول النثر الاستعراضي الذى أفردنا له هذا الفصل ، حتى يشمل جوانب أخرى من أغراضه ، ولاسيما محورين مهمّين ، كانت الخطة التي وضعناها ، في الأول ، تقضي بعدم اخلائه من بعض الحديث عنهما ، وهما: النثر التأليفي ، والنثر التقويمي . وقد جمعنا كل المعطيات اللازمة للكتابة عنهما . ولكن صرفتنا عن ذلك عند التروّي اعتبارات موضوعية ، واخرى منهجية لم يكن بوسعنا اغفالها .

فأما بالنسبة الى النثر التأليفي ، فانه من العسير ، ان لم يكن من المستحيل ، أن نتحدث حديثا له معنى عن مجموعة من الكتب المطولة ، ضمن فصل واحد من هذا البحث ، ينبغي أن يتسع لها ولباقي أغراض النثر الاستعراضي التي أوردناها فيه ، فلو فعلنا ذلك لما زدنا على تناول كل كتاب منها بفقرات قليلة لا تعرّف به حقا ، ولا تدلّ عليه . هذا الى أن أهم الكتب التي كنا نجعلها موضوعا لهذا الحديث قد حظيت بدراسات مطولة اقتصرت عليها (1) .

وأما بالنسبة للنثر التقويمي ، فنحن نقصد به النصوص التي تناولت قضايا نقدية لها علاقة بتقويم ما كتبه الأندلسيون ، تقويما فنيا ، مما تنشأ فيه الرسائل والرقاع المتنوعة . وقد استعرضنا ما تجمع لدينا من هذه الرقاع التقويمية ، فوجدناها في الغالب تتناول الجوانب الشكلية والموضوعات الفنية الخالصة ، فرأينا أن الباب الثالث من هذه الدراسة ، أجدر بها ، لأنه هو الذى خصصناه للحديث عن مثل هذه القضايا التي لها صلة بالأشكال الفنية . ولو تناولناها هنا لما خلا كلا منا ، بعد ذلك ، من تكرار ممل .

بهذا النثر الاستعراضي ، نصل الى خاتمة هذا الباب الذي استقرأنا فيه معظم مضامين النثر الأندلسي ، في هذا القرن الخامس ، استقراءً ، لعلّنا استطعنا أن نتناول ، من خلاله ، كل الأغراض التي عبرت عنها ، في هذه المرحلة الفنيّة بالأحداث من حياة الأندلسيين .

والواقع ان مضامين الأدب هي صورة للاهتمامات التاريخية التي تبديها الأمة ، ويعبر عنها المثقفون . ولذلك فان الأغراض التقليدية ذاتها ، تكسبها الظروف والملابسات المتميزة خصائص تجعلها شديدة الالتصاق بعصرها الذى أنشئت فيه ، وثيقة الصلة بصاحبها الذي جاءت لتعبر عن آرائه ، ومذاهبه ، ومواقفه .

---

(1) أهم من كنا نذكر من المؤلفين ذوي الكتب التي تدخل في موضوعنا : الامام ابن حزم ، والفتح ابن خاقان ، وقد دارت على انتاجها دراسات كثيرة للعرب والمستعربين ، وابن بسام صاحب الذخيرة ، وقد خصصنا له أطروحتنا المخطوطة : " ابن بسام وكتاب الذخيرة "(1976) .

ولعلّنا تبينا الكثير من أحوال الأندلس من خلال أدبها، فعرفنا قدرا غير قليل من مشاعر أهلها أمام الخطر الخارجي، ووقفنا عند الكثير من ردود الفعل التي أفرزها أهلهم في هذا الخطر، فمنهم من دفعه ذلك الى مزيد من الاقبال على ملذّات الدنيا، وشهواتها، ومنهم من توجّه نحو المناصب السياسية يجدّ في السعي اليها، ويتنقل بين الأمراء الذين يأمل عندهم تحقيق بلوغها والوصول اليها.

وكما اختلفت نظرة الناس الى الحوادث، اختلفت آثارها في نفوسهم، واختلفت كذلك تأثيراتها في مسار حياتهم. فكم من غني آل به الأمر الى الفقر والحاجة، وكم من وجيه ذلّ، وكم من رفيع انحط، وكم ذليل عزّ، ووضيع ارتفع. وكما سخر الأدب من تقلبات هذه الدنيا، أذكى في النفوس عواطف التضامن، فتجلّت مواقف التكاتف والتكافل بين الانسان وأخيه المصاب، في أبهى وأروع صورها.

وبالجملة، فقد عبر النثر تعبيرا واسعا عن كلّ التحولات العميقة التي أحدثها الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي الناتج عن انهيار وحدة الجماعة، وقيام الدويلات التي يعرف أصحابها بملوك الطوائف.

وقد تحقق للنثر، طوال هذا القرن، من الاتساع، والتنوع، والتطور، مالم يتحقق له قبل ذلك أبدا. وقد اقتحم الأدب النثرى كل مجالات التعبير حتى لم يعد فيها ما يمكن أن يعد بعيدا عنه أوغريبا عليه. ودلّ موقف الأدباء على هذا التطور حين أقبل الشعراء المبدعون منهم على ترك شعرهم لمناسبات عاطفية محدودة، واتخذوا النثر وسيلتهم للتعبير وأداتهم المفضلة في كل أنواع الاتصال، فكانت قمة التلاقي والتوفيق بين الفنين حين أضحى النثر نفسه نوعا من الشعر.

وبعد، فاذا كان النثر قد حقق هذا القدر من التطور في أغراضه ومضامينه، فهل رافق ذلك تطورٌ يسايره ويُماشيه في صِيَغِه، وقوالبه، وأشكاله الفنية؟ أو، بتعبير آخر، هل أصاب هذا النثر من الطرافة في المبنى مثل ما شهدنا له من الطرافة في المعنى؟

ذلك ما ينبغي أن يجيب عنه الباب الثالث من هذا البحث.

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الباب الثالث

أشكال النثر وخصائصه الفنية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

البـاب الأول :
أشكال النثر وخصائصه الفنية

ليس غريبا أن نجد نصّا واحدا، من نصوص الأدب، ينتمي الى جهتين اثنتين، فيعالج هناك من زاوية غير التي يعالج منها هنا . ذلك أن لكل قطعة أدبية طبيعتين مختلفتين يتكوّن جنسها منهما معا : احداهما تتصل بالغرض، ونسيج المعاني والأفكار، والدلالات المختلفة التي توحي بها القراءة، ويقود اليها الفهم ... وهذا ما جرت عادة الدارسين على تسميته " بالمضمون " . أما الطبيعة الثانية لتلك القطعة فهي التي يلتقي عندها قالب النص الخارجي ، أي بنيته العامة، وصيغ التعبير فيه، أي أساليب أدائه، ومجموع الأدوات الفنية المستعملة ضمنه ... وهذا ما يعرف عند الباحثين " بالشكل " .

والذي يتضح من هذا : أن كل قطعة يخصصها الباحث للدرس والمعالجة، لا تبوح له بمكنون أسرارها الا اذا استنطق طبيعتيها كلتيهما ليستخرج أقصى ما يستطيع من المقومات الكامنة فيهما .

ولقد أتيح لنا، طوال فصول الباب الثاني، أن ندرس مضامين النثر، ومحتوياته المختلفة، وأن نقف عند أصولها وفروعها، كما تجلت لنا من خلال ذلك القدر الوفير من نصوصه المتنوعة . ونحسب أن الذي يسّر لنا الاحاطة بأغلب وأهم الأغراض التي عالجها كتّاب القرن الخامس، هو توزيعها الى فئات متجانسة، ضمن عناوين ترمز الى وحدة صنفها، وتدل على أوضح وأبرز ما يجمع بينها، فلعل ذلك التصنيف كان في حدّ ذاته ضربا من ضروب الدراسة لها .

ومن هنا، فنحن في هذا الباب مضطرون، أيضا، الى أن نبحث عن تصنيف ملائم للأشكال التي اكتساها النثر في هذا القرن، تتوزع بموجبه على فئات متجانسة تمكننا من أن نلم بخصائصها منفردة، وأن نستنبط بعد ذلك، من خلالها، أهم خصائص النوع الذي تنتمي اليه .

ونحن حين نأخذ في البحث عن ذلك التصنيف الملائم، نجد أنفسنا ـ مرة أخرى ـ أمام طريقتين من طرائق العمل : فإما أن نقنع بالوقوف عند مظاهر الأشياء، كما تلوح لنا، لا نتعداها، ولا نلتمس تبيّن ما وراءها، فلا نرى حينئذ في هذا السبيل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من النصوص النثرية ، التي احتفظت لنا به المصادر، الا وسائل كانت تتبادلها الأطراف المتنائية . . . فاذا حرصنا ، غاية الحرص، على تنظيمها من حيث أشكالها ، لم نجد لها أحسن من أغراضها : فمي ديوانية أو اخوانية . . . الخ ، وحينئذ يكون هذا الباب ، في أحسن أحواله ، تكرارا للباب السابق ، وترديدا مملا لما تقدم من الكلام فيه . . .
واما أن ننظر الى هذا التراث نظرة جديدة ، فنربطه بقيم العصر ، ونقرب صلته بمفاهيمنا الحديثة ، فنمسي ، اه أن يبحث في ثوب طريف ، هو لباس الناس اليوم . فاذا أحسنا خلعه عليه ، وأتقنا تكييفه بأوضاعه الخاصة ، بدا في هيأة مقبولة ، مستأنسة ، والانقد تلفظه الأذواق ، وتستهجنه الطباع ، اذا استمر اخراجه للناس في زي متحفي ، أو في حلل المهرجانات " الفولكلورية " . . .

ومما لاريب فيه أن مثل هذا " التحديث " لايجوز له بحال من الأحوال أن يسلك الى التراث طريق التعسف ، أو أن يقسره على مالم يخلق له ، أو أن يؤدي الى ضرب من ضروب مسخه وتشويه جوهره المتأصل فيه . ان البحث عن رداء جديد لهذا الأدب ، انما هو من قبيل اكسابه المزيد من عناصر القوة والحياة ، في حين أن التشويه والمسخ اضعاف واماتة . . . وشتان بين الساعي الى الموت والساعي الى الحياة .

انطلاقا من هذه الاعتبارات كلها ، فانه تبدّى لنا أن أنواع النثر التي درسنا أغراضها في الباب السابق ، نستطيع أن نقسمها ، تبعا لأجناس أدائها الفني وبنياتها العامة الي قسمين رئيسين هما :

1 — الصيغ التخاطبية .
2 — الصيغ القصصية .

فأما صيغ التخاطب فتشمل كل ما ينشئه الأديب من نثر في مخاطبة غيره — كتابة أو مشافهة — لتبليغه رأيا ، أو اطلاعه على خبر ، أو اقناعه بوجهة نظر ، أو تنبيهه الى غلط ، أو غير ذلك من الحالات التي يحتاج فيها الناس الى التخاطب ، خارج الكلام العادي الذي يتبادلونه بصفة تلقائية ، عفوية ، في شأن من شؤون حياتهم اليومية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك جنس آخر من أشكال الكلام قد يلتقي في أغراضه ، وفي أهدافه المعنوية بالقسم التخاطبي ، ولكنه يختلف عنه اختلافا جوهريا في شكله ، لأنه يمتطي الى معاينه أساليب التعبير غير المباشر ، ويعتمد على الايحاء ، والتشويق، والسرد المنبه للخيال ، الموقظ لما في الانسان من قدرة على التصور، ليتمكن من مشاهدة مالم يقع كما لو أنه وقع ، والاستماع الى مالا ينطق ، كما لو أنه ينطق بالفعل ، بالاضافة الى اختيار الاشارات الرمزية التي تحمل عن الكاتب مالا يريد الكشف عنه ، والتصريح به من مواقفه ومذاهبه وآرائه . . . فلهذه الأسباب، كان الأدب القصصي مختلفا كلّ الاختلاف عن أدب الصيغ التخاطبية . ومن هنا تعين أن ندرس كل جنس ، بما يتفرع عنه من أقسام ومحاور ثانوية ، في فصل منفرد .

ولما كانت هذه الدراسة لا تستكمل الا اذا توقفنا عند النسيج الفني الذى يشكل الخلفية الجمالية لكل هذه النصوص، بقطع النظر عن أشكالها المتمايزة، لنتبيّن معالمها الابداعية في العبارة ، والأسلوب ، والموسيقى ، ونوعية الأدوات البيانية التي تعتمد عليها . . . فاننا جعلنا هذه المسائل كلها مادّة للفصل الثالث .

وعلى ذلك تكون بنية هذا الباب على النحو التالي :

1) الفصل الأول : الصيغ التخاطبية .

2) الفصل الثاني : الصيغ القصصية .

3) الفصل الثالث : خصائص التعبير الفني .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأوّل

الصّيغ التخاطبيّة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الصيغ التخاطبية

الصيغ التخاطبية هي الأشكال التي يستعملها الناس ، في زمن من الأزمنة ، لتبادل الحديث فيما بينهم عن طريق الكتابة الأدبية(1) ، وقد تختلف هذه الصيغ من عصر الى عصر ، اذ يسعى كل جيل الى احداث أنماط أقدر على تبليغ ما في نفسه ، والتعبير عما يريد من أنواع المواقف والانفعالات ، ولكننا نستطيع أن نلخص ، غاية التلخيص ، الدوافع التي تحفز الناس الى التخاطب الكتابي الأدبي ، في ثلاثة منطلقات أساسية هي :

1 — تبليغ العواطف الظرفية ،
2 — بسط المواقف والآراء .
3 — ردود الفعل والمواجهات .

وسواء صحت هذه القسمة على مجمل النثر ذى الطابع التخاطبي ، في كل عصر ، أم لم تصح ، على هذا النحو من الشمولية والاطلاق ، فان الذى استبان لنا بكل جلاء أن النصوص الأدبية التي احتفظت لنا بها المصادر ، من الأدب الأندلسي ، في القرن الخامس تنسجم غاية الانسجام مع هذا التقسيم ، ما لم تكن ذات طابع قصصي .

وميزة هذا التقسيم ، فيما يبدو لنا ، أنه يجمع بين اعتبارات الشكل ، واعتبارات المضمون ، في احداث وحدات متجانسة من أنواع النصوص المتوفرة . وهكذا فان منطلقات النوع الأول التي ترمي الى تبليغ العواطف الظرفية ، والانفعالات الآنية ، انما يلائمها من أشكال التعبير الصيغ الترسلية ، كما يلائم النوعين الباقيين أشكال أخرى تتسع لها ، وتقوى على حمل مدلولاتها . مما سنتحدث عنه ، بعد ذلك ، بالتفصيل .

* * *

(1) قصرناها على الكتابة لأن الخطابة الشفوية لم يعد لها أثر يذكر في هذا العصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا : الترسـل
(صيغة التعبير عن المواطف الظرفية)

ماذا نعني بكلمة " الترسل " حين نستعملها في هذا السياق ، على وجه الدقة والضبط ؟

لو كنّا نقصد بهذه اللفظة كلّ نصّ أدبي جاء افتتاحه بصيغة من الصيغ المستعملة في مقدمات الرسالة ، لكان علينا ، حينئذ ، أن لا نرى في جلّ النصوص التي بين أيدينا من النثر الأندلسي ، في هذا القرن الذي ندرسه ، الا مجموعة من الرسائل ، سواء في ذلك منها ماطال وما قصر . ولعلّه لابدّ ، وقتئذ ، عن هذا التصنيف الا طائفة شاذة من النصوص ، يكون منها عدد قليل من المقامات والرقاع ذات الطابع القصصي ، على أن بعضها لم يخل أيضا من مداخل تسلكه ـ حسب هذا المنطق ـ في عداد الرسائل ....

والواقع أنه كان لابد لنا أن نقيد مفهوم الترسل بالصيغ التي نهضت بالتعبير عن المواطف الظرفية لأصحابها ، وانفعالاتهم الآنية ، وما اقتضته ظروفهم الاجتماعية أو السياسية من أنواع المعاملات والمجاملات . وعلى ذلك فان الترسل الذي نعنيه ينحصر في المفهوم التقليدي للرسالة القصيرة التي توجه الى مراسل بعينه ، لإبلاغه ضربا من ضروب المضامين التي ذكرناها ، أو لقضاء أي أرب ظرفي آخر بواسطتها ، من أمثال التهاني والتعازي ، والشفاعات ، والأمر ، والنهي ... وما الى ذلك مما كنّا وقفنا عنده طويلا في الباب الثاني من هذا البحث .

ونحن اذا أمعنّا النظر في الرسالة لنستخرج منها المواطن الجديرة بالدراسة ، من الناحية الشكلية المتصلة بالبنية الخارجية ، والقالب العام الذي تساق فيه ، وجدنا أن أهم ما يسترعي الانتباه ، ويستحق العناية يوشك أن ينحصر في مبادئها وخواتمها ، أي بتعبير آخر : في المداخل التي يمهّد بها الكاتب لعرض غرضه ، وفي المخارج التي ينهي بواسطتها الخطاب . وبين هذه وتلك ترد الصيغ الدعائية التي لاتخلو دراستها من قيمة ، وهي تأتي أحيانا في سياق المقدمة ، وأحيانا في سياق الخاتمة ، وربما جاءت فيهما معا .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأوضح ما ينبغي أن يستقر في الأذهان أن صلب الرسالة لايكاد ينفرد بقالب تعبيرى خاص به ، ولا تعرف له خصائص بنيوية هي وقف عليه ، فيكون من المفيد دراستها على حدة ، ورصد مختلف أوضاعها الفنية .

ونظرا الى أنّ جلّ النصوص التي أخرجناها من حيز الرسالة ، وصنفناها ضمن أنواع أدبية أخرى ، للدرس خصائصها من خلالها ... قد انطوت على مقدمات ، وخلاصات لاشيء يميزها عمّا هو وارد من هذه الصيغ في نماذج الترسل التقليدى ، فاننا — لذلك — لم نستبعدها من البحث ، ولم نفرق ، في الدراسة ، بين ما يأتي من هذه المداخل والمخارج فيما سميناه بصيغ الترسل التقليدى ، وما يأتي منها في الرقاع التي تنتمي الى أجناس أدبية أخرى ، كالتقرير ، والمقال ، والاعلان وما الى ذلك ...

وخلاصة الرأي عندنا ، في هذه النقطة : أن المقدمة والخاتمة هما من صيغ الترسل التقليدى ، تلحقان به ، وتدرسان معه ، مهما كانت طبيعة الرقعة التي تشتمل عليهما .

أ — مقدمة الرسالة

من أبرز ما يحظي الرقعة الأدبية صيغة الرسالة ، ولو في ظاهر أمرها ، تميزها بمجموعة من الرسوم يتشكل منها المدخل الذى قد يسمّى مقدمة . ويبدو أن هذه الخطوات المتتابعة في الرسالة قد غدت في أواخر القرن الخامس، وبداية القرن السادس، من البروز والوضوح بحيث استطاع أبو القاسم الكلاعي[1] أن " يتذكرها "، وأن يحرسها باستفاضة في كتابه " احكام صنعة الكلام "[2]. وقد جعل هذه المقدمة تنطوى على ثلاث مراحل هي كما يلي :

---

(1) محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، أبو القاسم . من أعلام القرن السادس الهجرى . كان أبوه (أبو محمد) من طبقة ابن بسام ، وكان صديقا له (انظر ذ : 3/1 ص : 325) . وكان جدّه (أبو القاسم بن عبد الغفور) صديق المعتمد ، ونديمه ، والمفوض في أمر مملكته . وقد مات شابا . انظر : ذ 3/1 ص : 323) .

(2) كتاب " احكام صنعة الكلام " حققه محمد رضوان الداية — بيروت — 1966 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1) العنوان : وهو أن يرد في الرسالة : " من فلان الى فلان " فيتعين بذلك اسم المرسل ، واسم المرسل اليه . وليس شرطا أن يكتب هذا العنوان على ظهر الرسالة كما قد يظن ، فكثيرا ما تأتي هذه الصيغة في أول الرقعة المكتوبة ، وهي حقاء على هذه الصورة ، بمثابة العنوان لها .

2) البسملة : أو ما يسميه المؤلف " الاستفتاح " وهو أن يثبت الكاتب بعد العنوان مباشرة عبارة " بسم الله الرحمن الرحيم " .

3) الصلاة على النبي : والكاتب يفيدنا بأن الأدباء في عصره لا يغفلون أبداً في رسائلهم الصلاة على الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وانما يختلفون في العبارة التي يختارون استعمالها . " فبعضهم يكتب : وصلى الله على محمّد الكريم ، وهذا لفظ معادل للبسملة في الوزن والسجع ، وبعضهم يؤثر لفظ القرآن . . . فيقول : وصلى الله على محمّد وسلّم تسليما . . . "(1)

وبعد المقدمة تبدأ المرحلة التي يسميها الكلاعي " صدر الرسالة " وقد تكون باستعمال عبارة " أما بعد " ولكنها عنده لا تصلح الّا " في المخاشنة والعتاب"(2) .

والذي يستلفت الانتباه حقا أن التحميد ليس مرحلة من مراحل الرسالة كما رأينا ، وكأن البسملة والصلاة على النبي أغنتا عنه . ولذلك نراه يقول بصريح العبارة : " وكانوا أيضا يستفتحون بحمد الله سبحانه في الخطب ، وفي اصلاح ذات البين ، وفي الاستنفار ، وفي حمالة الدماء ، وفي خطب النكاح ، وفي كل أمر له بال . . . "(3)

ويؤيد هذا الكلام أننا وجدنا أكثرية الرسائل المشهورة في العصر الاموي والعصر العباسي خالية من التحميد(4) وربما خصه بعض الكتاب برسالة مستقلة ، وأفردوه برقعة لا يكون فيها شيء آخر غيره ، فيغدو التحميد عند الكاتب حينئذ ، غرضا أدبيا يقصد اليه قصدا في ظرف معيّن في حياته(5) .

---

(1) احكام . . . ص : 56 .
(2) نفسه ، ص : 53 .
(3) نفسه ، ص : 59 .
(4) انظر مثلا "رسائل الجاحظ "جمع حسن السندوبي ، و "رسائل البلغاء" لمحمد كرد علي .
(5) انظر رسالة ابن المقفع في مجموع " رسائل البلغاء " ص : 135 ، لمحمد كرد علي (القاهرة ، 1946) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما فيما يتصل بوسائل الأدباء الأندلسيين ، فان الغالبية العظمى منها تخلو من كل الخطوات التمهيدية ، فلا نجد فيها عنوانا ، ولا بسملة ولا تحميدا . ومما يدل على أن الذين يجمعون نصوص الأدب ، ويؤرخون لها من كتاب المصادر ، كانوا يختصرون ما ينقلونه منها بحذف الفقرات التمهيدية فيها ، أننا وجدنا ابن سيده (1) يذكر في المقالة التي انتقد فيها ابن أرقم (2) اعتراضه على بعض الاستعمالات الواردة في مقدمتها ، وفي عبارات التحميد منها خاصة . وقد عرفنا ذلك من خلال رد ابن أرقم على منتقده حين قال : " كان أول التحميد : (الحمد لله تيمنا بحمده ، وتحديا لحمده ، الهادى من ارتضاه سبل رضاه ، الحادى من انتقاه الى علم تقاه) فأنكر " تحديا " ووضع مكانه " تصديا " ... (3) .

ان ردّ الكاتب على الانتقاد الصادر اليه من ابن سيده هو الذى افادنا بأن الرسالة كانت في الأصل تتضمن فقرة في التحميد ، أما الرسالة نفسها ، التي كانت سبب هذه الخصومة ، فقد أثبتها صاحب الذخيرة خالية من كل أنواع التقديم (4)

ولا بد من الاشارة هنا الى أن صاحب الذخيرة أورد " فصولا في التحميدات " (5) لابن برد الأصغر ، وهي عبارات مقتضبة ، وفقرات قصيرة ، معزولة عن سياقها : لا تعنينا الآن . ونحن نتحدث عن التحميدات التي يكتبها الأدباء مدخلا لرسائلهم على أنه ينبغي أن نذكّر هنا ، بما كنّا أشرنا اليه ، سابقا من أن صاحب المغرب يخبرنا بأن تحميدات ابن برد هي جزء من فصول كتاب قدمه الى المعتصم بن صمادح (6) .

وأيّا ما يكون الأمر ، فان الرسائل التي بين أيدينا لا تخلو ، في غالبيتها من شكل من أشكال التوطئة والتمهيد ، حتى وان حذفت مداخلها الأصلية . والحق أن ما

---

(1) ابن سيده : أبو الحسن على بن اسماعيل من علماء النحو واللغة في الأندلس . توفي سنة 453 هـ .

(2) أبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد بن أرقم من وادى آش ، وأقام بدانية عند " اقبال الدولة " على بن مجاهد ، ثم انتقل الى المرية حيث المعتصم بن صمادح وهو من مشاهير الرجال في دولته ، توفي في عهد المعتمد بن عباد باشبيلية . وانظر : ذ : 1/3 ـ 360 وهامش المحقق بها .

(3) ذ : 1/3 ، ص : 372 .

(4) نفسه ، ص : 393 .

(5) ذ : 1/1 ، ص : 491 .

(6) انظر ـ المغرب في حلى المغرب ، 1/ 86 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حذف ليس الا تلك الرسوم التقليدية التي تواضع الأدباء على الاستفتاح بها، ثم حاول كل واحد منهم أن يصوغها بما يكون أقرب الى نفسه ، وأشبه بطبيعته . والطريف في هذا السياق أن أحد الأدباء يرى أن المقدمات انها تنفع أولئك الذين لا يعرفون كيف يسلكون الى مراسليهم طريق القلب الواضحة الجلية ، لأن " المقدمات توطيء في الكلام لايضاح النتائج ، وأعزاز الكلام على اطراد المناهج ، وأما أذا كان المطلوب جليا متبينا ، والوداد المرتاد في النفوس زكيا متمكنا ، فتكلف ما يستغنى عنه عي ، لاسيما اذا خوطب ذكي ألمعي ... "(1)

والحق أن الرسالة ، أية رسالة ، لابد لها من توطئة لغرضها ، يمكن الكاتب من الاشارة الى موضوعه ، والشروع في تناوله . وهذا هو الجزء التمهيدي الذي يهمنا ، أكثر من غيره ، لأنه ألصق بالرسالة ، وأوثق علاقة بمضمونها الترسلي ... وهو في الحقيقة عبارات تحقق الانتقال من المقدمات التقليدية الى الغرض المقصود . ويكون ذلك بطرائق مختلفة ، نذكر منها ، على الأخص ، ما يلي :

1 — مناداة المخاطب : وهي وسيلة يستحضر بها الكاتب مراسله ، ويخاطبه كما لو كان حاضرا أمامه . والأمثلة على ذلك كثيرة متنوعة نورد منها قول أبي عامر بن التاكرني(2) : " ياسيدي ، وأجل عددي ، وذخيرة الأيام عندي... "(3) وهو هنا يخاطب وزيرا جليلا هو أبو جعفر بن عباس(4) .

ومن هذا القبيل أيضا قول أبي عمر بن الباجي : " سيدي ، ومن أبقاه الله للكرم يتبوأ سطته ، والشرف يدرع بردته ، والعز يلبس سرباله ، والفخر يسحب أذياله .. "(5)

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 466 .
(2) أبو عامر محمد بن سعيد التاكرني ، أخباره وأدبه في ذ : 3/1 — 226 وما بعدها .
(3) ذ : 1/2 ، ص : 669 .
(4) أبو جعفر أحمد بن عباس ، وزير زهير الفتى صاحب المرية . وقد قتلهما باديس ابن حبوس في حادثة ذكرها ابن حيان في الذخيرة ، 1/2 ، ص : 656 .
(5) ذ : 1/1 ، ص : 191 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدو أن هذه الصيغة تدلّ على مراسم معينة في سلم المجاملات ، بالاضافة الى قيمتها الأدبية التي تكمن خاصة في هذه الرغبة الاستحضارية لشخص المخاطب حتى يكون الحديث معه كما يكون بين الحاضرين المتقاربين من الناس . . . ففي كتاب " إحكام صنعة الكلام " التي أشرنا اليه منذ قليل ، أن " ممّا تستفتح به الرسائل الى الوزراء والنبهاء . . . من الاستفتاح والابتداء قولهم : يا سيدي ، وعمادي الذي اليه استنادي . . ." (1)

2 — تاريخ التحرير : وهذه طريقة أخرى في عبور الكاتب الى مخاطبة من يراسل فيقول مثلا : " كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب ، وقد أعزّ الله الدين ، وأظهر المسلمين . . . "(2) والملاحظ أنه هنا لم يكتف بذكر التاريخ بل حرص على أن يذكر اليوم ، بل وأن يذكر وقتا معلوما من ذلك اليوم وهو الصباح ، فقال " صبيحة يوم السبت " . على أن الأكثر في الورود انما هو الاكتفاء بالتاريخ باليوم والشهر دون تسميته كما في هذا المدخل : " كتبت منتصف صفر ، وقد حصلنا في قبضة الاسر "(3) وربما لم يذكر الشهر بالاسم ، لدلالة الصفة الموصوف بها عليه . فقد كان الكاتب يقصد شهر رمضان عندما قال : " كتبت منتصف الشهر المبارك ، وقد وافى بدخول بلنسية — جبرها الله — الفتح بعدما خامره القبح . . . ."(4)

ويبدو جليا للدارسين أنه ليس من التقاليد الراسخة ، لدى الأدباء ، ذكر تواريخ تحريرهم لرسائلهم ، لأنه لايكفي أن نشير الى احتمال حذف أصحاب المصادر لها ، فان من الأشياء مالايمكن تصور حذفه بصورة آلية مطّردة . ولو أن كتّاب الرسائل التزموا ببيان التاريخ ، لكان ذلك مساعدا للباحثين بإضاءة الكثير من الجوانب المعتمة التي تزرع البلبلة والشك في نفوسهم ، وتلجئهم الى الاعتماد على التخمين والمقاربات الجزافية .

---

(1) إحكام صنعة الكلام ، ص : 65 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 241 .
(3) [illegible] ، ص : 191 .
(4) ذ : 1/3 ، ص : 101 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — **الظروف النفسية :** ومما لايقل فائدة ، عند الدارس ، من بيان التاريخ الذى كتبت فيه الرسالة ، وصف الحالات النفسية التي ينشيء الأدباء رقاعهم في سياقها ، على الرغم من أننا ندرك مدى الخطل الذى يرتكبه الباحث اذا انطوى عليه الجانب الصناعي في هذا الموضوع ، ولم يستطع أن يفرق بين التعابير الصادقة التي تنم عن ظروف نفسية حقيقية ، وبين الصيغ التي ليس فيها الا براعة التركيب ، ومهارة التمويه .

فمن أساليب الافتتاح بالحديث عن الظروف النفسية ، والأحوال الوجدانية ، قول الكاتب في مطلع رسالته : "كتابي والدمع ينشيء لعيني سحائبه ، والحزن يجهّز الى نفسي كتائبه ..."(1)

ومما يشبه هذا التعبير قول الآخر في مثل ظروفه : "كتبت وأنا من الحزن في ثوب حداد ، ودمع كأكفّ الاجواد ، شوقا ووحشة الى الأنس بتفيّوء ظلك الوارف ...."(2)

4 — **أثر الرسائل التي يكتبون جوابا عليها :** وكما اتخذ الكتاب من أحوالهم النفسية وهم يكتبون رسائلهم ، موضوعا صالحا للافتتاح به ، فانهم قد يتخذون أيضا من الآثار التي تحدثها كتب أصدقائهم في نفوسهم ، عند ورودها عليهم ، غرضا مناسبا يفتتحون به رقاعهم الجوابية . ومن المعلوم أن القيمة الأدبية لهذه الصيغة تختلف عن قيمة تلك . فان مفاتحة الانسان صديقه بأحوال نفسه وهو يكتب اليه ، كثيرا ما يكون أسلوبا ناجحا في حالات البث ، والشكوى ، أو عند التعزية ومشاركة الاخوان في مصابهم ، ومقاسمتهم ما ينتابهم من الحوادث . أما وصف أحوال تلك النفس عند ورود رقاع الأصدقاء عليها ، وما ينبغي لها من التكيف مع ما تحمله من الأنباء ، فلذلك موقع آخر ، وسياق مغاير للسياق الأول .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 224 .
(2) ذ : 2/1 ، ص : 303 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا صديق يتلذذ وهو يعدّ ما انطوى عليه كتاب صديقه من علامات المودّة الراسخة : " ورد كتابك الكريم يعرب عن ود لا تكذب فيك صفاته ، وعهد لا تقرع صفاته . . . "(1)

وقد يحدث كتاب الاخوان من الاثر الايجابي في نفس المرسل اليهم قدرا لا يخلو من المبالغة والغلو كما في هذا القول : " ورد كتابك فرفع مغضوض نواظري ، وحرك سكون خواطري ، وأقام عاثر همتي ، وأعاد عليّ ذاهب منّتي . . . "(2) ولكن في صلب الرسالة من الحديث المتبادل بينه وبين صاحبه الذي يكتب اليه ، " من صفاء الود ، والوفاء بالعهد " ما يكسب ذلك الكلام قابلية تصديقه ، وان بدا لنا كأن الكاتب قد استسهل أن يجري مثل هذه الصيغ على قلمه ، وربما كان المرسل اليه واحدا ، فهو لا يملّ من تكرار ما تحدثه رسائله في نفسه من المسرة والارتياح . فهو يقول في افتتاح رسالة أخرى : " ورد كتابك فنوّر ما كان بالاغباب داجيا ، (وحسن عنك شافعا ومناجيا) واستردّ الى الخلة بهاءها ، وأجرى في صفحة الصلة ماءها ".(3) والذي يرجح عندنا صدق الكاتب وعدم غلوّه فيما يصف من فرحته برسالة خله ، انه يقول له بعد ذلك : " ولا تعد (بعد) الى هذا فيكفي ما يجنيه علينا حادث البين ، حتى يزيده بقطع الاثر بعد العين ، ورأيت ما وعدت به من الزيارة ، فسرني سرورا بعث من أطرابي وحسن لي دين التصابي . . . "(4)

5 ـ ذكر المكان الذي يكتب منه : الحق أن معرفة المكان الذي يقيم فيه الكاتب ساعة ينشيء رسالته من المعلومات الهامة للغاية ، لو كنا نستطيع أن نظفر بمثل هذه البيانات في كل أو جلّ الرقاع التي احتفظت لنا بها المصادر . ولكن الواقع ـ للأسف ـ يجعل مثل هذا الورود نادرا للغاية . والكتّاب لا يكادون يلتفتون الى تقييد الموضع الذي هم فيه الا في حالات شاذة يتطلبها سياق الرسالة نفسه .

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 193 .
(2) نفسه ، ص : 297 .
(3) نفسه ، ص : 296 .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهذا أديب يقول في مطلع رسالته : " كتابي من قرطبة وقد وردتها بحمد الله على رحب وسعة ، وأخلدت منها الى سكون ودعة ... "[1] وكان سياق الرسالة ، وظروف الكاتب يقتضيان هذا التجديد في ذكر المكان ، فقد كان منفيا ، مغضوبا عليه ، يقيم في بقعة معزولة ، فاذا وجد نفسه في قرطبة ، حاضرة الأمجاد الغابرة ، فان ذلك دليل الرحمة التي أصابته ، والخير العميم الذي ساقته الاقدار اليه[2].

ومما يشاكل هذا المدخل الذي فيه ذكر للمكان قول الآخر : " كتابي ... من وادي الزيتون ، ونحن فيه محتلون ، ببقعة اكتست من السندس الأخضر ، وتحلت بأنواع الزهر ".[3]

والذي يستلفت الانتباه في هذه الرسالة أن كاتبها لا يكتفي فيها بذكر المكان الذي أنشئت فيه ، وانما يصف ذلك المكان ، ويصف مافيه من مظاهر الطبيعة الجميلة . ولعلّ الذي يصلح تفسيرا لذلك أن الرسالة موجهة الى جماعة من أصحابه الندامى المستمرين في عقد مجالس الانس والطرب في الرياض المزهرة ، والمروج المخضبة ، فأحب أن يبين لهم ان اقلاعه عن عاداتهم ، وفراقه للمدام التي هي محور لقاءاتهم ، لم يكن مؤديا به الى أن يحرم النفس من التمتع بجمال الطبيعة الأخاذ[4].

6 ـ **التنويه بالقيمة الأدبية** : وأكثر ما وجدنا من ذلك الافتتاح بالثناء على بلاغة الرقاع التي يبعث بها الأصدقاء ، وفصاحتها . وهي تبتدىء عادة بكلمة " وردني " . فمن ذلك ما كتبه أحدهم : " وردني لك كتاب أراني كيف يكون الكلام درّا ، والبيان سحرا ، وبطون المهارق حدائق ، وما بين مدبّ الاقلام بوارق ... "[5] ويشبه هذا المدخل تمام الشبه قول الآخر : " ولما ورد كتابك

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 293 .

(2) الرسالة لأبي المطرف عبد الرحمن بن الدباغ وكان قد حدث ما غير قلب أميره (المقتدر بن هود) عليه فنفاه مدة ، ثم عفا عنه وسمح له بالانتقال الى قرطبة ، انظر تفاصيل ذلك في ذ : 3/1 ، ص : 251 وما بعدها .

(3) ذ : 3/1 ، ص : 282 .

(4) هذه الرسالة يوجهها ابن الدباغ الى أبي الفضل بن حسداي الاسلامي الذي ردّ عليه برسالة ، ص : 234 .

(5) ذ : 3/1 ، ص : 195 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غاية الفصاحة ، ومنتهى البلاغة والملاحة ، تبلته عشرا ، وأقبلته مني رأسا وثغرا ..."(1)

ومن الواضح الجلي أن هذا المدخل لا يتصوّر إلا حين يكون الذي يكتب راضيا عمن يكتب اليه ، أو أن مقتضيات السياسة وما ينبغي من المجاملة تفرض ذاك . بل ان هذا المدخل التنويهي قد ينقلب مدحا صريحا وثناء لا يختلف في شيء عما نعرفه من الأساليب الشائعة في مثل هذا الغرض ، كما في قول من قال : " وردني كتابك الأثير ، المقابل بين النثر البليغ والنظم البديع ، تصرفت فيها تصرف من اذا حاك الكلام طرّز ، واذا غشي ميدان البيان برّز ، وأخذ بآفاق العلوم ، وأشرقت خواطره فيها كاشراق النجوم "(2).

بيد أنه قد يكون الافتتاح أيضا بالقدح في بلاغة الكاتب ، والاشارة الى قلة زاده من أدوات الفصاحة والبيان ، كما هو الشأن في هذا المدخل : " وردني لك كتاب لطيف الحجم خلته للطافة سحاءة ، وتوهمته من خفته هباءة ، وفضضته عن أسطر (فيها) سواد ، لم يتحصل لي منها مستفاد ....."(3) ونحن يزول منا العجب اذا علمنا أن هذه الرسالة هي ذات طابع عتابي ، فلذلك يبدأ كاتبها بهذا الأسلوب الاستخفافي وما فيه من الغمز والتحقير .

كانت هذه أهم الملاحظات التي أحببنا أن نوضحها في طريق ما أبديناه من الملاحظات على أساليب الأندلسيين في التمهيد لرسائلهم ، وافتتاح الكلام فيها لما يقصدون اليه من الأغراض . ومما لا ريب فيه اننا لم نحص عدّا كل المتغيرات التي يمكن أن تلحق مقدمة الرسالة ، ولكننا نحسب أننا ألممنا بأشهر طرائقهم في ذلك ، وأكثرها ورودا على أقلام النابغين من كتّابهم .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 910 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 113 .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 306 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يبقى لنا جانب لا نستوفي الحديث عن المقدمة الا باستيفائه وهو: الدعاء. ولكننا نريد أن نخصه بفقرات مستقلة عن المقدّمة .

ب ـ الدّعـاء .

الحق أن الدعاء ليس قسما من أقسام الرسالة ليكون مضاهيا أو موازيا للمقدمة والخاتمة فيها . وهو في واقع أمره عسير الضبط والتحديد لأنه يأتي على وجوه مختلفة وأضرب متنوعة .أما صيغه اللفظية فمن العبث محاولة احصائها ، لأنها بعدد الحالات التي ورد فيها .

1 ـ وأول ما يعنينا من الدعاء هو وروده في مكان المقدمة بالذات ، أي أن يأتي الافتتاح به مباشرة .ومن هذه الحالات الصيغة التي يقول فيها صاحبها : " أفاز الله ياسيدى الأعلى قدحك ، وجعل لمرضاته كدحك ، وسدد الى أغراض الصواب سهامك ، وأورد على حياض السحاب أعلامك ، وفتح المبهمات بعزمك ، وأوضح المظلمات بنجمك ، وأبقى المحاسن ببقياك ، وسقى مواطن العلياء بسقياك ".(1)

ان الدعاء في هذه الحالة لم يأت في سياق غيره ، وانما استخدمه الكاتب ليكون وسيلة الى الغرض الذى سيطرقه في رقعته . وربما لاح لنا أن هذه الفقرة قد لا تكون أوّل الرسالة ، وأن المقدمة الحقيقية ربما حذفها صاحب المصدر الذى نقل عنه . والذى يلغي هذا الاحتمال ، ويقضي على كل جنوح للشك ، هو أننا نجد بعد هذه الفقرة صياغة كما رأينا أن الكثير من الكتاب يبدؤون بها ، وهي قول صاحب الرقعة : " كتابي ياسيّدي ، واجلّ عددي ـ كتب الله لك السلامة ، ووهب لك الكرامة ـ ولو تقدّمني في الاعتراف بمآثرك مطلب ... ماشق غباري في ودادك مجار ... "(2)

لو لم يكن الدعاء المتقدم ، لكانت هذه هي افتتاحية الرسالة المعتادة ، أما وقد تقدّمها ما تقدّمها ، فقد دلّ ذلك على أنه عوّضها ، واحتلّ مكانها . والذى لا مراء فيه أن هذه الطريقة في الافتتاح نادرة من النوادر ، ولا تمثل المألوف والمعتاد .

(1) ذ : 2/1 ، ص : 635 .
(2) ذ : 2/1 ، ص : 636 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 ـ أما الذي هو مألوف ومعتاد فهو ورود الدعاء في صورة جمل اعتراضية ضمن المقدمة وهذا في مثل الصيغة التالية " وصل الي ـ وصل الله اعتلاءك ، واثل مجدك وسناءك ـ خطابك الكريم نظما ونثرا ، فأهدى برا ، واقتضى مالا يستطاع شكرا ، . . . "

والذى يبدو لنا أن هذا الدعاء الاعتراضي في مقدمة الرسالة أو في متماهتها ، انما هو ضرب من ضروب المجاملة ، ورسم من رسوم المخاطبة ، سواء كان في صورة " أبقاك الله " ، أو " أعزك الله " ، أو ما يلتحق بهما من هذه الصيغ . والذى هو جدير بالملاحظة أننا نجد مثل هذا الدعاء الصالح حتى في الرقاع التي يغلب عليها العتاب ، وحتى الهجاء . . . فكأن آداب التخاطب قد اقتضت مثل هذه العبارات بقطع النظر عن علاقة الكاتب بالمكتوب اليه . فهذا أبو عبد الله البزلياني[1] يكتب الى ابن عباس[2] معاتبا ، بل هاجيا لأن كلامه يبلغ حدّا بعيدا من الطعن والتجريح ، ومع ذلك لا يجد غضاضة في أن يخاطبه ، في أوّل الرسالة ، بقوله : " كلف المروءة ـ أبقاك الله ـ صعبة الا على الكرام ، وطرق الجفاء رحبة لسلوك اللئام . . . "[3]

3 ـ وأكد عادات الكتاب ، عند استعمال الدعاء المقصود ، لا الذى يأتي منه لمجرد تزيين الكلام من نوع " أبقاك الله " و " أعزك الله " وأضربهما . . . أن يؤدوا معانيه بما يلائم محتويات الرسالة ، وغرضها المقصود . فهذا صديق يخاطب صديقه بعد أن أفرج عنه من السجن ، وأعيدت اليه حريّة ذاته ، فقال له : " ما أعجب الأيام ـ أعقبت منها السلامة والسلام ـ فيما تقضي ، وكيف تمضي ، تتعاقب بتلوين ، وتتراءى بين تقبيح وتحسين . . . "[4] فهذا الدعاء يلائم تماما مضمون الخروج من السجن الذى هو محور الكلام في رقعة الكاتب .

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد البزلياني خدم دولة غرناطة ثم انتقل الى اشبيلية حيث تورط في ثورة إسماعيل بن المعتضد على أبيه . فقتله المعتضد .
(2) ابن عباس : أبو جعفر أحمد بن عباس تقدم التعريف به في هذا الفصل .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 633 .
(4) ذ : 1/3 ، ص : 449 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فاذا كان الكتاب في معنى التعزية ، فقد يكون أحسن من الدعاء بابتعاد المصائب عمن يكتب اليه ، أن يدعى له بالصبر وحسن العزاء وهذا هو المنحى الذي جرت العادة به ، وهو الذي نجده لدى أصحاب الرسائل في مثل قول أحدهم " محن الدنيا — وسع الله لاحتمالها ذرعك ، وأنس في ايحاشها ربعك — ضروب ، ولسان الصبر بها خطيب . . . "(1)

وربما جاء الدعاء مزدوجا ، بعضه ممهد للبعض الآخر ، وهذا مثل ما يرد عادة في موضوع التعازي أيضا ، فان الكاتب يوجه صيغة من الدعاء الى من يعزيه ، وصيغة أخرى منه الى المعزّى فيه ، وهو الفقيد ، ويكون معناه حينئذ يدور حول الرحمة والمغفرة كما في قول من قال : " ونعي الي — أوشك الله سلوانك ، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك — الوزير أبو فلان — برّد الله ثراه ، وأكرم مثواه — فكأنما طعن ناعيه في كبدي . . . . "(2)

4 — وكما يكون الدعاء بالخير ، يكون الدعاء بالشر أيضا فيأتي دعاء على المخاطب نفسه كما سنرى ذلك في الصيغ الختامية ، أو على المذكور في الرسالة فردا كان أو جماعة . فقد كتب أحدهم يقول : " وان فلانا جارنا — لا أجاره الله من ريب الزمان ، ولا صرف عنه صروف الحدثان — يأبى الله أن يراه حائدا عن فساد ، وعائدا الى رشاد . . . "(3) وقد لاحظنا كيف يستمد من لفظة الجار هيأة الدعاء ، ويجانس بينهما وبين فعل الدعاء عليه .

وقد ينصرف هذا النوع من الدعاء على الناس الى جماعة منهم كما أسلفنا ، وهذا كما نجد في الصيغة التالية التي نراه فيها ينصرف الى أهل غرناطة . والكاتب في الحقيقة ، لا يقصد كل من كان قاطنا في هذه البلدة ، وانما هو يعني حكامها على وجه التحديد . يقول فيهم : " كنت قد هادنت أهل غرناطة — لازالوا في أذيال مكرهم عاثرين ، وفي أيدي غوائلهم مستأسرين — مهادنة دعوني اليها فأجبت ، واستدنوني نحوها فدنوت . . . "(4)

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 316 .
(2) نفسه ، ص : 314 .
(3) نفسه ، ص : 232 .
(4) نفسه ، ص : 277 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفي المنثور فان الدعاء لايحسن الا اذا جاء على هذا النوع من الاقتضاب والاختصار ، ولو أطال فيه صاحبه لخرج به عن الحد ، وتجاوز فيه القصد .
وقد قال صاحب " إحكام صنعة الكلام " في بداية الفصل الذى أفرده للحديث عن وروده في الرسائل فقال : " الاكثار من الدعاء في الرسائل من أبهر الدلائل على ضعف البضاعة في الصناعة "،(1).

ويأتي الدعاء بالخير ،كما يأتي بغيره في أخريات الرسائل وذاك ما سندرسه مع الخاتمة التي تنتهي بها الرسالة .

جـ ـ خاتمة الرسالة

ما أقل الكتّاب الذين يعتنون ، حين ينشئون ، بخواتم رقاعهم وكأنما هم يستنفذون كل طاقتهم في حشو الرسالة ، حتى اذا انتهوا الى الخلاصة ، وصلوا اليها مرهقين ، وقد كلّت قوادمهم ، وضعفت قدرتهم ، فهم عاجزون عن " تركيز" الموقف فيها كما هو مطلوب ، وتضمينها زبدة الرأى الذى انتهوا اليه ، أو مفتاح الباب الذى قرروا أن يخرجوا منه . ولذلك كنا نجد أكثر الخلاصات يأتي في صورة أدعية ، أو إقراء للسلام ، أو إشارة الى الاختتام ، مما يصلح أن يكون في أحسن الأحوال نهايات " تقنية " للرسالة ، أما النهايات المنهجية ذات المضمون المرتبط بالمعنى العام ، المتصل أوثق الصلة بالمقدمة ، فقلما عثرنا عليها في ما استطعنا الوصول اليه من رقاع هذا العصر .

وقد عدنا الى كتاب " إحكام صنعة الكلام " نبحث فيه عن رأى للمؤلف ، في مسألة الخاتمة هذه ، أو ما يكون مماثلا لها في انهاء الرقاع ، فلم نجد له فيهما حديثا الا عن السلام وما ينبغي أن يقال فيه ، فكأن الخاتمة عنده تتلخص في عبارات التسليم التي تنتهي بها بعض الرسائل (2).

---

(1) احكام صنعة الكلام ، ص : 72 .
(2) الفصل الخاص " بالسلام " في " احكام صنعة الكلام " ، ص : 79 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن اذا استعرضنا عددا من الميّنات التي رأيناها تمثل سائر الاضرب الواردة في خلاصات الرسائل ، أمكننا أن نقول انها في الغالب ، لاتخرج عن صورة من الصور التالية :

1 — **البتر وأعلان النهاية :** يحدث أن ينهي الكاتب الموضوع الذى يعالجه ، ويشعر أنه لم يعد عنده ما يضيفه اليه ، فلا يتكلف أي عناء في التمهيد للخروج ، والوصول بالقارئ الى النهاية ، وانما يبتر الكلام بترا ، فيتوقف توقفا صريحا ثم يعلن أن الرسالة قد انتهت ، والحق أن هذه أسوأ عينة للخاتمة ، وهي في الغالب تدل على ضيق الكاتب ، أو على حالة نفسية معينة ، فيها للقلق والضجر أوفر نصيب . ومن أمثلة ذلك هذه العبارة في آخر رسالة : " استوفي يامعتمدى هذا الفصل ، ولك في الاغضاء الفضل " . ولو لم نكن نعرف ما للأديب الذى كتب هذا الكلام من قدرة على الابانة ، لاتهمناه بقصر الباع ، فكيف وهو محمد بن أبي الخصال [1] وعباراته السابقة جاءت في آخر رسالة هي تحتضن تحفه ، وهي التي وصف فيها القنديل ذلك الوصف الرائع [2] .

2 — **المدح الذاتي :** وهي طريقة مألوفة في الشعر ، اذ كان يستسيغ الشاعر أن ينهي قصيدته بأن يقول لممدوحه أو لمن يخاطب بصفة عامة : إليكها .... أو جاءتك ... أو هاكها وهي لها كيت وكيت من الأوصاف ... وهو أسلوب يلتقي في النهاية بأساليب المدح الذاتي لأن الشاعر يثني على فصاحته ، وبلاغته ، وبراعته في قول الشعر . وفي الرقاع الأندلسية وجدنا من هذا القبيل الخاتمة الآتية : " فدونكها قد حبر الحبر تطريزها ، والبكها قد خلص الفكر ابريزها ... يخال مدادها من بهيم الليل صبح ، ويحسب رقّها من أديم

---

(1) محمد بن أبي الخصال (465 — 540) من كبار أدباء هذا القرن . وممن كتب لأمراء المرابطين بالأندلس . وقد سبق الحديث عنه . أخباره في ذ : 2/3 ، ص : 786 .
(2) الرسالة في ذ : 2/3 ، ص : 790 ، وقد تحدثنا بالتفصيل في الباب الثاني من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصبح قطقح ؛ أرسلناها كافورة بمسك موسومة ، وأهديناها درّة بياقوت مختومة ... "(1) فهل على هذا التمدح من مزيد ؟

3 — إقراء السلام : وهو كما أسلفنا من أكثر صيغ الاختتام شيوعا ، وانما يتفنن الأدباء في عباراته ، ويتنافسون في تجويد صوره ، والاغراب فيها . وقد استرعى اهتمامنا نموذج منه تضمن معنى اضافيا وهو تحميل المخاطب أيضا ابلاغ ذلك السلام الى من بحاشيته من الرفاق والخلان . وفي هذه المعاني يقول الكاتب : " وأقرئك سلاما كودى كريما ، وكندى المسك شميما ، وان منت بابلاغه اخواني بإخائك ، وكواكبي في سمائك .... وخصصت به الوزراء مفردهم ومثناهم ، وأخبرتهم أبي عبد ربهم ، وشاكر عهدهم ، والباكي دهما من بعدهم ، أنعمت وتطوّلت "(2) .

4 — الاختتام بالدعاء : وهو أيضا من الحالات التقليدية وكثيرا ما يأتي في صيغ مناسبة لغرض الرسالة ، فهذا كاتب يشفع لمن ضاقت به سبل الحياة ، فيدعو لمن يطلب عنده الشفاعة هذا الدعاء : " والله لايعدمك ارتهان المنن وارتباط الاحرار، ويحرمك من حوادث الليل والنهار"(3) . وأى شيء أكثر صلة بالشفاعة من أن يرجو لمخاطبه " ارتهان المنن " وأن يصونه من مثل الحوادث التي اضطرت المشفوع له الى طلب المساعدة لدى أمثاله .

وكما رأينا في المقدمة " أن الدعاء قد يكون بالخير ، وقد يكون بغيره فانه في "الخاتمة أيضا قد يأتي على الوجه الأول ، وهو نظير ما ذكرناه أعلاه . وقد يأتي على الوجه الثاني ، ولاسيما في الرقاع ذات المضمون العتابي ، أو الهجائي ، أو الساخر ... ومن أمثلة ذلك قول الكاتب : " قذف بك في قرار اليم العظيم ، والتقمك الحوت وأنت مليم ، ان الله بعباده لرؤوف رحيم "(4) .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 439 — وقد تأتي مثل هذه الصيغة في التقديم ، ولكن في ظرف خاص بالمقامة ، انظر ذ : 2/1 ، ص : 675 .
(2) ذ : 2/2 ، ص : 758
(3) ذ : 1/3 ، ص : 63 .
(4) نفسه ، ص: 464 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا بدا لنا بجلاء أن هذه الصيغ كلها قد جاءت لتختتم الرقاع المكتوبة ، وأنها ليست في الحق خلاصات بالمعنى الذى تقتضيه منهجية الرسائل بقدر ما هي ايذان بوصول الكاتب الى نهاية رقعته ، واعلان الى القارئ بذلك .

كانت هذه ملاحظات عامة على مداخل الرقاع الترسلية ومخارجها ، وهي في صورتها التي استعرضنا مظاهرها المختلفة توضح ماكنا ذهبنا اليه من تقليدية هذه الصيغ ، وصلاحها بخاصة للتعبير عن المواطف الظرفية والانفعالات الآنية . أما أشكال النثر الجديرة بالدراسة ، فينبغي أن نبحث عنها في مظاهر أخرى من الصيغ التخاطبية ، ولاسيما في مجالات بسط الآراء والمواقف .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثانيا = صيغ بسط الآراء والمواقف

أشرنا ، في هذا البحث ، أكثر من مرة الى أن القرن الخامس قد كان في بلاد الأندلس، عصر المحن والاضطرابات من ناحية ، كما كان من ناحية أخرى عهد النشاط الفكري الواسع بفضل ما أتيح فيه لرجال الثقافة من حرية الرأي ، وما رافق ذلك من تنافس الأمراء على الأدباء والمثقفين ، في أغلب الحالات ، اذ أن القيا س يتم على العام لا على النادر الشاذ ...

وكان لابد لحرية الفكر هذه أن تفتح أبوابا للنقاش ، والمجادلة ، والاختصام ، ولعل ما حفظ لنا من آثارها لايمثل الا جانبها الأدبي ، على أن ما كتب في هذا الميدان نفسه لم يأتنا لاكاملا ، ولا وافيا .

وقد أحببنا أن نحصر الصيغ التي استعملها الأدباء مطايا لعرض أفكارهم، وبسط مالهم من آراء ومواقف في المسائل الأدبية ، فوجدنا أنه يمكن جمعها في ثلاثة أنواع هي : المقال ، والتقرير ، والاعلان .

أ ـ المقالة

المقالة هي الشكل الأدبي الانشائي الذي يلائم أكثر من غيره الحالات التي يحتاج فيها الأديب الى أن يعالج مسألة من المسائل، فيوسع القول فيها ، ويطرقها من جميع جوانبها الجديرة بالطرق ، فيقارن فيها ويوازن ، ويركب ويحلل ، ويمتطي الى التحزب لآرائه والدفاع عنها شتى أساليب الاقناع ، والمجادلة ، والاحتجاج .
ولذلك عددنا من هذا النوع الأدبي كل رقعة تضمنت هذه الأساليب ، واستخدمها كاتبها هذا الاستخدام .

ونحن نريد أن نمثل لهذا الضرب من الصياغة بما يصلح أن يكون نموذجا له ومثالا عليه ، وأن نخص كل ضرب بوقفة تحليلية نستخرج من خلالها المقومات الفنية والخصائص الأدبية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 ـ المقالة الساخرة :

وعدنا من أبرز أنواعها ما كتبه أبو الربيع سليمان بن القضاعي[1] في السخرية بيوسف بن حسداي الاسلامي[2].

ومبعث هذا الموقف العدائي من ابن حسداى أن أبا الربيع قد طلب منه مجموعة من الأدوات التي يستعملها النجار في عمله ، فوجهها اليه ، باستثناء المئشار . فكان هذا مناسبة أتاحت للكاتب فرصة الطعن على ابن حسداى وتناوله بالغمز والتعريض اللذين ينقلبان أحيانا الى هجاء سافر وشتم صريح .

وطريقة أبي الربيع في ايذاء مراسله هي التعريض بدينه القديم ، اذ كان على اليهودية قبل أن يسلم . فلذلك كانت فقرات مقالته الأولى تقصد قصدا الى الطعن عليه من هذه الناحية ، فهو يقول له مثلا : " من دخل في ملة التزمها ، وليس من شريعة هذا الدين منع الماعون . ومن تمام الاسلام حفظ الجوار و (رعاية) الذمام ..."[3]

ويتحدث عن " استئثاره بالمئشار " حديث سخرية واستخفاف اذ يطلع له برد على معترض موهوم يعترض على هذا الاستئثار بشيء زهيد القيمة ، فيمجد هذه الآلة ، ويبين ما لها من قيمة ، وكل ذلك مبالغة في النيل من ابن حسداي . يقول : " وكيف يوسم بالحقارة ، أو يرسم بالنزارة ، وهو من الحديد الذي فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وهو ... مناسب لحسام الكمي البطل ، وحامله غير أعزل ، وان شئت استمجدت منه زنادا ، وشفارا حدادا .... ومن آلات المئشار عصاه التي تشقه أن يناد ، وتسدده اذا حاد ، وان شئت صنعت منها مخاصر لأرباب الملك ، أو صلبانا (ومتكآت) لطواغيت الشرك ...."[4]

والكاتب يعتمد في هذه المقالة اعتمادا واسعا على التلميحات الى ماضي ابن حسداى ، في كل فرصة . فهو مثلا يحاول أن يجد تفسيرا لمنع تلك الآلة ، فيبحث

---

(1) أبو الربيع سليمان بن أحمد القضاعي : كاتب عرفه ابن بسام بأنه "يعمد الى خسيس المعاني فيقيم لها أودا بسلاطة لسانه ، وقوة مادته وحسن بيانه ... "انظر ذ : 3/1 ص : 499 .

(2) أبو الفضل يوسف بن حسداي الاسلامي من كبار كتاب ووزراء هذا العصر . ترجمنا له مرارا . فيما سبق .

(3) ذ : 3/1 ، ص : 499 .

(4) نفسه ، ص : 504 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في التراث المصري ، وتاريخ الديانة اليهودية عما يمكن أن يثيره المشار من " التداعيات " في ذهن أنصار هذه الملة وأتباع هذه الديانة من ذكريات تحفزهم الى فعل ما فعل ابن حسداي . ولنسمع الى ابن القضاعي وهو يحاول ايجاد هذه العلاقة الغريبة : " وقد أنكرت أشد الانكار بخلك بالمنشار ... فلاحت لي دريئة مرماك ، وأشرفت مطلا على مغزاك ، وحسدت بعد تسديد سهام التوهم ... أن علة ضنانتك به من أجل ما مرّ ببالك (من)[1] ذكر الشجرة التي أشرت وفيها يحيى ابن زكرياء عليه السلام ، فتحرجت أن تخرج من جريمك آلة كانت فيما مضى سببا الى حدث مشؤوم ، بسفك دم (نبي) كريم ... "[2]

ويسعى الى ردّ الطمأنينة اليه ، أو الى اقناعه بأن حيطته هذه جاءت في غير محلّها ، بهذا الأسلوب الساخر ، الموجع باستهزائه ، فيقول : " ان الخشبة التي أحببت أن تؤثر عندى لم يكن فيها حيوان غير الارضة التي أكلت منسأة سليمان عليه السلام ... "[3]

وهذه الطاقة التي لدى ابن القضاعي في توليد المعاني ، وايجاد متسع من الحديث في المعنى الضيق ، وتناول كل شيء بأسلوب السخرية ، تمتد الى أعلى ما عند رجل الفكر والثقافة : علمه ، وأدبه ، فتزهد فيهما ، وتشكك في قيمتهما ، وتنسبهما الى الزيف والفساد ، ولكن دائما بأسلوب الاستخفاف ، واخراج المعاني مخارج مضادة لما تدل عليه الألفاظ التي أُدّيت بها . ولنستمع اليه وهو يغزو هذا الحصن الحصين من فضائل ابن حسداي العلمية التي لا يمكن أن ينكره عليها الا ذو حقد بين : " وحملتني لك العصبية ، واستدعتني فيك الحمية ، (الى ما) ترى (من توبيخ) الكتبة الذين ليس لهم بسطتك في العلوم الديانية ، ولا براعتك في الفنون الأدبية والرياضية ... و ... ليس عليك في اختلالك بهم من كآبة ولا عار " .[4]

---

(1) زيادة ارتأينا أن الكلام يستقيم بها أكثر .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 500 .
(3) نفسه .
(4) نفسه ، ص : 504 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومكذا كانت هذه المقالة في سائر ما لم نذكر من أقسامها لا يكاد فيها صاحبها يفارق معاني الغمز واللمز ، والاشارة والتلميح الى عقيدة ابن حسداي السابقة ، والى فساد رأيه ، وقلة علمه وما الى ذلك من أمثال هذه المضامين . وقد استخدم الكاتب طريقة الاستطراد ووظفها فيما كان يقصد اليه من الاساءة الى خصيمه ، فهو قد استطرد مرّة بالحديث عن رداءة الكتابة والكتاب في عصره ، وخرج من ذلك مخرج الرفع من شأن مخاطبه ، على الطريقة الاستخفافية دائما ، ليقول له في النهاية " ليس عليك في اختلاطك بهم من كآبة ولا عار " ، واستطرد مرة أخرى بتمجيد المشار ، ونعته ، وبيان فضائله الكثيرة ، وذلك في معرض ايجاد الأعذار الساعية المفتعلة لعدم قبول صاحبه باعارته .

والذى يبقي للمقال قيمته الأدبية ، ويخرجه من زمرة الرقاع الهجائية : محافظة الكاتب ، في الغالب ، على مراسيم اللياقة والأخلاق ، وتناول عرض صاحبه حين يتناوله بالرمز والتلميح والاشارة ، أما تصريحاته القبيحة فتتمثل في الحاحه المتكرر على لفت الأنظار الى عقيدته السابقة ، وما كان عليه من دين قبل اسلامه .

ولعل الذى هو ألصق بالمقال الانشائي الخالص ، ما كتبه الأديب أبو حفص بن برد الأصغر(1) .

2 ـ المقالة الانشائية

يستفاد من المصدر الذى ننقل عنه أن الكاتب ـ أبا حفص بن برد الأصغر ـ هو الذى سمى مقالته هذه " بالبديعة "(2) . وهي كما أسلفنا من النوع الانشائي البحت ، بمعنى أنها تتناول وضعية أدبية ، وتنطلق من فكرة المفاضلة والمقارنة بين " أصب الشاء " و " ما يفترش من الوطاء " .

---

(1) أبو حفص بن برد الأصغر : تقدمت الاشارة اليه أكثر من مرة . وانظر ذ : 1/1 ، ص : 486 .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 531 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والمقالة تبدو حوارا من طرف واحد ؛ فالكاتب يخاطب فيها رجلا يعترض عليه ؛ ويقف من المسألة المعروضة موقفا مخالفا له ، ولكنه لا يعطيه فرصة الكلام ، ولا يتيح له أن يسمع صوته . ونحن بكل تأكيد نعرف الكثير من آرائه ووجوه اعتراضه ، وأسباب ذهابه الى ماذهب ، واختياره ما اختار ، ولكن ليس بطريقة مباشرة ، وانما هي محكية عنه ومروية ، يتصرف الكاتب في ابلاغنا اياها وعرضها علينا .

والموضوع يبدو في نظرنا غريبا للغاية ، وهو لا يستحق أن يرتقي به الى المستوى الذي يغدو به غرضا من أغراض الخصام بين الناس ، والجدل بين الأدباء . اجل ، فأي شيء في جلود الشاء ـ التي تعالج ثم تتخذ للجلوس عليها ـ يرشحها لتكون مجالا للتباري والتنافس بين الناس ؟ . . .

تبدأ الرقعة بالخلاف ، بين الكاتب وصديق له ، حول مبدإ عام يتمثل ، في "ارتخاص الأشياء ، ومقت (رعة الاقوام) في الشراء "(1) . ويبدو الصديق في صورة من يقسو على الكاتب ويبالغ في تعنيفه حين يقول له " لم تؤثر ذلك الا للؤم الخليقة ، والهمة الدقيقة ، والا فالشيء ربما غولي في ثمنه لطول الاستمتاع به . . . "(2)

وبعد هذا المدخل الذي ينبئنا بهذا القدر الضائل من الخلاف المبدئي بين الكاتب وصديقه ، يعرض صاحب المقالة لغرضه الأصلي فيشرع في بيان مزايا أهب الشاء هذه ، وفضائلها الكثيرة .

وهذا القسم هو أهم أقسام المقالة ، لأنه الأكثر اتصالا بمجرى الغرض فيها . وهو من الناحية الشكلية "خرافة" طويلة بارعة يحشد لها الكاتب كل ما له عن حجج بعضها متصل بجلود الغنم مباشرة حين تتخذ للجلوس ، وبعضها الآخر متصل بما تسده من حاجة صاحبها حين تغنيه عن التردد على الخياطين ، لو أراد أن يتخذ لجلوسه تلك الرقاع التي تصنع من الصوف والأقمشة . . . ويبدو أن التردد عليهم كان من قبيل ارهاق الذات واعناتها لما ينبغي للمرء من صبر على قلة أدبهم في معاملة الناس .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 532 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يلتمس حججا من صنف آخر ، اذ يمد يده الى الماضي ليصبغ على تلك الأدب طابعا تراثيا ، يذكر اختيار السلف الصالح لها من الزهاد والمتصوفة الذين كانوا يفضلون مثل هذه الأدب للجلوس عليها .... بل يشير في تلك المرافعة الى أن الله منحها صفة من القداسة لكونها تنتمي الى الجنس الذي جعل منه القربان الذي افتدي به اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

ويحتج معارض ابن برد بأن هذه الجلود لاقيمة لها لأن المعلمين يفترشونها للجلوس عليها في كتاتيبهم . ويبرى ابن برد للرد على هذه الحجة اعتمادا على المنطق والقياس : فينبهه — في صياغة طريفة — الى أنه لايمكن لعاقل أن ينكر قيمة الصوف لمجرد أنها ، في الأندلس ، لباس أهل البيع وأربـاب الخانات ...

بل ان الكاتب يستخدم أسلوب الاحتجاج بحجج الخصم نفسه . فلقد عاب هذه الجلود باستعمال المعلمين لها ، فاذا بابن برد يرى أن هذا مما يكسبها مزيدا من القيمة ، لأنها شهادة واضحة بأنها أقدر من غيرها على مقاومة ما تتعرض له من ايذاء الصبيان لها أثناء اللعب ، والازدحام ، والتراشق . فالمعلمون محقون لأنهم " أخذوا بالأقوى والارفق ، واعتمدوا على الأرخص والأوفق "[1] .

والحق أن ابن برد يحسن الاحتجاج ، ويوفّق في تأويل أدق الأشياء وسوقها المساق الذي يخدم الهدف من وراء كلامه ، فاذا بكل صفة من صفات " الشيء " الذي يدافع عنه يغدو صالحا لترجيح كفة تفضيله والميل اليه . فاذا كانت جلود الغنم تختلف في لونها بين الأبيض والأسود ، فان هذا الاختلاف نفسه فيه موعظة لأنه " تذكرة للناظر اليه ، وعظة لمُجيل بصره فيه "[2] . فاذا كان الجلد أسود ، فان سواده يذكر " بسواد الشباب ، وقميص الفتوة ، وطيب زمن الحداثة ... "[3] . أما اذا كان أبيض ، فانه يذكر " ببياض المشيب ، ونذير الرحلة ، ورائد الأجل "[4] ولكلا الحالين فائدة يجنيها العاقل . فاللون الأسود اذ يذكر بالشباب يبعث على البكاء " لفراقه وقلة المتعة به " واللون الأبيض يجرّ الى العبادة و (يـ) بعث على صالح العمل " .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 584 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن لا محالة نعجب ببراعة الكاتب حين نراه يستطيع أن يدير هذا الحديث الأدبي السّامي على مثل هذا الغرض التافه . ونجد في مقالته من أساليب الاحتجاج ، وطرائق المجادلة ، واستعمال المنطق الرصين ، ما يرسّخ في أذهاننا صورته باعتباره واحدا من أغزر أدباء الأندلس مادة ، وأكثرهم تنويعا لأشكال صياغته .

على أننا نحب أن لا نختم الحديث عن هذه المقالة دون اثارة سؤال لا بد منه وهو : ألا يمكن أن تكون للمقالة قيمة رمزية تسمو بموضوع جلود الغنم الى قضايا لها أهميتها في حياة الأندلسيين وقتئذ ؟ . . . والواقع أننا نملك من الأسباب ما يحفزنا الى طرح مثل هذا السؤال . فلعل ابن برد يدافع هنا عن طائفة من الناس تقتضي مهنتهم الجلوس من أمثال المعلمين والقضاة . وربما أعاننا على مثل هذا التأويل ما ورد في أخريات المقالة حين يقول لصاحبه : " وأخاف عليك . . . . أن تستقبل بذم هذه الأهب كل مفترش لها مغتبط بها ، فلا تجده الا شيخا رائع الوسامة ، أبيض الشعرة . . . قد حفظ المسائل ، وملأ من اجازات الشيوخ الخزائن تقصده الفتيات والفتيان . . . . وتتنافس في حضوره أيام الزفاف . . . . أو معلما ذا سبلة طولى ، وجبين أخلى ، قد ائتمنته الملوك على ثمار قلوبها ، وعماد ظهورها ، وقطع أكبادها ، يتوسط من صبيته قلب جيش ، ويعيش بألطاف أمهاتهم أخصب عيش ، يقصد عنده الوراقون ، ويتحاكم اليه في الخطوط الناسخون . . . "(1)

ان هذه الفقرة التي فيها هذا الدفاع الحار عن المعلمين بصورة خاصة ، وما ورد من اشارات أخرى في سائر أقسام المقالة ، ربما حثّنا على قبول مثل ذلك التأويل ، أو الاطمئنان الى امكانية صحته ، والا فما أضيع مهارة أدبية كهذه تنفق في تفضيل " أهب الشاء على ما يفترش من الوطاء " . ولعل الذي هو أوضح غرضا ، وأبين فائدة ما جاء من هذه المقالات متصلا بجوانب النقد الأدبي .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 535 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — المقالة النقدية :

قد يكون الموضوع النقدي الذى تتناوله المقالة ذا طابع تقويمي ، يطلق أحكاما قيمية على أثر أدبي بعينه ، ويدل فيه على مواطن محددة تستوجب الاعتراض .... وقد يكون من النوع النظرى الذى يعنى بالتقنين ، واصدار الأحكام العامة ، وربما جاء كل ذلك في سياق غير نقدى ، وارتبط ، في الأصل ، بأغراض أدبية بعيدة عنه كل البعد ، كما سنرى .

فمن قبيل الجانب الأول : ذلك الخصام الذى نشأ بين عالم من علماء اللغة والنحو : ابن سِيدَه [1] وواحد من كبار الوزراء الكتّاب ، وهو أبو الأصبغ بن أرقم [2] في مسائل قد اعترض فيها الأول على الثاني ، وضمنها مقالا شرح فيه وجوه اعتراضه ، فردّ عليه ابن ارقم في مقال آخر بيّن فيه صحة ماكان ذهب اليه .

وكان سياق الخصومة أن ابن أرقم قد كتب عن صاحبه ابن مجاهد [3] رسالة الى أمراء مصر [4] فعاب عليه ابن سيده فيها مجموعة من المسائل هي الواردة في مقالته .

ويلقى الدارس لهذه القضايا غير قليل من العنت في دراستها لأنه يضيع منذ البداية بين ثلاثة نصوص غير متجاوبة الفقرات ، ولا منسجمة السرد . ذلك أن العبارات التي يرد بشأنها ابن أرقم على ابن سيده لا نجدها في مقالة هذا ، ولا في رسالة ذاك الى " صاحب مصر " كما هي ثابتة في " الذخيرة " . وما هو ثابت في هذه الرسالة قليل الصلة بما هو في مقالة الاعتراض ، وفي مقالة الردّ عليها .

ومهما يكن من أمر فان الذى نخرج به : أن ما أثبت من مقال ابن سيده لايكاد يتيح لنا أن نصدر حكما على قيمة اعتراضاته ، وصلتها بمايعرف عنه من

---

(1) أبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده توفي سنة 458 . وقد سبقت الاشارة اليه قبل قليل .

(2) أبو الأصبغ عبدالعزيز بن محمد بن أرقم : سبقت الاشارة اليه أيضا . توفي في عهد المعتمد باشبيلية .

(3) هو اقبال الدولة على بن مجاهد ، خلف أباه مجاهدا على امارة دانية والجزائر الشرقية ، وحكمها من 436 الى 463 هـ .

(4) الرسالة التي كتبت عن اقبال الدولة واردة في ذ : 3 / 1 ، ص : 393 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سعة وشمول في الثقافة اللغوية . بل ان الذى يحيرنا أكثر هو أن ماتجده في الفقرات التي أوردتها " الذخيرة " من مقالته تبدو قليلة الصلة بل عديمتها بالجوانب اللغوية ، اذ نراها تحفل أكثر ما تحفل بعادات العرب ، ونظرتهم الى خضاب شعر الرجل ، وسنة رسول الله في ذلك ، وحث حكمائهم عليه لما فيه من الميزات في السلم والحرب . . . والواقع أنه لابد أن نعترف بأن باع ابن سيده أوسع بكثير مما تمثله لنا هذه الفقرات ، بل ما لنا لانقول أن مقالة ابن أرقم وما فيها من ردود تفيدنا أكثر في تصور وجوه الاعتراض التي كانت على رسالته وتمكننا من تمثل آراء ابن سيده .

كان مقال ابن أرقم مفرطاً طويلاً في الطول ، حتى لقد اضطر صاحب المصدر الذى ننقل عنه الى اجراء مقص الحذف فيه مرارا عديدة ، ومع ذلك فانه أثبت منه أكثر من عشرين صفحة في كتابه . وهذه ملاحظتنا الأولى عليه . والثانية أن المسائل التي يتناول الرد عليه بشأنها ، لانجد لها أي أثر في النُّتَف القليلة التي لم تسلم من الخلط في فقرات ابن سيده التي أثبتها ابن بسام من مقالته . وثالث الملاحظات التي نقدّم بها للحديث عن هذه المقالة أن صاحبها ابن أرقم لم يوجه بها الى منتقده : ابن سيده ، كما قد يخطر على البال ، وانما بعث بها الى الفقيه أبي بكر بن صاحب الأحباس . ونحن لانعرف ، على وجه الدقة ، الأسباب التي جعلته يخاطبه بها دون غيره ، إلا أن يكون حقا كما يقول عنه " على لسان العرب وغيره حفيظا وقيما "(1) .

تبدأ مقالة ابن أرقم الى الفقيه أبي بكر بمدحه بالعلم ، والاطلاع ، ووراثة ذلك عن الآباء والأجداد . وهو مدح سرعان ما يتحول الى تعريض واضح بابن سيده حين يقول له : " لم تقتصر على حفظ سطور من كتاب سيبويه و " شرح الفصيح " لابن درستويه ، . . . . ولم تشد الى المخرقة بفرفوريوس ولا الفطرسة بارسطاطاليس ، والقرقعة بقافات أرثماطيقا ، وأنولوطيقا

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 363 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصفير بسيبات قاطاغورياس ، وباري أرميناس ، وضيعت علوم القرآن ، والتفنن في حديثه عليه السلام وصحابته .... وأغلقت " الكامل " و " البيان " ..... (1)

ثم لا تلبث هذه المقدمة ، التي كانت في الأصل ثناء على أبي بكر ، أن تنقلب الى قدح موجه لابن سيده ، ولكن على طريقة التعريض دائما . فالخطاب يبقى موجها الى ابن صاحب الاحباس ، ولكن مصدر المعاني بيّن السبيل ... يقول : " لم تتبغدد بدويا ، ولم تكن مرّة سببيّا ومرة قطريا ، وتارة طبيعيا وتارة فلكيا ، ولم تتزبّب حصرما ، ولم تتشحم ورما .... "(2)

وبعد هذا السيل العنيف من الصيغ التعريضية ، يخلص الى فصل آخر من التعريض أيضا ، وان كان بأسلوب مغاير . وهو في هذه المرة يمتطي الى ذلك خمول التحصر على العلم ، والتلهف على ضياعه واندراس ما كان من ربوعه أهلا معمورا ، وهوان شأنه بتطفل المتطفلين عليه ، واستئساد الأدعياء فيه ...

ثم يشرع في الاشارة ، من بعيد ، الى الاعتراضات الواقعة على رسالته المذكورة فلا يرى تفسيرا لذلك الا الغيرة من مهارته البيانية ، وحسد العاجزين له ، لأنهم لا يقوون على مباراته في ميدان الابداع .

ويفيدنا ابن أرقم بجانب من المعلومات له قيمته في تحديد أوليات هذه الاعتراضات التي أبديت على مواضع من رسالته . ذلك أنه يرى أن الحساد هم الذين اكثروا من السؤال عن رسالته ، وتعقب ماجاء فيها مما خُيل اليهم أنه أخطاء في الاستعمال ، فذهبوا يشاورون فيها من ظنوهم من العلماء العارفين ، حتى وصلوا الى ابن سيده . وهكذا يكون هذا العالم حلقة من حلقات الانتقاد الموجه لأدب ابن أرقم ، وقد صدر عنه ما صدر من الآراء بعد أن استفسر عنها واستفتي فيها . وبذلك نرى أن رسالة ابن أرقم قد أثارت لغطا في الأوساط الأدبية بامارة دانية والجزائر الشرقية ....

(1) ذ : 1/3 ، ص : 363 .
(2) نفسه ، ص : 363 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأخيرا نخلص الى مواطن الانتقاد نفسها ، ووجوه الاعتراض ذاتها .
فاذا بها تبدأ مع بداية المقالة نفسها ، اذ يُخَطِّئُه في عبارة التحميد نفسها :
وقد أنكر عليه أن يقول : الحمد لله ... " تَحَدِّيًا " لحدّه " ...

وطريقة ابن أرقم تتلخص في أنه يورد كلام منتقده ، وقد يدل الوضع العام للكلام على أنه يورده بألفاظ صاحبه ، كأن يقول مثلا : " وقال : الحادى ليس من صفات الله ولا يجوز أن يوصف الا بما وصف به نفسه تعالى : أو بما وصفه رسوله . وبدّل " الحادى " بـ " المرشد "[1]. فهو قد نقل الينا وجه الانكار ، ثم الاصلاح الذى باشره حين وضع كلمة بدل كلمة . وبعد ذلك نجد الكاتب يفتتح الفقرة التي تتضمن ردّه على تلك الانتقادات بلفظة " الجواب " ، ويسوق اثرها رأيه فيقول ، على سبيل المثال : " انظر ما أعظم هذا السهو ، وما أضيق هذا الشأو ، وما أقبح هذا البحث ، وما أخشن هذا النحت . وماذا على من قال : الحمد لله منقذنا من الغمرات ، ومبرئنا من العلل الفادحات ، ومرشدنا الى سبل الهدى ، وسائقنا لما يحبّ ويرضى .... وليست شيء من هذا في القرآن ولا في حديثه عليه السلام ...."[2]

وهو لا يكتفي بمجرد هذا الرد الواضح ، المفحم ، بل يتمادى في تسفيه رأى المعترض عليه باستخراج القاعدة العامة التي تنطبق على كل حالة مشابهة من حالات الاستعمال الذى أنكره عليه . ويأتي بآراء الخبراء كرأي أبي بكر الباقلاني [3] الذي يورده على هذا النحو : " يوصف الله تعالى بما لا يقع اجماع المسلمين على منعه "[4]. ولا يكتفي بهذا الرأي

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 373 .
(2) نفسه .
(3) " القاضي أبو بكر محمد بن الطيب .. . المعروف بالباقلاني البصري " اقام ببغداد ، وكان من المتكلمين المشهورين . " كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الاشعرى .... وكان في علمه اوحد زمانه ... " توفي سنة 403 هـ ، وانظر وفيات الأعيان ج 4 ، ص : 269 .
(4) ذ : 1/3 ، ص : 374 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيثنّي عليه بما لديه من الاستعمالات المأثورة عن الصحابة ومن كانوا أقرب الناس الى مصادر الشريعة الاسلامية ، فنراه يورد ماقاله عبدالله بن الزبير(1) حين جاء في بعض خطبه : " الحمدلله العادى القاتن " . ويطيل في مثل هذه التقليبات ، فيشير الى رأي الامام مالك في صفة من صفات الله ، وما أورده فلان في كتاب كذا....ولا ينسى الشعر فيستشهد بالرجز الضروري الذى فيه :

* لاهمّ لا أدري وأنت الداري *

ويناقش كل ذلك طولا وعرضا حتى ليشعر المرأ بالسأم من كثرة ما يلفقه من الجهد الزائد على الحدّ الذى كان يكفيه لإحقاق حقه ، وإفحام خصمه .

وكما يناقش ما خطأه فيه ابن سيده من المسائل اللغوية ، يتناول أيضا المسائل البديعية كانكاره استعارة " عقيلة " المنفس(2)، والقضايا النحوية والصرفية . . . وغير ذلك مما لا يترك مجالا للشك في أن مقالة ابن سيده طويلة ، في الأصل ، غزيرة المادة ، كثيرة الأنواع النقدية .

والذى يفاجئنا في مقالة ابن أرقم هو أنه لا يكتفي بموقف الدفاع عن صحة أقواله ، والردّ على الاعتراضات الموجهة الى كلامه ، بل اننا نشاهده ينقلب ، بعد أن يشفي غليله ببيان صوابه ، الى مهاجم يتعقب ابن سيده على أخطاء له يرى أنه ارتكبها في مقالته الانتقادية ، ويؤاخذه على استعمالاته السيئة وهفواته التي ينطلق منها لتحقير زاده من العلم والمعرفة ، وذلك مثل ما وقع حين أنكر عليه هذه العبارة " لم يزل الأدب يوشح ذاتي بحليه ويرشح نباتي لجنيه "(3) ، فاستغرب أن يصح لانسان قوله " وشحت ذاتي بالحلي " لأن هذا التعبير فاسد ، في نظره ، من أساسه .

---

(1) عبدالله بن الزبير بن العوام القرشي ، بويع بالخلافة عام 64 هـ ، بعد موت يزيد بن معاوية . وقد حوصر في مكة وقتل بها سنة 73 هـ .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 377 .

(3) نفسه ، ص : 381 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلاصة القول في هذه المقالة أنها نموذج جيد في بابها على ما يمكن أن نسميه منهج الردّ على المنتقدين ، في اطار الخصومات الأدبية . ذلك أننا اذا استثنينا المدخل الذي قسا فيه ابن أرقم على ابن سيده ، وعنّف له فيه الكلام ، مع أنه جاء في قالب التلميح والتعريض .... فاننا نجد في الغالب التزاما " باللياقة " والآداب العامة ، ولهجة رصينة ، في الدفاع والانكار ، تتسيح لصاحبها أن يحق ما يعتقده من الحق ، بدون تجن ظاهر على الخصم .

ونحن نرى في هذا المقال ، من ناحية أخرى ، ابن أرقم رجلا عالما بأتم وأدقّ معاني هذه الكلمة ، واسع الباع ، عميق الثقافة ، بيّن الحجة ، ذا إلمام رصين بكل مقومات الثقافة العربية الاسلامية . وهو يستخدم هذا الرصيد الضخم من معارفه استخداما ذكيا لبيان صواب رأيه ، وتقويض البناء النظري الذي تقوم عليه حجج خصمه .

والذي لاشك فيه هو أننا لوكفلت لنا تلك مقالتي ابن سيده وابن ارقم كاملتين ، بالاضافة الى النص الأصلي للرسالة التي تسببت في هذه الخصومة ، لأمكننا أن نخرج بصورة أدق وأوضح لمعالم هذه الخصومة ومناهجها ، ولأتاح لنا ذلك أن نظفر بقدر صالح من المعطيات التي تؤرخ للنقد الأدبي التطبيقي في الأندلس ، وتطوره ، خلال القرن الذي ندرسه .

أما عن أسس النقد ، ومبادئه النظرية فيمكن أن نمثل لما كتب فيها من المقالات بمقالة لابن شهيد (1) تناول فيها قضايا البيان .

ولو احتكمنا الى السياق الذي انشأ فيه ابن شهيد مقاله هذا ، وحده ، لكان رأينا أنه من نوع المقال المتقدم ، أي أنه ردّ على منتقد . فقد ذكر صاحب الذخيرة ، في توضيحه للمناسبة التي كتب فيها ، أنه " عُرضت فصول

---

(1) أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، كان أبوه من كبار الوزراء في دولة بني عامر . وقد عرف أبو عامر ببراعته التي تجلت في شعره ، وفي نثره ، ولاسيما في تلك الرسالة الطريفة التي سمّاها " رسالة التوابع والزوابع " . وانظر مزيدا من أخباره ، ومقتطفات من أدبه في ذ : 1/1 ، ص : 191 ، وما بعدها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من كلامه (كلام ابن شهيد) على الكاتب أبي بكر المعروف باشكمياط [1]، فقال : فقر حسان الا أنه عثر عليها . فوصل كلامه الى أبي عامر . فكتب اليه ..." [2]

وهكذا نستبين من هذا التوضيح أن تهمة أبي بكر بأن كلام ابن شهيد منقول عن غيره، ومسروق منه، هي التي أثارته ودفعته الى كتابة هذه المقالة، ومع ذلك فان المقالة لا تكتسي طابع الرد، ولا تسلك منهجه، لأن الكاتب يتخذ من التهمة الموجهة اليه وسيلة للتمدح بالمهارة الأدبية، والثناء على نفسه بما له من قدم راسخة في فنون البيان وأساليبه .

ولسنا ندري موقع هذا المقال بالنظر الى ما قبله وما بعده، لأن صاحب الذخيرة يكثر من الحذف والانتقال من فصل الى فصل مما يدلّ — دون أدنى شك — على أن ابن شهيد قد أكثر وأطال .

ونحن لا نستطيع أن نتتبع كل ما ورد فيه من أحكام وآراء تتعلق بالبيان، بشرح أو نقص شيئا مما يتصل به وينخرط في سلكه . ثم ان ذاك خارج عن قصد هذا البحث . وانما نكتفي بتلخيص ما لدينا من ملاحظات على منهجه وطرائق التناول فيه .

وأول ما يجب أن نشير اليه أن هذه المقالة ذات طابع تعليمي واضح، بما تعتمد عليه من تقاسيم، وما تلجأ اليه من ضربٍ للأمثلة وايرادٍ للشواهد، والاستعانة بأقوال مشاهير أهل البيان كالجاحظ [3] . ثم انه — مسايرة لهذا الطابع التعليمي — يتبنى أسلوبا في السرد يتيح له أن يدرج ضمن كلامه أخبارا طريفة، ونوادر جرت له هو شخصيا مع بعض من أحب أن يأخذ عنه هذا الفن ويتتلمذ عليه فيه . وكل ذلك من قبيل إحداث التشويق، وربط الانتباه بما يجري عرضه من القضايا البيانية . والحق أن الانسان يقرأ مقالة ابن شهيد باقبال عليها ورغبة فيها لما يجده فيها من متعة لا تكون عادة متيسرة بهذا القدر في مثل هذه النصوص التعليمية .

---

(1) اشكمياط يبدو أنه هو نفسه محمد بن قاسم الذي سماه صاحب النفح "اشكنماده" وقال انه رحل الى الشرق، فزار العراق وزار الشام ثم عاد واستقر عند على بن مجاهد اقبال الدولة . (راجع النفح 2/ 95) .

(2) ذ 1/1، ص : 230 .

(3) عمرو بن بحر الجاحظ ولد في البصرة نحو عام 159 وتوفي عام 255 . من أشهر كتاب العربية وأوسعهم باعا في فنونها وعلومها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينزلق الانشاء في هذه المقالة من الحديث عن أصول البيان ، واسس النقد ومبادئه ، الى نوع من التطبيق على فنون الشعر ، ولاسيما المدح منها والهجاء، ولكن دون أن يفارق الاعتبارات النظرية ، فكأن ما يدفع اليه من ذكر للشواهد والأمثلة ، ضرب من التقرير العملي للأحكام التي يصدرها في سياق الحديث عن المبادى والمرتكزات .

ومن هذه الملاحظات الرئيسية التي تثيرها فينا القراءة المتأنية لما كتبه ابن شهيد في هذا المقال ، تلك السخرية اللاذعة التي تناول بها الحديث عن المعلمين . انه يسخر منهم سخرية تتجاوز مجرّد التندر بهم ، والرغبة في الاضحاك من طرافة ما يعرض لهم من أوضاع . . . الى نوع من الاحتقار والامتهان، يظهران في تصويرهم دائما ، في صورة الاغبياء البلداء ، الذين لاينبغي أن يطلب عندهم فهم ، ولا أن يرتجى عندهم علم . فهؤلاء قوم من معلمي قرطبة يصفهم بأنهم : " يحنون على أكباد غليظة ، وقلوب كقلوب البعران ، ويرجعون الى فطن حمئة ، وأذهان صدئة ، لا منفذ لها في شعاع الرقة ، ولا مدب لها في أنوار البيان . . . . "(1)

هذه أوصاف تدل على أن هذه الفئة من المعلمين ليس لها من احترام الكاتب أي نصيب . ولكنه يبلغ شأوا بعيدا في ذلك الاحتقار الذي أومأنا اليه ، حين يجعل خلقة المعلمين تنسها مناسبة لما ضرب عليهم من غلظة في الحس ، وخشونة في الاحساس ، حتى كأنهم صرب متميز بهذه الخليقة المشوهة من عباد الله ، وفي هذا يقول : " فهذه حال العصابة من المعلمين ، يدركون بالطبيعة ويقصرون بالآلة "(2) أما التفسير " العلمي عنده " لهذه الحالة فهو يكمن في " غلظ أعصاب الدماغ ونقصانها عن المقدار الطبيعي ، يعين على ذلك ، بالحدس وطريق الفراسة ، فساد الآلة الظاهرة ،كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القَمَحْدُوَة ، والتواء الشدق ، وخزر العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة . فنستعيذ بالله ألا يشوّه خلقة قلوبنا . . . ولا يعظم أنوفنا ، ولا يجعلنا مُثلَة للعالمين "(3).

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 239 .

(2) نفسه ، ص : 240 .

(3) نفسه . وانظر أيضا أمثلة أخرى لذلك ، ص : 244 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مما لاريب فيه أن الكاتب يريد أن يضحك قراءه على هذه الفئة التي يحتقرها من المعلمين ، ولكنه بالغ في هذا الاستخفاف حين رام أن يؤسسه على قواعد علمية، وأن يستنبط للمعلمين أوصافا جسدية خاصة هي وقف عليهم ، لأنها امتداد ظاهر لنقائص في تركيبهم الأصلي . ثم يرقى الى قمة عالية من التشهير بالمعلمين ، وابداء حقده عليهم ، واستخفافه بهم ، حين يوجه الى المولى تلك الدعوات الحارة بأن لايصيبه ما أصاب أولائك من التشويه ....

نحن نعرف أنه يقصد في الغالب رجلا من المعلمين هو ابن الافليلي (1)، وان نقمته الشديدة عليه هي التي سحبت ذيولها على جماعة ممن لاعداوة لهم في الأصل مع الكاتب . والطريف في كل ذلك أن ابن شهيد نفسه يروي في هذه المقالة ذاتها بعض الأخبار التي تدل على أنه كان ذا صلة ما بالتعليم ، وأنه مارسه بشكل من الأشكال ، في فترة من تاريخ حياته ، والا فكيف نفهم قوله : " جلس الي يوما يوسف ابن اسحاق الاسرائيلي ، وكان أفهم تلميذ مرّ بي ، وأنا أوصي رجلا .... وأقول له : أن للحروف أنسابا وقرابات تبدو في الكلمات ..." (2) فما حال من يجلس اليه الناس مثل هذا المجلس ؟ وما تكون مهنة من يقول : " كان أفهم تلميذ مرّ بي ؟ فكم من التلاميذ مرّوا به ؟ ... ثم يقول في مكان آخر عن ذلك الرجل الذي أوصاه : " ولم يزل يتدرّب باختلافه اليّ حتى ندي تربه ، وطلع عشبه ، ثم تفتح زهره ..." (3)

وهكذا كان مقال أبي عامر حافلا بالفوائد البيانية والبلاغية، والنصائح الخاصة بالشعراء . وهو قد وفق في أن يخرج صياغته من الطابع التعليمي الرتيب الى انشاء سلس، مؤثر بفضل مزاياه التعبيرية وروح الفكاهة التي أشاعها فيه .

هذه نماذج من المقالة الأندلسية في هذا العصر ، لعلها تكفي لبيان خصائص هذا الفن وما استطاع أن يصل اليه من انبساط في المجادلة ، واسترسال في سرد المواقف ، واستخدام لوسائل الاقناع ، وحسن توظيف للحجج والشواهد من كل نوع .

---

(1) أبو القاسم بن الافليلي من معلمي اللغة والنحو بقرطبة . هذا مايستفاد من كلام ابن شهيد عنه . ولا ذكر له في كتب التراجم . ويفهم من كلام ابن شهيد أيضا انه لم يعرف له تأليف في فنّ ما .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 234 . (3) نفسه ، ص : 235 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهذه البراعة ترمز الى سيادة النثر التامة في هذا العصر، وهيمنته الكاملة على كل مجالات الأداء الانشائي .

بيد أن من أنواع الأداء مالا يحتاج الى هذا القدر من الاقناع، أو هو على كل حال لا يلجأ الى الحجج، والمجادلة، والخصام، لأنه لا يرمي الى بلوغ الغايات التي يرومها المقال . وقد تكون غايته هي عرض صورة ما وقع، ونقل أخبار حادثة بعينها، وهذا يتطلب صيغة انشائية محددة نحب أن نطلق عليها مصطلح التقرير .

ب : التقرير

التقرير في حقيقة أمره عرض لحال ما، لها صلة بواحد من مجالات الحياة الكثيرة. واذا كانت كلمة " التقرير" حديثة بالنظر الى الدلالة التي تتضمنها، فان مفهوم هذه الدلالة ليس بحديث وانما كانت تستعمل له كلمات أخرى لعلّ من أشهرها عبارة " عرض الحال " ولن نبحث عن شاهد لهذا الاستعمال بعيدا عن هذا العصر، فان لدينا من النثر الأندلسي في هذا القرن بالذات رسالة وردت فيها هذه العبارة بكل وضوح واستعملت نفس هذا الاستعمال الذى نعبر عنه اليوم بكلمة " تقرير "، وذلك في الكتاب الذى وجهه أمير بطليوس: المتوكل الى ملك المرابطين : يوسف بن تاشفين حين كان يستحثه على العبور الى الأندلس لانقاذها من غزو النصارى الاسبان لها، فقد قال له في خاتمته : " وكتابي هذا جملة : الشيخ الفقيه الواعظ ينصلها ... فانه لما توجه نحوك احتسابا ... وثقت في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه ."(1) ولقد شاع هذا التعبير واستعمل حتى أضحى كلمة واحدة تكتب على هذا النحو " عرضحال " في الفترات المتأخرة .

ونحن لو ذهبنا نستقصي كل ما في الأدب الأندلسي الذى أنشيء في الفترة المعنية من النصوص التي جاءت في قالب تقرير، لطال بنا الصد، واستلزم منا دراستها وقفات طويلة تستغرق هذا الفصل كله . وانما نريد، فيما بقي من الاسطر، أن نقف عند بعض الأنواع التي تعتبر شاهدا على غيرها، ونموذجا لها.

---

(1) ذ : 2/2، ص : 655 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد صنفناها فجاءت أضربا مختلفة يمكن تحديدها بذكر المجالات التي تتحدث عنها وتعالج أحوالها : كالأوضاع الشعبية ، والأوضاع العسكرية ، والشؤون السلطانية والأحوال النفسية . وسنقول كلمة موجزة عن كل واحد من هذه الأنواع .

1 — تقرير من الأحوال الشعبية :

لدينا من هذه الفئة تقارير كثيرة تناولت شتّى أحوال المسلمين وهم يتعرضون لغزو النصارى المتعاقب على أراضيهم ، ويعانون ألوانا من الانتقام منهم والتنكيل بهم . وقد اخترنا من هذا النوع التقرير الذى بعث به المتوكل الأفطسي الى ملك المرابطين ، بقصد انهاضه الى اغاثة أهل الأندلس ، ونصرة الاسلام والمسلمين فيها (1) .

ونحن هنا أمام ضرب خاص من عرض الحوادث ، لأن الكاتب لا يعنى بسردها وقصّ وقائعها ، والحديث المفصل عنها ، كما قد يحدث في بعض التقارير ، وانما همه ، هنا ، أن يصف أثرها في الناس ، ووقعها على نفوسهم ، وما تحدثه فيهم من الانفعالات . . . من ذلك أنه ، حين يريد أن يبين مقدار خضوع المسلمين لعدوهم المتغطرس ، يصف تلك الحال ، متحدثا عن طوائف العدوّ بأنها " تُلاَطِفُ بالاحتيال ، وتَستَنزِل بالأموال ، وتُخرِج لها عن كل ذخيرة ، وتُستَرضى بكل نفيسة خطيرة ، ولم يزل دأبها التشطّط والعناد ، ودأبنا الاذعان والانقياد ، حتى استُصفِي الطريف والتّلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاد "(2) .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن التقرير يختلف عن المقال من حيث أن الأول لا يقصد الى تحقيق الاقناع الذى هو أساسا الهدف الرئيسي للثاني ، ولكن ليس معنى ذلك أن التقرير يخلو من هذا الغرض . والواقع أن كل ضرب من ضروب البسط للرأى يتوخى قدرا من الاقناع ، ولو جاء في صورة تأثير على القرار ، وترجيح لكفة الموقف نحو هذا الاتجاه أو ذاك .

---

(1) من أمثلة مالم نذكر من التقارير : الكتاب الذى أنشأه أبو حفص عمر بن الهوزني الى ابن عباد يصف فيه حال المسلمين بعد غزو النورمان لموقع بربشتر ، ذ : 2 / 1 ص : 34 .

(2) ذ : 2 / 2 ، ص : 654 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والهدف من التقرير الذى يبعث به أمير بطليوس الى الملك المرابطي ليس "حياديا "، ولا معنى لأن يكون كذلك ، وهو صيغة يريد أن يبلغ بها مواقع التأثير فيه لحمله على التحرك لمساعدة اخوانه في الدين قبل فوات الأوان .

ولذلك تكثر في هذا النص أساليب التحسّر ، والتفجع ، لأن الكاتب يعرض أوضاع المسلمين من الزاوية التي تبلغ أقصى ما يمكن من اثارة لوجدان يوسف بن تاشفين ، وتحريك لعواطفه . ومن أمثلة هذه الصيغ المثيرة قول الكاتب : " فيا لله ويا للمسلمين ، أبسطو هكذا بالحق الافك ، ويغلب التوحيد الشرك ، ويظهر على الايمان الكفر ، ولا يكتنف هذه الملة النصر .... "(1)

ومن آيات البراعة والابداع في هذا التقرير قدرة كاتبه على مخاطبة النفس من أكثر مواقعها التصاقا ، وأدق جوانبها استجابة ، وهو ما يتجلى هنا في كثرة الحديث عمّا يلاقيه الناس من مضايقة في دينهم ، وما تتعرض له عقيدتهم من الأذى ، وما يحتمل أن تصاب به ، في المستقبل ، من أنواع المكاره ان لم يسرع "المستنجد به " الى إنجاد إخوانه . وهو يتصوّر مواكب الزاحفين لنصرة الأندلس في هذه العبارات الرائقة : " وما هو الا نفس خافت ، ورمق زاهق ، ان لم تبادروا بجماعتكم عجالا ، وتتداركوها ركبانا ورجالا ، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا "(2).
فمن المؤكد أنه هنا لا يرسم للملك المرابطي طريق النجدة ، ولا يملي عليه أسلوبا في التحرك لاغاثتهم ، وانما هو احساس المتلهف الذي اشتدت ثقته بمن يخاطب ، حتى كأن ما يرجوه واقع مشهود يتحرك أمام عينيه ....

هذا ولا نختم الحديث عن هذا التقرير قبل أن نلاحظ أنه من نوع " المحمول " ، فليس من النوع العادى المرسل بواسطة البريد وانما هو ، لأهميته ، وخطر ما يترتب من اجابة عليه ، يحمله " الشيخ الفقيه الواعظ " الذى سيتولى شرحه ، وبيان ما فيه ، فمن حسن الصدف أنه فقيه ، وواعظ ، وفصيح ... وهذه كلها صفات تمنحه وسائل مطلوبة في مثل ذلك الظرف الصعب لاقناع ملك مراكش .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 654 .
(2) نفسه ، ص : 655 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 — تقرير عن الأوضاع الحربيّة :

وتشاء الأقدار أن تنجح وفود الملوك الأندلسيين وتقاريرهم ووساطة شيوخهم وفقهائهم في اقناع ابن تاشفين بالعبور بجيشه الضخم الى ما وراء المضيق . وتتحد كلمة المسلمين هنالك كما لم تتحد منذ الفتنة أبدا ، وتجتمع قواتهم وقوات اخوانهم المغاربة تحت قيادة واحدة ، وتصدم جيش العدو الذى حشد للمعركة كل ما أوتي من بشر وعتاد ، وتدور الملاحم بالنصر للمسلمين ، في الموقعة المعروفة بالزلاقة[1] ويهب ملك اشبيلية : المعتمد بن عباد الذى كان واحدا من أبطال تلك المعركة ، لبوافي المسلمين من رعاياه بتقرير عن ظروف الانتصار ، بعد أن كان وافاهم ببيان مختصر يحمل اليهم أنباءها بايجاز[2] .

كان هذا التقرير ، في الأصل ، طويلا فيما يبدو من حذف صاحب الذخيرة لبعض أجزائه . وان أدق احساس نخرج به من استقرائنا لما ورد من أجزائه ، أنه تسرى فيه نشوة المسرّة بالنصر . وكان الذى يزيد من هذا الابتهاج حرص الكاتب ، في ذلك السياق ، على التذكير بالماضي المهين ، وبيان ما كان فيه من أنواع التسلط والغطرسة التي يمارسها الملك النصراني : " ادفونش " على ملوك الطوائف . فكان استعادة ذكراها اليوم ، واستحضارها في ذلك الوقت المفعم بالأمل والسرور نوع من الانتقام والثأر منها .

ومما تجدر ملاحظته ، أيضا ، في هذا النص ، ولوع كاتبه بسرد التفاصيل ، وايراد جزئيات ما يعرض من الوقائع ، فهو ، مثلا ، يبدأ تقريره ، كما أشرنا ، باعادة تصرفات النصارى الماضية الى الأذهان ، ثم يشرع في الحديث عن الجهود التي بذلها أمير اشبيلية لاقناع ملك المرابطين بالعبور الى الأندلس . وهو يكثر من ذكر المراحل ، والمواقع ، والأماكن التي مرّ بها الجيش أو عسكر فيها .

ومن الفقرات الهامة في هذا التقرير تلك التي أفردها لوصف جيش النصارى ، وتلميحاته المتكررة الى كثرة ما كان لديه من الأسلحة فقد " تحصنوا بالحديد من قرونهم الى أقدامهم ، واتخذوا من السلاح مايزيد في جرأتهم واقدامهم . . . "[3] .

---

(1) سبق لنا أن تحدثنا ، ببعض التفاصيل ، عن معركة الزلاقة ، ولا سيما في الفصل الأول من هذا البحث وقد وقعت عام 479 هـ .

(2) انظر ذ : 2/1 ، ص : 241 ، وقد تحدثنا عنه ضمن " الاعلانات " في هذا الفصل .

(3) ذ : 2/1 ، ص : 243 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن تقرير النصر هذا ، ووصف الأوضاع الحربية بمناسبة معركة " الزلاقـــة "، موجـه على الأغلب ، الى عامة الناس ، وربما قرئ في المساجد أو علق في الساحات العامة كما كان يفعل بكتب الفتح قبل ذلك العهد . وقد جاء أسلوبه مناسبـــا لهذه الغاية فصورحسن العبارة في غير توعـر ولا استغراب ، سهل رائق السجـع ، واضح الاشارة ، وتلك أوصافـه تجعله حقا في متناول الجمهور الواسع من النـاس . وهذه خصيصـة من خصائص هذا الضرب من التقاريـر تجعلها تختلف عـــن التقاريـر الموجهة الى الخاصة ، كالتقاريـر السياسيـة ، السلطانيـة .

3 — تقريـر عن الأحوال السياسيـة :

وهو ما يمكن أن نصفـه بأنه "سلطاني" أي "دبلوماسي" بلغة العلاقـات الدولية اليوم . وليس الذي خوله هذه التسمية مجرّد كونـه صادرا عن ملك ، وموجهـا الى ملوك ، فقد استعرضنا منذ حين تقرير المتوكـل الافطسـي الى يوسف بن تاشفين ، ولم نطلق عليه هذه التسميـة . وانما الذي رشحه لهذه التسمية هو أنه بالاضافـة الى ذلك ، يعرض شأنا من شؤون المملكـة ، ومسائـل تتصـل بالحكم فيهـا .

والذي نحب أن نتناولـه بالحديث من هذا الضرب من التقاريـر هو ذلك النص الذي أمر المعتضـد بن عباد بكتابتـه الى عدد من ملوك الطوائف ليقصّ عليهـم فيه الحوادث التي قادتـه الى قتل ابنه اسماعيـل الذي كان وليا لعهده . ولـو أننا استطعنا أن ننعـت هذا التقريـر بمصطلحات اليوم لقلناه انه " مذكـرة دبلوماسيـة " يبعـث بها رئيس دولة الى مجموعـة من حلفائـه رؤساء الـدول المجاورة .

ونحن حين نقرؤه نخـرج منه بفكـرة أولى تدور حول تعاسة أب يضطر الى أن يقتـل أقرب الناس : فلـذة كبده ، وأكبر أبنائـه ، وصرامـة ملك يركب ، كـل صعب، الى استبقـاء مملكتـه والحفـاظ على عرشـه .

أما عبقريـة الكاتـب، فتتجلى ، بخاصـة ، في أنه تمكـن من أن يبرز لنا المعتضد ابن عباد في صورة رجل يمكن أن نجد في نفوسنـا أسباب إكباره ، ودواعي فهم مـا أقبل عليـه ، اذا عدمنـا فيها أسباب العطف عليه ، والرثـاء لـه ، والتضامن معه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا التقرير مسعى رجل حريص على ايجاد الأعذار لفعلته الشنيعة، فلذلك يكثر من الحديث عن التهم التي كان قد ألصقها على القتيل، فليس له اذن ما يسوّغ الثورة على أبيه، وأحداث البلبلة في مملكة سيؤول عرشها اليه: "وسعت عليه في خطيرات الذخائر والأموال، وأخضعت له رقاب أكابر العبيد ووجوه الرّجال، ودربته في مباشرة الحروب، وأجرأته على مقارعة الخطوب"(1).

وفي هذا التقرير قساوة وعنف، لا شيء يحول دون وقوعهما على الابن الضال، لا لوعة الذكرى، ولا حرمة الموت، فهو كلّما ذكر: "الغبي العاق، اللّعين المشاق"(2) أو هو "اللعين الغبين"(3).

ويحتل الجانب الاخباري في التقرير الحيّز الأكبر، ففيه شرح لمبحث هذه المحنة، وتفاصيل المؤامرة من بداياتها الأولى الى نهايتها المشؤومة. مرورا بجزئيات لا ندري أية قيمة كانت لها حتى استحقت أن تُثبت في هذا النص الخطير الشأن، الا أن تكون دليلا على الرغبة في ابلاغ نظراء الملك، من أمراء الطوائف، كل الأحداث أولا بأول ... من أمثلة ذلك قول الكاتب: "ألّف أوباشا من خساس صبيان العبيد المتهنين في أدون وجوه التصريف .... ثم سقاهم الخمر وسقى نفسه ليجتري ويجرّيهم .... وسلحهم بضروب من الأسلحة ... وطرق القصر في بضع عشرة منهم، وتحلق معهم الاسوار والحيطان، وتسنم بهم السقوف والجدران، يروم فيّ القضية العظمى، والطامة الكبرى .... فشعرت بالحركة وخرجت، فلما وقعت عينه وأعينهم عليّ تساقطوا هاربين .... الخ" (4).

أليست هذه تفاصيل ثانوية كان بامكان التقرير، وهو من ملك الى ملك، أن يتجاوزها، ويستغني عنها؟ وجوابنا أن كلا، فان من شأن الناس أن يتزيدوا في الروايات، وأن يبالغوا في قص الأحداث، وأن يتأولوا مالاعلم لهم به تأويلا قد يكون فيه بعض الضرر ... فلذلك كان حرص الكاتب على هذه الأخبار الجزئية توسيعا للرواية الرسمية بكل جوانبها، ومنعا لكل صيغة أخرى قد تروى بها، وتكون فيها فرصة

---

(1) ذ: 1/3، ص: 133.
(2) نفسه ..
(3) نفسه، ص: 139.
(4) نفسه، ص: 140.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

للتزيد والتأويل . هذا بالاضافة الى أن هذه الجزئيات تنمّي احساس القارئ بتفاهة العمل الذى قام به المتآمرون ، وحقارة أمرهم في ذاتهم . . . فليسوا من كبار القواد ، ولا من وجوه الرجال ، ولا من أهل السياسة وانما هم " أوباش من خساس صبيان العبيد " وهم من خَوَر العزيمة ، وقلة الهمة ، وضعف الارادة ، بحيث ماكانوا يستطيعون أن يواجهوا الفعل الذي هم مقبلون عليه ، الا وهم سكارى ، فاقدون لوعيهم . . . .

والحق أن هذا التقرير قد جاء مستجيبا كل الاستجابة للغرض الملكي الذى كان وراء الأمر بانشائه . وقد بلغ من صيت هذا النص ، واعتراف الأدباء ببراعة الفنّ فيه ، أن أقبل جماعة من الأدباء على معارضته ، وتقليده بنص ينهج منهجه ، ويتناول الموضوع المطروق فيه (1).

وآيات هذه البراعة كثيرة ، مبثوثة في كل أنحاء النص ، في معناه ومبناه ، ولكن هناك جانبا منها نريد أن نقف عنده وحده ، قليلا من الوقت ، وهو الجانب الموسيقي الذى أبدع فيه الكاتب . فمن ذلك هذا التلوين في النغم الذى يتأتّى للآذان من المخالفة بين الحروف ، في نطاق توازن تام ، دقيق ، بين الجزئيين المتكافئين المتعادلين في هذه الجملة : " طرأت علي من خطوب الأيام طارئة دهياء دهماء ، وفجأتني من ضروب الأقدار فاجئة عمياء صمّاء "(2)

ولنتوقف أيضا عند هذه القدرة التي يبديها الكاتب في ترجمة الغلط الذى وقع فيه القتيل ، والوهم الذى حجب عنه نور الحقيقة ، فاذا بالأنغام المتصاعدة في علوّ وانكسار متعاقبين ، واذا بوضع الألفاظ في الجملة ، وتقابل المعاني وتضادها يعبر عن تلك الأوضاع التي أدت الى تمرّد الابن أحسن تعبير ، وكل ذلك من خلال قوله : " وكأنه قد استصغر ما أتى ، واحتقر ما جنى ، فردّى وسدّى ، ما صارت به الصغرى التي كانت العظمى . . . . "(3)

ومثل ذلك نجده أيضا في أماكن أخرى ، كما في هذه العبارات : " فأعجب لأبناء الزمن ، وأنباء الفتن ، وانقلاب عين الابن المقرب ، المودود ، الى حال الواتر

---

(1) سنتناولها بالدراسة في القسم الثاني من هذا الفصل .

(2) ذ : 1/3 ، ص : 133 .

(3) نفسه ، ص : 140 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحسود ، والثائر الحقود ، واعتبر في ورود المساءة من موطن المسرّة ، وطلوع المحنة من أفق المنحة ....."(1)

والذى يزيدنا اعجابا بملكة الكاتب ، والموهبة التي أتاحت له تحقيق هذا القدر من التوفيق في موضوع من أصعب ما يمكن أن يكتب فيه كاتب : — ايجاد العذر لأب في تتل أكبر أبنائه ... — هو ذلك الظرف الاستثنائي الذى أمره فيه الملك بتحرير هذا التقرير ، وهو في أوج سطوته وعنفوان غضبه ...(2).

واذا كان هذا النص قد جاء واسطة بين الموضوعية والذاتية بالنظر الى موقع الكاتب من الأحداث ، فمن التقارير ما يكون ذاتيا خالصا ، لايتناول من الأحوال الا ما هو وثيق الصلة بنفس صاحبه ، وذلك مثل النص الذى كتبه أبو المطرف ابن الدباغ(3).

4 — تقرير عن الأحوال النفسية :

هذا كتاب حرره ابن الدباغ ، السالف الذكر ، ليشرح لأحد أصدقائه حقيقة ما وقع له مع أمير بلده المقتدر بن هود . ونحن هنا أمام تقرير من نوع خاص ، لأنه لايمكن أن ننتظر فيه أخبارا تسرد ، ووقائع محددة تروى بتفاصيلها وكل جزئياتها ، كما كان الشأن في التقرير السابق ... وانما هو تقرير يطغى عليه الجانب الذاتي . ونحن في الحقيقة أمام وثيقة " انطباعية " تصف آثار الوقائع العنيفة في النفس ، وما تخلفه فيها من أصداء واسعة .

وحين نفتش هذا التقرير فاننا لانجد فيه من قبيل الأخبار الهامة الا حدثا واحدا ، وهو : غضب الأمير " ابن هود " على الكاتب " ابن الدباغ "

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 141 .
(2) انظر الذخيرة : 3/1 ، ص : 137 تفاصيل عن السياق الذى كتب فيه هذا التقرير .
(3) أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ : سبقت الاشارة اليه . وانظر ذ : 3/1 ، ص : 251 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لأنه لم يخرج معه فيمن خرج الى محاربة أعدائه ، فعاقبه بنفيه الى بقعة نائية من مملكته . هذا الخبر هو مادة التقرير التي يبدي فيها الكاتب ويعيد ، ويتناولها من مختلف الجوانب ليبين في كل مرة جانبا من انفعالاته بها ، ومبلغ تأثره بما كان من نتائجها .

وهكذا فان ما كتبه "ابن الدباغ" هو تفسير وجداني لموقف الأمير منه ، وقراره بشأنه . وهو يكشف لنا في أثناء ذلك ، عن مقدار هائل من الحساسية ، بل من الشفافية العاطفية ، التي كثيرا ما تجني على صورته في نفوسنا ، اذ يبدو لنا رجلا فاتر العزيمة ، قليل القدرة على مواجهة متاعب الدنيا ، متلهفا على كل من بامكانه أن يسعده ولو بكلمة يقولها عنه ، أو بحرف يكتب به اليه ...

ومن آثار هذه الحساسية المفرطة مبالغته في تقدير حجم العقاب الواقع عليه ، فهو يفتتح التقرير الذي وصف فيه أحواله الى صديقه بهذه الكلمات القاطعة : " تطلع عليكم مع هذا الكتاب طوامّ معضلة ، وعجائب مذهلة ينسيك بعضها بعضا ، وتفنى — وأنت لا تدري — أناملك عضّا "(1).

ثم ان هذا الأسلوب في الوصف الانفعالي لما جرى له ، لا يكتفي بأن يفرده لمعالجة أحواله هو ، وانما يودّ أن يشاركه الناس فيه ، وأن يمتد الى غيره ممن بقي له من الأصدقاء ، ولاسيما هذا الذي يكاتبه ، فانه يود لو أن الحوادث التي يقصها عليه تنال من نفسه كل منال ، حتى انه ليتصوره في هذه الصورة الوهمية التي يرسمها له وهو يخاطبه قائلا : " وكأني بك كلما نشرت منه سطرا ، وطالعت فيه أمرا ، تتصبّب عرقا ، وتذوب فرقا ، وتغشاك سكرة على سكرة ، ولا تخرج من غمرة الا الى غمرة ...."(2)

فان هذه المشاعر المتأججة ، وهذه العواطف الملتهبة ، من كثرة حبه لنفسه ، وخوفه عليها ، فيما نقدر ... لتوحي له بتعابير غريبة حين يعرض لوصف ما أصيب به من جرّاء غضب السلطان عليه . فمن أيسر ذلك قوله :

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 271 .
(2) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وشاهدت نفسي وهي تخرج ، ورأيت روحي وهي تعرج ، وبقيت لا أقلقل ولا أزعج "(1). وكأن هذا الأديب اللّامع قد خلق لوصف هذه المناظر الدامعة ، ورسم هذه المشاهد الباكية . فهو في مشفاه عاكف على ألمه المنبعث من شغاف قلبه ، يصغي اليه ويتتبع مسراه في كل ذرة من ذرات جسمه المتداعي . وهو حقا رجل بارع في تلمس عناصر دائه ووصفها على هذا النحو المؤثر : " واعجب لطول الأيام بي . . أجرع من الهون ما أجرعه ، وأقابل من الضيم مالا أدفعه ، وأُسَاء دهري كله وأكرب ، وأجرّكَ حين بأيدي الاهتضام وأُسْحَب . . . . "(2)

ونحن نرثي لهذه النفس التي تشقى بواقعها كما نرثى لكل نفس تلقى عنتا من دهرها . ولكننا لا نشارك ابن الدباغ في مصابه مشاركتنا للرجل العظيم حين تعبس له الايام وتتنكر له الدنيا . ذلك أنه ملأ الأرض صراخا وبكاء ، وليس هذا هو الأسلوب الذى يبلغ به منتهى عواطفنا ، بل ان الذى يؤثر في النفوس انما هو المجروح الصابر ، والمصاب الوقور . . . . أما ابن الدباغ فهو يكاد يفرض علينا المشاركة فرضا ، كما فعل مع الصديق الذى خاطبه بتقريره حين قال له : " فرقّ الآن لأخيك رقة راحم ، وابك عليه بدمع هام وساجم ، وتقطّع اشفاقا ، واستشعر انطباقا ، والبس عليه أغبر ان لم تلبس حدادا ، وألق للعزاء عنه وسادا . . . "(3)

جـ - البيان

نقصد " بالبيان " النص الموجز الذى يبلغ به الانسان رأيا أو موقفا من قضية ما الى جمهور عريض من الناس . فهو ، اذن ، ذو خصائص مزدوجة من حيث صيغته ، ومن حيث مداه . وعلى هذا الأساس فان للبيان وظائف كثيرة متعددة ، وقد أحصينا جلّ ما ورد منها ، أثناء اعدادنا لهذا البحث ، ولكننا نقتصر على نوعين منها ، لحسبانهما يمثلان أهم ما صدر منها ، وأجدرها بالدراسة ، وهما : البيان السياسي ، والبيان العسكري .

(1) ذ : 1/3 ، ص : 272 .
(2) نفسه ، ص : 273 .
(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 ــ البيان السياسي : ماكان أكثر حاجة الأمراء ورجال الحكم الى مخاطبة الجماهير العريضة من الناس، وعرض جملة من القضايا والمسائل السياسية عليها . واذا كانت تلك الفئات التي يراد مخاطبتها من سكان المدن النائية، والأقاليم البعيدة، التي لا حيلة في جمعها ومخاطبتها مباشرة، أو كانت ضرورات الاستخفاء، والتستر، خشية السلطان، تمنع ذلك، فان الطريق الأوحد الذي يبقى ممكناً سلوكه لبلوغ الغاية المرجوة من الخطاب هو الاتصال بالناس عن طريق البيان العام .

فمن البيانات ما يكتسي، مثلا، طابع التحريض على التمرد، والحث على خلع الطاعة، والحضّ على العصيان، سواء جاء ذلك في ثنايا النصّ تصريحاً أو تلميحاً ومنها ما يكتسي طابع الدعوة لأمير ما، والمطالبة بالبيعة له . ونحن نريد أن نقف عند نموذج من النوع التحريضي لبيان الأساليب المعتمدة فيه، وهو ذلك الذي وجّه باسم زهير الفتى، أمير المرية، الى " اهل قرطبة " . وهو على قِصَره قد تضمن كل المقومات التي ينهض عليها هذا النمط من الانشاء، فهو يبدأ بمدح أهل قرطبة والاشادة بهم . وغني عن البيان أنه يعني بهم وجوه الناس، وعناصر الطبقة النافذة من ذوي العلم والمال . وهو ينفخ في بوق كبريائهم، ويتملق لهم بمثل الأوصاف التالية : " أنتم .... غرر المصر، وبقايا هذا العصر، وموضع اقتباس النور والرأي، والملاء المقتدى به والمشار اليه ... "(1)

على أن الغرض هو النيل من " بني عباد " الذين تدخل عاصمة الأندلس القديمة : قرطبة، ضمن أملاكهم . فذلك الثناء والاطراء ليسا الا استدراجا يراد منه تحقيق انتباه الناس الى ما سيقال عنهم .

وسرعان ما يأتي البيان الى الحديث عن بني عباد، ورسم صورة شنيعة لهم، وتصويرهم في أقبح خلقة . فاذا كانت الفتنة أكره شيء الى الأندلسيين بعد أن قضت على مجدهم، وأذلتهم بعد العز، فان ملك بني عباد قد " سلّ سيف الفتنة والبغي من قرابه، وأثار بعير الظلم من مبركه "(2) . واذ كان

---

(1) ذ : 1/2، ص : 650 .
(2) نفسه، ص : 651 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرآن الكريم قد أعطى المسلمين مثلا مع التصرف المنافي للأخلاق ، المجافي للسلوك الاسلامي القويم ، فان ابن عباد يرمز الى ذلك السلوك المنحرف الوارد في القرآن ، فهو " مشى في الأرض مرحا ، وظن أن يخرق الأرض ويبلغ الجبال طولا "(1) بل ان هذا الأمير قد أحلّ — بتصرفاته الخرقاء — دمه للناس منذ غدا حربا على المسلمين " فغزا أهل الاسلام في عقر دارهم ، وأسقط عن نفسه حرمة الله فيهم ، .... "(2)

هذه الطريقة في التقرب الى عواطف الناس بالسخط على المظاهر التي يكرهونها بطبعهم ، وينفرون منها ، والتلويح لهم بما يحبون ويبتغون ، هي التي تسميها المعاجم السياسية اليوم " الديماغوجية " . والذي يفعله حاكم المرية ، وهو يخاطب أهل قرطبة ، لا يختلف في شيء عن ذلك . وليس هذا الكلام ، على ما يمكن أن يدلّ عليه من مذاهب صاحبه ، بمعدود في صميم اهتماماته الرئيسية التي تتلخص في شيء آخر ، لا يباغت به مخاطبيه ، وانما يقتاده بلطف محسوب ، ويتيح له التسلّل الخفي وهو الدعوة الى مبايعة من سُمِّي " بادريس المتأيّد " . وبعد أن يقضي وطره من ذلك ، يختم رقعته بمثل ما بدأها به من الثناء على أهل قرطبة لمكانتهم من العلم ، وقدرتهم على النظر والتأويل .

2 — البيان العسكري : يختلف هذا البيان عن الصيغة السابقة منه ، من حيث أن المقصود هنا هو تبليغ معلومات عسكرية عن أوضاع الجيوش ونتائج الحروب ، أو ما تمّ اتّخاذه من قبيل التأهب والاستعداد لها .

فأما عن الصيغة التي تنحصر في التبليغ ، فمن أشهر ما لدينا منها ذلك النص التبشيري الذي أرسل على جناح السرعة الى أهل اشبيلية ، بعد الانتصار الضخم الذي تحقق للجيوش الاسلامية في " الزلاقة " بعد عبور الجحافل المرابطية الى البلاد الأندلسية (3).

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 651 .
(2) نفسه .
(3) انظر النص في ذ : 1/2 ، ص : 241 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأما عن البيان الذى يبشر باقتراب ارسال المدد العسكرى ، ويتحدث عن الاجراءات المتخذة في سبيل الاعداد للحرب ، فان أوضح نماذجه يتمثل في ذلك النّص الذى بعث به أمير بلنسية[1] الى أهل قرطبة .

وأول ما ينبغي الاشارة اليه أنه جاء ردّا على نداء كان قد وجهه أعيان قرطبة الى هذا الأمير يستنجدون فيه به ، وان كنا لا نعلم الصيغة التي جاء فيها هذا النداء : فهل كانت كتابة ، أم كانت طلبا حمله وفد اجتمع بالأمير ، أو سفير أرسل اليه ... وكل ما نعلم أن صاحب بلنسية يشير اليه في بيانه بقوله : " ملبيا لدعوتكم ، ومسارعا الى نصرتكم "[2] .

والخطاب كله في قالب الاعتذار عن عدم تلبية تلك الدعوة في أوانها بالانصراف الى إخماد الفتن الداخلية التي نشبت في مملكة المستغاث به ... ويبدو أن " دعوة " أهل قرطبة كانت قد صدرت اليه عندما هاجم بنو عباد ملك المدينة وقضوا فيها على دولة بني جهور ، وألحقوها بأملاك دولة اشبيلية . فاستجابة صاحب بلنسية قد جاءت دون شك متأخرة عن الموعد الذى كانت تستطيع أن تفيد فيه . وكل ما يلفت الأنظار في هذه الرقعة هو مقدار حرص الأمير على ارضاء أهل قرطبة لأنهم " الأهل والجيران ، والذخائر للزمان ... "[3]

هذه أصناف من الصيغ الانشائية التي استخدمها أدباء الأندلس في بسط الآراء المختلفة ، وتبليغ المواقف المتباينة ، وعرض أنواع شتى من الحالات والأوضاع . ولئن لم يضع لها أدباء هذا العصر المصطلحات التي ميزنا بها بعضها عن بعض ، وفرقنا بواسطتها بين قوالبها ومراميها ، فان ذلك لا يغير شيئا في أنهم قد وعوا طبيعتها المختلفة ، فجاء إنشاؤهم في المقالات مختلفا عنه في البيانات ، وجاءت محتويات البيانات ومبانيها مغايرة للتقارير ووثائق " عرض الحال " .

---

(1) هو عبد العزيز المنصور ، من أحفاد المنصور بن أبي عامر المشهور ، مؤسس الدولة العامرية في زمن الخليفة هشام المؤيد . وانظر ما كتب عن ذلك في الفصل الأول من الباب الأول .

(2) ذ : 1/3 ، ص : 246 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي لايخالجنا الشك فيه أننا وقفنا في الصفحات الماضية عند أصناف من الخطاب النثري المكتوب متجانسة فيما بينها ، ترتبط بأكثر من سبب ، وتلتقي عند أكثر من نقطة تجمعها وتوحّد بينها في أسلوب التناول ، أو طريقة العرض أو منهج التبليغ ، وذلك سواء وافقنا على تسميتها بالأسماء التي اقترحناها لها ، انطلاقا مما هو اليوم معروف ومألوف لدى الناس ، أو أطلقنا عليها تسميات أخرى ، أو تمسكنا بالابقاء عليها " زمرا من الرسائل " .

واذا كانت صيغ " بسط الآراء والمواقف قد تبلغ الهدف المرسوم لها ، وقد تتجاوزه الى احداث وقع خاص في نفوس قرّائها ، فان ترجمة هذا الوقع عند الأدباء هو انشاؤهم صيغا نثرية أخرى ، تكون صدى للأولى ، من حيث أنها امتداد لها ، ونتيجة من نتائجها .

وتأتي هذه النصوص " الجوابية " في أشكال مختلفة ، حسب ظروف الأديب ومحيطه ، وأحواله النفسية ، وطبيعة انفعالاته ، وقربه أو بعده من الموضوع الذي تناوله ، فتكون في هيأة " ردود فعل " أو مواجهات متنوعة . وذلك ما سنتناوله في الصفحات القادمة .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا = صيغ " ردود الفعل " والمواجهات

لقد أحصينا أهم ماوجدناه من هذه الرقاع التي يكون انشاؤها من قبيل ردود الفعل الناجمة عن رقاع أخرى تقدمتها ، فوجدنا أنها لا تخرج عن ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : هي التي ينطوي مضمونها على ما يستطلب الردّ والاجابة التقليدية العادية التي تقتضيها أصول المبادلات الاجتماعية بين الناس . وهذه هي التي نسميها " **المراجعات** " . فهي تردُ ، أكثر ما ترِدُ ، تحت هذا العنوان في كتاب " الذخيرة " لابن بسام .

والطائفة الثانية : هي التي يحسن وقعها عند من يطلع عليها ، ويجد في نفسه من الاكبار لها ، والاعجاب بها ما يدفعه الى ترسّم خطاها ، والنسج على منوالها ، وصياغة نموذج على منهاجها . وهذه هي التي نسميها " **المعارضات** " .

والطائفة الثالثة : هي التي تشتمل على أفكار ومعاني تسوء المطلع عليها ، وتؤدى الى اثارة غضبه وسخطه لما يعتقده فيها من الاحالات ، والأباطيل ، ومجافاة الحق ، ومجانبة الحقيقة ، فيكتب ما يسفّه تلك الآراء ، ويناقضها . وقد سميناها " **المناقضات** " .

وفيما يلي حديث عن كل واحدة من هذه الطوائف .

أ — المراجعات

كثيرا ما تتضمن الرقعة مطالبة كاتبها بالمراجعة ، لمجرّد أنه يريد أن يقيم علاقة ودّ بمن يكاتبه ، ويلقي اليه بجسور صداقته . وهو ما يسمّى عندهم أحيانا " باستفتاح الخلطة " و " خطبة الودّ " مما كنا وقفنا عند بعض نماذجه أثناء دراسة المضامين . ومن هذا القبيل أيضا المبادرات التي يبادىء بها من يجمعون الأدب ويؤرخون له حين يكتبون الى الأدباء يطلبون " ماعندهم " من نصوص أدبهم لادراجها في مصنفاتهم . فيراجعهم أولائك الأدباء كما فعل مثلا ابن أبي الخصال حين راجع ابن بسام برقعة ودية أصحبها ماجادبه الخاطر ، وقتئذ من نماذج ابداعه (1) .

(1) انظر ذ : 2/2 ، ص : 737 حيث حكاية هذا الاتصال ، والتخاطب الذى تم بين الرجلين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وسواء طلبنا عينات من الفئة الأولى أو من الفئة الثانية ، فاننا نجدها متوفرة بكثرة في المصادر التي عنيت بهذه الفترة المؤرخة ، وقد أتيح لنا أن نعالج بعضها في الفصول السابقة . وانما الذى استرعى اهتمامنا ، وأحببنا أن نديـر عليه ملاحظاتنا ، لأنه وثيق الصلة بدراسة الأشكال التي نحن آخذون فيها ، انما هو نوعان متميزان من هذه المراجعات هما : " المسلسلات " و " المترادفات " .

1 ـ المسلسلات : هي نوع من المراجعات لا يكتفى فيها برد واحد ، وانما يمضي فيها " التراجع " بين الطرفين المتخاطبين ، ليستغرق عدة حلقات ، حتى كأنها " سلسلة " ، ومن هنا استعارتنا تعبير المسلسلات لها . ومن أشهر ، وأجود ما لدينا منها ، تلك التي تمت بين ابن عباس وابن التاكرني [1]، وبين ابن عبدون وابن الجد . وسنحصر حديثنا في هذه الأخيرة .

نحن هنا أمام اثنين من أبرز وألمع كتّاب الأندلس في هذا العصر، ورجال الحكم والسياسة فيها ، فقد كان عبد المجيد بن عبدون من أعمدة دولة بني الأفطس في بطليوس ، في عهد أميرها المتوكل [2]. وكان أبو القاسم بن الجد من كبار الأدباء ، ورجال السياسة في دولة بني عباد ، في اشبيلية ، على عهد المعتمد ، اذ كان وزيرا مكلفا بشؤون ابنه يزيد [3].

وتبدأ سلسلة المراجعات بينهما بفاتحة من ابن عبدون حين كتب الى أبي القاسم " يخطب ... وده ، ويستجلب ما عنده "[4] . وهي كما رأينا صيغة تقليدية عند صاحب الذخيرة حين يكون مبعث التخاطب : طلب الارتباط الودى ، والحصول على الهبات الأدبية من ابداعه .

ونحن لا نطمع في أن نجد لدى هذا الضرب من الانشاء ، كبير زاد من المعاني خارج ما نعهده في مثله من المجاملات ، وابداء الحرص على تلك المودة المطلوبة ...

---

(1) كل حلقات هذه المسلسلة في ذ : 1/3 ، من 229 الى 239 .
(2) المتوكل : عمر المتوكل على الله خلف أباه محمد "المظفر" ، وحكم دولة بطليوس الى أن غزاها المرابطون وقتلوه عام 485 .
(3) يزيد بن المعتمد : لقب بالراضي (4) ذ : 2/2 ، ص : 670 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وما يلفت النظر في حلقات هذه السلسلة انما هي الصياغة التي جاءت متميزة برقتها ، وشفافيتها ، وكثرة لجوئها الى التعبير المجازي ، واعتمادها على الرّمز والتعبير الايحائي .

ولنسمع اليه وهو يخاطب أبا القاسم بهذه العبارات : " فلو وصل رشفنا ثدي بباع ، من رجع جواب واجتماع ، لبردت غلة ذلك الاشتياق والالتياع "[1] ، ثم فلنتساءل ! أليست هذه أجزاء من رسالة غرام ؟ . والحق أن القارئ لهذه الحلقة يلاحظ بكل يسر أن الكاتب يوظف كل ما أوتي من عبقرية فنية لاظهار مبلغ اعتزازه بهذه المودة التي يطلب انعقادها بينه وبين من يخاطب .

فمن ذلك مثلا حديثه عن هذه الصداقة المرجوة كما لو أنها فتاة عقيلة يطلب أن تزف اليه . وهو أمر مطروق بكثرة في مثل هذا الظرف ، ومعنى تداوله الناس منذ أقدم عصور النثر العربي . . . وانما الذي يستوقفنا في تعبير ابن عبدون هو تماديه في حشد قرائن الزفاف ، ومراكمة كل النعوت والصفات والأحوال التي تكون في الخطبة والزفاف بمعناهما الحقيقي المعروف . وفي ذلك يقول : " وأنا أخطب الى عمادي — أدام الله عزته — مودّته عقيلة ، وأجعل رحمي الأدب والنسب وسيلة ، وأبذل من تحلية حمدي وشكري مهرا ، وأبني لها بين سحري ونحري قصرا ، وأسدل عليها من الاشاعة والاذاعة سترا ، وأحلّيها من مشدود مواثق ومعاقد ، بمسرود مخانق وقلائد ".[2]

ولعلنا لسنا في حاجة الى التنبيه على الطريقة التي يستخدم فيها كلمات من نوع : عقيلة ، ورحم ، وتحلية ، ومهر ، وأبني لها . . . . قصرا ، وأحليها ، ومخانق ، وقلائد " .

ومن أهم ما ينبغي الالتفات اليه في انشاء ابن عبدون تعويل الصياغة عنده ، بصفة مطلقة ، على الايقاع الموسيقي الذي يحدثه السجع الكثير الرائق الذي يفنن في أنماطه والمزاوجة بين القوالب اللفظية ، واعتماده ، في أكثر الأحيان ، على العبارات القصار المتدافعة كما في قوله : " ذكر ملأ الآذان حليا ، والآناف ريا ، والأفواه أريا "[3] .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 670 .
(2) نفسه ، ص : 671 .
(3) نفسه ، ص : 670 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والدليل على أن ابن عبدون كان ينزل السجع منزلة خاصة من سلم خصائصه الفنية أنه كان يرى نفسه أقدر الناس على تأليف نوع من الكلام ، اسمه "المبتدع" . وهو يرى أنه "لا يناهضه فيه أحد من الكتاب" (1) . وقد تحدث أبو القاسم الكلاعي في مكان آخر ، عن نوع من السجع سمّاه "المفصّن" (2) وهو الذي تقابل فيه سجعتان بسجعتين ، أو ثلاث بثلاث ، أو أكثر من ذلك .

ونحن نجد أمثلة من هذا السجع "المفصّن" في مفاتحة ابن عبدون ، وهي كلها تدخل في اطار عنايته الواسعة بالايقاع الموسيقي ، وايمانه بقدرته على نقل ما في نفسه من مطالب التلوين والتفخيم . ولنعد الى ما كنا أثبتناه قبل حين من كلامه ، فاننا نجد فيه ايقاعا ما ، ثم نجد ايقاعا يشبهه في كل شيء : وزنا ونغما ، يأتي كأنه صدى للأول ، ورجع له ، يؤكد وقعه في النفس . ويحدث فيها طربا واندفاعا . . . يقول : "وأحليها من مشدود مواثق ومعاقد ، بمسرود مخانق وقلائد" . ولعل الصورة تستبين لنا أكثر اذا رسمت على هذا النحو :

وأحليها من مشدود . مواثق . ومعاقد .
بمسرود . مخانق . وقلائد .

ان الصورة التي تتولد من فصل "أحليها" تأتي ضمن مستويين مختلفين في الرؤية : "مواثق ومعاقد" في الأول ، ثم "مخانق وقلائد" بعد ذلك . ولكن الفصل الواحد الذي هو "أحلي" يولد نصين موسيقيين متكاملين ، بل متكررين ، لأن الجزء الثاني ليس الا رجعا للجزء الأول ، يؤكده ، ويرسّخه ، ويفتح له آفاق التردد الواسع في الآذان . ولو شئنا أن نطيل الوقوف عند هذه الظاهرة لدى ابن عبدون ، لأشرنا الى أمثلة أخرى نستمدها من هذا النص نفسه كقوله وهو يثني على ابن الجد :

" . . نبل . جلّت . مطالقه . دياجي . الأوهام .
وصقلت . بواتقه . صوادي . الافهام .
. . ومجد ردّ . الليالي . الدهم . زهرا .
والمساعي . البهم . غرّا " . (3)

وصورة الايقاعات وأصدائها هنا ، أكمل ، وأعقد ، وأكثر دلالة على ما أسلفناه .

---

(1) "احكام صنعة الكلام" للكلاعي ، ص : 157 .
(2) نفسه ، ص : 141 .
(3) ذ : 2/2 ، ص : 670 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وننتقل الى الحلقة الثانية من هذه المسلسلة لنلقى فيها " مراجعة" أبي القاسم بن الجد لأبي محمد بن عبدون على رسالته المتقدمة . وإذا كان فن الثاني قائما كما رأينا على الموسيقى ، وعلى أبداع تلك " المنمنمات " الجميلة فان فنّ الأول ، يقوم ، في النص الذى بين أيدينا ، على الرقة ، و " السماحة " حين تترجمها الألفاظ والتعابير ، والنفس الشعري الذي يتخذ من الطبيعة مبتدأه ومنتهاه .

هذه الخصائص تظهر منذ مطالع " المراجعة " ، اذ نجده يخاطب ابن عبدون بقوله : " يا روضة أدب غُذيت بوسم الفهم ، وسُقيت بديم حسن الشيم ، ما أدمث رباك ، وأطيب شذاك ، وأزكى قرارك ، وأذكى عرارك . لقد شرقت بأزهارك زهر النجوم . . . . . وتطول لنفحات شذاك وريّاك أرج العبير . . . "(1)

هذه تحية أم روضة يهديها الى هذا الصديق الجديد ؟ وهذا ثناء أم حديقة يتحدث ، بهذا التقدير ، عن باهر أوصافها ؟ قد نقول ان جمال الطبيعة الأندلسية هو الذى ساق الأديب الى هذا الاتجاه في التعبير ، والواقع أن جمال الطبيعة قد صادف طبعا ملائما ينفعل بمواطن الحسن ، ويصيب في التعبير عنها .

والدليل على أن هذا المنزع عند ابن الجد ليس ظاهرة عابرة في "مراجعته " أننا نجده يختمها ، بمثل ما بدأها به من أمثال تلك الصيغ حين يقول : " وأقرأ على سيدى سلاما دائم الاتصال ، عطر البكر والآصال ، يتكرّر تكرّر الأنفاس ، ويخضرّ دائما اخضرار الآس "(2) .

على أن هذه العناية بالأزهار وعطرها ، والربى وعبيرها ، لا تعني ان ابن الجد لا يحسن استخدام الصورة ، أو أنه لا يقوى على مجاراة مخاطبه في ذلك المجاز اللطيف الذى أخرج فيه رقعته . ومن معالم براعته في ذلك ، ردّه على تلك الخطبة بهذا القبول الحسن ، ورسم هذه الصورة المشرقة للعروس التي يزفها اليه ، في قوله

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 671 .
(2) نفسه ، ص : 674 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وأما المودّة التي خطبت بفضلك بكرها ، . . . . فقد زففتها اليك مشرقة الجبين بنور الحق المبين ، ضاحكة الترائب على حسن الضرائب ، تتأوّد في حلل الثناء ، تأوّد الكاعب الحسناء . . . . فان وافقت لديك وجها خصيبا ، واستحقت من رضاك وقبولك نصيبا ، فقد فاز قِدْحها ، ووَرَى قَدَحها . . . "(1)

أليست هذه عروسا عزيزة على وليّها ، يشعر بأنه يسيّرها الى من هو كفء لها وجدير بها ؟

وتشيع في باقي الرقعة ، وفي كل مكان منها ، مجاملة رقيقة ، وأدب جم ، وتواضع كبير ، وذلك كله ثمرة من ثمار التمسك الكامل للقيم الحضارية ، والتصرف المستنير بهدي من مقتضياتها .

ولو انتقلنا الى باقي حلقات هذه " المسلسلة " التي تدور حول تبادل العواطف الودية ، لما وجدناها تخرج ، في صياغتها وفنها ، عن هذه القيم التي ذكرناها . وقد وجدنا في ردّ ابن عبدون على هذه الرقعة انسياقا وراء توظيف ظاهر الطبيعة في تعابير الصداقة ، والاعتزاز بها ، وصيغ التحية المنبعثة منها . كقوله : " ما . . . . أعبق رائح أنفاسها ، وأخلص شذاها الى الأرواح ، وأعرض ريّاها على الافواح ، وأضحك ثغور أقحوانها ووارف نورها ، على رقص قدود أغصانها وغناء طيرها . . . " الخ . .(2)

وبعد هذا الرد ، يكتب ابن عبدون ردّا آخر ، وذلك دليل على مدى احتفاله بهذه المودة التي ينشدها ، وقبول ابن الجد لما يعرضه عليه من الارتباط بها . ويجيبه ابن الجد برقعة أخرى تكتمل بها هذه السلسلة من المراجعات البليغة التي أحسن صاحب الذخيرة بجمع شملها على هذا النحو ، وفقا لما اقتضاه منهجه المحكم في ذلك . فانه كما جمع "المسلسلات" على هذا النحو ، جمع أيضا "المترادفات" .

2 ـ **المترادفات** : نقصد بالمترادفات صيغة أخرى من تعدد الحلقات ، تختلف اختلافا جوهريا عما سبق درسه . ذلك أنها تأتي من أطراف متعددة للردّ على فاتحة واحدة . وعندنا من أبرز ما يمكن أن نمثل به : الرّدود التي وافى

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 273

(2) نفسه ، ص : 676 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بما أمراء الطوائف ، نظيرهم المعتضد بن عباد ، بعد أن تلقوا منه " المذكرة " أو " التقرير " الذى أخبرهم فيه بحادثة قتل ابنه اسماعيل (1) .

ان شكل هذه المخاطبة هو الذى استرعى أنظارنا من حيث أن جهات متباينة : أهواء ومواقع ، استجابت لحافز واحد هو الذى دعاها الى مخاطبة الملك المتخبط في بحر مائج من تعسه وشقائه .

ونحن نقدّر أن الردود كانت أكثر عددا مما وصل الينا منها ، ونظن أن كتاب " الذخيرة " لم يحتفظ لنا ، الا بأقلها ، وهو كل ما وصل الى صاحبه ، أو استطاع الحصول عليه : وهي ثلاث رقاع : احداها للمنصور بن أبي عامر ، صاحب بلنسية ، والثانية لابن مجاهد ، صاحب دانية ، والثالثة لمجهول لا نعلم من هو .

هذه النصوص الثلاثة تصدر كلّها عن مبدإ المجاملة التي تقضي بابداء الأسى لما وقع في دولة اشبيلية ، وما أصاب ملكها من غصة . وهي كلها تروم تأدية " واجب سياسي " باظهار المشاركة في المحنة الأليمة . ثم هي تختلف بعد ذلك أشد الاختلاف في مناهجها ، وأساليبها في التعبير عن تلك المعاني الأساسية .

ولنقف لحظة عند افتتاحياتها لنلاحظ مدى هذه الفروق بينها ، ففي ردّ ابن أبي عامر نزعة تأملية في الدنيا ، وتصرفاتها التي تبعث على الحيرة في أمرها .... بينما نرى ابن مجاهد يعنى بشيء آخر بعيد عما ذهب اليه الأول ، وهو شكر ابن عباد على حسن تقديره للصلة التي بينهما ، وترجمة ذلك في اطلاعه بشكل متواتر ومنتظم ، على كل ما يحدث في مملكته . وهو في هذا السياق يشير الى أنه كان خاطبه أيضا في شأن المحاولة الأولى التي سبقت لاسماعيل في التآمر على أبيه .... أما الرد الثالث فيبدأ باظهار نوع من القلق والأسى ، والتعبير عن عواطف المشاركة ... وما الى ذلك .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 149 .
(2) نفسه ، ص : 150 .
(3) نفسه ، ص : 148 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو أن كل الردود ــ التي نتوقع أنها صدرت عن دويلات الطوائف ــ قد وصلت الينا كاملة لكان في دراستها فائدة كبيرة بكل تأكيد ، أقلها معرفة مقدار تأثرها وانفعالها بما يجري في الشقيقة الكبرى ــ دولة بني عباد ــ في عهد واحد من أكثر ملوكها حزما وصرامة . على أن ما بين أيدينا يتيح لنا أن نتبين صورة ، ولو مصغرة ، لذلك ، من خلال ما ذكرناه .

ب ــ المعارضات

من أوفر مواد هذا القسم من المخاطبة ، المنتمي الى ردود الفصل ، المعارضات التي أنشأها كتاب الأندلس في تقليد بعضهم بعضا . والذي يجدر التنبه له أن المعارضات التي عندنا تتميز بوضع خاص ، جدير بالعناية ، أثناء الدراسة ، وهو أنها "جماعية " ان جاز لنا التعبير ، بمعنى أننا اذا استثنينا بعض الحالات الشاذة ، لا نجد أديبا واحدا يعارض رقعة أعجبته صياغتها ، أو أراد أن يبرهن على كفاءته بصياغة رقعة في موضوعها ، والما يطير صيت لِنَصٍّ من النصوص ، فيتقبل جماعة من أكبر أدباء العصر على تقليده ، وكتابة رقعة على منواله .

وكثيرا ما يحفز الأدباءَ الى هذه المعارضات ، الأمراءُ الذين ينقطعون لهم ، أو المقربون من أصدقائهم الذين يودون أن يباهوا ببراعتهم في محاكاة ذلك النص الجميل ، بصياغة مايضاهيه أو يتفوق عليه . ولذلك ، كثيرا ما نجد عبارة و " عُورِضَ " ما كتبه فلان على فلان فقال .... فمن أمثلة ذلك ما حكي عن أبي محمد عبدالغفور . فقد ذكر صاحب " الذخيرة " انه " عرضت عليه رسالة أبي عمر الباجي وأبي القاسم بن الجد المتقدمتين في صفة المطر بعد القحط ، فعارضهما برقعة قال فيها ....."(1)

ويبدو أن ظرفا كهذا لايخلو من مشاعر التحدي لدى الكاتب المعارض لأنه يشعر وهو يعلم أن أول ما يقرأ الناس كتابه سيقرنُونَه بالأصل الذى

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 342 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قلده ، ويزنونه به . وهذه حال تحفز بعض الكتاب الى التحليق والسمو ، ولكنها قد تضر بآخرين ممن هم ذوو تهيج أو انفعال متطرف .

وقد أحصينا أشهر نماذج المعارضات التي بين أيدينا فجاءت حسب مضامينها كما يلي :

1) **المطريات :** وهي في وصف المطر بعد القحط :

ـ بدأها أبو عمر بن الباجي	:	في الذخيرة	1/2 ، ص : 196
ـ ثم قلده ابن الجد	:	"	1/2، ص : 289
ـ ثم قلدهما أبو محمد عبد الغفور	:	"	1/2، ص : 349

2) **الزهريات :** وهي في وصف الأزهار، والتحدث بلسانها :

ـ بدأها ابن برد	:	في الذخيرة	1/2 ، ص : 127
ـ ثم أبو الوليد حبيب	:	"	1/2، ص : 130
ـ ويمكن أن نعد رقعة ابن حسداي من هذا القبيل	:	"	1/3، ص : 470

3) **الزرزوريات :** وهي في شفاعة لرجل يدعى بالزرزير :

ـ بدأها أبو الحسين بن سراج	:	في الذخيرة	1/2، ص : 347
ـ وكتب في ذلك ابن الجد	:	"	1/2، ص : 348
ـ وكتب فيه أبو محمد عبد الغفور	:	"	1/2، ص : 353
ـ وكتب فيه أبو بكر البطليوسي	:	"	2/2، ص : 753

4) **المعتضديات :** وهي بذلك الرقاع التي كتبت معارضة لرسالة المعتضد عند قتل ابنه : إسماعيل :

ـ بدأها ابن عبد البر (وهو كاتب ووزير المعتضد)	:	في الذخيرة	1/3، ص: 133
ـ وقلده مجهول	:	"	1/3، ص: 154
ـ وقلده مجهول آخر	:	"	1/3، ص: 161 .

هذه أهم النصوص التي يمكن تصنيفها ضمن المعارضات . ونحن لن يتيسر لنا أن ندرس أكثر من بعض عيناتها لنقف عند بعض خصائص شكلها . بيد أننا نحب أن نبدأ بمعارضة من نوع آخر ، وهي ما يَصُوغه الأندلسيون تقليدا للمشارقة . وليس عندنا من النصوص الصريحة الواضحة في هذا الشأن الا ما كتبه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبو المغيرة بن حزم[1] في معارضة بديع الزمان الهمذاني[2]. فقد "عرضت (عليه) رسالة بديع الزمان في الغلام الذى خطب اليه ودّه بعد أن عذّر، وبقل وجهه وأزهر، فعارضها برقعة ..."[3]

وقد وردت رقعة البديع في زهر الآداب[4]، وذكر مؤلفه في سبب انشائها أنه كتب اليه "بعض من عزل عن ولاية حسنه، يستمد وداده، ويستميل فؤاده فأجابه بما نسخته .... " الخ[5]

ونحن حين نقارن بين الرسالتين نجد رقعة أبي المغيرة مفصلة على قدر رسالة البديع، فهي تلهج لهجها في كل شيء. وهذه هي المعارضة. واذا حاولنا أن نبحث عن فرق بينهما فينبغي أن نلتمسه في الصياغة. ولننظر في فقرتين منهما تصفان كيف حالت حال هذا المعزول عن ولاية حسنه :

يقول بديع الزمان: "فالآن اذ نسخ الدهر آية حسنه، وأقام مائل غصنه، وفلّل غرب عُجْبه، وكفّ شأو زَهْوه، وانتصر لنا منه بشعرات قد كسفت هلاله، وأكسفت باله، ومسخت جماله، وغيرت حاله، وكدرت شرعته، ونكرت طلعته."[6]

أما أبو المغيرة بن حزم فيقول : حتّى اذا طفئت تلك النيران، وانتصف منك الزمان، بشعرات أغشت هلالك كسوفا، وقلبت ديباجك صوفا، وأعادت نهارك ليلا، وناحت ليك تلهفا وويلا، وأطار حمامك غُرابُها، وحجب ضياءك ضبابُها، فصار عرسك مأتما، ووصلك محرما[7].

ونحن لن نقع في فخّ الصراع الأجواف، وافتعال العصبيات الحزقاء بين كتّاب الأدب العربي الواحد في مشرقه ومغربه. وانما الذى يبدو لنا بكل موضوعية :

---

(1) أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم، من كبار كتاب هذه الفترة. وهو ابن عم الفقيه الامام أبي محمد. وانظر أخباره وأدبه في ذ : 1/1، ص : 132.

(2) بديع الزمان : أحمد بن الحسين صاحب المقامات المشهورة 358 — 398 هـ.

(3) ذ : 1/1، ص : 140.

(4) "زهر الآداب" للحصرى ج 2، ص : 732.

(5) نفسه.

(6) نفسه.

(7) ذ : 1/1، ص : 140.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أن المجاز عند أبي المغيرة أكثر حتى ليكاد التعبير المباشر ينعدم من فقراته .
واذا كان شيء من ذلك موجودا أيضا في رقعة البديع ، فان كلام ابن حزم أكثر ايغالا ، وأبعد غورا في طلب الرسم والصورة . ولننظر مثلا الى الفرق بين قول الهمذاني: " قد كسفت هلاله ، وأكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيرت حاله ... " وبين قول ابن حزم : " أغشت هلالك كسوفا ، وقلبت ديباجك صوفا ، وأعادت نهارك ليلا ، وباحت عليك تلهفا وويلا ... "
والواقع أن أهم مايمتاز به انشاء أبي المغيرة — في هذه الرقعة — انما يرجع الى نعومة الصياغة، ولطافة الايقاع الموسيقي ، والاعتماد الكلي على الصورة . ومع ذلك فان الفضل للمتقدم ، لأن أبا المغيرة قد كفاه " البديع " مؤونة البحث عن المعاني وهيكلة النص وترتيب مضامينه ... فهو لذلك متفرغ للصياغة يزخرف شكلها ، وينمنم وشيها ...

فاذا انتقلنا الى الرقاع التي أنشأها أدباء الأندلس ، في معارضة بعضهم بعضا وجدنا أن كل المعارضات ترجع الى أسباب فنية أو ظرفية ، واعتبارات تتصل بالمضمون الأدبي ، أو بالشكل أو بقيمة الكاتب . ولعلّ أهم " المعارضات " التي اجتمع فيها قدر كبير من هذه الاعتبارات هي " المعتضديات " و " الزرزوريات " .

المعتضديات : ان في موضوعها اثارة لا مثيل لها . ولو أن المسرح كان متعارفا عند العرب وقتئذ وأقبلوا عليه ، لكان في فعلة المعتضد بابنه الدامغ في ملكه مادة لشاعر أو كاتب مُلهَمين يحولانها الى " مأساة " من طراز رفيع . وقد اجتمع للرقعة التي كتبها الوزير ابن عبد البر : جلال المضمون ، كما رأينا ، وهيبة الموقف ، فقد روى صاحب الذخيرة كيف كان المعتضد منفعلا ، هائجا ، يصيح في وزرائه ، مضطربا لايكاد يستقر على حال ....(1) ثم عبقرية الكاتب الذى

---

(1) راجع وصفا دقيقا لتلك الحال في ذ : 1/3 ، ص : 137.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

استطاع في ظرف كهذا أن يكتب ارتجالا رقعة جمع فيها بين التماسك في المعاني ، والانسجام في موقف الأب الحزين القاتل ، وجزالة التعبير ، وروعة الأداء اللغوي والموسيقي ...

هذه كلها حوافز من شأنها أن تحث الأدباء حثًّا على أن يجربوا قدرتهم ومواهبهم الفنية في موضوع كهذا . وقد عبر صاحب الذخيرة عن هذا الاقبال منهم بقوله : " ولما أنشأ أبو محمد رسالته المتقدمة الذكر ، تناغت لمّة من كتّاب العصر في معارضتها "(1) .

والغريب أن لدينا رسالتين في المعارضة ، مجهولتي الكاتب ، لا نعرف عن صاحبيهما لا اسما ولا رسما . والواقع أنه ماكان يستطيع أحدا أن يتجرأ على أن يَظهر باسمه الحقيقي في معارضة من هذا النوع تَذكّر المعتضد بمحنته ، وتستثير من جديد شجون نفسه .

فاذا تحدثنا عن هاتين الرسالتين فان الذي يمكن أن نلاحظه عليهما ، هو أن الأولى (2) خرجت في بعض الأحيان عن هندسة الرقعة الأصلية ، فأطالت الوقوف : منذ المقدمة ، عند معاني الوعظ والاعتبار : من عدم اغترار بالدنيا ، وائتمان لها ، واطمئنان اليها . ثم ان كاتبها قد تصرف في منهج سرد الأحداث التي أدت الى القتل ، لأنه اكتفى بالحديث عن معاني الخيانة التي ارتكبها الابن في حق أبيه . أما حقيقة الوقائع ، والتمهيد لها ، وخطوات المؤامرة المدبرة ، فلا يتعرض لها بالحديث .

والرقعة — عموما — معبرة تعبيرا جيّدا ، جزلة الكلام ، قوية المعاني ، سلسلة المباني ؛ وهي ان جاءت دون الأصل ، فانها مع ذلك قطعة فنية تنشرح لها النفس ، وتقبل عليها بلذة واستمتاع .

<u>أما الرقعة الثانية</u> وهي لمجهول أيضا فانها تبدو ، في مخططها ، ألصق من سابقتها بالأصل ، وأقرب منها اليه . وهي مع ذلك مقتضبة ، بادية الاختصار ،

(1) راجع وصفا دقيقا لتلك الحال في ذ : 3/1 ، ص : 152 .

(2) نفسه ، ص : 154 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تتوسع توسعها في ضرب الأمثال، واستعراض النماذج التاريخية لما وقع بين الآباء والأبناء، مما يكون نظيرا لما آلت اليه الحال بين المعتضد وابنه .

وهي من الناحية الفنية أقل من سابقتها ايغالا في التصوير، واعتمادا على المجاز، وتعويلا على ايقاع السجع .

والحق أن ابن عبد البر قد كتب، فلم يترك لراغب في الزيادة أن يزيد عليه . هذا مع أن كل من عارضه لم يدق قلبه بنبرات الرهبة، ولم تسر في أركان جسده تلك الرعدة الخفيّة من خشية المعتضد، وهو الملك الهائج، إثر معاناةٍ ما أقل عدد الآباء الذين عرفوها، وما أفظع صورتها عند مجرد خطورها على البال ... كيف لا، وقد كان الكاتب ابن عبد البر يرتجل تلك الرسالة " والوزراء والخاصة جلوس بذلك المقام، .... وعين المعتضد فيه تصعّد وتصوب"[1] حتى أن أولائك الجلوس ليشفقون عليه وهو في هذه الحال، ويقولون في أنفسهم، كما يحكي أحدهم : " ما عسى أن يتّجه لابن عبد البر من كلام، على هذه الحال، لاسيما على الارتجال "[2]. ولكنهم يستمعون الى الرسالة بعد الانتهاء منها، فيخرجون من المجلس" وهم يرون أن ابن عبد البر من آيات فاطره "[3]. فلعل هذه الظروف الضاغطة، وهذا الضيق في الموقف، وهذا الحرج، هي التي ساعدته على بلوغ هذه القمة من الابداع .

الزرزوريات : كان منطلق هذه المعارضات الواسعة، وكتابة الرقاع " الزرزورية "، رسالة عادية كتبها الوزير أبو الحسين بن سراج[4] الى " بعض أهل العصر " يشفع لرجل يعرف بـ " الزريزير "[5]. ونحن لو فتشنا هذه الرسالة لما وجدنا فيها شيئا يسترعي الاهتمام لقوة في المبنى، أو أصالة في المعنى،

---

(1) ذ : 3/1، ص : 137 .

(2) نفسه .

(3) نفسه .

(4) أبو الحسين بن السراج : أديب فقيه قرطبي، توجد بعض أخباره في ذ : 2/1، ص : 321 .

(5) هو تصغير للزرزور : وهو طائر أكبر قليلا من العصفور .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير هذا التعبير المجازي ، وهذا المزج بين الواقع والخيال في قول الكاتب :
" شخص من الطيور يعرف بالزرزيسر ... أقام لدينا أيام التحسير ، فلما وافى ريشه ، وتبنت بأفراخه عشوشه ، أزمع عنا قطوعا ... رجاء أن يلقى في تلك البساتين مصمرا ، وعلى تلك الغصون حبا وثمرا "(1).

ان النسيج المضموني لهذا الكتاب لايتسم بأية أصالة ، ولا بأي اغراب ، لأنه نموذج تقليدي جدا في الشفاعة ، اذ يتحدث عن " مشفوع له " ضاق به المكان الذي هو فيه ، وأحب أن يرحل الى حيث يرجو الكاتب أن يستقبله " المشفّع " بالعطف والرعاية ، والعمل على قضاء حوائجه .. أليس هذا هو غرض كل شفاعة ؟ بلى ، ولكن مبدع الحديث عن الزرزيسر قد أخرجها اخراجا جديدا حين عرض المشفوع له في هيأة طائر ضعيف ، يستحق العطف والاشفاق .

وتنتهي رسالة ابن سراج الى الوزير أبي القاسم بن الجد ، فيكاتب ابن سراج ، برسالة يخطب فيآخرها ودّه ، ولكنه يفتتحها بالثناء عليه ، ويمضي في الكلام عن الزرزيسر ، وقد انتقل به الى مرحلة جديدة تنسي القارئ ، تمام النسيان ، أنه في الأصل كناية عن انسان حقيقي . ذلك أنه يتحدث عنه حديثا يحشد فيه كل القرائن التي تجعل منه طائرا حقيقيا . ولكنه طائر، كلّ تصرفاته هي نسخة من تصرفات الانسان ! فهو، ان صحّ التعبير : طائر — إنسان . ولعل كل الطرافة التي استرعت أنظار كبار أدباء الأندلس هي هذه الفرصة التي ابتدعها لهم ابن السراج لإمكان زرع الوهم في ذهن القارئ : فهو طوال قراءته للرقعة " الزرزورية " موزع بين تصوّر " الطائر — الانسان " وتصوّر الطائر ، لأن الحديث يدور أبدا على مخلوق له هيأة الطير وشكله ، وقريحة الانسان وعقله .

وها هو بعض ما يقول عنه ابن الجد : " فاستخفه هائج التذكار ، نحو تلك الأوكار ، حيث يكتسي ريشه حريرا ، ويحتشي جوفه بريرا ... "(2)

ثم تتطور المعارضة ، وينسى المعارضون الغرض الابتدائي ، الذي هو في الشفاعة كما رأينا ، فاذا بالرقعة الثالثة (3) تتجاهلها تماما ، وتنصرف مباشرة الى وصف

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 347 .
(2) نفسه ، ص : 349 .
(3) لانعرف من هو صاحبها : ابن الجد أم ابن عبدالغفور ؟ ونحن نرجح الثاني لأنّ فيها ضعفه وبكاءه . ويبدو أنه أنشأ رسالتين : هذه خاطب بها ابن الجد ، والتالية خاطب بها ابن السراج .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطائر والحديث عن أحواله ، ضمن ذلك التجاذب بين الطبيعتين : الآدمية والحيوانية . . ولكن الكاتب يعتمد الايهام ، والتعمية حين يبدأ بالحديث عن الطبيعة الثانية ، فيفتتح كلامه قائلا : " ثم بدأ من شأن الحيوان بزرزور ، لايعرف حقا من زور ، مشهور في الطير بالضرع ، كثير العادية قليل الورع . . ." (1)

وينحرف الخطاب الى وصف أحوال الكاتب الذاتية ، وما يلقاه من عسر في دنياه ، فاذا بالرسالة كأنها تنحو منحى رمزيا حين تناولت ما تناولت من أوضاع ذلك الطائر .

ثم يتضح هذا المنزع أكثر فأكثر في القطعة الزرزورية الرابعة وهي من انشاء ابن عبد الغفور ، واذا بالطائر يومىء الى الأديب البائس ، يدل على أوضاعه ، وينطق بحاله . وقد أتاح ذلك فرصة التشجع لابن عبد الغفور ، فأطلق العنان لما تعهده عنده من قدرة على سفح الدموع وبث الشكوى ، واظهار البأساء .

والواقع أن " الزرزوريات " قد مالت الى اتجاهين متباينين : أحدهما فكاهي ، فيه نصيب للدعابة والضحك ، وهو ما نجده عند ابن السراج ، وعند ابن الجد ، أما الثاني فهو رمزي ، تفجعي ، يوحي ببؤس الأدباء وشقائهم ، كما يدل على تلهف بعضهم على الدنيا ، واسراعهم الى فضح ما في نفوسهم من غرائز التكسب والاستجداء .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الرقاع — من الناحية الأدبية والفنية — تدل على أن أدباء هذا القرن حاولوا ان يسيروا بالنثر شوطا آخر الى الأمام ، وأن يفتحوا له مجالات الخيال والتمثيل ، ولكنها سبيل بدئت ثم لم يمض فيها من هم في مستوى هذا الرعيل من الأدباء ، وقدرتهم الأدبية .

جـ - المناقضات

عندما ترجم صاحب الذخيرة للأديب أبي عبدالله محمد بن سليمان بن الحناط ، فانه حرص على الاشارة الى أنه " كانت بينه وبين أبي عامر ابن شهيد . . . . مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أباعامر بالماء ، وأخذت عليه بفروج الهواء ." (2)

(1) ذ : 1/2 ، ص : 351 .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 437 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن لا يعنينا من هذا الكلام أكثر من دلالته على أن المناقضة قد غدت ، في هذا العصر ، موضوعا للنثر يتسع لها ، ويجري في ميدانها ، شأنه في ذلك شأن الشعر . وإننا حين نمضي في قراءة الفصل المعقود لابن الحنّاط ، محاولين معرفة ماذا يقصد ابن بسام بالمناقضة بينهما ، نكتشف أنه نوع من التحدّي الأدبي ، وطلب المعارضة ، لإثبات قدرةٍ على الانشاء والنَّظم مماثلةٍ لقدرة المتحدّي . ففي الرقعة التي وجهها الأديب المذكور الى أحد أصدقائه ، نراه يضمنها فقرات وصفية يختمها بمقطوعة شعرية ، ثم يقول لمخاطبه : " فأنشدها أخاك الشُّهيدي ، وكلّفه على العروض والقافية معارضتها ، وحمّله على اللين والشدّة مفارضتها "(1).

بيد أن "المناقضات " التي نقصد الى الحديث عنها تختلف تماما عن هذا الذي يرومه ابن الحناط من ابن شهيد . فان الذي نعنيه هو المدلول الأصلي لكلمة " النقض " اذ هو ، كما جاء في " اللسان " : " افساد ما أبرمت من عقد أو بناء " . وترجمة ذلك في السياق الذي نحن فيه أن يكتب أديب ما رقعةً نثرية يرد بها على كاتب آخر ، وينقض الآراء الواردة في رقعته . ونحن لدينا في هذا المعنى المحدد مجموعة من الكتب جاءت كلها لتناقض ابن غرسية صاحب المقالة الشعوبية . وقبل تناول هذه الردود ، ينبغي أن نقول كلمة عن الجانب الشكلي في هذا المقال الذي أثار الأدباء الى مهاجمته والردّ على ما جاء فيه (2).

اذا تركنا جانبا الغضب الذي تتركه في النفس قراءة هذه الأباطيل التي يرمي بها العرب ، والفضائل الكاذبة التي ينسبها ابن غرسية الى قومه ، فان الانصاف يقتضينا أن نعترف بأنه من الناحية الجمالية تحفة فنية . ولعل أروع ما فيها أنها تبدو مجموعة من الأناشيد في التغني بقومه العجم ، وأن كل نشيد منها يبدأ بصياغة ذات نسم موسيقي مزدوج ، تتصاعد منه نبرات متميّزة ، تلفت الانتباه ، وتشد الأسماع .

(1) ذ : 1/1 ، ص : 440 .
(2) كنا تناولنا الجوانب المتصلة بمضمون هذه الرسالة في أواخر الباب الثاني (الفصل الرابع) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالمقطع الأول من هذه المقالة يبدأ بقوله : " مُجِدٌ نُجُدٌ " (1) وتأتي معاني الفقرة كلها في بسط المعاني المتصلة بالمجد والنجدة . ويبدأ المقطع ، أو النشيد الثاني بقوله : " رُزُنٌ ، رُضُنٌ "(2)، وتأتي الجمل صدى لهذه الافتتاحية ، فتشرح جوانب الرصانة والرزانة عند قومه الممدوحين . وفي المقطع الثالث : " بُصُرٌ صُبُرٌ " ، وفي الرابع " وُضُحٌ رُجُحٌ " ، وفي الخامس " حُلُمٌ عُلُمٌ " . . .

والحق أن المقالة تدل على تمكن كبير من ناصية اللغة ، واطلاع واسع على حياة العرب ، وسبل معيشتهم ، ومراحل تاريخهم . وقد تضمنت من أنواع السجع ما يبرهن على قدم راسخة في توظيف الأنغام الموسيقية ضمن أجواء المفاخرة والمباهاة التي تشكل سياق المخاطبة ، ومنطلق المكاتبة . فمن براعته تشبيهه بين الكلمة والكلمة ، حتى إنّ الرنات المتتابعة المتراكبة ، لتصوّر لنا الكاتب يملأ النشوان بأمجاد قومه ، كقوله : " شُدِهوا برنات السيوف ، عن ربات الشنوف ، . . . وبالنفير عن النقير ، وبالجنائب عن الحبائب ، وبالخبب عن الحب ، وبالشليل عن السليل ، وبالأمر والذمر ، عن مقاقرة الخمر والزمر . . . "(2)، ومما يزيد هذه البراعة في استخدام النغم تأثيرا ، أنها ، وهي المتجانسة ، تأتي في معانيها موحية بالتنافر ، لأن الشق الأول هو مدح للعجم ، والشق الثاني طعن في العرب ، وتعريض بهم ، فرنات السيوف للفريق الأول ، وربات الشنوف للفريق الثاني . . . وهكذا تكون هذه القسمة الظالمة التي هزت جماعة من الأدباء الى مناقضة ابن غرسية والرد عليه ، وهم : أبو الطيب عبد المنعم القروي ، وأبوجعفر بن عباس وأبوجعفربن الدودين(3) . وسنتحدّث عن أهم الجوانب الفنية في كل مناقضة منها .

يعتمد ردّ أبي الطيب القروي على الهجوم بمجموعة من الأسئلة الانكارية التي تبدو كما لو أن الكاتب يريد أن يرسخ الاحساس بالذنب ، والشعور بالاجرام في نفس ابن غرسية (4) .

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 706 . (2) نفسه ، ص : 709 .

(3) سبق أن عرفنا بهم عندما تحدثنا عن مقالاتهم ضمن "النثر الاستعراضي " في الباب الثاني . (4) انظر ذ : 2/3 ، ص : 723 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يستخدم طريقة توجيه السلاح الى نحر صاحبه ، فهو يقلب له كل الامجاد التي تغنى بها ، بتأويلها تأويلا يخالف ماذهب اليه . وأروع ما في هذا الأسلوب أنه يعمد الى أجمل ماعند صاحب الرسالة الشعوبية ، أعني تلك المفاتيح الموسيقية " التي ذكرنا أنه يفتتح بها " أناشيده " ، فيجعل منها منافذ تقود الى عيوب العجم ومخازيهم . يقول له ، على سبيل المثال : " أنت صاحب الشُّهُب الصُّهُب " ثم يفسر له معناهما : " السنة شهباء ، والجهام صهباء ، كذلك أنتم لا خير ولا مير ، ولا عمرو ولا عمير ، ليس للسخاء بالرومية اسم ، ولا للوفاء في العجمية رسم "(1)

وفي مقالة القروى ، من ناحية أخرى ، تحليقات فنية جيدة ، في مجال الاستخدام اللغوى ، والتوشيح البديعي ، والتوظيف المحكم للأنغام الموسيقية ، وكل ذلك يظهر في مثل الفقرة التالية : " وكيف زللت حتى ضللت ، أبالعرب تمرّست ، وفي مجدها تفرّست ، وعلى شرفها تطيّبت ، والى سؤددها تخطّيت ، أما تحدّيت لما تعدّيت ، أما وجمت مما هجمت ، أما اتقيت ما ارتقيت ؟ . . "(2)

وينبغي أن نلاحظ أن الحرص على الثروة الموسيقية هو الذى قاد الكاتب الى هذا النوع من السجع الذى ينطوى على نوع من لزوم مالا يلزم .

ومن طرائق أبي الطيب في المناقضة : " المحو والتعويض " فهو حين محا فخر ابن غرسية بلون قومه " الشهب ، الصهب " يفتخر بلون العرب قائلا : " أين أنت من السُّمر القُمْر ، البيض غُرَرًا وصِفاحا ، السُّودِ طُرَرًا وأَوْضاحا ، الدُّعْج عُيونًا ورِماحا ، البُلْج وجوها وسماحا ، قِمَمٌ في العمائم ، ودِيَمٌ في الغمائم " (3) .

ان روعة هذا الأداء ، تتأتّى للكاتب ، في بعض وجوهها ، من هذه البراعة في توزيع " الصفة - اللّون " بين موصوفين اثنين : احدهما جسدي ، والآخر معنوي ، أو فيه رمز معنوي ، كالسلاح الذى يرمز الى الشجاعة .

---

(1) انظر ذ : 3/2 ، ص : 724 .
(2) نفسه ، ص : 723 .
(3) نفسه ، ص : 724 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما ردّ أبي جعفر بن الدّودين : فانه يبدأ من باب الشدّة والعنف اذ يصوّر ابن غرسية في صورة من يسعى دائبا على درب منيته ، فهو يقول له : " قدّمت أول قدمك لسفك دمك ". وأبو جعفر يناقضه ، ولكنه في الحق لا يرى من جواب ملائم على عمل ابن غرسية الا قتله . فهو يقول له : " فما حقيقة جوابك ، على خطل خطابك ، الا سلبك عن اهابك ، وصلبك على بابك "(1) . ولكن الكاتب سرعان مايتذكر أن السيادة لم تعد للعرب في هذه الجزيرة ، ولذلك يعلق تهديده السابق بوجود غير موجود فيقول : " لو كان بالحضرة أقيال ، وحضرك رجال " وأين نوعية الرجال الذين يومىء اليهم في أندلس الطوائف . .

واذ لم يبق له الا التعويل على نفسه لانصاف قومه من هذا الجاحد ، المستكبر ، فانه يقسم : " بباريء النسم ، وناشر الأمم من رفات الرّمم " ليصيرن عليه " عرض البساط ، أضيق من سُمّ الخياط "(2)

ويتلخص منهج ابن الدودين في أنه يعمد الى كل الصفات التي فخر بها ابن غرسية ، فيقلبها مثالب ومطاعن فيها مذمّة للعجم وقدح لهم . وهو ما يقرب من عمل أبي الطيب القروى في ردّه المتقدم . فأبو جعفر يعترف لقوم ابن غرسية بأنهم " صهب " كما قال في الفخر بهم ، ولكن تفسير هذا اللّون يعطيه هذا الهجاء المرّ : " صهب السبال من ولغ الدم ، وشرب الأبوال ، أكلة الجيف ، وحملة الكنف "(3) .

ولقد فطن كل الذين ناقضوا ابن غرسية الى قيمة تلك "المفاتح" الموسيقية التي علمنا مقدار ما أتاحته من الجمال لرقعة ابن غرسية ، فحاولوا استخدامها بقلبها ، وذم العجم باسطتها . وقد أبدى ابن الدّودين حذقا لا ينكر في التسلل من هذه الثغرات التي كانت قلاعا لابن غرسية ، فقوضها على رأسه ، ولنسمع اليه في نموذج من ذلك : " الوُضَّح الزّجَح : زُجَّح الأكفال ، وُضَّح كذوات الاحجال . . . "(4) وكأنما طابت هذه الطريقة في الردّ لأبي جعفر فهو يقول : " عُلَمٌ حُلَمٌ : عُلَم بالتداوى من القَرَم : . . . حلم عن كل مجاوز الحلم . . . . "(5)

---

(1) ذ : 3/2 ، ص : 715 . — (2) نفسه .

(3) نفسه . — (4) نفسه .

(5) نفسه ، ص : 716 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والحق أن هذا الردّ كان شديد اللهجة ، عسير التقريع ، لم يترك عيبا تسب به أمة من الأمم الا ورمى به العجم الذين هم عنده "قوم ابن غرسية". د و ن غيرهم .

* * *

كانت هذه عينات معبرة من أشكال هذا النثر الذى تناول مختلف الصيغ التخاطبية . وقد تجلى لنا بشكل واضح أن تطور الكتابة الفنية في هذا العصر لم يقتصر على المجالات التي اقتحمها ، كما كنا ذكرنا ، حتى لم يجد أي ميدان غريبا عنه ، وبلغ من أمره أن شدّد الخناق على الشعر الذى أصبح يقتصر على مناسبات وجدانية أو ظروف استجدائية معينة . . . بل غزت معالم تطوره أشكاله وقوالبه بالذات ، فغدا على النحو الذى لاحظناه من التنوع في الأساليب ، والتعدد في الأنماط التي تختار عند طرق هذا الغرض أوذاك من مضامين التخاطب ، بحيث بدأت تتمايز الصيغ الكتابية على أساس أجناسها .

ولقد وجدنا أهل النثر الأندلسي في هذا العصر يحتفلون أشد الاحتفال بما ينتجه كل واحد منهم ، فيقبلون عليه اقبال المعتني به ، المهتم بمضامينه ، حتى اذا تعمقوا في فهمه اتخذوا منه مواقف متباينة تختلف طبيعتها باختلاف موقعه من " نفسياتهم " ، وعقائدهم ، وظروفهم . واذا كانت المراجعات والمناقضات تعتبر ترجمة أمينة لهذه المواقف وتدل على مبلغ حساسية النثر الأندلسي وعنايته بالصداقة من جهة ، وبالمذود عن الأفكار والآراء من جهة أخرى ، فان في المعارضات دليلا لاينكر على اعتراف الأدباء بقيمة النماذج المتميزة بجودتها من أدب الكتّاب المعاصرين ، اذ ما ان ينشىء الواحد منهم رقعة تشتمل على خصائص تميزها : من موضوع تناولته ، أوشكل مُستغرَب سبقت اليه أو ظرف منفرد ، صدرت فيه ، حتى تطير بأجنحة الشهرة في أقصى أصقاع القطر ، ويتزاحم الكتاب على معارضتها بانشاء رقاع على منهجها ومنوالها وهذا دليل صحة مؤكدة للذوق العام ، وسلامة الاحساس السوي بالجمال .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واذا كان هذا هو الشق الأول من النثر الأدبي في هذا العصر، فان الذي هو أقرب الى الخصائص الفنية، وأكثر تمثلا لها، واشتمالا عليها، انما هو ذلك الذي عمد الى التعبير غير المباشر، والذي نستطيع أن نجمل أنواعا كثيرة منه تحت عنوان واحد هو: " الصيغ القصصية "، وذلك ما نفرد لدراسته الفصل القادم .

* * * * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

الصيغ القصصية

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني
الصيغ القصصية

الصيغ القصصية : هي مجموعة من أنماط الانشاء تختلف في مضامينها ، وفي أشكالها ، ولكنها تلتقي كلها عند نقطة واحدة ، تجمع شتاتها ، وتؤلف بين أصنافها ، وهي : البعد عن التعبير المباشر ، الصريح ، والسعي الى الكناية ، والتلميح ، واستخدام الرمز ، وكل ذلك في قالب من سرد الأحداث ، وسوق الوقائع يعتمد — اعتمادا كليا — على ما خُصَّ به الانسان من قدرة " التخيل " التي تمكنه من استحضار الغائب ، وتمثل ما لم يقع كأنه واقع ، وتصور مجرى الحوادث وهي تُروى له ، كما لو أنه حاضر لديها ، يشاهدها عيانا .

وليس بامكان أحد أن يحصي ، بدقة ، مجموع العوامل الكثيرة المتشابكة (التي ترجع الى أصول ثقافية ، وحالات نفسية ، وظروف بيئوية . . . كما ترجع الى طبيعة المضمون المعالج ، والاثر المرجوّ له عند المخاطب . .) والتي تدفع بالكتّاب ، في مناسبة انشائية معينة الى أن يختاروا التعبير القصصي دون التعبير المباشر ، وأن يفضلوا هذا اللّون أو ذاك من ألوانه الكثيرة .

ذلك أن الصيغة التي " يختارها " الأديب عند شروعه في الكتابة ، أو التي يجد نفسه مدفوعا اليها دفعا — شأنها في ذلك شأن الأشكال الشعرية ، لدى الشاعر — تضرب بجذورها في أعماق ذاتيته ، ومُثُله العليا ، ومزاجه العصبي ، والأنماط الأدبية التي تأثر بها ناشئا ، وحاول أن يقلدها مبتدئا . . . وقد تفضي الدراسة المتعمقة لأدب أولائك الذين مارسوا هذا الضرب من التعبير والبحث عن المؤثرات التي اكتنفت " تربيتهم الأدبية " الأولى ، الى اكتشاف الكثير من جوانب عبقريتهم ، وفهم الحوافز التي كان لها أكبر الأثر في توجيههم هذه الوجهة الفنية .

ومهما يكن من أمر فاننا لا نملك الا أن نلاحظ أن عددا قليلا جدا من الأدباء هم الذين وجدنا عندهم غراما بيّنا بتنويع القالب الانشائية ، وولوعا بتجديد الأزياء التي يعرضون ضمنها مضامينهم النثرية ، من أمثال : ابن شهيد ، وابن حسداي ، وأبي حفص بن برد الأصغر ، وعمر بن الشهيد . . . وغيرهم ممن سندرس انتاجهم القصصي بعد حين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد بدا لنا ، ونحن نتأمل هذه الظاهرة ، كأن نخبة من أكبر الأدباء ، وألمعهم في هذا العصر ، كانوا في " حالة بحث" مستمرة عن القوالب المستطرفة ، والصيغ المستجدة ، وكأنهم أعرضوا عن الاكتفاء بالصيغ التقليدية ، تلك التي رضيت بها أكثرية الكتاب ، فلم تشعر بحاجة الى الانحراف عن السبل المطروقة ، والخروج عن الدروب المعبّدة .

ونحن لانقصد بقولنا هذا ، أن الصيغ الانشائية ذات الطابع القصصي التي سنتناولها بالدراسة ، قد اخترعها أولائك الأدباء ، وسبقوا اليها غيرهم من كتّاب العربية ، فهي كانت معروفة قبلهم بزمن طويل . بل ان بعضها كان معروفا في النثر الأندلسي نفسه ، منذ القرن الرابع [1] . وانما تبدو جدّتها بالنظر الى عصرها ، وبعض خصائصها الفنية .

وقد حاولنا حصر أضربها حسب قالبها العام ، ووظيفة السرد القصصي فيها ، فجاءت خمسة أجناس كما يلي :

- المقيلة .
- الحوارية .
- الدعابية .
- الحكاية الرمزية .
- الأحدوثة .

ولكننا لانستطيع أن نشرع في دراسة هذه الأجناس قبل أن نقول كلمة مختصرة عن أثر قصصي متميز ، من أدب هذا العصر ، يصعب تصنيفه ضمن واحد من هذه الاجناس ، ونعني به ما يعرف "برسالة التوابع والزوابع " لابن شهيد .

* * *

(1) انظر ماكتبناه عن تطوّر النثر الأندلسي قبل القرن الخامس ، في الباب الأول من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 ــ " التوابــع والزوابــع "

أول ما يلقي الدارس من المشكلات ، حين يتصدى لدراسة عمل أبي عامر بن شهيد (1) في " التوابع والزوابع " أنه لا يعرف بالضبط في أيّ صنف من أصناف الأدب القصصي يصنفه ، أيعتبره مقامة مطولة ؟ أم يعدّه قصة مسجوعة ؟ أم يكون عنده حوارية يجري فيها الحديث بين الكاتب وبين من يقابل من شياطين الكتّاب والشعراء ؟ .. . ولعلّنا لا نبعد كثيرا عن الحقيقة إذا زعمنا أنه في الواقع مزيج من كل هذا ، وأنه جنس تتداخل فيه هذه الأجناس كلها تداخلا لطيفا ، فتحدث هذا اللون الممتع الذي ما فتيء يسترعي انتباه الأدباء والنقاد منذ زمن طويل .

ولقد بدأت العناية برسالة ابن شهيد هذه منذ حين إنشائها ، فلم تغب طرافتها عن معاصريه الذين فطنوا الى قيمتها ، وعبروا عن تقديرهم لها تعبيرا مباشرا وصريحا . من ذلك أن الحميدي (2) لم يستطع أن يتجاهل الاشارة اليها ، وهو يترجم لأبي بكر بن حزم (3) فقال عنه : " ... وهو الذي خاطبه أبو عامر بن شهيد برسالة : " التوابع والزوابع " التي سمّاها " شجرة الفكاهة ... " (4)

على أن أول من جمع بين الاشارة اليها ، والثناء عليها ، وايراد مقتطفات منها انما هو أبو الحسن بن بسام صاحب " الذخيرة " . فهو الذي مهد لإدراج ما اختاره منها بقوله : " فصول من رسالة سمّاها بالتوابع والزوابع ، وان صدرت عنه مصدر هزل ، فتشتمل على بدائع وروائع " (5) . بيد أن فضل ابن بسام على هذه الرسالة يتجاوز مجرّد ذكرها ، أو التعريف بها . فهي تدين له ، في الحق ، بوجودها كاملا ، فنحن لا نعرف اليوم منها الا تلك الفصول التي اقتطفها منها ، ولو أنه أضرب عن إيرادها في كتابه ، كما أضرب عن إيراد الموشحات مثلا ، لضاع هذا الأثر الفني فيما ضاع من تراث الأندلس ، ولما كنّا نعرف اليوم منه الا عنوانه . فهذه يد لأبي الحسن على أبي عامر لا يمكن أن تنكر مدى الدهر ....

---

(1) أبو عامر بن شهيد : تقدم التعريف به أكثر من مرّة وانظر ذ : 1/1 ، ص : 191 .

(2) الحميدي : أبوعبد الله محمد بن أبي نصر : توفي سنة 488 هـ ، يعرف بكتابه في التراجم الذي عنوانه : "جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس" .

(3) في الجذوة : الترجمة رقم : 887 ، ص : 374 .

(4) نفسه .

(5) ذ : 1/1 ، ص : 245 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تناول هذا الأثر الأدبي بالبحث والدراسة، عدد من الكتاب والنقاد المحدثين، امّا في مؤلّفاتهم التي أفردوها لابن شهيد، واما في سياق حديثهم عن الأدب الأندلسي، واما في معرض التأريخ لتطوّر الأدب العربي، أو الكلام عن الفنّ القصصي فيه ...(1)

ومن القضايا التي تثار عند ذكر هذه الرسالة، قضية صلتها برسالة الغفران لأبي العلاء المعرى(2)، فان طبيعة بعض الذين يكتبون عن الأدب العربي في الأندلس تدفعهم الى أن ينظروا الى كلّ أثر فيه على أنه صورة عن أصل يوجد في بلاد المشرق، وصدى يحكي الصوت الذى ينبعث فيها... فمنهم من يرى أن أبا عامر قد أخذ الفكرة واستعار الصيغة عن أبي العلاء في رسالته المذكورة(3)، ومنهم من يرى أن ابن شهيد تلميذ عاقّ لبديع الزمان الهمذاني: من بعض مقاماته استمد قصته، ومن مناظراته استلهم بعض المضامين الهامة فيها(4).

ولكن الذين انصفوا الأديب الأندلسي أكثر عددا، وأرصن حجة من الذين انكروا عليه سبقه الأدبي وأصالته الفنية. فزكي مبارك يرى أنه ألّف رسالته هذه بين سنة 401 و 407 هـ، اعتمادا على الاشارات الواردة فيها، بينما لم تؤلف رسالة أبي العلاء ـ كما يدل التاريخ المذكور عرضا، فيها ـ الاّعام 424 هـ !...(5) وقد ذهب بطرس البستاني مذهبا قريبا من هذا حين جعل تاريخ تأليفها "بعيد السنة 414 هـ، ويستنتج من ذلك تقدّمها على رسالة المعري، فيقول: "واذا فقد تقدمت ببضع سنوات "رسالة الغفران" التي كان يمليها أبو العلاء في غضون السنة 424 هـ".(6)

---

(1) منهم الذين نذكرهم فيما بعد.
(2) أبو العلاء المعرى شاعر، كاتب، من أشهر أدباء العربية عاش بين 363 و 449 هـ.
(3) منهم أحمد ضيف في كتابه: "بلاغة العرب في الأندلس"، ص: 43.
(4) مثل: مصطفى الشكعة في كتابه: "الأدب الأندلسي"، ص: 680.
(5) كتاب "النثر الفني في القرن الرابع" لزكي مبارك، ص: 259، ج 1.
(6) "رسالة التوابع والزوابع" درس ومنتخبات في سلسلة "الزوابع" لبطرس البستاني، ص: 352.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما شارل بيلا فيستنتج من استقراء النص استنتاجات تبيح له أن يقول : "أذهب الى أن ابن شهيد أتم الرواية الأولى قبل سنة 401 هـ ... ثم أضاف اليها نصوصا جديدة ..."(1)

والذى نستطيع أن نطمئن اليه غاية الاطمئنان ، هو أن أبا عامر بن شهيد قد أنشأ " التوابع والزوابع " في شبابه ، وذاك ما أجمع عليه الدارسون الذين أتينا على ذكرهم . وأما سبقه أبا العلاء الى هذا التأليف ، فمع أن ذاك من قبيل الحقائق التاريخية ، والانصاف الذى يعطي لكل ذى حق من المبدعين حقه ، فانه لاينبغي أن يؤدى بنا الى ضرب من ضروب تلك المنافسات التافهة التي يتصورها بعض " الناس " قائمة الآن على قدم وساق بين المشرق والمغرب ، فيتحزب لها المحدثون ، وينقسمون على أساسها الى أنصار وخصوم . ان " رسالة الغفران " ، ورسالة " التوابع والزوابع " فرعان طيبان من شجرة مباركة ، هي شجرة الأدب العربي التي ينبغي أن تكون موضع الفخر ، ومحطّ المباهاة ، لا مبعث العصبيات الجوفاء ، والنعرات البدائية ....

ان عمل ابن شهيد قد أصاب الطرافة ، وحقق لصاحبه الجدة ، انطلاقا من بحثه عن الأساليب التي تحقق له الظهور على خصومه من الأدباء ، وهو في معرض الفخر عليهم ، بما أوتي من براعة في الفنّ ، وقدرة على التصرف في وجوه البيان . وأى شيء أكثر اعانة له على بلوغ هذا القصد ، من أن يحدث صفة لاعهد للناس بها ؟ من هذه الارادة كانت هذه الصيغة القصصية . والذى قرّر قالبها الفني انما هو حرص الكاتب على أن يصور نفسه في صورة النابغة الذى يتفوّق بأدبه على جميع من سبقه أو من عاصره من نوابغ الأدب العربي في المشرق والمغرب . ولما كان الحديث المباشر مملاّ ، كثيرا ما يبعث على القلق والسآمة ،

(1) " ابن شهيد الأندلسي " حياته وآثاره لشال بيلا CHARLES PELLAT ص : 57 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

اذا طال فيه العرض والانشاد ، فقد اهتدى الى هذه الطريقة التي تتمثل في رحلة خيالية الى موطن الجن ، حيث يتاح له أن يعقد مجالس أدبية مع شياطين كبار الشعراء والكتّاب ، فيناظرهم في شعر ونثر أصحابهم ، ويحاورهم في مسائل مختلفة من مسائل النقد الأدبي ، ويخرج من كل مجلس ، وقد قضى حق الانتصار لنفسه : الألسنةُ تلهج بالثناء على براعته ، وهو يجر ، لذلك ، ذيول التيه والكبرياء ، منتشيا من مدامة هذا الظفر ....

ان براعة أبي عامر تظهر ، بصفة خاصة ، في كيفية استخدام الخيال الذي تنهض عليه قصته . فهو يوظفه توظيفا محدودا ، بحيث يبقى في جميع الحالات مجرّد " مطيّة " يركبها الى تلك المجالس التي يعقدها ليتسلّل من خلالها الى الغرض الوحيد المهيمن عليه من البداية الى النهاية وهو التغني ببراعته الأدبية ، فهو يحكي ولكنه لا يوغل في ذلك ، وانما يبقى دائم الارتباط بالواقع الفني الذي يريد أن يعرض آراءه فيه ، ومواقفه منه .

ونحن نعتقد أن ابن شهيد قد وفق توفيقا ملحوظا في هذا الاستخدام ، وبرهن على أنه يحسن التحكم في الواسطة التي ابتدعها لتحمل عنه ماكان يريد التعبير عنه من المعاني . ولذلك فنحن نرى ، من هذه الزاوية ، أن " عقلية المقامة " هي التي تقود خطاه ، وليس " عقلية الرواية " أو القصة المكتملة التي من شأن الأغراض والمرامي أن تذوب فيها ، وأن لا تتراءى فيها الا من وراء حجاب كثيف . فلذلك كنا أقرب الى الاعتقاد بأن رسالة " التوابع والزوابع " انما هي سلسلة مقامات ، ينتظمها غرض معنوي واحد .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 ـ في المقامة

لاحظ أحد الدارسين المحدثين أن الأندلسيين لم يبدوا اهتماما كبيرا بتقليد مقامات بديع الزمان الهمذاني ، وأن اهتمامهم بمقامات الحريرى قد كان أوضح وأشدّ [1].

والواقع اننا كنا ننتظر منهم عناية أكبر " بالبديع " ، وولوعا أشد بتقليده ، وحذو حذوه في ما أنشأ من هذه الأحاديث التي أطلق عليها تسمية المقامات [2]. فنحن نجد في كتاب الذخيرة بالذات آثارا متنوعة ، وأقوالا متفرقة تدل على مبلغ ماكان يحظى به من الشهرة والتقدير .

فمن ذلك مثلا أن أبا الحسن بن بسام ، صاحب الذخيرة ، اذا أراد ، في خطبة كتابه ، أن يفخر بنثر أهل الأندلس ، لم يجد أحسن من أن يباهي به كتابات الهمذاني فيقول : " نثر لو رآه " البديع " لنسي اسمه "[3] وهو اذا أراد أن يثني على براعة الأمير أبي عبد الرحمن بن طاهر قال فيه : " ان ذكرت الخيل فزيدها ، . . أو الكتابة فبديع همذان . . . "[4] . وهو حين يشتد اعجابه ببعض أقوال ابن زيدون ، يسارع الى مباهاة الثعالبي ، صاحب " يتيمة الدهر " ، قائلا : " ولو قرع سمع أبي منصور ، بما في تضاعيف هذا التصنيف من الشذور ، اما . . . . أغرب بغرائب الصاحب ، ولا ببديع البديع "[5] .

بل ان أبا عامر بن شهيد نفسه ، لايجد شيئا يسخر به من مهجوّه ، أبي القاسم بن الافليلي ، حين يريد أن يبيّن سوء تقديره أحسن من أن يقول عليه : " يسمّيا الهمج الهامج ، ويسمّى "البديع " والصابي ، وشمس المعالي : المضاريط " [5] وهؤلاء عنده قمة الكتابة ، كما يفهم من سياق الحديث .

---

(1) هو احسان عباس ، في كتابه : " تاريخ الأدب الأندلسي " (عصر الطوائف والمرابطين) ، ص : 303 .

(2) في نشأة المقامات ، ومن سبق اليها ، أو أوحى بفكرتها الى البديع انظر : زكي مبارك " النثر الفني في القرن الرابع " وعبد الملك مرتاض في "المقامات في الأدب العربي" الجزائر ـ 1980 .

(3) ذ : 1/1 ، ص : 11 .

(4) ذ : 3/1 ، ص : 49 .

(5) ذ : 1/1 ، ص : 372 .

(6) نفسه ، ص : 242 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الأقوال وغيرها[1]، مما لا حاجة لنا الى التطويل باستقصائها، تعرب بشكل قاطع عن مدى ما يكنّه الأدباء الأندلسيون من تبجيل لبديع الزمان، حتى حين تأتي في قالب الفخر عليه، ومطاولته، والاشارة الى سبقه.

ومن هنا كنا نحسب أننا سنلتقي سيلا من المقامات التي يؤلفها رجال الأندلس، جريا على نهج ذاك الذي يلزل منهم هذه المنزلة المرموقة. ولكن الغريب أننا لا نكاد نعثر في كتاب الذخيرة على شيء يدلّ على أنّ الأندلسيين تذوّقوا مقاماته، أو حاولوا أن ينسجوا على منوالها[2] وكلّما ورد حديث عن معارضة الهمذاني أو مجاراته أو تقليده، كان ذلك امّا في ميدان الرسائل[3] أو في ميدان الشعر[4] وطرائق زخرفته بالأنواع البديعية ...

والظاهر أن أدباء هذا العصر قد جرّبوا كتابة المقامة، ولكنهم أقبلوا عليها اقبالا لا فاترا، فلم يتجرّد أحدهم، فيما نعلم، لتأليف مجموعة من المقامات كما فعل الهمذاني نفسه، أو بعض من قلّده من أهل المشرق. ويزيدنا استغرابا أن ما كنا لاحظناه من ميل أساطين الكتابة عندهم الى الصيغ التي فيها إعمال للخيال، لم يحفزهم الى ارتياد هذه الآفاق التي تتسع لمثل هذا الأداء الأدبي. بل ان الذى نجده بين أيدينا هو أنهم خرجوا عن قالب المقامة البديعية، بقوالبها المتميزة، وشكلها القصصي البيّن، والعقدة البسيطة التي تدور عليها، الى قوالب كادت تتجرّد من مجموع هذه الخصائص. وهو ما سنراه بالتفصيل بعد حين.

أما الحريرى فلا نجد له ذكرا في هذه الفترة، وانما سيعلو شأنه في الأندلس أثناء القرن السادس، وسيجد من المعجبين من يروى مقاماته، ويقلدها بعدد مماثل لها، ويزيد عليه فيها بالتزام مالا يلزم في سجعها وشعرها[5].

---

(1) من ذلك وصف الوزير أبي جعفر بن عباس لرسالة أبي المغيرة بن حزم. ذ: 1/2، ص: 154.

(2) نستثني من ذلك ماقاله ابن بسام من تقليد أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني للبديع ومعارضته لبعض مقاماته. ذ: 4/1، ص: 196، لأن ابن شرف خارج عن غرض هذه الدراسة.

(3) كنا تناولنا معارضة ابي المغيرة بن حزم لرسالة البديع في " الغلام الذى عذر " ذ: 1/1، ص: 140.

(4) من ذلك معارضة ابن عبدون لنوع من الشعر عند الهمذاني، انظر ذ: 2/2، ص: 696.

(5) انظر " تاريخ الأدب الأندلسي " (عصر الطوائف)، ص: 305 وما بعدها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن نحبّ أن ندرس المقامات التي أوردها ابن بسام تحت هذا الاسم وهي ثلاث :

أ — مقامة عمر بن الشهيد .
ب — مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي .
جـ — مقامة محمد بن عبد العزيز المعلم .

ثم نضيف اليهما نصين ، لم يرد في كلام صاحب الذخيرة ما يجعلهما مصنفين في زمرة المقامات ، ولكن كلّ ما فيهما — مضمونا وشكلا — يجعلهما من بابهما ، ويلحقهما بصنفها ، ولذلك أحببنا أن ننهي الكلام في هذا الغرض ، بهما ، وهما :

د — نصّ أبي حفص بن برد الأصغر في النخلة .
هـ — نص أبي المطرف عبد الرحمن بن فتوح من الأدب والأدباء .

وسنستعرض فيما يأتي هذه المقامات ، والنصين الملحقين بها للنظر في خصائصها ، ولنستخلص من خلال ذلك كله ما يمكن أن يعد مقوّمات فنية للمقامة الأندلسية في هذا العصر .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ـ المقامة الحديدية لعمر بن الشهيد .

لم يذكر صاحب المصدر الذي أخذنا هذه المقامة منه اسما لها يميزها به ، فارتأينا أن نقترح لها واحدا ، لنتمكن من نعتها به ، دون حاجة الى التطويل بذكر كاتبها في كل مرّة . وقد وجدنا أبا حفص عمر بن الشهيد ، يتحدث عن فقيه اسمه " ابن الحديد " هو الذي يرافق الكاتب في هذه الرحلة التي يشرعان فيها حين " اهتز الفجر اهتزاز الرمح في يمين الأفق "(1) فنسبناها اليه .

وينبغي أن نعرف ، منذ البداية ، أننا أمام أجزاء مقامة ، لا ندري بالضبط ماذا يمثل حجمها الحالي ، من النص الأصلي الذي أنشأه المؤلف أول مرّة . فابن بسام يوردها منذ البداية تحت هذا العنوان " وله من مقامة حذفت بعض فصولها لطولها "(2) مما سيكون له أثر دون شك على فهمنا لسياق المقامة ، وتنامي الاحداث فيها ، وان كنا نثق في ذوق صاحب الذخيرة ، ونعرف أنه لابد أن يتجنب في حذفه بتر المقاطع التي لا يتم تصور القالب العام للحكاية إلا بها .

وأول ما يستلفت الاهتمام أن المقامة لا تبدأ رأسا بسرد الحكاية التي تتألف منها ، أو الحوادث التي يتشكل منها نسيجها القصصي ، كما هو الشأن في هذا النوع من الانشاء ، وانما يصدرها بمقدمة تبدو شديدة الغربة في مقامها ذاك ، لأنها تتناول الحديث عن " الكتابة " فيبدي رأيا فيها لا يشرف صاحبها ، اذ هي " محنة من المحن ، ومهنة من المهن " ولا تطول دهشتنا ازاء هذا الموقف لأن تفسيره يكمن في اعتقاده بأن جماعة من المتطفلين عليها " سلبوها تاج بهائها ، ورداء كبريائها ، وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يحيرها لحظة ، ولا يفرغ في قالبها لفظه .. "(3)

وبعد هذه التأملات العابرة ، ذات الصبغة الذاتية ، نلفي عمر بن الشهيد يمتعض من المضيق الذي قد يجد الكاتب نفسه فيه حين يطلب منه انشاء عمل أدبي ما . وهذا ما وقع له هو اذ نراه يقول : " وبهذا السبب دفعنا الى النصب فيما تسمعه : وربما تستبدعه "(4)

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 674 (2) نفسه .
(3) نفسه . (4) نفسه ، ص : 675 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يمكن أن نستخلصه من هذه المقدمة أنّ الكاتب كان واعيا أتمّ الوعي بأنه لا يكتب شيئا عاديا ، وأنه ينشيء صيغة لها حظها من الطرافة والابداع، وهذا معنى قوله السابق " وربما تستبدعه " فاذا لم تكف هذه العبارة في الكشف عما في نفس الأديب ، فانه يحاول التنبيه قائلا : ولعل الكلام هنا ينصرف الى المخاطَب الذي وجه اليه هذه الرقعة : "فدونكها عذراء محجلة ، غراء كما رفع عنها سجف الابداع ، وأبرزت من كناس الاختراع "(1) فهل أقدر على ترجمة مافي نفسه من كلمتي " الابداع " و " الاختراع " ؟

وحين نظن أنه لم يبق للكاتب الا الشروع في سرد حكايته ، يعرّج بنا الى مقدمة أخرى .وهي هذه المرة ذات طابع وصفي بيّن ، تتحدث عن حلول الربيع ، واعتدال الزمان ، واخضرار المروج ، وانتشار المسرّة في النبات والحيوان . . . . ويبدو أن هذه المقدمة تطول حتى تقلق صاحب الذخيرة فيهمل فيها قصه ، وينقلنا الى فصل يضعنا رأسا في مسار البداية الحقيقية لهذه المقامة .

وقد اتضح لنا أنها ـ كما هي في الذخيرة ـ تنقسم الى مرحلتين متميزتين ، وأنها تنتهي بخلاصة ، سندرس قيمتها في وقتها . أما المرحلتان فهما : المرحلة " الديكية " لأنّ بطل الحوادث فيها هو الدّيك ، ثم المرحلة الدَّيْريّة نسبة الى الدَّير الذي هو إحدى العلامات البارزة في هذه المرحلة .

المرحلة الدّيكية : تنطلق بانطلاق موكب الكاتب وصاحبه الفقيه نحو منزل بدوي يبدو لنا صاحبه واقفا لإستقبال ضيوفه ، مرحّبا بهم . ثم يميل بهم الى بيت قد أحسن ترتيبه ، وتزيينه حتى لقد تساءل الضيوف : " من أين للبداوة ، بهذا الرونق والطلاوة "؟(2) وبينما الضيوف يسرّحون عيونهم في بدائع هذا المكان الذي حلوه ، يسرع رب الدار الى جمع أولاده ويغريهم بالقبض على " ديك هرم " ليقدم لحمه قِرَى إلى أضيافه . ويقبل الصِّبيان على

(1) ذ 1: 2 / 1 ، ص : 675 .
(2) نفسه ص: 673 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الديك حتى " يسقط بينهم جسما بلا روح " ، وهو يضطرب اضطراب المخنوق ، ويستغيث بالخالق والمخلوق " . وبينما نظن أنها انتفاضة الموت قبل لفظ الأنفاس الأخيرة ، يحدث " انقلاب مسرحي " اذ يعضّ " على أيديهم عضة ، وينتفض منهم نفضة "(1) وينجو بنفسه .

غير أن الديك الناجي لا يكتفي بهذا النصر ، ولا يسارع الى التكتم والانجحار ، وانما يريد أن يحتفل بانتصاره هذا بصوت عال ، ولذلك يصعد " في بعض الجوائز " ويترنم بالأشعار . . . .

وفي المشهد الثاني نرى الديك واقفا يخطب في جمع غفير من الناس الخارجين من صلاة الظهر ، وقد " تواثبت اليه السادة والوجوه "(2) . وهو يعدّد منته عليهم ويقول : " صحبتكم مدّة ، وسبّحت الله تعالى على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقظكم بالأسحار ، وأؤذّن بالليل والنهار . . . "(3) ثم يستغرب المعاملة السيئة التي يلقاها منهم جزاء احسانه المذكور ، ولكن الأذى يبلغ القمة حين يرا د به الموت في آخر عمره .

يشتد غيظ الديك وألمه ، فيسفح الدموع الساخنة ، بل يبكي دما أحمر ويشتد الانفعال به فيُغمَى عليه . . ويهرع أهل البادية الطيبون الى هذا المسكين " يضربون وجهه بالماء ، ويخلصون له في الدعاء "(4) حتى يفيق من غشيته وهو ينشد :

علام يقتل شيخ من كل ذنب بريّ . . .
لا ذنب لي غير أني مؤذّن بدويّ .

ويؤثر منظر الديك الباكي في الناس ، فيشفقون عليه ، ويتحركون لانصافه من ظالمه فيقبلون على صاحبه باللوم والتوبيخ . ولكن البدوي يعتذر بأن ديكه " ذو فخذ وصدرة " وانه لابد له من قضاء واجب الضيافة بلحمه ، ويفتخر بهذه المناسبة بشيمة الكرم ، واقراء الضيف ، المتوارثة في أسرته أبا عن جدّ . . .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 679 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويعترف له الديك بهذه الفضائل ويثني عليه وعلى أخلاقه ، وانما يعاتبه على غلطه حين لم يعلم بأن " حرمات الديوك ليست من مطاعم الملوك "[1] وانما ينفع أكلها في الاستشفاء والتداوي فحسب . ثم يغري من يريد طيب اللحم ببديه لما فيها " من طيب المشم ولذة المطعم ، والتوليد لا حمر ما يكون من الدم "[2].

ويقع هذا الكلام من الناس موقعا حسنا ، يستلطفونه ، ويوافقونه عليه ، فيتخذونه منذ ذلك اليوم حكيما . ويرحل الاضياف وليس لهم من قرى إلا الالطاف ، والاعتذارات .. وبذلك تنتهي هذه المرحلة الديكية من مقامة عمر بن الشهيد ، وتبدأ المرحلة الثانية .

المرحلة الدّيرية :

يشعرنا الكاتب في مطلعها بالجهد الذي يبذل في طيّ المسافات . وينقل الى قارئه احساسا دقيقا بالتحرك والانتقال في قوله : " ولم تزل الجياد تمعج بكماتها ، والشمس تنتقل في درجاتها ، حتى أشرفنا على عين كالدينار "[3]

وبعد وصف دقيق للعين التي نزل الموكب بجوارها ، واستراح بقرب مائها ، يترامى اليهم صوت ناقوس ينبعث من دير ، ثم تنهال على القوم أوصاف ما في القرية التي هم على مشارفها من فتن واغراءات فـ " نباتها غصون من قدود ، تهتز في أوراق من برود ، وتثمر رمانا من نهود ، وتفاحا من خدود ، .... "[4] وسائر ما فيها " محاسن ، محركات لكثير من السواكن " .

وبينما كان القوم يتفاوضون في أمر الدعوة التي وجهها اليهم قسيس القرية بالاقامة في ديره ، اذ نظروا فرأوا صفوفا من فتيات الدير كأنها " شموس وأقمار ، على أفلاك جيوب وأزرار " وقد تشفّع القسيس الى ضيوفه بجمال هذه الظباء ، فكرمت الشفاعة ، وقالوا السمع والطاعة "[5].

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 630 .
(2) نفسه ، ص : 631 .
(3) نفسه ، ص : 631 .
(4) نفسه ، ص : 631 .
(5) نفسه ، ص : 632 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وينتقل الجمع الى كنيسة مهجورة ، الا انّهم لا يقيمون بها وانما يفضلون عليها الصّيد والطراد ، وملاحقة الوحوش بكلاب مدربة وصقور مجربة .

ويواصل الموكب سيره ، واذا بشاب يقبل عليهم على جواد أصيل ، وما ان يصل حتى يتلقاهم بالبكاء ويخبرهم أنه فارّ من الحصن الذى كان فيه ، وآبق من السجن الذى أجبر على البقاء بين حيطانه ، ثم يعلن اسلامه بين يدى الفقيه ، ويبدى ندمه على ماسلف له من عبادة الصليب ، وضرب النواقيس . وبذلك تنتهي هذه المقامة على النحو الذى شاء صاحب " الذخيرة " أن يوردها عليه .

لقد حرصنا على أن نلم بأهم أقسامها ، وأن نلخص أمهات " الحوادث " في مراحلها ليستبين لنا نوع المقامات الذي نتحدث عنه ، ذلك أن من استقرت في ذهنه صورة المقامة " البديعية " أو " الحريرية " بعدها ، وما فيهما من التزام باجراء الحديث على لسان راوية واحد ، لا يتغير ، هو : (عيسى بن هشام) عند الأول ، و (الحارث بن همّام) عند الثاني . وتقيدهما بشكل القصة أو الحكاية التي تنح حوادثها لبطل واحد ، من نسج الخيال أيضا ، هو (أبو الفتح الاسكندرى) عند الهمذاني ، و (أبو زيد السروجي) عند الحريرى . . . قد لا يفقه معنى لاطلاق تسمية المقامة على هذا النص .

والواقع أن المقامة لم تخلص لصيغتها الأولى ، كما أنشأها عليها مبتدعها . وقد رأينا بعض الدارسين يسمي الطريقة التي استفرغت شكل المقامة من مميزاته الأولى ، وخرجت به الى الأغراض التعليمية ، والمعاني الوعظية " بالطريقة الزمخشرية "(1) . ونحن لا يمكننا أن ننسب المقامة المتقدمة الى هذه الطريقة لأنّ أبا القاسم الزمخشرى (محمود بن عمر . . .) لم يولد الا سنة 467(2) بينما كان أبو حفص بن الشهيد أديبا له مكانته في بلاطات الملوك ، يلقى الأدباء ويحادثهم فيثنون عليه ، سنة 440 هـ(3) .

---

(1) انظر : " الأدب العربي في الأندلس " عتيق ، ص : 473 . و " فن المقامات في الأدب العربي " مرتاض ، ص : 243 .
(2) وفيات الأعيان ، ج 5 ، ص : 173 .
(3) هامش ذ : 1/2 ، ص : 670 عن الحميدى في البغية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالأصح اذن أن ننطلق من عمل ابن الشهيد لنستبين كيف وقع الانحراف في وقت مبكر عن نهج المقامة البديعية . والذى ربما كانت له — في هذا السياق — دلالة خاصة ، أن صاحبنا يعرف أدب الهمذاني ، دون شك

وكان على بينة من أسلوبه في معالجة المقامات ، ولكنه عدل عن ذلك عدولا الى هذه الطريقة .

ونحن حين نعود الى " المقامة الحديدية " التي بدأنا حديثنا عنها نلاحظ أنها لا تخلو من مقومات فنية تكسب قارئها متعة أدبية مؤكدة . ونستطيع أن نلخص ملاحظاتنا عليها كما يلي :

— ان "الحدث " القصصي فيها بسيط للغاية ، ينمو نموا بطيئا لا يمكن أن يتيح عناصر التشويق ، وزرع الفضول في النفس ، واثارة التلهف ، وتعليق الأنفاس . . . ولكنه مع ذلك " حدث " يمكّن السرد من أن يأتي في قالب بعيد عن رتابة التعبير المباشر .

— وقد يكتسي نوعا من التحرك الذى يدلّ على مهارة الكاتب في تنويع المشاهد ، وبث الحيوية في جنباتها ، كما فصل ذلك في المرحلة الديكية بشكل خاص .

بيد أن المهارة الحقيقية للكاتب انما تظهر في تلك اللوحات الوصفية الرائعة التي كان يطيل في رسمها ، ويحشد لها من الأصباغ والألوان ، ويرتب فيها من مواقع الضياء والظلال ، مايجعلها فصلا قطعا نادرة من "المنمنمات"(1) النفيسة . فمن ذلك هذا الوصف للطبيعة الذى جعله في سياق التمهيد للمقامة : " وأخذ آذار على ما اعتاد ، فحلّى الوهاد والنجاد ، وخلع على ظهور المروج ، ضروب الدبابيج ، وأثقل صدور الأشجار بحلى النوّار ، واطّبى نفوس الأطيار ، بنضارة الثمار ، فبعثت أشجانها ، ترجّع ألحانها ، فما شئت من رمان تملأ كف العميد ، من أمثال النهود تحت القلائد والعقود . . . "(2)

---

(1) نقصد بالمنمنمات ذلك الفن الذى يعد مدرسة من مدارس الرسم . وكان من أقطابه العالميين في بلادنا المرحوم : محمد راسم .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 676 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومثل هذا الوصف الجميل لآثار الربيع في الحدائق والرياض ، نجده عندما يمعن الكاتب في وصف المحيط الطبيعي للعين التي ألقى عندها موكب المقامة عصى الترحال لنيل ما ينبغي لهم من الراحة . قال : " حتى أشرفنا على عين كالدينار ، كأنما هندست بالبركار ، ذات ماء ريان من الشنب والخصر ، وحصباء كالأسنان ذوات الأشر ، وقد حف بها النبات خفيف الشارب بفم الامرد ، وتزينت بخضرة كالمرآة الصقيلة طوقت بالزبرجد . . . "

وخلاصة القول أن الكاتب أراد أن يبدع فأسرع الى ذهنه هذا الشكل التعبيري ، وقد بدا له أنه مسرح فسيح يتيح له ألوانا من التفنن في رسم المشاهد الجميلة . أما الجانب القصصي الخالص فليس مقصودا لذاته ، ولا هو يحظى من الكاتب بأية عناية خاصة ، وانما هو مجرد مطية تمكنه من أن يحقق مبدأ الإغراب الذي انطلق منه ، لاثارة الاعجاب به ، واظهار البراعة في الكتابة التي ابتدأ حديثه بالتفجع على ما نالها من أذى المتطفلين عليها .

فاذا كان هذا شأن مقامة أبي حفص ، فماذا يكون نصيب ابن مالك القرطبي من هذا الفن ؟ .

ب — المقامة المختصبة

ممن ورد له ذكر في كتاب الذخيرة علي أنهم كتبوا ما يمكن أن ينسب الى فن المقامات الأديب أبو محمد بن مالك القرطبي (1) ، فقد أورد له ابن بسام هذا النص الذى سندرسه تحت العنوان الآتي : " فصول له من مقامة تعرب عن حفظ كثير ، خاطب بها ابن صمادح المذكور ، اقتضبتها لطولها ، وسقت بعض فصولها "(2) .

---

(1) كان رث الحال ، قال ابن بسام في التعريف به : " أقام بالمرية مدة تحت ضنك معيشة مع عدة مدائح رفعها لأمير ها ابن صمادح . ويبدو أن حاله تحسنت بعد ذلك في أيام المرابطين . انظر هامش ذ : 2/1 ، ص : 739 .

(2) نفسه ، ص : 741 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يتبين من البداية أمران : أولهما أن هذه المقامة موجهة الى أحد ملوك الطوائف ، وهو أمير المرية : المعتصم بن صمادح ، ولذلك ارتأينا أن نسميها باسمه ، تمييزا لها وتعليما ، كما فعلنا بالمقامة "الحديدية" . وثانيهما أنها مفرطة الطول — بمقاييس صاحب الذخيرة — فلذلك اجتزأها ، واكتفى من جملتها بفصول منها . وقد جاءت بعد هذا الحذف والاقتضاب في اثنتي عشرة صفحة من مطبوع كتابه [1].

والواقع أنها مجموعة من القطع في مدح ملك المرية ، ووصف حروبه ، والتغني بانتصاراته ، واشهار محامده وفضائله . فهو يبدأ بمدخل مدحي من النوع التقليدي المألوف كقوله : "... فاني أبثه ، ولا أبيء الا حقا ، وأخبره ، ولا أخبر الا صدقا ، أما الأفئدة من بعده فمفؤودة ، وأما الاكباد لبعده فمكبوده ، والدهر من بعده ليلة ليلاء ...."[2] ثم يذكر النصر الذي تسنّى له على أعدائه ، والفتح الذي "تفتحت له ازاهير النجاح" . وفي فصل آخر يصف طلوع موكب الأمير الحائد ، وكتائبه الخرساء ، وأسلحته الفتاكة ... ثم يهاجم أعداءه ، ويحذرهم من الاغترار بكريم أخلاقه ، فانه "فيه الصاب والعسل وفيه السهل والجبل " .

وفي أواخر الفصول نلقى الكاتب متأسفا على عدم مرافقته للأمير ، مبديا جزعه من أن لا تأتي معونته الا باللسان ، وكان يود لو كانت بالسنان ، ولكنه يعتذر عن ذلك "بأفرخ كزغب القطا " .

ويفاجيء القارىء مؤلف الذخيرة حين يبدي — بعد — قلقه من هذا الكلام الطويل فيقطعه وهو يقول : "ومدّ .... في رسالته هذه أطناب الاطناب ، وشنّ الغارة فيها على عدّة شعراء وكتّاب ، من جاهليين ومخضرمين ، ومحدثين ومعاصرين "[3] . ويضيف أنه لو أرجع كل معنى ورد عنده الى صاحبه من أولائك الشعراء والكتّاب ، لما بقي لابن مالك شيء !!

---

(1) من ص : 741 الى ص : 752 .
(2) ذ : 2/1 ، ص : 741 .
(3) نفسه ، ص : 752 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ونحن ، بعد هذه الملاحظة ، نفهم لماذا مدحه في البداية بقوله عن مقامته هذه انها " تعرب عن حفظ كثير " . فهذا مدح يشبه الذم .

والذى لا ريب فيه أن ابن مالك لايخلو من براعة في تنسيق الأوصاف ، وتوظيف النعوت . ولكنه فقير الزاد في الجانب الفني الذى يعنينا من دراسة المقامة . فاذا كانت تخلو من كل مقوماتها الأصلية كما تظهر عند الهمذاني ، أو عند الحريري ، وذلك أمر ليس جديدا علينا ، اذ هو نفسه ما لاحظناه في " المقامة الحديدية " قبل حين ، فان الذى يلاحظ في عمل ابن مالك أنه يخلو من كل أثر قصصي . وكل ما نجده هو مجموعة من الرقاع التي يستطيع أن يستقل بعضها عن بعض ، دون أن يُلحق ذلك أيّ أذى بتسلسل الرقاع . وهي فقرات مدحية تُعنى بوصف الأمير في سلمه وحربه ، وتتناول بعض مظاهر ذلك في أسلوب يستجيب لكل مقاييس الجمال الأدبي الشائعة في هذا العصر من سجع ، وجناس ، ومزاوجة ، وما الى ذلك . . .

ولعل الغرض الأصلي للنص هو استجداء الأمير ، والتقرب الى ذلك بواسطة التفخيم والتعظيم الذَيْنِ أراد أن ينشرهما على ساحات الحرب والقتال . ونحن لا ندري ما الذى أتاح لصاحب "الذخيرة " أن يسمي هذا النص مقامة ؟ وأغلب الظن أن كاتبه ابن مالك هو الذى سمّاه بذلك .

وكيفما كان الأمر فينبغي أن لا نعجب بهذا الأمر ، فان المقامة الثالثة التي أوردها ابن بسام لا تكاد تختلف كثيرا عن هذه ، وهي التي أنشأها أبو الوليد بن عبد العزيز المعلم .

جـ ـ المقامة الانتقالية

هذه المقامة لأبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم[1] وهي قد وردت كسابقتيها ، تحت هذا الاسم في كتاب " الذخيرة " ، اذ أدرجها مؤلفه تحت

---

(1) أبو الوليد بن المعلم ممن لاح نجمه في سماء دولة اشبيلية . فقد كان وزيرا للمعتضد بن عباد ، وقال عنه ابن بسام " من شهر بالاحسان في صناعة النظم والنثر " ذ : 1/2 ، ص : 112 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا العنوان : " فصول له من مقامة "(1) دون أن نعلم ما اذا كان ابن المعلم هو الذي أطلق عليها هذه التسمية ، وإن كان ذاك ما نرجحه لأنه لامعنى لأن يتصرف ابن بسام مثل هذا التصرف .

وقد اقترحنا لها ، في هذا البحث ، عنوان " المقامة الانتقالية"، مثل ما فعلنا مع سابقتيها ، لأنها تدور كلها في فلك الحديث عن التحول ، والانتقال ، والرحيل ، وما الى ذلك .

ويبدأ النص بحنين واشتياق الى " دمنة زهراء ، وروضة غناء " يسيل عليها دمعه حين يتذكر ماكان له فيها " من بلهنية زمان أنيق ، و . . . . رفاهية عيش رقيق " أيام الصبا والتصابي ثم يشير الى أن الدهر قد " استيقظ من هجمته " فقلب لهم ظهر المجن ، وفصم عروة جمعهم ، وحلّ عقدة شملهم .

ثم يأتي الجزء الأصيل من المقامة، وكان الفقرات التي سبقته ليست الا تمهيدا له ، وتوطئة وظيفتها اشاعة هذا الجو المليء بالموجدة على ما فات من أيام السعادة والنعيم. وتجيء البداية في قالب الحكاية التقليدية "كان لي أليف ، وعقيد شريف ، من صرحاء الاخوان ، وصيّابة الفتيان "(2). ولكنه لا يمضي في الحديث عن هذا الصاحب ، وانما يأخذ في رواية حديث معترض وهو : نية الكاتب المعقودة على التحول والتنقل . وهذا الحديث المعترض يأتي كلمح خاطف لمجرد وضع الكلام في السياق القصصي ، ثم يعود الصديق فاذا بنا نجده مع راوي المقامة يتفاوضان في أمر السفر . بل اننا نجده يتحدث وحده حديث الداعي الى التروي ، المثبط لعزم صديقه ، المكرّه له لعواقب الاغترار بما يدعوه الى التحول ، ويستحثه الى التنقل . ونحن نفهم من السياق أن الكاتب يريد أن يقصد أميرا آخر يأمل أن يجد لديه ما يبتغيه كل أديب مُتكسِّب . . . ولكن الصديق لايحول دونه ودون الرحيل بالقوة ، وانما ينصحه ، ان كان لابد له من الانتقال ، أن يقصد " من الرؤساء أحلم الحلماء " ويوصيه بصفة خاصة أن يحرص على المَنَاسب ، لاعلى المناصب ، وأن لايحتني بالدراهم ، دون المكارم . . .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 113 .
(2) نفسه ، ص: 114 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويصمم الكاتب على المسير ، فيأخذ في استعراض الجهات التي يمكن أن يقصد اليها ، واذا به يكتشف أن من فيها ليسوا مؤهلين لنيل رضاه، واستحقاق مدحه من أمير لا يسميه "أو وزير أقحمت الواو فيه ، وكاتب أمي وقاضي جبلي ...."

في هذه الأثناء يقرع الباب رسول الملك الذي يحمل اليه منه كتابا يقتضي الحضور لديه ، والدخول عليه . ويمضي الكاتب الى قصر مولاه "يتساقط من الجذل، ويعثر في دعاثر الحجل" . وعنده تحسّن حاله ، فينشده الأشعار ، ولكن الملك يريد مدحا نثريا ، وكانما سئم المدائح الشعرية ، فيقبل الكاتب على ذلك بقوله : "هو الامام الطاهر ، والكوكب الزاهر ، والأسد الخادر ، والبحر الزّاخر ، أوهب الملوك للذخائر .. .الخ"(1) ويطول هذا المدح النثرى الذى يروق للملك حتى انه ليقوم ليقبل الكاتب بين عينيه .

هذه المقامة لا تخلو من نفحات قصصية ، ولكنها في غاية السذاجة ، ويبدو أن الموضوع الكبير الجدير بالعناية في هذا النص انما هو ذو شقين اثنين : أحدهما يتصل بهذا السعي الدائم الذى عرف لدى الأدباء الى التجوّل بين بلاطات الملوك ، والتنقل بين الحواضر الملكيّة بحثا عمن يمنح الأوفر ، ويقرب أكثر . والثاني هو القيم الأدبية الجديدة التي رجّحت كفة النثر ، حين غزا الشعر في عقر داره ، ولم يترك له مجالا يختص به ، فصار المدح بالنثر مما يقبل الملوك عليه ، ويرغبون فيه .

وهذا النص ليس له من المقامة الا السجع وتضمين الأشعار ، وهما ليسا من خصائص المقامة وحدها ، فقد صارا من لوازم الكتابة الأدبية في هذا العصر، أيّا ما كان شكلها ، وفيما عدا ذلك فانه قطعة مدحية احتال صاحبها لايرادها بالتوطئة لها ، كما يحتال الشاعر بتنويع أساليب الوصول الى غرضه المدحي في القصيدة .

أما ملامح التعبير الفنّي لدى ابن المعلم فتظهر — هنا — في اللغة السهلة، المستساغة ، البعيدة عن الاغراب والتعقيد . وهي تكاد تخلو من الصور المركبة ، فكل مجازاته تأتي من النوع البسيط القريب من الذهن . وهو

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 116 .

بالاضافة الى ذلك يقتصد في السجع فلا يبدو له فيه ذلك التنميق والزخرف ، ولا ذلك التصنع والتكلف ، وان كان يتقيد برسمه ، ولا يكاد يغفل عنه أو يفرط فيه .

بهذا ننهي الكلام في المقامات التي وردت بهذا الاسم في الأجزاء المخصصة لأدباء الأندلس الأصليين ، من كتاب " الذخيرة " . وقد أسلفنا أننا نلحق بها نصين اثنين لم يسميا بذلك ، ولكنهما أقرب الى هذا الشكل الأدبي منها ، وهما : لابن فتوح [1] وابن برد [2].

د ـ " المقامة الأدبية "

لو جاز لنا أن نسمّي نص ابن فتوح مقامة ، لاقترحنا لها حينئذ عنوان " المقامة الأدبية " . فهي تدور كلها على الشعر ، والسؤال عن الأدباء ، والخصائص التي تميزوا بها عن غيرهم .

وهي تبدو ، منذ البداية ، أغنى في الجانب القصصي من كثير من النصوص التي رأيناها الى حدّ الآن . بل ان الذي يلفت الانتباه في بنائها أنها قصة داخل قصة : فالقصة الأولى هي التي تمهد للقصة الثانية ، وهي التي تفسرها وتشرح ظروفها . ولكنها على الرغم من هذا الغنى النسبي ، تبقى بسيطة ، ساذجة الطابع ، لا تدلّ على موهبة معتبرة في التخييل ، واستخدام الأبعاد القصصية .

وخلاصتها أن الكاتب ، أو الراوي ، يكون في المسجد حين يقبل عليه شاب " حسن المنظر " فيستعيد منه بيتا من الشعر كان يتغنى به ، ثم يلاحظ أنه مأخوذ من قول أحد الشعراء العباسيين . ويتطرق هذا المحاور الغريب الى

---

(1) ابن فتوح : أبو المطرف عبد الرحمن ، وكان يعرف أيضا بابن صاحب الاسفيريا . كان صديقا لأبي حفص بن برد الأصغر . وقد تحدث عنه ابن بسام حديثا يدل على أنه لا يحترمه ، ولا يجل أدبه . راجع ذ : 1/2 ، ص : 770 .

(2) أبو حفص بن برد الاصغر سبق التعريف به .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سؤال الراوي عن السبب الموجب لترديده هذا البيت، فيجيبه بأنه يعبّر عن حاله مع " خل مولع بالخلاف، مائل الى قلة الانصاف، إن لاينته غضب، وإن استعتبته عتب ..."[1] وينتهي هذا المشهد الأول، أو القصة الأولى، بانصراف الشاب وقد غرس مودّته في قلب الراوي.

ويبتدىء الجزء الثاني من القصة، أو هي القصة الثانية، كما أسلفنا، عندما يأتي ذلك الشاب الى منزل الكاتب مع بزوغ الخيوط الأولى للفجر، فيقول له: ان اليوم فيه مطر وبرق، وأنه لم يجد ما يبتغي له من الخمر، وهو في هذه الظروف لايعرف كيف يقضي يومه. ثم يسأل صاحب الدار "كيف ذكرك لرجال مصرك، ووقوفك على شعراء عصرك "؟[2]، فيجيبه: " خير ذكر". فيبدؤه بالسؤال الأدبي، وهو يجيبه، وكأنهما أحاجي أدبية في حوار: هذا يسأل، وذاك يحل ألغازها ويفك معمّاها. فمن أمثلة ذلك سؤال الشاب: " من أعذبهم لفظا وأرجحهم وزنا "[3] فيقول الراوي: " الرقيق حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص بن برد "[4]. وبعد أسئلة قليلة من هذا النوع، والاجابة عنها بمثل ما سبق، مع تعيين أحد الأدباء الأندلسيين في كل مرّة، ينتهي النص وتنتهي الحكاية.

والواقع أن المؤلف حاول أن يتخذ لنفسه قالبا خياليا يعرض من خلاله مجموعة من الآراء في الأدب والأدباء، ولكنه لم يوفق كثيرا، لافي تقديم سرد متماسك، ولا في الربط بين أجزائه ليبدو منطقيا على نحو ما، كأن يجد سببا آخر تقبله لمجيء هذا الشاب الى داره مع بزوغ الفجر .... وهو في الأخير لم يستطع أن ينهي " قصته " هذه نهاية نرضى عنها، بل توقف توقفا مفاجئا، لم يمهد له، ولم يحسن إشعارنا باقترابه.

ولعل الذي قص جناح هذه " البنية " القصصية التي لم تكتمل أن ابن فتوح لم يقطع علاقته بالواقع قطعا يتيح له التحليق، فقد غالط نحن القراء ـ وغالط نفسه حين حاول أن يقنعنا بأن ما يحكيه لنا من قبيل الحقيقة

(1) ذ : 2/1، ص: 736.
(2) نفسه، ص: 737.
(3) نفسه.
(4) نفسه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حين قال / "كنت ليلة أطوف بالمسجد الجامع بالمرية سنة ثلاثين"[1] يقصد عام 430 هـ . وهو ايهام ماكان أغناه عنه ....

والذي ينبغي أن نلاحظه ، بعد ذلك ، أن الكاتب يبدو كثير المغامرات في المسجد الجامع . ففي موضع آخر ينقل لنا صاحب " الذخيرة " نصّا قصيرا ، له بعض الطابع القصصي ، فيه حكاية وقعت له ، كهذه ، يقول فيه : " ما شيت غلاما ما محذّرا كنت قديم الامتزاج به ، والكلف بقربه ، فلقيني بعض اخواني معه في جوف المسجد الجامع ، فسلّم عليّ مضمرا خيرا ثم قال لي : الى متى يدوم غرامك بهذا الغلام ، وهذه بنود عزلته قد رفعت ، وعقدات خلعه قد عقدت"[2] أفليس عجيبا أن تتسع بيوت الله حتى تكون مسرحا لهذا العبث الصّراح ؟ ثم أليس غريبا أن يلقاه ، على تلك الحال ، أحد اخوانه ، فلا يجد في أوضاعه ما ينكره عليه الا استمراره في غرام ذلك الغلام بعد أن عذّر ؟ ...

وربما نحت بعض النصوص الأُخرى ، ذات الطابع القصصي ، نحوا بعيدا كل البعد عن المسائل العاطفية ، وما يتصل بها من مطارحة الغرام ، واتجهت نحو موضوعات تعليمية بحتة ممّا يقربها أكثر من نماذج المقامات البديعية . ومن هذا القبيل الرقعة التالية في النخل .

هـ ـ " المقامة النخلية ".

وهذه الرقعة لأبي حفص بن برد الأصغر ، لم ترد أيضا ، بهذه التسمية ، بل انها لم ترد أصلا في كتاب " الذخيرة " وانما أدخلت على المتن " كما قال محقق الكتاب[3] مع مجموع من الرقاع ، ارتأى بعض الأدباء أن أبا الحسن لم يتجافى عنها " غاضا منها ، لكنّ قَدَر أعجله ، أو زمن لم يسمح له ..."[4]

---

(1) ذ : 1/2، ص : 736 .
(2) نفسه ، ص : 778 .
(3) ذ : 1/1 ، هامش المحقق : احسان عباس، ص : 523 .
(4) نفسه ، ص : 523 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأديب ابن برد ممن له مشاركة واسعة في هذه الضروب من الأدب القصصي، كما سبق أن رأينا، وكما سنرى من الأجناس التي نتناولها في هذا الفصل.

والحق أن هذه الرقعة تذكرنا بالمقامات المشرقية بمقامات بديع الزمان بالذات، لامتزاج القالب السردي فيها بالمسائل اللغوية المسيطرة عليها.

تبدأ "المقامة" بدعاء موجه الى مخاطب لا نعرفه، لأن صدر الرقعة محذوف، يقول فيه: "جعلك الله من المُؤْثِرين على أنفسهم، والمُوقِنين شُحَّها، والمنجزين لمواعيدهم، والمعطين صدقها"(1). وهاتان العبارتان في الدعاء تتضمنان معنى الشح، ومعنى الوعد. وبهما يضعنا الكاتب في سياق القصة التي يبدأ بروايتها. وهي باختصار كمايلي:

جماعة من الناس تلوم أحدا لأنه حين جنى تمر نخلته — وهي نادرة عجيبة في البلاد — كتم ذلك الأمر حتى لا يطمع في نيل نصيب منه طامع. فيعتذر صاحب النخل بأنه لم يكن يحلم بكلفهم هذا بتمرها؛ وأنه في العام القادم سيبذل لهم قسما منه. وتحل السنة المضروبة موعدا، فتأتي الجماعة مستنجزة للوعد، ولكنهم يلقون فتى يبلغهم أن من يقصدونه قد صرم نخلته منذ خمسة عشر يوما. وهذا الفتى نفسه كان من المضرمين بالتمر، ولم يكن يحظى منه، وهو الذي يراقبه صباح مساء، ويتطلع بشوق الى النخلة في كل وقت، الا بما تشفق به عليه العصافير، حين تساقط عليه تلك الرطب الجنيّة.

ويقبل الجماعة على "أبي عبدالله وهو صاحب النخل" يلومونه على عدم الوفاء بوعده، وعلى الشحّ المتمكّن من نفسه، والاستئثار الراسخ فيها. ثم يناشدونه أن يجعل لهم نصيبا مما استبقاه لنفسه، مقابل امتاعه بما لديهم من غريب اللغة، وأبيات الشعر، ويقترحون عليه أن يسمعوه شيئا من كلام العرب في التمر والنخل، على أن يجعل جوائزهم من التّمر اذا راق له كلامهم، وأعجبه انشادهم....

---

(1) ذ: 1/1، هامش المحقق: احسان عباس، ص: 523.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويبدأ الكاتب ، من هنا ، في عرض كلام العرب عن النخل والتمر : فهي تُسمّي صغار النخل " الجَثيث ، والوديّ ، والهِراء ، والفَسيل .... فاذا انعقد سمته السيّاب ، فاذا اخضرّ قبل أن يشتدّ سمته الجَدال ، فاذا عظُم فهو البُسْر .... "(1)

وكأنما هم يعدون هذا الكلام مجرد اغراءٍ لأبي عبد الله ، وطمعٍ يستدرجونه به الى شباكهم . وهم يقولون له : " أمجدنا رُطباً تُمْجِدك خُطباً " ... ويزيدون في تشويقه بقولهم : " ولعلك تحب أن تسمع شيئاً من منظوم الكلام في النخل يذيب من جمودك ، ويولّد عقم جودك ... "(2)

وربما لم يشاهدوا بوادر الاقبال على كلامهم ، والانسياق الى مخططهم ، فلذلك ينتقلون الى الترهيب بعد الترغيب ، ومخاطبته بالتهديد الصريح : اما أن يعطيهم " حقهم " واما لم يبق لهم الا أن ينافروه الى السلطان ، ويؤلبوا عليه الناس... وتنتهي المقامة بالاستغفار والدعاء : " نستغفر الله ونسأله أن يبدلنا من بخلك نوالا ، ومطلك اعجالا "(3).

هذه هي مقامة أبي حفص . ولعلها أكمل من الناحية الفنية ، وأجمع لمقومات هذا اللون من الأدب ، من جميع النصوص التي استعرضناها الى حدّ الآن تحت عنوان " المقامة " . والواقع أنها توفرت على سرد قصصي متميز ، لا بنمائه ، وثراه ، وتشابكه ، فهو بسيط ، ساذج كغيره من الأنواع التي تقدمت لنا ، ولكن بمنطقيته أن صحّ التعبير ، فهو مقنع ، يرضي الانسان ، ويريحه من تساؤلات الشك ، والانكار . وأيّ شيء ينكره عقل الانسان في أن ترغب جماعة من الناس في الحصول على تمر . ثم لا تجد من حيلة لاستخراجه من صاحبه الشحيح ، المستأثر به ، وهي لا تملك ما تأخذه به منه ، الا أن تعرض عليه مبادلته : الأدب بالرّطب ..

والحق أن عمل ابن برد ، عمل رصين ، يدلّ على نضج أدبي ، واحساس تام بالجمال ، أتاحا له أن يتناول غرضا تعليميا بحتا : وهو الحديث عن النخلة ، وأوصافها ، وبعض ماقيل فيها من أشعار ، في إطار خَيالٍ بسيط ، ولكنه جذاب محبب

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 530 .
(2) نفسه ، ص : 531 .
(2) نفسه ، ص : 531 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى النفس ، قريب من دواعي انفعالها الأدبي ، وارتياحها لمظاهر الجمال الفنّي .

وابن برد عَلَم من الاعلام الأدبية في الأندلس ، وقمة من قمم الابداع فيها . وقد جاء أسلوبه في هذا النص ، كما هي العادة عنده ، جميلا في غير تصنع ، آخذا بأطراف الزخرفة بقصد ، بعيدا عن كل غلوّ أو إغراق . فالسجع عنده خفيف ، لا يعتسف اليه الطريق ، ولكنه لا يتجنبه ولا يتلافاه . اما محوله الأول ، والركيزة الجمالية التي يقوم عليها أسلوبه فتتمثل في الازدواج الذى يوفر للنص ذلك التقابل الموسيقي والانغام الهادئة المتصاعدة التي تمنحه أجواء الهدوء والسكينة المنتشرة فيه .

يبدو أننا نستطيع أن ننهي الآن كلا منا عن فنّ المقامات ، وما يلتحق به ويقاس عليه ، من نثر الأندلسيين في القرن الخامس ، بابداء مجموعة من الملاحظات المتصلة به ، نوردها في النقاط التالية :

1 — لا نجد أية علامة من علامات التقليد الجاد لمقامات بديع الزمان الهمذاني ، على الرغم من معرفة الأدباء الأندلسيين بأدبه ، واطّلاعهم دون شكّ على مقاماته التي وردت اشارة صريحة الى أن ابن شرف القيرواني الذى كان من الوافدين على الأندلس ، قد قلدها ، وعارضها ، ونسج على منوالها (1) .

2 — جاءت نسبة كبيرة من النصوص المعدودة في المقامات متصلة اما بموضوع المدح ، واما في سياق التنقل ، والسياحة بين الممالك الأندلسية . وكلا الأمرين يرجع الى حقيقة ماثلة للعيان في الأدب الأندلسي ، خلال هذا القرن . فكأن هذه الصيغ المعتمدة على قدر من السرد القصصي تتيح للأدباء أن يُثنوا على ممدوحيهم دون أن يأتي ذلك في صيغ مجرّدة ، مما يثقل دون شك على الذوق ، لأنّ المدائح الشعرية لها تقاليدها ورسومها الراسخة منذ العصر الجاهلي ، وليس شيء من ذلك للمدائح النثرية .

---

(1) ذ : 1/4 ، ص : 196 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — ان المقامات التي أنشأها البديع ، ثم تلك التي أنشأها الحريري ، بعده ، تقوم كلّها على معاني الكدية ، والالحاح في الطلب ، والتوسل الى ذلك بأنواع من الحيل ، والثقافة الأدبية . وقد بَدا كأن المقامات الأندلسية تخلو من هذه المعاني . والواقع أنها تخلو منها في الظاهر فقط . اذ لو تعمقنا فيها لما وجدنا أكثرها يخرج عن معنى من معانيها . . . ففي " المقامة الحديدية " لعمر بن الشهيد وصف للفقيه ابن الحديد بهذه العبارات : " حنت نفس الفقيه بسيادتها ، الى كرم عادتها ، من الاحسان الى الأتباع ، والتسلية لنفوس الألاف والأشياع "(1) ، فما معنى احسان الفقيه الى الاتباع ؟ وما معنى تسليته للألاّف والاشياع ؟ أليس في هذا ما قد يدلّ على استجداء بواسطة هذه الرقاع الأدبية الخيالية ؟ . أما " المقامة المعتصمية " فهي كلها مدح ، ومثل ذلك " المقامة الانتقالية " فانما هي بحث عن الأمراء الذين يجزلون العطاء ، ويكثرون العطايا والجوائز . أما " النخلية " فهي أشد المقامات صلة بالكدية ، وهي تشبه تمام الشبه كدية أبي الفتح الاسكندري ، أو أبي زيد السروجي ، واستجدائهما بما يعرضانه من جواهر الأدب .

4 — ان الحوار تام متطور في عدد من هذه المقامات ، وهو يشارك في دفع حركة القصة ، ولكن الذي كان يقصده دون بلوغ الهدف هو قصور الخيال عند الكتاب ، وعدم قدرتهم على التحليق البعيد ، وتوسيع آفاق التصور . فلذلك جاءت تلك الأعمال مشدودة الى الأرض ، مشتعلة بهموم " الواقع " لا تقوى على الانطلاق الحرّ .

* * *

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 676 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 — في الحوارية

نقصد "بالحواريات" مجموعة من النصوص ، أبرز ما فيها ، من ناحية شكلها ، طابعها الحواري . فالمعاني لا ترد فيها عن طريق السرد أو الرواية ، وانما تأتي عن طريق تبادل الحديث بين طرفين أو أكثر .

وهي لا تكون ذات طابع حواري إلّا ولها نصيب ، قليل أو كثير ، من السياق القصصي . فاذا لم يكن في تطور الأحداث فيها ، كان في طبيعة بنائها وما تنتهي اليه من الخلاصات .

ونحن اذا شئنا أن نصنفها حسب طبيعتها الفنية وجدناها ضربين : أحدهما يجري فيه الحوار بين طرفين عاقلين ، وهو ما يكون بين الناس من أنواع التبادل ، وثانيهما ما يكون على سبيل التصور والتخييل ، فيجري على ألسنة ما لا يعقل من الجمادات والنباتات وغيرها . ولنبدأ بالحديث عن الحوار المُجْرَى بين البشر .

أ — بين رسول وجارية :

هذه حوارية أنشأها الأديب أبو حفص عمر بن الشهيد الذى رأينا ولوعه بالبحث عن أفانين التعبير من خلال الصيغ الطريفة . وهي رقعة بعث بها الى أحد أصدقائه يقص عليه فيها ما وقع للرسول الذى بعثه برسالة اليه مع جاريته حين فتحت له الباب . وهو يحكي له هذه النادرة على سبيل التفكه والمداعبة .

ونحن لو فتشنا في الحوار الذى دار بين الرسول وجارية أبي حفص لما وجدنا فيه شيئا ذا بال . ولكن ظروفا اجتماعية ، وملابسات عامة تسزرع بذور الخلاف وسوء التفاهم منذ البداية بين الطرفين . فما ان تفتح الجارية الباب ، وتسأل الرسول : " من الرجل "؟ حتى يشعر بالاهانة البالغة توجّه اليه ، وهو لا يستطيع أن يكتم حقده عليها فيقول لها على الفور : " يا لَكْعَاء .... لو كنت امرأة من الأزد ، أسد البأس ، ومقاديم الناس ، لرأيت لألاءَ الازديّة في أسارير وجهي "(1) .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 672 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوسمها شتما لأنها لا تحفظ الشعر ، ولا تحسن من الدنيا الا التمييز بين الحلو والمر ، والخشن واللّين . . . فكأنما هو يصيرها برقة الحضارة .

أما الجارية فتصيره بخشونته ، وتقصد قصدا الى ايلامه حين تلغي عنه أصالة التصرف الحربي الرقيق ، وذلك في قولها له : " أين منك رقة الحجاز ، وفصاحة نجد ؟ "(1). ويقع هذا القول موقع الصاعقة عليه فيبرق ويرعد ، ولكن الجارية تحاول أن تبحث فيه رعدة الخوف حين تنبهه الى أن صاحب الدار له صلة وسبب " بصاحب المدينة " ، وانه لذلك يجدر به أن لا يتجاوز حدود الأدب . ولكن الرجل لا يبدو عليه أثر للخشية بعد هذا التهديد ... ثم ينصرف غاضبا وهو يقول : " أفّ للدنيا ، فما تزال تمنّينا بمثل هذه المهنات . . " ثم لا يجد أحسن من أن يدعو عليها بقوله : " اذهبي لا محفوظة ولا مكلوءة "(2).

لقد مثلت هذه " الحوارية " الطريفة تمثيلا جميلا ، خشونة الرجل الممتليء ببداوته ، المعتز بها ، الظاهرة عليه في سلوكه ، حين يقرع الباب " قرعا منكرا يتبين الحرج فيه ، ويظاهر الضجر في تطلبه . . . "(3) وفي لغته : " يا هذه قولي لرب المنزل يَتَرَمْرَمْ لانفاذ هذا الكتاب "(4). وفي قلة تقديره للمرأة وهو يخاطبها ، منذ الوهلة الأولى ، بمثل هذه الغلظة : " قلبك فارغ الا من الغفلة ، ولحظاتك بليدة على التفصيل والجملة . . . "(5)

يقابل هذه الأخلاق ذات الصَّلَف والعجرفية ، رقة طاغية عند الجارية ، ولطف باد في هيأتها ، وفي كلامها ، فهما أثر من آثار الحضارة التي رُبّيت في نعيمها ، وتشرّبت مقوماتها . وهي تجيبه على خشونته بقولها : " عافاك الله ، انه عليل ، ومن وجهه ثقيل ، وقد برّح به السمر ، ولا ن لغفوته السمر "(6).

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 673 .
(2) نفسه ، ص : 674 .
(3) نفسه ، ص : 671 .
(4) نفسه ، ص : 672 .
(5) نفسه .
(6) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع ان الاختلافات الصارخة بين المسلكين أكثر من أن تطيل في استقصائها ، ولكن الذى نحب أن نتساءل عنه الآن هو مامدى تمثيل هذه الحوارية للواقع الاجتماعي في الأندلس ؟ ترى هل كان فيهما ، في غمرة القرن الخامس ، من كان يستند بانتماءاته القبلية هذا الاعتداد ؟ ويمادى رقة الحضارة الى هذا الحد ، ويعامل المرأة هذه المعاملة الفظة القاسية ؟

ربما كانت ندرة هذا السلوك هي التي أتاحت للكاتب أن يروى بعض ما انجرّ عنه ، للإتحاف به ، والإضحاك ، والتندر ، ولو كان شائعا مألوفا لما بقي للحديث عنه ، على هذا النحو ، من معنى .

ومهما يكن من أمر فان هذه الحوارية دليل آخر على براعة أبي حفص بن الشهيد ، ولعل مهارته الفنية قد ظهرت جليّة هنا في اتقان وصف المفارقات بين السلوكين ، ووضعه للكلام الملائم لهما . فبينما يرق كلام الجارية ، ويكثر فيه السجع الليّن الناعم ، وتطمئن فيه العبارة ، نرى كلام الرسول مشحونا بالقعقعة والدوي

ان تعبير الكاتب يمتاز ، بشكل عام ، بجمال السبك ، وقلة التعويل على السجع ، وعدم الاغراق في التصوير ، وكثرة الاتكاء على المزاوجة التي تحقق التقابل المنسجم بين الجمل ، أو أجزاء الجملة الواحدة ، وتعطي اتساقًا للعبارة يجنبها ذلك الوقف الصارم الذى يكون أحيانا في حالات العبارات القصيرة ذات الأسجاع المتلاحقة .

وكما يتحاور البشر ، في الأدب الأندلسي ، تتحاور الجمادات ، ومن أمتع ماعندنا ، من ذلك ، المحاورة التي جرت بين السيف والقلم .

ب — بين السيف والقلم .

كنا تحدثنا عن هذه الحوارية في سياق دراسة المضامين .ومن هنا نحب أن ندرس فنّ الحوار فيها . ذلك أن ابن برد الأصغر ، وهو من الباحثين باستمرار عن الصيغ المستطرفة ، وأشكال التعبير الجديدة ، قد أنشأ أثرا أدبيا يستلفت الأنظار فهو يجرى محاورة حامية بين اثنتين من الأدوات التي يكثر احتياج البشر اليهما .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

واستعمالهم اياها ، ثم انه تصور بينهما هذه الخصومة الشديدة حتى بدا ، لمن يسمع تحاورهما ، أنهما على طرفي نقيض ، لا شيء يمكن أن يجمع بينهما ، أو يخفف من مشاعر الحقد والكره التي يختص بها كل واحد منهما " صاحبه " .

وطبيعي أن يكون هذا النص ذا صبغة خيالية . بل انه كله ثمرة من ثمرات الخيال . فالتخييل هنا ليس أسلوبا يعتمده الأديب لقضاء غرض بياني محدد فحسب ، وانما هو الاطار الابداعي كله . وهو أساس الأداء في النص . وهو لذلك يتطلب تصديقا مطلقا منذ البداية . فاذا قرأ قارئ هذه المحاورة وهو متشبث بواقعية الظاهرة اليها على أنها وهم افتعله الكاتب ، وأكذوبة اختلقها ، أفسد على نفسه المتعة الأدبية الكامنة فيها ، وأضحت عنده ضربا من التعبير اللامعقول عن المحال معنى ومبنى .

والواقع أن الكاتب قد ساعدنا على الانغماس في " الواقع " الذى شاء أن ينقلنا اليه حين أكسب الصراع بين الأداتين الجامدتين : السيف والقلم ، أبعادا انسانية قربتنا منهما ، وتشعرنا بأن موضوع الخلاف له مكانته في عالمنا وله تأثيره على حياتنا .

ثم ان السيف والقلم كليهما يستخدمان الحجة ، ويعتمدان على الاقناع ، ويلتمسان البراهين على أقوالهما في القرآن الكريم ، والتراث العربي .

ولكل منهما حديث يلائمه : فالسيف رمز القوة لا تجد في كلامه — كلما تكلم — الا وجوها من هذا الاكتشاف بالذات ، والوعي بالقيمة الكبرى والتصرف وفقا لمنطق العنف ، والاعتداد بالبأس الشديد . وهذه صفات تتيح له أن يخاطب القلم باحتقار كبير ، وامتهان شديد . وكثيرا ما يتجاوز حدود الأدب الى الشتم الصريح ، والسباب المقذع كما في قوله له : " وجه لئيم ، وجسم سقيم ، وغرب يفل ، ودم يطل ، . . . ورأس لم يتقلقل فيه لب ، وجوف لم يتخضخض فيه قلب "(1) .

السيف اذا مدح نفسه ، مدحها بمعاني الشدة فيها ، واذا شتم القلم ، شتمه بحقارة مظهره ، وتفاهة مقطعه ، ورثاثة حاله . . . وهي كما نرى منازع

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 525 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مادية لاتكاد تبتعد عن مظاهر الأشياء .... أما القلم فنجد فيه جانبا روحيا لايمكن أن تخطئه العين : فهو اذا أثنى على نفسه ،أثنى عليها من هذا الجانب المثالي فهو قد ورد ذكره في القرآن ، والله جلّ جلاله قد أقسم به لرسوله الكريم في قوله تعالى : ن والقلم ومايسطرون ... واذا ذم خصمه ، السيف لم يعتد الى أحسن من مذمته بنقص هذه الجوانب الروحية ، وافتقاره الى مثل هاتيك المثاليات . وعلى ذلك فالسيف ، مثلا قبيح لأنه يشعل نيران الفتنة ، ويفرق بين الاخوان ، ويفسد ماكان خالصا من المحبة والوداد بين الناس .(1)

ومن المعلوم أن هذه الجزارية ذات مغزى رمزي لايمكن أن نشك فيه أبدا . ومما لاريب فيه ، أيضا ، أن كاتبها ، ابن برد ، كان واعيا بهذا المنحى ، وأنه قصد اليه قصدا . والدليل على ذلك توفيقه ، في آخر الرقعة ، بين المتخاصمين ، وعقد المودة بينهما ، لأنهما يرمزان الى خصال الأمير " الموفق أبي الجيش " الذى كان فيما يرى الكاتب صاحب سيف وقلم ، فهما خادمان له ، وقد نال بهما ماشاء من المجد .

وبذلك نعود مرّة أخرى الى غرض المدح والثناء على الملوك والأمراء . فكأن كل ابداع في الأدب الأندلسي وراءه لازمة التكسب ، ومسحى التقرب من بلاطات الحكام ونيل رضاهم الذى يترجم الى تقريب معنوى ، واغداق للدراهم والدنانير ....

ان عمل ابن برد ينطوى على براعة أدبية واضحة . وهو قد اهتدى الى هذه المحاورة اللطيفة فأعرب فيهما عن قدرة لاتنكر في المناظرة بين هاتين الأداتين اللتين ترمزان الى الخلاف الذى لايكاد يخلو عصر من العصور ، من وجوده على نحو من الانحاء : فالقلم يشير الى قوة الفكر ، والسيف يشير الى القوة المادية ، وطغيان السلاح .

ومع ذلك ، فاننا لانملك الا أن نلاحظ قصر خيال ابن برد . لقد انطلق في الخيال ، ولكنه ظل مشدودا الى حقائق الأشياء لايتعداها ، وكأنما جنى عليه أنه تمسك باجراء "حوار واقعي " في ظرف خيالي . ولو أنه جانب النهاية التوفيقية ، وحرص على ترك الصراع يتطور بينهما حتى يحدث المأزق الذى لابدّ أن يجد فيه أحدهما مخرجا

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 524 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مُشيِّداً لايتوفر مثله الآخر ، لكان أحسن وأبرع من الناحية الأدبية . ولكن الغرض المدحي يضيع حينئذ ، ولن يتاح للكاتب أن يمدح أميره بأنه صاحب سيف وقلم !...

أما تعابير ابن برد ، فاذا كانت في كثير من الأحيان تشكو نوعا من الانقباض والحسر الذي يمنعها من أن تتدفق بعذوبة ، فانما بوجه عام مرونة ، فيها من الزخرفة ما لايثقلها ولا يرهقها ، وهي تأتي دائما : جزلة ، دقيقة ، متماسكة ، توافقها رنات تشعر بالخشونة أو بالنعومة حسب مقتضى الحال .

ولأمرٍ ما وجدنا هذا الكاتب يُعنى بهذه الصيغ القصصية ويكثر منها ، بل ويعنى بشكل خاص بهذه الحواريات ، فكما أجرى المحاورة المتقدمة بين ما لا يعقل من الجمادات ، فقد أجرى محاورة أخرى ، متعددة الأطراف ، بين أجناس من النباتات العطرية .

ج — بين الأزهار .

كانت الحوارية بين السيف والقلم جدلية ، اختصامية كما رأينا . وهي محصورة بين طرفين تتلخص مهمة كل واحد منهما في اثبات الفضائل لنفسه ، وتعرية الخصم منها ، والصاق المعايب والنقائص به .

أما الحوارية التي أجراها ابن برد بين الأزهار فهي تختلف عنها اختلافات بيّنة . منها : أنها ليست جدلية وانما هي خطابية إذ أنها تتم في مجلس يحضره أنواع من النباتات العطرة ، فيقوم كل نوع منها ويلقي كلمته ثم ينسحب .

وهي من ناحية أخرى لامكان للخصام فيها لأن الأطراف كلها موافقة على تمليك الورد عليها . فكل نوع منها لايزيد في خطبته على معاني التأييد والتزكية ومباركة الاختيار الذي تمّ .

واذا كان من شيء نستغربه في طبيعة هذا الحوار فهو " الانتقاص الذاتي " الذي يسارع كل خطيب الى تسجيله ، بالحط من قيمة نفسه ، وذكر نقائصها ، في مقابل ما للورد من فضائل . وهي نقائص تدلّ في حقيقتها على مدناة تلك

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الزهور ، ومكابدة ما تلقاه من شوقها للورد ، وحبها أياه ، وتلهفها عليه . وهكذا فالنرجس الأصفر يتحدث عن نحول جسمه ، وسقم أعضائه [1] . والبنفسج يشير الى ما بوجهه من ندوب [2] أما الخيري فهو من شدة اجلاله للورد ، يكتم أنفاسه ، ولا يستطيع أن يتنفس نهارا [3] .

هذا هو نمط المحاورة . وهي تأتي في سياق قصصي ، بل في قالب روائي يحاول الكاتب بواسطته أن يوهم القارئ بواقعية ما يقص عليه . ولذلك يبدأ النص هذه البداية : " ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه ، وذوي الظرف المعتنين بملح معانيه ، أن صنوفا من الرياحين ، وأجناسا من أنوار البساتين ، جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها ، .... لم يكن لها بد من التحاور فيه ، والتحاكم من أجله والتناصف ... " [4] فنحن نرى هذه الطريقة التي فيها اسناد الخبر الى بعض الأدباء والظرفاء ... وهو منهج يحقق قدرا من العوامل التي توهم بواقعية الرواية . وهو أسلوب معهود في القصة قديما وحديثا .

واذا درسنا خُطَب الزهور فاننا نجد فيها نفسا خطابيا واضحا كأننا نحن في مجلس حقيقي يتبارى فيه الخطباء ، يعرضون ألوانا من بلاغتهم رغبة منهم في تقديم البيعة لهذا الملك المتوج . ولنسمع مثلا الى جلس ينهض فيتكلم كأنه خطيب مصقع من أعيان الناس ، يتصرف تصرف البشر العاقلين ، ويتحدث حديث المؤمنين حين يقول : " يامعشر الشجر ، وعامة الزهر ، أن الله تعالى اللطيف الخبير ، الذى خلق المخلوقات ، وذرأ البريات ، باين بين أشكالها وصفاتها .... فجعل عبدا وملكا .... " [5] وهي خطبة طويلة فيها تدرج نحو الاقناع بضرورة تمليك الورد على مملكة الأزهار ، اعتمادا على الحجج العقلية ، وبيان فضائل الورد المتعددة التي لا يمكن أن تنكر عليه ...

والحق أن النص يؤكد ما أسلفناه من براعة ابن برد ويرجح الرأى الذى ذهبنا اليه ، والذى مفاده أنه كان دائم البحث عن أشكال تعبيرية جديدة .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 129 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) نفسه ، ص : 127 .
(5) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومع أننا لم نجد في هذه الرقعة ما يتيح لنا أن نرى فيها غرض المدح المهيمن، عادة، على هذه الأشكال الأدبية، فان توجيه الكاتب لها الى أبي الوليد بن جهور، أمير قرطبة لا يترك مجالا للشك في أنها تحية أدبية لا تخلو من معنى من معاني التكسب، ومدح الحكام. ولو لم يحذف صاحب " الذخيرة " بعض فصولها لأمكننا حينئذ أن نعرف كيف ربط، في المعنى، بين تقدم الورد على سائر الأزهار، ومدح ابن جهور، وهو على كل حال ما يمكن أن نتصوره على نحو قد لا يبعد كثيرا عن الواقع، بناء على ما نعرفه من أساليب أبي حفص بن برد.

فاذا ذكرنا أساليب التعبير عنده، لم نزد على ما كنا أسلفناه : فأرائقه هي : جودة في السبك، ومتانة في التركيب، مع صعوبة في الاسلوب، وعسر في التوثب. فكأن لغة أبي حفص تأبى أن تسيل. أما من الناحية الموسيقية فأسجاعه جيّدة لطيفة، حين ترد له، ولكنها لا تطرد، لأنه لا يعمد اليها عمدا، بل كثيرا ما يستغني عنها بنوع من الازدواج، والتقسيم بين الفواصل بغير التقفية، فتأتي النبرات عذبة، متساوقة، ولكنها قليلة الايقاع. ولعلّ الجمل التالية من حواريته المذكورة، تشير الى كل خصائص هذه الطريقة في التعبير، يقول عن الورد، على لسان أول خطباء المجلس المنعقد : " هو الاكرم حسبا، والاشرف زمنا، ان فُقد عينه لم يفقد أثره، أو غاب شخصه لم يغب عرفه، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح، وهو كالياقوت المنضد، في أطباق الزبرجد، وعليها فرائد العسجد "(1).

وهكذا كانت هذه النصوص الحوارية : تدلّ على اتساع مُحقق في الأفق الأدبي، وعلى روح مبدعة تستطيع، حين تريد، أن تخرج عما ألفه الناس، وسئموه من أنواع التعبير التقريري المباشر. ولكن الكتّاب الذين نقلوا الحديث من البشر الى الجمادات والنباتات، لم يستطيعوا أن يوغلوا في الخيال، وأن يعبروا من ضفاف نماذجه الساذجة البسيطة الى شواطئه الخصبة التي تتيح لهم أن يعرضوا بعمق، مجموعة كبيرة من المواقف، وأن يبيّنوا، بالتحليل المعمق، مختلف

(1) ذ : 1/2، ص : 123.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحالات التي تحدثنا ، فيجمعوا بين الامتاع والافادة . أما حين جمدوا عند مجرد انطاق الجمادات مثلا ، ولم يمضوا شوطا أبعد في تشخيصها ، وتحريكها ، فانهم لم ينفخوا فيها الروح ، وانما علّقوا عليها الكلام الذى تصوروا أنها نطقت به . وشتّان بين المذهبين . ولعل تعلقهم بالجانب الرمزي المفهوم ، هو الذى منع عليهم ارتياد تلك الآفاق ، كما سنرى في الحكايات التي نتناولها بالحديث فيما يلي .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

4 — في الحكاية الرمزية

شعر الأدباء، منذ أقدم ما نعرف من الحقب التاريخية، بحاجة ماسة، في ظرف من الظروف، الى التعبير المقنّع عما في نفوسهم، لسبب من الأسباب. فالرمز، بهذا المعنى طريقة تتيح للمتكلم أن يموّه على السامع قصده، وأن يُعمِّي عليه طريقه فيتحدث عن شيء وهو يقصد ما وراءه.

وقد لا يكون السبب شيئا آخر غير بغية التجديد، والاطراف، وامتطاء وسائل تبليغية تتسم بالأصالة، ومجافاة التقليد.

والواقع أن الأنماط التي درسناها الى حدّ الآن، ولاسيما المحاورات، "كالسيف والقلم" مثلا، تحمل، دون شك، قدرا من الرمز هو واضح فيها أشد الوضوح، ولكنّ الذي يميز هذه النصوص التي أدرجناها تحت عنوان "الحكايات الرمزية" عن النصوص الأخرى التي تقدمتها، أنها هنا مبنية على تمثيل حالة كاملة، بكل دقائقها وتفاصيلها. فاذا كانت حوارية "السيف والقلم" ترمز الى فكرة الخلاف بين الثقافة والقوة، أو تشير الى الصراع الدائر بين أهل الفكر، ورجال المراتب العسكرية، فان الحكاية الرمزية تعرض وضعا كاملا يسهل فيه أن نوجه كل صفة أو كل موقف، أو كل حدث، الى حالة معينة في الواقع، كان يفكر فيها الأديب عند إنشاء نصه، أو وضع حكايته. وسنتبين تفاصيل ذلك عبر دراسة الرقاع الثلاثة الآتية: سلطان الفقر، ثم قائد النوّار، ثم أمير الزهور.

أ — سلطان الفقر.

لعل حكاية ابن دراج القسطلي[1] التالية تمثل خير تمثيل هذا المحتوى الرمزي الذي أشرنا اليه، لأنها جاءت تماما على النحو الذي شرحناه أعلاه، في مطابقة ما تعرضه للواقع الذي يريد الكاتب أن يصوره.

---

(1) أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي شاعر كاتب من أوسع أدباء الأندلس باعا، وأكثرهم احسانا. من أهل قسطلّة من أعمال جيّان. توفي سنة 421 هـ.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذى تجدر الاشارة اليه أن الرمز الذى تقوم عليه حكاية ابن دراج ، ليس أسلوبا في التعبير لجأ اليه الكاتب لأن ما لها ما يحمله على التستّر ، واخفاء القصد ، وعدم الكشف صراحةً عما في نفسه ، وانما هو شكل من أشكال الكتابة حدته اليه رغبته في اظهار البراعة الأدبية ، وبيان قدرته على التصرف بمهارة في الانشاء . وربما تضيف الى ذلك حرصا على التجديد ، ونزوعا الى اخراج الغرض التقليدي نفسه مخرجا لطيفا مستطرفا .

ونحن اذا جئنا الى الحكاية نفسها وجدنا نسيجها المعنوى لا يندّ عن الدلالات التقليدية التي نجدها في مدح الملوك لنيل عطاياهم . ولكننا مضطرون الى الاعتراف بأن أبا عمر يتمتع بزاد لا بأس به من القدرة على التخييل . فهو كان يريد أن يقول لممدوحه : انه فقير ، وانه يشكو الحاجة الماسة ، وليس له ما يتعلق به ، لينجو من الفاقة إلاّ التعويل على كرمه ، ومخادلة نداه . وهي المعاني التي يعبر عنها كل طالب رِفد ، كيفما كانت التلوينات التي يصبغ بها مطالبه ، والمخارج التي يخرجها منها .

أما ابن دراج فيتصور الفقر سلطانا مبسوط النفوذ ، وقد بعث اليه رسولا من نوب الدهر ، يريد أن يخضعه بواسطته . ولكن الكاتب يعاند ويقاوم ، فيضطر السلطان المتغلب الى أن يوجه اليه جيشا لكسر مقاومته ، والقضاء على كرامته . وكان هذا الجيش يتألف من "كتائب من النوائب ، تسير تحت ألوية المصائب ، تبرق بسيوف الرزايا ، وتشهر أسنّة المنايا . . . ."(1)

ويرى ابن دراج يحشد لهذه الصورة المفزعة كل أنواع التفاصيل التي تجمل هذا الجيش الغازي في أتم عدد القتال : من قِسيّ ، وخيول ، وما الى ذلك . وتمضي الحكاية في هذا القالب ، فلا يرتاع الكاتب لهذا المشهد ، ولا يُفقده الفزعُ صوابَه ، وانما يتلقاه بالصبر . ولما كانت كفة القوة مائلة الى جانب السلطان وجيوشه ، فانه يتم القاء القبض على الكاتب ، فيوثق في السلاسل ، لعجزه عن أداء مبلغ فديته ، ويودع السجن الذي يحرسه فيه الأشدّان : الحَيرة والتبلّد . وكان الأمرُ الصادر اليهما أن لا يطلقا سبيله الا اذا تمكّن من دفع الفداء المضروب عليه .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 62 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وبينما يكون الأسير في هذه الضائقة من أمره ، يأتيه من " الممدوح " رسول اسمه : " حسن الثناء " ، فيضمن فديته ، ويطلق سراحه .

لقد نجح ابن دراج ، دون ريب ، في جعله لكل حال من أحواله جانبا من الحكاية يتم عنه ، أو يُذَكِّر به ويَرمُز اليه . والحق انه لخيال تام متكامل هذا الذي يتيح هذا النَّفَس في السرد الرمزي ، بدون انقطاع .

وهكذا نرى المدح ، وضرورات التكسب ، تقف ، مرة أخرى ، وراء الابداع الأدبي . وكأن الحافز المادي ، والرغبة في الخروج على الممدوح بما لم يسبق أن مدحه به غيره ، يستحث شأن الأدباء على البحث المستديم عن قوالب مستجدة ، وصيغ مدحية مستطرفة .

واذا كان من شيء يَعيب هذا النص فكثافة الرمز فيه ، لأن أشدَّ ما تُفضح به الاشارة المعبرة ، واللمحة الدالة : الاستكثار منهما ، والمبالغة في الاعتماد عليهما . وهذا النص كان يمكن أن يوحي بحسر أحوال الكاتب أكثر لو أنه عرف كيف يستفيد من الجانب الرمزي من غير الاغراق فيه . ومن الأدلة على نسبية نجاحه فيه قلة ما يثيره من العواطف في نفوسنا . فنحن نعترف للكاتب بالمهارة ، ونحس بكفاءته الأدبية ، ولكننا لا نحس نحو فقره بشيء من العواطف : لا نُشفق عليه ، ولا نَرثي له . وتفسير ذلك عندنا أن أبا عمر لم يكن يشغله الا شيء واحد : هو استكمال اللوحة الرمزية بحيث يعبر كلُّ جانب فيها عن جانب مما في حياته ، أو مما يريد أن يتحدث عنه من ظروف حياته .

وقد نجد الرمز أقرب من النفس ، وأصدق في التعبير عن أحوالها ، لأنه أقل ظهورا في نصين آخرين من هذه الحكايات الرمزية ، يدوران على الأزهار والرياحين ، وكان لها في الأندلس ، وأدبهاء ، وعند ملوكها شأن كبير .

ب ـ قائد النوّار .

من ملوك الأندلس الذين شغفوا بالأزهار ، وعرف الأدباء فيهم ذلك فخاطبوهم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالحديث عما يشتهون منها ، المقتدر بن هود [1] فقد بعث اليه أبو الفضل بن حسداي الاسلامي برقعة ذات طابع قصصي ورمزي ، ندرسها في سياق ما نحن فيه من عرض لأهم نماذج هذا النوع من الرقاع .

ونحن نرى ، بادىء ذي بدء ، طبيعة الرمز في هذا العمل الأدبي ، تختلف عما كنا رأيناه عند ابن درّاج . فالسياق هنا سياق مفاتحة ومكاشفة ، وليس سياق سرد روائي كما هو الشأن في الرقعة الماضية . فالنرجس هو الذي يتحدث الى الملك ، وهو يتحدث اليه حديث المفتخر بنفسه ، المعدّد لفضائله ، المُدِلّ بصفاته . من ذلك قوله له : " أنا ... اذا لحظتني بعين الاعتبار ، قائد النوار ، وواسطة الأزهار "[2] .

ومن نماذج فخر النرجس بنفسه قوله : " فاني غلبت ، بما في طبعي من التيقظ والذكاء ، خُلْدَ التراب ، وصُمّ الصوام ، فقمت عن أسامة الفصل عذرا ... وفضلت الورد سيد الأزهار طرّاً ، وتورّده شاهد خجله ، ... فلي عليه فضل العيون على الخدود "[3] .

وهكذا يبدو الجانب الرمزي واضحا من حيث أنه يكفي أن نتصور الكاتب هو الذي يتحدث ، بدل النرجس الذي حمّله مهمة التعبير عنه . وفيما عدا ذلك فما أسهل أن نتأوّل الأوصاف الخاصة بالأزهار لنضع مكانها ما يلائمها من أحوال الكاتب ، وشؤون الأدب في سعي صاحبه الى التقرب من بلاط الملك ، وفوزه لديه على سائر نظرائه من محترفي الأدب ، والمتكسبين به .

ولو أن الأديب ابن حسداي اكتفى بهذا الأسلوب في العرض ، لجاء كلامه باردا ، قليل التأثير ، باعثا لسآمة النفس برتابته . ثم لكان فيه عيب آخر يجعله غريبا في سياق هذا الجزء من دراستنا : وهو خلوّه من الطابع القصصي . لكنه تصوّر امتدادا قصصيا لهذه المناجاة الزهرية فأثرى عمله الرمزي بذلك ، وزاده تحبيبا الى النفوس حين منح السياق القصصي قالبا حواريا بين النرجس وبين أحد عبيد الملك المقتدر بن هود :

---

(1) المقتدر بن هود : هو أحمد ، أبو سليمان الملقب بالمستعين مؤسس دولة بني هود في سرقسطة . وتوفي عام 438 خلفه بعد حوادث ذكرناها في الفصل الأول من الباب الأول ابنه أحمد المقتدر الذي بقي على رأس الدولة حتى مات سنة 474 فخلفه ابنه المؤتمن .

(2) ذ : 1/3 ، ص : 470 .   (3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يتيسح أبو الفضل المقاصد الرمزية أن تختفي وراء غطاء رقيق يشف عن ملامحها ، ولكنه يمنحها قدرا من الستر يعصمها من الابتذال . . . فخادم الملك حين يُلفي النرجس " سقيم الجفون من غير سقم ، مائل الجيد من دون ألم " يبادر الى تأنيسه ، وتألف قلبه ، ثم يقطفه ، بدون أن يحدث له ألما ، ثم يلاحظ سرء حاله ، وهوان موقعه فيشفق على هذا الجوهر العطر أن يضيع وسط الهشيم ، ويقرّر نقله " الى جنبات السرور القديم " .

وهذه كلها دلالات لا تحتاج منا الى تعليق ، فحال النرجس هي حال الأديب الذي يُمَنّي نفسه بلحظة " الفوز العظيم " .

وقد سبق لنا أن درسنا في الفصل السابق نماذج من أدب أبي الفضل بن حسداى ، وهامنا براعته . وهو هنا يكشف عن قدرة حقيقية في انشاء هذا الأدب التخيلي الممتع ، وهو طويل النفس فيه ، لا يضيق به ، ولا يسارع الى بتره ، وانما يمد لسه الحبال ، ويواصل السير في دروبه . وعلى الرغم من أن صاحب الذخيرة قد حذف مقدارا لا نعلمه من هذه الحكاية ، فان الكاتب يختم الرقعة بفصل يمجد النرجس يترنم فيه بمباهجه ، ويتغنى بكريم أوصافه . ولكن الحياة لا تصفو للنرجس المسكين ، مع أنه انتقل الى مكان تتمناه الجموع ، وتحلم به طوائف لا تحصى من الناس ! ذلك أن الحساد كانوا له بالمرصاد ، يكدرون مشاربه ، وينغصون عليه أوقاتا كان يريد قضاءها سعيدا في بلاط هذا الملك العظيم .

وهكذا جمع أبو الفضل في هذه الرقعة بين القصة وشيء من الحوار ، وبين الفخر بالقيمة الذاتية ، والتطلع الى نيل المكانة لدى الملك ، وكل ذلك في سياق رمزي ، مبسط ، لعله يروق ، لاخراجه هذا النص النثرى من حيز الطرائق التقليدية المألوفة . ولكنه يظل نمطا قليل الانطلاق ، لا يتيح له الكاتب أن يحلق بعيدا في الأجواء الخيالية . ومع ذلك فحسب الكاتب أن كان له من دقة الشاعر ما جعله يحكس ما في قلبه من احساس بجمال الزهر ، ويتخطى ذلك الى إنطاقه ، وتحميله رسالة التعبير عما في نفسه من رغبة في الدنو من الملك ، ونيل أكبر قدر من رضاه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هـ ـ أمير الزهور

هذه القطعة لأبي عمر بن الباجي[1] لا يذكر صاحب المصدر الذي وردت فيه ان كان قلّد فيها ابن حسداي في رقعته المتقدمة، أو عارضها بها. ولكننا مع ذلك نراها من جنسها.

وهي مثلها موجهة الى ملك سرقسطة: المقتدر بن هود المستقدم، على لسان زهر البَهار. وهذا ما يؤيّد ما كنّا أسلفناه من كلف هذا الأمير بأنواع الزهر.

وتلتقي الصورة الرمزية، وأسلوب المعالجة الخيالية فيها بالطريقة التي اعتمدها أبو الفضل والأسلوب الذي استخدمه. فهو نفس المنهج الذي يخاطب به الأديب ملكه عن طريق "الحلول" في الزهر. فالبهار هو الذي يتكلم، ولكن المتحدث الحقيقي هو أبو عمر بن الباجي. وهذا هو معنى الرمز في هذه الحكاية.

واذا كان النرجس قد ختم خطابه الماضي بالحديث عن الحسّاد، وبث الشكوى لما يلقاه من كيدهم، فان البهار في هذه الرقعة يبدأ برجاء الملك أن لا يخيب ظنه فيه، وأمله المعقود عليه، حتى لا يشمت به أعداؤه من أنواع الأزهار الأخرى.

وهو من هنا يتسال الى مدح نفسه بمقارنة فضائله بما لسائر الأزهار الأخرى منها، فيجد أنها تفوقها نوعا، وتربو عليها عدّا. انه حقا أمير في الزهور، ولكنه للأمير ابن هود "عبد مطيع مُسَخَّر".

ونحن لا نجد في قطعة ابن الباجي العمل الفني المركّب الذي وجدناه في القطعة السابقة. وانما نحن هنا أمام تعبير رمزي بسيط للغاية. وكأنما الكاتب يحمل رمزه في كفّه، فلا يجد أيّ قارئ عناء في معرفة مداه، وتبين مرماه.

بل ان القسم الأخير الذي أثبته صاحب "الذخيرة" يغدو مجرّد سؤال من أديب مادح، لملك ممدوح، لا يكاد يستره شيء. ولو أننا ألغينا التعبير الوحيد الذي يشير الى الطبيعة النباتية، في هذا المقطع الأخير، والذي هو قوله: "لأني سريع الذبول"[2] لما وجدنا فيه أيّ شيء يخرجه من التضرع المادي الذي

---

(1) أبو عمر يوسف بن جعفر الباجي: فقيه، كاتب، بليغ، رحل الى المشرق، فحجّ ثم زار الشام وولي القضاء فيها بحلب، ثم عاد الى الأندلس، فعاش في بلاط المقتدر بن هود بسرقسطة.

(2) ذ: 1/2، ص: 135.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تمتلىء به مقطوعات المدح والثناء . واسمع اليه وهو يقول في هذا المقطع للمقتدر : " فهل لمولاي أن يحسن الي صنيعا ويكرم النور جميعا ، ويدنيني فأرقى الى أختي الثريا سريعا ، في مجلس قد أخلصته سحائبه ، وأفرغت الحسن عليه والطيب غرائبه ، وجهك بدره ، وغرتك فجره ....."(1)

وعلى هذا نستطيع أن نلاحظ أن عمل ابن الباجي كان قليل الزاد من الرمز ، غلبه التصريح ، ولم يقتصر على الاكتفاء بالاشارة والتلميح . ثم ان السياق القصصي ضعيف للغاية في انشائه .

ونحن لا نجد في أوصافه ، ولا في سياق حديثه ، ما يفيد أ على الاعتقاد بأن المتحدث في رقعته هو الازهار . فقد كانت الطبيعة البشرية لابن الباجي ، تخنق أنفاس الزهر ، وكانت الرغبة الملحة عنده في مخاطبة الملك ، مخاطبة مدحية ، تضيق بالواسطة التي اختارها لتحمل عنه ما يريد ، فلا يكاد يسمح لها بأن تمضي في أداء هذا الدور حتى يقوم بازالتها ، والاسراع الى الحديث بلسانه ، بدل ترك الأزهار تتحدث بلسانها .

وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه الرقاع ذات المنزع الرمزي ، أو التي أراد لها أصحابها أن تكون كذلك ، أنها جاءت متفاوتة القيمة ، مختلفة العمق ، متباينة الأساليب . فقد كانت حكاية ابن دراج القسطلي مستغرقة في طريقة الرمز التصويري الذي يتحرك " الحدث " فيه على أساس استبدال وضع بوضع ، والاشارة الى حال يفكر فيها الكاتب من خلال حال يعرضها . ونحن نقيم العلاقة بين المثبت والمحذوف اعتمادا على السياق العام . وهي علاقة لا تصعب علينا إقامتها ، لأنها واضحة التناول ، لا تحتمل أي تأويل . ولقد كانت القطعة في مجملها منسجمة ، متماشية مع منطق صاحبها . وهي تدل من الناحية الأدبية والفنية على تحكم كبير في أنماط هذا التعبير ، مع أننا لم نجد للكاتب نماذج أخرى منها .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 195 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم رأينا قطعة أبي الفضل بن حسداي تخطو خطوة متميزة في اتجاه إنضاج هذا الأسلوب، من الاعتماد على الرمز المكشوف، واستخدام الاشارات الشفافة . ولكنها شفافية لا تحرم الرمز من كل ضبابيّة يتجرّدُ بدونها من كل قيمة إيحائية .وكان أبرز ما تحقق له في تلك القطعة هو السير في اتجاه الاكتمال الفني بالبحث عما يوصل " الحدث " الى الخيال المركب الذي يستطيع بواسطته أن يلوّن لوحاته . وأن ينوّع مشاهده . فكانت حيلته في ادخال عنصر بشرى هو خادم الملك . يخاطب النرجس، ويحنو عليه ، ويتأسف لوجوده في مكان دون المنزلة الملائمة له ، ويرشحه للدّنوّ من مجلس الملك .... وفي هذا تعامل ايجابي مع الفنّ الخيالي ، وفهم لبعض أبعاده الأساسية .

ولا نجد هذا الفنّ يحظى بأيّ ألوان التقدم عند ابن الباجي ، بل ان قطعة هذا الأديب ارتدت بالنمط التخيلي الى أبسط صيغه التي لولا بعض التعابير السطحية ، التي لا تتناول جوهر السياق ، لخلت من كل المقومات التي ترشحها لمجرد الذكر في هذا الباب .ولم لا يكون التعويل حينئذ ، على المكشوف الذى ينأى عن " الوهم الخيالي " ؟ فلعله ، اذا أحسن صاحبُه التقيد ببعض القواعد القصصية ، أن يقدم صيغا محببة الى النفس .وذلك ما نحاول البحث عنه في النماذج التالية من صيغة الأحدوثة .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

5 — في الأحدوثة

ليس القالب القصصي وقفا على الحكايات التي يستمدها الكتّاب من خيالهم، والتي يهدفون من ورائها الى الإغراب، أو الى تحميل حوادثها دلالات معينة، بغية الايحاء بحقيقة، أو استخراج عبرة، أو إحداث لون من ألوان المتع الفنية التي يلتمس مثلها لدى هذا النوع من الأدب ... بل ان القصص الحقيقية، والحوادث الواقعة في حياة الناس فعلا، أكثر بكثير من كل ما يستطيع الأدباء أن يستبطنوه من التصور والتخيل. ان في حياة كل انسان ما لا يحصى من الحوادث، والوقائع التي لو جمعت على نسق ما، ورتب ورودها وفق منهج معين، لما كان فيها لأبرع القصاصين من مزيد.

ونحن نعني "بالأحدوثة" شيئا من هذا القبيل. فهي الواقعة التي يعرضها الكتّاب في شكل قصصي، لينقلوا الينا تفاصيل حادث وقع وقوعا حقيقيا في حياة الناس، وليس للخيال أي دور فيه.

والحق أن لدينا من هذا النمط من الكتابة النثرية نصوص عديدة، اذ من طبع الانسان أن ينظر الى ما يقع له من هذه الحوادث على أنها من عظيمات الأمور، أو من غرائبها التي تستحق أن تروى للناس، وأن تحكى لهم. وقد يبتغي الكاتب من وراء قصّها الحصول على إكبار الناس له، أو اثارة اعجابهم به، أو استدرار شفقتهم عليه ... وما الى ذلك من أمثال هذه المقاصد. ولكن الغرض، مرة أخرى، ليس هو استقصاء كل ما يرد من هذه النصوص أو غيرها، واخضاعه للدرس والتحليل، وانما يتمثل منهجنا، كما دأبنا عليه، في اختيار عدد من النماذج المعبرة التي تمثل مجتمعة أهم وأبرز النواحي الفنية التي نريد أن نقف عندها، وندل عليها.

وعلى هذا الأساس فقد اخترنا أن نتناول بالدراسة أربعة نصوص، لعلنا نوفق، من خلالها، الى تبين مقومات "الأحدوثة" وخصائص شكلها. وقد وضعنا لها العناوين التالية: أ) شقاء الدهر، ب) مغالاة الشعير، ج) الفتاة الأسيرة، د) مسيرة الغرام.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أ ـ شقاء الدهر :

حديث الناس عن بؤسهم في الحياة ، ومتاعبهم في هذه الدنيا أمر من الكثرة والشيوع بحيث لا يشكل في حد ذاته مادة ممكنة للإطراف والإغراب . وإنما تأتيه الطرافة ، إن رزق نصيبا منها ، من كيفية عرضه . والمتفق عليه أن القالب القصصي يستطيع أن يحدث من أنواع التأثير ، وأن يثير من ألوان الانفعال ما قد لا يحدثه ، ولا يثيره غيره من الأساليب النثرية .

ومن أجلّ ما يستحق الدراسة من النصوص المتصلة بهذا الغرض ، رائعة أبي محمد عبد الغفور (1) الذي هو من " البكّائين " المشار إليهم بالبنان في هذا العصر المؤرخ . وهي رقعة استوفت معظم ما ينبغي لهذا الأدب من المواصفات لكي يبلغ الهدف المنشود . ولكن هيّا نبدأ القول فيها من البداية :

موضوعها الرئيسي : غاية في البساطة : فقد ضُرِب مَغْرَمٌ على أمّه ، مع أن أوامر الملك صريحة في إعفاء النساء منه . فهو إذن يلتمس لها أن تُعفى منه . وبدل أن يكتب رقعة عادية في هذا المعنى ، يعرض علينا لوحة للبؤس والشقاء منتزعة من الواقع اليومي .

منذ البداية يحرص الكاتب على أن يشعرنا بالإذعان الكامل للقضاء ، والاستسلام المطلق لما يأتي به من شقاء مرتّب ، منتظِم كأنما رُبط بعجلة الفلك ، فهو يدور معه كيفما دار ، وهو " يتأكد ويتّصل ، وتتولّد أسبابه فلا تفنى ولا تنفصل "(2) .

وكما تدور عجلة الفلك بذلك الانتظام الذي لا يعرف الخلل إليه سبيلا ، يدور بؤسه بألوان من العذاب . وإذا كان في الأسبوع سبعة أيام ، فانظر إليه كيف يحدثنا عما يأتي به كل يوم من ألوان البلايا : " فيوما في سوق قَليسق ، ويوما في طَحْنِ دقيق ، ويوما أقتاتُ فيه بسخت السَّويق ، ويوما أقطعه على الرِّيق ،

(1) أبو محمد عبد الغفور : كان أبوه : أبو القاسم بن عبد الغفور صديقا للمعتمد قبل توليه ، فلما اعتلى عرش إشبيلية اتخذه وزيرا ومدبرا لأمره . ومات في شبابه . أما ابنه فلم يحظ بمنزلة أبيه ، بل عاش حياة كل ما فيها شكوى من الزمان ، كما تدل نصوص كثيرة من أدبه الوارد في الذخيرة . ويبدو أن حاله تحسّنت في دولة المرابطين فقد تولى الكتابة بمراكش ، وشوهد بها سنة 531 . وانظر ذ : 2/1 ، ص : 325 وهامش المحقق بها .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 334 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوما في شهيق، ويوما بالجامدة ، ويوما بالشليق " (1) ، ثم يجمل هذا البرنامج الذى يستغرق الأسبوع كله بقوله : " سبحةُ ألقاب ، لسبحة تأكل شلو الأحقاب "(2) .

ويأبى الكاتب الآ أن يطمئن الى أننا فهمنا ما يريده ، فغاية الفهم ، من أن هذا وانتح كلّ أسبوع في العمر ، لايتبدل شيء فيه ولا يتغير : " تَتَسَعُ جَميع الشهر ، وتجرى كالروح في هذا الدهر "(3) .

هذا هو المدخل الذى يضيء به الكاتب مسرح البؤس ومجاله . فهذا هو عمل الكاتب البائس ، وتلك حياته .

ثم يشرع في عرض المشهد الذى يليه ، وهو يصور لنا فيه البيت الذى يأويه . فاذا بنا نرى بين جدرانه رمزا كبيرا من رموز البؤس والتعاسة ، انها أمه المسكينة " عجوز ، لنوبها المترادفة من يجوز " ومن أبرز علامات شقائها أنها لا تملك شيئا ذا بال يصلح للأكل ، بل ان إناء الأكل نفسه مكسور ، فكأنه اليأس المطبق من أن يحدث ما يغير الرزق الذى يوضع فيه : " وما في اناء رزقها المكسور ، من بلالة سور "(4) . لاطعام ، ولا بقية طعام . كل ما في الدار ينذر بالفقر الشامل . . . . .

ولكن مأساة هذه العجوز مزدوجة : عدوها الزمان يتكالب عليها بالنوائب ، وعدوها سلطان يطالبها بتسديد الغرامة : مرّة لبناء سور ، ومرة لاقامة الجسور ، فيقول ابنها ضاحكا ... " شر المصائب ما يضحك " ... : لم يبق الا أن تجند هذه المرأة المسكينة ، على هذا القياس ، للمشاركة في الحرب ، والاسهام في الطعن والضرب . والغريب في الأمر أن الأمير قد أعفى النساء من هذه الضرائب ، ولكن أم الكاتب ، لشقائها ، تطالب بتسديدها ، فيتساءل الابن حائرا " فما شأن هذه المرأة تُخَصّ بالغرامة ، وتُثَنّى بهذه الحضرة من الكرامة "(5) .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص ، 334 .
(2) نفسه ، ص : 335 .
(3) نفسه .
(4) نفسه .
(5) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الأحدوثة قد صيغت بشكل يبتغي منه صاحبه إثارة الاكتئاب لما يعانيه هو وأمه من نوائب الدهر التي جاءت تصرّفات قُبّاض الضرائب لتضاعف من وقعها الأليم . وهي واقعية دون ريب ، على ما يكون فيها من المبالغة والتهويل المتوقعين .

ونحن لا نلمح فيها طابعا قصصيا ناميا ، ولا حتى ارادة من الكاتب واضحة في سوقه ، والاعتماد عليه ، ولكن نحظ عرض الوقائع من خلال مشاهد متنوعة ، كما رأينا ، هو الذى منحنا إحساسا بتنقل الحدث ، وبالتالي بالسياق القصصي .

وقد برع الكاتب ، من ناحية أخرى ، في اختيار التعابير المثيرة للكآبة التي اختارها شفيعا لقلتمسه . وجاءت الموسيقى الرتيبة البطيئة لتمنح أجواء الكآبة ثقلا تضيق به الأنفاس . وهذا في الفقرة التي يحدث فيها أحزان أسبوعه ، وكأن اتحاد السجعات المنتهية بالقاف ، المسبوقة بمد الياء " فليق ، دقيق ، سويق ... " هو الذى أشاع نبرات الثقل المذكور . وحتى حين خالف التقفية هذه ، مرة واحدة بكلمة " الجامدة " في اليوم السادس فان هذا القطع الصارم بحركة خفيفة ، ثم العودة الى البطء السابق ، والانتهاء به ، قد عمل على تنمية الاحساس بالثقل ، أى بمعاناة الكاتب .

وتختص هذه الرقعة على قصرها بنبرة ختامية من السخرية اللاذعة والتهكم المرير حين يقول متكرا أن تُخصّ وحدها ، من دون كافة الشعراء ، بدفع الغرامة : " أفتراها التي دلّت على ضيعة لرجل ، فتسمحط ، من قاتل الظلم ، هذا السمسوط "؟ (1)

وهكذا دلت هذه القطعة الصغيرة على مأساة كبيرة ، تمتد أبعادها الى كل الشعب الأندلسي الذى أرهق أفراده بمغارم لا تنتهي لمواجهة الأعداء المتغلبين ، أو لجمع ما يشترطونه من المال على المهزومين . وقد يصف أدباء الأندلس أنواعا أخرى من الشقاء ، لا تلازم أصحابها ، كما لازمت أبا محمد ، بل قد تعقبها أيام من النعيم والسعادة ، كما في الأحدوثة التالية التي تصور لنا الماضي البائس لوزير أضحى له شأن خطير .

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 335 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ب ـ خـلاة الشعر .

يقص علينا أبو الحسن بن بسام ماوقع للوزير أبي بكر بن عمار[1] في ليلة تكراء من ماضي أيامه ، في مرحلة بائسة من مراحل عمره . والمؤلف لاينبئنا بمصدره الذي يروي عنه الأحدوثة ، وانما يقول " بلغني عنه " وهي عبارة تدلّ على ماتمهده ، في كل وقت ، من ولوع الناس بالبحث عن ماضي من يَلُوح في الآفاق نجمُه ، ويسمو لديهم مقامه . وليس يهمنا أن تكون الحكاية قد وقعت على النحو الذي رويت لابن بسام أم لا ، وانما المهم في منهجنا هذا أنها تورد على أنها واقعية ، وتقص على أنها شيء مقتطع من سياق حياة حقيقية .

تبدأ الاحدوثة بما يرسخ في نفوسنا الماضي الشقي لأبي بكر بن عمار ، حتى لايتسرب الينا ظن ما بأن ما حدث له هو شيء طارىء ، فاجأه به ظرف مُلِم ، كما قد يفاجأ به أي إنسان . انه قدر مسلط عليه ، لامهرب منه ، اذ " لـزّته احدى لياليه النكرات ، في أيامه المنكرات الى التباع بعض أعيان شلب "[2] . وبما أن الأشياء بأضدادها تتمايز ، فان مشاهد السعادة لها في نفس الشقي وقع خاص ، فقد قصد هذا الرجل المحروم ، في تلك الليلة اللّيلاء أحد الأعيان من سكان مدينة شلب ، وصفه ابن بسام بهذه العبارة : " أحد من طرقت عنه أعين النوب ، وسعد بما كان ابن عمّار شقي به من الأدب "[3] ، وتلك حظوظ الناس تمعن في الاختلاف ، والمنطلق واحد : أبو بكر من شاعر ، ومنها أيضا هذا الوجيه ، وأبو بكر أديب ، وكذلك هذا الرجل ، ولكن ما يسبب سعادة هذا ، يسبب بؤس ذاك .

ويقف الشاعر موقف الذليل المتسوّل ، أمام ذلك الذى " في نعمائه ينقلب " فيتوسل الى بعض الرزق مما لديه ، بأبيات مدح ورجاء " عملها على سبيل قد تنكرت له وتنكر لها ، وبنفس لولا نفاستها لقتلها "[4] .

---

(1) أبو بكر محمد بن عمار شاعر كبير ، ووزير المعتمد بن عباد الشهير ، ظل يرتقي في سلم المجد ، بعد أن عرف الحرمان في شبابه ، كما تدلّ على ذلك القصة أعلاه . قتله المعتمد في خبر طويل ثابت في ذ : 2/1 ، ص : 405 .

(2) ذ : 2/1 ، ص : 369 .

(3) نفسه .

(4) نفسه ، ص : 370 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه الأجزاء من الأحدوثة تشكل التمهيد الذي يجعلنا نتمثل سياق القصة، وظروف " بطلها "، ويضعنا على مشارف أحداثها المركزية . ثم ينقلنا الكاتب الى المشهد الأول من عمله فاذا نحن نرى الشاعر قد فرغ من انشاد قطعة شعره، و " هتك الحجاب عن وجه عذره ". ونحن لا نعلم شيئا عن الشعر الذي مدحه به، وكأنه ليس جزءا من الأحدوثة، وانما الأمر الهام هو ردّ الفعل الصادر عن الوجيه الممدوح الذي " يُسِرّ الى غلامه بكلام قصير " فيخرج الغلام ثم يعود ... وبماذا يعود ؟ ، بمخلاة .... شعير !

وتلتفت الأحدوثة الى الحالة النفسية للشاعر المضطر، فتصفها بهذه العبارات : " فجاشت نفس ابن عمّار جيشة أذهلته عن اسمه، وكادت تسيل عرقا على جسمه "(1).

ما هو الموقف الوحيد أمام اهانة من هذا النوع ؟ هو الرفض، بدون أدنى شك! هو ردّ هذه المخلاة من الشعير لصاحبها . ولكن الحاجة قد تكون - أحيانا - أقوى من الكرامة، والظروف أنفذ وأمضى من المبادئ . ولذلك يَقبل الجائزة الحقيرة لأنه تذكر في عشاء المهر الذي يجوب به المعمور من الأرض بحثا عن رزقه .

وتختصر الأحدوثة كل المسافات، وتضرب عن ذكر ما وقع بعد ذلك، فتضعنا رأسا أمام المشهد الجديد، وقد حدث في السياق مايشبه " الانقلاب المسرحي " في مصطلحات النقاد المعاصرين، فاذا بالضعف يغدو قوة، واذا بالعجز يتحول الى قدرة، واذا بمتسوّل الأمس، صاحب المُهَيْر، الذي يستقبل بامْتِدادٍ من الشعير جزاء عن مدحه بالشِّعر، يُطل في موكب مَهيب، وقد حف به الحشم والخدم، وسار في ركابه الوجهاء والأعيان ... وهو الوزير الجليل الذي تأتمر البلاد بأمره، وتسير وفقا لما يريد، لأنه شريك الملك في مملكته .

ويأبى اليوم المشرق الا أن ينتقم من الليلة النكراء، فيذكر لنا صاحب الاحدوثة كيف سار الوزير في موكبه العظيم الى بيت ذلك الرجل المتبرع بالشعير . وتنقلب الأحوال، وتنتقل المخلاة، هذه المرة من ابن عمار

---

(1) ذ : 1/2، ص : 370 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الى الرجل ، وقد ملأها له دراهم ، ويأبى الّا أن يبيّن له أنه مع ذلك لم ييأس الاهانة ، فيقول له : لوكدت ملأتها لي قمحا ، لملأتها لك اليوم ذهبا ! ...

انه نص رائع ، لابدّ أنّ ابن بسام عمل فيه بكل براعة ليخرجه هذا المخرج اللطيف ، وان كانت مادته منقولة عن غيره . وهو يبدو فيه على جانب معتبر من القدرة على تعاطي " الفنّ القصصي " وتلوينه بالمؤثرات التي تزيده تأثيرا في النفس .

ثم لقد أبدى براعة ملحوظة في بيان انقلاب الأحوال ، وتغير الظروف ، وانتقالها من الاساءة الى الاحسان . وقد عرف كيف يبيّن مقدار هذا التحول في هيأة الرجل وهو " يتلاشى بين الرجل والحياء ، ويتمنى لو ابتغى نفقا في الأرض أوسلّما في السماء "(1).

ولا تخلو روح ابن بسام من ميل الى المثاليات ، وتجسيد المواقف وهو ما نسمّيه اليوم " الروح المسرحية " ، وذلك حين يحرص ابن عمار على اخراج قطعة الشعر التي كان مدح بها الرجل ، والمخلاة المملوءة فضة لتقابل ما كان أخذه منه من الشعير ...

وفي هذه القطعة تظهر روح ابن بسام الحقيقية فهو ذلك الرجل المتديّن الورع ، الذي لم يسق هذه الأحدوثة الا لما فيها من موعظة بليغة . ولذلك نجده يختتمها بهذه الكلمات : " فسبحان من لا منازع له في خلقه ، ولا اعتراض عليه في قسمه رزقه ، له النعمة السابغة ، والحجة البالغة "(2).

كان هذا عرضا لواقع بوس ، آذن الله له بالزوال من صاحبه ، وترك مكانه لنعيم غامر ، حدث بعده ما حدث ، ... ولكن شقاء الناس لا حصر لصوره ، ولا بد أن الوقوع في يد الأعداء ، والمكوث في أسرهم ضرب من أكثر ضروب البوس ايلاما للنفس ، فكيف اذا كانت هذه حال فتاة ؟ ...

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 370 .
(2) نفسه ، ص : 371 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جـ - الفتاة الأسيرة

كلّ مافي كتاب الذخيرة يوحي بأن هذه الحكاية واقعة حقيقية لأنه يذكر سندها " عن أبي محمد علي بن حزم ، عن محمد بن الحسن المذحجي ، المعروف بابن الكتّاني المتطبب "(1).

أما إطار هذه الاحدوثة فهو " مجلس الملكة بنت شانجه ملك البشكنس زوج الطاغية شانجه بن غرسية بن فرذلند " . ويظهر في هذه الحكاية النفس المسرحي أكثر من كل ما تقدّم لنا من هذا الضرب . فالقصة تدور في قصر الملكة حيث تومي الى إحدى الجواري المسلمات اللّواتي كان أحد أمراء المسلمين قد وهبهن الى زوجها الملك ، تقربا منه ، واستعادة بسببه - فيما نقدر - على بعض أعدائه من أبناء جلدته . هذا . . . جانب من المشهد . أما الجانب الثاني منه فهو أنه كان وراء الملكة مجموعة من الفتيات المسلمات الأسيرات .

ويتحرك الحدث في القصة بأن تغني القينة صاحبة العود ، أبياتا من الشعر العربي تدور معانيها على الحنين ، والشوق الى الأحبة ، والتألم لفراقهم ، منها :

خليلي ما للراح تأتي كأنها .·. يخالطها عند المزوج خلوق
. . . سقى الله أرضا حلها الاغيد الذى .·. لتذكاره بين الضلوع حريق

ويقوم هذا الشعر بدور المفجّر ، وينقلنا الى مرحلة أخرى من تطور الحدث ، فاذا بواحدة من الجوارى القائمات خلف الملكة تنفجر باكية ، وينفسح الدمع من عينيها حتى "كأنّهما مزادتان " . وتسرع بنا دواعي الالتياع لبكاء هذه الفتاة التي لابدّ أنها وجدت في هذا الشعر شيئا أفقدها كل قدرة على الصبر .

---

(1) ابن الكتاني من المعنيين بتربية الجوارى القيان وبيعهن . ترجمته وبعض أدبه في ذ : 1/3 ، ص : 319 .
وانظر قصة شبيهة لهذه يحكيها ابن حيان في ذ : 1/3 ، ص : 136 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسألها الراوي عن سبب بكائها . فاذا بالجواب يأتي بهذه الكثافة العاطفية : " هذا الشعر لأبي ، وسمعته فهيّج شجوي "(1).

وتمضي الاحدوثة على هذه الوتيرة من الانفعالات المتصاعدة ، فيسأل الراوي حائرا : " يا أمة الله ! ومن أبوك ؟ "(2) ، وتجيب الفتاة : " سليمان بن مهران السرقسطي "(3) ، ثم تضيف دون أن تكون قد سئلت عن ذلك : " ولي في هذا الإسار مدّة ، ولم أسمع لأهلي بعد خبرا "(4).

والاحدوثة تنتهي عندنا هنا ، وان كان لها ذيل عند صاحب " الذخيرة " ، هو من قبيل التأثر البالغ الذى مازال له صدى في نفوسنا اليوم ، بعد القرون الطويلة الماضية عليه ، فكيف كان لهب وقعه في تلك الأيام . فان ابن بسام يضيف مستغربا : " لم يخبر (ابن الكناني) انه امتعض لتلك أسر تلك الجارة هنالك ، . . . . وكأن تركه لها في الأسر ، مع ما اطلعته عليه من الأمر ، مما يوقد الضلوع ، ويسكب الدموع "(5).

أجل ، هذه الاحدوثة شديدة التأثير في النفس ، لأن موضوعها يوحي بالمشاركة العاطفية في مصاب هذه الفتاة ، والاستجابة الوجدانية لمقاسمتها ما تعانيه من ذل الإسار ، وعذاب الفرقة ، وألم الحنين . وهي على قلة ما فيها من الفنّ المصنوع ، وانعدام الحركة القصصية الحرّة فيها ، قد حققت هذا المبلغ من التأثير . فالشحنة الانفعالية تتأتّى من سياقها بالذات . ولا بد أن الظروف التاريخية المرتبطة بأوضاع الأندلس قد أكسبت هذا الأسر أبعادا تمتد الى واقع الأمة بأسرها ، فكأن الشعب الأندلسي كله هو الأسير . ونحن لا نكاد نعثر في الاحدوثة على شيء من الخصائص الفنية يكون مسؤولا عن هذا الأثر البالغ الذى تتركه في النفس ، غير أبيات الشعر التي تغدو في نظر القارىء وكأنها قيلت خصّيصا لتكون لسان حال الفتاة الأسيرة . ومن الواضح أن الذى أصبغ على هذا الشعر وظيفته " التفجيرية " كما أسلفنا ، هو أنه من نظم والد الفتاة ، فهي قد لاقت فيه أباها ، لقاء الاشارة ، لا لقاء المرء .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 318 . (2) نفسه .
(3) أبو الربيع سليمان بن مهران تحدث عنه ابن بسام باختصار ، وقال انه من شعراء الثغر وذلك في ذ : 1/3 ، ص : 317 .
(4) نفسه ، ص : 319 .
(5) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان مُصاب هذا ، ربما أنسى مُصابه ذاك . وربما وجد الباكي الحزين في دموع غيره ما يبعثه على التجلد ، واستصغار همه مقابل ما يلقاه الآخرون من عنت في هذه الدنيا . فهل يكون هذا رأى ابن زيدون ، لو أنه يقدر له أن يطلع على محنة بنت أبي الربيع بن مهران ؟ وهل كان يجد في قصتها ما يلسيه قصته مع ولّادة ؟ لا ندرى شيئا من كل ذلك ، ولكن الذى ندريه أنه كان يبدى الكثير من الشقاء والبؤس فيما يقصه علينا من سيرة حبّه لها .

د ــ مسيرة الغرام

حبّ ابن زيدون لولادة ، حديث مشهور عند الذين اقتربوا من الأدب الأندلسي دراسة ، أو حتى بمجرد المطالعة والقراءة . ونحن نعرف أكثر ما نعرفه من حديثه عنها في تلك القصائد التي كان يضمنها طورا عواطفه المتأججة نحو هذه التي سلبته عقله ، وارتهنت قلبه ، وطورا نقمته على غريمه وخصيمه : ابن عبدوس . ولكن الذى بدا جديدا علينا أن نلقى ابن زيدون يتحدث عن حبّه هذا الحديث النثري(1) في نص مكتمل الشروط الفنية القصصية ، من حيث إحكام السرد ، واحترام التدرج المرحلي ، وسوق القارئ بحافز شيء من التشويق ، والترغيب في معرفة المزيد من تفاصيل مايروى له .

يبدأ النص كما تبدأ كل قصة . غير أن الأفعال ترد مسندة الى ضمير المتكلم: مما يضفي على الاحدوثة جلباب الواقعية المحض : " كُنْتُ في أيام الشباب ، وغمرة التصاب ، هائما بغادة ، تدعى ولادة .... "(2) ثم يذكر كيف كانت الظروف التي قادته الى لقائها أوّل مرة . وهذه هي مرحلة التبادل العاطفي ، وضرب المواعيد .

وفي المرحلة الثانية يكون اللقاء الذى يتحقق في مكانٍ كلّ ما فيه ينم عن السعادة والحبور : فالطبيعة نفسها قد أقامت فيه عرسا : " روض مدبّج ، وظل سجسج : قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره .... "(3)

---

(1) ممن شك في هذا النص ، ورآه لا يشبه لاكلام ابن بسام ، ولا كلام ابن زيدون محقق كتاب الذخيرة : احسان عباس . راجع ذ : 1/1 ، ص : 430 .

(2) ذ : 1/1 ، ص : 430 .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في هذا الروض ، يقضي المتحابان ليلتهما يتداعيان ، ويتساقيان كؤوس الخمر ، وأكواب الغرام .

ويتقدم الزمان ، ويسايره الحدث ، فحين يأتي الصباح يودعها وينشد من شعره ما يصور لها فيه عن تعلقه بها ، وقلة صبره على فراقها .

ثم يأخذنا النص الى مرحلة ثالثة ، أو مشهد ثالث ، وهو الذي نرى فيه اللقاء لا يتم في الروض ، ولكن في مجلس ولادة ، مما يدلّ على أن العلاقة بينهما قد رسخت واطمأنت . وفي هذا المجلس تُزرع بذور الشقاء ، فان الشاعر يسعد في أول الأمر بما فيه من غناء ويبلغ به الطرب أن يستعيد مقطعا من المقاطع التي كانت جارية ولادة تؤدّي ألحانها . فاذا بالمسرة تنقلب الى حيرة ، واذا بالسعد يتحوّل الى نحس : فقد باتا متخاصمين ، لأن ولادة غارت من التفات ابن زيدون الى جاريتها ، واستحسانه لغنائها ، فحسبته قد أحبها واستبدلها بها .

وتُودّعه بأبيات شعر فيها توبيخ له على ذلك الالتفات ، ثم تكون النهاية المحتومة : فراق لا تلاقيَ بعده ...

والحق أننا نشارك محقق كتاب الذخيرة رأيه حين يقول ان هذا النص " مصوغ في قالب مقامة "(1) بل انه مقامة فيها من مقومات هذا الفن ، واكتمال عناصره ، مالم نجده في أكثرية النصوص التي وردت بهذه الصفة في كتاب " الذخيرة " ، مما كنّا أشرنا اليه في مكانه . وقد ازدان النص بوصف الطبيعة ، ورُصّع بالأشعار ، واستُعملت فيه الأسجاع اللطيفة ... فكان بحق أقرب ما يكون من المقامة .

ويبقى السؤال : لمن هو هذا النص ؟ فاذا كان من المستبعد أن يكون لابن زيدون ، لأننا لا نعرف له جنوحا الى النثر القصصي ، فاننا قد نميل الى اعتباره واحدا من نصوص الكتب الكثيرة التي كانت تؤلف للملوك لتسليتهم ، واتحافهم بالملح والنّوادر(2) .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 430 . هامش الصفحة نفسها .

(2) الكتب المؤلفة من هذا النوع لتسلية الملوك كثيرة ، ومما ورد ذكره في كتاب الذخيرة بالذات ، كتاب " الاغراب في رقائق الآداب " وقد رفعه ابن فتوح الى المأمون بن ذي النون ، وكتاب آخر سماه " بستان الملوك " رفعه الى ابن جهور صاحب قرطبة ، وكتاب آخر لا نعلم الى من رفعه ، عنوانه : " الاشارة الى معرفة الرجال والعبارة " . انظر ذ : 1/2 ، ص : 770 . هذا لكاتب واحد ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ هذا النص يدلّ أيضا على أن غرام ابن زيدون وولادة قد بدأ يتحول الى أسطورة تسرد السامعين تفاصيلها، لمنزلة الشاعر وصاحبته، ومكانتهما في الحياة الاجتماعية والأدبية.

وأيا ما تكون حقيقة هذه الاحدوثة، فانها شاهد على ماذهبنا اليه من أن طائفة من الأدباء قد وجدت في الوقائع الحية، والحوادث التي لا يتطرق الشك الى حقيقتها، مادة صالحة لصياغتها صياغة أدبية تحقق المتعة الفنية، وتفيد في ضرب المثل واستفادة العبرة. وقد رأينا عددا من نماذج هذه الصياغة، وبيّنا أنها اجمالا بسيطة، لاحظّ لها من السرد القصصي الأخّاذ، ولكنها مع ذلك لاتعدم قدرا منه يحقق التشويق الضروري، ويترك في النفس أثرا بالغا، ويحقق الاستجابة الوجدانية والمشاركة العاطفية اللتين هما من الأهداف التي يتوخاها كتّاب هذا النمط من الرّقاع.

واذا كانت هذه النصوص تتوسل الى بلوغ هذه الأهداف بالأوصاف المحزنة، واشاعة أجواء الكآبة في موصوفاتها، فان هناك أنواعا أخرى من النصوص، ذات الطابع القصصي، تقف على طرف مناقض لها، وتروم بلوغ غاية معاكسة لتلك وهي: الاضحاك، واشاعة جوّ المرح والتفكّه، وهي تنتمي الى نوع سميناه: الدعابة.

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

6 ـ في الدّعابة

" الدعابة " صنو " الاحدوثة " لأنهما كلا هما تغترفان من الواقع ، وتستمدان منه مكوناتهما . وهما لا تزيدان في الواقع أو تنقصان منه ، وانما تبلغ كلّ منهما هدفها باخراجه المخرج الملائم لذلك ، وتأويله بما يتماشى معه . والاختلاف الجوهري بينهما هو أن الاحدوثة تعرض ما تعرض بقصد تعميق التأثير الذي لا يخلو من عناصر الحزن والكآبة لتأكيد العبرة والموعظة ، بينما تختصُّ الدعابة في الاضحاك والممازحة ، سواء كان ذلك للترويح عن النفس ، أو للنيل من الخصوم بالسخرية والاحتقار . وسندرس فيما يلي مجموعة مختارة من نصوص هذا الضرب ذاك ، وهي كما يلي : أ) رسول غريب ، ب) من مُنَجِّم الى طبيب ، ج) رد الطبيب على المنجم ، د) في مختبر الكيمياء .

أ ـ رسول غريب الهيأة

من أقدم أنواع الدعابات ، وأسبقها الى أذهان طلاب هذا النوع من الأدب المرح : تلك التي تقوم على أساس الوصف المضحك لخلقة الانسان وما يتخذه من الهيآت ، وما يصدر عنه من التصرفات . وقد وجدنا من أبرز نصوص هذا الضرب ، الرقعة التي كتبها الأديب أبو جعفر ابن عباس[1] الى صديقه الأديب أبي المغيرة بن حزم[2] ، يصف له فيها رسوله الذي قام بتبليغه الرسالة التي كان وجهها اليه .

وأول وسيلة يستخدمها ابن عباس لإضحاك صديقه هي بيان مافي خلقة ذلك الرسول من صفات مستغربة فهو : " طويل القامة ، صقيل الهامة ، بعينيه لبانة ، وعلى أسنانه خُطرامة[3] .

ونرى أن الوصف الجسدي يسلمنا مباشرة الى وصف اللباس الذي كثيرا ما يكون عونا ذا أهمية بالغة في رسم الصورة المضحكة التي يريد المنشيء أن يجمع ملامحها . وهكذا يأتي نعت ما في بعض ملابسه من القذارة امتدادا لتلك

(1) أبو جعفر بن عباس : سبقت الاشارة اليه أكثر من مرة . وانظر ذ : 2/1 ، ص : 653 . وعن ظروف موته وموت أميره زهير الفتى صاحب المرية ، ص : 656 منه .
(2) أبو المغيرة بن حزم : سبق الحديث عنه أيضا أكثر من مرة . وانظر ذ : 1/1 ، ص : 132 .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 645 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الطرامة التي لوحظت في أسنانه . ولعلّ أحد مظاهر البراعة في هذا الوصف عند ابن عباس أنه يمزج الوصف الجسدي ، بغيره من الأوصاف المتصلة بملبس الرسول ، وسلوكه ، ونطقه ومشيه .... فاذا بكل ذلك يعطي صورة مضطربة الملامح ، مشوشة الترتيب ، ولكنها تعبر غاية التعبير عن هذا الشكل البشري الغامض الذي لا يكاد يوجد فيه شيء سويّ . ولنستمع الى الكاتب وهو يرسم بالألفاظ هذه الصورة البشعة .

" طويل القامة ، صقيل الهامة ، بجيديه لياتة ، وعلى أسنانه طرامة ، وفي شاشيّته وضارة ، وفي منطقه لكنة معيبة ، وعلى أنفه عقدة كالكبة ، وفي أطواقه سحة ، .... وفي مشيته تشجّج قبيح كأنه عائم في يبس .... "(1)

ان ارادة الاضحاك خطة ثابتة للكاتب لا يخفيها بل نراه يبحث عن الصور التي تحقق له ذلك ، فان لم يتحقق له بصفة تلقائية من خلالها ، عكف على جمع الايحاءات التي تساعدنا عليه بما تثيره فينا من مشاعر التعجب والاستغراب . وهكذا يصف لنا ما عليه من ملبس بأنه " غفارة شفافة ، شبكية السّدارة " ثم يتبع هذه النعوت بقوله : " وأظن العمالقة غزلت صوفها زمن الفطحل ، والأكاسرة تولت صباغه أيام الصّفر ، كأنها الطيلسان الحربي ، أو التّبان السّعدي "(2) .

وليست هذه الأوصاف الا مدخلا للدعابة ، تعرف ببطلها ، وتصفه لنا ، وتقرب صورته من أذهاننا ، وتعدّنا أعدادا حسنا لتقبل الضحك . ان السرد قصصي ، ولا بد من تحرك ما الحدث ، وتطور في السرد ليستحق صبغته القصصية . ففي المشهد الثاني يسير الكاتب الى هذا الرسول الذي يحمل اليه كتابا من بعض أصدقائه ، فاذا بجمع من الناس يحيط به ، واذا بالقوم يلتفّون عليه ، وكأنما كان الكل يبتغون فرجة على هذا الرجل ذي الهيأة المستغربة .

وحين يأخذ منه الكتاب ، ويفضّه ، يجد فيه من المعلومات الخاصة به ما يساعده على المضي في التندر به ، والسعي الى الإضحاك من أحواله . فهو يكتشف من لقبه ونسبه أنه — " لا محالة ، عبري المنتمى " .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 645 .
(2) نفسه ، ص : 646 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويوحي هذا الانتماء بمشهد ثالث ، لاصلة له بالواقع ، وانما يجريه الكاتب في الخيال حين يعكف على نوع من الاخراج " المسرحي " يظهر به ذلك الرسول في هيأة معدلة بما يكسوه من الثياب ، وما يجعل على عاتقه أو في يده من الأدوات والآلات . وهو يعبر عن كل ذلك بقوله : " لقد هممت أن أوفي الشطارة حقها . . . فأجعل في يده عكاز قصبة خضراء ، وفي رأسه قلنسوة بيضاء ، وأضع على عاتقه خرجا بخالة ، وأقيم من نفسي ومن حضر، عرافة وآلة ، وآخذ به من طرق بني مرداس على قارعة المحجة بين الناس وأقلده من سيف الباجي أبي القاسم ، فانه صفيحة متقشرة لاغرار لها ولا ظبة . . . ."(1)

ويمضي صاحب الدعابة في تحريك خياله على هذا النحو ، انطلاقا من تخيل ما كان يمكن أن يفعله به ، وأن يفعل معه . . . . لولا أنه عصى نفسه ، وألزمها حدود الوقار .

وفي آخر الرقعة ما يفيد بأن الكاتب علم حقيقة هذا الرسول فخجل من تصرفه معه حتى قال : " فلففت رأسي حياء منه ، وتمنيت أن تمر بي البلاد عليه . . ."(2)

وهكذا تنتهي هذه المداعبة التي بناها صاحبها على المفارقات التي كان يعمل على تمتينها في هيأة الرسول وسلوكه ولباسه . ولعلنا لاحظنا أنه لم تصدر عنه أبدا لاكلمة ولا اشارة ، لأن هذا الضرب من الحديث لايحتمله ذلك ، وانما هو يعتمد على المظهر الخارجي ، فكأنه رسم "كاريكاتوري" يتعاطاه الأديب بواسطة الكلمات ، ينفخ في العيوب الجسدية حتى يبرزها ، ويسلط الأضواء على كل ما يسمح بالتشديد على غرابة الهيأة ، وتقوية العناصر التي تبعث على الحيرة والاستغراب "(3).

---

(1) ذ : 1/2، ص : 646 .

(2) نفسه ، ص: 647 .

(3) وقد حققت هذه الرقعة غرضها لدى ابي المغيرة بن حزم ، الذي وجهت اليه ، انظر ذ : 1/2 ، ص : 643 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقطعة عذبة اللغة ، سهلة الصياغة ، سلسة الانغام ، قليلة الاسجاع ، تنصرف غناية صاحبها الى الأوصاف الدقيقة ، والبحث عن النعوت المميزة لهذا المخلوق الذي أراده غريبا في كل شيء .

بيد أننا لا نجد الكاتب يجمع أوصافه لسخرية من عاهة ما كما هو الشأن في بعض الأنواع الأخرى من الدعابة ومثلما نرى ذلك مثلا عند أبي الفضل بن حسداي في المداعبة التي أقامها بين منجم وطبيب .

ب — من منجم الى طبيب

لقد علم الأديب أبو الفضل بن حسداي أنه يوجد بمدينة لاردة منجم يلقب " بالعافية " وقد أصيبت احدى عينيه ، وطبيب بها يلقب " بالبرذُقوم " وقد أصيبت إحدى خُصيتيه ، فما كان أسرعه الى أن يتخذ من هاتين العاهتين مادة لدعابة يتبادلها المصابان : المنجم والطبيب . ونحن لا ندري ان كان لأبي الفضل اتصال بهذين المذكورين ، أم أنه ترامى اليه خبرهما فاستطرفه ، فأحدث بينهما هذه المراسلة الشيّقة . والذي لاشك فيه أن لأبي الفضل بن حسداي اشتغالا " بالتّعاليم " كما يقول صاحب الذخيرة[1] وعناية بعلوم الأوائل ، مما لا يبعد معه أن يكون له اتصال بهذين الرجلين .

يبدأ الكاتب بتدبيج رسالة على لسان المنجم يشكو فيها الى الطبيب مصابه في عينه ، فيقول : " وقد جرعتني أحداث الدهر غصصا ، وعدت مثلوما مُنتقَصا ، مشوها بعد اقتبال الجمال ، موئس اليمين موحش الشمال ، كأبي شق في قفر ، أو حوت موسى في بحر "[2] .

ويبدو الرجل شديد الحساسية من أثر هذا المصاب . فهو يشكو ما نسميه بلغتنا الحديثة " عقدة نفسية " فلذلك يستر عينه بخمار أسود ، ويزعم لنا سائله انما أصيب بالرّمد . . . ومع ذلك لا يعدم سببا للاضحاك من نفسه ، فاذا سقط له ذلك الخمار ، أسرع الى تناوله وهو ينشد قول الشاعر :

---

(1) ورد ذلك في تعريفه به في ذ : 3/1 ، ص : 453 .
(2) ذ : 3/1 ، ص : 475 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سقط اللصيف ولن ترد أسقاطه ". فتناولته وا تقتنا باليد

على أن الذي يبدو أقدر على تسليته من أى شيء آخر انما هو ما رواه صديق له من خبر طبيب اسمه " البرذقون " . فقد جمعهما الحمّام في وقت ما ، فاختار من الصديق لنادرة من هذا الطبيب فلمح انفتاخ احدى خصييه حتى صارت " في قدر الدلاّعة العظيمة "(1). ومن هنا تسلك الدعابة طريقا آخر اذ تصبح عاهة هذا الطبيب هي مادة الاضحاك . وأول ما يبدو من ذلك : البحث عن فضائل هذا الانتفاخ ، ومحاولة اقناع صاحبه ـ وهو الطبيب المداوي ، عادة ، لعاهات الآخرين ـ بفوائده ومزاياه . وأى شيء أقدر على اقناعه من الاحتجاج بأقوال الفلسفة الذين هم أصحاب الحكمة وذوو النظر السديد . ولذلك يروي له قول أحدهم : " أن البيضتين كالمملاقتين تعدلان الجسم ، وتسوسان البدن . . . . واذا عظمت الواحدة ، بانت الخصلة الزائدة "(2). وهو في أثناء ذلك يصطنع لهجة الجاد ، فيدعو له بقوله " أنطاهما الله " لتأكيد ما ذهب اليه من فائدة انتفاخ الواحدة ، فلم لا يرجو له أن تلحق الأخرى بها . . . .

ثم يتخيل المنجم للطبيب مواقف حرجة مع عرسه ، حين يتمثلها وهي تنشده أشعارا يسب بها من أصيب بمثل عاهته ، ولكنه يجد له المخرج الحسن ، ويدله على الحجج التي تجعله المطلوب المحبوب لدى أجمل النساء . . .(3)

ثم يعود الى التفكير في عينه المصابة ، فيبدي نوعا من الغبطة لعاهة صاحبه ، ويتمنّى لو أن الأيام كانت أعطته بالزيادة ما منحته بالنقص ، فيكون له بدل العور بصرٌ نافذ قوي ، يستغني به عن "الاسطرلاب الكُرّي ، والكرة ذات الكرسي " . وهو تمنٍّ فيه مغالطة كبيرة يبني عليها الكاتب المداعبة . فالقياس عنده يقف عند طابع المرض ، فقد جاءت صورته بالزيادة عند الطبيب ، فلذلك يتمنى لو أنه أصيب هو بالزيادة في بصره ، لا بالنقص !

ويعود الى عاهة صاحبه ، فيلح من جديد على مزاياها . من ذلك مثلا قوله : " اذا عظم جرمها ، وكبر حجمها ، تضاعفت في التوليد قوتها ، وتزايدت مادتها "(4).

---

(1) ذ : 3/1 ، ص : 476 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 477 .
(4) نفسه ، ص : 473 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويلجأ الى أقوال الجاحظ في كتاب الحيوان يستمد منها الحجج على بعض خصائص الحيوانات التي اما قدرة الاحبال من بعيد ، اذ تلقح الاناث بواسطة الريح . فيقول له ان فاهتك تجعل لك هذه القوة التوليدية ولذلك يوصيه بقوله : " فاسحب أذيالك فاخرا ، فقد تقدمت أولا وآخرا ، فلك من جهة الانسانية سبقك في الفضائل ، وحلاوة الشمائل . . . " الخ [1]

ومن جهة أخرى فان النص يهمل السياق القصصي الذي بدأ فيه ، ثم يستحيل مرافعة مؤثرة ، يبدي فيها صاحبها مهارة ، تستثير الاعجاب ، في ايجاد كل تلك المزايا لعلّة شنعاء جعلت صاحبها الطبيب المسكين يمشي مشية الحجل . بل ان هذه المشية تضحي أيضا سبيلا للتفكه باعتبارها احدى المزايا الدّالة على الفضائل ، وذلك من حيث أن الذين أرادوا محاكاة الحجل في مشيه ، قد خابوا جميعا : فلا هم أصابوا في التقليد ولا هم احتفظوا بمشيتهم القديمة . أما الطبيب فقد نجح وحقق هذا السبق على الحيوان — الذي أطلقت فيه هذه الأمثال — بَلْهَ الانسان الذي لا يمكن أن يُنتظر منه فوزٌ ما في هذا المضمار .

ويأبى أبو الفضل بن حسداى أن يوقف هذه الممازحة اللطيفة عند هذا الحدّ ، لأنه ، ربما ، رآها لا تكتمل الا اذا أتاح لقرائه أن يتمتعوا بالاطلاع على ما يمكن أن يردّ به الطبيب على المنجم الأعور .

ج — ردّ الطبيب على المنجم الأعور .

يتصور الكاتب أن الطبيب " البرذقون " قد ردّ برقعة على رسالة المنجم المتقدمة ، فيكتبها على لسانه .

تبدأ هذه الرقعة بتأنيب يوجهه الطبيب الى المنجم لأنه " نص بَعَرِه وشكا عَوَره " لكنّه أثنى على شرج الطبيب ، ولم يحفل بعَرَجِه [2] .

---

(1) انظر ذ : 3/1 ، ص : 479 .
(2) نفسه ، ص : 481 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهو يستمير منه طريقته الجدلية ، فيحاول أن يقنعه بأن العور كمال ، وان بدا في صورة النقص . ومما قاله له : " فقد حسبت باجتماع نور البصر وكان متفرقا ، واتحاده وكان مبددا "(1). ولما كان المخاطب منجما ، فان الطبيب يعتمد في محاججته على الكواكب والأقمار ، كأن يقول له : " كالهلال في القمر يطلع في لياليه البيض ، ساطع السناء باهر الوميض . . . فلو جمعت الكواكب منتظمة في القدْر ، لكانت أضعاف البَدْر "(2).

وخلاصة هذه المحاججة الطويلة ، بناء على نفس أساليب المغالطة ، والقياس الفاسد التي كان قد استعملها معه ، هي أن بصره " الآن بحمدالله أجمع نورا ، وأضوأ شعاعا ، وأنفذ نظرا ، وأبعد اطّلاعا ".

وكما كان المنجم يتمثل بالشعر لاقناعه بجمال عاهته ، فان الطبيب يزيّن له العور بمثل ذلك . ومن أمثلته ما يُدهش المرأ لما فيه من طاقة في استخدام القياس الفاسد لإحكام المغالطة ، كقوله :

شَمسُ الضحى يُعْشي العيونَ ضياؤُها .·. الا اذا نُظِرت بعين واحدَهْ

نقصانُ جارحةٍ أعانتْ أختَها .·. فكأنما قُرِنَتْ بعينٍ زائِدَه (3).

وبعد أن يطمئن الى أنه بلغ من اقناعه مايريد يلتمس طريقا آخر المزح والاضحاك ، وهي محاولة بعث الغرور فيه بجماله وحسده المُتَأتِّيَيْن من هذا العور بالذات . وتلعب المفارقات بين واقعه ، وأمثلة جمال العيون التاريخية دورا حاسما في تحقيق هذا التقابل والتضاد اللّذَيْن يريد أن يحقق الموقف الفكاهي من خلالهما . وفي مثل ذلك قوله : " والعقاب الكاسر ، والنسر الطائر ، وابن الماء المحلق بالاضافة اليك خفافيش . . . وقد ازريت بزرقاء اليمامة ، وما يبعد أن تحسب في لحظة ألف حمامة . . . "(4)

ومن نماذج هذا الاضحاك بواسطة التهكم : الإيحاء بأن الاعور يستطيع أن يرى مالايُرى أبدا ، لأنه مستحيل . والطرافة في كل ذلك أن الأمثلة المذكورة مأخوذة

---

(1) انظر في ذلك ذ : 1/3 ، ص : 432 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الميدان الفلكي الذى هو مجال عمل هذا المنجم ، فهو قد يستطيع أن يبشر " بهلال العيد بعد الاجتماع بساعتين ، وبعده عن الشمس بدرجتين "[1] . ولِمَا أوتي من هذه الخصلة التي تجعله مضروب المثل في سداد الرؤية ، ونفاذ البصر ، فان أهل الثغور يبجلونه ويعظّمونه لأنهم وجدوا فيه " رابِئة تنذرهم بالخيل على بعد مراحل ومسافة أيام "[2] .

هذا توسيع ثانوي لفضائل العور الذى منحه قدرةً على الرؤية خارقةً للعادة ، وهو توسيع يمضي في دوائر بعضها ينشأ عن بعض ، فاذا بصاحب العاهة يغدو كاهنا يستطيع أن يتنبأ بالغيب ، ولمّا اجتمع له العَوَر والتكهن بالمستقبل لم يبق الا أن يعتبره بعض الناس هو الدّجّال نفسه . فان قيل : أين الدابة التي يقال انها تظهر معه ؟ فان الجواب عند الطبيب الذى يكتب أبو الفضل على لسانه هو : " انك كنت الدابة ثم صرت بالعور دجالا "[3] وهذا هو قمة التصوير المضحك ، لأنه يقوم على المسخ : فقد كان قبل دابّة ، ثم صار بالعور دجالا ، وهكذا يظهر هو نفسه مرّة في طور الدابة ، ومرة في طور الدجال ، وكل منهما دليل على صحة الآخر . . .

وبعد تشبيهات أخرى بصور المجموعات الفلكية ، وأشكال الكواكب فيها ، ينتهي النص بدعاء يناسب صورة " الحوت " وهو من مصطلحات الكواكب فيرجو له الله أن يلقيه " في قرار اليم العظيم " .

هذه هي المداعبة التي أجراها ابن حسداى هذا المجرى ، وتكلف لها هذه المشقة من اصدار الرقعة الأولى ، واصطناع الجواب لها . ونحن لا نعرف ، للأسف ، السياق الذى وردت فيه الرقعتان ولا يبعد أن يكون من قبيل السخرية ببعض أهل الطب والتنجيم ، أو هو للممازحة والتفكه ، لأنه كما رأينا ، له بعض المشاركة في هذه العلوم القديمة ، وله المام بها ، وسَعْيٌ الى التحصيل لها .

ونحن اذا كنا نطمح في أن نقرأ كلام ابن حسداى ، لنضحك ضحكا صراحا ، فاننا سنصاب بخيبة مؤكدة ، لأننا لسنا هنا أمام هذا الضرب من الاضحاك . وما كان

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 433 .
(2) نفسه .
(3) نفسه ، ص : 434 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاتب يقصد اليه . ولا نظن أنه مما يمكن أن نظفر به في أي نص مما نسبناه الى الدعابة في هذا البحث . وانما هو ابتسام أو " ضحك ذهني " ان جاز لنا هذا التعبير . فنحن نفهم ما يريد أن يتحفنا به الكاتب ، ونجد فيه متعة الدعابة ، ونستجيب لما فيه من ظرف وطرافة . وقد تبلغ مسايرتنا للكاتب أقصاها فنبتسم ، ولا نزيد على ذلك .

وفي النصين تظهر براعة الأديب ، وثقافته العلمية ، واطلاعه على مصطلحات الفلك والطب ، وحسن استخدامه لها والتصرف فيهما .

أما السياق القصصي فكثيرا ما يغفله اغفالا تاما ، ولاسيما في رد الطبيب على المنجم ، فان الرقعة تغدو نوعا من المخاطبة التقليدية ، لا أثر فيها لحدث ينمو ويتطور ، باستثناء المجادلة التي تمر بمراحل واضحة تختلف فيها وسائل الاقناع ، ولكنها تلتقي ـ غالبا ـ عند هدف واحد .

ولعلنا لاحظنا أن النصوص التي استعرضناها الى حد الآن تدور كلها على فكرة الاضحاك البريئة من الضغينة والحقد . ولكن من الكتاب من استخدم الدعابة أسلوبا للاضحاك بواسطة السخرية والاستهزاء اللذين يصدران عن عواطف الحقد والكراهية . وحينئذ تأتي كأنها ضرب من ضروب الهجاء . ويبدو أن " دعابة " أبي عامر بن شهيد التي تحدث فيها عن خالد بن يزيد الكيميائي ، هي من هذا الطراز .

د ـ في المختبر الكيميائي .

هذا نص لابن شهيد مقتطع من رقعة طويلة ، تتناول في جملة ما تتناول ، الحديث عن خالد بن يزيد الكيميائي الذي كان صديقا له ، قبل الفتنة ، في أيام دولة بني عامر ، وهو يقول عنه : " وكنا كثيرا ما نتدارس ضروب العلم ، من أدب ، وخبر ، وفقه ، وطب ، وصنعة ، وحكمة "(1) وهو يقص ما كان وقع له

(1) ذ : 1/1 ، ص : 220 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيبدأ هذه البداية القصصية " وقصدته يوما ... لا ُستريح اليه ، وألقي عن شيئي عليه ، فألفيته قد خلا بها به ، وغاب بوّا به "[1] وليس هذا المكان الذي يقصده الكاتب الا مختبرًا كيميائيًا ، يُجري فيه خالد بن يزيد تجاربه .

ولكن ، ما ان يخطو بضع خطوات حتى يتلقاه صبيّ ، تلقى المتلهف عليه ، ويقول له : قد " طال انتظارنا لك " . ويقوده عبر بيوت ذلك المحل ، وممراته ، فاذا به يصل في النهاية الى " دار ذات أجوان ، قد غشيها دخان ، كقطع الجنان ، تعبق منه صنان ، من زرنيخ ، وكبريت ، وزنجفور ، وأنزروت"[2]

ويتذكر بهذا المشهد ما وصفه القرآن من أحوال ذلك اليوم العصيب في قوله تعالى : " يوم تأتي السّماء بدخان مبين يغشى الناس ، هذا عذاب أليم "[3] .

وتحدث هذه الاجواء فزعا شديدا في نفس ابن شهيد حتى ليهم بالفرار ، ولكنه يجد نفسه ، فجأة ، وقد أفضى به المسير الى مكان توجد به : " أكداس جمر ، وآلات تبر ، وأشخاص سود وصفر " ثم يصل الى بيت فيه " عدة أشباح ، كأنها قباض الا ُرواح ، غرابيب ، كأنهم كلا بيب ، رزادق ، قد تقلدت مطارق ، فلما رأوني صاخوا : فضحكم الواغل ، فامحقوه من عاجل "[4] .

وتهم هذه المخلوقات ، التي وصفها هذا الوصف الشنيع بقتله ، ولكن الوضع ينقلب لصالحه حين تسأله : من أنت ؟ فيجيب اجابة فيها غموض أهل السحر والكهنوت ، اذ يقول : أنا " من أخذ الطلق فسحقه بالمدق ، وشق بيد الذكاء ، عن زهرة الا ُشياء ، فبشر الآباء بالا ُبناء ... "[5]

وتسحر تلك الا ُشباح بهذه الكلمات ، وينقلب كيدها الى مودة ، فاذا بها تعتذر الى ابن شهيد بقولها : " كدت والله أن تلتهم ، وتكون السواد المخترم"[6]

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 221 .
(2) نفسه .
(3) نفسه .
(4) نفسه .
(5) نفسه .
(6) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان الكاتب قد وفق الى معرفة كلمة السرّ التي لولاها لغدا فريسة ممزقة ، ويسأل عن ابي عبدالله (خالد بن يزيد) الكيمائي فيخبره القوم هنالك بأنه " انفرد يرفق ماء بيض ، ويصفق دم حيض ، وغرضه استخراج دهن الحجر الكريم .... "(1)

ويحتال الكاتب ليخرج من هذا المحل الغريب ، فتطير به رجلاه ليبتعد عنه ، وهو يقول : " قد حقن الله دمي بعطفه ، واستنقذني من يدي منيتي بلطفه "(2) وتنتهي القطعة باشارة ابن شهيد الى أن حقد أبي عبدالله عليه انما هو لما راج من حديث هذا الأمر بين الناس ، مع انه لم يخبر به الا جماعة من المقربين استكتمهم هذا السرّ فلم يكتموه .

ليست براعة ابن شهيد بجديدة علينا ، في انشاء مثل هذا الأدب التَّخيُّلي . فحسبنا من ذلك ما نعرفه من مهارة تجلت لنا في "رسالة التوابع والزوابع" التي كنا بدأنا هذا الفصل من دراستنا ، بالحديث عنها .

والنص ذو طابع هجائي ، لاشك في ذلك ، ولكنه نوع منه ، لايعتمد على سرد النقائص ، وثلب الفضائل ... وانما يروم السخرية من الرجل وفعله واظهار حقارة ما يأتي من الأعمال ، باخراجها مخرجا يشينها ، ويؤدي الى التندر والاستهزاء بصاحبها ، وكل ذلك في سياق اضحاك الناس من أفعاله ، وان كانت خطيرة العواقب . وقديما أُثِر عن بعض خبراء الهجاء في الأدب العربي أنه قال : " اذا هجوت فأضحك "(3) .

والحق أن ابن شهيد نسيج وحده في الفنّ القصصي ، واستخدام التصوير الساخر في هذا العصر . وقد أجاد كل الاجادة في نقلنا معه الى ممرات هذا المختبر الذى تتصاعد فيه الأبخرة ، وتقف على جنبات ممراته : زبانية لايهمهم ، كما شاء أن يظهرهم لنا ، الا سحق عظام الناس بعد قتلهم ، واعداد أجسادهم لتكون مادة للاختبارات التي يجريها أبو عبدالله .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 222 .
(2) نفسه .
(3) تنسب هذه العبارة الى جرير صاحب النقائض المشهورة . وهي واردة عند ابن رشيق في " العمدة " ج 2 ، ص : 172 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد أحكم التسلسل القصصي في هذه القطعة حتى فاقت في ذلك معظم النصوص التي لها هذا الشكل ، وجاءت قصة قصيرة فيها الكثير من المقومات الفنية التي تُحدِث التشوق ، وتحقق المفاجأة ، وتكسب المتعة الأدبية .

وقد ساعده على التوفيق في خلق جوّ المختبرات ، ما أشاعه في وصفه من حركة ، وما وفر في أجوائه من معالم تدل على معرفته الوصيدة بأحوال المشتغلين بالكيمياء ، وما بثه في مقاطع رقعته من المصطلحات العلمية ، دون أن يجني هذا الاستعمال على سلامة اللغة أو يضفي على النص لونا من ألوان التقعر العلمي .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بهذا ننهـي الحديـث عن ألوان التعبير القصصي في الأدب الأندلسي ، خلال القرن الخامس . ولعلنا مثلنـا لكل نماذجه غاية التمثيل ، لا باستقصاء كـل النصوص الواردة في ذلك ، ولكن باحصاء كل ما استطعنـا الوصول اليه ، من ضروب هذا التعبير ، وأفانـين أدائـه .

ولقد فوجئنا حقا بثراء هذه النماذج ، وتعدد أشكالها ، وتبايـن أساليبهـا . واتضح لدينا بشكل حاولنا أن ننـقل آثاره ، في هذا البحث ، بأن كبـار أُدبـاء الأندلس في هذا القرن ، وعظمـاء كُتّابهـم ، كانوا في حالة بحث دائم عن صيـغ جديدة تحـقق لهم أصالـة التعبـير عمّـا في ذواتهـم ، وتتـيـح لهم بلوغ التأثير الذي ينشـده كل متعاطٍ للأدب ، في من يخاطـبـه ، ومَنْ ورائـه ، في كل مـن يـقـرؤه .

والذي أدهشنـا أكثـر من غيره أن الصياغـة القصصيـة المتـقدمة لم تجد مـا في جنس "المقامـة " كما كنـا نتصـور ، اذ وجدنا هذا الفنّ فيها باهتا ، حائل اللون ، لا يكاد يلمح فيه شيء من مقومات منشئـه الأصلـي في بلاد المشرق ، عند بديع الزمان . وكأن " حركـة " الصـيغة القصصـية قد اتجهت بأولائك الأدباء نحـو ما سمّـيناه " الاحدوثة " أو " الدعابـة " أو " الحوارية " أكثر مما استحثتهـم الى العكوف على المقامات يقلدون روائعهـا ، ويطورونها بما يضيفونـه اليها مـن فنـيات جديدة تتنـاول أشكالها ومضامينهـا ، وتتـيح لها أن تستجيـب أكثـر لواقعهـم الاجتماعـي .

وقد بينـا ، عند كل لون من ألوان هذا الأدب أن الطابع القصصـي كـان متـفاوتا فيما بينهـا . فـبـيدا يبلغ قمـة البراعـة ، ويقترب من المقاييس العامـة لهذا الفنّ كما نعرفـه اليوم ، بفضـل ما يحدثـه فينـا من تشويـق الى متابعـة السرد ، والتعلق بمعرفة ما تفضـي اليه مراحلـه ، وما تنتهـي اليه من نتائـج . . . نجد أضربا أخـرى لا تشتمـل منه الا على أبسـط معانيـه ، وأشر قوالبـه سذاجـة ، بل انها تخلو في بعض الأحيان منـه تماما ، ولا يبقى من معالمـه الا تطور " ذهني " بلا حظـه فكرًا وتصـوره ـ وممـاـ في سلوك أو فـي حديث " راوي " القطعـة ، ولا نجد له أثرا لا فـي بناء القطعـة ولا في تسلسل أجزاء الخـبر وفقـا لمنهـج معين يتيـح للحدث أن ينمـو وأن يتـطـوّر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وخلاصة الرأى، في الصيغ القصصية عندنا، أن العناية بها كانت واضحة لا ريب فيها. وأن جماعة هم من أكبر أدباء هذا العصر، وأشهرهم صيتا، وأعمقهم أثرا، هم الذين كنا نجد أسماءهم مرتبطة بمختلف المحاولات التي درسناها. ونظن أن وعيا بالفوائد التي يمكن أن تُجنى – أدبيا وفنيا – من هذه الأنواع القصصية قد تحقق في هذه الحقبة. ولو أن أدباء القرن السادس واصلوا السير بهذه الروح من العناية على درب أسلافهم لكانوا، ربما، تمكنوا من أن يبدعوا شيئا ذا بال في هذا المجال، ويحققوا للنثر القصصي تطورا مشهودا. ونحن وإن كنا لا نملك أن نصدر حكما مطلقا على القرن السادس، لأنه ليس موضوع بحثنا، إلا أنه بامكاننا، مع ذلك، أن نشير الى أن مقامات الحريري ستغزو الأوساط الأدبية الأندلسية، وسيكون لها في نفوس الأدباء شأن عظيم(1) فكأنها سدّت طريق البحث، وصرفت الأنظار عن هذه الدروب. على أن رأيا من هذا النوع لا يمكن أن يُبْدى إلا في سياق الاحتمال لأن الذى يرجحه أو ينفيه هو بحث متخصص يكون هذا الأمر موضوعا له.

لقد أتاح لنا الفصلان المتقدمان أن نجوس خلال المعالم الفنية للأدب الأندلسي من خلال أشكاله، وصيغ الأداء التي اختارها أدباؤه، وهي التي رأيناها جانبها التخاطبي وما فيه من أجناس، وجانبها القصصي، وما وقفنا عنده من أضرب وأنماط، بيد أن الدراسة الفنية المتعلقة بالشكل لا يمكن أن تكتفي بمجرد البحث في هندسة النص الخارجية، وقوالبه التي استخدمها الكتاب لبوسا لأعمالهم الأدبية، بل لابد من إجراء دراسة ميدانية للأشكال الداخلية وأساليب التعبير الجزئية المتمثل في العبارة، والصورة، والموسيقى وما الى ذلك من هذه المباحث التي لا تكتمل الدراسة الأدبية الحقة إلا بها، ولا تُتصور بدونها.

مثل هذه المباحث الرامية الى اتاحة كشف النقاب عن خصائص التعبير في النثر الأندلسي، هي التي نتخذ منها مادة حديثنا في الفصل الثالث والأخير من هذه الدراسة.

* * * * *

---

(1) انظر تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة مؤنس، ص: 180.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

خصائص التعبير الفنّي

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث
خصائص التعبير الفنّي

البحث عن " خصائص " للتعبير الفنّي في النثر الأدبي الأندلسي امتداد للدراسة التطبيقية الميدانية التي أجريناها على نصوصه ، والتي كنّا قد استنطقنا ، من خلالها ، مجموعة معتبرة من الرقاع للوقوف عند مميزاتها من حيث المضامين ، والأشكال الخارجية . ولذلك ، فنحن نودّ ، الآن ، أن نتناول بالبحث " المواد الأولية " التي تشكل منها ذاك الابداع ، وأن نعاين طرائق الأندلسيين في صياغة الأساليب التعبيرية التي يوصلون بها ما في أذهانهم من المعاني ، وما في قلوبهم من المشاعر ، وما في مخيلاتهم من الصور . . . الى قراء أدبهم .

وسبيلنا الى ذلك : أن نعمل على هدي حقيقتين منهجيتين ، نحسب أنهما تصلحان أساسا لكل بحث من النوع الذى سنشرع فيه :

أولاهما أننا لن نعمد الى الاحصاء الدقيق ، واستخراج نوع من الجرد القائم على الجزئيات والتفاصيل الثانوية . . . لأن في ذلك اهدارا للنظرة الكلية ، وتغييبا للملامح الرئيسية التي تتشكل منها الصورة المنشودة ، في ركام من الأوصاف الجانبية ، والنعوت الهامشية ، التي تسوء الى وضوح الرؤية ، وتعكر صفو محيطها .

وعلى هذا الأساس فلن نُولّي وجوهنا شطر المصطلحات البلاغية ، ولن نشغل أنفسنا بالحديث عن الجناس وأنواعه ، والطباق وأضربه ، والتشبيه متى يكون تمثيلا ، والاستعارة متى تكون كناية . . . وذلك لايمان قاطع لدينا بأن عرض تحف الأدب العربي القديم على هذا النحو ، لايعمل على ابعاده عن أذواق الناس ، اليوم ، فحسب ، وانما يجني عليه ، بالاضافة الى ذلك ، لأن هذه الطريقة لاتقوى على أن تكشف لهم مافيه من وجوه الجمال الحق ، فيغدو عندهم بضاعة بائرة . وليس في هذا القول معاداة للبلاغة ، أو لدراستها : وانما فيه ، بكل تأكيد ، مجافاة لعدها مقياسا للذوق ، وميزانا للنقد الأدبي .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وثانية الحقائق : أنه لايجوز لأحد ـ فيما نرى ـ أن يفهم من المعنى الاصطلاحي لكلمة " خصائص " انه إيجاد سمات تكون كلها مقصورة على الأدب الأندلسي في هذا العصر، دون أي شيء آخر . أو أنها له كالوجه للانسان، لايشاركه في ملامحه أحد أبداً، الا أن يكون توأماً له .

والواقع أن الأمور في الأدب عامة، أعقد بكثير من مثل هذه التبسيطات المخلّة . أما نحن فلا نطمع في أكثر من استنباط مجموعة من الظواهر الفنية التي يكثر ورودها في هذا الأدب، والتي تتألف قسماته، وسماته المتميزة من مجموعها، ومجموع خصائص مضمونها وشكلها الخارجي .

وواضح أن الفرق شاسع بين أن تكون الخصائص مفردة، وتدل وحدها على هوية معينة، فكأن كل واحدة منها " علامة متميزة " مقصورة على صاحبها، وبين أن يكون تركيب تلك " الوحدات " على نحو ما، هو الذى قد يعطي التخصص، ويمنح الانفراد، ويتيح التميز .

وفي سبيل بلوغ هذا الهدف، أو وضع علامات بارزة في الطريق اليه، ارتأينا أن ندير هذا الفصل على المباحث الستة الآتية :

1 ـ مقومات العبارة .
2 ـ الآثار الوجدانية .
3 ـ أنواع التنغيم .
4 ـ أبعاد الصورة .
5 ـ ألوان الزخارف .
6 ـ حقيقة الأصالة .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

1 — مقومات العبارة

في نظريات النقد الأدبي، عند العرب كما عند غيرهم، مجموعة من المصطلحات يحسّ الدارسون، بكل قوة، دلالتها، ويجدون في نفوسهم آثار مفاهيمها، ولكنهم لايكادون يهتدون الى بيان كامل لحقيقتها، ولا الى تعريف مدقق لها. وحسب أن كلمتي "البلاغة" و "الفصاحة" في نقدنا العربي، هما من هذا القبيل (1).

وآية ذلك أننا اذا تساءلنا: ما الفصاحة ؟ أوما البلاغة ؟ لم نجد اتفاقا، أو ما يشبه الاتفاق، بين أصحاب الاختصاص — قديما وحديثا — في الاجابة عن سؤال من هذا النوع .... فقد قيل، على سبيل المثال: البلاغة للمعاني، والفصاحة للألفاظ، وأنكر آخرون أن يكون للألفاظ المفردة نصيب منهما (2). ومع ذلك فان أوضح ما بامكان المرء أن يخرج به من تلك الآراء المتباينة: أن الفصاحة والبلاغة، كلتيهما، من أعمدة الجمال الفني الثابتة في العبارة، وأن وصف احدى العبارات بهما يلخص، وحده، جانبا هاما من الاعتبارات التي تُكسب بفضلها الى الجمال والحسن، كما أن انعدامهما فيها، يلسبها الى القبح والرداءة.

ومما يصلح أن يكون شاهدا على هذا المذهب، كثرة ما نجده عند الكتّاب الأندلسيين من وصف للرقاع التي تنال رضاهم، "بالفصاحة" و "البلاغة". وهكذا، لانظننا نشط عن الصواب اذا زعمنا أن شكلا من أشكالهما، على الأقل، يعدّ أحد مقومات الجمال الرئيسية في عبارة النثر الأندلسي. ولذلك كان من المهم، لبحثنا هذا، أن نقف عند بعض الأقوال التي صدرت عن الأدباء الأندلسيين في هذا المعنى.

فمن ذلك، مثلا، وصف أحدهم للرقعة التي وصلت اليه من صديقه بقوله: " ولما وردكتابك غاية الفصاحة، وملتهى البلاغة والملاحة .... فبا للكتّاب من كتاب قصر وطال، وجمد قلمه وسال، نتيجة برهان مقدمتاه: الطبع والبراعة، والجزالة والاصابة، جمع بين مبدإ البلاغة وآخرها ... "(3)

---

(1) في موضوع الغموض الذي يكتنف المصطلحات النقدية، يمكن مراجعة كتاب " نظرية المعنى في النقد العربي " لمصطفى ناصف، دار الأندلس 1981، ص: 8، 9.

(2) انظر حديثا مفصلا عن ذلك في كتاب " تاريخ النقد العربي " لزغلول سلام ج 1، ص: 66 وج 2/عند الحديث عن عبد القاهر الجرجاني، ولاسيما ص 216 و 219، (طبعة دار المعارف) وأنظر أيضا " كتاب الصناعتين " لأبي هلال العسكري، ص: 6 و 7 وما بعدهما.

(3) ذ: 2/1، ص: 910.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان الالحاح على معنى البلاغة والفصاحة ، هذا الالحاح البيّن ، في أسطر قليلة كهذه ، قد يوحي بأن مضمونهما الفني واضح ، مفهوم . والواقع أن الكاتب لا يزيد على أن يمنحهما دلالة خاصة يراها في " الطبع والبراعة ، والجزالة والاصابة " ولعل كلمة " الملاحة " - وهي أشد غموضا من المفهومين السابقين - تلخص الفكرة العامة التي هي : جمال هذه الرقعة التي يتحدث عنها . بيد أنه لا يمكننا أن ننكر أن كلمات " كالطبع " ، و " الجزالة " و "الاصابة " ، تنطوي على دلالات تطبيقية أكثر وضوحا ، وأبين حدودا من البلاغة والفصاحة ، حين يأتي ذكرهما بالاطلاق .

وربما نوّه الأدباء بالبلاغة دون الفصاحة ، غير قاصدين في ذلك الى تبجيل هذا المفهوم على ذلك ، بل ان سياق الحديث يأتي كما لو أنهم يرون البلاغة والفصاحة شيئا واحدا ، أو أنهم يجعلونهما ضمن آفاق أوسع ، كما يفعل صاحب الفقرة التالية عندما يقول : " تحاميت المفاتحة هيبة لبراعة احسانك ، وبلاغة يدك ولسانك ، ومن ذا ينازعك رتبة البيان ، ولو سحب ذيول سحبان ، أو نطق بلسان حسان ... "(1)

فها نحن نجد أنفسنا ، هذه المرة ، أمام مفهوم جديد أدق من " البلاغة " وهو "البيان " مع أنه أوسع منها وأشمل . فدقته لا تأتي من ضيق مجاله ، بل انها تأتيه من هذا الاتساع بالذات ، لأن المصطلح يشير الى مجموعة لا تحصى من الأساليب التي يستعملها الكاتب ليجعل تعبيره قريبا من النفوس ، وواضحا في الأذهان . وفي هذا المدلول يقول إمام البيان في الأدب العربي : أبو عثمان الجاحظ : " والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع الى حقيقته ، ويهجم على محصوله ... "(2)

وعلى هذا ، فبعد أن تبين لنا من مقومات الجمال في العبارة بالبلاغة والفصاحة ، يظهر لنا أن بعض الأدباء قد مدّوا حدودها الى البيان .

---

(1) ذ : 2/2، ص : 672 .
(2) كتاب " البيان والتبيين " للجاحظ ، تحقيق هارون ، (ط . القاهرة) ج 1/ ص : 76 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بيد أن الذين تناولوا الحديث عن هذه المقومات، في معرض كلامهم عن الرقاع التي أعجبهم أدبها، ومدحوا أصحابها ببراعتهم، وكفاءتهم الفنية، لم يسلكوا كلهم هذا المسلك المتمثل في استعمال المصطلحات النقدية والبلاغية المشهورة. بل ان منهم من عبر عما يعتبره جمالا في تلك الرقاع بصفة ذاتية محضة، هي أقرب الى "التأثرية" أو "الانطباعية" كما تسمّى في مذاهبنا المعاصرة ... من ذلك هذه العبارات التي وجهها أحد الأدباء الى صديق له في وصف كتابه اليه: "وردني لك كتاب أراني كيف يكون الكلام درّا، والبيان سحرا، وبطون المهارق حدائق، وما بين مدب الاقلام بوارق، فلله يد نمنمت وشيه، ونظمت حليه، وقريحة اطلعت أزاهره، ما أطول باعها، وأكثر في فنون الأدب اتساعها ..."(1)

وقد نظن أن استعمال الكاتب هنا لكلمة "البيان" تقلل من الذاتية الطاغية في هذه الجمل الوصفية. والحق أنها هنا لاتفيد شيئا محددا، على عكس ورودها في الفقرة المتقدمة، ذلك أنها هنا في سياق من الصيغ المجازية، والنعوت الفضفاضة ذات المضامين الانطباعية، وحتى الشاعرية الرومنسية، (الحدائق، والازاهر، والوشي، والنمنمة ...) بحيث لاتثير في أذهاننا مدلولا اصطلاحيا معينا، أو مفهوما تقويميا واضح المعالم. ومع ذلك فمن يستطيع أن ينكر على هذه الأوصاف قدرتها على تبليغنا مدى ما وجده فيها الكاتب من جمال، كان له في نفسه أثر الدرّ، ومفعول السحر، وغدا منه في مثل حديقةٍ أينع نبتها، وعبقت أشذاء أزاهرها.

وللأدباء في هذه السبيل من التقويمات "الانبهارية" ان صحّ التعبير، مذاهب يجمع بينها هذا الاحساس العميق بالجمال، وهذه الرغبة الماكنة في التعبير التصويري عنه. فاذا كانت الفقرة الماضية تصف "الرقعة — الحديقة"، فعامي ذي، عند أديب آخر، "الرقعة — العروس"، وذلك حين يصف كتاب صديقه بهذه العبارات "فاجْتَلِيهَا — أعزك الله — عروس فكر، لحظها حِبْر، ولفظها سِحْر، ومعناها بديع، ومنتماها رفيع، ومرماها سديد"(2).

---

(1) ذ: 1/3، ص: 195.
(2) ذ: 1/2، ص: 195.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وربما لاحظنا أن صاحب هذه الأوصاف لم يستطع أن يمضي بعيداً مع قرائن صورته، حين لم يذكر من العروس الا لحظها ولفظها. ومع ذلك، فان هذا القصور لا يقلل شيئاً من حقيقة احساسه بجمال رقة حديثه، وتطابق الحسن الذى فيها، مع الحسن الذى يكون، عادة، للعروس.

وهكذا يمكن أن نفضي بنا هذه الجولة المختصرة في عدد من تقويمات الأدباء الأندلسيين لرقاع زملائهم، ومراسليهم، الى حقيقة واحدة على الأقل، جلية، لا يمكن أن تخدلها العين المدققة الفاحصة، وهي أن قسماً كبيراً من الروعة الأدبية، والبراعة الفنية يكمن عندهم في جمال التعبير الذى له في النفوس، من الحسن المنبعث منه، أثر الحديقة المزهرة، والعروس المجلوة في أبهى الحال.

وليس بغائب عن الأذهان، أن تلك الأوصاف التي استعرضنا نماذجها، ترجع في أكثريتها المطلقة الى اعتبارات المجاملة، ودواعي الملاطفة التي تكون بين النظراء والزملاء، أكثر مما تدل على آراء تترجم بالفصل مواقف الكاتب، وآراءه الحقيقية، واقتناعاته الثابتة. ولكن هذا الواقع لا يغيّر شيئاً في الخلاصات التي وصلنا اليها، لأننا لا نؤرخ للنقد، ولا نعرض آراء الأدباء على المقاييس التطبيقية لنرى صدقهم أو عدمه فيما ذهبوا اليه، وانما يتلخص هدفنا في مجرد معرفة القيم الأدبية المثالية، المتصلة بجمال العبارة، وطبيعة المقومات الفنية فيها. وقد وجدنا في الأقوال السابقة الشهادات التي كنا نبحث عنها لنتخذ منها أساساً لبعض آرائنا في هذا الفصل.

على أننا لا نحب أن نأخذ في ذلك قبل استيفاء هذا الجانب من الحديث باستعراض صورته السالبة التي تساعد على تبيّن الملامح الايجابية، فمعرفة الفضائل قد لا تستبين الا باستحضار النقائص بازائها، و"بضدها تتمايز الاشياء"، كما يقولون.

وبعبارة أوضح، فكما أدرجنا عدداً من الشهادات التي فيها مدح لرقاع الأدباء بالبلاغة والفصاحة، والبيان، نريد أن ندرج ما كان منها يتضمن الغمز والقدح بالعيّ والفهاهة، وقصور العبارة، أي، باختصار، بانعدام البلاغة والفصاحة والبيان.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن أوائل ما ينبغي أن نقف عنده رأي أبي المغيرة ابن حزم[1] في كتابة ابن عمه الامام أبي محمد بن حزم الظاهري[2] وهو على هذا النحو : " معنى كصدى الانسان . ولفظ كمُتْهَجّات الاكفان ، . . ورطانة تمجّها الاسماع ، وتجْتَويها الطباع ،"[3] ويشبه كلامه " بكلام الحُكْل ، وسِرَار النَّمْل " ثم يوصي نفسه بالاعراض " عن رطانة الزُّط ، وصفير البَط"[4].

كلام قاس ، لا ريب في ذلك ، ولكننا لسنا هنا بمعرض وزن نصيبه من الحق أو الباطل ، وانما نرى فيه مقياسا من مقاييس أدباء هذا العصر حين يبيلون عن نماذج الرداءة في نظرهم .واذا كانت الأحكام المتعلقة بالمعاني لاتهمنا ، فان ما يتعلق منها بأشكال العبارة واضح دقيق لأن أوصافا " كالرطانة ، وسرار النمل ، وصفير البط " تدل بجلاء على ما يأتي نقيضا للابانة والفصاحة ، وتؤكد مكانتهما في سلم القيم الجمالية .

وحين أحب صاحب " القلائد " أن يعرف بأدب كاتب لايعجبه أدبه ، ولا ترتاح نفسه الى مايكتبه ، لم يجد ما يغمزه به مثل قوله : " انه بادي الموج ، وعر المنهج له ألفاظ منعقدة ، وأغراض غير متوقدة "[5].

وهكذا فان التوعر ، والتعقيد ، وأضرب التقعر ، مما يسيء الى السمعة الأدبية ، ويزري بانتاج الأديب . ومع أن هذا الكلام يقال في واحد من الأدباء المعدودين في نوابغ هذا العصر ، فانه على جانب كبير من الصواب ، وليس مجرد قدح وهجاء لا أساس لهما من الصحة[6]. وقد نضرب على ذلك أمثلة توضيحية فيما بعد .

ومن قبيل التشهير بالاستغراب ، والتقعر في التعبير ، أن صاحب الذخيرة يعرّف أحد الأدباء بميله الى هذه المسالك فيقول : " وكان . . . . يستعمل وحشيّ الألفاظ ، ويخاطب العوام بكلام لو خوطب به رؤبة بن العجاج مافهم عنه "[7].

---

(1) عرفنا بأبي المغيرة بن حزم مرارا .
(2) ومثل ذلك يقال عن الامام ، أبي محمد بن حزم .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 162 .
(4) نفسه .
(5) قلائد العقيان ، ط . بولاق ، ص : 60 .
(6) كلام الفتح بن خاقان في القلائد : عن الأديب أبي محمد عبد الغفور (ذ : 1/2 ، ص: 325)
(7) ذ : 2/3 ، ص : 318 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نرى هذا الحكم ، يؤيد الحكم السابق ، وكلا هما يدل على نفور جلي من التوعر في التعبير ، والاعتماد على وحشي الألفاظ ، وغريب العبارات .

وعلى هذا ، نستطيع ، بكل يسر ، أن نلخص النتيجة التي وصلنا اليها ، والهدف الذى بلغناه من طريقين متعارضين بأنه : وقوف الكتّاب الى جانب الفصاحة والبلاغة بمعنى الابانة الميسورة عن القصد ، والسهولة في التعبير ، وتحقيق الجمال بواسطة ذلك . وقد حدا هم هذا الموقف الى أن يبدوا جانب الجفاء لكل ما يشتمّ منه الابتعاد عن هذا القصد ، باعتماد الألفاظ الصعبة ، والمباني التعبيرية التي يعسر طرق الافهام لها ، أو تتطلب من القارئ والسامع جهدا لاستبانة حقائقها . ومن هنا يتجلى أن الحسن في الأسلوب الأدبي الأندلسي عنوانه : السهولة ، واليسر ، والقوة البيانية الكاشفة . فكيف كانت حقيقة الممارسة الأدبية في ضوء هذه القيم الجمالية ؟

من الأمثلة التي نريد أن نسوقها على مبلغ ما قد يكون في القطعة النثرية من الجمال ، والحسن ، المنحدرين اليها من سهولتها ، ورقة صياغتها ، وبساطة تعابيرها ، الفقرة التالية في التعريف برجل أذلته الحوادث ، وتنكرت له الأيام : " رجل من الثغر وجوه الأطراف امتحنته الأيام في النِّعم ، أوان الشّيَخ والهرم ، وابتلته بذل الأسر ، وطول الشقاء في دار الكفر ، وبحسب حاله في الثروة ، ومكانه من النجدة ، اشتُطّ عليه ، وأُخِذ منه في الفداء جميعُ ما لديه ، وارتُهِن أولادُه في بقايا بقيت عليه . . . ."(1)

لو فتشنا هذه المقطوعة غاية التفتيش لما أُنْبَأنا منها بشيء يرجع الى الزينة أو الزخرف ، يصلح تفسيرا لجمالها البادي . فلا تصوير فيها ، ولا مجاز ، ولا تنميق ، ولا شيء أبدا من أدوات التوشيح التي ربما أشعرت البراعةَ الكامنةُ فيها بمعنًى من معاني الجمال . بل انها في تقشفها ، وتجردها من حلل الزينة ، والتزامها جانب البساطة المتناهية في تراكيبها ، والسهولة التي توشك أن تكون من قبيل السُّوقية والابتذال في مفرداتها ، تعجبنا وتترك في نفوسنا ارتياحا شبيها بذلك الذى تجده النفس البشرية ، كلما أتيح لها أن تقف عند مظهر من مظاهر الابداع ، أو آية من آيات الحسن والجمال .

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 311 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وحـــن لا ننكر الاثارة في موضوعهـــا الذى يحـــرض محنة من محن الانسان حـــين تعبـــس له الأيام ، وتقلب له الدنيا ظهـــر المجن . ومع ذلك فليس يكفي لاشعـــار الناس بالجمال أن نضرب على أوتار البؤس والكآبـــة . فلم يبـــق اذن الا أن نعترف بأن في البساطـــة ، والوضوح ، واليســـر ، جمالا مؤكـــدا اذا عرف الأديب كيـــف ينجو بها من مزالق التفاهـــة ، والسذاجـــة والسطحـــيـــة .

ويمكـــن أن نعد من هذا القبـــيل أيضا هذه المرافعـــة اللطيـــفة التي أدارهـــا أحد الكتّاب على الشفاعـــة لرجل من الأدباء بلغ من الكبر عتيّـــا ، ونال منه ضعـــف الجســـد ، وضعف الحال كل منال ، فقال مخبرا عنـــه : " قد تحـــيفـــت الأيام قـــواه ، وتخونت الحادثات عراه ، وقربـــت الثمانـــون خطـــاه ، فاختلـــج بنانـــه حتى كأنه لـــم يتعلـــق من الكتابـــة بأطنا ب الإطنا ب ، ولا تصـــرف من البلاغـــة في سهو ب الإسهاب ولا عُدّ في الدواوين من صدور الكتّـــاب . . . "(1)

ان معظم ما قلناه عن المقطوعـــة السابقـــة ، يصدق الى حدّ بعيـــد على هـــذه ، فنحن لو عمدنا الى نسيـــج النص ندرسه ، لما وجدنا فيه غير تلك السهولة والبساطـــة اللتين تبعثان على التأثر الهادئ بما يعانيـــه هذا الشيخ الأديـــب من أحـــوال الدنيـــا وهو في هذه السنّ المـــتقدمـــة من عمـــره . ان كل عبارة في هذه الفـــقـــرة تحمل قدرا من الايحاء بضعـــف هذا السنّ . وهو ضعف ليس فيه خَوَر ، أو تهالـــك ، أو قصور همّـــة ، وانما هو طبيعـــة ، أو هو قَدَر لا سبيـــل الى ردّه أو الاعتراض عليـــه : فالأيام هي التي " تَحَـيَّفَت قواه " . والثمانون هي التي " قَرَّبت خُطاه " . والتعبير الحرّ ، الطليـــق ، المقتـصد في زخرفـــه ، ولكنـــه يأخـــذ مع ذلك هنا بحـــظ مـــن التأنـــق المتأتّـــي عن التلاعـــب بالألفاظ ، هو الذى يؤدي تلك المعاني بتراكيـــب تحدث الشعـــور بالجمال الفـــني ، وتحـــقق التأثر المنشـــود من وراء وصف هـــذا المشهـــد البائس من حياة الشيخوخـــة . ولذلك تأتي التراكيـــب ، في بساطة بنائـــهـــا ، وسهولة مفرداتـــها ، وهي تحمـــل ما يحـــقق الغايـــتين ، كقول الكاتب : " فاختلـــج بنانـــه حتى كأنه لم يتعلـــق من الكتابـــة بأطنا ب الاطنـــا ب " . ان فعل " اختلج " ألطف وأرقّ من فعل " ارتعش " أو " ارتعـــد " فهو قد اختير لخصائـــص دلالتـــه ،

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 211 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالاضافة الى نعومة معناه . ثم ان الكاتب لم ينسب مضمونه الى الجسم كله أو الى الذراع ، أو الى اليد ، وانما نسبه الى " البنان " ، وهو أشد ايحاء بامساك القلم ، ومن خلال ذلك بالكتابة .

وفيما عدا هذه الظواهر، فان الفقرة قد توفّر لها من الأنغام الموسيقية ، والنبرات المتولدة عن التلاعب بالألفاظ ، والتناسب في الحروف ، ما يجعلها جديرة بكل اعجاب . وواضح أن حسنها لا يأتي من تجردها من ملابس الزينة ، فان أمسا من تلك الملابس ما رأينا ، وانما كانت زينة خفيفة لا تثقل الجسم ، ولا تضايق الانفاس . أما سهولة التعابير ، ويسرها ، وبساطة مفرداتها ، وقرب مأتاها ، فهي من القيم الواضحة للعيان ، بحيث لا تحتاج منا الى أن نقول عنها أكثر مما قلناه عن القطعة السابقة .

على أن ما ينبغي المسارعة بالاشارة اليه هو أن انعدام الزينة أو قلّتها ، اذا ما وجدناهما في بعض النصوص ذات الجمال والقدرة على التأثير ، فليس معناه أنهما شرطان من شروط الحسن ، لا يُتصور الا معهما . والحق أن لدينا بعض النماذج ذات الزخارف اللفظية الكثيرة ، والايغال في طلب أسبابها ، والتعلق بأضرب كثيرة منها ، ومع ذلك فانها جميلة حقا ، تؤثر فينا تأثيرا مباشرا . بل أن منها ما ليس لها حتى جلال الموضوع ، الذى يمكن أن يُعزَى اليه التأثير ، واحداث " الحالة الجمالية " التي يتقبل فيها الوجدان الكثير من التعابير التي ربما لم يتقبلها في أوضاع أخرى .

من هذه النماذج ذلك الوصف الذى ورد لابن ابي الخصال [1] في السراج الذى يكتب على ضوئه . ولنورد منه ، بعض التراكيب ، لمعرفة حقيقته ، قال : " الريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجّاج ، فطورا تسدّده سِنانا ، وتارة تحركه لسانا ، وآونة تطويه حَبابة ، وأخرى تنشره ذُوابة ، وتقيمه إبْرة لهب ، وتعطفه بُرَةَ ذهب ، أو حُمَة عقرب ، وتقوّسه حاجب فتاة ذات غمزات .... وربما نصبته أُذن جواد ، ومسخته حَدَقَ جَراد ، ومشقته حروف برق ، بكف وَدْق ... فلا حظ منه للعين ، ولا جِدَاية في الطِرس لليدين " [2] .

---

(1) ابن أبي الخصال : (465 — 540 هـ) سبق التعريف به . وانظر ذ : 3 / 2 ، ص : 786 .
(2) ذ : 3 / 2 ، ص : 792 ، والرقعة موجهة من ابن أبي الخصال الى ابن بسام .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ليست هذه الأوصاف الرائعة إلاّ لسراج حاول صاحب النص أن يكتب على ضوئه رقعة ، ولكن الريح كانت تعبث به ، فتجعل الكتابة على جانب كبير من العسر . فهو يصف آثار ذلك العبث . فهذا غرض لانستطيع أن نزعم انه يداني تلك الأغراض الانسانية التي رأيناها ، قبل ، عند الشفاعة لمن أخذ منه أولاده لعدم قدرته على تسديد مبلغ من المال مضروب عليه من العدوّ المتغلّب ، أوعند التوسط لأديب شيخ ثقل عليه حمل الأيام . كلا ، فليس في وصف السراج شيء من هذه الشحنات العاطفية المستمدة من المضمون ، وانما نحن هنا أمام براعة فنية ، يهز جمالها نفوسنا هزّا ، فاذا بحثنا عن مسببات ذلك الإطراب لم نجد غير قدرة الكاتب على رصف التعابير الدقيقة ، في سيل من الزخارف اللفظية التي مردّها الى رصد كل حركة من حركات السراج ، وأداء الصور التي يكتسيها بمجموعة من التشبيهات الموحية بأجزاءَ شتّى من الجمادات والمخلوقات : برة ذهب ، حمة عقرب ، حاجب فتاة ، أذن جواد ، حدق جراد الخ ..... بل ان القارئ ، وهو يتابع الكاتب في هذه الطفرات ، وهذه القفزات التي ينقله عبرها من صورة الى صورة ، ليحس بضوء السراج وهو يتمايل ، ثم يستقيم ، ويذبل ، ثم ينبعث على أشده ، ويضعف حتى لايبقى منه الا وهم في البصر،ثم يقوى حتى يكتمل حجمه ومداه..... وكل هذا يضع ابن أبي الخصال — فيما نرى — من بين أبرع الوصّافين في هذا العصر . وهو قد كشف عن مهارة فنية ، وقدرة على الأداء ، وتحكم في اللغة ، ترشحه لنيل ما شاء من إعجابنا به .

ومع ما في هذه الجمل من صنعة ، وما ينتظم أسلوبَه فيها من زخارف لم تأت الا بكد الخاطر ، واجهاد الفكر ، ورشح الجبين ، فاننا لانعثر فيها أبدا على لفظ مستكره ، أوكلمة وحشية ، أو تعبير غريب ... بل ان المفردات لتأتي في غاية السهولة من ذلك النوع المستأنس ، المعهود ، الذى لايثير فهمُه أى نوع من الإشكال .

لعلّنا الآن نستطيع أن نفهم حق الفهم ماذا كان يعنيه أولائك الكتّاب ، الذين بدأنا هذا الفصل باستعراض أقوالهم ، حين كانوا يمدحون رقاع أصحابهم بالبلاغة والفصاحة والبيان .

ان مايصرف من هذه المصطلحات الى العبارة لابدّ أن يعني وجها من وجوه البساطة واليسر اللذين لاحظنا مقدار ما يحدثانه من جمال في التعبير الأدبي ، سواء جاء قليل

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العناية بالزينة ، مقتصدا في الاقبال عليها ، أو كان من النوع الحافل بالزخارف والتزاويق ، ما لم تخرجه عن حدود الذوق السليم .

وليس يكتمل هذا المبحث الا اذا أومأنا فيه الى بعض الأمثلة من التعابير التي لم تتقيد بهذه المعطيات الجمالية ، وكانت من النوع الذي ذمه الكتاب لأخذه بما سمّوه بالتقعر ، والتوعر ، والاغراب ، في أقوالهم التي أسلفنا ايرادها لهم .

من هؤلاء الشيخ أبو عبد الصمد السرقسطي (1) الذى استدعاه بعض رفاقه لمجلس أنس برقعة منها : " أنا .... في مجلس قد عبقت تفاحه ، وصفت أقداحه ، وخفقت فوقنا للطرب ألوية ، وسالت بيننا للهوى أودية ، لكنا ، لنأيك عنا ، مقلة سال إنسانها ، وصحيفة بُشر عنوانها " (2) .

ولسنا في حاجة الى بيان رقة هذه الفقرة ، واشتمالها على عناصر ذلك الجمال الذى زعمنا أن مبعثه السهولة واليسر والبساطة ... ولكن هيّا بنا ننظر في جواب أبي عبد الصمد ذاك ، فقد كتب يقول :

" فضضت أيها الكاتب العميم ، والحِبْر المِصْقَع الصميم ، طابع كتابك ، فمنحني منه جوهرا منتخبا ، لا يشوبه مَشْخَلب ، ... دلّ على وُدّ تحيّيتَ لي عليه ضلوعك ، ووثيقِ عَقْدٍ انْتَدب كريمُ سَجيّتك اليه ، فسألت فالقَ الحَبّ ، وعامرَ القلب بالحُبّ ، أن يصون لي حظي منك ، ويَدْرأ لي النوائب عنك . ولم يمنعني أن أصرف وجه الاجابة الى مرغوبك ، وامتطي جواد الانحدار الى محبوبك ، الاّ عارِضُ ألِمٍ ألَمّ ، فقيّد بقيْدِه نشاطي ، وزوّى براحته بساطي ، وتركني أتململ على فراشي كالسَّليم .... " (3)

لعلّ عيب هذه القطعة أقرب الى العي ، بمعنى قلة الفصاحة والتقصير في أساليب الابانة ، منه الى ما سمّي تقعيرا أو اغرابا ، فان ما فيها من كلمات

---

(1) لا نعرف عن أبي الصمد السرقسطي الا ما قاله عنه صاحب "الذخيرة" من أنه شاعر مستبرد ، وكاتب لا يحسن الا التقعير والاغراب . وكان فيما يبدو مقربا من بلاط بني هود بسرقسطة . وانظر ذ : 3/2 ، ص : 318 .

(2) ذ : 3/2 ، ص : 820 . والرقعة لعلي بن خير التطيلي ، كما ورد في هامش المحقق.

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تخلــو من وحشــيــة ، وغرابــة مــثل : المصـيم ، والمصقــع ، والمخشلب ، لا تبلــغ في التوعــر شــأوا كبــيرا ، ولا تشكّــل أهم جوانب النــقص في العبارة . والحق أن ما يسوء هذه الجمل ، وما يعد فيها عيــبا قاتــلا لكل معاني الابداع ، ينأى بصاحبــه عن خصال البزاعــة الفنيــة ، هو هذا الانقبــاض في العبارة ، وهذه الأغلال الثقيلــة التي تبدو مقيدة بها ، فهي لا تنطلــق بالقارئ ، ولا تسيــل ، ولا تتــدفق ، ولا تتــيح لقارئها حتى الاسترسال دون شعــور بالالتواء ، والعسر . ولننظــر الى مبلغ ما في قوله التالي من التعقيــد : " دل على ودّ جنيت لي عليه ضلوعك " فان فصــل " حتى " اذا بني للمجهــول عمدا على قدر غير قليــل من اليبــس والجفا ف ، فكيــف اذا فصل بينــه وبين نائــب فاعلــه بلفظــتين تمنعــان الاسترســال والمدّ من مــثل " لي " و"عليه " ويأتي نائب الفاعــل نفســه ، في غايــة الخشونــة : "ضلوعك " . . . ولننظــر أيــضــا الى قــلــة توفيــقه في هذه العبارة : " لا يشوبــه مشخلــب " كيــف نزلت منهــا حروف الشــين ، والباء والخاء ، أسوأ منزل ، فكانــت العبارة مســتــثقلة مستبردة ، تنــفر منهــا الأذواق ، وتمجهــا الأسماع . أما قولــه في آخر الرقعــة : " تركني أتململ علــى فراشــي كالسلــيم "(1) . فان هذه العبارة من السوقــيــة ، والعاميــة ، والابتذال ، بحيث نعجــب كيف يمكــن أن يرد مثلها على لسان كاتــب ، كيفمــا كــا ن نصيــبــه من البراعــة .

ولو أحــبــبنا أن نضرب مثــلا ملا ئما من الكلام المنطوى على العبارات الــتي يمكن وصفها حقّا بالوعورة والتقعــير ، لما وجدنا خيرا من بعض فقرات أبي محمــــد عبد الغفور الذى عابــه صاحب " قلا ئــد العقــيان " بذلك كما أسلفنا . ولننظر في رقعــة ممّــا كتبــه ، قــال :

" لعمرى . . . . لربّ أعجم هَجِــر فأفْصَــح ، وأجْذَمَ عُيِّرَ فَــقَدَح ، وإنْ لَــمْ يُسْتَأْلَفــا بَعْدَ الإِفْصَاح ، وما شَق من كُلفــة التّحامُــل في الاقْتِداح ، لم يُوءْمَنــا على ذِكر مَيْــت ، واحراق بَيْــت . فللــه من احتال لتخلصــه ، ولم يُعْجــب بتخصّصــه ، ودفــع بِيَدِ جَلَدِه ، في صَدرِحُسَّدِه ، وفي هذه الجُملة بَلاغ لو ارتَضَيْــتَ بها مُتَنَــقِّصًا ، ولــم تَرتــي بالاقتصــار عليهــا متخــرصــا . . . . "(2)

---

(1) السليم : يقصد اللديغ ، من باب تسمية الشيء بضدّه ، جريا على التفاؤل له .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 326 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا حاجة بنا الى التطويل في إيراد مثل هذه الأمثلة من كلام أبي محمد الذي يصاب في أحيان كثيرة بمثل هذه المتمات، حتى ليغدو ضربا من الطلا سم، لا حيلة في فك ألغازه، أو هتك حجبه الكثيفة. وهو لا يأتيه التوعر من استخدام الألفاظ النادرة الاستعمال، أو الموغلة في غرابتها، فان هذا أقل جوانب عيوبه، وان كان وجوده حقيقة لا سبيل الى التقليل من أثرها، وانما مأتاه الرئيسي من ضرب من التراكيب يحدث الضّجر في الفؤاد، والبلبلة في النفس، لما يكون فيه من الإبهام، والغموض في المدلول، والجري وراء نوع من المجاز لا يقرب الصورة من الذهن، ولكنه يباعد بينهما. وعلى سبيل التمثيل: أين هي النفس التي ترتاح لمثل قوله: "ودفع بيد جلده، في صدر حسّده" ....

وليس هذا الحكم القاسي على أبي محمد بمانعنا من الاعتراف بأنه، حين يتخلص من هذه الأثقال، يغدو كاتبا قيما بكل احترام، مؤهلا، بجدارة، لاحتلال المكانة التي يحتلها في موكب كبار كتّاب هذا العصر. وقد عرضنا أكثر من مرّة للنماذج من كلامه الجميل، ذي الأثر البعيد، وان كان يحقق هذا التأثير بكثرة التشكي والتباكي على حظه العاثر.

وهكذا نستطيع أن نتحدث عن البلاغة والفصاحة باعتبارهما فرعين متكاملين لمفهوم واحد تبلورت كل أبعاده في ضرورات الابانة عما في القلب والذهن، على أنهما أوكد مقوّمات الجمال لعبارات الأدب الأندلسي النثرى في هذا العصر.

ولقد حاولنا في الصفحات الماضية أن نبيّن، بالمبادىء النظرية، ثم بالأمثلة التطبيقية، أن هذه المقومات ليست مجرد اعتبارات نقدية أو بلاغية مطلقة، لا يربطها بالواقع الأدبي حبل متين، وانما هي خلاصة تجارب الكتّاب يتبادلون الثناء بها، ومثاليات الممارسة الانشائية، يتساقون كؤوس الفخر بها، حتى اذا هبت عواصف الغضب عليهم وعكرت صفاء الرؤية بينهم، هبوا الى تبادل الشتم والقدح بالتجرّد منها والافتقار اليها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد رأينا نماذج متنوعة من النصوص التي لمحنا فيها ذلك الجمال المحبب الى النفس ، المطرب لها ، المدخل لنفحات المسرّة عليها ، فوجدناه يصدر — بصفة أساسية — عما يكتسبه النسيج الداخلي للعبارة من سهولة ، ويسر ، وبساطة . ورأينا ، من جهة أخرى ، أن بعض الأدباء قد اتقنوا أساليب الزخرفة اللفظية وحذقوا استعمالها ، من غير اللجوء الى التضحية بتلك القيم الأولى ، فبلغوا قمة الابداع . أما أولائك الكتّاب الذين كانت تفلت منهم — في الحين بعد الحين — وسائلُ السيطرة على أنفسهم ، فينساقون ، شاعرين أو غير شاعرين ، وراء الألفاظ يحتونها من صخر ، والتعابير يُركّبونها تركيبا فيه أنواع من التعقيد ، والصورة يُكرهونها على أن تأتي من بعيد ، فانهم أفرغوا الأدب من أحد معانيه الرئيسية : وهو الافهام ، وبذلك أخلوه من قيم الإبانة ، فخلا من الفنّ ، وخلا من البراعة ، وخلا من تحريك الوجدان ، الذى هو غاية كلّ فنّ .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

2 — الآثار الوجدانية .

كما أشرنا ، مرات عديدة ، خلال هذا البحث ، الى ظاهرة التحول الكبير الذي أصابه النثر الأندلسي عندما اقتحم الحصون المنيعة التي كانت تفصل ما بينه وبين أغراض الشعر التقليدية . ثم رأينا ، بالتفصيل ، كيف انقلبت الآية في كثير من الأحيان ، فغدا النثر هو المتربع على عرش التعبير في جميع مجالاته ، وأضحى الشعر هو المزاحم المتطلع ، الذي يريد أن يحتفظ لنفسه بمكان ما في غمرة ذلك الاكتساح الشامل .

بيد أن اتساع النثر لأغراض لم تكن من " اختصاصه " ، وحيازته لموضوعات كانت بعيدة عن طبيعته ، على ما لهما من أهمية ، لا يغنيان الباحث عن ضرورة التساؤل عن حجم وصورة الآثار الوجدانية فيه . ذلك أن الشعر العربي ، غنائي في أكثريته ، ولاسيما في أغراضه الأكثر اتصالا بالمفهوم القديم للشعر ، وهي المجالات نفسها التي كثر دخول النثر لها ومطالبته بموضوعاتها ، وتناوله لمعانيها .

واذ لم نستحسن أن نتساءل عن غنائية النثر ، لما في هذا المصطلح من دلالة قوية الارتباط بالفنّ الشعري ، فاننا اعتبرنا أنه بامكاننا أن نبلغ الغاية نفسها بالبحث عن الآثار الوجدانية فيه ، أي بعبارة أخرى عن حقيقة " شاعرية النثر " ، ومدى سريان الروح الشعرية فيه .

ونحن نودّ ، في البداية ، أن نجلو بعض ما سجله فريق من الأدباء من ملاحظات لهم بهذا الصدد . فاننا نرى ، دائما ، أهمية كبيرة للآراء التي تصدر عن الأدباء في قضايا الأدب الذي يعالجونه . والحق أن الكثير من تلك الملاحظات لتدل على غاية الدقة تنبئ عن مدى ما يتمتعون به من احساس مرهف ، فهم عرفوا أن أهم ما يميز الصيغ الشعرية هو تلك الرقة التي تكتسيها تعابيره ، وتلك الطريقة الخاصة التي تمكنه من التعامل مع مشاعر الانسان ، ومخاطبة مراكز الاحساس العاطفي فيه ، فاهتدوا الى معرفة ما يشبهها ، أو يذكّر بها في المقطوعات النثرية المتميزة بطابعها الوجداني ، ودلوا على ذلك .

فهذا ابن بسام ، يترجم في " الذخيرة " للشاعر الكاتب ابن زيدون[1] ، ولعله كان من أوائل من دفع النثر دفعا الى المنحى الشاعري ، فيقول متوقفا بأدبه :

---

(1) أبو الوليد بن زيدون عاش ما بين 394 و 463 هـ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

" وسع البيان بسطا ونشرا ، الى أدب ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر اقترانه ، وحظ من النثر غريب المباني ، شعري الألفاظ والمعاني "(1).

هل نطمع في اشارة — من النوع الذي نبحث عنه — أدق من هذه التي تتحدث بشكل لا يحتمل اللبس عن " شعرية الألفاظ والمعاني "؟ ولكن ابن بسام يأبى الا أن يمنحنا من تفاصيل هذه الملاحظات ما يوحي الينا بأن تلك الصفة في نثر ابن زيدون قد غدت شائعة معلومة ، حتى كان الذين يقرؤون ما يكتبه الى رجال الحكم في شرق الأندلس، يقولون : " تأتي من اشبيلية كتب هي بالمنظوم أشبه منها بالمنثور "(2).

ومعلوم أن أهم ما استرعى الانتباه في تلك الرسائل انما هو ما فيها من رقة لم يكن الناس يجدون مثلها الا في الشعر . وهذه الرقة نفسها هي التي لاحظها كاتب آخر في رسالة صديق له تحدث عنها بقوله : " كتاب أَلَذّ من مراشف الأحباب ، وخطاب أَرَقّ من معاني أبي الخَطّاب ، عمر بن أبي ربيعة ، فله على علمك معان بديعة . . . "(3)

هذه ايماءات تفيدنا في معرفة تصورات الأدباء للخصائص الجديدة التي اكتسبها النثر في هذا العصر . ومن الواضح أن التحدث عن هذه " الشاعرية " جاءت في قالب المدح ومعرض الثناء ، مما يدل على أنها لاقت قبولا حسنا عند الأدباء والنقاد .

ونحن اذا شئنا أن نحلل بعض مظاهرها في أكثر نماذج الأدب في هذا العصر تعبيرا عنها ، لم نجد أحسن من وصف الطبيعة ، فقد نال الحظ الأوفر من عناية الأدباء ، على اختلاف منازعهم ومشاربهم . وهو غرض أقرب ما يكون الى تمثيل الآثار الوجدانية التي نبحث عنها . ولعل التنافس بين الشعر والنثر في الأندلس لم يحتدم بينهما كما احتدم في هذا المجال .

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 336 .
(2) نفسه ، ص : 337 .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 355 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فمن الطبيعة أنواع من الفاكهة حمّلها الشعراء قديما دلالات رمزية خاصة ، وكلّفوها النهوض بوظائف التعبير عن طوايا النفس ومكنونات الضمير حين أهدوها الى من يحبون ، أو أسبغوا عليها أوصافهم وخاطبوها كما يخاطب الخل المحبوب ، ولعلّ التفاح قد نال من عناية الأدباء : شعراء وكتّاب ، ما لم تنل مثله فاكهة أخرى .

وقد أهدى منه بعضهم الى صديق له ، وكتب معه يقول : " لو لم تكن نفسي لك لأهديتها اليك ، ولولا أنه حقك أثبته لديك ، لجلوت وجه مودتي عليك ، متوجها بطيب الذكر ، يرفل في حلل الشكر . . . . والكلفي بشمائلك الشمولة ، وشغفي بخلائقك المعسولة ، بعثت بما يحكيها ولا يدانيها ، ويخبر برياه وطعمه عن بعض ما فيها ، تفاح قطعت خمرته وصفرته من خجلات الخدود ، . . . . نسب الرياض وأفنى عمره غمرها ، فورثته زهرها ، تذكرك أسافله سرر البطون الغلّ ، وطعمه لذاذة الثغور الشنب ،(1)

هذه تفاحة فيها من الفاكهة رسمها وطعمها ، وما عدا ذلك فهي رسول صداقة ، ورمز مودة ، حين تصفو بواعثهما بين اثنين . وأكثر ما فيها من ملامح الشاعرية : التشخيص الذي يبعث فيها الروح فتغدو فتاة ذات خدود ونهود تعبر عن معالم الجمال الروحي الذي يجده الصديق في شمائل صديقه .

ومن الفواكه التي حملها الأندلسيون هذه الدلالات الرمزية : السفرجل ، فقد أهداه أديب آخر الى بعض أصدقائه وقال في واحدة منه : " كأنما لبست من الحرير سرقا ، أو شكت بألوانها وجدا قد برّح بها وأرقا ، بل كأنما سرقت الثديّ طوابع مسك أحمّ ، ضمّت عليه جوانحها اذ خافت الذمّ . . . . "(2)

ويعدد جملة من الأوصاف والصور التي يسوقها بهذا الأسلوب ، يخلص الى مخاطبة صديقه قائلا : " وان محلك من نفسي لخصيب جناب الصفاء ، نقيّ جلباب الوفاء ، فصيح طير الثناء ، صحيح جيب الصناعة والولاء ، وداداً لا يبلغ مداه ، ولا توبس هواجر البعد ثراه . . . "(3)

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 642 .
(2) ذ : 2/1 ، ص : 341 .
(3) نفسه ، ص : 342 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان أسلوب محمد ي السفرجل ، قد اختلف عن أسلوب صاحب التفاح . فالكاتب ، هاهنا ، يوضح الهدية وصفا بطريقته الرمزية ، ثم ينتقل الى الثناء على محامد صديقه ، فكأن جمال الفاكهة ، أو جمال الرمز الذي تنطوي عليه هو الذي ساق الحديث عن المودة التي بين المتراسلين . أما في الفقرة السابقة عليها فان الفاكهة هي التي توحي بشمائل الصديق دون أن يصرح الكاتب بذلك ، وانما يشير اليه اشارة واحدة في البداية حين يقول : بعثت بما " يحكيها ولا يدانيها " ، ثم يترك أوصاف التفاحة تعبر عما في نفسه لصديقه .

وواضح أن أبرز ما يجمع الفاكهتين : التفاح والسفرجل ، في القطعتين هو صورة الفتاة التي يبدوان فيها . ولكن صاحب التفاحة كان أقدر على بعث الروح الشعرية الرقيقة في كتابته ، أما صاحب السفرجلة فقد كان مشغولا بالحديث المباشر الى صديقه .

وربما تجلّت لنا الطبيعة بكل روعتها ، في مقطوعات الكتّاب ، من خلال ظواهرها الكبرى التي سحرت الناس منذ القديم ، مثل المطر ، وعيون الماء ، وما يحدثه الربيع من تغييرات مدهشة في المحيط .

فممّا قيل في المطر وآثاره : " وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق ، غداة الفراق ، وتحكي بنان الكرام ، عند أريحيّة المُدام ، فاستغربت الرياض ضحكا ببكائها ، واهتزت رُفاتُ النبات طربا لتغريد مُكّائها . . . . "(1) وهي أوصاف رائعة تنبئ عن قدرة حقيقية لدى الكاتب على ملاحظة الجمال في كل تظاهراته الطبيعية ، وعن تمكّن من نقل ذلك الاحساس بالجمال الى القارئ أو السامع . وهو يبلغ غاية بعيدة في ذلك عندما يترك الأرض ونباتاتها ، وما أحدثه المطر فيها من تغيير ، ويتوجه نحو " المخاطب " يحدثه حديث النفس التي تريد أن تجلو له أدق الأحاسيس . وذلك في مثل قوله : " فيا برد موقعها على القلوب والاكباد ، ويا خلوص ريّها الى غُلل النفوس الصّواد "(2) . ومع ذلك يبقى أهم مايسترعي الانتباه في هذه الأحاديث التي يسوقها الكتّاب في وصف الطبيعة ، ربطهم اياها ، في أغلب الأحيان ، بتذكر الأحباب ، والحديث عن شمائلهم ، والتغني بمحاسنهم ومحامدهم ، كما يفعل صاحب هذه الفقرات حين يقول : " كأنما استعارت أنفاس الأحباب ، أو ترشّفت شَنَبًا من الثّنايا العِذاب ، أو تحملت ماء الوِصال الى نار البَلبال "(3) .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 290 .

(2) نفسه .

(3) نفسه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا يبدو لنا كأن الطبيعة تشتمل دائما على حسن فيه راحة للعين ، وراحة للقلب ، وهو يذكر بجمال المحبوب ، أو بمودة الصديق .

هذه احدى ثوابت هذا المنهج في الوصف . ولعل في ذلك قدرا غير قليل من العوامل التي تضفي على النثر طابعه الوجداني ، اذ أن ربطه بمعاني الحب ، والغرام ، والمودة والصداقة ، وهي أكثر الأمور اثارة للمشاعر ، وتحريكا للأحاسيس ، يقوّي صلته بالنفس ، ويمنحه التأثير المنشود .

ومما يلتحق بهذه الثوابت أيضا ما جرى عليه الأدباء - غالبا - من تشبيه لجمال الطبيعة بملامح الحسن في الفتاة النموذجية التي تسكن مخيلات الأدباء ، فهم يرون ظلها في كل منظر أنيق ، أو مشهد رشيق . وبامكاننا أن نضرب لذلك أمثلة كثيرة ، منها ما ورد في نطاق وصف عين ينبجس منها الماء الرقراق في روضة غناء ، وهو كما يلي : " أشرفنا على عين كالدينار ، كأنما هندست بالبركار ، ذات ماء وريّان من الشنب والخصر ، وحصباء كالأسنان ذوات الأشر ، وقد حف بها النبات حفيف الشارب بفم الأمرد ، وتزينت بخضرة كالمرآة الصقيلة رُقِّشت بالزبرجد "(1) .

أن في هذه الجمل القصيرة معظم الايحاءات التي تنصرف الى الذهن العربي من السياق الغزلي ، سواء كان بالمؤنث أو بالمذكر . فالشنب ، والخصر ، والأسنان ، وفم الأمرد ، كل ذلك ممّا يشير بقوة الى جمال المحبوب ، ويوحي بالدلالات الغزلية المعتادة . ولذلك فلا نظننا نجانب الصواب اذا ما زعمنا أن الطبيعة في الأدب الأندلسي هي أبدا حبيب جميل ، أو صديق مُوات ، وأن الصديق والحبيب يذكّران دائما بحسن الطبيعة ، ويثيران في النفس معاني جلا لها وجمالها .

وممّا يقوّي فينا الميل الى هذا المنحى من الربط بين الطبيعة وعواطف الانسان ، أننا وجدنا الكتّاب قد يفتتحون رقاعهم الى أصدقائهم بتحيات وملاطفات يستمدون معظم معانيها من الطبيعة الرائقة . وربما كان أحسن ما نمثل به القطعة التالية : " فان كان روض العهد - أعزك الله - لم يصبه من تعهدنا طلّ ولا وابل ، ولا سجعت على أيكه وُرْق ولا بَلابِل ، فان أزهاره على شِرْب الصفاء ثابتة ، وأشجاره في ترب الوفاء راسخة ثابتة ، وقد آن الآن لمقم شجرة أن تُطلع من الثمر ألوانا ، ولأعجم طيره أن تسمع من النّغم ألحانا "(2) .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 681 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 343 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأية رقة هذه التي يخاطب بها الكاتب صديقه ، وأية لوحات متعاقبة ، منسجمة الألوان ، متناغمة الألحان، هذه التي تحمل عن الكاتب الى صديقه نفحات الذكرى الطيّبات ، ونسائم الوفاء ، وثمرات الاخلاص للمودّة ، والالتزام بالعهد . والواضح أنها قطعة من الحياة تضطرب بأحيائها ، وتتحرك بمخلوقاتها ، وتبلّغ عن النفس المؤمنة بالصداقة المخطوبة عواطف الود الصافي ، والمحبة الخالصة .

ولعلّنا لسنا في حاجة الى اطالة الوقوف عند تعبير الكاتب عن هذه المعاني ، فانها تسري من حقيقتها رعشةً في نفوسنا ، وتترك فيها أجمل الأصداء : أزهار نامية ، وأشجار متسامية ، وثمار طيبة متدانية ، وطيور مغردة منتشية . انها السعادة نفسها حين تعبر عن صفاء الحياة .

وانه ليستحيل أن تصدر مثل هذه التعابير ، عن فؤاد لم تسكنه أرقّ الأحاسيس، وأدق المشاعر، ولم تعمُره أفكارٌ في هذا النبل والسموّ عن الصداقة والأصدقاء .

أجل ، ان الأديب الأندلسي قد اتخذ من الطبيعة ، بأوسع معانيها أشجارا ، وأنهارا ، وزهورا وأطيارا ساحة بَوْح ، يكشف فيها عن جوهر احساسه ، ومنبرَ مناجاة، يشف بواسطته عن حقيقة نفسه . وهي له المغنى والمنتدى في ساعات سروره وأنسه ، والملاذ والمحتمى في أوقات حزنه وبؤسه .... ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نقول ان الطبيعة هي الوعاء الوحيد لرقة الكتّاب الأندلسيين ، بحيث تكون محصورة فيها ، ومقصورة عليها . والواقع أن السياقات التي تتجلى فيها تلك الرقة أكثر من أن تحصى أو تعد . ولو شئنا أن نذكر لها مجالات بعينها لأشرنا الى معظم ما ورد في الشفاعات ، والتعازي ، والدعوة الى مجالس الأنس ، وما الى ذلك . ونحب أن نمثل لنمط من هذه الرقة التي جاءت في غير معرض الكلام عن الطبيعة بالرقعة التالية التي أنشأها الكاتب الكبير أبو المطرف بن الدباغ(1) والتي منها قوله :

" أُنا جيك بلسان الضمير ، وأجاذبك فضول اللعب ، وأبلغ معك الى حدّ الطرب ، حتى اسكّن شوقي اليك ، واقضي وطري منك ، وأنت في كل حال لا تشعر ، وذاهل لا تذكر ، .. فمتى نلتقي على حال ، ونتفق مذهبنا في وصال "؟(2)

---

(1) أبو المطرف عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ ، سبق أن عرفنا به وهو كان في بلاط المقتدر بن هود ثم استوحش منه فالتحق باشبيلية عند بني عبّاد حيث حسنت حاله . وانظر مزيدا من أخباره ومصادر ترجمته في ذ : 3/1 ، ص : 251 .

(2) ذ : 3/1 ، ص : 309 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا نعلم الى من كانت هذه الرقعة مرسلة ، وليس ببعيد أن تكون رسالة غزلية ، ولكن الذى لا شكّ فيه لدينا أنها لا تختلف في شيء عن قصيدة الشعر ، ففيها روح الشاعر الملتاع ، ونفسه المتوهجة ، وقلبه الهائم ، وحيرته الدائمة بين هجر واقع ، ووصال يحلم به . . .

وهكذا نرى أن النثر الأدبي حين سما الى غزو مجالات الشعر ، لم يتخلف عنه في رصد تموّجات النفس البشرية ، والوقوف عند أدق تلوناتها . وقد اتسع لهذه الوظيفة الجديدة فعبّر عن حبّ الكتّاب ، وكرههم ، وحمل الينا الكثير من آثار سعادتهم وبؤسهم . . . وكان لابدّ له من أن يستعين ، لبلوغ هدف التأثير العميق ، بمجموعة من الزخارف والمحسنات أتاحت له ما يعوّض به قوالب الشعر الموسيقية ، وطرائقه الشكلية التي مهّدت سبيله اليها أجيالٌ متعاقبة من الشعراء . ولذلك لم يكن عجيبا أن يصطنع الكتّاب لأدبهم أشكالا موسيقية ، وصيغا تنغيمية ، تمنح نثرهم ما يلزمه من الايقاع الذى يضفي على الفنّ الأدبي جانبا هامّا من مقوّمات الجمال فيه .

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

3 ـ أنواع التنغيم

الوزن والقافية هما أهم مصادر الايقاع الخارجي في الشعر العربي، في اطارهما ينشد الشاعر ألحانه، ومن خلالهما يوقع أغانيه . والنثر الأدبي العربي يستطيع أيضا أن يتحلى بأغنى أنواع الايقاع، وأعذب الأنغام الموسيقية من خلال الطرائق الصوتية المناسبة لطبيعته، والتي هي بشكل خاص : السجع والازدواج .

كان السجع قليلا جدا في القرون الأندلسية الأولى، ولم يبدأ في الظهور، على استحياء، الا مع أواخر القرن الرابع الهجري . وقد بينا في الباب الأول من هذا البحث، أن ما وُجد منه في نصوص الكتّاب لم يكن مكتملا في قده، ولا مضطردا في وروده . والحق أن السجع الأندلسي هو ابن القرن الخامس، فيه نشأ نشأته الفنية الواسعة، وفيه استكمل مقوماته، وفيه غدا عنوانا على البراعة قلما يتحشى الكتّاب به، أو يفرطون فيه . على أنه وجد نثر كثير خلا أو كاد من الاسجاع، واعتمد أسلوبا آخر في التنغيم يعرف بالازدواج .

ويبدو أن أوائل كتّاب القرن الخامس، ممن استعملوا الاسجاع استعمالا واسعا، كانوا يشعرون بشيء من تأنيب الضمير، ان صحّ التعبير، وكأنه عندهم بدعة اتبعوها، فهم اذا ذكروها اعتذروا عنها، أو خففوا من وقعها بذكر موجباتها . ولعلّه يمكننا أن نحدّ من هذا القبيل موقف أبي عامر بن شهيد، فانه قد أدرج في "رسالة التوابع والزوابع" حديثا عن السجع، من الزاوية التي أشرنا اليها، اذ أنه وضع على لسان تابعة عبدالحميد الكاتب(1) : أبي هبيرة، هذه العبارات التي يخاطب فيها تابعة الجاحظ(2) : أبا عتيبة، في سياق اللوم والعتاب لأبي عامر : " لا يَغُرَّنَّك ... ما تكلف لك من المماثلة، أن السجع لَطَبْعُهُ، وان ما أسمعك كُلْفَة، ولو امتد به طَلْق الكلام، وجرت أفراسه في ميدان البيان، لصلّى كَوْدَنُه، وكَلَّ برذنه "(3).

فهذا كلام واضح الدلالة في أن المماثلة أجود من السجع، وليس هذا تصويرا ناجحا لرأي عبدالحميد ومنهجه في الانشاء الأدبي فحسب، بل ان فيه

---

(1) عبدالحميد بن يحيى بن سعد العامري بالولاء . اختص بمروان بن محمد آخر ملوك بني أمية . توفي سنة 132 هـ .

(2) عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ : 163 ـ 255 هـ .

(3) ذ : 1/1، ص : 263 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شعورا من أبي عامر بأنه استحدث في الأندلس شيئا جديدا ، الا يكن في نوعه ، ففي الاستكثار منه ، والتقيد شبه التام باستعماله . وهو يشير مع " التوابع " موضوع السجع مرّة أخرى ، واكده ، في هذه المرّة ، يضع على ألسنتهم ما يفهم منه الاعتراف له بالفضل ، والثناء على براعته الفنية فيه . وهكذا نرى صاحب الجاحظ ، وصاحب عبدالحميد يقولان له : " ان لسجعك موضعا من القلب ، ومكانا من النفس ، وقد أعَرْتَه من طبعك ، وحلاوة لفظك وملاحة سوقك ، ما أزال أَفْنَه ، ورفع غَينَه "(1).

ولقد ظلت نغمة الحنين الى أساليب الكتابة التي تنهج مناهج عبدالحميد بن يحيى ، وأبي عثمان الجاحظ ، تطالعنا في الحين بعد الحين ، لدى عدد من أدباء العربية الذين لايرون أي خير ولا أيّ نفع في تلك التعابير المثقلة بزينتها ، البادية على الأخص في تراكيب أسجاعها . ولعله من الطريف أن نجد أديبا ومؤرخا مغربيا من رجال القرن السابع ، يبدي مثل هذا الحنين ، فيثني على أحد أدباء القرن الخامس ، وهو الكاتب الكبير ، والوزير الخطير أبو بكر بن القصيرة بقوله عنه : " أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة ، كان على طريقة قدماء الكتّاب من ايثار جزل الألفاظ وصحيح المعاني ، من غير التفات الى الاسجاع التي أحدثها متأخرو الكتّاب ، اللهم الا ما جاء في رسائله من ذلك عفوا من غير استدعاء "(2) .

والحق أننا لانملك الا أن نلاحظ سيادة السجع في القرن الذي ندرسه ، وقد بلغ من شيوعه وكثرته ، أن قل من الكتّاب من لايكون آخذا منه بسبب ، وضاربا فيه بسهم قليل أو كثير(3) ، وهو لامحالة أنواع مختلفة ، منها البسيط ، ومنها المعقد .

فمن أنواعه البسيطة مايذكر بنماذج القرن الرابع التي كنا نبهنا على خصائصها في وقتها ، ويمكن أن نضرب لها المثال الآتي : " ومن أحدث بحمم الله الممنوحة عهداء ، وأبعدها في التمام والوفور حدّا ، ما أتاحه الله في المُغَالِط المُتَجَب ، القَوِيّ المجيء والمَذْهَب ، فلان ، ضاعف الله إذلاله وإخزاءه ، ووفّاه على ذميم السعي جزاءه ، فان حاله جرت على ما أصفه : سلف من ضلالته في موالاة التحريض للحضرة وسائر أعمالها ، ما أثاره الحسد المُدْوِي لصدره ، والقلق الغالب على صبره ، واتفق له

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 272 .
(2) " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " لعبدالواحد المراكشي ، ص : 227 .
(3) يبعد أنه من الخطأ أن نظن أنه شامل لكل ماأنشىء من الأدب ، فقد خلت منه ، أو كادت ، رقاع لأدباء مشهورين .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من امهال الله تعالى اياه ، وتنكيب الحوادث عن ذراه ، مدّة عمره ، اتفاقٌ أجرّه رسنه ، وأسلكه في الغواية سَنَنَه ، حتى ظن أن الحوادث لا تريبه ، والنوائب لا تنوبه ، وحسب أن الأيدي لا تَمُدُّ الى مطالبته ، والآمال لا تطمح الى معارضته وقديما خان هذا المُعْتَقَدُ أهله ، وأبان لمن سَكَن اليه جهله "(1).

هذه الرقعة اخترناها من انشاء أبي بكر بن القصيرة ، وقد أوردنا كل ما اثبته صاحب "الذخيرة " منها ، لنبيّن من خلالها هذا الأسلوب المنتسب الى القصد والاعتدال في استخدام السجع ، أو في قبول ما يرد منه عفو الخاطر ، وبلا استدعاء ، كما قال صاحب " المعجب " .

وأول ما نبدأ الاشارة اليه أنه ليس عفو الخاطر ، وليس واردا على الكاتب من غير استدعاء . بل انه مطلوب ، ومقصود ، وانما اقتضى ذوق الكاتب ، وطبيعته الأدبية ، ومقوماته الفنية أن لا يكون منه في كلامه الا هذه المقادير البسيطة . والذي هو أشبه بالحق ، وأقرب الى الصواب ، أن نعترف بأن ابن القصيرة لا يريد منه أكثر من هذا القدر ، وأن الذي يحول بينه وبين صُوَرِه المعقدة هو مذهبه الأدبي ، وليس قِصَرَ باعه ، أو قلة بضاعته .

ولننظر في أسجاعه . فانها متباعدة ، بين السجعة والأخرى جملة طويلة . ثم إنها ليست غنية النغمات ، لا تحدث في الآذان ذلك الايقاع المتواتر ، وانما هي أقرب الى الفواصل ذات النبرات الخفيفة ، التي تستريح لها الاسماع ، منها الى المقاطع الموسيقية التي تحدث الطرب والاهتزاز . ويكفي لبيان ما قلناه أن نعرض على أسماعنا هذه الفواصل : " المعجب ـ المذهب " و " صدره ـ صبره " و"اياه ـ ذراه " وتريبه ـ تنوبه " و " مطالبته ـ معارضته " .

ومما يلتحق بهذا النمط من السجع الذي يصطنعه صاحبه مع ما فيه بحث عنه ، وعناية به ، ولكنه لا يخرج الى التقيد به ، والالتزام بايراده ، والغلو في تركيبه وتعقيده ، ما كتبه أبو المغيرة بن حزم : " وأرجع من كتابك الى ما رَكَضَ جوادَ المزل ، وشهر سلاحه ، ونشر علمه ، وشبَّ زَبُونَ حربه ، وأوقد وطيس فِتْنَتِه ، بل الى ما مَدّ بساطه ، ونشر أنماطه ، وأماط عَمْرَسه ، وحرّك أو تاره ،

---

(1) ذ : 2 / 1 ، ص : 275 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولبّه أدباره .... وزمّر في بُوقه ، ونقّر بطن دُفّه ، ورقص على ايقاع لحنه ، فقلّس في أختانه ، وطرطر في قرونه ، وبرّبر في رعي ضانه ، وترهّب في غير خالقه ، ولم يدع من الجد طرفا ، ولا للهزل سببا ، الا وتمسك به ..."(1)

والذى يبدو جليا من التمعن في هذا النص أنه وليد صنعة متأنية لاشك فيها . وكل ما في الأمر أن إقامة الاسجاع لم تكن وحدها الشغل الشاغل لأبي المغيرة ... وهو قد بدأ هذه الرقعة بداية من لارغبة له في السجع ، ولا همّة له في ايراد شيء منه ، فالفواصل تنتهي بكلمات لاتقفية فيها ، حتى ليُوهِمَ القارئ بأنه مُعرض كل الاعراض عن ذلك : " الهزل — سلاحه — علمه — حربه — فتنته — " ثم يقبل الكاتب فجأة على السجع ، فاذا به يبدو وكمن لا يريد أن يترك فرصة منه تضيع ، فهو يسعى غاية السعي الى سَوْق ما يستطيع منه : " بساطه — أنماطه — ، كؤوسه — عروسه ، — أوتاره — أطياره ، ..." وبينما يظن القارئ أن أبا المغيرة قد أركبه مطية السجع ، وحمله عليها في دروبه ، يفاجئه باهماله ، والتفريط فيه ، وتركه جملة وتفصيلا ، واذا بمقاطع الفقرة لاتنتهي الى فواصل موزونة ، ولا الى كلمات مقفاة . ثم لا يطاول منه ذاك فيعود الى السجع وفواصله ... وهكذا دواليك ، يتهادانا نمطان في الكتابة : أحدهما يُسْلِمنا الى الآخر ، دون أن تضيق نفوسنا ، أو تسأم هذا الانتقال بينهما . ولعلّ هذا المدّ والجزر في مسايرة السجع ، والانصراف عنه ، هو الذى جعل بعض الأدباء أو المؤرخين يعتقدون بمجيئه عند البعض عفو الخاطر . وهو كما نرى ليس كذلك ، وانما يطلبه المنشئ حينا ، ثم لا يعتسف الطريق اليه فيتركه حتى اذا آنس امكانية جلبه بيُسْر ، ودون مغالاة في قصده أو ترصّده ، أتاح له فرصة الظهور ، وأبدى منه مالا ينافي الذوق ، ولا يشق على الاسماع .

بيد أن السجع الذى اعتد الكتاب به وتنافسوا في ميادينه ، يختلف كل الاختلاف عن هذا ، فذاك عندهم نوع من الوشي الدقيق الذى يبلغ فيه الابداع أوجه ، وتسمو فيه الصنعة الأدبية الى قمة عالية ، وربما بولغ في البحث عنه ، واقتياد المعقد من أنواعه ، فخرج فيه صاحبه كما يخرج كل مشتط غالٍ الى نقيض غايته . ولكننا لن نطلق الأحكام قبل استعراض نماذج من هذه الألوان ودراستها .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 643 .

وليس يدخل في نيتنا أن نرسي أسسا نظرية شاملة لظواهر السجع في أدب هذا العصر، وفقا لشحناته الموسيقية، فذلك مالم نفكر فيه، وانما ارتأينا أن نميز بين أنواع منه بدت لنا ذات فروق شاسعة من حيث طابعها الموسيقي، ونوعية التردد الصوتي الذى تحدثه النبرات المتصاعدة من قوافيها. ثم ان الكلمات التي نستعملها لبيان ما بدا لنا من أنواعه لا نعتبرها مصطلحات ثابتة لها، وانما هي مجرد دلالات نميز بواسطتها بين هذا النوع وذاك.

وهكذا يمكن أن نتحدث عن نوع من الأسجاع نسميه "المُمْتَد" وهو الذى تبدو فيه الأنغام متواصلة، والقوافي مستمرة على وتيرة واحدة، حتى تستفرغ النفَس. ومن أمثلة ذلك: "فيوما في سوق خليق، ويوما في طحن دقيق، ويوما اقتدات فيه بسخت السويق، ويوما أقطعه على الريق، ويوما في شهيق، ويوما بالجامدة، ويوما بالسليق"[1]. ان في هذا المقطع القصير ست سجعات تنتهي كلها بما يجعلها من قافية واحدة، وقد قطعت مرة فريدة قطعا حاسما بكلمة "الجامدة" فأفاد القطع نَفسُهُ الامتدادَ، وأوحى بالتطاول، وهو نفسه الغرض الذى كان يعبر عنه صاحب النص، كما أسلفنا الاشارة الى ذلك، في مكان متقدم من هذا الباب.

ومما يشبه أيضا هذه الطريقة قول الآخر: "بل كيف لا يتحرك نحوك نزاعي، ويتأكد انقطاعي، وبك استشفاعي، واليك مفزعي يوم الداعي"[2]. فكأنّ الصوت هنا قد رَكِبَ دولابا يدور بلا انقطاع.

وهناك نوع آخر يمكن أن نميزه بتسمية "المتواثب" وهو خفيف النبرات، سريع الحركات، يقفز بالقارئ قفزا، لما فيه من تعابير قصيرة، تنتهي بسرعة الى فواصل موسيقية كثيرة النبرات. ويمكن أن نذكر من هذا الطراز العبارات التالية: "ولكنك رأيت سرابا، فحسبته شرابا، وغرّتك دماثة، تحتها غثاثة، وسكون، لا يصلح الى جانبه ركون، ..... والا فصوت عيّ، لا يذهب على ألمعي، ودمع فاجر، لا تروى منه المحاجر"[3].

---

(1) ذ: 1/2، ص: 334.
(2) نفسه، ص: 237.
(3) نفسه، ص: 336.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه القوافي المتقاربة التي تأتي في سرعتها أزواجا أزواجا ، تترجم سورة الغضب لدى صاحبها ، وتعرب بتوترها ، واهتزازاتها المتلاحقة عن مدى انفعال الكاتب ، ذلك الانفعال الذي يصعّده كلاً مّا كأنه رَشْقٌ بالسهام . والعجيب أنه يوقف هذا المدّ المتلاحق بعبارة تطول فيها المسافة بين السجعتين ، كأنها تتيح له فرصة التنفس ، وهي : " واذ قد نبا حدّ عتابك من قرع ذلك الحجر الصلد ، كما أعيا قبل ذلك على ذي عرّة جلد "[1] ، وهي عبارة قليلة الفصاحة ، صعبة في النطق لقلة عذوبة تركيبها وسلاسته ، فكأنها تترجم حقا عن تعب صاحبها ، ومبلغ الجهد الذي بذله . . . ثم تنطلق العبارات القصيرة المتواثبة من جديد ، في قوله ، بعد ذلك مباشرة : "فمن العناء مصاباته ، ومن الدناءة قربه ومداناته ، . . . . فانما هو كذئب في ثلّة ، بأرض مذلّة ، في ليلة بعيدة مسافة الصباح ، فعيدة روعات الصراخ والنباح . . . . "[2]

على أن ما لاحظناه من قصر في هذه العبارات ، وسرعة في تلاقي مقاطعها ، وتوتر في أسجاعها ، يصبح نوعا من البطء والاطمئنان اذا وضع أمام ضرب آخر نعتناه " بالمتراكب " ، ذلك أنه بدا لنا في شدة اسراعه ، كأن بعضه يريد أن يركب بعضا ، فتوحي الأنغام المتصاعدة منه بجموح شديد وتسابق ، وازدحام . . .

ومن الأمثلة التي يمكن أن نسوقها عليه قول أبي محمد بن مالك القرطبي[3] :
" ما رأيت وجها أسمح ، ولا حلما أرجح ، ولا سجيّة أسجح ، ولا بشرا أبدى ، ولا كفّا أندى ، ولا غرّة أجمل ، ولا فضيلة أكمل ، ولا خلقا أصفى ، ولا وعدا أوفى ، ولا ثوبا أطهر ، ولا سمتا أوقر ، ولا أصلا أطيب ، ولا رأيا أصوب.[4] "

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 336 .
(2) نفسه .
(3) عرفنا بأبي محمد بن مالك القرطبي ، ودرسنا النص الذي اقتطفنا منه هذه الفقرة في سياق مبحث المقامات ، في الفصل الثاني من هذا الباب .
(4) ذ : 2/1 ، ص : 750 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان هذا السيل الجارف من الأوصاف التفضيلية ، في جمل ذات قالب واحد ، كأنها تتسابق في ممر ضيق ، تثبت لنا ـ وهي في غرض المدح ـ بتلهف الكاتب على ممدوحه ، تلهف الملق والنفاق ، لأن الغرض هو نيل جوائزه وعطاياه ، ولذلك عبرت الأنغام عن نوع من الاطمئنان مع شدة هذا التدفق ، ولو جاءت نبرة السخط والغضب لغدت ألهبة محرقة ، لمن تقال فيه أو توجه اليه .

ومن نافلة القول أن مثل هذه الترتيبات الصوتية لا يمكن أن تتأتى لأصحابها الا عقب ألوان من المجهودات ، وكثير من أنواع المعاناة ، لأن الكاتب يعكف على قطعته يحبرها تحبيرا كأنه حائك يفوّف زر بيته بكل عناية ، أو مؤلف ألحان موسيقي ينتخب منها ما يلائم ذوق عصره ، وحناجر مغنيه ، ومضامين كلماته ...

ومن الكُتّاب من خطوا خطوات بعيدة في درب هذا الاخراج الموسيقي ، فلم يقنعوا بمظاهره الخارجية التي تنتظم القالب العام للعبارة ، وانما أخذوا يبحثون عن أشكال مستطرفة يُحدثون فيها التلوين الصوتي بين كلمات المقطع الواحد ، وبين مقاطع الجملة الواحدة .

فمما ينسب الى التنغيم بين حروف الكلمات في المقطع الواحد تلك الطريقة الرائعة التي ابتدعها ـ فيما نظن ـ ابن غرسية في رسالته الشعوبية التي سبق لنا أن درسناها . وهي الطريقة نفسها التي حاول الكتاب الذين ردّوا عليه أن يقلدوه فيها ، وأن يستعملوها ضدّه .

ولقد كنا سمّينا تلك الطريقة " المفاتيح الموسيقية " وقلنا رأينا فيها عندئذ ، فلا حاجة بنا الى العودة الى ذلك . وانما الذي نورده الآن هو نموذج ، في سياق تلك الردود ، يمكن أن نلمح فيه مناهج " لزوم ما لا يلزم " ولكن خصائصه أكثر بكثير من مجرد التزام حرف زائد في قافية السجع ، انه استخراج موفق لنغمة موسيقية ثرّية من النغمة السابقة لها . وعندما يتكرر ذلك يحدث في القطعة أصداء موسيقية جليلة تكسب الانشاء جمالا متميزا ، وتفتح طريقه الى القلب ، وتدل على براعة حقيقية عند صاحبه .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من ذلك هذه المقاطع لأبي الطيب القروى في الرّد على "شعوبية " ابن غرسية : "ما هذه البسالة في الفسالة ؟ ما هذه الجسارة على الخسارة ؟ لقد تبرأت ، ومن الملة تبرأت ، وكيف جهلت حتى وهلت ؟ وكيف زللت حتى ظللت؟ أبالحرب تمرست ؟ وفي مجدها تفرست ؟ وعلى شرفها تمطيت ؟ وإلى سؤددها تخطيت ؟ أما تعديت لمّا تعديت ؟ أما وجمت مما هجمت ؟ أما اتقيت مما ارتقيت ؟ ...."(1)

اليست هذه معزوفة موسيقية شكّل ألحانها فنان قدير ، ووزّع أنغامها موسيقار موهوب . ولو سايرنا الرغبة في بيان طرائق هذا اللون من السجع لوجب أن نثبت هنا أكثر مقالة أبي الطيب هذه . ولكننا نكتفي من ذلك بالمثل الذى ضربناه منها .

ومن الأمثلة الأخرى لهذا النمط من التنغيم الداخلي ، وتوليد النبرات الموسيقية من كل لفظة بما يناسب اللفظة التي تليها ، لاحداث سلسلة الأصوات المنسجمة التي تذكّر بالمعزوفة المتكاملة .... هذه المقاطع للكاتب أبي محمد بن عبدالغفور : " أي مُحْتَسَب أنيس وطير ، ومائح من النّعم زَخّار من الخير ، وآهًا لقَاطِع قُطِعَ به مع الفجر السَّاطِع ، ويجيء خَلَصَ من بَحْر لُجَجِيّ ، فاهتاج طَرَب الجَذِل النجيّ .. سَبحَ فَقَبَّح للشَّرْب الصَّبَح ، وصَدَح فَقَدَح لهم من نار الغَيّ ما قَدَح ، ولربما نطق بالتوحيد ، وحِيد عن سَجْدة الشُّكْر كلَّ مَحِيد ..."(2)

هذه الجمل ، على ما فيها من تعقيد ابن عبدالغفور ، المشتهر أمره ، والذى كنا أشرنا اليه في الصفحات الماضية ، تُظهر لنا بكل جلاء كيف يغدو أمر الموسيقى الداخلية للألفاظ فنًّا ، يكاد يقوم بذاته ، وهو ، على كل حال ، يدل على كفاءة عالية في توظيف النَّغَم ، وتوزيعه ، ومهارةٍ لا يمكن أن تُنكر في إحداث هذه الزخارف الصوتية المؤثرة . ويكفي أن نقف قليلا عند المقطع الذى نجا من ذلك التعقيد ، لنرى أي جمال تحدثه في النفس ، هذه الأصوات المتراقصة بين الحروف والكلمات : "سبح فقبّح للشرب الصّبح ، وصدح فقدح لهم من نار الغيّ ما قدح ...." !!

---

(1) ذ : 2/3 ، ص : 726 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 353 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

غير أن أكمل أنواع السجع، وأغناها بالأنغام هو ذلك النوع الذي سمي في "احكام صنعة الكلام" "بالمفصّن "(1) وهو أن تأتي في الجملة الواحدة عدة أسجاع تتلاءم فيما بينها كأن تأتي القافية بين كلمتين، أو ثلاث، أو أربع أو أكثر من ذلك. والذي نراه أن هذا التعريف، وان كان صحيحا من الناحية الشكلية، فانه لا يدل على حقيقة التفنن الذي نلاحظه في هذا الضرب.

ونحن وجدنا بعض أنواعه الجيدة عند الأديب أبي القاسم بن الجدّ. ولعلّ أوضح أمثلة ذلك عنده قوله في معارضته للرسالة الزرزورية :

وَقَدْ آنَ الآنَ . لِعَقْلِم . شَجَرِهِ . أَنْ . تُطلِعَ . مِنَ . الثَّمَرِ . أَلْوَانَا . .
وَ . لِصُحْبِهِم . طَائِرِهِ . أَنْ . تَسْمَعَ . مِنَ . النَّغَمِ . أَلْحَانَا . .

فنحن في هذا التركيب نرى تطابقات ما بين جملتين موسيقيتين يُنَاغِم فيهما كل جزء، جزءا آخر منها. ونحن نلاحظ أن القافية خانت أبا القاسم مرّة واحدة حين جاءت كلمة "النغم" موازية لكلمة "الثمر". ونحن نعجب كيف عزبت عنه كلمة "الوتر" التي تلائم السياق وتقابل القافية السابقة.

وصورة هذا "المُفَصَّن" كما سمّاه الكُلاعي، والذي نفضل تسميته "بالمتقابل"، لمعنى التقابل فيه وزنا وقافية، هي على النحو التالي: المقطع المحوري الذي هو الجملة المدخلية، ثم المجموعة الأساسية: التي تتألف من عدد من العناصر يختلف باختلاف الأوضاع، وهي الجملة المطروحة أساسا للمقابلة ثم أداة الربط التي كثيرا ما تكون حرف عطف، ثم المجموعة المقابلة وتتألف من عناصر ... ويليهما هكذا :

<u>المقطع المحوري</u> (الجملة المدخلية)	. + عناصر المجموعة الأساسية : أ . ب . ج . د . هـ . و . الخ ...
<u>أداة الربط</u> (حرف العطف مثلا)	. + عناصر المجموعة المقابلة : أ . ب . ج . د . هـ . و . الخ ....

(1) "احكام صنعة الكلام" لأبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي، ص: 141.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على ان فارس هذه الصناعة في هذا العصر هو ، غير منازع ، أبو محمد بن عبدون ، فقد ولع بها ، وجاءت عنده منها صيغ طريفة ومتكاثرة ، لكتفي منها ببعضها .

من ذلك قوله في مخاطبة أبي القاسم بن الجدّ :

1 —	يَـا . أَعْظَمَ . مَنْ . لَوْ . سَتَرَيْتَ . بِأَنْوَارِهِ . لَأَمْتَدَيْتَ وَ . أَفخَمَ . مَن . لو . اقتدَيْتَ . بِآثَارِه . لاكتَفَيْتَ
2 —	وَمن أبقَاهُ اللّهُ . لِفَخْرِ . آبَائِهِ . يَمْقُصُلُه . الاّ من يَلِيه . وَ . لِسِترِ . إِغْضَائِه . يَسْدُلُه . عَلَى مُستَحِقِّيهِ . وَ . لِعُذْرِ . أوليَائِه . يَقْبَلُه . عَلَى مَا فِيه . (1)

هذا أحد النماذج الكاملة عند ابن عبدون . ونحن نرى فيه عملا فنيّا دقيقا لا يمكن أن يبلغه الا من أخذ ورقة وقلما وعكف يرسم تعابيره رسما ، ويوازن بينها هذه الموازنة الدقيقة التامّة التي يكون فيها كل عنصر من عناصر الجملة مماثلا ، وموازنا ، ومساويا لما يقابله في قافيته ، ووزنه ، وقيمته الصوتية .

والأمثلة لا تنقصنا عند أبي محمد ، وانما نختمها بالنموذج الآتي من قوله :

1 —	مَا . . . . أرسخَ . وِهَادَ . مَطاوِيهَا . الشريفَة . . وَ . أشمَخَ . نِجَادَ . مَبَادِيهَا . المُنِيفَة .
2 —	وَ . أشْهَر . بِغُرَرِ . المَجد . وحُجُولِه . بطُونَ . مَجَانِيهَا . . وَ . أغمَر . بِدُرَرِ . الرّفْد . وسُيولِه . ظُهورَ . رَوَابِيهَا .
3 —	وَ . أصْفَق . غُيُومَ . كَرَم . تَسْقِيهَا . وَ . أرَقّ . نَسِيمَ . شِيَمٍ . يَجْرِي فِيهَا .
4 —	وَ . أنَق . تَسْبِيحَ . لِسَانِهَا . وَ . أعْبَق . رَائِحَ . أنْفَاسِهَا . (2)

(1) ذ : 2/2 ، ص : 674 .
(2) نفسه ، ص : 676 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومعلوم أن أبا محمد بن عبدون من كبار شعراء العصر، فنحن لا نستطيع أن نفسّر ولوعه بهذا الزخرف بأنه تعويض منه لملكة الشعر المفقودة لديه ، فلم يبق الا أن نقول انه فنّ استهواه ، فأبدى في تعاطيه ، وأظهر في ممارسته كل أنواع النبوغ فيه، وقد أتاح لنا منه نغما عذبا لا يكدره تقصير، ولا يفسده علينا غلو تنبو عنه الطباع ، أو تمجّه الاسماع .

ويحسن بنا أن لا نترك الحديث عن الأنغام قبل التذكير بأن الاعتماد على الأسجاع لم يكن أمرا لا مهرب منه للأدباء والكتّاب، فان منهم من اعتمدوا على الازدواج ، الذي هو تقابل في الأوزان دون القوافي . ومن المسلّم به أن هذا الأسلوب أقرب الى طبيعة الانسان ، وأبعد عن التكلف والتصنع ، ولكنه مع ذلك لا يتيح للنصوص ذلك المحيط الصوتي ، الثري بأنغامه الذي رأيناه في أضرب السجع المركب . واذا كان من أنواع الأدب ما قد يستغني عن ذلك فان منه ما يكسبه التنويع الصوتي جمالا لا ينكر .

ونعتقد أن الحكم في كل ذلك يرجع الى قدرة الأديب على اخفاء تصنّعه ، وايهامه ايانا بعدم الابتعاد عن الطبيعة والفطرة . ولقد رأينا أنغام أبي محمد بن عبد الغفور كيف أساء اليها توعّره ، وميله الى التعابير المستغلقة ، ولجوءه الى نوع من التقعير ، بينما جاء انشاء ابن عبدون ، على ما فيه من هذه الزخارف الصوتية المعقدة ، قريبا من النفس ، ترتاح له ، وتطمئن اليه .

والواقع أن الكتابة الأدبية اذا توفرت لها عذوبة العبارة وجمال الأنغام الموسيقية ، فانه يبقى لها ، من أجل أن تبلغ ضربا من الاكتمال الفني ، تحقيق شروط الصورة الناجحة . فما هي ياترى الأبعاد الفنية للصورة في نثر هذا العصر؟

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

4 ـ أبعــاد الصــورة

الأدب العربي ، شعره ونثره ، أكثره مجاز . فالتعبير المجازى أصل من أصول الخطاب العربي ، ودعامة من دعائم الفن فيه ، ويكفي للتأكد من ذلك أن نستحضر شيئا من القرآن الكريم ، أو من أحاديث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، أو من أمثال الجاهليين وأشعارهم .

ثم ، لما أخذ الكتّاب والشعراء في مناهج الزخرفة والتنميق ، استكثروا من هذا الجنس بالذات ، فبالغوا في التعابير المجازية ، وغالوا في استخدام التشابيه والاستعارات ، وأبدعوا فيها وأغربوا حتى استقل منهم كل ذلك ، وعدّ ، مع غيره من المحسنات ، مسؤولا عن التدهور الذى أصاب الفنّ الأدبي ، والذبول الذى شمل مختلف أغراضه ، طوال قرون من الزمن .

فإذا جئنا الى الحديث عن بعض مظاهره في النثر الأندلسي الذى يعنينا ، وجدناه كثيرا ، شائعا ، ووجدنا منه أنواعا مختلفة : فيها البسيط ، القريب المأخذ ، وفيها المركب البعيد الغور ، وفيها الجميل المقبول ، وفيها المصطنع المرذول .

ولكي يكون لدراستنا هذه اتصال منهجي بما سبق ، فانّه يتعيّن علينا أن نختار مجموعة من النماذج ، تكون ممثلة لأهم الأضرب الشائعة منه في انشاء هذا القرن .

ولعلّه لا فائدة لنا من وراء الوقوف عند الصور التقليدية ـ سواء جاءت في قالب التشبيه أو الاستعارة ـ الّا ما كان منها لبيان أن النثر ، على ما أصاب من تجديد في مضامينه وصيغه ، لم يستطع بعض أصحابه من الكتاب أن يقطعوا أحيانا صلتهم بالقديم ، مما يدلّ على عمق هذه الخيالات الموروثة ، وعدم القدرة على التخلص منها ، حتى عندما يتجاوزها الواقع ، وتبطل العلاقة التي كانت علّة وجودها .

فمن ذلك مثلا هذا التشبيه المستخرج من رقعة يصف فيها كاتبها ما أحدثه المطر من أثر في رياض الأندلس الغنّاء : " فكأن صنعاء قد نشرت على بسيطها بساطا مفوّفا وأهدت اليها من زخارف بزها ، ومطارف وشيها ، الطافا وتحفا "(1).

---

(1) ذ : 1/2 ، ص : 290 .

فان الصورة القديمة المترسبة في مخيلة الأدباء العرب هي سوق صنعاء اليمنية ، الغنية ببضائعها الواردة اليها من الهند والصين والحبشة ، وما يكون فيها من ألوان ناصعة . ونحن نفهم أن يجد امرؤ القيس لذّة في تشبيه ما أحدثه مطره ، الذى وصفه في معلقته ، من آثار في شمال الجزيرة العربية ، بالمناظر الزاهية بألوانها في أسواق البزّ بصنعاء ... أما أن يشعر كاتب أندلسي في القرن الخامس بعلاقةٍ مّا بين طبيعة بلاده غِبّ المطر ، وسوق صنعاء ، كيفما كانت ألوان ملابسها وبضائعها ، فذلك أمر لا يدلّ الا على "سلفية" في الأدب وروح متشبثة بهذه الجزئيات الفنية التي لم يعد لها مفعول في نفوس الناس.

ويمكن أن نعدّ من هذا القبيل أيضا تشبيها من هذا النوع الذى في قول الآخر: "كأن الجميع في رقدة أهل الكهف ، أو على وعد صادق من الصرف والكشف"(1) . ان التمثيل بنوم أهل الكهف من الصور المبتذلة التي لم يعد فيها شيء ينبه اليقظة في الذهن عند ايرادها ، أو يحث الفكر على تخيل حقيقي لأبعادها ، ولاسيما اذا جاءت بهذه الطريقة التي تخلو من كل ابداع: "كأن ... في رقدة أهل الكهف ".

ونختم حديثنا عن هذه الخيالات العتيقة التي لم تعد تنبيء عن نبوغ ، أو على مهارة في تنبيه الخيال بهذه الصورة البالية شكلا ومضمونا : " وأشدّ هذه المصابة المشؤومة ، ابن عباد : الذى سل سيف الفتنة والبغي من قرابه ، وأثار بحر الظلم من مبركه "(2) .

فهل نتصور علاقة خيالية أكثر ابتذالا من أمثال هذه الاقوال المشهورة : سلّ سيف البغي وأثار بعير الظلم ، وشق عصا الطاعة ، وألقى عصى النوى ، وأطار غراب البين الخ ....

غير أن هذه الصور ، بقطع النظر عن مقياس القدم والجدة ، ليس فيها تمثيل واسع ، ولا عناصر متكاملة ينشأ عنها المشهد الحافل بالجزئيات والتفاصيل التي تمنحه الحياة .

(1) ذ : 1/2 ، ص : 84 .
(2) ذ : 2/1 ، ص: 651 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد أشرنا، في الصفحات الماضية، الى مكانة الطبيعة في الأدب الأندلسي، واستخدام الكتاب لها في شتّى أغراضهم. وكما كانت الطبيعة عندهم موضوعا أدبيا، أو غرضا انشائيا، فانها كثيرا ما تأتي أيضا أداة بيانية، ووسيلة من وسائل التزويق والتنميق.

فمن الصور ذات الاعتماد على الظواهر الطبيعية قول الكاتب: "وقد كانت رياض أخباره تزهر عندي بنوّار خلائقه الزكية، التي هي أشهر من فلق الصباح، وتعبق بمحاسنه الرضية، التي هي أسير في الآفاق من هبوب الرياح، فتلطف بنوافح الأرواح، حتى كأنها المصافاة بين الماء والراح، فترتع الأسماع من نضارتها في مرتع خصيب، وترفل من غضارتها في ثوب من الأنس قشيب، فلله هذه المناقب التي جعلت العين حاسدة للأذن، والفضائل التي حاجزت بين القلب والبدن، فكلما ازدادت بالأخبار بضائعها أرباحا، ازدادت النفوس الى تبضعها طربا وارتياحا، وكلما ركضت دُهْمُها في ميادين الفضائل مراحا، استفادت بالإحماد غررا وأوضاحا"(1).

لقد تمّ الانطلاق، في هذه الصورة، من الطبيعة، ولكنها تجاوزتها بعد ذلك الى ظواهر أخرى، سنبين نوعيتها. وأول ما ينبغي أن ندرسه هنا هو العلاقة البيانية بين الأبعاد المختلفة لهذا المشهد المتنوع الذي رسمه لنا الكاتب.

كان الغرض هو الحديث عن شمائل أحد الرجال، وما شاع له من طيب ذكر في البلاد. فطيب الذكر هو الذي أحدث العلاقة في ذهن الكاتب بالأزهار: فالذكر ينتشر في المحيط، كما تفوح الروائح العطرة من الزهور. ولما كان مجتمع الأزهار في الروضة، فان الروضة انتقلت في المعنى الى أخبار ذلك الرجل. وهذا هو مفهوم الاستعارة أساسا. ولو أن الكاتب وقف عند هذا المستوى من الانشاء لما كان فيه ما يستحق الدرس. وانما مدّ أطناب هذه الصورة حين أضاف اليها أبعادا زمنية، فاذا برياض الأخبار في معرفة الناس بها، واطلاعهم عليها كفلق الصبح، ومن يجهل الصباح حين يبدو، وقد انجلى عنه الليل البهيم؟

ويلاحظ الكاتب أن أوكد أوصاف "طيب الذكر" هو سرعة الانتشار، ولئن كان وفّى البعد النوعي حقّه، حين جعل "الذكر" كعطر الرياض، ووفّى له بعد

---

(1) ذ: 3/1، ص: 410.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشهـرة فجعله كـفلق الصباح ، فانه يلـقصـه بعد ضروري له وهو ذاك المتصل بالحركة ، لأن " طيب الذكر " المستقر الجامد ، لابد أن يأخذ في التناقص والتلاشي ، ولذلك جاء المستوى الثالث للصورة في قوله عن أخبار ذلك الصديق : " هي أسير في الآفاق من هبوب الريـاح " . وقد عبرت كلمة الآفاق عن هذا الاتساع المكاني المطلوب ، وجاءت عبارة " هبوب الرياح " مناسبة لمقتضيات انتشار الروائح العطرة . فليس هبوب الرياح أسرع من وميض البرق ، ولكن الذى يناسب مقدمات الصورة انما هو " هبوب الريـاح " ، لاغـيره .

وتذهب الصورة في التوسـع حين يتصدى الكاتب للحديث عن آثار هذه الرياح التي تهب بذلك القدر من شذى الازهار ، فينتقل حينئذ الى المستوى الرابع ، وهو التلاؤم والتوافـق اللذان يكونان بين النفوس المحبة للعطـر الفوّاح ، والازهار التي تحمل الريح عبيرها ، فيتم الامتزاج : " كأنها المصافاة بين الماء والراح " . ولكن الريـاض فيها حسن للأرواح ، وطيب للأنوف ، وفيهـا منظر للعيون ، وأنغـام للأسماع ، وكما أن طيب الذكر يطرق أسمـاع الناس في حركـة انتشاره ، فينبغي أن يكون في تلك الروضـة ما تسعد به الآذان والعيون : " فترتـع الأسماع من نضارتها فـي مرتـع خصيـب ، وترفـل من غضارتهـا في ثوب من الأنس قشيـب " .

كيـف لاتهـتز نفوسنـا لهذه الروضـة الحسنـاء ، بل كيـف لايكـثر حساد ومن بينهـم جوارح الانسـان : " فـلله هذه المناقـب التي جعلت العين حاسـد للأذن .... "

ويسمـو نسـيج الصورة فاذا بانتشار الذكر الطيب : بضاعـة رابحـة ، تكسب كل يوم المزيد من المعجبـين ، المقبلـين على " الاستبضاع منها " . وأخـيرا فـان صورة البضاعـة النافـقـة تثير في خـيال الكاتـب صورة المتسابقين اليهـــا المـتنافـسين عليها التي تبدو في ركـض الخيول الدهم ، التي تعـود من سباقهـ ذات " غـرر وأوضـاح " وهي علامـات مميزة لها ، تعرف بواسطتها ، وتذكر بها وتلتقـي أواخر الصورة بأوائلهـا ، ففـي الطرفـين استـفادة " إحمـاد " ، فسر الأول تعبـق كالأزهـار ، وتسـافـر مع الريـح ، وهي هنا خـيول تجرى في ميـدان الفـضائـل ...

هذه صورة متكاملة ، انطلقت من عناصر الطبيعة النباتية والفلكية ، وخرجت عنها في حركات اتساع وانتشار مستمرة . وهذا هو الذي نسميه الصورة المركبة ، ذات الأبعاد المتباينة ، ولكنها تتضافر كلها على تشكيل ملامحها الدقيقة .

وكما استمدوا صور اليسر والامتنان والرضى من الطبيعة ، فربما استمدوا منها ! أيضا صور العنف ، والغضب والسخط . ومن أمثلة ذلك قول القائل : " وقد دهمني عتابك واجلابك بريح تعصف ، ورعد يقصف ، واستقبلني خطابك وادلهابك ، بوبل يخشف ، وسيل ينسف ، بلغ الزبى وزاد ، وغمر الربى والوهاد ، لو أم الملا لسي لاقتلع أزهاره ، وطمس أنواره ، أو اعتمد المكالي لطمّ على فرنّه ، وطما على سريّه "(1) .

هذه مقاطع من رقعة لابن الحداد في العتاب . وقد بنى على عناصر الغضب في الطبيعة صورته ، وهي عناصر تتجه كلها الى الماء الذي هو من المطر ، الذي يأتي في سياق الابراق والارعاد . ولسنا في حاجة الى اطالة الوقوف عند ملامح هذه الصورة لنتبيّن من خلالها ما يضطرم في نفس الكاتب من سخط على مراسله الذي أتاه منه سيل جارف قلع الأزهار وطمس الأنوار .

ولكن الصورة في الأدب الأندلسي ليست حكرا على الطبيعة فقد تُستنبط من غيرها ، بل انها كثيرا ما تأتي ذات طبيعة بشريّة ، حين تنطلق من فكرة التشخيص ، بمعنى إصباغ الشخصية الانسانية ، بما فيها من صفات ، وسلوكات ، على موصوفات متنوعة .

من ذلك مثلا صورة العروس التي كثيرا ما نجد ملامحها في أغراض مختلفة من الانشاء الأدبي ، ومن أجمل ما ورد فيها ، وأكمل نماذجها ، وأغناها بالقرائن ، فقرة لأبي القاسم بن الجد ، كنا أوردناها في معرض الاستشهاد بها على عذوبة العبارة وسلاسة مقاطعها ، وهي كما يلي :

" وأما المودّة التي خطبتَ بفضلك بكرها . . . . فقد زففتها اليك مشرقة الجبه بنور الحق المبين ، ضاحكة الترائب ، على حسن الضرائب ، تتأوّد في حلل الثناء ، تـ

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 694 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكاعب الحسناء ، وتحمل من ذ ... " سفاء ، ما يزرى على الديمة الوطفاء ، فان وافقت لديك وجها خصيبا ، واستحقت من رضاك وقبولك نصيبا فقد فاز قدحها . ."[1]

انها مودة تخطب ، وفصل الخطبة هذا هو الذى أجرى الصورة على النحو الوارد في كلام ابن الجد ، وكان مراسله عبد المجيد ابن عبدون الذى " خطب ودّه " قد أثار فيه ذلك " الفصل " نفس التداعيات التي أوصلته الى تصور صداقة ابن الجد فتاة حسناء يخطبها [2]. ولكن صورة أبي القاسم بن الجد أوفى تفاصيل ، حين حشد لفتاته كل الجزئيات التي تجعل منها عروسا بالفعل . ولكن الذى نعاتبه عليه أشد العتاب ، ونؤاخذه عليه ، كما نؤاخذ الفنان الماهر على تقصير صدر عنه ، وكان بالامكان تلافيه ... هو عدم انتباهه الى أنه يلغي الصورة الغاء قبيحا ، ويهدمها بجرّة قلم حين يرتكب الخطأ الفادح الذي يرفع حجاب الوهم عن القارئ ، وهو الذى يقيم عليه أساس فنّه .

لقد نسي ابن الجد أنه استعار المودة المطلوبة منه صورة العروس ، فاذا به يقول " تتأوّد في حلل الثناء ، تأوّد الكاعب الحسناء " . ففي المقطع الثاني فضح نفسه ، ونبّهنا الى أنها ليست فتاة حسناء ، والا فما معنى أن نقول ان فلانة الحسناء تتأود كأنها امرأة حسناء ؟ ...

ان جمال الصورة مبني على تواطؤ بين الكاتب والقارئ ، ومحتوى التواطؤ أن "يكذب الكاتب ، أو إن شئنا كلمة ألبق قلنا : أن " يخترع " أو " يختلق " ، والقارئ يصدّق ، ويتقبل منه ما يأتي به . فاذا لم يحترم الكاتب شروط هذا العقد فشل مخططه الفنّي .

ومن أجمل ما وقع من هذا التشخيص ، باخراج الموصوف في هيأة الفتاة المخطوبة ، واحكام التمويه ، بذكر القرائن اللازمة من مهر ، وزفاف ، وخدر ، وجلاء الخ ما تم منه للأديب الكبير ابن خفاجة [3] حين كتب يستهدى ما ورد [4].

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 673 .

(2) ذ : راجع ذلك في رسالته ، ذ : 2/2 ، ص : 671 .

(3) أبو اسحاق ابراهيم بن خفاجة شاعر ، كاتب ، من أشهر أدباء هذا العصر . وقد سبق لنا أن عرفناه . أخباره في ذ : 2/3 ، ص : 541 ، وبها ثبت بمصادر ترجمته .

(4) في ذ : 2/3 ، ص : 545 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهناك صور أخرى تتجه منحى دينيا ، وتعتمد على العناصر الاسلامية ، المتمثلة بصفة خاصة ، في الأماكن ....

ومن أكمل ما ورد من نماذج هذه الصورة قول عبدالمجيد بن عبدون : " فوددت أن أعار جناحي طائر ، فاكون لكعبة ذلك الجلال أول زائر ، فأقرن هناك حجة بعمرة ، وأفوز من عمادى ... بنظرة ، توسع عيني قرة ، ووجهي نضرة ، وأعشو الى ذلك الضياء ، وأرى محلي من تلك السماء "(1) .

اننا هنا أمام لوحة قدسية ، منسجمة الجوانب ، متلألئة الأنوار ، تشع أركانها بأضواء روحانية غامرة ، نعجب كيف استطاع الكاتب أن يوظفها هذا التوظيف البشرى ، والواقع أنه رفع الصداقة التي خطبها من ابن الجد الى مستوى رفيع غدت معه ذات طابع روحاني لا صلة لها بالمادة .

وتبدو لنا الصورة مفتوحة على السماء منذ بدايتها ، فان رغبة العروج الى تلك الآفاق الروحانية تسكن الكاتب ، وتبدو في ذهنه جليّة ، وهي التي وضعت بين عينيه صورة الطائر ذي الجناحين الذي يودّ أن يطير بهما .

وكل مراحل الصورة بعد ذلك ، مراحل عبادة وقداسة من كعبة ، وحج ، وعمرة ، وما الى ذلك .... وأجمل ما تختتم به هذه الرحلة قوله : " وأرى محلي من تلك السماء " فاذا بها تنتهي بمثل ما بدأت به : سماء في الأول ، وسماء في الآخر ...

ونحن لا ندري ما الذي كان في ذهن ابن عبدون ؟ وما هي طبيعة هذه التداعيات التي آلت به الى هذه الرموز القدسية ؟ . واذا كان من المؤكد أنّ الصداقة تستطيع أن تحمل قدرا كبيرا من معالم الصفاء ، ومخايل الحب الروحي ، فاننا نشك في أن لا تكون معها سياقات أخرى في حياة ابن عبدون ، جعلته يُخرج إقباله على مودة ابن الجد ، ورغبته فيها هذا الاخراج الديني ، ويضفي عليها هذا الطابع المقدس . ولا نظن أن ورع ابن الجد ، واشتغاله بالفقه غريبان عن هذا التوجه ولكنهما لا يفسرانه بمفردهما .

---

(1) ذ : 2/2 ، ص : 670 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه ملامح من بعض صور النثر في هذا العصر، ولعلنا رأينا من خلالها أن الفنّ التصويري في الأدب ... الصلة بالنفس، وطيد العلاقة بها، وأنه من العبث أن ننظر اليه على أنه مجرد استخدام فنّي، لأدوات متوفرة، يمكن أن يخرجها الأديب كيفما شاء.

ولو كنّا نعرف دقائق الظروف التي ينشئ فيها الكتّاب نثرهم، ودقائق الاغراض التي يتوخونها، لكان، ربما، في امكاننا أن نجلو الكثير من طوايا النفس ومكنونات الضمير.

على أن هذا القول لايلغي حقيقة أدبية أخرى وهي أن الصورة عمل فنّي بالدرجة الأولى، هي إحدى الدعائم التي لولاها لفقد الأدب خصائصه، وأضحى نثرا عاديا كالكلام الذي نستعمله، أو نؤلفه لنتناول من خلاله المسائل الموضوعية، التي لايؤثر فيها كثيرا تغيرُ الأمزجة، واختلاف الطبائع[1].

والصورة، من زاوية أخرى، واحدة من أدوات الزخرفة والتحسين، سواء جاءت تشبيها أو استعارة، أو غير ذلك مما وضعت له المصطلحات الكثيرة. ولكنها تظل من نوع الزخارف الملازمة للأدب، الضرورية له، وليست من قبيل تلك الزخارف الخارجية التي يمكن أن يستغنى عنها، والتي نستطيع أن نسميها "الزخارف المجلوبة" والتي سنبيّن بعض ألوانها في الصفحات القادمة.

* * *

(1) انظر رأى محمد مندور في كتابه "النقد المنهجي عند العرب" طبعة نهضة مصر، بلا تاريخ، ص: 47 و 43 و 57.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

5 — ألـوان الزخـارف الـمـجلوبـة .

بدا لنا ، ونحن نحاول ترتيب مباحث هذا الفصل ، أن أنواع الزخارف التي يستعملها الكتّاب ، لتحسين انشائهم، يمكن أن يميز بين قسمين هامين منها ، يختلفان في طبيعتهما وفي وظيفتهما . فاما النوع الأول فهو من قبيل الزينة الداخلية ، اللصيقة بالأدب ، التي يحتاج اليها بالضرورة ، حتى إنه لو خلا منها جملة لفقد بعضا من مقوماته الجمالية التي لا يصبح فنّا بدونها . وهذه هي التي درسنا أبرز مظاهرها في الفقرات الماضية . وهي النسيج الفنّي للعبارة ، والموسيقى ، والصورة . وأما النوع الثاني فهو من قبيل المحسنات الكمالية ، التي يحسن ورودها ، اذا صادفت من صاحبها مهارة تجعله يعرف القدر المقبول منها ، فلا يبالغ فيه ، والموقع الذى تروق عنده ، فلا توضع الا فيه .

ولما كانت هذه المحسنات من الكثرة بحيث يمكن أن نسرد العشرات منها ، فاننا نقتصر في هذه الأسطر على دراسة أكثر أنواعها صلة بالفنّ النثري ، ولا سيما تلك التي تمد الجسور بينه وبين الشعر، أو ترصّع نصوصه بامدادات من القرآن الكريم ، وحديث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وامثال العرب ووقائع تاريخهم وما يلتحق بذلك . وقد وجدنا أن هذه المحسنات التي تنتمي الى النوع الثاني المذكور ، ليست ضرورية للفن الأدبي ، وليست من صميم متطلباته الجمالية ولذلك سميناها الزخارف المجلوبة .

وقد تناول الناقد الأندلسي أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي هذا النوع من الزخرف بالحديث في كتابه " احكام صنعة الكلام " وجمع الأصناف التي أشرنا اليها أعلاه تحت تسمية " الموصح " وفسر هذه التسمية بقوله : " وسميت هذا النوع : " الموشح " لأنه وُشّح بالأخبار والأمثال ، والأشعار ، وروايات القرآن ، وأحاديث النبي عليه السلام ، الى غير ذلك من النحو والعروض ، وحل أبيات القريض ".(1)

---

(1) " احكام صنعة الكلام " ، ص : 130 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وليس يهمنا كثيرا كيف يسمّى هذا النوع من الزخارف المجتمعة ، وانما الذى نريد الوقوف عنده ، من خلال بعض الأمثلة التطبيقية هو جانبان اثنان : أحدهما يتصل بمطلوبات خارجية غايتها الدعم والتقوية ، والآخر تكون فيه هذه المطلوبات نيها : التمليح والترويح .

أ ـ المطلوبات الهادفة الى التقوية :

* **المزج بين النثر والشعر :** لأبي عامر بن شهيد ، فلسفة في هذا المزج لعلّها تصلح أن تعبر عن رأى أكثر من يذهبون مذهبه فيه . وقد صاغها في قوله : " ولما طال الكلام ـ أيد الله المؤتمن ـ ولم يبلغ مملوكه الغاية التي اليها قصد ، ولا استوفى من الايراد ما ايّاه اعتمد ، خشي أن يصيبه ما يصيب التطويل من السآمة المخصوصة به ، والملال الموقوف عليه ، ففصله بنظم فيه عون على الدرس ، وتنبيه لشهوة النفس "(1) .

فالشعر حينئذ ، يؤتى به ـ حسب هذا الرأى ـ لمنع السآمة عن النفس . وهذا من خصائص الأدب العربي ، فيما يبدو ، والا فأية سآمة تكون حين يسترسل الانسان في قراءة النثر . ولعلّ الأقرب الى الصواب ، أن العقلية العربية هي عقلية شعر ، وان الذوق العربي لايكاد يقوى على مفارقته ، فلمّا تطورت أغراض النثر ، ودخل المجالات التي دخلها ، لم يقو اصحابه على هجر الشعر ، فأوجدوا أساليب متنوعة لاستجلابه .

ثم غدا هذا المزج برهانا على البراعة ، ودليلا على المهارة ، فاذا تحلت به الرقعة من النثر، عدّ ذلك مما يستحق الكاتب عليه مدحها وتنويهها . ويكفي أن نمثل لذلك بما ورد في رسالة لأبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم ، وقد كتبها عن المعتضد الى الفقيه أبي حفص الهوزني ، قال له فيها : " ورد في كتابك الأثير ، المقابل بين النثر البليغ والنظم البديع ، تصرفت فيهما تصرف من اذا اخذ الكلام طرّز ، واذا غشي ميدان البيان برّز ، وأخذ بآفاق العلوم ، وأشرقت خواطره فيها كاشراق النجوم "(2)

---

(1) ذ : 1/1 ، ص : 130 .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 113 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ان هاهنا دليلا واضحا على أن المزج بين النثر والشعر ، حين يكون من نظم صاحب الرقعة ، كما هو واضح ، يحسن وقعه عند المرسل اليه ، ويستفزه الى اطلاق مثل هذه الأوصاف .

ويبدو أن هذه الد... ... ما من القيمة ، عند بعض الأدباء ، ما يجعلهم يعتذرون الى من يخاطبونه برقاعهم من عدم التمكن — لسبب ما — من تزيين نثرهم باضافة ما ينظمونه من الشعر اليه . وهذا ما نفهمه ، بجلاء ، من كلام أبي بكر بن القصيرة في رسالته الى ابن الجدّ ، حين كتب اليه في آخرها يقول : " وأنا أعتذر اليك من الاقتضاب ، وأن لا ألم في النظم بجواب ، بما لا يذهب عليك من الأعذار ، ولا يستتر دونك من الأسباب ، وأنت بمعاليك تقبل العذر ، وتتأوّل أجمل تأوّل ، الأمر "(1) .

ومما يزيدنا فهما لضيق الكاتب من عدم إلمامه بالنظم كما قال ، أنه يرد على رسالة ضمنها كاتبها قصيدة بليغة(2) ، وكانت رسوم المجاملة ، وتقاليد المراسلة وضرورات المحافظة على الصيت الأدبي تقتضي كلها أن يرد على الشعر بالشعر ، كما ردّ النثر بالنثر .

هذا جانب من ايراد الشعر في سياق الكتابة . وهو يختص ، كما رأينا ، بما يكون منه من نظم صاحبه . وهناك جوانب أخرى يأتي فيها الشعر مستعارا من أصحابه ليقضي به المستعير أربا فنيا لا يخرج عن باب من أبواب تقوية كلامه به ، وتحسين انشائه بضم بعض أجزائه اليه .

ولهم في ذلك طرائق مختلفة من أشهرها ايراده محلولا ، وهو ادراج شطر من بيت ، أو أكثر من ذلك أو أقلّ ، ضمن الكلام ، حتى ليأتي كأنه جزء من انشاء صاحب الرقعة . والأمثلة على ذلك لا حصر لها ، منها قول أبي الفضل بن حسداى الاسلامي : " ولا فتاة عروب الا وهي تستخشي من غير تصنعة رجاء في لقاء خيالك ، ولا محجوبة مصونة الا وهي ترقّع الكوى بالمحاجر لمرك "(3) .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 297 .
(2) نفسه ، ص : 295 .
(3) ذ : 3/1 ، ص : 473 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقد نثر الكاتب في هذا القول بيتين مشهورين الأول منهما لمجنون ليلى ، وهو قوله :

وإني لأستغشي وما بي نعسة ∴ لعلّ خيالا منك ، يلقى خياليا .

والثاني من قول عمر بن أبي ربيعة

وكن إذا أبصرنني أو سمعنني ∴ سعين فرقّعن الكُوى بالمحاجر[1]

وهذا نوع متطور من حلّ الشعر ، وربما جاء الشاهد محتفظا بنسقه الأصلي وترتيب كلماته ، كما في قول من قال : " ولا تأس على أعراض الدنيا فهي رهينة بزوال وذهاب ، وكل الذي فوق التراب تراب "[2] فمن الواضح أنه هنا قد ضمن كلامه عجز بيت للمتنبي هو :

إذا نلت منك الودّ فالمال هيّن ∴ وكل الذي فوق التراب ، تراب .

وقد أنشأ الكتّاب من الرقاع ، ما أكثروا فيه من هذه الزخارف المتمثلة في حلّ الشعر ، واختراع معانيه وألفاظه ضمن كلامهم ، حتى أثقلوا على القارئ ، وخرجوا من الحدّ المقبول الى الحد المرذول ، وحتى عدّه بعض النقاد ، مثل ابن بسام ، نوعا من السرقة الأدبية ، والسطو على ما للأدباء الآخرين من معاني وألفاظ ، فقال عن ابن زيدون : " وأبو الوليد .... على كثير احسانه ، كثير الاهتدام ، في النثار والنظام "[3]

* تضمين القرآن والحديث :

اذا كان الأدباء ، والكتّاب منهم بخاصة ، يمدون أيديهم الى التراث الأدبي يستخرجون منه ما يدعم أقوالهم ، وما يقوي معانيهم ، فان لهم في كلام الله عزّ وجلّ وفي أحاديث رسوله ، عليه الصلاة والسلام ، معينا لاينضب يستخرجون منه ألوانا من المقوّيات لكلامهم ، ولاسيما في بعض السياقات العاطفيّة والروحية الملموسة .

ومن أبرز ذلك ، السياق الوعظي ، الذي يروم صاحبه تصفية النفس بوساطة تنبيهها الى حقائق أزلية ، فيكون كلام الله وحديث رسوله خير ما يرسم على هديه

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 478 ، هامش المحقق .
(2) نفسه ، ص : 450 .
(3) ذ : 1/1 ، ص : 355 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طريق الحق ، ويرشد الى السير فيه . ولنا من قول أبي عمر بن عيسى الالبيرى خير ما نمثل به لهذا المنهج . فقد وصف من عمل النفس الخيرة ما وصف ، ووصف من تصوتها من وصف ، حتى انه وجد هذه السبيل تُفْضِي به ، بصفة شبه آلية ، الى آية من القرآن الكريم ، دون أن ينص على أنه سيوردها ، وانما يضمنها كلامه تضمينا . قال : عن ... النفوس الطاهرة : " شربت بكأس حب ، فرفضت الأسباب ، وخرقت الحجاب ، وبيض وجوهها البرهان ، وأثلجها البيان ، ((وجوه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة)) فرحمانهم علا ممم ، وجبّارهم رزّا قهم ... "(1)

وكما يدرجون آيات القرآن الكريم ويضمنون كلامهم على النحو الذي أشرنا اليه فانهم كثيرا ما يمهدون لقوله عز وجلّ بعبارات تدل على ذلك ، كأن يقولوا : " فَحَقٌّ له ألّا يجزع اذا دَهَى خطب ، فان الفَرَجَ معه ، وأَلَّا يَهْلَعَ إِنْ عَدَا كَرْبٌ ، فان الله قد رآه وسمعه ، ولا سيما إِن قُصِد بظُلْمٍ واعتُمِد ببَغْيٍ ، ففي التنزيل : ((ثم بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ))(2) . وربما جاء التمهيد بطريقة أخرى فيها بعض التفنّن مع الالتزام بالاشارة الى أنه آي القرآن ، كما في هذا المثال : " وبرّ الله تعالى وَصَدَقَ في قوله : ((أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا))"(3) . فلم يأت إِدراج الآية بصفة تقطع سياق الكلام . وللكاتب نفسه طرائق أكثر تفنّنا من هذه في الاستشهاد بالآيات القرآنية الكريمة . من ذلك استعمال لَفْظَةٍ أو أكثر من القرآن الكريم لتقديم حكمٍ ما ، ثم نفسيه بالآية التي أستعار منها تلك الكلمات كقوله : " وكان قد فكر وقدر ((فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثم قُتِلَ كيفَ قَدَّرَ))(4) .
وواضح انه قد استفاد من الآية التي قبل هذه والتي فيها قوله تعالى : ((إِنَّه فَكَّرَ وَقَدَّرَ))(5) ، ولكنه لم يوردها ، وانما استعار منها كلمتي " فكّر " و " قدّر " وتعجب منهما بالآية التي ذكرناها .

---

(1) ذ : 2/1 ، ص : 349 — والآية : القيامة : 22 .
(2) ذ : 1/3 ، ص : 366 — والآية : الحج : 60 .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 369 — والآية : من الرعد : 41 .
(4) نفسه ، ص : 366 — والآية : من المدثر : 19 .
(5) المدثر : 18 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولعلّ من أبرع مظاهر تفنّنهم : الملاقاة بين آيتين من سورتين مختلفتين وإيجاد رابط معنوي بينهما ليظهرا كأنما هما من سياق واحد ، تكمّل احداهما الأخرى . ومن أمثلة ذلك ما وجدناه عند الكاتب المذكور نفسه ، وذلك في قوله "فإذا به قد نُشِرَ من قبره ، وشقي بِضُرّه ، حِينَ رامَاهُ بسَهْمِه ، وأخَذَهُ بِحُكْمِهِ وأتاهُ بِعِلْمِه ((وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وهِيَ ظَالِمَة))(1) وَجَزاؤه إِذَا جَازَى القُلُوبَ وَهِيَ آثِمَة ظلم رَبِّكَ أَحَدًا))(2) ، ((فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا))(3) .

فهذا نوع من التأليف بين آيات من ثلاث سور ، ولئن جاءت الآية الثانية من سورة الكهف ، وكأنها تأكيد معنوي لمعنى العدل الرباني في معاقبة الظالمين ، فان الآية الثالثة ، جاءت كما لو كانت تتمة لسياق المعنى ، باضافة دلالات جديدة اليه . وقد حذف الكاتب من بادىء الآية ما حذف ، ليتهيأ له هذا الشكل المعنوي الذى أراد .

وربما جاء تضمين آيات القرآن الكريم بطريقة أخفى وأقل ظهورا ، وذلك بايرادها كأنها وصف لما قبلها ، ويشترط في هذه الحال أن تكون من النوع القصير ، كقول الكاتب : " طلعت منها شَجَرَةٌ مُبارَكة النَّوى ((أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّماء)) (4) ، وقد تأتي على أنها مقول القول الصادر عن المتكلم ، نحو : " الى أن وصلتُ مَحَلَّ العُلْيا ، ومنتهى سِدْرَة الدُّنيا ، حضرةِ المعتصم بالله ، وقالت : ((فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ))(5) .

ويجيء أحيانا في كلام الكاتب العادي ، كأنه ينتقي من القرآن أجزاء من عبارات ثم يجمع بعضها الى بعض ويؤلف منها كلا ما إنشائيا يُعرب به عمّا في نفسه فالذى لا يحفظ القرآن ، أو الأجزاء المشار اليها منه ، يلتبس عليه الأمر ويظن أن

---

(1) ذ : 1/3 ، ص : 366 . والآية : من هود : 102 .
(2) الكهف : 49 . ذ : 1/3 ، ص : 367 .
(3) الجن : 27 . (نفسه) .
(4) ذ : 1/3 ، ص : 432 . والآية في سورة ابراهيم : 24 .
(5) نفسه ، ص : 447 . والآية في سورة الرعد : 24 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلام للمؤلف . ومن أمثلة ذلك : " وميل بنا الى " التاج " وهو مصلح على مفرق القصر ، من جانب البحر ، مُتَرَدّ من قوارير ، . . . فممن يقول هو قبة الفلك ، وممن يقول هو السَّمَاءُ ذَاتُ الحُبُك ، وانهم ((لَفِي قَـوْلٍ مُخْتَلِف ، يُؤْفَكُ عَنْـهُ مَنْ أُفِكَ))[1]

والوجوه التي يستخدم فيها كتّاب العرب كلام الله ، عزّ وجلّ ، هذا الاستخدام الفني ، كثيرة ، لا نستطيع — في بحثنا هذا — الى احصائها عددا ، وانما ألممنا منها بنماذج تدل على ما قصدنا بيان هذا اللّون من الزخارف المجلوبة التي يرصع بها الأدباء انشاءهم ، ويحلّونه بها . وهم يستخدمون أيضا أحاديث الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، في أغراض شبيهة بما أتينا الآن على ذكره .

فقد وجدنا أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام تدرج كثيرا في الرقاع النثرية ، ولكن الكتاب لا يظهرون نفس القدرة على التفنّن في ايرادها ، ولذلك جاءت في الغالب في سياق تقليدى كأن يأتي ذلك في قالب التذكر : " وتذكر قوله عليه السلام : لا تُوَلَّه والدةٌ على وَلَدِها "[2] . وربما جاء ذلك في قالب تقليدى أكثر من السابق ، فهم ان لم يأتوا بالسند ، ذكروا المصدر الذي روى الحديث ، كقولهم : " وروى ابن الكلبي قال : جاء قوم الى النبي صلى الله عليه وسلّم . . . "[3] وهي الحكاية التي يدلهم فيها بيت للشاعر امرىء القيس على عين ماء تنقذهم من الهلاك ، فيقول الرسول ، حسب هذه الرواية ، عن امرىء القيس " ذلك رجل مذكور في الدنيا ، شريف فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء الى النار "[4] .

ومن أساليبهم في ادراج الحديث النبوى الاكتفاء منه بالجزء اليسير ، بل الكلمة الواحدة ، وهذا نحو قول أحد الكتّاب : " وكقوله عليه السلام لعائشة : يا حميراء "[5] .

بيد أن أغرب أساليبهم في ذلك ، أن يكتفوا بالاشارة الى معنى الحديث ، ومضمونه العام ، دون أن يذكروا منه لا عبارة ، ولا كلمة تحدده أو تدل عليه ، مما يصحب معه

---

(1) ذ 3/1 ، ص : 432 . والآية في سورة الذاريات : 8 .
(2) ذ : 2/2 ، ص : 757 .
(3) ذ : 2/1 ، ص : 455 .
(4) نفسه .　　(5) ذ : 2/2 ، ص : 758 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التعرف على الحديث المقصود، الا أن يكون مشهورا شهرة واسعة، لا يمكن أن يجهل أمره طالب أدب، أو مشتغل به . ولا نظن أن هذه الحال تنطبق على قول الكاتب : " وقديما استعيذ من شرّ النسوان .... وقد قال عليه السلام فيهن ماقال ، وأنذر وأعذر ... "(1) . لقد جاء هذا الكلام في سياق رقعة أنشئت على لسان فارّ من السجن، يعتذر الى الملك عن الفعل الذى أورده تلك الموارد ونحسن نعتقد أنه يكنّي بكلامه عن الفتنة، واحداث البلبلة والفوضى في صفوف المسلمين . وأن الكلام هنا دشان بالمرأة والنساء .

هذه نماذج قليلة، ولكنها كافية في بيان مجموعة من الأساليب، يصطنعها الكتّاب لتقوية كلامهم، والاستشهاد على ما يسوقونه من أفكار بمُقَويات خارجية يستمدّونها من القرآن والحديث، أو من التراث الأدبي والتاريخي، كالأمثال المضروبة، والاشارة الى الوقائع، والأساطير، وما حدث للعرب، ولغيرهم من الأقوام في سالف الأزمان .

وقد يُحَلُّونَ رِقاعهم، ويُوَشُّون حُلَلَها بمجلوبات خارجية من نوع آخر، تكون الغاية منها هي التمليح والترويح، لادعم الآراء وتقويتها .

ب — المجلوبات الهادفة الى التمليح(2) والترويح .

نريد أن نحصر الحديث عن هذه الناحية من التنميق في نقطة واحدة هي استخدام الألفاظ الاصطلاحية المستعملة في مختلف العلوم : العربية واليونانية، للتمليح بها . وهي في الوقت ذاته تدل على ثقافة كتّاب هذا العصر الواسعة، وامتدادها الى ميادين من العلم نائية عن الثقافة الأدبية التقليدية، مما يبرهن على مدى ما أصابته من رواج بعد أن رفع عنها الحجر الذى كان مسلطا عليها، قبل عهد ملوك الطوائف(3) ولنا منها أضرب نلخصها في الفقرات التالية :

---

(1) ذ : 2/2، ص : 764 .
(2) في صحاح الجوهرى : " يقال مَلَّحَ الشّاعر اذا أتى بشيء مليح " .
(3) وكنا تناولنا هذا الموضوع بتوسع في الباب الأول من هذا البحث .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ـ مصطلحات النحو :

ومن أطرف ما وقع من النصوص التي غشيت بهذا الضرب من الزخرف ، رسالة لأبي اسحاق بن خفاجة ، وهي طويلة ، نقتطف منها بعض تعابيرها . منها قوله : " أطال الله بقاء سيّدي . . . ، ما الحذفت ياء " يرمي " للجزم ، واعتلّت واو " يغزو " لموضع الضّمّ . كتبت عن ودّ قَدُم هو الحال لم يلحقها انتقال ، وعهد كَرُمَ هو الفصل لا يدخله اعتلال . . . . وأنت بهداك جماع أبواب الظرف ، تأخذ نفسك الصلية بمطالعة باب الصرف ، ودرس حروف العطف . . . . . وكتابي هذا حرف صلة فلا تحذفه ، وفعل ماض فلا تجزمه ، حتى تعود الحال الأولى صفة ، وتصير هذه النكرة معرفة . . . "(1)

هذا قليل من كثير مما جاء وافرا في رسالة ابن خفاجة ، وكان عندهم يدل على تمكن من ناصية اللغة ، وامتلاك لأعنة البيان وتصرف فيها . وهو عنصر من عناصر الزخرفة التي يسمّى النص ، اذا احتواها ، "مُرَصَّعًا" ، كما كنّا رأينا عند أبي القاسم الكلاعي (2) .

ونحن لو فتشنا فيه ، ولاسيما عندما يأتي على هذا النّحو من الكثرة ، حتى لتزدحم به العبارات ازدحاما ، لما وجدنا فيه ، على الحقيقة ، شيئا ينسبه الى الملاحة ، أو يكون فيه علامة متميزة من علامات الجمال . . . لأن هذا الأسلوب لايخرج عن كونه طريقة من طرائق التصنّع والتعقيد . وهو ان كان لابد أن يدل على شيء ، فهو يلبي بقدرة " تقليّة " على توظيف مصطلحات النحو والصرف هذا التوظيف البارد . وربما كان يملح فعلا لو أن الكاتب اكتفى فيه بشيء قليل يحسن في الذوق ولا يُثْقِل على النفس .

هذه جناية التيارات المكتسحة التي لايكاد يقوى شيء على الوقوف في طريقها ، والّا ، فان عند أبي اسحاق بن خفاجة من موهبة الفن الصحيحة ، والقدرة على التملي بمعالم الجمال الحقة ماكان حريًّا بصرفه عن ركوب هذه المراكب المستقبحة .

---

(1) ذ : 3/2 ، ص : 546 .

(2) كتاب " احكام صنعة الكلام " للكلاعي ، ص : 130 . وقد أورد المؤلف نص ابن خفاجة ، مرويا عن ابن بسام ، على أنه أحد النماذج التي تمثل النص الذي سمّاه " المرصّع " .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مصطلحات دينية :

وقد استعمل الأدباء أيضا المصطلحات الدينية دون أن يوظفوها ذلك التوظيف الصناعي الذي بدا في كلمات النحو عند ابن خفاجة . ومع ذلك فان النموذج الذي تذكره للفقيه أبي عمر أحمد بن عيسى الالبيري[1] مشحون بالمصطلحات الصوفية واللاهوتية . وقد بدا لنا بوضوح أن الكاتب يتصيدها أينما كانت ، ويدفع نحوها التعبير دفعا ، ليستعملها فيه . ومن أمثلة الاستعمالات التي وردت فيها ، قوله : "دار بك فلك المعرفة في ملكوته ، وغابت ... الحكمة في جبروته ، وهيأتك يد القدرة هيأة روحانية ، وأحياك روح القدس حياة المسيحية ، وألبستك الشريعة لباس التقوى . ان لله يا أخي عبادا أقام أرواحهم بِقَيُّومِيَّتِه على صراط مستقيم ..."[2]

ولقد جاء في هذه الرسالة ، من هذه المصطلحات ، نظيرُ ما جاء في رسالة ابن اسحاق من كلمات النحو ، أو أكثر . ولم يستفد الفن منها للأسف ـ أيضا ، لأن الفن لايكون بمثل هذه الأساليب التي تجافي الفطرة . ولو جاءت كلمات بأعيانها ، في أماكن قليلة ، لكانت ربما دلّت على البراعة ، أكثر مما دلّ عليها هذا الحشد الذي هو في الغلو والمبالغة أدخل منه في شيء آخر .

مصطلحات العلوم العقلية :

كنا في مباحثنا السابقة ، ولاسيما في الفصل الثاني من هذا الباب ، ألمحنا الى ... أبي الفضل بن حسداي بمصطلحات الطب والفلك ، وكان له اشتغال بهذين العلمين ، وقد جاءت تلك المصطلحات في المراسلة التي أجراها بين المنجم المصاب في احدى عينيه والطبيب المصاب في احدى خصيتيه[3] واذا كان من سياق حققت فيه كلمات العلوم قدرا من التمليح ، وحسّن وقعها في الذوق ، فهو هناك . لأن ابن حسداي لم يكثر منها ولم يستكرهها على مواقعها ، فجاءت كما لوكانت طبيعيّة الورود في سياقها .

وكثيرا ماكان الأدباء يملّحون بهذه المصطلحات في الرقاع التي يوجّهونها الى أهل علم من العلوم ، أو الى من يتعاطى فنّا من الفنون ، فيديرون الكلام في انشائهم على مصطلح ذلك العلم أو الفنّ

---

(1) أبو عمر أحمد بن عيسى الالبيري : سبقت الاشارة اليه ، من الكتاب والشعراء وأهل علم الكلام يكون قد توفي سنة 429 . وانظر ذ : 1/2 ، ص : 347 وهامش المحقق فيها .
(2) ذ : 1/2 ، ص : 349 .
(3) ذ : 1/3 ، ص : 474 الى 435 وتكثر المصطلحات ص : 473 و 432 و 433 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فلئن كان أبو الفضل بن حسداي قريبا من الفلك والطب، لإلمام له بهما، ممـا يسـوّغ استعماله لكلماتهما، بالاضافة الى أن الموضوع الذي ارقـه يدور أساسا حـول جارحة لازمـة لمراقـبة الأفلاك وهي العين، وعلة لابدّ من الحديث عن دائها ودوائها . . . فان أبا عبدالله بن الحداد (1) يستمـد عذره أيضا من أنه يكـتب الى أبي بكر الخولاني المنجـم (2) ولذلك نراه يهجـم عليه بمـثل هذا السيل من المصطلحات الفلكـيـة : " لو أنصفـك الزمان الذي أنت غـرّة أيامـه ، ودرّة نظامـه ، لكنـت أحق بالسرطان من الزبرقان ، وأولى بالميزان من حجـى بعلـوّ المراتـب من سائر الكواكب . . " النـخ (3).

بيد أنه قد يستعمـل مثل هذه المصطلحات من لا هو يعرف عنه انتماء الى علمهـا ، أو اشتغال بفنّهـا ، ولا هو يكتـب بها الى ذي حرفـة أو اختصاص . فهي غريبة الموارد والمـصادر، غريبـة عمن يستعملهـا في انشائـه ، وعمـن توسـل الرقّعـة اليه . ولنا مـن هذا القبيـل ما جاء في رسالة للوزير ابن عباس " الى أهل غرناطـة " حين قال لهـم " انحرفـت عنكم على زاويـة المـقـة كي لا أهان ، . . . . وجعلتموني مركز دائرتكـم في اللفـظ ، وعين سعايتكـم في القصـد "(4).

ومن الواضح أن ابن عباس لا يغالي في هذا الاستعمال، ولا يلجأ فيه الى التشطـط والتعقيـد . بيد أن الذي لابدّ من الاشارة اليه هو أنّ الرقعـة المعنيـة قد جاءت محشوّة بأنواع الاشارات، فكان منها هاتان الاشارتان الرياضيتان : الانحراف على الزاوية ، ومركـز الدائرة ، ولها غير ذلك مما له صلة بأنواع أخرى من " الترصيع " .

وهكذا نرى أن هذه الزخارف التي كان يحفل بها أدباء العصور القديمة ، ويحرص الكتاب على أن لا يخلو انشاءهم من أوصافها الكثيرة ، لم تكن تضيف ـ في تقويم أذواقنا اليوم ـ جمالا فنيا له قيمـة ما ، وانما كانت تدل على سعة في العلم ، وقدرة على التصرف في أنواع تلك الأساليـب .

* * *

(1) أبو عبدالله بن الحداد : سبق التعريف به . توفي نحو 480 هـ . (ذ : 1/2، ص : 691).
(2) هو منجم المعتمد بن عباد ، وكان صديقا لابن بسام .
(3) ذ : 1/2، ص : 703 .
(4) نفسـه ، ص : 649 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

6 — حقيقة الأصالة

عندما يؤرخ الدارسون المحدثون من العرب لشاعر أو كاتب من شعراء المشرق العربي وكتابه ، لا يخطر ببالهم — غالبا — أن يشيروا الى أن هذا الشاعر العراقي ، مثلا ، كان تلميذا لأخ له شامي عاصره أو تقدم عليه . ولا يستخرجون من ذلك حقيقة شاملة وهي أن شعراء العراق كلهم ، كانوا ظلالا لشعراء الشام . ولا يخطر ببال أولئك الدارسين مثلا أن يقولوا ان الشاعر الشامي فلانا ، كان يترسم خطى اخوان له في بادية الحجاز ونجد ، أو أن كتاب مصر المصرى كانوا صدى يحكون الأصوات الانشائية الأصلية في بلاد العراق ، ثم يستنتجون من ذلك أن كل ما كتبه هؤلاء وأولائك في جميع عصورهم ، نسخة مصورة ، مطابقة للأصل المحفوظ في هذا المكان أو ذاك .
واذا حدث أن أومأ بعض الباحثين الى شيء من هذا القبيل ، جاء في سياق عابر ، وفي اطار الامتدادات الطبيعية للتأثير الأدبي الذي يكون بين أدباء الرقعة الثقافية والحضارية الواحدة .

لكنهم ، ما أن يتناولوا أحد أدباء المغرب والأندلس ، حتى ينقلب البحث العلمي الى محكمة تفتيش ، سطحية في أكثر الأحيان ، لا تلتزم بقواعد العلم ، ولا بقوانين البحث ، فيخلصون سريعا من بعض المقارنات الى نتائج عامة ، وأحكام مطلقة ، مؤداها أن ذلك الأديب ، وكل أدباء ذلك البلد ، في جميع العصور ، ليسوا الا نسخة من " أساتذتهم " المنتمين الى وحدة ثقافية وسياسية وحضارية كاملة ، تسمّى " المشرق " . فيقال : " قلدوا أساتذتهم المشارقة "(1) .

ومن هذه الأحكام ما يدفع ، فضلا الى الضحك ، لأنها في سذاجتها تصور الكاتب أو الشاعر الأندلسي الواحد ، مثلا ، كما لو كان نتاجا لمجموعة من الأساتذة مختلفين : مشارب ، ومنازع ، وانتماءات أدبية . وكأن خلاصة أعمالهم قد صيغت في عمله ، والتقت جوانبهم الأدبية المتباينة في أدبه (2) .

---

(1) مما يضحك : قول صاحب الكتاب الذي سنذكره بعد حين : " على أن الأمر الذي لا شكّ فيه هو أن كل كتّاب الأندلس بغير استثناء تلامذة في موضوعاتهم وأساليبهم للكتّاب المشارقة . . . " ص : 609 .

(2) وهكذا كان ابن زيدون يصبح تلميذا لهؤلاء كلهم : الجاحظ ، ابن قتيبة ، عمرو ابن مسعدة ، ابن العميد ، الخوارزمي ، الصابي ، أبي الفرج الببغاء !!. (نفسه ص : 592) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والواقع أن هذا منهج منحرف ، لا يفيد الأدب العربي لا في مشرقه ، ولا في مغربه ، لأنه يجافي حقائق جوهرية لا مجال لإنكارها أو التنكر لها ، منها :

1 ـ أن الأندلس ، ليست غريبة عن جسم الأمة العربية حتى لا ننظر الى أدبها إلّا من زاوية ماذا أخذت عن أدب المشرق وماذا لم تأخذ عنه . أن السؤال نفسه غير منهجي . والا لوجب أولا أن نحدد ما هو " المشرق " حين يستعمل في هذا السياق ، وما هي الشروط التي يكون بها الأدب مشرقيا ، وما هي المقاييس التي نحكمها في التمييز بين الكيانات العديد ... في " المشرق " منذ مطلع القرن الرابع وحتى قبل ذلك .

2 ـ أن النظر الى الأدب الأندلسي ، والمغربي بوجه عام ، من زاوية التأثر والتأثير وحدها ، يهدر تلك الشحنة العاطفية الكبرى التي كانت تشدّ أهل هذه الأصقاع الى ما يسمّى ببلاد المشرق لأنها عندهم دينيا : مَهْبِط الوَحْي ، وجِنْسِيًّا : مَدْرَج الأجداد ، وثقافِيًّا : مَوطِن العَرَبية الأول ، وَمُنْبَعَثُهَا الأصلي .

3 ـ أنّ تعلق الأندلسيين بالمشرق وهم أبعد نقطة في جسم الأمة الممتد الى الغرب ، والذي تكتنفه طوائف لا تحصى من الأعداء ، يجمع بينها ، وبين شتاتها غاية واحدة : القضاء على هذا الجزء وبتره من الجسم الممتد ، هو الذي يمنحهم الذاتية التي يقاومون من أجلها . فهل يحجب ذو عقل اذا رأى تشبث الجزء بالكلّ ، وعاين وُلُوعَهُ باثبات أصالته كجزء من هذه الأمة ، بتحسس ما يجد فيها ، والمُسَارَعَةَ الى إنشاء مثل ما يُنشأ فيها من أدب وفنّ وعلم ، ليكون ذلك ، أمام نفسه وأمام غيره ، دليلا على أنه منها ، بل على أنه الجزء الحيّ النابض المتوقد فيها .

كيف جاز لبعض الدارسين اليوم أن يتجاهلوا هذه الحقائق وغيرها ، وأن يستسلموا لعقدة " هذه بضاعتنا ردّت الينا " القديمة . فلا ينظروا الى أدب ، أنشئ في ظرف من أقسى ظروف العرب التاريخية ، وفي فترة من أشد فترات العنف الذي تميز به تاريخ صراعهم مع الغرب ، ألا ينظروا اليه الا على أنه تقليد لأدب المشرق وهل يصح عقلا أن لا يكون أدب شعب بأكمله ، طوال قرون من الزمن ، الا صيغا وأساليب قلدها رجالُه عن غيرهم من الأدباء ؟

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولنستعرض من هذه الآراء، قدرا يسيرا من كتاب واحد، لنبين مدى التضليل الذي يمكن أن ينشأ عن الانسياق وراء الآراء الجاهزة، أو الانخداع بمظاهر جزئية حتى لتغطي الشجرة الواحدة عنده الغابة الكثيفة !....

أما الكتاب المذكور فهو : " الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه "[1] لمصطفى الشكعة . وهو في نحو 720 صفحة لاينال منها النثر الا نحو 140 صفحة . ومن ذلك يبدأ أوّل كلام عن هذا النثر، بإطلاق حكم قطعي لا " استئناف " فيه وهو أنه : " يقتفي أثر قرينه المشرقي، وينسج على منواله، ويسير على نهجه ويجري في مضماره "[2] .

ويحاول الكاتب أن ينصف، في اطار التبعية المذكورة، بعض الأدباء الأندلسيين ويعترف لهم بالفضل، ولكنه سرعان ما يعود الى نمط تلك الأحكام، فاذا منها قوله : " ان رسائل ابن برد، وابن زيدون، وابن شهيد، وابن دراج، ولسان الدين (بن الخطيب) ومن اليهم، تحتل مقام الاعجاب والتقدير، وان كانت تسير تماما على نهج رسائل الأعلام من الكتاب المشرقيين، سواء منها الرسائل الديوانية أم الرسائل الاخوانية "[3] .

هل يمكن أن يصدر كلام كهذا عمن لا تنقصه تجربة ولا اطلاع ؟ ماذا يقصد ؟ أهي قوالب التعبير بما فيها من سجع وجناس، اذن فماذا نقول عن كلا منا هذا وقد زالت منه هذه الزخارف، لعله ينبغي أن يكون أيضا، تقليدا في ذلك لاخواننا في المشرق، وكل من فيه، يقلد بعضهم بعضا !.... أم ان المقصود هو معاني النص، وهي المضامين التفصيلية قد درسناها في الباب الثاني، فلم نجد فيها ما يشبه أدب المشارقة الا ماكان من الرسوم الفنية والتقاليد الأدبية التي هي تراث عربي مشترك، حظ المغاربة منه لايقل كمّا ولاكيفا عن حق المشارقة .

---

(1) كتاب " الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه " لمصطفى الشكعة، نشر " دار العلم للملايين " الطبعة الخامسة، سنة 1983، بيروت .

(2) نفسه، ص : 569 .

(3) نفسه، ص : 570 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويورد الكاتب أول مثال تطبيقي على ما أصدر من أحكام ، فيرى أن ابن برد قد أنشأ نصا في مخاطبة ثائر " قلد (فيه) أبا الفضل بن العميد حينما بعث برسالة الى خارج على السلطان عمد فيهما الى الترغيب والتهديد معا . والفرق بين الرسالتين هو الفرق بين الأستاذ والتلميذ "(1) . وهذه شذرات من الوقعتين اللتين أورهما الدارس المذكور . تبدأ رسالة ابن برد على هذا النحو : " أما بعد ـ أتاك الله رشدك وأجزل من توفيقه قسمك ـ فان الله تعالى خلق الخلق غنيا عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مهمل ، بل ليحصي آثارهم ، وليبلو أخبارهم ، وجعلهم أصنافا متباينين وأطوارا مختلفين . . . والـ خاف ربه ، وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فوتها . . . . ولك في القدر المقدور فسحة ، وفي القضاء المحتوم مندوحة ، ولن تضيق بك السبيل عند أمير المؤمنين ، وأنت بين طاعة سالفة واستقامة موروثة . . . " الخ (2) .

هذا كتاب ابن برد الى الثائر، أما كتاب ابن العميد الى ثائر آخر فمنه : " كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، واقبال عليك ، واعراض عنك ، فانك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة . . . ولا جرم اني وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدمك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لاصطلامك واجتياحك . . . فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت . . . . "(3)

ما الذي يجمع بين هاتين الرسالتين ؟ لاشيء على الاطلاق الا أن كلا منهما تخاطب ثائرا . فهل ينبغي أيضا ألا يثور ثائر بالمغرب الا تقليدا لثائر قلبه في المشرق ؟ وهذا نموذج جيد لبيان وهم التقليد الذي أصيب به بعض الدارسين فهم يرون أشباحه تطيف في كل ساحات الأدب الأندلسي . .

وبعد ايراد القطعتين ، ينتقل صاحب كتاب " الأدب الأندلسي . . . " مباشرة الى شيء آخر يمهد له بقوله : " ولا تصيب الرسالة الأندلسية أي تطور أو تغير ، بل تظل مصرة على السير في ركاب قرينتها المشرقية واقتفاء أثرها، لا يبدل الزمن من شكلها ،

---

(1) الكتاب المذكور ، ص : 571 .
(2) نفسه ، ص : 570 .
(3) نفسه ، ص : 571 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا الأحداث من موضوعها وأسلوبها ، وانما تظل أمينة على متابعة لطرائقها في المشرق تتعقب تلك منهجا وأسلوبا فتسرع هذه الى ملاحقتها ، وتوغل تلك تصنيعا وسجعا وجناسا فتزداد هذه حماسا الى التصنيع والسجع والجناس... "(1)

أهذا كلام يقال ؟ وكيف جعلت الرسالة الأندلسية على قالب لا يستطيع الزمن تبديلا ، مع أنها تلمست وراء أختها المشرقية ، تقلدها في كل " ذرة " تغيير تحصل لها . أما كان ينبغي أن يكون الأصل جامدا لا يتحرك ، حتى يبقى تقليده جامدا كذلك ؟

ويورد المؤلف بعد ـ ـ سابق رسالة للسان الدين بن الخطيب ثم يختتم بحكم من النوع السابق ، وينتقل الى " الرسالة الاخوانية " فيفتتح الحديث عنها بقوله : " مايقال عن الرسائل الديوانية يمكن أن يقال الى حدّ كبير عن الرسائل الاخوانية ، وها هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم .... يقلّد رسالة طريفة مشهورة لبديع الزمان الهمذاني ، يرفض (فيها) ودّ أحد الحكّام كان يتيه على الناس كبرا وترفعا ، فلما زال عنه السلطان ، طلب التودّد الى بديع الزمان ، ولكن بديع الزمان ذا المزاج الحاد يكتب اليه رسالة من الطرافة والسخرية والازدراء بحيث لا نملك إلاّ الاعجاب برشاقة أسلوبها ، ومرارة سخريتها "(2)

ونحن لا ندرى أولا ان كانت الرسالة حقّا كما ذكره هنا ـ وكما ذكره في كتاب آخر له (3) ـ في هجاء وال عزل عن سلطانه ، أم هي في غلام لم يَجُد يصلح للغزل ، وهذا ما فهمه ابن حزم ، وما فهمه ابن بسام حين قال في التمهيد لرقعته في كتاب " الذخيرة " : " وعرضت على أبي المغيرة رسالة بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه ودّه بعد أن عذّر ، وبقل وجهه وأزهر ، فعارضها برقعة يقول فيها ... "(4)

أما الرقعتان فلا تتركان مجالا للشك في أن الكلام الوارد فيهما لا يمكن أن يعني شيئا آخر ، غير المعنى الذى ذكره ابن بسام . ولا مجال حينئذ لقول المؤلف السابق عن الحاكم الذى كان يتيه على الناس كبرا وترفّعا !! ....

---

(1) الكتاب السابق ، ص : 572 .
(2) نفسه ، ص : 583 .
(3) كتاب " بديع الزمان الهمذاني " لمصطفى الشكعة ، ص : 220 (ط . عالم الكتب ، بيروت ، 1983) .
(4) ذ : 1/1 ، ص : 140 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكن دعنا من ذلك ، فان الأهم هو الروح المسيطرة ، والتي هي من قبيل " خلع الأبواب المفتوحة " . . . والا فما معنى أن يجهد المؤلف نفسه ، بحثا عن التشابه بين الرقعتين ، ليقول مثلا " وهكذا نجد أن ابن حزم عبدالوهاب يسير في ركب بديع الزمان ، وينسج على منواله حتى في هندسة الرسالة نفسها من ايغال في السجع ، وغلو في السخرية ، والحاح في الشماتة ، وتزيين الأسلوب بأبيات من الشعر . . . . أن رسالة ابن حزم لم تعدُ كونها تقليدا دقيقا لرسالة بديع الزمان ، شأن كل الرسائل النثرية الأندلسية التي لم تخرج عن كونها صدى دقيقا أمينا لرسائل كتّاب النثر الفني من المشارقة "(1) ما معنى أن يجهد نفسه هذا الاجهاد ، ورسالة البديع قد عُرضت على ابن حزم ، كما رأينا عند ابن بسام ، وطُلب منه أن يُعارضها ؟ وقد درسناها في سياق المعارضات ، في الفصل الأول من هذا الباب . فهي بداهة الحال تشبهها ، وتنسج على منوالها ، والا لما كانت معارضة !!

لكن الغريب أن صاحب كتاب " الأدب الأندلسي " يستنتج من هذه المعارضة المقصودة ، التي ظنها تقليدا أخذ وسرقة ، حكما مُطلقا ، لا يجوز منتسب الى العلم على اطلاقه هكذا وهو قوله السابق : " ان رسالة ابن حزم . . . . شأن كل الرسائل النثرية الأندلسية التي لم تخرج عن كونها صدى دقيقا أمينا لرسائل كتّاب النثر الفني من المشارقة " . ان كلاما من هذا النوع ليستغني ، في الواقع ، عن كل تعليق ، فانه يحمل في طياته من الرد على نفسه ، ما لا مزيد عليه . . . .

ليس قصدنا الى الرد على الاستاذ مصطفى الشكعة أو على غيره ، فذلك ليس من سياق هذا البحث ، لكننا وجدنا – ونحن نبحث عن مراجع هذه الدراسة – من التعميمات الخاطئة ، والخلط بين الدراسة الأدبية الجادة ، والاعراب عن الأحكام السابقة ، وتصديق الأوهام ، ما جعلنا نتناول هذا الموضوع ، بهذه السرعة ، من الجوانب التي تناولناها منه لمجرد بيان نوعية ذلك الخلط والغلط ، والتمثيل عليه بنماذج قليلة منه .

(1) " الأدب الأندلسي . . . " ، ص : 590 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذه قضية الأصالة التي أحببنا أن نثير بعض جوانبها ، كما فهمها نفر من الدارسين العرب المحدثين . وليتهم كانوا قاموا بتتبع دقيق للفنّ الأدبي في المشرق والأندلس، فبيّنوا كيف تنمو القوالب، وكيف تتطور الأفكار، وكيف يكون التعبير عن القيم المشتركة ، مما يكون ذا فائدة مؤكّدة في التأريخ الأدبي . وبيان مراحل التطور العام للحركة الأدبية في المغرب والمشرق . لكنهم ، للأسف ، تصوروا الأدباء كآلات التسجيل الحديثة التي يُطلَب الاستماع الى ما عندها ، فلا تُعطي الا ما هو مسجل فيها . وكأن الأديب الأندلسي تمثال من صخر ، لم يخلق الله فيه من معالم الآدمية الا القدرة على الحفظ ، ونسخ الصور المطابقة شكلا ومضمونا للأصل النموذجي الذي يلوح في المشرق .

والغريب انهم حين يحبون أن يمثلوا تمثيلا دقيقا لهذا التقليد الموهوم، لايجدون الا قوالب العبارة المسجوعة ، أو الأغراض الأدبية العامة ، وكأنه كان على الأندلس والمغرب وحدهما أن يشذا عن قاعدة تعبيرية عامة ، هي وليدة سياق حضاري لايمكن الوقوف في وجهه . فالسجع مثلا هو أحد هذه النتائج الحضارية ، ونحن نعتقد أنه لو لم يوجد في المشرق ، لأوجده الأندلسيون ، لأنه نتاج طبيعي للقاء بين الخصائص التعبيرية والموسيقية للغة العربية ، وبين ما يفترضه التطور الحضاري من تنميق ، وزخرفة ، بجانب ان البساطة والسذاجة القديمتين . ولقد أمكن للأندلسيين، أن تأتي هذه النتائج الحضارية في ملابسهم ، ومطاعمهم ، وعاداتهم ، وتنظيم جيوشهم ، مختلفة اما لأهل المشرق من كل ذلك ، ولكنهم في المجال الثقافي لم يخرجوا عن جوهر التعبير العربي ، لأنّ الجوهر الثقافي يمنعهم من ذلك . أما أن نظن أنهم في فكرهم ، وأدبهم ، وثقافتهم مجرّد نسخة لما هو موجود من كل ذلك في المشرق ، فسذاجة لاشيء في علم الاجتماع ، ولا في علم النفس ، ولا في واقع الأمر يشجعنا على قبولها من أصحابها ولو على سبيل المبالغة والغلو .

وفيما عدا ذلك فنحن لا ننظر الى المغرب والمشرق على أنهما كيانان حضاريان وثقافيان مستقلان متميزان بعضهما عن بعض . نعم ان لكلٍّ منهما ملامح شخصيته الأصيلة ، بل في كل منهما كيانات أقل منهما . لها أيضا من ملامح الشخصية المحلية مالها، ولكن هذه الأصالة لاتبلغ أبدا أن تجعلنا ننظر الى العلاقة بينهما ، في مقومات شخصيتهما الواحدة ، وفي أكثر مجالاتها تعبيرا عن وحدتهما . . . على أنها مسألة تقليد دائم من هذا لذاك .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والذي نظنه أقرب الى الحقيقة هو أننا حين درسنا النثر الأدبي الأندلسي، في واحد من أزهر عصوره، وأوفرها مادة، ووقفنا تلك الوقفات الطويلة عند مضامينه وأشكاله، لم نشعر أبدا بأننا نعالج أصداء تحكي صوتا تأتيها رنانة من بعيد، أو ترسم خُطًى لأُسْتاذٍ سار على ذلك النهج من قديم. ولعلّ الذى هيأ لبعض الدارسين أن يتوهموا مثل تلك الأوهام، أن بعض الأدباء الأندلسيين كانوا يريدون إظهار تَفَوّقِهم على اخوانهم المشارقة، في ميادينهم التي سبقوا اليها بالذات، وفي الموضوعات التي بُنِيَتْ عليها شهرتهم، فَظَنّ من ظنّ أن تلك النماذج القليلة التي كانت تأتي أحيانا في سـ ... معارضات، دليل على التقليد والاتِّباعِيَّة.

ان النثر الأندلسي أصيل أصالة أهله، يدل على واقعهم التاريخي، ويعبر عن حياتهم، ويستجيب لمقتضيات ظروفهم، فاذا كنا نعدّ مجرّد التعبير عنه بالعربية، أو بواسطة السجع، تقليدا، ومحاكاة، فذلك أمر آخر ...

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخلاصة

كان منهج البحث الذي سعينا الى الالتزام به في الفصول الماضية، قد اقتضى أن ننهي كلّ واحد من تلك الفصول بخلاصة مركزة، نضمنها أهمّ النتائج التي توصلنا اليها، والآراء التي استطعنا الخروج بها من الموضوع المطروق، فلا حاجة بنا الآن، اذن، الى أن نعيد الكلام في ذلك، أو أن نكرّره بكلمات أخرى، غير التي استعملناها أوّل مرّة.

أما الذي أحببنا أن نفرد له هذه الفقرات الختامية، فهو الوقوف عند عدد من النتائج العامة التي لم يكن يتأتى الوصول اليها الّا من خلال نظرة كلية شاملة، تأتي في نهاية البحث، وتدلّ على زبدة الرأي في أهمّ القضايا التي تناولها، والمسائل التي أثارها.

ولعلّه بإمكاننا أن نحصر كل ذلك في النقاط التالية:

1 — ظل النثر الأندلسي طوال قرنين من الزمن: الثاني والثالث الهجريين حبيس الاهتمامات الرسمية في معظمه، لا يكاد يتجاوزها، الا على استحياء، الى ميادين قليلة، ليست هي نفسها عديمة الصلة بتلك الاهتمامات، أو بما يكون صدى لها، أو متفرعا عنها، لدى فئات معينة من المجتمع. وقد كانت حركة النثر تزداد نشاطا وتكتسب المزيد من عناصر القوة، بتقدم الدولة الاموية، وازدهارها، حتى ليسعنا القول بأن تقدم النثر الأدبي خلال القرنين المذكورين كان "منحة" من الحكّام الامويين، واكب رقيّ دولتهم، وساير مراحل تقدمها على درب القوة والازدهار.

2 — ثم كان القرن الرابع، فبلغت فيه تلك الدولة أوج عزها، وعنفوان قوتها، فاستجاب النثر لمقتضياتها التشريعية والتنظيمية، فتنوعت نصوصه، واختلفت صيغها باختلاف طبيعتها. وقد انعكست على صفحته آثار الازدهار الحضاري، فتجلت، بخاصة، في جنوحه الى رقة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المباني ، وعمق المعاني ، والانحياز الملحوظ الى ناحية التأنق ، والسعي الى إحكام الصنعة ، والأخذ بحظ ما من الزخارف اللفظية .

وبالجملة ، فقد فارق النثر بساطته البدوية ، واعرض ، نهائيا ، عن تقشفه الذي كان من صفاته المميزة له ، على الأغلب ، في الفترات السابقة .

3 — ولعلّ خير ما يصلح به على هذا القدر الذى أحرزه النثر من التقدّم : الانطلاقة الملحوظة لتلك الحركة التدوينية الواسعة ، التي لاحت تباشيرها منذ مطالع القرن الرابع ، والتي دخل النثر بموجبها عهدا حضاريا ممتازا ، وحقق بها واحدة من أهمّ طفراته على درب نضجه واكتماله . ذلك أن دوره حينئذ قد تجاوز ، بكل تأكيد ، مجرّد النهوض بمهامّ اعلامية ظرفية — كما كانت حاله طوال العهد السابق — ودخل مجالات التعبير عن النضج العقلي ، الذى تحقّق للأمّة ، وبدت ثماره الطيبة في تلك المعارف المتنوعة التي هبّ المثقفون الى التأليف فيها ، كلّ في الميدان الذى تفرغ له .

4 — ولكن ما تحقق للنثر ، في هذا الميدان ، على جلاله ، لا ينبغي أن يصرفنا عن الاشادة بذلك الانتصار الذى تحقق له في ميدان آخر ، والذى لعلّه لا يقلّ عنه أهمية ، ان لم يفقه ... وهو على كلّ حال يأتي كالموازي له . فاذا كانت حركة التدوين تدلّ على نضج العقل ، واقتداره على تمثل المعارف والتّوق الى تجاوز مجرّد الافادة من رصيدها ، الى الرغبة في تنميته ، والمشاركة في دفعه نحو المزيد من التقدم والارتقاء ، فان النثر في هذا العصر قد دخل مجالات التعبير الوجداني ، وحاول النهوض ببعض جوانب الأدب الغنائي ، الذى ظلّ حكرا على الشعر ، لا يرقى النثر الى مزاحمته فيها . وبذلك حقق الانشاء النثري هذه النقلة الواسعة التي عبرت به الى ضفة أخرى من بحسر وظائفه ، وأتاحت له بذلك أن يغدو أداة متكاملة الجوانب ، قادرة على التعبير عن كل مشاغل النفس البشرية : تبلّغ المعلومات ، وتُكسب المعارف ، وتترجم الحساسيات العاطفية .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وهكذا نستطيع أن نقول ان النثر في القرن الرابع قد زحف على ثلاث جبهات متباينة :

- الأولى هي مواصلة النهوض بالاعباء الاعلامية ، ولكن مع ملاحقة التطور الذى فرضه الازدهار السياسي للدولة ، وما نتج عنه من مقتضيات النشر ، والتشريع ، والتنظيم ...
- والثانية هي ولوج مجالات التعبير عن العواطف ، ونقل الاحاسيس ، ورصد التموجات النفسية عن أنواع الانفعالات .
- والثالثة هي المتمثلة في تلك الحركة التدوينية الواسعة التي امتدت آثارها الى معظم مجالات المعرفة التي بلغتها الانسانية وقتئذ .

5 — على أن عهد النثر الأدبي في الأندلس ، هو القرن الخامس دون منازع ، فقد مهدت أمامه السبل جميعها ، وانبسطت له الطرق والدروب ، حتى لم يبق ميدان من ميادين التعبير عن اتجاهات العقل ، ومطالب الروح ، ومشاعر القلب ، الّا دخله ، وضرب فيه بسهم وافر .

ويكفي برهانا على ما استطاع الانشاء النثري أن يحققه من المكاسب ، في ميادين القلب نفسها ، وهي التي كانت أبعد عنه من أىّ شيء آخر ، أن كبار شعراء هذا العصر ، من أمثال ابن خفاجة ، وابن زيدون وغيرهما أخذوا يستخدمون النثر فيما كان الشعر وحده يُستَخدَم فيه . وكأنما أضحى الشعراء يحسون بأن النثر أوسع لأداء ما في نفوسهم من ضروب المشاعر ... وتلك علامة أخرى من علامات تطوره الكبير في هذه المرحلة من مسيرته .

6 — ولقد أتيح للأدباء ، خلال هذا القرن الخامس ، من ظروف العمل ، ووسائل التشجيع المادي والمعنوي ، وعناية الأمراء بهم ، وتنافسهم عليهم ، ما أتاح لأكثرهم أن يؤثروا ، تأثيرا مباشرا ، في مجرى الحياة العمومية . ذلك انهم كان منهم الوزراء ، والكتاب ، والمستشارون ذوو الكلمة المسموعة ، في أغلب الحالات .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكان ما بلغه البعض من سعة في الثروة ، واتساع في الصيت ، دليلا على المكانة المرموقة التي نالوها لدى الأمراء الحاكمين .

7 — ولئن كان الأدب النثري الأندلسي قد عبر تعبيرا ملحوظا عن صلة الأدباء الكتّاب بصفة خاصّة ، بالدوائر الرسمية ، وأوساط الحكم ، وعبّر بكلّ وضوح عن اهتمامات الحكّام ، ونقل الينا دقائق مدققة عن ظروفهم في السلم والحرب ، فانه من الخطأ أن نظنه ... كان بعيدا عن الشعب ، أو قليل الاصغاء الى الأحداث التي كانت تهز أركان المجتمع .

والحق أن كثرة ما عالج النثر الأدبي من حالات المجتمع ، وأوضاعه المختلفة تجعله أقرب الى مفهوم " الشعبية " منه الى مفاهيم " الارستقراطية " .

ولقد عانى الأدباء نفس المحن التي عاناها الشعب الأندلسي في أقاليمه المختلفة ، واصابهم من الأذى نصيب وافر ، فوصفوا وصفا داميا تلك الأحداث الجليلة التي كانت تكدّر عيش الناس ، وتسلبهم وسائل الامن والدعة ، وتلقيهم بين مخالب أعدائهم الظافرين .

8 — وكما عبر الانشاء النثري عن تفاهة بعض التصرفات الانسانية ، وحقارة بعض النماذج البشرية التي لا يصدها شيء عن تمريغ الكرامة ، والتضحية بكل المثل العليا من أجل الكسب السهل ، والحصول على الغنائم الباردة ... فلقد عبر ، مرارا لا تحصى ، عن نبل المشاعر التي تمنح الانسان أبعاد آدميته الحقيقية ، وترفعه الى تلك المدارج السامية التي تتضاءل أمامها أضخم المكاسب المادية ...

ويمكننا أن نعد ، من قبيل هذا التسامي ، تلك الحركة التضامنية المكثفة التي جعلت الأدباء يسعون الى تسخير جاههم ، وبلاغة أقلامهم في الشفاعة لطوائف مختلفة من البائسين ، والمحرومين ، والذين تنكرت لهم الأيام ، وأظهرت لهم وجه العبوس .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

9 ــ ولكن حياة الأندلسيين لم تكن كلّها على هذه الوتيرة من البأساء والضراء، فكم صفت الأيام لبعضهم ، وكم أشرقت لهم فيها من شموس، وكم نالوا من طيباتها، وأصابوا من لذائذها ، والأحوال مواتية ، والدنيا تمد لهم في حبل الامان . . . فعبر الأدب تعبيرا مؤثرا عن "فرحة الحياة" وعن " لذة العيش" ، ووصف أوقات الهناء والسرور ، وعبر عن كل ما يختلج في نفوس أولائك الأدباء من احساس متدفق بالجمال ، وقدرة على الانفعال بكل مظهر من مظاهره .

10 ــ وكيفما كانت ضخامة الجهود التي بذلت في احكام " صنعة المضامين"، واتقان فنون التصرف في المعاني ، فان مابذل منها في " صنعة الاشكال " جديرة هي الأخرى بالتنويه والاشادة .

والواقع أنه اذا كانت طائفة من الكتاب تتفق ما عندها من البراعة في تنويع التراكيب والمباني ، وحذق الصياغات المباشرة من الأداء الانشائي ، فان مجموعة من الأدباء الناثرين ، ومن جلتهم ، وأحقهم بالعناية والتقدير ، كانوا فيما يشبه حالة دائمة من حالات البحث عن القوالب المستطرفة للتعبير من خلالها . وقد كانت تلك الجهود تثمر لديهم أنواعا من الطرائق التعبيرية ، وأساليب الأداء ، تنبيء كلها عن فهم مؤكد لمدى الفوائد الفنية التي تُجنَى من طَرْق تلك الأبواب ، والإعراض عن أنماط التعبير " الخطي " المباشر .

واذا لم تثمر تلك الجهود ما كنا نتمنى أو نتوقع لها من الاضرب الراقية، فلم تعدُ أكثرها حدود البساطة ، ولم يتحقق لها الا في النادر ، ما يستلفت الانتباه ، فان لأولائك الكتّاب ، على كل حال ، فضل السعي الدائب ، والطموح الى ارتياد تلك الآفاق الفنية ، والتجول في أنحائها المجهولة . والذي هو أهم من كل ذلك وضوح الرغبة في الإطّراف ، وارادة الحصول على المبنى الجديد .

11 ــ ولعلّ الذى هو حَرِيّ بأن ينسينا سذاجة بعض تلك المحاولات، ما كان لبعضٍ من أصحابها ، ومن غيرهم ، من قدرة على صوغ معالم الفن الرفيع ، وهم يحوكون النسيج الداخلي لنصوصهم النثرية . وكم كانت بعض نماذجهم الناجحة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تحوي من أساليب المهارة البادية في نعومة ألفاظها ، وشفافية صيغها ، وجودة سبكها ، وعذوبة أنغامها ، وكل ذلك في جزالة تركيب ، وجلالة سياق، تنبيء بمقدار ما تحقق للغة الضاد ، في هذا العصر، من دقّة في الأداء ، ورشاقة في التعبير .

والحق أن بعض الأدباء كانوا ينشؤون رقاعهم ، فتخرج من بين أيديهم كما يخرج الشاعر الفحل قصيدته العصماء ، بل كما تنتهي لوحة الفنان الموهوب في مرسمه المزدحم بعرائس الالهام .

12 — وخلاصة الخلاصة عندنا أن النثر الأندلسي ، في القرن الخامس، يمثل بمضامينه وأشكاله قمة عالية من الابداع الفني الحقّ ، وذروة شامخة من ذُرَى الجهد الخلاق الذي بدى لنا ، في تلك الظروف العسيرة التي كانت تجتازها الأمة كلّها ، في كل أرجاء بلادها ، وكأنه علامة من علامات المقاومة الأدبية ، عن طريق التمسك بأصالة الفنّ .. لقد عبّر الأدباء اللاّمعون ، بانشائهم عن ضمير الأمة ، وأعربوا عن مكنون الصدور ممّا لم يستطع الحكام المتخاذلون أن يمتدوا الى بلوغه ، أو تحقيق القدر اللازم منه لحماية الأمة ، والمحافظة على الوطن .

وحين مضى وانقضى كل شيء ، بقي الأدب شاهدا على ماكان ، وذلك سرّ الخلود في الفنّ .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنـــواع الفـهـــارس

الصـفحـــة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أولا :

فهرس الأعلام البشرية :

(الرجال ، والنساء ، والقبائل ، والأمم ، والطوائف ، والأديان ، الخ . . .)

تنبيه : كان أكثر تعويلنا في الاعلام البشرية على ما بعد " ابن " .

فالبحث عن (أبي محمد عبدالمجيد بن عبدون) مثلا ، ينبغي أن يكون في (عبدون) أى في " عـ " . الا أن يكون واسع الشهرة بلقبه كـ (الجاحظ) ، فيبحث عنه في " جـ " ، أو أن تكون شهرته باسمه الشخصي ، كالامام (علي بن أبي طالب) فيبحث عنه في علي) حرف " عـ " .

أما الملوك والأمراء فيبحث عنهم بواسطة ألقابهم الرسمية . فـ (المعتصم) في " مـ " و (الظافر) في " ظ " وهكذا . . .

ومن المعلوم أن الاسم الذى يرد في الصفحة الواحدة مرات عديدة ، لا نذكره فيها الا مرّة واحدة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأعلام البشرية

ـ أ ـ

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— ن —

— هـ —

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثامنا :

فهرس الاعلام الجغرافية

(الأماكن والبلدان ، والمدن ...)

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثالثا :

فهرس المقطوعات النثرية .

(مرتبة حسب أسماء أصحابها) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

* * *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكلمة الأولى .	الكلمة الأخيرة .	البحر .	الشاعر .	الصفحة
	ـ ب ـ			
أعاتب	اجتناب	الوافر	؟	335
* ويبقى	العتاب	"	"	337
أذا تلت	تراب	الطويل	المتنبي	603
انا الشمس	الغرب	"	ابومحمد بن حزم	103
	ـ د ـ			
هذا المقام	البلد	البسيط	البلوطي	107
سقط	باليد	الكامل	النابغة	553
* جمعت	الاكباد	"	ابن عبد البر	310
أين الخدود	التاسد	"	ابن الرومي	396
شمس	واحده	"	ابن حسداي	555
وكن	بالمحاجر	الطويل	ابن أبي ربيعة	608
من الاولى	المكر	البسيط	المصري	389
	ـ ر ـ			
ماذا تقول	شجر	البسيط	الحطيئة	262
حدق الحسان	وتحار	الكامل	الجزيري	163
* لاهم	الداري	رجز	؟	452
	ـ س ـ			
ضحك	بالتأنيس	الكامل	أبومحمد غانم	242
	ـ ق ـ			
خليلي	خلوق	الطويل	ابن عمران	544
	ـ ل ـ			
لله	يارسول	الكامل	ابن طاهر	295
فكيف	لقلبي	الطويل	المتوكل بن الافطس	33

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— م —

— ي —

حذه العلامة : (*) تدل على اسار الأبيات

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

خامسا :

فهرس الكتب

المذكورة في متن البحث

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— المغرب في حلى المغرب: 408 ، ابن سعيد	427	— هـ —	
		— المجفجف بن غدقان .. أبو العلاء صاعد البغدادي	73
— ن —			
— الناسخ والمنسوخ .... قاسم بن أصبغ	171	— ي —	
— نوادر اللغة .. القالي ابو علي	171	— يتيمة الدهر .... الثعالبي أبو منصور .	499

* *

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سادسا :

فهرس المراجع والمصادر

(وهو مرتب حسب الحرف الأوّل في عناوينها)

تنبيه :: اكتفينا بأمّهات الوثائق التي استفدنا منها ، أو رجعنا اليها أكثر من مرّة .

أما المنشورات الأخرى فقد ذكرنا بعضها في هامش البحث عند مناسبة الاخذ منها ، أو الاشارة اليها .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— أ —

ابن حزم الأندلسي : لعبد الكريم خليفة
دار العربية للطباعة والنشر ..... بلا تاريخ .

ابن زيدون : للدكتور شوقي ضيف .
دار المعارف ، مصر 1979 .

ابن شهيد الأندلسي : حياته وآثاره : لشارل بلا .
منشورات الجامعة الأردنية .

ابن شهيد : رسالة التوابع والزوابع : لفؤاد افرام البستاني .
(سلسلة الروائع) ، بيروت 1981 .

ابن عبد ربه وعقده : جبرائيل جبور .
دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، 1979 .

احكام صنعة الكلام : ابو القاسم الكلاعي ، ابن عبد الغفور .
تحقيق : د / رضوان الداية . دار الثقافة ، بيروت ، 1966 .

اخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السلفي)
تحقيق : د / احسان عباس ، بيروت ، 1963 .

الأدب العربي في الجاهلية والاسلام الاستاذ ، عمر رضا كحالة .
م . التعاونية ، دمشق ، 1 .

الأدب العربي في الأندلس : د / عبد العزيز عتيق .
دار النهضة ... بيروت ، 1976 .

الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة : د : أحمد هيكل .
دار المعارف ، القاهرة : 1970 .

الأدب الأندلسي : موضوعاته وفنونه : د / مصطفى الشكعة .
دار العلم للملايين ، بيروت ، 1983 .

أدب المغاربة والأندلسيين ..... : الأستاذ : محمد رضا الشبيبي .
مطبعة الرسالة ، 1961 .

أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث : بطرس البستاني .
دار مارون عبود ، بيروت ، 1979 .

أسرار البلاغة : .... لعبد القاهر الجرجاني .
بتعليق الأستاذ المراغي ، مطبعة المكتبة التجارية الكبرى .

اشبيلية في القرن الخامس الهجري : د / صلاح خالص .
دار الثقافة بيروت .

الاعلام .... الاستاذ : خير الدين الزركلي .
الطبعة الثالثة .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— ب —

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب : ابن عذارى المراكشي .
دار الثقافة ، بيروت (تحقيق ليفي بروفنسال) .

— ت —

تاريخ الأدب الأندلسي : د / احسان عباس .
جزآن ، دار الثقافة ، بيروت ، 1962 .

تاريخ الأدب العربي في الأندلس : د / ابراهيم علي أبو الخشب .
دار الفكر العربي ، القاهرة .

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : الاستاذ : يوسف أشباخ .
ترجمة الاستاذ عبدالله عنان ، الخانجي : مصر ، 1958 .

تاريخ علماء الأندلس : ابن الفرضي .
الدار المصرية . . . 1966 .

تاريخ الفكر الأندلسي : غنثالث بالانثيا .
ترجمة د / حسين مؤنس ، القاهرة ، 1955 .

تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة الع . .) ابو الحسن النباهي .
تحقيق ليفي بروفنصال . . . ب التجارى ، بيروت .

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : د / م . رضوان الداية .
مؤسسة الرسالة ، بيروت .

— ج —

جذوة المقتبس . . . . : الحميدى .
الدار المصرية للتأليف . . . . 1966 .

جمهرة أنساب العرب . . . . : ابن حزم الأندلسي .
دار المعارف ، مصر ، 1977 (تحقيق ليفي بروفنصال) .

— ح —

الحلة السيراء . جزآن) : ابن الأبار .
الشركة العربية . . . . . مصر ، 1963 .

حياة وآثار الشاعر الأندلسي : ابن خفاجة : حمدان حجّاجي .
الشركة الوطنية . . . . . الجزائر ، 1982 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— خ —

خريدة القصر وجريدة العصر ، للعماد الاصفهاني .
(قسم شعراء المغرب والأندلس) : الدار التونسية ، 1971 .

— د —

دراسات في الأدب الأندلسي : د / سامي مكي العاني .
بغداد ، 1978 .

دولة بني زيري ، ملوك غرناطة : الاستاذ : اسماعيل العربي .
ديوان المطبوعات .... الجزائر ، 1982 .

الدولة العربية في اسبانيا : من الفتح الى سقوط الخلافة : د /ابراهيم بيضون .
دار النهضة العربية، بيروت ، 1980 .

— ذ —

الذخيرة في محاسن الجزيرة : لأبي الحسن بن بسّام .
تحقيق د / احسان عباس ، الدار العربية للكتاب .
(الأقسام الثلاثة على بشكل خاص) .

— ر —

رسائل البلغاء : الاستاذ : محمد كرد علي .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة .

رسائل الجاحظ : الاستاذ حسن السندوبي .
المطبعة الرحمانية ، مصر ، 1933 .

— ز —

زهر الآداب ، وثمر الألباب : ابو اسحاق الحصري .
(جزآن) دار احياء الكتب العربية ، 1953 .

— ص —

صبح الأعشى في صناعة الانشاء : القلقشندي .
طبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر .

الصناعتين (كتاب —) : أبو هلال العسكري .
تحقيق الاستاذ البجاوي وزميله : دار احياء الكتب .... 1952 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

— ظ —

ظهر الاسلام (الجزء الخاص بالأندلس) : الاستاذ أحمد أمين .
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1966 .

— ع —

العقد الفريد .... : لابن عبد ربه ،
دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1933 .

— ف —

فصول في الأدب الأندلسي : د / حكمت علي الأوسي ،
مكتبة النهضة بغداد .

الفن ومذاهبه في النثر العربي د / شوقي ضيف ،
دار المعارف بمصر .

في الأدب الأندلسي : د / جودت الركابي ،
دار المعارف بمصر ، 1966 .

قرطبة : حاضرة الخلافة في الاندلس : د / سيد سالم ،
(جزآن) دار النهضة العربية 1961 .

قصة الأدب في الأندلس : عبدالمنعم خفاجي ،
(5 أجزاء) مكتبة المعارف ، بيروت ، 1962 .

قلائد العقيان : الفتح بن خاقان :
مطبعة التقدم العلمية (ط ـ 1) 1320 هـ .
وطبعة بولاق ، 1376 .

— م —

المثل السائر ...... ابن الأثير ،
(جزآن) شركة ومطبعة مصر ، 1939 .

مذكرات الأمير عبدالله : الأمير عبدالله الزيري ،
تحقيق ليفي بروفنصال ، دار المعارف ، 1955 .

المعجب في تلخيص اخبار المغرب : عبدالواحد المراكشي ،
تحقيق الاستاذ : سعيد العريان ، منشورات الازهر بمصر .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

معجم الأدباء .... : ياقوت الحموى ،
مطبوعات دار المأمون .

المعجم الأدبي ...... د / جبور عبد النور ،
دار العلم للملايين ، بيروت ، 1979 .

معجم البلدان .... : ياقوت الحموى ،
دار صادر ، بيروت ، 1979 .

المغرب في حلي المغرب ..... : لابن سعيد ،
تحقيق : د / شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، 1964 .

المقتبس في أخبار بلد الأندلس : أبو مروان بن حيّان ،
(جزء منه) تحقيق الاستاذ عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، 1965 .

النثر الفني في القرن الرابع الهجرى : د / زكي مبارك ،
المكتبة التجارية الكبرى ، 1957 .

النثر الفني وأثر الجاحظ فيه : الاستاذ عبد الكريم بلبع ،
مكتبة الانجلو المصرية ، 1955 .

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، .... المقرى ،
تحقيق د / احسان [illegible]س ، دار صادر ، 1968 .

النقد المنهجي عند العرب : د . [illegible] د مندور ،
مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، 1943 .

— و —

وفيات الاعيان .... : ابن خلكان .
تحقيق د / احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

— ي —

يتيمة الدهر : ابو منصور الثعالبي ،
تحقيق د / مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1983 .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مراجع باللغة الفرنسية .

- L'ESPAGNE MUSULMANE AU Xème Siècle
  (Institutions et Vie Sociale).
  - E.Levy- Provencal, (1932).

- La Civilisation Arabe en Espagne
  E. Levy-Provencal-
  Le Caire 1938.

- Encyclopédie de l'Islam.
  Articles Divers. G.P.- MAISONNEUVE et Larose NA 1975

- Histoire des Musulmans D'Espagne
  (T:III netamment)
  R. Dozy Brill 1932.

- L'Occident Musulman et la civilisation Arabe Hispanique
  E. Levy-Provencal.

- La Poésie Andalouse En Arabe Classique au XIème Siècle
  Henri Peres .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مـــــحـتويـــات الـبـحـــث :

(المخطط التفصيلي للدراسة) .

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٢٨٤٤٦٥

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit